فريق من الباحثين

علم النفس وميادينه

من فرويد إلى لاكان

ممارسة علم النفس ونقده

ترجمة

وجيه أسعد

الدار المتحدة

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

علم النفس وميادينه

الطبعة الثانية

١٩٩٣ م - ١٤١٤ هـ

الدار المتحدة للطباعة والنشر

سورية - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي رقم ٣٧
هاتف - ٢٢٧٧٣ - ٢٢٦٤٤٣ - ص.ب ١١٧٢١ - برقياً: بيوشران - تلكس ٤١١٥٢٩

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف، ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب، ٧٤٦٠ برقياً، بيوشران

مقدمة المترجم

الحقيقة أن دافعنا الأول لنقل هذا الكتاب ،(علم النفس وميادينه)، إلى العربية يكمن في أن نزوّد القارىء العربي بالمراجع الرئيسة في علم النفس . فهذا الكتاب حلقة من حلقات السلسة التى بدأناها بـ (الانتصارت المذهلة لعلم النفس الحديث) و (انتصارات التحليل النفسي) و (المرأة بحث في سيكولوجية الأعماق) ، الخ .

والدافع الثاني يتمثّل في أن هذا الكتاب تسوده ثلاثة اتجاهات رئيسة :

الأول ـ يشهد المرء ، في العديد من بلدان العالم ، نمواً هائلاً في علم النفس ، خلال العقود الأخيرة من هذا القرن على وجه الخصوص ؛ فقد برز طلب شديد على المعارف السيكولوجية مصدره جمهور الناس ، وبرزت استجابة كثيفة مصدرها علماء النفس ، وركّزت وسائل الإعلام على المشكلات السيكولوجية ، واشتركت السينما والدعاية والإعلان في الإفادة من هذه المعارف . بيد أن هذا الكتاب ،(علم النفس وميادينه) ، لا يتوخّى أن يقتصر على تقديم المعارف السيكولوجية . فالباحثون الذين اشتركوا في تأليفه ، وتحدّثوا من موقع الخبير الذي يساهم في إنشاء اختصاصه ، لم يعرضوا ممارسة علم النفس والإنجازات التي حقّقها فحسب ، بل كان ثمة سؤال يوجّه بحوثهم في ميادينه المختلفة ، رسموه في مقدمة الكتاب : هل ثمه تحرّر بفضل علم النفس ؟ ذلك أمر دعاهم إلى أن ينتقدوا علم النفس في

ممارسته ، وتوّجوا كتابهم بفصل أطلقوا عليه عنوان « علم النفس موضع التساؤل » .

والثاني ـ على علم النفس أن يكون قادراً على أن يرفع القناع عن الموجود الإنساني ، وأن يدركه في أصالته وحقيقته ، وأن يفهمه في خصوصية وجوده ونوعيته . وعندئذ ، عندئذ فقط ، يكون بوسع علم النفس أن يقدّم خدماته إلى الإنسان .

والثالث ـ يتشعّب علم النفس في فروع كثيرة ويتعدّد بتعدّد الاختصاصات المتنامية ، وعلى وجه الخصوص في العلوم الإنسانية المتسارعة التطور .

فهل ثمة جذع مشترك تتشعّب منه الفروع المتعدّدة لعلم النفس واختصاصاته الكثيرة ؟ هل هناك ما يسمّى علم النفس الأساسي تنطلق منه هذه الفروع و الاختصاصات وترتكز عليه ؟ تلك هي المحاولة العلمية الجادّة ، التى باشرها الباحثون مؤلفو هذا الكتاب ، « علم النفس وميادينه » ، في تأسيس علم النفس الأساسي الذي يبحث البنى النفسية العامة والأنماط الأساسية لحضور الإنسان في عالمه .

هذه الاتجاهات الثلاث التي تسود تأليف هذا الكتاب تجعله متميزاً من غيره من الكتب الأخرى التى عالجت ميادين علم النفس ، وتجعل قراءته متعة ، على الرغم من أنه يعالج مسائل نفسية في منتهى الدقة .

ونحن نقدم كتاب « علم النفس وميادينه » ، في طبعته

الثانية ، إلى القارىء العربي ، بعد أن أعدنا النظر في صياغته ليكون أسهل منالاً .

١٩٩٢/٧/١٠م

وجيه أسعد

بعض التوجيهات العامة

لقراءة الكتاب

على القارىء أن لايشعر بأنه ملزم بقراءة هذا الكتاب حسب الترتيب الذي عرضناه به : فبوسع القارىء ، وإن كان الكتاب يعرض (ميادين) علم النفس ، أن يتفحّصها إذ يسلك سبلا يشقّها هو نفسه تبعاً لاهتماماته ، وتبعاً لعدم التساوي في صعوبات الفهم حسب الفصول . فقراءة هذا الكتاب ممكنة وفق ضرب من الكثرة في الأبعاد .

ولتسهيل هذه القراءة ، سلكنا بحيث يكون كل فصل ، وكل مستوى في هذه الفصول ، ذا استقلال نسبي . وثمة مع ذلك ضرب من التدرّج : فالمستوى الأول مستوى وصفي بصورة عامة ، في حين أن المستوى الأخير مستوى تأملي ونقدي بالحري .

وسيبين لنا ، مع ذلك ، أن استقلال شتى الفصول لايكافىء ضرباً من الانغلاق : فقد ألححنا على علم التربية دون أن نمتنع عن العودة الى بعض الموضوعات الأساسية التي توجّه الكتاب ، وتكوّن (ولماذا نخفي ذلك ؟) ضرباً من اتّخاذ المواقف من جانب الفريق الذي اشترك في تأليفه ، وتكوّن هذه الموضوعات لازمات حقيقية لاغنى عنها لفهم علم النفس المعاصر ،على الرغم من الانزعاج الذي قد يعانيه بعض القراء (موضوعات عدم التكيّف والسواء ، ووظفية علم النفس

وعلماء النفس في مجتمعاتنا ، الخ) .

وثمة قراءة (لولبية) ، فائدتها تكمن في أنها ترسم نفسها بنفسها لا في أنها تتلقّى نظاماً مسبق الصنع ومتكوّناً ، يمكنها أن تحلّ محل قراءة خطّية .

ويزداد النصح بهذه القراءة (اللولبية) بمقدار ماتنطوي الفصول والمستويات على تباين في الصعوبات : فقد يتعثّر القارىء في قراءته ، حسب معارفه ، وعلى وجه الخصوص بفهم نتاج لاكان ، وعلم النفس الأساسي ، ومشكل الضعف العقلي ، والبنيوية ، الخ . ولكي يبلغ القارىء هذا الفهم ، فإنه سيجد في هذا المؤلّف أمثلة كثيرة من عرض الحالات .

يضاف الى هذا أن ثمة فارقاً في الأساليب ، ناشئاً من مشاركة كل مشارك في تأليف هذا الكتاب ، قد يبين للقارىء في بعض الأحيان : ولايكوّن هذا الفارق حاجزاً من الحواجز ، بل يكوّن بالحري إضاءة جديدة للموضوعات الأساسية ، ذلك أن الكتاب يحافظ على ضرب من وحدة المشروع عبر تنوّع الأساليب(*) .

وينبغي لهذا الكتاب أن لا يكوّن غير مرحلة ، غير ضرب من الدعوة الى السفر ، وعلى القارىء أن لايقف عند هذا الحد . فالحقيقة لاتنبعث إلاّ من المعركة والمواجهة . والسطور التي تلي معرفة إيجابية متخثّرة . إنها تتطلّب من القارىء ملاحظات وانتقادات واعتراضات ، بالمراسلة عند الاقتضاء . وسيكون لكل قارىء على الأقل إمكانٌ مفاده أن يوجد في مواجهة النص .

(*) الأسلوب العربي الخاص بالمترجم يوّحد أساليب المشاركين في النص الأصلي « م »

تصدير

كنا قد أنهينا كتابنا باستفهام انصبّ على السير الوظائفي القادم لعلم النفس ، وروينا فكرة كانغيلم : « الفيلسوف يمكنه أن يتوجّه الى عالم النفس على صورة نصيحة في التوجه ـ ولم يكن ذلك مألوفاً من قبل ـ ويقول : عندما يخرج المرء من السوربون عن طريق شارع سان جاك ، يمكنه أن يصعد أو ينزل . فاذا سار صاعداً ، اقترب من البانتيون(*) وهو مبنى لبعض الرجال العظام . أما إذا سار نازلاً ، فإنه يتوجّه بالتأكيد نحو دائرة الشرطة » . وليس من غير المجدي أن نتساءل عما إذا كان علم النفس لا يزال موجوداً عند ملتقى الطريقين ، أو أنه قد دلف الآن في أحد هذين الدربين . ولكي نجيب عن هذا السؤال ، سننظر بصورة أساسية في الممارسة السيكولوجية الراهنة : تطبيق الطرائق ، وإخضاع السلوكات لعلم النفس ، بل إخضاعها للطب النفسي .

١ـ هل ثمة تحرر بفضل علم النفس ؟

يشهد المرء ، منذ السبعينات ، نموا هائلا في أهمية علم النفس وفي نفوذه . فقد برز ، من جهة ، ضرب من الطلب الشديد جداً على المعارف السيكولوجية مصدره جمهور الناس ، وبرزت استجابة كثيفة جداً مصدرها علماء النفس من جهة أخرى . وركّزت المجلات المخصصة للجمهور الكبير على المشكلات السيكولوجية (العلاقات في

(*) صرح بباريس في الحي اللاتيني ، بني ليحل محل كنيسة القديسة جنفيف ، وهو مخصص ليضم رفات العظماء . انتهى بناءه عام ١٨١٢ « م»

كنف الثنائي والمشكلات بين الأبناء والآباء) تركيزاً متزايداً ، بل إن محطات الإذاعة على وجه الخصوص كرّست ، وقد فطنت الى سوق مثمرة ، أجزاء كبيرة من مواقيتها إلى مشكلات الحب والجنس ، الخ ، الأمر الذي جعل غاتاري يقول : « بحيث أن الأمور انتهت الى أن شخصاً مثل ميني غريغوار يشارك في الأجهزة الجديدة لطب الأمراض النفسية » . ثم انقضت السينما ، المسماة السينما الخلاعية ، على مجتمعنا الليبرالي(المتقدم) . ويبدو إذن أننا ، بصورة عامة ، شهدنا ضرباً من رفع الكبت يمسّ ما كان يبدو الأكثر اتصافاً بأنه أساسي في رأي فرويد ، أي الجنسية . والمرء يمكنه أن يعتقد بأن الانسان الغربي اكتسب على هذا النحو معارف حول ذاته تتيح له ضرباً من التحرّر ، أو تتيح له على الأقل إدراكاً أفضل للحتميات السيكولوجية التي تضغط عليه .

. يضاف الى هذا أن عدداً كبيراً من الطرائق(الجديدة) ظهرت لتلبية الطلب : الطاقة الحيوية ، والتحليل في الزمر الصغيرة ، وتحليل التفاعل المتبادل ، وحركة الطاقة البشرية الكامنة ، وعلم الجنس ، الخ ، هذا من غير أن نتكلم على طريقة ذات انتشار واسع في الولايات المتحدة حالياً ، وهي ضرب من التأليف بين بافلوف وواطسن ، « علاج السلوك » . (والقارىء يمكنه ، حول هذا الموضوع ، أن يقرأ الفصل الخامس عشر من كتاب لوره ولازيرا : التعذيب الحقيقي ، ص ٢٠٣ إلى ٢٢٥) .

وأخيراً ، تعرّف الفرنسي ، في حياته اليومية ، على جميع ضروب التطبيق في علم النفس : فالمربون في مجال التربية المعادة للأطفال ، وعلماء النفس ، عديدون في المدرسة من الآن فصاعداً . ووظيفة عالم النفس أصبحت مما لا غنى عنها في المصنع ، حتى ولو أنه لا يُمنح دائماً تسمية عالم النفس . وأصبح الإعلان في التلفزيون كاسحاً ، وما كتبناه حول الدعاية يتّصف من الآن فصاعداً بأنه واقع لا يخفيه أي شخص من الأشخاص : ثمة دراسة لسوق الرجال السياسيين ، وتُباع

فرنسا كما يباع أي نتاج آخر .

ويوسعنا الاستنتاج إذن أن علم النفس لم يعد أسطورة ، بل هو واقع يومي . ولكن هل يمكننا القول لهذا السبب إن تحرّرنا يتناسب بصورة مباشرة مع التوسّع في علم النفس ؟ وإن حريتنا تزداد بمقدار ما يوجد علم النفس ؟ إننا لا نستطيع ، في الإطار الضيق لهذه المقدمة ، أن ننظر في جميع ميادين علم النفس ، ولكننا نضرب مثالاً واحداً يبدو لنا أساسيا لمستقبل حياتنا اليومية : إقامة ما نسميه في فرنسا القطاع .

٢ - تطبيق القطاع

« التوزيع الى قطاعات » أصبح عنصراً من عناصر الواقع منذ عام ١٩٧٣ : وكانت هذه الفكرة ، التي صاغها بعض الأطباء النفسيين التقدّميين بعد الحرب العالمية الأولى ، قد انطلقت من معاينة ضرب من سير وظائفي سيء لمشافي الأمراض النفسية وأوصت بإلحاح أن تُهمل مثل هذه المشافي من أجل تلبية حاجات السكان . ومنذئذ « تجزّأت » فرنسا الى مختلف القطاعات التي أخذها على عاتقهم فرقاء من الأطباء النفسيين المرتبطين بمختلف المؤسسات (مشافي نهارية وليلية ، ومستوصفات ، الخ) .

ويمتاز هذا الحل بأنه يجنّب ، في غالبية الحالات ، ضرباً من الإدخال الى مؤسسة للأمراض النفسية مع كل ما ينطوي عليه ذلك عادة : القطيعة بين الحياة العادية والحياة في المشفى ، وإضفاء صفة المزمن على المرض ، وعدم مسؤولية المريض ، الخ . ويتيح هذا الحلّ أيضاً تدخّلا أكثر اتصافاً بالمرونة والتلاؤم مع مختلف ضروب الطلب . ويبدو إذن أنه الحلّ الصحيح . ومع ذلك صدر العديد من الانتقادات في المرحلة التي تمّ فيها تأسيسه : فشهادة روجر جانتيس ، الذي يمارس الطب النفسي في هذه الشروط الجديدة ، شهادة كاشفة لهذا السبب . إنه يثير جميع الاعتراضات الموجّهة الى الطب النفسي القطاعي في كتابه« المطول في الطب النفسي المؤقت » « ماسبورو١٩٧٧ » . وأول

هذه الاعتراضات هو الاعتراض الأقسى : أليس ثمة ضرب من خطر « الاتجاه البوليسي » تشيده هذه الممارسة الجديدة من حيث أن فرقاء الطب النفسي مدعّوون الى مراقبة ما يجري في قطاعهم ؟ ويجيب جانتيس عن هذا السؤال إجابة مزدوجة : « كلا ، فقد يكون ممكناً وجود بعض القطاعات النادرة التي اتّخذ فيها الطب النفسي مسحة بوليسية ، ولكن ذلك لا يمكنه أن يكون سوى الاستثناء » (ص ١٠٥) . وهذه هي الإجابة الأولى .

وذلك يؤكد ما كان ماشينو قد كشف عنه في مقال نشرته جريدة « العالم السياسي » ، نيسان عام ١٩٧٦ ، أي أن عالم النفس في قطاع مشفى الأمراض النفسية لمنطقة السين سان دنيس كان يختبر بالروائز ، على نحو منظّم ، أطفال دار الحضانة ، إذ وضع تشخيصات من النوع التالي : « إمكان تطور الذهان الهذائي(*) لطفل الثلاث سنوات »(1) . ولكننا نقرّ أن المقصود بذلك ليس إلا ضرباً من الاستثناء في المرحلة الحالية على الأقل (ص١٠٥) . والإجابة الثانية التي قدّمها

(*) الذهان الهذائي : يكشف عن العديد من المظاهر التي تتدرّج من عدم التوازن الخفيف الى ضروب الذهان الخطيرة والهلوسات . فالمصاب بالذهان الهذائي هو الذي يقال عنه شعبياً إنه المصاب بـ « جنون العظمة » و « جنون الاضطهاد » . راجع « الذهان الهذائي » في كتاب « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، ترجمة وجيه أسعد ، مؤسسة الرسالة ، الدار المتحدة ، دمشق ١٩٩١ ، الطبعة الثالثة .

(1) لاحقا بمقالنا الذي يروي ذلك بالتفصيل في « الحولية الاجتماعية » ، تموز ١٩٧٦ ، تلقينا رسالة من د. بروسول من مشفى الأمراض النفسية في فيناتيه ، يطمئننا بأن المسألة مسألة استثناء حصراً .

جانتيس عن السؤال المطروح تتصف أيضا بأنها أكثر بساطة : « إن الأطباء الرؤساء في القطاع ، الذين يتّسمون بأنهم أكثر رجعية وتمسكاً بالتنظيم في مشافي الأمراض النفسية ، يستخفّون بالقطاع استخفافاً تاماً ، وكل ما يطلبون أن يُؤتى إليهم بالمرضى إلى المشفى مقيّدين . وليسوا ، في ذلك ، هم الذين يذهبون للقيام بعمل الشرطة في الخارج ، وهذا العمل قد يعقّد أحوالهم تعقيداً كبيراً » (ص١٠٥) .

وحق للمرء في التساؤل عما يحدث عندما يكون على الأطباء التقدميين أن يتركوا بعض الأماكن للأطباء الرجعيين الذين يتكلم عليهم جانتيس . ذلك أن المسألة هنا ، آخر الأمر ، ليست مسألة الإرادة الطيبة لهذا الطبيب النفسي أو لذاك ، بل هي مسألة تأسيس بنيات تتيح ضرباً من الرقابة الاجتماعية للسكان أكثر أهمية ، وهذا ما يعترف به جانتيس وهو ثناء له . وليس بوسعنا أن نكتفي ، في هذا المجال ، بالاحتجاج الحسن النية الذي يعلنه الأطباء الليبراليون الذين يهتمون حالياً بكلية القطاعات الموجودة على وجه التقريب .

والمشكل الثاني ، الذي يمّس تطبيق سياسة القطاع ، ذو علاقة بالممارسة اليومية لفريق الأطباء النفسيين . ومن المؤكد أن التسرّب من مشفى الأمراض النفسية مرحلة هامة ، ولكنه لا يزال سلبياً . إنه لا يكوّن ، من حيث هو كذلك ، ممارسة جديدة . فماذا يحدث في الميدان ؟ يقول جانتيس : « أعتقد أن الطب النفسي القطاعي ، أمر يترافق مع الاهتمام بحياة السكان اليومية وجميع مظاهر الحياة اليومية ... » ، (ص ١٦٥) « والجزء الأكبر من العمل (عمل فريق الأطباء النفسيين) . . . ، لايتصف بأي صفة طبية » (ص ١٠١) .

« فالعامل في فريق الطب النفسي أصبح عاملاً اجتماعيا في عداد العمال الاجتماعيين الآخرين . . . » (ص ١٨٣) . وذلك يقود ، والحال هذه ، إلى نتيجتين على الأقل :

ـ النتيجة الأولى يصفها بوضوح جانتيس الذي ، ولنتذكّر ذلك ، يعمل في قطاع من قطاعات الأمراض النفسية : ثمة ضرب من تأسيس شبكة من الأطباء في المدارس ، وعلماء النفس في التوجيه البيداغوجي ، واستشارات طبية سيكولوجية ، ومربين ، وعمال اجتماعيين ، « حيث ينصبّ الكلام على بعض الناس ، وحيث يتصفون بأنهم موضوع كلام أناس آخرين ، كما يُقال ، وحيث هم موضوع قول. . . وكان هذا الأمر ، من قبل ، وقفاً على نزلاء مشافي الأمراض النفسية . وهو الآن على وشك أن يمتدّ الى المجتمع كله . وأمور من هذا النوع هي التي يشير إليها بعضهم حين يقولون إن ثمة تعميماً لمشفى الأمراض النفسية في المجتمع ، وإن ثمة إنشاء جديداً لمشفى الأمراض النفسية خارج المشفى » (ص ١٦٩) .

ـ والنتيجة الثانية أن الطب النفسي القطاعي يعزّز ، لدى الانسان المعاصر ، تجريده من ملكية وجوده . فقد أنشأ مجتمعنا عدداً كبيراً من المؤسسات التي تهدف الى أن تحمل الى الانسان نصيباً أكبر من الأمن (تأمينات ، أمن اجتماعي ، الخ) ، ولكن النتيجة التي ترتّبت عليها كانت ضرباً من التخلّي عن المسؤولية يزداد تفاقماً ، وعن أن يأخذ الفرد وجوده الخاص وحريته على عاتقه[1] . ويبيّن جانتيس ، بياناً لا

(١) انظر مؤلفات بودريارد ، وعلى وجه الخصوص كتابه« التبادل الرمزي والموت » ١٩٧٦ . ويتكلم فوكول كذلك على « عناية الدولة عناية كلية الحضور » و « على مجتمع التأمين وعلى صك للأمن بين الأفراد والدولة .

لبس فيه ، أن مجموع العاملين الاجتماعيين أدّى إلى إنشاء ضرب من « عقلية المستفيدين من المساعدات (ص ١٥٠) ، على الرغم من أنهم يقدّمون عوناً ضرورياً وإيجابياً إلى سكان تزداد كثافتهم » (١٥٠) . ويرافق ذلك أن أولئك الذين « يعرفون » يفرضون على الذين « يجهلون » معايير للسلوك . ولكن ما لم يتبيّنه جانتيس بصورة واضحة أن فريق الطب النفسي يشارك في وضع معايير للتصرفات في مجتمعنا ، من حيث أن فريق الطب النفسي لا يختلف أي اختلاف ، كما يؤكد جانتيس ، عن فريق من العمال الاجتماعيين . وبوسعنا على هذا النحو أن نقول ، في النتيجة ، إن الطبيب النفسي القطاعي ينشيء بنيات يمكنها أن تصبح بنيات قمعية ، ولكنها تؤدي حالياً دور تجريد الانسان المعاصر من ملكية وجوده ، ووضع معايير للسلوك . ولهذا السبب ، تظهر في أيامنا هذه حركات تحاول أن تتصوّر طباً نفسياً آخر ، منطلقة من الملاحظات النقدية التي أتينا على توجيهها إلى التوزيع إلى قطاعات : هذا الطب النفسي الآخر هو الشبكة ـ البديل للطب النفسي .

٣ـ بديل للقطاع

بنيات الطب النفسي ، في رأي هذه الحركة ، أثبتت جدارتها بصورة نهائية إذا صحّ القول ، وليس مطروحاً على بساط البحث ضرب من العودة عن مثل هذه الممارسة في الطب النفسي . ولكن القطاع ، مع ذلك ، لا ينطوي على حل مرضٍ . إنه يناظر في الواقع « مقتضيات المردودية والنجوع لرأسمالية متقدمة » ، ويكوّن « ضرباً من البديل التكنوقراطي لمشفى الأمراض النفسية » . فننشيء « نظاماً جديداً » للرقابة أكثر اتساعاً ومرونة ونجوعاً ومردودية. . . والخطر واضح : إنه

خطر رقابة اجتماعية تتمّ ممارستها على الوسط الحياتي ذاته بفعل عمل دائم يضفي صفة الأمراض النفسية ، عمل يزداد خطراً . . . بمقدار ما يقوم به عمال يتصفون بحسن النية على الغالب . ولكن « بديل القطاع يجب البحث عنه ، في رأي هذه الحركة الجديدة ، في الوسط الحياتي ذاته وعلى أرض القطاع » . ولا بد من النضال ، لهذا السبب ، ضد إضفاء المهنية على علاج المرض النفسي ، وذلك بتنمية اهتمام الناس أنفسهم بحياتهم الخاصة لكي نتجنّب إضفاء صفة الأمراض النفسية على الحياة اليومية . ومن الضروري أن نضع السلطة لدى فريق الأطباء النفسيين موضع التساؤل ، ذلك أن ما لم يره جانتيس بصورة واضحة ، في الكتاب الذي تكلمنا عليه ، أن سلطة علم النفس تتغيّر حصراً في صيغها لا في طبيعتها حين ننتقل من مشفى الأمراض النفسية الى القطاع .

٤ ـ علم النفس والاغتراب العقلي

بوسعنا أن نستنتج أن علم النفس المعاصر خطا خطوة نحو إدارة الشرطة . ومن المؤكد أن الأمر في الغرب ليس أمر القمع الذي يحدث في الاتحاد السوفيتي(*)حيث ترتبط « المشافي الخاصة بالأمراض النفسية » المنتشرة على كل امتداد الإقليم ، ارتباطاً مباشراً بوزارة الداخلية(لوره ولازيرا : التعذيب الخاص ـ ١٩٧٥ ، ص ١٤٦) ، وحيث تشخيص فصام الشخصية يتمّ تطبيقه على بعض المنشقّين السياسيين . ولكن هل ثمة فرق في الطبيعة في تطبيق وزارة العدل صفة « المضطرب في السلوك والسيرة » على ثلاثة مرشحين رفض قبولهم في المدرسة الوطنية للقضاء ؟

(*) الاتحاد السوفييتي السابق « م » .

ويوضّحون بواعث تأجيل قبولهم بأنها كانت البواعث التالية : بالنسبة للسيد راؤول ، كونه كان المنشّط للجنة من الجنود ؛ وبالنسبة للسيد مولسان ، كونه حجز في عام ١٩٧٤ مدير الخدمات الحقوقية في جامعة باريس ، وحجز في مناسبتين أستاذاً في جامعة نانتير عام ١٩٧٦ ؛ وبالنسبة للمرشح الثالث ، كونه كان قد حكم عليه بسبب السرقة (صحيفة العالم ١٩٧٧/٩/٢) .

والمقصود ، في الحالتين الأولى والثانية من الحالات الثلاث ، أفعال سياسية يطرأ عليها تكييف سيكولوجي . فمن الضروري أن نرى النقيصة الكبيرة في الاتحاد السوفيتي ، ولكننا ينبغي لنا أن لا نخفي النقيصة الصغيرة في بلادنا لهذا السبب . وهكذا فان الدكتور هوشهان ، الذي يشارك مع ذلك في التوزيع الى قطاعات ، كتب ما يلي : « إنني أؤكد ، دون أن أقصد تبرير الاستخدام السياسي للطب النفسي في الاتحاد السوفيتي ، أن ما يحدث عندنا يومياً غير مختلف من ناحية الكيف ، بل ربما كان الضرر من حيث أنه أكثر براعة ، ومقطّر بقطرات صغيرة جداً في صميمية التصرفات الانسانية » (صحيفةالعالم١٩٧٧/٤/٢٨) . فاذا كان صحيحاً أن الطب النفسي كان دائماً على وجه التقريب ذا ماهية قمعية ، إذ يفرض المعايير السائدة في مجتمع معيّن بطرائق شتى ، فان ما يميّز مجتمعنا المعاصر أننا ، كما يعتقد ميشال فوكول ، انتقلنا من مجتمع القانون الى مجتمع المعيار (ومثال وزارة العدل العاجزة عن أن تذكر قانوناً ، ولاتبني قرارها إلاّ على مجرد معيار ، هو في ذلك ذو دلالة) . ولكن ما يجعلنا مختلفين عن هوشهان أننا نعتقد بأن الطب النفسي القطاعي لايتجنّب هذه الماهية

القمعية . إنه لايكوّن غير صورة أكثر مرونة من صور تسوية السلوك .

وكذلك يزداد استخدام مجموع التقنيات السيكولوجية في اتجاه قمعي . فالتكاثر في الاعلام السيكولوجي أدّى إلى وضع معايير لسلوك الأبوين . والجهل بالكلام الناجع للطبيب النفسي - المحلل النفسي وبمعياره لايُعدّ عذراً لأي شخص من الآن فصاعداً ، تحت طائلة الإثمية . وعلم النفس ، في المدرسة ، يقنّع مشكلاً مفاده عدم تكيّف المدرسة البنيوي مع وظيفتها الخاصة . ففي المانيا ، حسب قول صحيفة العالم ١٩٧٧/٩/٢/١ ، ثمة طفل واحد من ثلاثة « مناسب » للطبيب النفسي ، في حين أن النسبة كانت ١ من ١٢ عام ١٩٦٠ . ولكن ، حسب أي مقاييس يوصف بأنه غير سوي سلوك هؤلاء الأطفال ؟ « والأعراض النموذجية لدى الأطفال هي الهياج ، ونقص في التركيز ، والعدوانية ، ونزعة لتخريب الأشياء ذات القيمة ، والعصيان ، بل والفساد ، والتأخر المدرسي بالتأكيد (كذا) . (صحيفة العالم ، العدد نفسه) .

وبدلاً من أن يتساءلوا حول سير المدرسة الوظائفي السيء ، القادر على أن يفرز مثل هذه النسبة الكبيرة من الأطفال « غير الأسوياء » ، يضفون صفة المرض النفسي على سلوكات لا تتصف بأي صفة من صفات الأمراض النفسية في الواقع ! وهكذا يستقرّ في مجموع سلوكات حياتنا ، في المدرسة وأماكن العمل بل وفي الجيش الفرنسي عام ١٩٧٧ ، إضفاء الصفة السيكولوجية على الحياة اليومية ، بل إضفاء صفة المرض النفسي . وعلم النفس ، الذي لا يخدم التحرّر ، يؤدي

على العكس ، في أبعاده الكبرى ، دوراً من الرقابة الاجتماعية ولكن « بلطف » ، وهنا تكمن الجدّة .

* * *

الباب الأوّل

علم النفس
في المدرسة

الفصل الأول :علم النفس والمؤسسة المدرسية
الفصل الثاني :علاقات المعلمين والتلاميذ والطرائق البيداغوجية
الفصل الثالث :علم الأمراض وعدم التكيّف المدرسي

الفصل الأول

علم النفس

والمؤسسة المدرسية

أولاً ـ التوجيه المدرسي والمهني

١ ـ مستشارو التوجيه في مؤتمر

تساءل مستشارو التوجيه المدرسي والمهني ، بمناسبة مؤتمرهم الحادي والعشرين المنعقد في بلفور ، عن التعديلات في مهنتهم ، وعن الدور الذي تمت تسميتهم للقيام به . فلم يكن التوجيه ، خلال فترة طويلة جداً ، يُعنى إلا بالفاعليات المهنية ، ولكن تغييراً في التسمية حدث في عام ١٩٥٨ وقصد بـ « التوجيه المهني » « التوجيه المدرسي والمهني » ، حتى يتحقّق الربط الموجود بين الفاعليات المدرسية وبين المنظورات المهنية والاختيار المهني . واستطاعت صحيفة العالم[١] أن تكتب ، وهي تقدّم تقريرها عن المؤتمر ، ما يلي : « خلف كثرة المهام الخاصة ، يرتسم المظهر العام لمستشار التوجيه بصورة غير تامة بعدُ : إنه ذلك الذي ينبغي له أن يسهّل تكيّف الفرد مع وسطه وهو يؤثر معاً على الأفراد وعلى البنيات المدرسية ، أو ينبغي له أيضاً أن يكون عامل تغيير . فمن الضروري حماية الفرد الذي وقع في أوقيانوس المؤسسات التي تضفي صفة الجمهور ، وتأمين

---

(١) صحيفة العالم ١١/٧/١٩٧٦

اندماجه الضروري فيها . وبوسع المرء أن يعتقد ، أمام اتساع هذا البرنامج ، أن مهنة مستشار التوجيه لم تبلغ نهاية تطورها » .

٢ ـ فوضى نظام التوجيه

التوجيه المدرسي والمهني يطرح معاً مشكلات مالية وحقوقية وتقنية وسيكولوجية . فالمستشار ، الذي لم تتحدّد فاعليته تحديداً واضحاً ، تابع لقرارات حكومية تعرّض أهليته ومعنى المهنة إلى الوضع موضع التساؤل . إن جنيفييف لتري[1]تشير في مقالين إلى الالتباس السائد بين شتى أجهزة التوجيه ، والى الفوضى في القرارات الوزارية والنقص في المستشارين . تقول جنيفييف : « الخدمات غير المنسّقة من الناحية الرسمية هي بالتأكيد موزّعة على أرض الوطن كلها ، وبمتناول السكان جميعهم من الناحية النظرية : فثمة على الأقل مركز للتوجيه المدرسي والمهني في كل محافظة (أكثر بقليل في الواقع من ٣ وسطياً في كل محافظة) ، ومراكز محلية تابعة للمكتب الجامعي للإحصاء في جميع المدن الجامعية ، والمراكز تحت تصرف المراهقين والأسر والخدمات الاجتماعية لمساعدتهم على حلّ كل مشكل ذي علاقة بالتوجيه . ويعلم أولئك الذين يطلبون هذا العون أن المواعيد يجب الحصول عليها مقدّماً قبل فترة طويلة جداً ، وكون هذه المراكز جميعها قادرة على أن تكون مرْضية أمر بعيد المنال » .

٣ ـ بعض الأرقام

مستشار واحد لايمكنه أن يساعد مساعدة جدية أكثر من ٣٠٠ فتى وفتاة في العام . ولابد من أن نضاعف عدد المستشارين في التوجيه تسع مرات لنلبي حاجات الأطفال والمراهقين من سن ١٠ سنوات إلى سن ٢٠ سنة . ولهذا السبب تسعى الحكومة ، بفعل نقص الاعتمادات ومحاولة الاستجابة للحاجات ، إلى أن تحلّ المشكل بأن تقذف إلى السوق أشخاصاً (أساتذة أو معلمين في أغلب

---

(١) «التوجيه في خطر» ، في مجلة الاقتصاد والاتجاه الإنساني ، عدد ايار ـ حزيران ١٩٦٨ . «من أجل انطلاقة للتوجيه» ، في مجلة التربية من أجل زمننا ، العدد الأول الحولية الاجتماعية في فرنسا .

الأحيان) لم يتلقوا غير إعداد سطحي في مهنة المستشار في التوجيه ؛ وذلك أمر يترتب عليه أن نسحب من ملاك وزارة التربية الوطنية معلمين تحتاجهم التربية حاجة ماسّة ، وأن نحيل بعض علماء النفس إلى البطالة ، وأن نواجه مشكلاً اجتماعياً ذا علاقة بمستقبل الشباب والبنيات المهنية الاجتماعية في البلاد مواجهة سريعة وغير متقنة . أما وقد قدمنا هذا القول ، فان التوجيه المدرسي والمهني واقع المدرسة في أيامنا هذه ، بما أنه أحد البنيات التي تصل بين الحياة المدرسية لطفل من الأطفال وبين الاختيار المهني واندماجه في الحياة الاجتماعية . فمهمة المستشار تنطوي على دورين : الاعلام والتوجيه بغية الوصول إلى قرار ذي علاقة بالفتيان والفتيات .

٤ ـ ضرورة وجود المستشارين في التوجيه

بدا ضرورياً أن نقدم إعلاماً للفتيان والفتيات حول عالم العمل في أبكر وقت ممكن ، بسبب تعقّد المنظورات المهنية وسوق الاستخدام ، وبسبب التخصّص الذي تتطلّبه بصورة متزايدة ممارسة مهنة من المهن . والواقع أن المهن والمكاتب ، في الحالة الراهنة ، تحتجب خلف جدران المعمل والإدارة ، ولدى المرء انطباع في أغلب الأحيان أن العالم المدرسي مقطوع عن حياة العمل . ولاتتحقّق الصلة بين المدرسة والعمل إلا عندما يكسب المراهق رزقه ، وعندما يكون بالتالي قد تمّ توجيهه من قبل . ولهذا السبب ، فان الإعلام المهني ينبغي له أن ينفذ إلى المدرسة أبكر ما يمكنه ، في مرحلة العمر التي يبدأ فيها الطفل اهتمامه بالحياة ، وبخاصة في العمر الذي لمّا يتّخذ فيه قراره الخاص باختيار مهنة يُظهر بها اهتماماً قوياً . ولايقتصر الإعلام ، على وضع قوائم بالمؤسسات والمهن (إنه ليس مكتب استعلام عن اليد العاملة) ولكن قوامه بصورة خاصة أن يعرّف بـالمضمون السيكولوجي والتقني والانساني لهذه المهنة أو تلك ، وأن يعرّف بنظامها الأساسي ووظيفتها الاجتماعية .

ويباشر المستشار ، عندما يحوز هذا الإعلام الواقعي لاالصوري ، مهمة توجيه المراهق برَوْزه ، ومحادثته ، ودراسة الإضبارة المدرسية أو الاعداد المهني .

٥ ـ إجراء اختيار مهني جيد

ويستطيع المستشار، بفعل معرفته العالم الاجتماعي المهني، وميول المراهق، وقابلياته وإمكاناته، أن يقدّم عوناً للفرد عندما يحتاز الشعور بإمكانات نجاحه وازدهاره في الوسط المهني. وعلى هذا النحو، فان الأفراد يتجنّبون الاختيارات المهنية السيئة، وضياع الزمن، والضياع في وسط العمل بسبب قرار في اختيار مهني لم يحسنوا اتخاذه، تجنباًجزئياً على الأقل. ومن الواضح أن الطفل مركز هذا القرار، والمعلمين والأسرة أيضاً، وليست مهمة المستشار غير تقديمالنصائح والعناصر الموضوعية لمعرفة الطفل، ومعرفة الوسط الاجتماعي المهني.

٦ ـ دور المستشار

كان في فرنسا، في تشرين الأول من عام ١٩٦٧، نحو ألف من المستشارين في التوجيه المدرسي والمهني الذين جرى إعدادهم في ثمانية معاهد: باريس، ومرسيليا، وكان، وليل، وبوردو، وبيزنسون، وستراسبورغ، وليون. ويجري اختيارهم بضرب من فحص الدخول، وعليهم أن يدرسوا سنتين إن كانوا حائزين على البكالوريا، وسنة واحدة إن كانوا حائزين على الإجازة في علم النفس. وينبغي لهم أيضاً أن يكونوا في الرابعة والعشرين من عمرهم. وفي نهاية دراستهم، يتدرّبون مدة عام واحد في مركز للتوجيه المدرسي والمهني، وتجري تسميتهم مستشارين إذا نجحوا في الاختبارات النظرية والعملية وفي دبلوم الدولة. وقد يتنوّع دورهم بعد دراساتهم بالنظر إلى أن موقعهم، بوصفهم يعقدون الصلة بين المدرسة والمهنة والأسرة والطفل، في ملتقى عدد كبير من الحاجات والفاعليات، شأنهم في ذلك تماماً شأن مجموعة العمال الاجتماعيين. فدورهم مستمدّ، في وقت واحد، من عالم النفس، وعالم الاجتماع، والمساعدة الاجتماعية، ومن المربي. إنهم يرون أنفسهم ملزمين، بوصفهم يضعون قدماً في المدرسة وأخرى في عالم العمل، بأن يأخذوا بالحسبان مقتضيات الشخص في تفتّحه، والضرورات الاقتصادية والاجتماعية. وبوصفهم تقنيي علم النفس وتكنوقراطيي المجتمع، ولو أنهم لايتصورون دورهم على هذا النحو، فانهم

أولئك الذين يبحثون عن تكييف الذاتية والبنيات الاجتماعية . وهذا الوضع يكتنفه اللبس ، ودورهم معروف بصورة سيئة على الغالب ، ولكنه دور يحدّده مجتمع يعاني الصعوبة الكبرى في إقامة الصلة بين المهنة وإنشاء المدارس : فالمستشار في التوجيه المدرسي والمهني هو من يقع على عاتقه أن يجسر الهوة الفاصلة بين المدرسة والعمل بالنصائح التي يقدّمها إلى الفتيان والفتيات .

ثانيا . دور عالم النفس المدرسي

١ ـ علماء نفس للأطفال

النصحية في مجال التوجيه المدرسي والمهني لا تعبّر عن مجرّد الحاجات إلى علم النفس في المدرسة ، ذلك أن علم النفس في الوسط المدرسي ليس ذلك الذي يقع على عاتقه توجيه الأفراد مهنياً فقط : فدور المستشار تتمّ ممارسته على وجه الخصوص من أجل المراهق أو من أجل طفل الرابعة عشرة ، حيث ينبغي للفرد أن يختار مهنته . إن التوجيه المدرسي والمهني أحد جوانب علم النفس في المدرسة ، وربما ليس الجانب الأساسي ، ولو أن هذه الصورة من الممارسةلعلم النفس كانت الصورة الراجحة في الماضي . فالمدرسة تبدأ في الواقع برياض الأطفال ثم بمدرسةالأمومة ، إذ تغطي الابتدائي والثانوي . وانطلاقاً من هذا الواقع ، تتّخذ المشكلات السيكولوجية أبعاداً تحدّد موقع مهمات علماء النفس في الوسط المدرسي على الوجه التالي : **العلاقة بين النمو الانفعالي والعقلي للطفل** ، والعلاقة بين علم النفس والطرائق البيداغوجية والتربوية ،والعلاقة بين عدم التكيّف وارتياد المدارس ، وتنشيط البنيات المدرسية ، وتنشيط المعلمين والفرقاء البيداغوجيين . فالمهمة متعدّدة وتتطلّب تحليلات معمّقة لم تكن قد أجريت دائماً أو كانت ، على الأصح ، قد أُجريت بطريقة مشتّتة ، إذ أثارت نزاعات بين المعلمين وعلماء النفس على حساب الطفل وتطور المدرسة . إن علم التربية النقي لاوجود له والنظام المدرسي المثالي لايزال ينبغي لنا ابتكاره . ولهذا السبب ، فان كل ضرب من علم التربية ، شأنه شأن كل مؤسسة مدرسية ، ذو علاقة بعلم النفس من

حيث أن الجوهري في المدرسة وفي علم التربية يكمن في العلاقة مع الغير . والواقع أن المدرسة ، قبل كل شيء ، هي مؤسسة لتربية العلاقة مع الغير ، وعامل لتنشئة الطفل اجتماعياً قبل أن تكون خزّاناً من المعارف ينبغي للمعلمين أن يصبّوه في التلاميذ . يضاف إلى هذا أن مميزات المدرسة هي أن تجعل ، بصورة دائمة ، نقل المعرفة كامناً في علاقة بين المعلم والتلميذ(٣) ، علاقة تكوّن أساس هذا النقل . فاذا كان من شأن علم النفس ، بناءً على ذلك ، أن يفهم معنى العلاقة وينمّي كلام الفرد ، فإنه يجد في المدرسة وسطاً مفضلاً يندمج به ويسوّغ وجوده . ذلك أن الفاعلية المدرسية تنطوي على فاعلية سيكولوجية كثيفة ومستمرة موضوعها نمو الطفل عقلياً ، وتحسين الطرائق البيداغوجية ، وأفضل سير وظائفي للمؤسسات المدرسية : فطفل السادسة لايبدي إعجابه أو عداوته على النحو الذي يبديها طفل في الثالثة عشرة من عمره إزاء المعلم ، ولن يكون له إمكانات الاكتساب ذاتها ، واندماجه في الوسط المدرسي (حياته مع رفاقه ، وراحته ، وألعابه ، وحاجاته الانفعالية ، وصورة ذكائه ، الخ) يتطلّب اهتماماً باتجاه نموّه ومستقبله المدرسي والمهني . والحياة في المدرسة لاتتّجه نحو اكتساب المعارف فحسب ، بل هي وضع سيكولوجي يمسّ عالم الطفل .

٢ ـ علم التربية وعلم النفس متكاملان

مضى زمن كان فيه علماء التربية والمعلمون قد ظلوا اختباريين ووثوقيين فيما يتعلّق بعلم التربية : كان المعلم موجوداً أُضيفت عليه القداسة ، موجوداً لم يكن يضع موضع التساؤل دوره ، دور المعلم ، ولاصحة معرفته(٤) ، وكان علم النفس ، الذي يضع المواقف والأدوار موضع التساؤل ، غير معروف في المجال المدرسي خلال فترة طويلة من الزمن . وذلك كان وضعاً مفارقاً مادام علم النفس ، في جزء كبير منه ، قد أوجدته الحاجات الناجمة في وقت واحد عن مدّ مدة الدراسة وعن تنظيم النصيحة والتوجيه المهني . إن علم التربية وعلم النفس لم يتطورا بطريقة موازية . ولكن البحث في أحدهما انبعث عن حاجات الآخر

---

(٣)(٤) انظر فصل «علاقة المعلم والتلاميذ» في هذا الكتاب .

والعكس بالعكس . وليس من قبيل المصادفة أن يكون الكبار من العلماء في علم نفس الطفل معلمين يفكرون بعلم التربية في الوقت نفسه : كلاباريد ، وبوفه ، وديكودر ، وأستيريث ، وبياجه ، الخ . فعلم النفس وعلم التربية تطورا صوب طرائق أكثراتصافاً بالعلمية والتقنية إذ أهملا تربة إبستمولوجيةموروثة من الأخلاق المعيارية ، ومن الأوامر الدينية ، وذات المنحى الانساني . وإذ انضمّ علم التربية إلى علم النفس ، فانه وجد إطار إسناده الأول ، أي الطفل . واذ أخذ علم نفس الطفل علم التربية بالحسبان ، فانه واجه تجارب المعلمين والمربين التي من أجلها يعمل .

٣ ـ مشروعات وزارة التربية الوطنية

وابتداء من عام ١٩٤٦ ، كان علم النفس قد أخذ يتطور في فرنسا . ففي عام ١٩٤٧ ظهر مشروع لانجفان ـ والون الذي نقتطف منه هنا بعض السطور : « يحتاج المعلم إلى معرفة الطفل في خصوصياته الفردية وفي تطوره السيكولوجي على السواء . ووظائف التعليم هي من الاتصاف باشغال أوقات المعلمين بحيث لاتترك لهم وقت الفراغ ليدرسوا طرائق البحث وتطبيقها ، تلك الطرائق التي تتيح ، عند الاقتضاء وبالنسبة لكل طفل ، أن تحدّد التمثيلات البيانية العقلية والطبعية أو الاجتماعية لسلوكه . فعليهم أن يكون بوسعهم أن يعرضوا الحالة على اختصاصي في الطرائق السيكولوجية . . . »(٥) . وفي عام ١٩٥١ ، استمدّ علم النفس أغراضه ووظائفه من لجنة بين إدارية برئاسة زازو : « وحيث أن المدرسة تطرح مشكلات تزداد عدداً وصعوبة ، نظراً للتقدم والاختصاص في المعارف ، ونظراً للتعقيد المتنامي في البنيات الاجتماعية ، وفي الإمكانات المتنوّعة بازدياد التي

(٥) مشروع لانجفان والون وزارة التربية الوطنية . ومن الثير جداً للقلق مع ذلك أن نرى الاتجاه الراهن الذي يتخذه نمو علم النفس المدرسي منذ الإصلاحات الحديثة . فما إن يبدي طفل من الأطفال إخفاقاً أو رفضاً للمدرسة حتى يهب عالم النفس ليعفي المعلمين والأبوين من كل تساؤل . ووظيفة اللجوء الى علم النفس هي ، على الغالب ، إخفاء البواعث العميقة للرفض والإخفاق المدرسي ، بمعنى أن علم النفس يمكنه أن يؤدي دور الدمج والإعادة الى الصواب .

تعدّ المدرسة لها ، تقترح اللجنة بين الادارية تأسيس الخدمات السيكولوجية المدرسية التي سيكون دورها أن تساعد على أفضل تكيّف للتلميذ مع المدرسة ، وعلى أفضل توافق للحياة المدرسية مع اهتمامات الطفل :

١ ـ ينتمي عالم النفس المدرسي إلى المدرسة بتوظيفه ومكان عمله وبطبيعة المشكلات التي يدرسها والحلول التي يبحث عنها .

٢ ـ هذه الوظيفة السيكولوجية ليست جديدة ، فهي تمايزٌ تدريجي انطلاقاً من الوظيفة الإجمالية للتربية والتعليم .

٣ ـ ليس لعالم النفس المدرسي مشكلات خاصة به . إنه ، بالاتفاق مع الجهاز التعليمي ، يدرس المشكلات البيداغوجية التي تطرحها المدرسة (مادة التعليم ، طرائق. . .) .

٤ ـ المشكلات التي يهتم بها عالم النفس المدرسي خاصة بالجماعات والأفراد على حد سواء .

٥ ـ يُستخدم علم النفس بصورة أساسية ليوضّح الصفات الممكنة لدى التلميذ ويشجّعها بدلاً من استخدامه ليحدّد ضروب قصوره بهدف الإقصاء أو الاصطفاء

٦ ـ وعلى عالم النفس أيضاً أن يتّجه نحو ملاحظة مستمرة(بواسطة إضبارة الملاحظة السيكولوجية على سبيل المثال) ، وأن يتجنّب النتائج ذات المدى الطويل المستخلصة من فحص وحيد .

٧ ـ عمله الرئيس أن يثابر على أن يفحص التلاميذ فحصاً فردياً ، وعلى أن يفهم جميع جوانب شخصيتهم » .

٤ ـ عالم النفس عالم تربية أيضاً

هذا النص يرسم دور عالم النفس في المدرسة ومنزلته ويركزّ عليهما ، ويشير في الوقت نفسه إلى إمكاناتها وحدودهما : إن عالم النفس المدرسي ، بوصفه مرتبطاً بوزارة التربية الوطنية ، رجل المؤسسةبكل المحاذير التي نشير إليها من جهة أخرى ، ولكنه هو أيضاً شخصية تتّخذ أهمية بالنظر لحاجات المدرسة الحالية إلى

علم النفس : إن عالم النفس مدعوّ منذئذ للمشاركة في العمل البيداغوجي بمجموعه .

ثالثاً ـ ما الهدف من التربية

١ ـ المؤسسة المدرسية موضع تساؤل

إذا كان علم النفس وعلم التربية يلقيان الآن نمواً متناغماً بصورة نسبية ، فذلك لأن موقع هذين العلمين في قلب علوم التربية ، نظراً لأن المدرسة تحتفظ صورياً بهذه المهمة التي مفادها أن تنذر نفسها وتنظّم نفسها بغية تربية الأطفال والمراهقين . ومع ذلك ، يشبه المشهد الذي تعرضه المدرسة علينا مشهد مؤسسة تالفة ومن غير هدف أكثر مما يشبه مؤسسة لها السيادة على وظائفها ودورها : ولكن وضع مهمتها التقليدية موضع التساؤل مرة ثانية ، أي التربية والتعليم ، لايمنع المدرسة ، ولو أنها تبدو كما لو أنها تائهة بعض الشيء ، أن تنذر نفسها لما يتوقّعه المجتمع منها فيما هو أكثر أهمية : تكوين الأطفال ليشبهوا أنماط حضارتنا ومقتضياتها شبهاً أكثر كمالاً . والتكوين يتصف هنا بالمبالغة من جهة أخرى ، والأفضل استخدام كلمة الامتثال التي تطابق أغراض المدرسه على نحو أفضل ، لا كما يدركها المعلمون الذين قلّما يُطلب رأيهم ، ولكن كما ترتسم بعد عشرين عاماً من تجديد المناهج والتغيّرات في البنيات والانقلابات من كل نوع : فكل وزير من وزراء التربية الوطنية تنافس منذ عام ١٩٤٥ مع سلفه في التجديدات واللمسات والتصورات الخاصة بالمدرسة . وهذا الوضع أكثر مدعاة للرثاء بقدر ما نشهد إصلاحات من النموذج التكنوقراطي ذات فن يعقّد كل شيء ويُظهر طلاء من التغيير ، فيما أن الأساس يظلّ هو هو ، سكونياً ومحافظاً

٢ ـ المدرسة تكيّف الطفل

هذا الأساس الثابت ، نعتقد أننا ندركه بكلمه واحدة تلخّص باعث المدرسة ووسيلتها : التكييف . يضاف إلى هذا أن اللجوء إلى هذه الكلمة السحرية والناجعة إنما يتم عند الحديث عن التربية على وجه الخصوص للسبب التالي : ألا يقوم دور المدرسة على أنها يجب أن تحقّق التكيّف المتناغم بين الفرد

والمجتمع ؟ التكيف ، هذه الكلمة تذكّر بالآلة أو بعلم الحياة أكثر مما تذكّر بالتربية ، والتكيّف لا يمكنه أن يتلقّى معاييره إلاّ من وضع ومن مجتمع يسبقانه في الوجود ، معايير لا تولّد فيهما شيئاً إضافياً : ففعل التكيّف لايرمي إلى إبراز الفارق ، والنزاع ، والتناقض ، بين الذاتية والبنيات . ومن الضروري ، على العكس ، تقليص الفارق الموجودبهدف بلوغ الانسجام الكلي والأبدي بين الانسان ووسطه . وفي مجال آخر غير مجال التربية المدرسية ، بما أن الأمر ذو علاقة بتدريب الأطر على الإتقان ، أي التربية المستمرة ، قيل في كتاب « البيداغوجيا وسيكولوجيا الجماعات »(٧) : « مدلول هذا النموذج من الإتقان[بالنسبة إلى الأطر] ينكشف بصورة واضحة جداً : إنه تشجيع التكيّف المستمر مع البنيات الموجودة ، وتعزيز هذه البنيات ، وإتاحة ضرب من الدوام لها . فالتكيّف المقصود على هذا النحو يتصف بأنه ، على الأصح ، ضرب من المطابقة لنمط خارجي ، لنمط اجتماعي ، وتتيح هذه المطابقة للفرد والجماعات أن يقلّصوا توتراتهم ، إذ يجدون أجوبة جاهزة في الهيئة الاجتماعية ، وينزع تعزيز البنيات الذي يتمّ على هذا النحو إلى أن يؤسّس صورة معينة من صور البيروقراطية أو إلى أن يدعمها » .

٣ ـ دور المدرسين دور بخيل بالعطاء

هكذا ، في الواقع ، يبدو الدور الذي انتقل إلى المدرسة بالرغم من يقظة المعلمين والمربين وكفاءتهم : فالمقصود هو المحافظة على المكتسب ، والتشنّج عليه ، ونقله كما هو إلى الأطفال دون أن يؤخذ بالحسبان إسهامهم وإسهام المعلمين في العلاقة البيداغوجية . ومن الضروري على وجه الخصوص أن نحذّر المعلمين من نقل أي شيء آخر غير ماهو مصمّم في المنهاج ، شيء آخر يمكنه أن يكون تمهيداً لا لتعليم تكيّفي شبيه في كل نقطة من نقاطه بالقيم الاجتماعية ، بل أن يكون مساهمة في تعليم نقدي لايُستبعد منه التفكير والإبداع . فمن الخطر أن يتميّز المعلم وأن يجدّد في دوره ، ذلك أن كل ميل للارادة نحو البحث والتجديد

(٧) هنريكيز «البيداغوجياوسيكولوجياالجماعات» ، دار نشر إيبي .

يُجازى جزاء قوياً باجراءات إدارية وانضباطية ، وعلى وجه الخصوص منذ أحداث ١٩٦٨ . ومآل الأمر على هذا النحو أن تكون المدرسة هي الشيء المجرد ، لاوجه لها ولا صورة ، خالية من كل مضمون خاص بالبحث ، وهي ليست قائمة إلا لتتيح لثلاثة عشر مليوناً من الصغار المنتسبين إليها أن يستعدّوا لقرانهم بالمجتمع البيروقراطي الاستهلاكي(٨) . والواقع أن صلابة الجهاز ، وإجراءات التمييز ، والمنحى السكوني في البنيات ، وانحطاط الوظيفة التعليمية ، وصَلَف مجتمع يرتكز على النفع وسحق الفرد ، هي التي تتآزر لتفرض على المدرسة دور مجهّزي العضلات ، والأدمغة المطابقة في جميع جوانبها للاستواء المطلوب ليسير مجتمعنا سيراً وظائفياً جيداً .

٤ ـ تكوين الأفكار بالنقد والحرية

جميع أولئك الذين يعملون ، معلمون ومربون ،في صفوف مكتظة وعلى نحو غامض ، لهم مع ذلك تصور مختلف للتربية : ذلك أن تعريفها ذاته هو إدخال ضرب من البطء ، ضرب من التحفّظ ، ضرب من التراجع ، بين الفرد ووسطه ، حتى نجعل أفراداً ذوي وجود متحقّق وأحراراً ينبعثون ، وأن يكونوا أيضاً أكثر وعياً وإعداداً لمواجهة المجتمع والوسط الاجتماعي المهني ، لا في سبيل أن يضيعوا فيه بل بهدف تغييره. فالى أي شيء بوسع التربية أن تتطلّع تماماً ، إن لم يكن إلى تكوين الحرية ، والميل إليها ، وإلى التفكير ، والحياة ، والاحتجاج معاً ؟ ويتكلم بول ريكور (٩) ، في مقاله« الكلام مملكتي » ، على هذا الفهم وهذا التحرر الأصيل اللذين ينبغي للتربية أن تكونهما : « أقول بصورة مفارقة إن كل ثقافة لا تدخل بطئاً في التكيّف فحسب ،ولكنها تُدخل أيضاً عاملاً من عوامل عدم التكيف ، وإزالة الافتتان ، وإزالة السحر التقني ، عاملاً لولاه لما تمكّن الإنسان الحديث أن يستخدم خيرات الحضارة استخداماً حسناً » .

---

(٨) هنري لوفيفر ، «الحياة اليومية في العالم الحديث» .

(٩) عميد قديم لكلية الآداب في ننتير ، مقال في مجلة «الفكر» ، عدد شباط ١٩٥٥ .

٥ ـ علماء نفس تكنوقراطيون

ولكي نعود إلى علم النفس الذي كان قد اختفى منذ برهة من حقل تفكيرنا ، فاننا لا نرى ، كما تتمّ ممارسته في المدرسة ، كيف أنه العامل الذي يُدخل هذا« البعد » و« إزالة الفتنة » هذه بين الانسان والمجتمع . وإذا كانت الروائز والمقابلات والبحوث البيداغوجية لا ترمي فقط إلى التكيّف في مشروعات علماء التربية التكنوقراطيين ببلادنا ، فانها تمنحهم وسائل تقنية للتقييم ولأن تضع في مكانه مجدّداً ما ليس بمكانه في شخصية فتية أو في مستقبلها المهني . ذلك أن علماء النفس في المدرسة واقعون ، هم أيضاً ، في شباك ضرورة الاصطفاء أو التوجيه بهدف أفضل تكيف اجتماعي نهائي ، أي بهدف أكبر مردود ثقافي واقتصادي . فعلم النفس المدرسي لا يحرّر الطفل تحرّراً أكبر ، إنه ربما يساهم بالحري في أن يكون الانسان النمط الذي يبنيه مجتمع نمط في ثقافة نمط ، حيث يعمل كل شيء عملاً وظائفياً دون توقّف ، أي دون تفكير ولا سرور . ومن المؤكد أن الحضارة التقنية تفترض ضرباً من الانسجام ، ولكن وظيفة المدرسة لا تكمن في احتقار الذاتية لمصلحة المعيار الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي ، بل إن عليها أن تجعلها تنمو وهي تربي الطفل على الفهم ، والحكم ، والتحرر .

رابعا ـ تنشئة الطفل في المدرسة اجتماعياً

١ ـ الدخول الى المدرسة

إذا كان على المدرسة أن تربي على الحرية والابداعية ، فلا يمكنها مع ذلك أن تدع الطفل لنموه الخاص : إن الدخول إلى المدرسة يسجّل بالنسبة إليه حدثاً أساسياً ، ذلك أنه في الوسط المدرسي إنما يتدرّب على الحياة في المجتمع ويكتشفها . فهو يغادر حجيرته الاسرية التي في كنفها قام بتجاربه الاجتماعية الأولى ، ولكن التبادلات في الأسرة مرتكزة على لغة الجسد وعلى الانفعالية(١٠) .

---

(١٠) انظر فصل «النمو الانفعالي لدى الطفل» في هذا الكتاب .

وبقدرما تكون الأسرة ضرباً من النافذة ، فهي شاشة تحجب المجتمع . وهذا هو السبب الذي من أجله ستمثّل المدرسة بالنسبة للطفل تفجّر الحجيرة الأسرية في سبيل أن يبلغ تنشئة شخصيته الفتية . والانتقال بين الأسرة والمدرسة لايتمّ دون صدمة ، ومربيات رياض الأطفال والمربون في المرحلة الأولى أيضاً يلاحظون ، خلال مهلة من الزمن تختلف مدتها بحسب الطفل ، ضرباً من عدم التكيف ، ضرباً من عدم التوازن لدى الطفل الذي يعاني صعوبات في الاندماج بهذا العالم الجديد الذي يتصف بأنه المدرسة . ويظلّ كذلك متمحوراً على ذاته كثيراً ، لاعباً ، نزوياً وغير مستقر ، وعالمه عالم خيالي توحي به الدوافع والحياة اللاشعورية . ورغبته لا تزال غير محدودة ، ذلك أنه لمّا يتلقّ متطلبات الحد والقاعدة . فعليه ، بوصفه يسبح في عالم طفولي تسود فيه الدوافع والخيال ، أن يتمرّن على الجماعة ، وعلى المجتمع ، وعلى المعرفة ، انطلاقاً من المدرسة : ويبدأ الطفل إذن تنشئته الاجتماعية .

٢ ـ ثنائية الرغبة والحضارة

وإذ يكبح الطفل نزاعاته الجنسية ونزاعات الدوافع ، التي تميزّ الفترة الأوديبية ، والتي كانت تجعله في تعارض مع أبويه وفي تعارض ، من خلال أبويه ، مع معايير التربية المتلقاة ، فانه يدخل في مرحلة من الهدوء الذي سيكون الكبت انطلاقاً منه ضرورياً للتنشئة . ويسمي علماء النفس هذا الطور « طور الكمون » الذي يظلّ مستمراً حتى البلوغ ، أي حتى يقظة النزعات الطفولية التي حُلّت حلاً غير صائب وتقود الطفل إلى عتبة المراهقة . وهذه التنشئة ستتحقّق بفضل الحياة في المدرسة وبفضل ماتم نقله : إن هذه التنشئة التي سيكون لها التأثير المباشر في ما ستكون عليه الشخصية الاجتماعية لفرد من الأفراد : سلوكاته الاجتماعية ، واقتناعاته ، وأفكاره ، ومعارفه ، والتصور الذي سيكوّنه لنفسه عن العالم والمجتمع ، والصورة التي ستكون لديه للإنسان ، والإدراك الذي سيحمله لوضعه الخاص بوصفه موجوداً في العالم . ولا يتصوّر الفرد ، عندما يكون راشداً ، تصوراً صائباً ، ما ندين به للمدرسة ، ذلك أنه يعتقد عندئذ بأنه حر ويظن أننا باختيار حر إنما نملك صورة للعالم ولأنفسنا خلقناها خلقاً جديداً .

فالقليل من الاقتناعات الشخصية الموجودة لدينا(وذلك أمر يصبح ذا صعوبة متزايدة لايمكنها أن تكون سوى وهم بالنسبة إلى ما تلقته شخصيتنا الفكرية من البنيات التعليمية ومن الحياة في المدرسة . وما تلقّته شخصيتنا الفكرية أكثر أهمية بقدر ما يكون أكثر قبولاً بكثير من الراشد لكل ما يمكنه أن يُقال ويعلّم بإتقان : فالطفل ، بوصفه موجوداً طيّع القيادة كثيراً في نظام سلطوي لايزال صورة نظامنا التعليمي في فرنسا ،يصبح موضوع البنيات المدرسية ونتاجها كما كان موضوع رغبة الأم . والمهم أن نعرف إن كانت بعض الطرائق البيداغوجية والتربوية تتيح حركة واسعة الى حد كاف بين وضعه ، بوصفه موضوعاً بالنسبة للمجتمع ، وبين شخصيته الفتية التي تبحث عن نفسها وتتوطّد . والعدد القليل من التجارب المثيرة للاهتمام ، التي كان قد قام بها ديوي ودكرولي[11] وكثير من علماء التربية الآخرين في صفوف رياض الأطفال ، لم تكن قد انتشرت انتشاراً يكفي للتأثير في معنى التعليم وفي توجيهه على نحو مختلف . وعلى الرغم من نظام التعليم ، ثمة بعض العوامل التي سيكون لها تأثير حاسم في تنشئة الطفل .

٣ ـ عوامل التنشئة الاجتماعية للطفل

الحياة في الجماعة : إن الطفل ، بفعل لعبه مع رفاقه وبفعل الضرورة الدائمة ، ضرورة مفادها أن يكون على علاقة بأنداده وبهذا المجتمع الصغير الذي يؤلفه صف من الصفوف ، سيتعلم قواعد الحياة في المجتمع ومعاييرها . إنه سيبلغ الشعور الأخلاقي والشعور بالآخر ، وسيدرك الوضع في مجموعة بشرية ، فيها الآخر على قدم المساواة معه ، إدراكا على نحو أفضل . فجماعات الأطفال جماعات حقيقية متبنينة ، بدءاً من سن الخامسة ، على صورة جماعات الراشدين . إن الطفل في مواجهة مع ضرورات الجماعة التي يمكنه بواسطتها أن يستبق ويكوّن خطواته الأولى نحو التنشئة .

ـ بلوغ العقلانية والفكر المنطقي : يلحّ بياجه[12] على أهمية التغيرات في

---

(١١) انظر «علاقة المعلم والتلاميذ» في الفصل القادم .

(١٢) عالم نفس سويسري ، اختصاصي في نمو الطفل .

الإدراك لدى الطفل . والطفل يبلغ مرحلة الفكر التأملي والعقلانية بوصفه ذا إدراك نفسي حركي قبل سن الثالثة . ويتحرّر من نزعة التمحور على الذات(لاتخلط بين هذا المصطلح وبين الفحوى الأخلاقي للكلمة نفسها) لكي يبلغ وضعاً موضوعياً ، مستقلاً وغير مرتبط بالموجودات والأشياء . ويترك إدراكه السحري والإحيائي ليبلغ إدراكاً رمزياً ومنطقياً . إنه ، بهذا ذاته ، يبلغ الفكر النزيه والمجرد ، ويمكننا القول إنه الفكر الكلي . وينبغي له أن يكون عندئذ قادراً على تحمل الإحباط الذي يمنحه عالم يثنّي(*)نفسه ، عالم يتجلّى في كنفه الطفل على أنه موجود مفكر وموجود أليف ، ولكنه يتجلّى أيضاً على أنه موجود ضائع . ويفضل التعليم ، ستتبنين هذه الثنائية ، ثنائية الأنا ـ الآخر ، وستتلقّى صورها الفكرية والثقافية بالمعرفة وتنظيم المعلومات . وسيتلقّى الطفل منذئذ شخصيته من المجتمع الذي ينقل إليه ، بواسطة المدرسة ، أوامره ، وقوانينه ، وثقافته ، ومضامين المعرفة .

٤ ـ الايديولوجيا ضمنية في تأمين التعليم المدرسي

تبدو أهمية المدرسة هنا على أنها حاسمة حقا : فالطفل يحتاج ، لكي ينمو ، إلى التنشئة الاجتماعية وإلى أن يكتسب المعرفة . ولكن مضمون التعليم والنظم التربوية الموضوعي ، فضلاً عن أن فرص الاكتساب ليست متساوية بالنسبة للجميع (الريفيون والعمال محرومون من الحظوة) بسبب منشأ الطفل الاجتماعي والاقتصادي ، مضمونايديولوجي ، أي أن التعليم ينقل تصورات ومعايير ضمنية في مجتمعنا ، ولكنها لا تتجلّى بوصفها كذلك . وهنا إنما يتحدّد موقع سلطة المدرسة بما أنه لا يمكنها ، وقد أقامها المجتمع وتلقّت منه معاييرها ، إلا أن تنقل الايديولوجيات المحيطة وتعكسها . فالمدرسة ليست حيادية على الإطلاق . وذلك ما كانت قد أوضحته إيضاحاً جيداً أعمال بورديو وباسورون أول الأمر ، ثم أعمال بودولو وإستابلت التي بيّنت وجود شبكتين متميزتين في المدرسة : الشبكة الابتدائية ـ المهنية التي يرتادها أطفال الطبقات المحرومة من الحظوة اجتماعياً

(*) يثني نفسه أي يجعل نفسه اثنين(م) .

وثقافياً ، والشبكة الثانوية ـ العليا التي نجد فيها أطفال البورجوازية . ويبرهن برنارد شارلو ، بصورة أكثر حداثة أيضاً ، في كتابه « التضليل البيداغوجي » ، على أن التربية سياسية بأربعة اتجاهات : « إنها تنقل أنماطاً اجتماعية ومعايير اجتماعية للسلوك . وتلقّن الطفل مُثلاً اجتماعية تكوّن شخصيته . وتنشر أفكاراً اجتماعية سياسية . وعبثها يقع على المدرسة التي تتصف بأنها مؤسسة اجتماعية » . ولايتسرّب إلى أنفسنا أي شك في أن المدرسة في أيامنا هذه هي التعبير عن ثقافة بورجوازية متحجرة يعبرّ مضمونها بصورة ثقافية عن مصالح بعيدة عن المصالح التي يعبر عنها في الوقت نفسه المعلمون والأطفال . ولهذا السبب ، فإن الطفل يُسترجع دائماً من الناحية الإيديولوجية منذ الأشهر الأولى من حياته في المدرسة : فالتنشئة الاجتماعية ليست ظاهرة في ذاتها ما دامت محلّ التعيين الثقافي والتاريخي لشخصية الطفل .

* * *

الفصل الثاني

علاقة المعلم والتلاميذ

والطرائق البيداغوجية

العلاقة البيداغوجية موضع تساؤل

نشهد حالياً أزمة تمس كلية نظامنا التربوي : فثمة تغيّر عميق يحدث سواء في الجامعة أو المدارس الثانوية ، بل وفي مدارس رياض الأطفال . وليس ممكناً تعيين مآل لهذا التغير ولا الادّعاء باعطائه اتجاهاً إلا بالنسبة لمن لا يرغبون فيه . أما بالنسبة للآخرين ، فانهم يشهدون ، بوصفهم ممثلين ومشاهدين ، ضرباً من الانقلاب الذي تسارع في فرنسا منذ أيار ١٩٦٨ . وليس مطروحاً على بساط البحث هنا أن نحلّل أسباب مثل هذا التحوّل المفاجىء و لا أن نبينّ جوانبه . والمؤكد ، في ما يعنينا ، أن علاقة المعلم ـ التلاميذ لم تعد هي ذاتها ، و لا يمكنها أن تكون هي ذاتها أبداً . وإنه لأمر ذو دلالة أن تبدو في أيامنا هذه وأن تبرز ، على مرأى من الجميع ، (فضائح) تمسّ هذه العلاقة : فسواء كان التعبير عن الحب المكبوت في الفعل البيداغوجي ، أو كانت الخبرات ، كالمخدر ، التي تستهجنها الغالبية العظمى من الهيئة الاجتماعية ، يبدو الأستاذ في هذه الأفعال وكأنه منحرف بالنسبة للكثيرين . إن العلاقة البيداغوجية ، علاقة المعلم ـ التلاميذ ، ينبغي لها أن تخضع لمعايير تقليدية يجب عدم انتهاكها . ويُلاحظ على سبيل المثال أنه يصعب على مدرس من المدرسين أن يطيل أمد العلاقة مع تلاميذه خارج ساعات التعليم . ولا تقبل المدرسة إلا العلاقات الفكرية بين التلاميذ ومعلميهم . فماذا يجري إذن في أيامنا هذه ، يفكر بعضهم ، حتى نعكّر ما كان

يتصف بأنه الأكثر طبيعية ، أي علاقة التلميذ بالمعلم ، التي عرفها كل فرد ؟ ومن المؤكد أن ثمة مشكلات كانت ، ولكنها لم تكن قط تضع مثل هذا الفعل موضع الاتهام : فماذا تغيّر وماذا يتغير ؟ إنه هو السؤال الذي سنحاول أن نوضّحه هنا .

المعلم ومنزلته

طرأ على منزلة الاستاذ تغير مفاجىء كبير جداً منذ بعض السنوات . وبرز اختيار جديد على جميع المستويات . فالمعلم ، بوصفه حارس القيم الأخلاقية وحاميها ، يختفي بصورة متصاعدة ، والمهمة التي كانت تنتقل من جيل إلى جيل لم يعد لها مجال . ولم يعد ابن المعلم معلماً . ويدخل من الآن فصاعداً دارَ المعلمين طبقاتٌ اجتماعية أكثر تنوّعاً وأكثر امتزاجاً ، فهي من عناصر شتى . ولم يعد ثمة وجود لهذا المناخ ، مناخ التماسك ، الذي كان موجوداً من قبل . والحال ذاتها على مستوى أساتذة الثانوي الذين يتم اختيارهم من قطاعات أكثر اتساعاً بكثير . ولم يعد ثمة وجود لحسّ التضامن الذي كان يميّز التعليم .

وعلى نحو يوازي هذا التنوّع ، يحدث ضرب من الهبوط في حظوة المعلم والأستاذ بالمجتمع الفرنسي . فالصورة التي يصنعها الأستاذ لنفسه عن دوره ومكانه في المجتمع تابعة للوضع الاقتصادي الممنوح له . والحال أن الأساتذة ، على العموم ، يشعرون بفقدان الحظوة ونقص في الاعتبار يتجسد في عدم كفاية أجرهم .

وهكذا نشاهد تغيّر الدافعيات في الاختيار وفي الوضع الاقتصادي « الخاص » ، وفي الانتماء إلى إدارة محافظة بعض الشيء لايسمح فيها بأي تجديد إلا ضمن النطاق الذي لا يضطرب النظام فيه أبداً . ونشاهد نقصاً في الدينامية والفترات الزمنية التي تتيح للمدرس أن يتدرّب تدريباً إضافياً أو أن يحسّن ثقافته ؛ وضروباً من التفتيش ـ المهازل ، الجديرة بعهد الملكة فكتوريا ، تزيّف فيها العلامة التي تلي عرض الأستاذ علاقة المعلم ـ التلميذ تزييفاً جذرياً ؛ واختياراً للمعلمين وحكماً يتمّ إنجازهما بالاعتماد على مقاييس معرفية لا على مقاييس بيداغوجية بصورة أساسية ، دون الكلام بالتأكيد على علم النفس ؛

ونشاهد المفتشين الذين يؤثرون درساً حلقاته قوية الارتباط بعضها ببعض ، ومحكم الإغلاق على نفسه ، على بحث يجري باشتراك المعلم والتلميذ مع خطر الضياع وبخاصة مع خطر الوصول إلى التعبير عن الصف ، تعبير مرغوب في النصوص ، ولكنه مرهوب في الواقعي . فهل يعني أن المعلم يفقد بذلك الكلام ؟ أيفقد على هذا النحو وضعاً لا يريد الأساتذة الشباب أن يظهروا به ؟ (كرامة وسيادة على الذات وجدية ، الخ) . ويبدو موقع النزاع إذن ، في نظرنا ، أنه كامن في الثنائي معرفة و حقيقة أو أنه بين معرفة وتعبير أيضاً . وعلينا بالتالي أن نوضّح مختلف الطرائق في مقاربة المعلم والتلميذ ، تلك الطرائق التي حرّكت الثنائي معرفة ــ حقيقة .

أولاً- طرائق التعليم والثقافة

ليس التعليم وطرائقه ثمرة المصادفة ، ولكنهما يستجيبان في الواقع لحاجة يعبّر عنها المجتمع الذي ينتميان إليه . « إنه لأمر واقع أن كل نظام تربوي يوافق نظاماً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ودينياً ، ويوافق ضرباً من الوضع البشري . إنه مصنوع لكي يستجيب لحاجات العصر وأفكاره وأعرافه وعاداته »[1] . وقد يكون خادعاً أن يعتقد المرء بأن ثمة نسباً مباشراً بين النظام السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، وبين طرائق التعليم ، وذلك أمر يعني أن نظاماً ديموقراطياً تقابله طرائق ديموقراطية وأن نظاماً سلطوياً تقابله طرائق سلطوية . والواقع أن المرء يشاهد استمرار طريقة سلطوية في التعليم في الأنظمة الديموقراطية . والطرائق الجديدة قليلة التطور إلى حد كبير في هذه الأنظمة . فكيف نشرح مثل هذا التفاوت ؟ أليست مجتمعاتنا ديمقراطية بصورة واقعية ؟ ولكن هذه الأدلة ربما كانت أدلة متمّمة ، أليس كل نظام تربوي نظاماً محافظاً في جوهره ، أي أنه يتفاوت تفاوتاً دائماً بالقياس إلى تطور المجتمع ؟ والواقع أن المجتمع ينحو بالتربية

---

(١) روجه غال «تاريخ التربية» ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ص ٦ ، ٧ .

إلى أن يضمن قواعده والمبادىء التي يقوم عليها . وهكذا تكون التربية مؤسسة تتسم بأن ثمة تفاوتاً بينها وبين المؤسسات الأخرى التي تكوّن ثقافة من الثقافات . والشباب موصوفون بأنهم خطرون ويعيشون دون معايير . وينزع الجيل الراشد إذن إلى أن يرسّخ في أنفسهم مبادىء (أثبتت جدارتها) لا بحوثاً معاصرة على الإطلاق . فاللايقين لدى الراشد من الضروري أن يقابله اليقين لدى الطفل ، والحياة اللاهبة المضطربة يجب أن يحلّ محلها حياة مدجّنة أُضفيت عليها الثقافة . ويفهم المرء منذئذ أن كل نظام تربوي نظام رجعي في جوهره ، من حيث أنه تأبيد قيم مضمونة مسبقاً لا قيم عليه أن يوجدها . فثمة فارق دائم بين الحياة والمدرسة ، وثمة دائماً فارق جيل بين البحث وتعليم هذا البحث . وليس السبب في ذلك أن وسائل الإعلام ليست كافية ليحدث مثل هذا النقل ، بل لأن البحث ، بما يتصف به من غرابة وحداثة وجدة وخطر ، لا يمكننا إدخاله في النظام التربوي ، تحت طائلة التفجّر . وربما كان أحد أسباب الأزمة الراهنة في التعليم ، منذ حزيران ١٩٦٨ ، هذا التطلّع إلى الجديد ، أي إلى الحياة التي يُجهر بها التلاميذ والأساتذة . فالغرام والمخدّر والتحليل النفسي ، إلخ ، تسارعت على الرغم من مقاومة بعضٍ من المفتشين والموظفين الآخرين . ولكن ذلك لا يمضي دون ضروب من الحصر . فالخاصة المستقرة والمتينة للفعل التربوي تتهاوى لمصلحة بحث غير محدّد وتعليم يبحث عن نفسه . وهكذا يستولي على التلاميذ ، والأساتذة ، والآباء ، حصر هو الريبة أمام ضرب من التغيير ، بالنظر إلى أن التلاميذ أصبحوا لا يقبلون الطرائق التقليدية . ولا يشعر الأساتذة ، كما رأينا ، أنهم معنيّون أبداً بالقيم التقليدية التي كان يُطلب إليهم أن ينقلوها . والآباء ، الذين وضعهم أبناؤهم موضع التساؤل في دورهم التربوي ، صاروا لايجدون صورة المدرسة التي كانت تؤمّن لهم الاطمئنان ، تلك الصورة المستقرة التي كانوا يعرفونها . وهكذا ، إلى الحصر تنضاف الضغينة وفقدان التسامح بين الأساتذة والآباء ، وبين الأساتذة والإدارة ، وبين الأساتذة والمجتمع . فتنبعث جميع الأساطير : الأستاذ هدّام المجتمع الذي كان على عاتقه يقع عبء الدفاع عنه وإدامته ، إنه هو الذي صار مسؤولاً عن تطور لا يرغب الكثيرون في أن يروه أو

ربما كانوا يرغبون في إبطائه . ولم يعد الأستاذ يرغب ، وقد فقد مركزه الاجتماعي ، في أن يقوم بهذا الدور ، دور ناقل القيم ، فلم يعد « يوحي بالثقة » . وهكذا يتسارع التطور من جراء كون الأستاذ لا يسعه أن يقوم بهذا الدور الذي لا يمكنه تأديته ، ولا يرغب في أن يقوم به ، ولكنه هو الذي اعتبره الناس مسؤولاً عن الجوانب السلبية لهذا التطور .

ثانياً - طرائق التعليم المختلفة

١ - الطريقة التقليدية

طريق التعليم التقليدية تتميّز على نحو أساسي بـ اللجوء إلى مبدأ السلطة . وعلينا أن نحلّل أهمية هذا المبدأ في التوازن الدافعي بين المعلم والتلميذ . وسنحاول حالياً أن نصف هذه الطريقة ونتائجها . فمصطلح السلطة مشتق من مصطلح قريب من مصطلح يوناني معناه (نمّى ، وسّع ، أضاف) . . . ويدلّ انطلاقاً من هنا على معنى « أنتج ، ولّد » وعلى معنى « أكمل ، أتمّ » . وهكذا ينبغي لفعل السلطة أن يكون فعلاً خلّاقاً يجعل الآخر يتجلّى بل ويمكنه أيضاً أن يوسّع هذا التجلّي . ففعل من يمسك بزمام السلطة يتصف إذن بأنه فعل (مولّد) . ودوره أن يكمل ما يتجلّى ، محاولاً أن يفتح له الحد الأقصى من الإمكانات . والمرء يمكنه أن يتساءل عما إذا كانت العلاقة البيداعوجية التقليدية ، القائمة على السلطة ، تتميّز بمثل هذا الاستعداد إزاء التلميذ . فثمة ازدياد في معارفه بالتأكيد ، ولكن هل يمكننا القول إن جميع إمكاناته تُترك مفتوحة وتُنمّى ؟ ذلكم هو السؤال الذي يطرح نفسه عند الحديث عن الطرائق البيداغوجية .

وهذه الوظيفة ، وظيفة السلطة ، يطرحها طرحاً ضمنياً دوركهايم الذي يتصور الأستاذ على أنه ناقل تقليد مقدس والتربية بالنسبة إليه أمر سلطوي ، فالمعلم هو الكاهن في مجتمع أُضفيت عليه العلمانية ، ويضع في المقام الأول تعاليم ليفرض روح الانضباط على الطفل . ومن المؤكد أنه يعترف بأن المجتمع يتطور ، وأن المرء يجد نفسه في ثقافة تعدّ مكاناً يزداد اتساعاً لاستقلال الفرد ، ولكن هذا

المشكل محلول ، إذ يؤكد أن الحرية والاستقلال يقومان على جعل معايير المجتمع داخلية لدى الفرد . فأن تكون حراً يعني أن تقبل القيم التي يفرضونها عليك .

وإلى هذا اللجوء إلى مبدأ السلطة ، يضيف غودي بالماد خمس خصائص أخرى في كتابه : « الطرائق البيداغوجيه » :

آ ـ البساطة والتحليل والتقدمية : ويتعرّف المرء هنا على القواعد الديكارتية التي وسمت بصورة عميقة أسلوبنا في فهم العالم : « تقسيم كل الصعوبات التي اتفحّصها إلى أكبر قدر من الأجزاء التي يمكننا تقسيمها إليها والتي تكون لازمة لحلّها حلاً أفضل » . « قيادة أفكارنا بنظام ، بادئين بالموضوعات الأكثر سهولة والأيسر معرفة ، لكي نصعد شيئاً فشيئاً ، وكأننا نصعد درجة درجة ، إلى معرفة الموضوعات الأكثر تركيباً ، فارضين النظام بين الموضوعات التي لا يتلو بعضها البعض الآخر بصورة طبيعية » . (القاعدتان الأولى والثانية من قواعد مقال في الطريقة) . فالتعليم منظور إليه على هذا النحو على أنه جمع عناصر بسيطة ذات طبيعة واحدة ، ومفهوم بوصفه أسلوباً تراكمياً وكمياً . إنه يبدو بمثابة ضرب من لعبة البناء التي تمثّل المركّب وتردّه إلى مجرد جمع .

ب ـ الصورية : يبقى الارتباط الذي يتمّ بين مختلف العناصر البسيطة صورياً ويجري الإكثار من التصنيفات والتناظرات

ج ـ الاستظهار : يُطلب إلى التلميذ أن يبذل جهداً كبيراً في الاستظهار لكي يتعلّم هذه العناصر البسيطة التي اكتشفها التحليل .

د ـ التنافس : الذي يكمل مبدأ السلطة الذي تكلمنا عليه من قبل . وقد ألحّ عليه الجزويت . وثمة مجادلات حول هذا الموضوع انتشرت . ففوائد التنافس ، في رأي بعضهم ، « أنه يمثّل الحياة الواقعية في المدرسة بضروب تراتبها وخصوماتها ومزاحماتها ، ويعوّد الطفل أن يعتمد على جهوده وعمله ، وعلى أن لاينسى في الوقت نفسه جهود الآخرين وعمل الآخرين » . ولكن بوسع المرء أن يتساءل عما ذا كان التنافس لايعرّض مناخ الصف إلى التزييف وإلى تشجيع التكبر والزهو

هـ ـ الحدس: على المدرس أن ينطلق من العالم الحسي المسمّى العالم المشخّص . وهكذا كانت تعليمات التعليم الابتدائي الرسمية تنصح بمايلي : «في كل تعليم ، يستخدم المعلم ، لكي يبدأ ، موضوعات حسية ، ويجعل الأطفال يرون الأشياء ويلمسونها ، ويضعهم في مواجهة الوقائع المشخصة ، ثم يمرّنهم تدريجياً على استخلاص الفكرة المجردة منها وعلى التركيب والتعميم والمحاكمة دون الاستعانة بالأمثلة المادية » . ومثل هذه التعليمات عظيمة الفائدة في الكشف لنا عن الآراء المسبقة لعصر من العصور . ويحسّ المرء بتأثير ديكارت ولوك في هذه المبادىء . فثمة اعتقاد بأن الفكرة المجردة موجودة مسبقاً هناك ، حاضرة في الواقع ، ويكفي بكل بساطة أن ننظّفه ونزيل ماعلق به : والواقع أن العالم الحسي لدى الطفل يتصف إلى درجة محسوسة بأنه بناء من نموذج معقد وليس له البساطة التي يراد إضفاؤها عليه . فلماذا يكون بوسع الطفل أن ينتقل من المشخّص إلى المجرد ؟ وبأي آليات ؟ .

وفي أساس هذه المسلمات جميعها ، ثمة سيكولوجيات مختلفة ، عرضة للمناقشة كثيراً . فثمة سيكولوجيا مذهب التداعي التي تدّعي تحليل الحياة النفسية بمجرد حركة التداعيات بين الأفكار ، وتحاول أن تعيد تركيب كلية الحياة السيكولوجية بضرب من تنسيق الحالات الأولية ؛ والسيكولوجيا الاختبارية التي تعتقد أن كل معرفة لايمكنها أن تتمّ إلا انطلاقاً من حواس انطبعت عليها تأثيرات العالم الخارجي ، والصورة التي تبقى تكوّن الفكرة ؛ وسيكولوجيا الملكات التي تفكك الفرد إلى تكوينات مختلفة « إدراك ، ذاكرة » يجب تمرينها وتنميتها بالتدريب .

ولكن الطريقة التقليدية تتميّز أيضاً بالمفترض التالي : كل طفل يكتسب الثقافة المدرسية منعزلاً . فوجود التلاميذ معاً لايقتضي التعاون لهذا السبب . والواقع أن كل طفل يعقد مع المعلم علاقة موازية خاصة به على سبيل الحصر . والثقافة فعل فردي وشخصي قبل كل شيء . وهي لايمكنها أن تنبعث من عمل يتم على نحو مشترك ، بل من نمو ذاتي للتلميذ الذي ينبغي له أن يرتفع إلى اكتشاف « طبيعة إنسانية » كلية منطلقاً من « طبيعته » الخاصة . وهذه الطبيعة

الانسانية الكلية اتخذت في الغرب أشكالاً مختلفة : الاله ، والخير ، والعقل ، ولكنها تحدد مسيرة بيداغوجية واحدة تقوم ، بكبت الجسم والوجدانية ، على السمو بفرد وحيد وعقل محض إلى الحقيقة

٢ ـ الطرائق الفعّالة

والمرء لا يمكنه أن يقيم التقابل على نحو حاسم جداً بين الطرائق التقليدية والطرائق الفعّالة دون أن يبالغ في الفروق ، ذلك أن علم التربية ، على الغالب ، تفوته المبادىء النظرية الجميلة التي نفترض أنها تحكمه ؛ وعلى العكس من ذلك ، يستعين كثير من علماء التربية على الغالب بفلسفات ليست مطابقة لممارساتهم . فليس ينبغي للمرء اذن أن يأخذ جميع التقابلات على حرفيتها . وهكذا لايسعه القول إن الطرائق الفعّالة تتعارض تعارضاً جذرياً مع الطرائق التقليدية بالمصطلح « فعّال » ، ذلك أنه لاوجود لأي اكتساب وتعلّم دون فعالية معيّنة يبذلها من يتعلم . ولكن مايميّز الطرائق الفعالة من الطرائق التقليدية كون الطرائق الأولى تتمحور حول اهتمام الطفل ، محاولة تشجيع إبداعه واكتشافه العالم : فلابد اذن ، انطلاقاً من هذه الحالة ذاتها ، من معرفة الطفل ورغباته وسيكولوجيته لنسلك بحيث ننطلق من عالمه لا من عالم الراشد. فلم يكن المدرس التقليدي يُعنى بالموجود الذي كان يعلّمه . وكان جاك جاك روسو ، منذ القرن الثامن عشر ، يوصي الأساتذة ، على هذا النحو ، بمعرفة تلاميذهم ، وذلك أمر لم يكونوا يفعلونه في ذلك العصر . وينبغي للمرء أن لا يعتقد مع ذلك أن الطرائق الفعّالة تعني القيام بتربية من النموذج الحسي ـ الحركي حيث يقتصر الطفل على اكتساب مهارة حركية . إنها تطمح إلى تكوين الموجود الانساني في كليته ، ولكنها تفعل ذلك وهي تحاول أن تأخذ بالحسبان مختلف مراحل النماء والنمو لدى الطفل . والموضوعات التي تفصّل فيها التربية الجديدة عديدة إلى حد كبير ويمكننا تجميعها حول محورين كبيرين كما فعل بياجه في الموسوعة الفرنسية :

ـ الاتجاه ذي المنحى الفردي أو الاتجاه الذي يضفي الفردية .

ـ الاتجاه ذي المنحى الاجتماعي أو الاتجاه الذي يضفي الصفة الاجتماعية .

ـ الاتجاه ذو المنحى الفردي أو الاتجاه الذي يضفي الفردية

آ ـ طريقة منتيسوري

انطلقت السيدة منتيسوري من ملاحظة الأطفال المتخلفين عقليا الذين عاينت لديهم أن الفاعلية العفوية تعطي نتائج أعلى بصورة واضحة من النتائج التي تعطيها الطرائق التقليدية . وعندئذ فكرت في أن تنقل هذه الطرائق إلى أطفال أسوياء . فمبادىء طريقتها هي التالية :

ـ احترام حرية الطفل مع اقتران الانضباط بها . فليس اقتران الانضباط بالحرية ممكناً فحسب ، بل هو ضروري وطبيعي .

ـ أوضحت مدام منتيسوري وجود مراحل حسية لدى الطفل ، وأي مراحل بوسع الطفل خلالها أن يحقّق بعض المكتسبات الجديدة . وهكذا أعدّت مجموعة كاملة منسّقة من التمارين التي تتغيّر مع العمر (تمارين الدمج والتعليب ، الخ) .

ـ عرف علم التربية المانتيسوري نجاحاً كبيراً جداً ، ولكن بالإمكان مع ذلك أن تؤخذ عليه مسلماته النظرية التي ترتبط بضرب من سيكولوجيا الإحساس الصرف ، لا بدراسة الآليات الحسية الحركية .

ب ـ طريقة ديكرولي

يعرض ديكرولي ذاته تصوره للمدرسة على أنها مدرسة من أجل الحياة وبالحياة . وطريقته تتعارض مع الطريقة التي تنادي بها السيدة منتيسوري ، ذلك أنها تسلّم بأن النمو النفسي للطفل يتم بدءاً من الإجمالي ، من اللاامتمايز ، لكي يصل إلى التحليل . وجميع الناس أيضاً يعرفون الطريقة الإجمالية في القراءة التي تبدأ بقراءة الكلمات أو الجمل الصغيرة بدلاً من حفظ الأحرف وحدها . والإجمالية لا تُطبّق على القراءة فحسب ، بل تمتدّ إلى جميع فاعليات الطفل شأنها شأن مراكز الاهتمام . ويعرض ديكرولي على هذا النحو مبادىء تعليمه الأساسية :

ـ تطبيق ضرب من برنامج الأفكار المترابطة ، ودراسة الطفل ووسطه .

ـ استخدام طريقة مراكز الاهتمام .

ـ تقسيم فروع التعليم آخذين بالحسبان ضروب التكوين السيكولوجي الكبرى : ملاحظة وتداعياً وتعبيراً .

ـ الأفضلية ممنوحة للطرائق الحدسية والفعّالة والبنّاءة .
ـ فاعلية شخصية تشجعّها ممارسة المشاغل اليدوية واستخدام الألعاب التربوية .

ج ـ طريقة دالتون

هذه الطريقة كانت قد أعدّتها الآنسة هيلين باركورست التي جرّبتها من عام ١٩١١ إلى عام ١٩١٣ في مدينة دالتون . ومبدآ هذه الطريقة الأساسيان هما: اترك للطفل كامل حريته ونمّ لديه الملكات العفوية الخاصة به . فبرنامج الدراسة مشترك ، والهدف إذن شبيه بهدف التربية التقليدية ، ولذلك تُستخدم أيضاً بعض وسائل هذه الطريقة . ولكن لكل طفل إمكان العمل وفق المخطط الذي يحدّده لنفسه ، وذلك أمر يتيح له أن يعبّر عن حريته وأن يمارس مسؤوليات صمّم هو ذاته على أن يأخذها على عهدته . ويحرّر الطفل عقد عمل مع المعلم الذي يصنع له مخططاً مفصّلاً لمهمته . ثم تكون له كل الحرية في إنجازه . فالمخطط الدالتوني يبحث عن أن يعيد لكل طفل حس المسؤولية إذ يقيم العمل على الإيقاع الفردي وقابليات كل طفل وعلى الحرية والانضباط الداخلي . وثمة ميزة أخرى لمثل هذه الطريقة تكمن في أن الطفل يعرف تقدمه بصورة دائمة . ولكن هذه الطريقة كانت موضع نقد شديد لعدة أسباب : وأول من انتقدها أنصار الطرائق الفعّالة الذين يأخذون عليها أنها تحافظ على المناهج وعلى الكتب المدرسية . والواقع أن ثمة نشرة تشير ، منذ بداية العام ، إلى ماينبغي للطفل أن يتعلّمه ، بالإضافة إلى أن الطفل يستخدم ، إذ يعمل وحيداً ، كثيراً من الكتب . وهدف مثل هذه الطريقة هو أيضاً هدف يجمّد الطفل من حيث أنه لا يرمي إلا إلى اكتساب المعارف الجديدة . ويؤخذ على طريقة دالتون أخيراً أنها تكوّن التلاميذ تكويناً فردياً ولكنها لا تفتّحهم للحياة الاجتماعية .

ـ الاتجاه الذي ينمّي الخصائص الاجتماعية أو الذي يلحّ على الوقائع الاجتماعية

ثمة طرائق أخرى تحاول أن تعتمد على الغريزة الاجتماعية التي تتجلّى لدى الطفل مع أنها تحاول ، في الوقت نفسه ، تنمية الآليات الفردية الفكرية . وهذه

الطرائق الجديدة تحاول على هذا النحو أن تجعل الطفل يعيش بصورة اجتماعية . والطرائق التي عرضناها سابقاً لم تكن تهمل مثل هذا البعد إهمالاً تاماً ، ولكنها لم تكن تمحور اهتمامها عليه من جراء كونها تهدف إلى التفرّد . ومع ذلك ، بوسعنا على نحو تام جداً أن نجعل طريقة في العمل حسب المجموعات لأطفال تقارب أعمارهم عشر سنوات (وذلك عمر تبدأ فيه الغريزة الاجتماعية بالنمو للعمل المشترك يمكنه بواسطتها أن يُنجز بصورة حقيقية) تحلّ محل طريقة ديكرولي التي تُستخدم لأطفال صغار .

آ ـ طريقة « الحكم الذاتي »

هذه الطريقة لا يمكنها أن ترتدّ إلى مجرد الانضباط الذاتي . إن قوامها أن يأخذ الأطفال على عاتقهم كل ما يتعلّق بالجماعة ، انضباطاً وفاعليات وإدارة لهذه الفاعليات . ويحدث فيها رقابة الجماعة نفسها بنفسها . والمزايا التي تنطوي عليها هذه الطريقة هي التالية : يكتشف الطفل قيمة أخلاقية جديدة كالتعاون والعدالة والجزاء .

ـ إنها تنمّي فيه حس المسؤولية عن الجماعة بوصفها مندمجة في المجتمع . ويساهم على هذا النحو مساهمة عفوية في المجتمع ولديه الوعي الواضح بما يفعل .

ـ إنها تمنحه الاحساس بالعدالة أيضاً .

ـ إنها تنزع إلى إبراز الرؤساء ، قادة الجماعة . ولهذا السبب يمكننا التساؤل عما إذا كانت هذه الطريقة ديموقراطية . ولكننا إذا لم نشدّد على إبراز القادة ، فإن هذه الطريقة يمكنها أن تنطوي على إعداد الفرد للحياة الديموقراطية . وتطبيقات هذه الطريقة عديدة . فالكشافة صورة من صور الحكم الذاتي على نحو من الأنحاء . ومدارس « الروش » في فرنسا تترك لتلاميذها أعباء « المنزل » ووظائفه . و لـ« جمهورية جورج الصغيرة في مدينة فريفيل » بالولايات المتحدة الامريكية دستور يقلّد دستور الولايات المتحدة الامريكية حرفياً . وكثير من « المدارس العامة » في انكلترا تطبّق هذه الطريقة أيضاً .

ب ـ العمل في مجموعات

ينبغي لنا أن لا نفهم من أن العمل في مجموعات مجرد عمل مشترك بإدارة المعلم يؤول في الواقع إلى عمل منعزل يبدع فيه كل تلميذ لذاته ، بل ينبغي لنا أن نفهم منه أنه ضرب حقيقي من « تعاون التلاميذ » . وطليعيو مثل هذه الطريقة هم كوزينه في فرنسا ، وبتر بترسون بلينا في ألمانيا ، وساندرسن في انكلترا ، وتوبلر في سويسرا . ويحدّد كوزينه على هذا النحو طريقته في مقال بعنوان « تجربة العمل الحر » : يجتمع الأطفال في مجموعات تضم الواحدة منها خمسة أو ستة ، وكل مجموعة تختار العمل الذي ترغب في أن تؤديه . والعمل الذي تختاره المجموعة يتم تنفيذه بالتعاون بحيث أن كل عضو من أعضاء المجموعة يحمل إليها عاداته ومعارفه ويساهم في العمل المشترك . ولا يُختار رئيس المجموعة إلا في نطاق احترامه شخصية كل عضو ومساهمته الخاصة . فاذا قُبل العمل المنجز ، جرى نسخه إما على البطاقات وإما على دفتر . ونهاية النهار هي الفترة التي يسرد خلالها كل فريق عمله إلى الفرقاء الآخرين . ومثل هذه الطريقة تنطوي على ميزة مفادها قيادة الطفل من نزعة التمركز على الذات ، التي يتميّز بها ، إلى الشعور بنسبية آرائه ، فيبلغ بفعل هذا ذاته صورة معيّنة من صور الموضوعية . إن « التعاون والشخصية يترافقان كما تترافق نزعة التمركز على الذات والإكراه » ، مثلما يقول بياجه في الموسوعة الفرنسية .

ج ـ طريقة فرينه

لم يكن فرينه يحسب أنه كان قد أعدّ طريقة من الطرائق بصورة حقيقية ، بل بالحري مجموعة من التقنيات . يضاف إلى هذا أن المرء لايمكنه أن يصنّفها في إطار الطرائق التي تضفي الصفة الفردية ولا في الطرائق التي تضفي الصفة الاجتماعية ، ولكنها تشارك في النوعين . وقوام طريقة فرينه أن التلاميذ يبدعون النص ويطبعونه . وهذه الطريقة ، طريقة المطبعة في المدرسة ، تشجّع على تعلّم القراءة والخط والكتابة . وبوسع الأطفال ، فضلاً عن ذلك ، أن يمارسوا حس الإبداع لديهم .

د ـ علم التربية المؤسسي

لايؤلف علم التربية المؤسسي طريقة تمّ إعدادها إعداداً كاملاً كما يدلّ على ذلك عنوان مؤلف عايده فاسكز وفرناند أوري : « صوب ضرب من علم التربية المؤسسي » . وينطلق علم التربية المؤسسي من المعاينة التي مفادها أن بنيات المدرسة الابتدائية المدينية الراهنة ترتكز على ثلاثة آراء مسبقة : إضفاء التماثل على التلاميذ الذين لا يستطيعون تنمية خصوصيتهم ؛ وإعطاء قيمة كبرى للتعليم على حساب تربية حقيقية ؛ والطفل ليس سوى تلميذ . وعلم التربية الجديد هذا لا ينبعث من العدم ، ولكنه ينضوي إلى مجموعة البحوث التي عرضناها : علم التربية لدى ديكرولي ، وإسهام فرينه ، ومخطط دالتون ، وحركات الشبيبة الفرنسية (روّاد فرنسا) ، ومراكز التدريب على الطرائق الفعّالة ، الخ . وهو يحاول أن يدمج المساهمات الحديثة لعلم نفس الجماعات (أعمال لوفن وروجرز) وللتحليل النفسي (مفهوم بوصفه تقنية علاجية وتقنية تحليل أيضاً) والعلاج النفسي المؤسسي « علاج غير متمحور حول علاقة استيهامية ثنائية بل حول شبكات لاشخصية كثيرة من المستوى الرمزي » (الدكتور توسكيل) . ويمكننا تعريف علم التربية المؤسسي بأنه « مجموعة من التقنيات والتنظيمات وطرائق العمل والمؤسسات الداخلية ، ناشئة من الممارسة (البراكسيس) في الصفوف على الطرائق الفعالة . ويضع الأطفال والراشدين في أوضاع جديدة ومتنوعة تقتضي من كل فرد منهم التزاماً شخصياً ومبادرة وعملاً واستمرارية » (ص ٢٤٥ من المؤلف المذكور) . وهدفه أن يتيح ويشجّع تواصلاً داخل المدرسة لا يتصف بأنه ذو طبيعة فكرية فحسب ، بل وذو طبيعة وجدانية أيضاً .

٣ـ الطرائق التي تعتمد الحرية المطلقة

إنها طرائق تناقض الطرائق التقليدية وتدفع تناقضها إلى الحد الأقصى ، وذلك أمر لم تكن تفعله طرائق التربية الجديدة . وهذه الطرائق تثق ثقة تامة بطبيعة الطفل ، وتتركه ينمو في ضرب من الحرية التي أُريد لها أن تكون شبيهة بالمطلقة . و « أكبر جريمة ترتكبها التربية الراهنة ضد الطفل ، يصرّح أحد علماء التربية القائلين بهذه الحرية ، هيلن كي ، هي أنها لا تدعه في سلام » . وهكذا

فإن الصفوف في هامبورغ لم يكن لها مواقيت ، ولا منهاج سنوي ، ولا توزيع للتلاميذ إلى صفوف . وليس المعلمون غير رفاق ، والتلاميذ هم الذين ينبغي لهم أن ينظّموا انضباطاً إذا كانوا يرغبون فيه . وكان ذلك بالتأكيد إخفاقاً كلياً . وكانت مثل هذه المحاولة قائمة على أسطورة ، أسطورة طبيعة تندفع من تلقاء ذاتها دون أي تحريض ؛ وقائمة على خطأ ، خطأ الاعتقاد بأن الطفل يميل ميلاً عفوياً إلى العمل والحس الاجتماعي . وإذا كان بعضهم قد استطاع أن يقود هذه التجربة إلى نهاية سعيدة ، فإن الأطفال كانوا غير متكيّفين كلياً بالنسبة إلى قوانين المجتمع الذي كان لا بد لهم من أن يندمجوا فيه يوماً من الأيام .

والخلاصة أن الطرائق التي تعتمد الحرية المطلقة تتعارض مع الطرائق الجديدة من حيث أنها تثق ثقة تامة بطبيعة الطفل الطيّبة . فالطرائق الجديدة لا تراهن على حرية مثالية وسلبية ، مع أنها تحاول تنمية حرية الطفل ، بل تراهن على حرية يفوز بها الطفل . ولا يتصف هذا الفوز بأنه كالطرائق التقليدية غير المتكيّفة مع قوى الطبيعة ومراحل نمو الطفل ، ولكنه يُقترح على الطفل عندما يكون حقاً قادراً على إنجازه . فالراشد يتدخل ، ولكنه لا يفرض وجهة نظره بأسلوب وحيد الجانب وفجّ . إنه يتوارى بقدر ما يبلغ الطفل لذة الاستقلال .

النزعة الطبيعية وعلم التربية

ومع ذلك فان القراءة السريعة التي أنجزناها لمختلف هذه الضروب من البيداغوجيا لدى علماء التربية تكشف عن تسويغات من النموذج الفلسفي متفاوتة مع ممارستها ، ولكنها تكشف أيضاً عن قصور في التفكير الأساسي في هذه الممارسات ذاتها . وهكذا بيّن بلوخ(٢) أن التربية الجديدة كانت ترتكز على مسلمات فلسفية لم يستخلصها المربون ويربطونها بفلسفة من نموذج ذي نزعة طبيعية . وتبدو مثل هذه المسلمات بوضوح عندما ندرس تطور المجتمعات وتطور الأنظمة البيداغوجية .

والواقع أن نمو الطفل ليس أبداً نمواً طبيعياً ، ولكنه يندرج دائماً ويتعدّل وفق

---

(٢) في «فلسفة التربية الجديدة» ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

مجتمع معيّن وصل إلى درجة معينة من النمو . فطرائق الحكم الذاتي ، التي تتيح للطفل أن ينمّي ارتباطه الاجتماعي ، لم يؤسسها الأطفال الذين يتصفون بأن هذه العاطفة ليست طبيعية لديهم ، بل وضعها مجتمع معيّن يرغب في تنمية هذه العاطفة لديهم . ويبدو بالتالي كأن التقابل بين طرائق قاسرة (تقليدية) وطرائق تربية الحرية (المدرسة الجديدة) لا تكمن كثيراً في تغيّر داخلي أو أساسي ، بل في أننا نسمي الطرائق التي لم تعد تبدو ، في مجتمع معيّن ، متوافقة مع حاجات هذا المجتمع ، طرائق قاسرة .

يضاف إلى هذا أن بوسع المرء أن يبيّن أن طرائق التربية الجديدة تكوّن أيضاً أساليب في فرض مُثُل على الطفل ، ولتكن ضرورة العمل المشترك والميل إلى التعاون . وإذا كان القسر أقل اتصافاً بأنه مرئي ، فانه يبدو مع ذلك في فرض معايير ربما كانت أفضل إخفاء من قبل . فكيف يُنظر إلى الطفل الذي لا يرغب في أن يلعب ولا أن يعمل عملاً مشتركاً ؟ إنه يعاني هو أيضاً قسراً جديداً تمارسه روح الجماعة عليه . ومن المعروف ، فضلاً عن ذلك ، أي استخدام لمناقشات الجماعة أتقن الأمريكيون صنعه : إن « العمل » المشترك يصبح مناسبة لضرب من الإقناع المشترك . وهكذا يجب أن توضع طرائق التربية الجديدة موضع التساؤل تبعاً لفلسفة في التاريخ . فهي تُدخل ضرباً من الرؤية المعيّنة للطفولة ، رؤية تتلوّن بنزعة طبيعية ينبغي لنا وضعها موضع التساؤل .

ثالثاً ـ المعرفة والحقيقة في العلاقة البيداغوجية

طرائق التعليم تابعة بصورة عامة لحالة مجتمع من المجتمعات ، وذلك ما بيّنته الدراسات التي أنجزها بعض علماء الاجتماع . ولكن هذه الدراسات ينبغي لها أن لاتحجب عنا العلاقة النوعية التي بين المعلم والتلميذ . فما هي الحركة الوجدانية الدافعية التي تقوم بينهما ؟ إن الطرائق لاتولّد في ذاتها شيئاً

حاسماً . وكل شيء يتمّ على مستوى العلاقة بين معلم ذي توازن دافعي معيّن وتاريخ ، وبين جماعة من الأطفال . ويبدو جيداً أن جميع علماء التربية الكبار كانوا ، على الرغم من الانتقادات التي يمكننا صياغتها لتسويغاتهم النظرية ، وُهبوا ضرباً من سهولة الاتصال النادرة بالتلاميذ . ونجاحهم لم يتقن على الغالب إيجاد الأسس المفهومية والفلسفية المناسبة . فلا بدّ لنا إذن ، في مرحلة أخيرة ، من أن نبيّن ما يحدث في علاقة المعلم والتلميذ .

١ - وضع المعلم والتلاميذ

ولكي نستعيد التعاقب في مختلف الطرائق التي عرفتها المدرسة ، فإننا نستطيع القول إنها تقابل ضرباً من احتياز الشعور التدريجي بالعلاقات بين المعرفة والحقيقة . فالمعلم كان يمتلك ، في الطرائق التقليدية ، معرفة كانت مطابقة للحقيقة أو ، بالحري ، جعلها تُعتبر مطابقة للحقيقة . ولم يكن ممكناً أن يوضع الكلام العظيم الذي يقوله المعلم موضع التساؤل من خلال الموقف الذي يتّخذه أمام صفه . وكان حق الكلام له وحده ، وكانت حقيقة الصف هي حقيقته ، سواء من وجهة النظر الفكرية أو من وجهة نظر النمو الوجداني الذي كان يهمله مع ذلك . ذلك ينضمّ إلى مايجري في كل علاقة بين المعلم والتلميذ في ظلّ أي طريقة كانت ، باستثناء الطرائق التي تستبعد المعلم . وكل علاقة بيداغوجية ، وكل علاقة غرامية أيضاً من جهة أخرى (زمن الخطوبة) تبدأ بخديعة ، أو كما قيل بصدد الطفل وأمه ، تبدأ بعلاقة من النموذج المتخّيل مصنوعة من الإسقاطات والتوحّد(٤) . وكما يسقط كل من الطفل والعاشق نفسه في الأم والحبيب ، كذلك يجري التلميذ على معلمه جميع ضروب الإسقاطات التي لابدّ له من أن يتخلص منها بالتدريج . والوهم الأول الذي يصنعه هو وهم الاعتقاد بأن المعلم ، ما دام يمتلك المعرفة ويعطيها ، يمتلك الحقيقة . ويجب أن يفهم المرء أن مثل هذا الوهم لايمكنه أن يزول بفعل أي طريقة كانت ، بل هو يرتبط ارتباطاً داخلياً بوضع المعلم - التلميذ.

---

(٤) «العودة الى فرويد» ، فصل في هذا الكتاب .

٢ ـ هل المعلم ضرب من الغاوي ؟

مهمة المعلم لايمكنها ، بالنسبة اليه ، أن تكون خالية من غواية معيّنة . فاذا أوضحنا معنى هذه الكلمة ، رأينا أنها تعنى (وجّه لنفسه) ، أقنع ، أعاد إلى الصواب . فالمعلم إذن ضرب من الغاوي تماماً . ولكنه لايمكنه أن يستغلّ هذه الغواية تحت طائلة أن يسدّ كل انفتاح شخصي لتلميذه العاجز عن أنه يميز المعرفة من الحقيقة .

ونجد أيضاً مرة ثانية مثل هذا اللاتمايز بين المعرفة والحقيقة لدى بعض المرضى النفسيين الذين أُدخلوا مشافي الأمراض النفسية ،حيث تتّخذ معرفة الطبيب النفسي ، ذات القوة الكلية ، مفعول الحقيقة بالنسبة للمريض(٥) . إن الطبيب النفسي هو الذي يكون على صواب ضد حقيقة المريض الذي يقتنع في نهاية المطاف أنهما على صواب (أي الطبيب والأسرة) . ولن يبلغ التلميذ استقلاله إلا يوم تنفصم أخيراً عروة المعرفة ـ الحقيقة ويميّزها تمييزاً متنامياً . فاذا استمر المعلم في استغلال الغواية ، فإن الطفل لن يستطيع أبداً أن يتكلم ، ولن يمارس غير قول واحد : قول الأستاذ .

ويبدو لنا ، في المؤسسة المدرسية التقليدية منذ حزيران ١٩٦٨ ، أن هذه العلاقة من الغواية والخديعة هي التي كان التلاميذ قد وضعوها موضع التساؤل ، في الصفوف المتقدّمة على الأقل . وإذ كان المعلم يمتلك المعرفة ، فإنه لم يعد يمسك بزمام الحقيقة ، وعليه بالتالي ، من الآن فصاعداً ، أن يُخضع للمناقشة هذه الحقيقة التي يحاول أن يُدخلها في معرفته . وعليه أن يقدّم إلى موجودات تسويغاً لمسعى يقوم به . فأن يكون ارتكاس الأساتذة ، والآباء ، والتلاميذ في بعض الأحيان ، قلقاً وخوفاً ، أمر لايثير الدهشة أبداً ، من حيث أن المدرسة تصبح من الآن فصاعداً ، بصورة واقعية ، حقلاً وميداناً للكلام ، حيث ينبغي لكل فرد أن يطرح استقلاله في المواجهة مع كلام الغير . إنه لأمر يثير الحصر دائماً أن يبدأ المرء بالكلام وأن يطرح ذاتاً .

---

(٥) «الضعف العقلي موضع التساؤل» ، فصل في هذا الكتاب .

والتحرّر الحقيقي هو إذن (أياً كانت الطريقة المستخدمة ، ولكن يبدو لنا أن طرائق التربية الجديدة أدركت المشكل إدراكاً أفضل) ذلك التحرر الذي يوضّح الخديعة التي تنطلي بالضرورة على كل تلميذ وهو يوحّد بين معرفة المعلم والحقيقة . والمعلم الحقيقي هو الذي يوفّر لتلاميذه حيّزاً من المعارضة ومن وضع تعليمه موضع التساؤل ، إذ يستبعد آلية الدفاع التي يمكنها أن تمثّل السلطان . ويتطلّب هذا الأمر أن لايستخلام على مستوى تعليمه مشكلات دافعية شديدة الخطورة حتى لايشعر بأنه ، شخصياً ، موضع هجوم في هذه الانتقادات . والحال أنه سيكون ، شخصيا ، موضع هجوم بمقدار مايحافظ ، مع هذه المشكلات الدافعية ، على علاقة غواية من النموذج المتخيّل ، وستنصبّ العدوانية عليه مباشرة إذا تفجّر فيها أي نزاع . إن من يغوي هو الذي يكون موضع الهجوم . وإذا ترك في كلامه ، على العكس ، ضرباً من التمفصل الممكن بين المعرفة التي يمثّلها وبين الحقيقة التي يرمي إليها ، فإن نزاعات الجماعات تنصبّ في المدرسة على مستوى رمزي ، حيث الكلام يتوسّط النزاعات . وليس من المدهش ، ونظامنا التربوي يخرج من بعض قرون من الغواية ، أن يكون البدء بالكلام ، لدى المراهق الذي يمزّق هذا الحجاب ، هو العدوان ، ذلك أنه ليس لديه صيغ أخرى من الكلام . فعلى المعلم التقليدي إذن أن يتحمّل عدواناً دائماً يفوته إدراكه ، ولكنه يمسّه بصورة عميقة في وجوده . إنه في وضع المحلّل النفسي الذي يعتقد دون ارتياب بضروب العدوان التي تتجلّى إزاءه. ولكن الأستاذ ليس محلّلاً نفسياً .

* * *

الفصل الثالث

علـــم الأمـــراض

وعدم التكّيف المدرسي

أ ـ أكسالى أم غير متكيفين في المدرسة ؟

عدم التكيّف المدرسي ظاهرة تزداد خطورة ، وهنا إنما تتلاقى ممارسة عالم النفس المدرسي وممارسة مختلف المربين ، من معلمين وآباء ومساعدين تربويين ، الخ ، وممارسة الأطباء أيضاً . وتقدّر إحصاءات وزارة التربية الوطنية ، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ ، أن ٤ بالمئة من تلاميذ المدرسة الابتدائية يُظهرون ضروباً من التأخر والاضطرابات ذات الطابع المدرسي . ولايدخل العاجزون وغير المتكيفين ، اللذين سيكونون موضع البحث في الباب الثالث ، في هذه الاحصاءات . يضاف إلى هذا أن النسبة المئوية لعدم التكيف تزداد مع العمر : ٢٠٪ في سن السادسة و٣٧٪ في سن الثانية عشرة من التلاميذ غير المتكيفين . وليس من اليسير أن نحدّد مقاييس لعدم التكيف تحديداً واضحاً ، ذلك أن القصور المدرسي يمكن أن يكون عابراً وسطحياً ، وقد يكون دائماً أو عميقاً . ويصيب عدم التكيف فئات اجتماعية مختلفة بدرجات شتى ، ويتجلّى انطلاقاً من بعض الطرائق البيداغوجية ، وهو أقل تجلياً انطلاقاً من بعض الطرائق الأخرى . ويمكن التعبير عن عدم التكيّف في علاقته بالوسط المدرسي ، والتعليم ، والطرائق البيداغوجية ، والانضباط المؤسسي ، والحياة في الجماعة ، ألخ . ويسمى هؤلاء الأطفال : « غير أسوياء » ، و« عسيرين » ، و« متوانين في العمل » و« متأخرين » ، و« غير منتظمين » . وهذه التسميات ضبابية وقليلة الاتصاف بالصفة العلمية ، وتحجب

على نحو أكبر عجز علم لعدم التكيف المدرسي عن الكشف عن طبيعة عدم التكيف وعن أسبابه الواقعية . ومع ذلك ، ساهمت انطلاقة العلم البيداغوجي ، وعلم نفس الطفل ، وعلم اجتماع التربية ، مساهمة واسعة جداً في تعميق علم النفس المدرسي ومشكلات عدم التكيّف .

ب ـ القصور العقلي ملاحظ

ملاحظة السلوك في المدرسة واسعة إلى حد كبير ، وتتطلّب تعاون المعلمين والأطباء وعلماء النفس . ومع ذلك كان عدم التكيف المدرسي ، بالمعنى الصحيح للكلمة ، موضع رقابة في المجال العقلي : والواقع أن هذا المجال يسهل رصده وتكميمه ، ذلك أنه يُدخل مفهوم القياس والسلّم والرسم البياني في السلوك الذي يمكن تحديده بصورة موضوعية ، منطلقين من ثبات المقاييس التي يمكننا ملاحظتها . ويُظهر مفهوم المستوى وحاصل الذكاء سلّماً للحكم يمضي من السلوكات التي تقع تحت المتوسط بالنسبة للمصابين بالقصور العقلي (المعتوهين والبلهاء والمصابين بالضعف العقلي العميق) إلى السلوكات التي تسجّل تجاوزاً شديد الوضوح بالنسبة لفئات الموهوبين جداً . ومع ذلك فان الاقتصار على ملاحظة القابليات العقلية لايفسح مجالاً ليفهم المرء عدم التكيف عندما تكون أسبابه ذات منشأ سيكولوجي ووجداني . فليست متابعة الدراسة في المدرسة والحياة العقلية ظاهرة في ذاتها يمكننا أن نعزلها ، بل هي تتطلّب على العكس كشفاً طبياً وسيكولوجياً كاملاً . فالمصاب باضطراب في السلوك ، على سبيل المثال ، يمكنه أن يكون ذكياً وذا قابليات مطلوبة لمتابعة الدراسة في المدرسة متابعة (جيدة) ، ويمكنه مع ذلك أن يكون متأخراً في دراسته بسبب نزاعات واضطرابات في سلوكه . وأتاح إدخال الروائز في علم النفس المدرسي والبيداغوجيا أن نحلّل الأسباب المختلفة لعدم التكيّف ، ولكشفها ، وأن نأخذ الطرائق البيداغوجية والسريرية التي تتيح مواجهتها بالحسبان .

ج ـ تخطيطية الأسباب الاجتماعية والأسرية أو المدرسية ذات العلاقة بالنسبة المئوية للمتأخرين في المدرسة .

الأسباب	تلاميذ الصفوف العادية	تلاميذ صفوف إعادة التكيف
الأسر المتفككة	١٩ ٪	٣١ ٪
موت الأب المؤدي إلى عمل الأم	٥٠ ٪	٦٥ ٪
الأسر التي يعمل فيها الزوجان في الخارج	٥٠ ٪	٦٤ ٪
سكن غير كاف	١٠ ٪	٢٢ ٪
تأخر مدرسي بالرغم من إعادة الصف	١٨ ٪	٤٨ ٪
نتائج مدرسية أدنى من القدرات الفكرية المقاسة بروائز الذكاء	٩ ٪	٣٠ ٪
عطوبة الأطفال ذوي المواهب المتوسطة	٤٧ ٪	٧١ ٪
غياب ممتد	٢٠ ٪	٣١ ٪
تغيير المدرسة	٣٤ ٪	٤٦ ٪

أولاً ـ قياس الذكاء في علم النفس

١ ـ طريقة الروائز

ظهور الرياضيات والتكميم في ميادين علم النفس وعلم التربية ظاهرة نوعية جداً من ظاهرات النمو في علم النفس . وهذه الإرادة في قياس « الحوادث النفسية » تقسم علماء النفس الذين يمكننا التعبير عن نزاعهم على الوجه التالي : هل الشعور ظاهرة من ظاهرات الملاحظة والتجريب ، وهل يمكنه بالتالي أن يكشف عن جوانب تقبل التكميم يكون سلوكها موضوع القياس ؟ نحن لا نريد الدخول في تفصيل هذا النزاع ، ولاسيما أن هذه المسألة لا يمكنها ، وقد طُرحت بهذه العبارات ، إلا أن تكون مشكلاً مزيفاً .

علم نفس تجريبي

السلوك مرتبط بعدد معيّن من الجوانب الكمية ، وهذه الجوانب المجرودة والمعدودة والمحلّلة يمكنها أن تكون مرتبطة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بمظاهر حياة الأفراد السيكولوجية . وطريقة الروائز نمت انطلاقاً من حاجات علم النفس التجريبي إلى أن يؤمّن لنفسه أدوات تحليل وقياس ، دقيقة ، وموضوعية ، وعملية ، وسريعة . وكانت طريقة الروائز مستخدمة في أوساط ثلاثة مختلفة : في الجيش ، الذي كان يبحث عن وسائل تصنيف سريعة وناجعة (روائز الاصطفاء العسكري) ، وفي المهنة والعمل ، حيث يقتضي الأمر اصطفاء الأفراد الأكثر أهلية لمركز معيّن خاص ، وفي المدرسة حيث ظهرت الضرورة لطرائق بيداغوجية جديدة تعتمد على معرفةٍ بسلوك الطفل في الوسط المدرسي . فطرائق الروائز تتوخّى أن تبعد كل منظور ذاتي ومبهم في الممارسة السيكولوجية لتباشر تقييم السلوك ، تقييماً يتصف بأكثر ما يمكن من الصفة العلمية . وتصنيف الناس بالاستناد الى تحديد سماتهم وقابلياتهم بصورة كمية ، ذلكم هو المعنى العملي الذي يكشف عنه استخدام الروائز في علم النفس . فماذا يتوخّى الرائز أن يقيس ؟ إنه يقيس القابلية . والقابلية كان قد حدّدها علماء النفس تحديداً مختلفاً : إنها ، بالنسبة إلى

أومبريدان ، « قدرة الفرد على أن يستخدم النموذج التطوري للتصرف الأكثر مناسبة لمقتضيات العمل المفروض ، استخداماً بسرعة كافية ؛ أو إنها ، في حال غياب النموذج التطوري ، قدرة الفرد على أن يستخدم تصرفات غير مباشرة تكفي للوصول إلى مردود » . والقابلية ، في رأي كلاباريد ، « خاصة جسمية أو نفسية منظور إليها من زاوية المردود » . ويرى فيها بيرون[1] « الشرط الجبلّي لصيغة معيّنة من صيغ الفعّالية » . فالقابلية قد تمثّل إذن استعداداً فطرياً في السلوك أو في الذكاء لتنفيذ هذا العمل المحدّد والتكيّف معه . وقوام طريقة الروائز منذئذ أن تقيّم تقييماً معيارياً فئات من القابليات تقترب من المتوسط الملاحظ لدى جميع الأفراد بالقياس إلى وضع مدرسي أو مهني معيّن يقتضي أن توضع هذه القابليات موضع الاستخدام الناجع . ونفترض أن القابلية موجودة ، أو غير موجودة ، أو ضعيفة لدى الفرد وفق كون الجواب عن الرائز مناسباً أو غير مناسب . وثمة الكثير من الروائز ذات العلاقة بما نريد قياسه . ونعدّ قياس الذكاء في الوسط المدرسي جديراً بالدراسة هنا لنحلّل كيف يُلاحظ السلوك لدى الطفل في المدرسة ويُحدّد ، بالنظر إلى أن ممارسة علم النفس المدرسي ممارسة شائعة ، ومن المحتمل أن يُراز الأطفال جميعهم في المدرسة خلال زمن قريب .

٢ ـ ما الذكاء بحسب الروائز ؟

التصورات التي صاغها علماء النفس للذكاء متباينة جداً . والذكاء ، على نحو إجمالي ، قدرة عامة على التكيّف مع مشكلات جديدة . ولكن تعريف الذكاء الأكثر شيوعاً يقوم على تمييز الذكاء النظري ، الذي يلجأ إلى السلوك الرمزي واللفظي والمجرد والتأملي ، من الذكاء العملي بوصفه إمكان تكيّف عفوي ومباشر مع وضع مشخص . ويتكلم علماء نفس آخرون أيضاً على ذكاء تمّثلي ، ومبدع ، ونقدي ، إلخ .

---

(١) هنري بيرون ، «علم النفس الفرقي» .

أ ـ الذكاء وعمر الطفل

إن علماء النفس يتصورون الذكاء على أنه وظيفة عليا تنظّم الواقعي وتكيّف الفرد معه . وهذا التصور هو التصور الغالب لدى بياجه . ولكن الذكاء في العمر المدرسي يتحدّد على وجه الخصوص بوصفه امكان اكتساب المعارف وتمثّلها(والاكتساب ظاهرة كمية وكيفية) ، لأن ثمة رابطة بين نمو الذكاء وارتياد المدرسة . ويقيس الرائز ، بدءاً من مجموعات من الاختبارات التي تسمى اختبارات الذكاء ، إن كانت درجة اكتساب المعارف متناسبة تماماً مع متوسط اكتساب الأطفال الذين لهم عمر واحد . وتكون مهمة عالم النفس عندئذ أن يحدّد بالقياس في أي مستوى من النمو العقلي يكون موقع طفل من الأطفال ، آخذاً بالحسبان عمره الفعلي ودرجة معارفه . فليس الذكاء مفهوماً على سبيل الحصر بوصفه ملكة سكونية قد تكون لدى الإنسان عند الولادة أو لاتكون ، بل ، بالحري ، إنه الاستعداد للتكيّف مع الوسط المدرسي والثقافي واللفظي . وهذا يعني أن الذكاء ينطوي على مستويات من النمو بحسب عمر الطفل وارتياده المدرسة . ومن الضروري ، منذئذ ، أن نسجّل الإخفاقات والنجاحات لكي نحدّد إن كان الطفل أعلى من المتوسط العقلي لعمره أو أدنى . وهذا التصور ، تصور الذكاء بحسب الروائز ، يُظهر أن الذكاء يتبنين وفقاً لـ قوانين النمو وأنماط التعبير والمحتويات المتنوعة (٢) ، وهي خصائص مستوى معيّن ومرحلة من مراحل نمو الطفل في سن المدرسة . فممارسة الروائز يقود من تصور سكوني ومجرد للذكاء إلى تصور اختباري ينظّم الواقعي والثقافة ويتمثّلها .

ب ـ الذكاء والشخصية

يتيح رائز الذكاء ، بدءاً من عدد معيّن من الاختبارات المعيّرة والمقنّنة ، تقييم الذكاء ، أي تقييم هذا الاستعداد الذي يجعل اكتساب المعارف أمراً ممكناً . وهذا التصور للذكاء ، الذي استخلصه علم النفس ، أتاح لعلماء النفس أن يستخدموا وسائل تحليل عملية ، وممارستها ممكنة ، تتوخّى أن تدرك مشكلات

---

(٢) نحيل القارىء الى أعمال بياجه الرائعة حول نمو الذكاء لدى الطفل .

الطفولة في السن المدرسي . ويتيح سلّم الذكاء ، الذي يُستخدم مع روائز أخرى ، أن يربط بين النمو التكويني لكلية الشخصية لدى الطفل وبين الذكاء .

٣ ـ العمر العقلي وحاصل الذكاء

أفكار بينه وسيمون

إننا مدينون لبينه وسيمون(٣) ، عام ١٩٠٥ ، بتقييم النمو العقلي والنفسي للأطفال بطريقة الروائز . وأصبح حاصل الذكاء (ح.ذ) ، المصطلح الشهير ، هو الإشارة ذاتها للتشخيص المدرسي والنفسي ، واقتصر دور عالم النفس غالباً على أن يحدد حاصل الذكاء لفرد من الأفراد بإجراء الروائز وانطلق بينه وسيمون من تصور عملي للذكاء العام وأعدّا الروائز التي تؤلّف سلّم الذكاء . وفكرتهما المبتكرة تكمن في أنهما بيّنا أن بعض المشكلات التي تواجه الطفل تنطوي على صعوبات يتم التعبير عنها بمصطلح العمر العقلي ، وأنهما وجدا ، بالإحصاءات ، مشكلات تميّز شتى الأعمار ليصلا إلى قياس النمو العقلي . وأدلى بينه بالفكرة التالية فيما يخصّ وضع سلم النمو : « ابتكر عدداً كبيراً من الاختبارات غير المتجانسة وذات صعوبات متدرّجة ، وجرّب الاختبارات على عدد كبير من الأطفال المختلفين . سجّل النتائج ، وتفحّص أي الاختبارات التي تنجح بالنسبة إلى عمر معيّن والتي يعجز الأطفال الأصغر سناً عن حلها وسطياً ، على أن يكون الفارق في السن مقتصراً على سنة واحدة . فكوّن على هذا النحو سلماً لمقياس الذكاء يتيح لك أن تحدّد إن كان لفرد من الأفراد ذكاءُ سنه ، أو أنه متقدم أو متأخر ، وإلى أي حدّ يصل هذا التقدم أو التأخر »(٤) .

واستخدم علماء النفس ، خلال السنين الخمسين الأخيرة هذه ، عمل بينه وسيمون لتحسين الروائز ، وتعميق النظريات حول ذكاء الطفل وعمره العقلي : فأتاح علم النفس ، الذي يُمارس في الوسط المدرسي ، وعلم الأمراض

---

(٣) علماء النفس المدرسي خلال بداية القرن .

(٤) في «مؤلفات بينه» .

السيكولوجي للمعوقين عقلياً[٥]، أن يقيم العلاقة بين نمو الطفل الإجمالي (الفيزيولوجي، والوجداني، والعقلي، والنفسي الحركي، والمدرسي) وبين وضعه الخاص فيما يتعلق بالمكتسبات المدرسية . فمستوى النمو الإجمالي للطفل يعطي مفهوم المستوى العقلي الإجمالي أو مفهوم العمر العقلي أيضاً، إذا أقمنا العلاقة بينه وبين نتيجة المكتسبات المدرسية لدى الطفل . وتقييم العمر العقلي، هو أيضاً، تقدير الدائم في قدراته، وتقدير نسبة الإخفاقات والنجاحات التي يمكننا أن نتنبأ بها . فالعمر العقلي لطفل من الأطفال هو النتيجة التي عليه أن يبلغها وتقع في المتوسط من عمره خلال فترة معينة من نموه . وكان هذا العمر العقلي قد تحدّد بعدد وافر من الروائز التي قد يكون تعدادها مبالغاً في طوله هنا، والتي يتمّ التعبير عنها على نحو رقمي بحاصل الذكاء، رغم يتصف بأنه مؤشر لموقع الفرد على سلّم الذكاء . وحاصل الذكاء لأولي التخلّف العقلي الأكثر عمقاً هو من ٠ ـ ٢٥، ومن ٨٠ ـ ١٠٠ للأطفال ذوي المواهب المتوسطة، وفوق ١٠٠ للأطفال الموهوبين . فحاصل الذكاء هو حاصل عمر، نحصل عليه بقسمة العمر العقلي على العمر الفعلي . وللأعمار العقلية وحاصل الذكاء حظوة لدى علماء النفس، وتعبّران عن المقاربة تعبيراً بأكبر قدر ممكن من المباشرة، مقاربة قوانين النمو الموضوعي للأطفال وعوامله .

ثانياً ـ الأطفال غير المتكيفين في الوسط المدرسي

يؤلف هؤلاء الأطفال مجموعة ضعيفة التحديد، ولكن خصائصها المشتركة هي عدم التكيف في الوسط المدرسي والبيداغوجي . إنهم الأطفال (المتأخرون) أو (ذوو المواهب) الضعيفة . ونحن نغفل المصابين بالقصور العقلي، أو المصابين إصابة قوية بالأمراض العضوية، الذين يتطلّبون أن يتابعوا الدراسة متابعة خاصة

---

(٥) انظر بداية «علم الأمراض وعدم التكيف المدرسي» في هذا الكتاب .

بحالتهم ، أو يتطلّبون أن تُعاد تربيتهم ، تربية وظيفية مستمرة . والمظاهر التي تكشف عن أن طفلاً من الأطفال لا يتكيّف في الوسط المدرسي عديدة جداً . وهي تؤثر في مجموع السلوك ولها علاقة بأسباب مادية أو عضوية ، أو باضطرابات في السيرة والطبع ، أو باضطرابات في النمو العقلي والمردود المدرسي .

١ ـ الاضطرابات والتشوهات العضوية

لجميع الاضطرابات والعيوب أو الحوادث التي يمكنها أن تؤثر على الجسم والوظائف ، انعكاسات على السلوك المدرسي والعقلي للطفل . وقد كشف الطب المدرسي بالفعل عن أن ضرباً من الصحة العامة الضعيفة ، وعدم الانتظام في إيقاع النمو ، والاضطرابات في الغدد ذات الإفراز الداخلي (والتفريط أو الإفراط في عمل الغدة الدرقية الوظائفي على وجه الخصوص) ، والبطء النفسي الحركي ، والعمل الوظائفي الحسي السيء (اضطرابات في الرؤية أو السمع) ، وتشوّهات العمود الفقري ، إلخ ، تعوق سير العمل المدرسي الجيد للطفل وتقدّمه السيكولوجي . وتتجلّى هذه الاضطربات على المستوى السيكولوجي بـحالة من الدونية تبنيها صورة للجسم يدركها الفرد المعني إدراكاً سلبياً . والتشوّهات الخِلْقية أو العيوب الجسمية يمكنها عندئذ أن تسبّب اضطراب الطفل في صلته بالمحيط (أساتذة ورفاق وحياة في الجماعة ، الخ) ، وأن تحرّض لديه سلوكات تتصف بأنها ردود فعل ، كالنزق والعدوانية أو ، على العكس ، كالسلبية والقلق . وستشلّ هذه التصرفات فاعلية الطفل المدرسية والعقلية ، أو ، على العكس ، سيعوّض الطفل عن هذه الاضطرابات الجسدية بضرب من حشد الطاقة مبالغ فيه ، ويعمل مدرسي عنيف يهدف إلى التغلّب على دونيته . ولكنه سينجم عن ذلك عدم توازن وتعب من شأنهما أن يشجّعا على عدم التكيّف المدرسي .

٢ ـ المتأخرون عقلياً ومدرسياً

المتأخرون عقلياً ومدرسياً هم الأطفال الذين يتراوح حاصل الذكاء لديهم بين ٨٠ و ١٠٠ ، إذ لايتجاوز التأخر على الغالب سنة أو سنتين من العمر العقلي . وثمة نقص في إنجازاتهم على المستوى العقلي ، ومردود متوسط يشرح

المستوى في الروائز والتأخر المدرسي . ولديهم على وجه الخصوص صعوبات بـ التجريد والحكم ، ويشقّ عليهم أن يعيشوا العلاقة (منطق الظاهرات فيما بينها) ، ولغتهم فقيرة . إنهم ، على العكس ، أكثر موهبة في الفكر المشخص والعملي . وهم على وجه الخصوص غير متكيفين بالنسبة لوسط مدرسي عالي المستوى ، أو بالنسبة لوسط اجتماعي متشدّد . وبالمقابل ، ونظراً لعدم تكيفهم ، يتعرّضون إلى خطر مفاده أن يتصرفوا تصرفاً غير سوي ، مزاجياً وقائماً على ردود الفعل . أما أسباب هذا التأخر المدرسي فكثيرة ، ولكن علينا البحث عنها غالباً في جانب العلاقات مع الأهل ، أو جانب التربية (نزعة الاهمال) والوسط الأسري ذي المنشأ العصابي والصدمات النفسية في الطفولة الأولى[٦] ، الخ . والمناخ الوجداني والاجتماعي الأفضل يمكنه في بعض الأحيان أن يعدّل من التأخر المدرسي لهؤلاء الأطفال ، وأن يجعلهم يتطورون صوب تكيّف أفضل .

٣ ـ المصابون بالتأخر المدرسي البسيط

هؤلاء الأطفال متأخرون لأسباب ترتبط بالوسط التربوي والمدرسي ذاته . فالمناهج مكتظّة ، والمعلمون ليسوا من كثرة العدد بحيث يمارسون دورهم البيداغوجي والتربوي ، والتغيّر في المناهج والامتحانات والمدارس كثير الوقوع . وهذه العوامل تقترن بصعوبات من المستوى الانفعالي ، كالخجل ، والوهن ، واضطرابات السلوك البسيطة ، وفرط الانفعال ، وعدم الاستقرار النفسي الحركي ، والتأخر الانفعالي ، وصعوبة الاندماج بالجماعة والمؤسسة . وليس لدى هؤلاء الأطفال اضطرابات خطيرة تعوق كثيراً متابعتهم الدراسة ، ولكن لديهم على الغالب ضرب من سلوك الإخفاق أو فرط الفاعلية العقلية اللذين يجعلان تكيّفهم سيئاً مع الوسط المدرسي ، ويجعلانهم راسبي المستقبل في الامتحانات . فمن الضروري بالنسبة لهم أن نجعل سلوكهم مستقراً ، إذ نصمّم لهم علاقة بيداغوجية أضيفت عليها الصفة الشخصية إلى حد كبير ، ولابدّ من أن نؤمّن لهم استقراراً في البنيات ، والمناهج ، والمعلمين ، والطرائق ، حتى يستعيدوا

---

(٦) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني في هذا الكتاب «النمو الانفعالي لدى الطفل» .

ثقتهم بأنفسهم ، إذ يشفون من قلقهم وحصرهم . وعلم النفس العلاجي المؤقت ، أو المحادثات الدورية مع علماء النفس ، يمكنهما أن يزيلا جزءاً من اضطراباتهم وأن يوقفا انزعاجهم في الوسط المدرسي . ومع ذلك ، فالنصائح البيداغوجية ، وصفوف إعادة التربية أو استدراك التقصير ، والمدارس ذات الأعداد القليلة من التلاميذ أو ذات الطرائق الفعّالة ، والتعلّم المسبق المبكّر ، ضرورية لهم .

٤ ـ الأطفال المصابون باضطرابات في اللغة

يمثّل الأطفال الذين يكشفون عن اضطرابات في اللغة نسبة مئوية كبيرة من التلاميذ ، باستثناء الصم البكم الذين يختلف مشكلهم كل الاختلاف . والمقصود على الأغلب ما يشبه البكم والإعاقات اللفظية والتعتعات ، الخ . إنهم أطفال يعانون « مجرد تأخر في اللغة » ، ونحن نسميهم هذه التسمية لأن اضطراباتهم اللغوية ليست ذات علاقة بعجز إجمالي وعام على المستوى النفسي والفكري . ويرتبط هذا التأخر اللفظي على الغالب بصعوبات في التعبير ، وبصعوبات في الفهم واكتساب اللغة أيضاً . وهذه الاضطرابات ذات علاقة ، في العادة ، بحركية نفسية رديئة ، واضطرابات ناشئة عن العمه الحسي الحركي ، وتبنين سيء في الصورة الشخصية للجسم . وهذه الاضطرابات مرتبطة بوظيفة اللغة لدى الطفل ، وذات علاقة بنمو سيء في الطفولة الأولى : اضطرابات في اللفظ ، وتعتعة ، وصعوبات في التعبير عن الفكر ، والفكر المجرد على وجه الخصوص ، لفظاً وكتابة . وثمة صعوبات في التعلّم المدرسي الأول : قراءة وكتابة وحساب وخط . وتزدوج هذه الاضطرابات أحياناً بضرب من تكوين الشخصية قبل العصابية . وقد يكون ثمة اضطرابات في اللغة ذات علاقة باضطرابات حركية خالصة (عضلات وأجهزة النطق وعجز في الأمر الدماغي ، الخ) مع خلل ناشىء عن العمه الحركي ، والحسي ، والوجداني[٧] .

---

(٧) انظر الفصل الأول من الباب الثاني في هذا الكتاب «التطور العصبي النفسي لدى الطفل» .

٥ ـ الاضطرابات الزمانية المكانية

إنهم الأطفال المصابون بعيب في الجانبية (العُسر غير المنسجمين الذين قسروا بصورة مبكرة ، والعسر المصابون بعدم الانسجام أو عدم التكيف) ، ثم الأطفال المصابون بعسر في القراءة والفهم وفي الخط والحساب ، الذين لا يبدون اضطرابات في اللغة فحسب ، بل واضطرابات في الإعداد الحركي والمعرفي .

والعسر في القراءة والفهم هو الاضطراب الذي تنصبّ عليه الدراسة حالياً أكثر من غيره من الاضطرابات . والأطفال المصابون بالعسر في القراءة والفهم هم أطفال عاجزون جزئياً عندما يكون سلوكهم مرتبطاً بالبنيات الزمانية المكانية أو الوظائف المعرفية والحركية . وهؤلاء الأطفال يجرّون معهم ضرباً من عدم التكيف المدرسي ويتطلّبون في بعض الأحيان إعادة تربيتهم بصورة مناسبة مع متابعة الدراسة في صفوف متخصّصة أو بدونها حسب حالة الطفل .

ثالثاً ـ مفهوم الإخفاق وعدم التكيف المدرسي

من المشكلات الهامة التي تطرحها المدرسة الراهنة ، تتصف حالة الإخفاق بأنها ولا ريب المشكل الأكثر إشغالاً للبال بالنسبة للمعلمين وعلماء التربية ، وعلماء النفس ، والأطباء ، الخ . ومفهوم الإخفاق وعدم التكيّف ، اللذان كانا على وجه الخصوص حتى أيامنا هذه مفهومين طبيين ، أي مفهومين ناجمين عن تشخيص جسمي أو طبي نفسي ، هما على وشك التوسّع الكبير لأن صور هذه الضروب من الإخفاق وعدم التكيف تتنوّع تبعاً لتطور البنيات الاجتماعية الثقافية والحياة المصنوعة لطفل في سن الدراسة المدرسية : فنظام التعليم القائم بصورة أساسية على اكتساب المعارف المجردة وعلى إجراء الامتحانات ، والتغير في المناهج وتطويلها المذهل ، ومدّ مدة الدراسة ، واكتظاظ الصفوف ، وعدم استقرار محيط الوسط المدرسي ، الخ ، جميع هذه العوامل الموضوعية التي لم يوجدها التلميذ نفسه هي أسباب لعدم التكيف والإخفاق . والفكرة المفرطة في التبسيط ، التي ترى أن أسباب عدم التكيف ناجمة عن صعوبات عقلية وانفعالية منشؤها يجب البحث عنه في عجز الطفل ذاته عن تأمين متابعة الدراسة بصورة سوية ، هي

الفكرة التي كانت غالبة في بدايات علم النفس والطب المدرسي[٨] . والحال أن اتساع الاضطرابات ، وكثرة الأطفال المخفقين ، وتنوّع صور الإخفاق التي لا يمكننا التعبير عنها انطلاقاً من مجرد لغة التعليم نفسه ، تجعلنا نطرح التساؤلات التالية : أليس التعليم ، بالجهود التي يقتضيها ، هو السبب الرئيس لاضطرابات السلوك المدرسي ؟ ألا يولّد المجتمع غير المتكيفين الخاصين به بسبب عجزه عن أن يؤمّن للأطفال مستوى من التكوين المدرسي مطلوباً وفق وسيلتهم في الاكتساب وإمكاناتهم العقلية والسيكولوجية ؟ ألم تصبح تجربة التكوين المدرسي ، إذا صح القول ، صعبة جداً ، ألم تحكم دون روية على وسائل الطفل ، ألم تبلغ في الوقت نفسه عتبة من الإشباع ليس بوسع الطفل بعدها أن يرتاد المدرسة إلا وهو مصاب بالإحساس بالحصر والإخفاق وعدم الإمكانية ؟ ومن المؤكد أن ذكاء الطفل يمكنه أن ينمو ويتقدّم ، وأن الطفل قابل جداً وإمكانات الاكتساب لديه كبيرة ، ولكنها ليست غير محدودة . ويمكننا أن نقول عن المدرسة ما يمكننا ملاحظته في الميادين الأخرى : عندما يكون اختبار من الاختبارات ذا مستوى مرتفع جداً ، فإن ثمة أقلية من الموهوبين يمكنها وحدها أن تنجح ، فالأكثرية لا يمكنها أن تتابع إلاّ بصورة وسطية ، وثمة نسبة كبيرة تعجز عن اجتياز الاختبار . ويبدو أن المدرسة في أيامنا هذه تولّد غير المتكيفين الخاصين بها مثلما يولّد الوسط الاجتماعي مجانينه[٩] ، والمتعاطين المخدرات والكحول فيه ، وشيوخه . ويظهر الطفل غير المتكيف وكأنه هامشي ، لأن المنظومة المدرسية تفرز ، وهي تنبذ ، أولئك الذين لا يسعها أن تتمثّلهم بسبب سيرها الوظائفي الرديء . ففئة عدم التكيّف هي الفئة الأكثر اتصافاً من جميع فئات الطب النفسي والطب وعلم النفس بالصفة الايديولوجية من حيث أنها تتصور جماعة ، هي المدرسة هنا ، على أنها منظومة بنياتها وسيرها الوظائفي يحيلان الفرد إلى أن لا يكون غير قطعة من قطع آليتها ، وغير عنصر عليه أن يتكيّف تكيّفاً تاماً ، وإلا فانه يشلّ السير الوظائفي الجيد ،

(٨) اننا نحيل القارىء الى الفصل الرابع من الباب الثاني من هذا الكتاب ، «الراشد والطفل» ، الذي يبرز كيف أن فهمنا الطفل فهم متمحور على الراشد غالباً .

(٩) انظر فصل «الضعف العقلي موضع التساؤل» في هذا الكتاب .

والمنظومة لا يمكنها إلا أن تنبذه كما العضوية الإنسانية تطرح عناصر لا يسعها أن تتمثّلها . فكلما كانت المنظومة معقلنة ، ازدادت قدرتها على الترتيب والتنظيم ودمج عناصرها ، ولكن عدم تكيّف عناصرها ، التي لا تستطيع الدخول بوصفها عاملاً فيها ، يزداد أيضاً . وبمقدار ما يكون هدف المدرسة الأساسي ، هذه المنظومة (العجيبة) التي تعمل وظائفياً بأسلوب تتنامى بيروقراطيته وتكنوقراطيته ، أن تعدّ للاندماج الاجتماعي والثقافي ، فإن مصير الأطفال الذين لا يمكنهم أن يتكيّفوا مع مقتضيات المناهج والامتحانات أن يكونوا نفايات مدرسية غير متكيفين مع الاستهلاك الرائج . وعندئذ يجد المعلم نفسه ، في الممارسة ، أمام حلين : إما أن يرفع يديه قائلاً ، وهو على صواب ، إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لهذا الطفل ، وإما أن يُتخذ قرار طبي بيداغوجي ، فيُسحب الطفل من الوسط المدرسي (السوي) لكي يقيم في صفوف الاستدراك والتدريب الإضافي وإعادة التربية . فالوسط المدرسي السوي أكثر إرهاقاً من أن يكون قادراً على أن يتمثّل العناصر غير المتكيفة فيه : فثمة إذن إقامة لضرب من القطيعة بين الأطفال غير المتكيفين والأطفال المتكيفين . وهذا الحد الذي يقيمه المجتمع يدمغ الطفل طوال حياته . وعلى عكس ما يقدّر الراشدون على الغالب ، الذين يظنون بأن للطفل قدرة كبيرة على نسيان إخفاقاته ، تبرهن التجربة لدى الأطفال على أن لبعض الاخفاقات المدرسية صدى على نموه ، بل وعلى مستوى شخصيته الأكثر صميمية على وجه الخصوص . يضاف إلى هذا أن وضع الطفل غير المتكيّف مدرسياً في وسط يفصله عن رفاق الصف يعني أن يستدلّ بأنه غير « سوي » وليس « كالآخرين » ، وبأنه « مخفق » ، ولو أن علم التربية الخاص وعلم النفس يحاولان الحدّ من الأضرار . إنه التأكيد للطفل أنه محكوم عليه بالإخفاق على وجه التقريب ، وذلك في جميع الأحوال هو المعنى الذي يستخلصه لنفسه من هذا الوضع والذي يسمه بسمته طوال حياته ، حتى مع عون تقدّمه ضروب العلاج النفسي والطرائق السيكولوجية والتربوية الناجعة . فدور العلاج والتربية وكفايتهما لا يعوّضان دائماً ، بالنسبة للطفل ، عبء ضغينته وحصره وعزلته . إن ضرباً من حالة الإخفاق هي حالة تُعاش على نحو منعزل .

الباب الثاني

علم نفس الطفل

الفصل الأول : التطور العصبي النفسي للطفل
الفصل الثاني : التطور الوجداني للطفل
الفصل الثالث : العودة إلى فرويد
الفصل الرابع : الراشد والطفل

الفصل الأول

التطور العصبي النفسي للطفل

أولاً - أهمية الطفولة الأولى

يميّز علماء النفس عادة بين ثلاث مراحل في الطفولة : الطفولة الأولى التي تشمل السنتين السابقتين على اكتساب اللغة ، والطفولة الثانية التي يسميها بياجه «الطفولة الصغرى» التي تمتدّ من السنتين إلى السبع سنوات ، والطفولة الثالثة التي يسميها الطفولة بالمعنى الصحيح للكلمة ، الممتدّة من سبع إلى اثنتي عشرة سنة . ولا بد من القول إن الاتفاق بين علماء النفس يقف عند هذا الحد ، ذلك أن التباين في وجهات النظر تبدو بعد ذلك لتفصل مختلف المراحل داخل دراسة الذكاء أو النمو الانفعالي . وسنعرض بكثير جداً من الاهتمام سنوات الحياة الثلاث الأولى ، وهي السنوات الأساسية بالنسبة لكل موجود بشري . والتقليد حتى هذه الأزمنة الأخيرة ، الموسوم بسمة القوة الكلية للراشد[1] كما سنرى ، كان يمنح السنوات الأقرب من النضج أهمية كبرى . وقد كشفت كشوف فرويد عن ضلال هذا الاعتقاد ، فثمة مآس حقيقية تحدث في الطفولة الأولى ، مآس تسم بسمتها مصير كل فرد . وقد شدّدت ميلاني كلاين على الموضوعات الفرويدية مؤكدة أن الطفل يدخل منذ السنة الأولى في بعض النزاعات ، كعقدة أوديب التي لم يكن فرويد يضعها إلا في سن الثالثة من العمر . ولا بد للمرء من أن يسلّم ، ولو أنه ليس على وفاق تام مع تسلسل الأحداث الخاص بميلاني كلاين ، أن ثمة شخصية

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب: «الراشد والطفل» .

فريدة تتكوّن في السنوات الثلاث الأولى . ويلاحظ زازو على هذا النحو أن الطفل في سن الثلاث سنوات :

- أنجز الأساسي من تراثه الوراثي .
- اكتسب الوقوف على قائمتين في حين أنه لم يكن في الأصل غير (أنبوب هضمي) دون دفاع ، ولا إمكان للنمو المستقل .
- اكتسب اللغة .
- يُبدي خصائص انفعالية متنوّعة .

ونصل من ذلك إلى هذه النتيجة التي ربما تكون مغالية بعض الشيء ، نتيجة ثورندايك القائلة إن الموجود الانساني ، في سن الثلاث سنوات ، بلغ الآن منتصف طريق تطوره العقلي . إنها الرحلة التي يعارض فيها الطفل لكي يفرض شخصيته . وقد اتخذ الموجود الإنساني الآن اتجاهات تبعاً لاستيهامات الأم ولتدخّل الأب ، استيهامات وتدخّل يسيان وجوده برمته . ونرى أن الراشد ليس هو الذي يمنح الطفل معنى ، بل الطفل هو الذي يمنح الراشد معنى . فالعالم المنسيّ ، المحجوب ، الذي لم يعشه المرء على ما يبدو ، هو الذي يجعلنا نعيش ، ويحدّد حياة الرشد لدينا .

١ - العلاقة الأولية مع الأم

أهمية الأبوين ، والأم على وجه الخصوص ، رئيسة في السنوات الثلاث الأولى . والقول الحق إن تاريخ الطفل يبدأ قبل الولادة . وإذا كنا لا نعرف بعد معرفة جيدة جداً ما يحدث للطفل في أثناء الحمل ، فان بوسعنا مع ذلك أن نحلّل ما قبل تاريخ الرضيع . فإيضاح ما يمكن أن نسميه ما قبل التاريخ يتألف من ملاحظة الوسط الذي ينتظره : ثمة ميدان معيّن ، ومناخ معيّن ، وجوّ معيّن يتكوّن بين أبوي المستقبل ، أو بين الأبوين والأسرة ، في انتظار هذه الولادة . ويحدث ضرب من إعادة التبنين في الوسط الأسري . ولكن الحمل والطفل الذي يولد هما من شأن الأم المباشر ، أيا كانت الفاعلية والعون اللذين يسهم بهما الأب . فالطفل سيكون موضوع الأم خلال السنة الأولى على الأقل ، وسيكون مرتعاً لحياتها الاستيهامية وإسقاطاتها ورغباتها . ومن هنا منشأ الضرورة التي

مفادها إبراز ما قد يمثّله انتظار الطفل بالنسبة للأم .

٢ ـ الأم وعالمها

جسمها ، أول الأمر ، الذي كان خاصاً بها ، وكان يخضع لها ، وكان معين فاعلياتها ، يسكنه آخر ، وهي على نحو من الأنحاء قد جُرّدت من ملكية جسمها . مشيتها ومظهرها العام تغيرا تغيراً كبيراً ، ولم تعد صلتها بالعالم هي ذاتها أبداً . وصلتها المادية بالعالم أصابها التحوّل ، وأصاب التحوّل أيضاً علاقة جسمها بجسم زوجها . إنها قد تخشى ضرباً من عدم الاهتمام من جانبه ، ويمكنها أن تبدي بعض الغيرة . وبعض النزاعات بين الزوجين يمكنها ، على هذا النحو ، أن تنتقل مجدّداً من القوة إلى الفعل .

ـ خلال الأسابيع الأخيرة من الحمل ، تبينّ هيلين دوتش أن بوسع المرء أن يلاحظ : انزعاجات جسمية ، وتشنّجات في الرحم كثيرة ، وذلك أمر يولّد لدى الأم رغبة في الانفصال .

ـ ثمة ضرب من الانكفاء يبرز من الناحية الثقافية (رغبات مفاجئة في الحلويات ، الخ ، حاجات إلى اللطف) . ومن الشائع أن نصادف مثل هذا الانكفاء قبل ظهور نضج جديد .

ـ مختلف ضروب الحصر التي يقوم فيها لاشعور الأم ، أم المستقبل ، بالدور الأساسي : إنها مخاوف من الموت ومن أن يكون لها طفل غير سوي ، إلخ .

ويتبينّ لنا إذن أن المناخ الذي سيولد فيه الطفل هو المناخ الذي ستنشئه الأم تبعاً لمشكلاتها الخاصة ، وحياتها الدافعية الخاصة ، والتوازن الذي تمكنت أن تقيمه مع زوجها .

٣ ـ صورة مزدوجة

يبقى أن نتساءل عما يمثّله الطفل بالنسبة لها ، وأي صورة من صور الأم عن نفسها يعكسها الطفل أو يخيّب أملها . وهذه الصورة مزدوجة :

ـ فهي إيجابية من حيث أن الطفل إنما يرفع شأنها بوصفها قادرة على الإنجاب ومنح الحياة . ويرى المحلّلون النفسيون أن الحمل قد يتيح للأم أن تعيد ارتباطها بالوحدة الأولية التي كانت لها مع أمها هي ، والتي فقدتها خلال

الفطام[٢] .

ـ وهي صورة سلبية : ويلاحظ المرء على الغالب أن لدى الأم انطباعاً بضرب من عدم الانتماء خلال عرض الطفل عليها للمرة الأولى ، أي يبدو لها أن هذا الطفل ليس طفلها . وتُشرح هذه الظاهرة بما مفاده أن الطفل ، وهو يقدم إلى العالم ، حطّم كل الإمكانيات التخيلية التى صاغتها الأم له . وربما كان عرض الطفل عليها للمرة الأولى مخيباً للأمل بمقدار ما تكون الرؤية التى قد تحصل لدى الأم عن ابنها رؤية جزئية ، ولابد من مرور بعض الزمن حتى تنعقد صلة الأم والطفل . إن غوين ديكاري قالت قولاً صائباً إن فرح الأم ليس فرحاً سببه أن لها طفلاً خاصاً معيناً بقدر ما هو فرح سببه أنها ولدت طفلاً من الأطفال . يضاف إلى هذا أن الأم تحسّ الآن أن طفلها سيعدّل حياتها وحياة الثنائي ، والوحدة التى كانت تكوّنها مع زوجها تحوّلت بصورة جذرية فأصبحت وحدة ثلاثية بدلاً من كونها وحدة ثنائية . إنها تحقّق ما كان هيغل يحسّ به إحساساً قوياً : « ولادة الأطفال تعني موت الآباء » .

ومأساة الأم ومأساة كل والد تنعقدان من خلال كون الطفل الذي يتصف بأنه ملكهما ، بل هو ملك الأم على وجه الخصوص ، ينبغي له أن يصبح ذاتاً بعد أن كان موضوع الرعاية . وعليه أن ينتقل من حالة الشيء في ذاته ، التي كان فيها عند الولادة ، إلى وجود مستقل يكوّن نفسه فيه . ولكنه لن يسعه أن يفعل ذلك إلاّ إذا تركت له الأم أن يقول قوله ، وأن يكتسب حقيقته داخل الكوكبة الأسرية . وعلى الأم ، لهذا السبب ذاته ، أن تترك الطفل يبلغ وجوده الخاص . ويفكر المرء بفينومينولوجيا هوسرل وهيدغر : دعوا الأشياء تبدُ كما هي وكما تتجلّى . إن على الأم في الوقت نفسه أن تكوّن موجوداً ، ولكن ليس ثمة شيء أسهل من خنقه بحب عارم . والحب الحقيقي هو الحب الذي يتألف من الحدّ الأقصى من الاستعداد للتقديم الذي يترك الكلام للطفل . وعلى هذا النحو ، ينبغي للآباء أن يموتوا في سبيل أطفالهم ، وحياة الأطفال هي موت الآباء .

---

(٢) انظر «العودة الى فرويد» ، المرحلة قبل المرآوية ، الفصل الثالث من هذا الكتاب .

٤ ـ المشكلات المزيّفة

دراسة النمو النفسي الحركي لدى الطفل كان علماء النفس أولو التكوين الأدبي قد أهملوها غالباً ، وكانت تبدو وقفاً على الأطباء وأطباء الأطفال أو أطباء الأعصاب والأمراض النفسية ، وهذا يعني أن ثنائية المواد التي يتألف منها الجسم والروح ، ثنائية نادى بها ديكارت ، عاثت فساداً في البحوث السيكولوجية مدة طويلة من الزمن . وكان الانفصال البارز بين الجسم والنفس سرطان هذا العلم الناشىء . وكان المرء يرى خلال فترات منتظمة محاولات لردّ الواقع السيكولوجي إلى أحد هذين العنصرين سواء أكان المذهب المادي أم المذهب الروحي : فالمناظرة كانت حادة جداً ، وعلى وجه الدقة في دراسة نمو الطفل نمواً عصبياً نفسياً . ويبدو جيداً ، أول الأمر ، أن التمييز بين سيكولوجي وفيزيولوجي تمييز مصطنع ، ويتعذّر على وجه الخصوص إيضاحه . فتصرف فرد بشري ناجم عن ضرب من الكلية التي هي جسم ونفس . يضاف إلى هذا أن بعض المؤلفين يتخلّون من الآن فصاعداً عن مصطلح النمو النفسي الحركي الذي يدع هذه الثنائية تستمر ، وبالتالي هذا الالتباس . فكوبرنيك ، بعد أن كتب كتابه ، « النمو النفسي الحركي للعمر الأول » ، لم يعد طباعة المؤلف نفسه حال نفاذه ، وكتب بالاشتراك مع ديلي « النمو العصبي النفسي للرضيع » ، وذلك تغيير في العنوان ذو دلالة يشرحه بإرادة التخلص من المتضمّنات الفلسفية ذات النزعة الثنائية والآلية ، التي كانت تنظر إلى الموجود الإنساني على أنه مجرد مجموع الأجزاء التي يتألف منها . ويستأنف لحسابه الخاص ما وجّهه أجورياغرا وبونفالو ـ سوبريان من نقد لهذا المفهوم ، مفهوم الحركية النفسية :

ـ إما أن هذا المفهوم مختلط بالحركية ، منظور إليها من وجهة نظر سكونية على أنها السير الوظائفي للجملات العصبية المنضّدة : وليس الفعل في هذه الحال سوى ضرب من جمع التقلّصات العضلية .

ـ وإما أن هذا المفهوم مختلط بالتفكير الواعي . ويصبح الفعل عندئذ صنعة (فكر غير متجسّد) لا تناله أي دراسة بيولوجية وإدراكه قبل تنظيم اللغة غير ممكن .

هذه النتائج كان قد استخلصها غولدشتاين ، وميرلوبونتي فيما بعد ، الذي ألحّ في كتابه « بنية السلوك » على مفهوم الوضع وصلة العضوية بالوسط ذي المعنى بالنسبة له . والمرء لا يمكنه أن يدرس الجسم في شروط مجردة ، بل لا بدّ له من أن يأخذ بالحسبان وضعه وحاجاته وهدفه ، وجميعها تستتبع استجابة الفرد في كليتها . فتحليل النمو العصبي النفسي للطفل يكمن في دراسة الكيفية التي يتمايز بها السلوك ، والكيفية التي يكتسب بها سداداً وينتظم ، أي يتبنين .

٥ ـ الفطري والمكتسب

إلى جانب المشكل الذي تطرحه الصلات بين الفيزيولوجي والسيكولوجي ، فان دراسة سلوكات الطفل الأولى كان لا بدّ لها من أن تطرح مجدّداً ، على نحو تجريبي ، مشكل التمييز بين الفطري والمكتسب : فما الجزء الخاص الذي يحمله الفرد معه وهو يولد ، وما الجزء الذي يحمله إليه المجتمع أو الوسط الذي يعيش فيه ؟ من اليسير أن يقابل الانسان قابليات الطفل عند الولادة بمساهمات الوسط . فمن المتعذّر أن نتصور القابليات وحدها دون أن نتصوّر الشروط الخارجية لإنجازاتها .

والمقصود في الواقع ثنائي من الوضع ـ الاستجابة يوحّد الفطري والمكتسب بصورة وثيقة . وعلينا أن ندرك هذا الثنائي في وحدته الدينامية لا أن ندركه ونحن نعزل العناصر التي تتألف منها هذه الوحدة .

٦ ـ النضج والتعلّم

المشكل الأخير الذي يشبه التمييز بين الفطري والمكتسب هو مشكل التعلّم . وفي هذا المجال لا يسعنا الفصل بين النضج والتعلّم ، فهاتان الوظيفتان مرتبطتان الواحدة بالأخرى ارتباطاً لا انفصام له . فمن المتعذّر الادّعاء ، كما فعل واطسن ، أن العضوية يمكنها أن تُصاغ من الخارج كلياً . والواقع أن أي تعلّم لا يمكنه أن يحدث إلا عندما تبلغ العضوية حالة معيّنة من النضج : فاللغة على سبيل المثال ، لا يمكنها أن تظهر قبل أن يتوطّد عدد معيّن من البنيات . ومع ذلك ، ثمة فترات تسمّى الفترات الحرجة بالنسبة لبعض الضروب من التعلّم . فالعضوية لا يسعها أن تكتسب اللغة أبداً إذا لم يكن الوسط الذي تعيش فيه

محرّضاً على إنجاز بعض الضروب من التعلّم ، وإذا كانت هذه العضوية قد تجاوزت مرحلة معيّنة . وهذا ما يحدث لدى الأطفال الرياضيين الذين يعجزون أبداً عن اكتساب المهارة في الألعاب الرياضية إذا تجاوزوا مرحلة معينة . وعلى هذا النحو ، لا يمكننا أن نحدّد مفهوم النضج دون اللجوء إلى مفهوم التعلّم : فهذا المفهوم يتحدّد ، في وجيز بورنغ ولانغفيلد وولد ، بوصفه « يتألف من التغيّرات البنيوية التي تُعزى في الجزء الأكبر منها إلى الوراثة . . . ولكنها تغيرات تتصف جزئياً بأنها حصيلة التفاعل بين العضوية والوسط » . ويكتب كارميكائل بالمعنى نفسه : « يتعذّر علينا إذن ، إلا إذا كان لأسباب عملية ، أن نقول إن النضج يختفي ، إلى حدّ معيّن ، ليحلّ التعلم محلّه . وبوسعنا أن نؤكد فقط أن الوسط يؤدّي دوراً في كل نضج ، والعكس بالعكس » .

ثانياً ـ مراحل النمو العصبي النفسي

آ ـ في الرحم

نلاحظ في أثناء الحياة الجنينية :

ـ تظهر منعكسات الاستقبال الذاتي(*) خلال الشهرين الرابع والخامس من الحياة في رحم الأم . فالجنين على سبيل المثال يمكنه أن يمسك عوداً ، ويحرك ذراعيه من الأعلى إلى الأسفل (منعكس الإمساك) .

ـ الطفل قابل للحياة في حوالي الشهر السابع . وتحدث الميلنة(**) على نحو متصاعد . فالمناطق الواقعة تحت القشرة الدماغية تبلغها الميلنة قبل مناطق القشرة الدماغية بالمعنى الدقيق للكلمة . وتتيح هذه الملاحظة للمرء أن يتحقّق من أن العضوية الإنسانية تمضي من تركيب أولي إلى تعقيد يتعاظم مقداره .

(*) الاستقبال الذاتي : فئة من المستقبلات التي تثيرها الفاعلية الخاصة للأعضاء التي تحتوي عليه مستقبلات العضلات على سبيل المثال . انظر فصل «النمو الوجداني » (م» .

(**) الميلنة : تكون غمد الميلين الخاص بالأعصاب . والميلين مادة دهنية تحيط بالمحور العصبي للخلايا العصبية ، وهذه المادة موجودة في غمد شوان .

ـ عندما يحدث الانتقال من المناطق الواقعة تحت القشرة الدماغية إلى مناطق القشرة الدماغية ، فثمة انتقال من ارتكاسات أولية إلى تعقيد متعاظم ، ومرونة متنامية ، وإلى تكيف أفضل .

ب ـ النمو عند الولادة

لوحة النمو كما يعرضها كوبرنيك هي التالية :

	وليد	سنتان
وضعة الجسم	ملتو بانثناء	وضعية الوقوف
التنقل	سير آلي	سير نهائي
الحركية العامة	إجمالية ، فوضوية ، انفجارية ، غير متكيّفة.	متكيّفة
الإمساك	منعكس الإمساك	حذق في استعمال اليد
إصدار الأصوات	صراخ يرافق الفاعلية	جملة من ثلاث كلمات
النوم	١٩ ساعة من ٢٤	١٢ ساعة من ٢٤
الطرح	مجرد منعكس ناجم عن درجة من التوتر	اكتساب النظافة خلال النهار، وخلال الليل في بعض الأحيان
الشعور بالشخصية	عدم دون شك	يسمى باسمه، ويتعرف على وجهه في مرآة
اللذة	الغذاء، والحرارة، والتوازن	حب الأم، والألعاب، واكتشاف العالم، والمشي وتعلم اللغة.
الآلام(الإحباط)	جوع، وبرد، وضيق	فقدان الشيء

ويُلاحظ أن الطفل قد انتقل من حالة المنعكسات التكيفية البسيطة إلى حالة الاستقلال في التنقل .

١ ـ النمو الحركي

أ ـ وضعة الجسم لدى الطفل

إذا لاحظنا الوليد والنحو الذي يستقيم عليه جسمه ، فإننا نشاهد ضرباً من فقدان التناظر . ويمكننا أن نوضّح ذلك بمنعكس التوتر العضلي في العنق . إنه منعكس نجده لدى الطفل خلال الأشهر الثلاثة الأولى ، ويصبح مرضياً إذا استمر . إن ماغنوس ، الذي أجرى عمليات جراحية على الحيوانات ، يصف هذا المنعكس على النحو التالي :

يحدث امتداد في العضو الأمامي من الجهة المقابلة لجهة التواء الرأس . ثم انثناء في العضو الأمامي المقابل .

ويصبح نظامياً حوالي الشهرين الثالث والرابع . ويقدم لنا جيزل[٣] نتيجة هامة حول السلوك الانساني : « الإنسان ، على الرغم من أنه مبنيّ على نحو ثنائي الجانب ، لا يتصدّى للكون مواجهة ، بل يجابهه من زاوية معيّنة ويفرّ منه بصورة مائلة . إنه ينمّي لنفسه قابليات وحيدة الجانب ، وأفضليات ليد معيّنة ، وعين معيّنة ، وقدم معينة ، وصور أخرى من صور الحذق الوحيدة الجانب » .

ويُظهر الأطفال الرضّع خاصة أخرى إضافةً إلى خاصة فقدان التناظر : إنها خاصة الانثناء . ويتم التطور من وضع الانثناء الذي يذكّر بالوضعية الجنينية إلى وضع الامتداد الذي يتيح المشي . واستمرار الانثناء أمر مَرَضي .

ب ـ المنعكسات

المنعكسات استجابات حركية تتجلّى لدى الطفل في الأشهر الأولى من الحياة وتختفي بمجرد أن تتشكّل القشرة الدماغية . والمنعكسات الرئيسة هي التالية :

منعكس المشي : بما أن جسم الطفل منحن إلى الأمام انحناء خفيفاً ، فاننا إذا دفعناه إلى الأمام لاحظنا عندئذ عدة فترات :

---

(٣) في كتاب كارميكائل ، ص ٤٩١ من الجزء الأول .

- ينثني الفخذين انثناءً يتّجه إلى الأمام ؛
- يمتدّ الساق ؛
- ترتفع أصابع القدم ؛
- « ينحني العضو ، ويقترب الكعب من الأرض ، ويلامس الأرض قبل غيره ، ثم تليه أصابع القدم . ولكن الجسم متجه الآن إلى الأمام ، يجذبه امتداد الفخذ على الساق ، ويثبت أفقياً بفعل العضلات الباسطة للحوض . والعضو الآخر لا يبقى في عطالة . فأصابع القدم تبرز ، وينثني الفخذ على الحوض متجهاً إلى الأمام ، ثم تتالى شتى الفترات كما على العضو الآخر »(٤) . إنه لأمر مَرَضي أن لا يوجد هذا المنعكس لدى الوليد أبداً ، كذلك الأمر إذا لاحظه المرء بعد الشهر الثالث .

منعكس الانتصاب السكوني

إذا وضع الطفل أفقياً على قدميه ، فإنه ينتصب .

المنعكس الجلدي (الأخمصي)

عندما نحك أخمص قدمي الطفل ، تكون الاستجابة السوية قائمة على مدّ الرجل . ولكن الاتفاق غير عام على قيمة هذا المنعكس وعلى وضوحه .

منعكس مورو

لتحقيق هذا المنعكس ، لا بدّ من ضرب الرضيع ضربة خاطفة على الوسادة حيث ديوضع الرضيع على ظهره ؛

أو النفخ بعنف على وجهه ،

أو رفعه بقسوة من قدميه بحيث أن الجذع يرتفع عن الطاولة ؛ ومع ذلك ينبغي للرأس أن يبقى دائماً يلامس الطاولة .

ماذا نشاهد ؟

إننا نشاهد عدداً معيناً من الظاهرات غير مندمج بعضها ببعض .

نشاهد انبساطاً مفاجئاً في الذراعين والساقين يرافقه انتصاب الرأس .

---

(٤) أندره توماس و سانت آن دارغاسي .

وتصالب الذراعان ، من هنا منشأ اسم هذا المنعكس ، « منعكس الذراعين المتصالبتين » . ثم ترتدّ الذراعان إلى الأمام على الصدر ، ومن هنا منشأ اسم هذا المنعكس ، « منعكس العناق » . ويختفي هذا المنعكس في نحو الشهر الثاني أو الثالث .

منعكس الإمساك أو التشبث

إذا أثرنا راحة اليد لدى الرضيع ، فإننا نشاهد إغلاق اليد . ويميّز هلفرسون بين زمنين :

- إغلاق الراحة استجابة لضغط خفيف ،
- شدّ أو تعلّق .

وقوة التشبث لدى الوليد ١٧٣٢ غ وسطياً لليد اليمنى ، و ١٧٦٥ غ لليد اليسرى .

منعكس المص

فقدانه يكشف عن إصابات في الجملة العصبية المركزية .

منعكس الحفر

إنه منعكس اتجاه الرأس بالنسبة للبطن .

٢ ـ التوترية العضلية

تتغيّر التوترية العضلية بصورة مستمرة خلال الطفولة من الولادة إلى السنتين . فثمة مزيج من النقص والمبالغة في التوترية لينتهي الأمر أخيراً إلى تآزر العضلات .

وتآزر العضلات يعرّفه معجم بيرون بأنه الظهور المتلازم أو المنسق بدقة في التتابع لبعض التقلّصات في عدة عضلات أو مجموعات من العضلات التي تجد نفسها عادة مترابطة في تنفيذ حركة ارتكاسية أو إرادية ، وفي الحفاظ على وضعة من الوضعات الجسمية . وشوهد أن الوليد يبدي ضرباً من الانثناء في الأعضاء توتريته العضلية مغالية ، في حين أن محور الجسم يعاني نقصاً في التوترية : فالرأس يرتجف على سبيل المثال . ومع تشكّل القشرة الدماغية ، يبدو اتساق الحركات والتقلصات العضلية (تآزر العضلات) بالتدريج .

أ ـ توترية الرأس

الرأس في البداية متمايل ، والرضيع يرفع رأسه بين شهر وشهرين من عمره ، ولكن المحور الكبير لا يزال منحنياً إلى الأمام في الاتجاه العمودي . والاكتساب نهائي في الشهر الثالث . فاذا كان الطفل مستلقياً على ظهره وأعدناه إلى وضع الجلوس ، فإننا نشاهد :

ـ يسقط الرأس إلى الخلف في البداية ؛

ـ يتبع الرأس مستوى الكتفين من الشهر الثالث إلى الرابع ؛

ـ ويعيد الطفل رأسه بصورة إرادية إلى الأمام في الشهر الخامس .

ب ـ الجذع ووضعية الجلوس

ـ إذا وُضع الوليد جالساً ، فانه يبدي ضرباً من الاحديداب (انحناء) الاجمالي في الظهر .

ـ وفي الشهر الرابع يثبّت الجزء الأيمن العلوي من الجذع . ويبقى احديداب على مستوى الفقرات القطنية المتوسطة . وبوسعه أن يبقى جالساً مسنوداً .

ـ الظهر في الشهر السادس مستقيم مع زاوية صغيرة حادة بين مستوى الظهر والعضوين السفليين .

ـ يحتفظ بوضعية الجلوس في الشهر الثامن ، والظهر مستقيم . ويمكن أن ينحني وينهض ، إنه ، بدرجة محسوسة ، اكتساب هام يغني أفق الطفل .

ج ـ وضعية الوقوف

لا يقف الطفل قبل الشهر العاشر . ثم يزحف على فخذيه دون أن يكون لديه إمكان الوقوف وحده .

وبين الشهرين الثامن والتاسع ، يمكنه أن يقف مع المساعدة . ولن يستطيع الطفل أن ينتصب واقفاً إلا حوالي الشهرين العاشر والحادي عشر في الفترة التي يرتسم خلالها العمود الفقري القطني . والوقوف اكتساب رئيس أيضاً ، ذلك أن الطفل سيسود المكان المباشر بصورة واقعية . ويلاحظ عندئذ ضرب من

التعارض بين إرادة الاكتشاف والانطلاق المستقل وبين الخشية من السقوط من جهة أخرى .

د ـ المشي

ـ بوسع الطفل أن يمشي في الشهرين التاسع والعاشر إذا أمسكناه باليدين . فينظر عندئذ إلى قدميه وهو يمشي .

ـ بعد أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع ، يمشي الطفل وهو ممسوك بيد واحدة .

ـ ويبدأ المشي بين الشهر الثالث عشر والخامس عشر مع اختلافات بين الشهر التاسع والتاسع عشر .

ـ ويظهر التوازن الموقّع للعضوين العلويين حوالي السنتين من عمر الطفل .

وليس المشي فاعلية آلية ، بل يتطلّب تكيّفاً مستمراً مع ما يطرأ في الميدان . ويمثّل بالنسبة للطفل إمكاناً مفاده أن يقوّي أطرافه من الناحية الإيقاعية . والطفل ، بفضله ، يبلغ الاستقلال ، وفرح الاكتشاف ، وكذلك اللذة التي تتصف بأنها محض عضوية . والمكان الذي لم يكن يتألف إلاّ من حضن الأم سيكبر شيئاً فشيئاً ، والطفل يبدأ في الإفلات من أمه بكل معاني الكلمة .

٣ ـ تكوّن فعل الأخذ

منعكس الإمساك الذي يبديه الطفل حتى الشهر الثالث ليس أخذاً إرادياً ، ذلك أنه لا يتم إلا باحتكاك بالشيء . والمقصود ، كما يدل عليه اسمه ، ضرب من التشبث لا ضرب من القبض الذي يفترض أخذ الشيء أخذاً قصدياً .

ـ وعندما يرى الطفل شيئاً من الأشياء في حوالي الشهر الثالث ، تهتز ذراعاه ، ولكنه لا يسعه بعدُ أخذه .

ـ إننا حوالي الشهر الرابع (ولكن ليس ثمة اتفاق كامل بين المؤلفين) إنما يمكننا أن نبدأ دراسة الأخذ الإرادي . ويكون تسلسل حركات الطفل هو التالي : رؤية ـ مدّ ـ أخذ ـ جذب نحو نفسه .

فكيف يقرّب الطفل شيئاً ؟

ـ يقرّبه بصورة جانبية بين الشهرين الرابع والخامس من عمره . والكتف

هو وحده الذي يتحرك في حركة الأخذ . والأخذ عديم المهارة .

ـ وحوالي الشهرين السابع والثامن ، ثمة مرحلة متوسطة . فيبدأ الكوع بالحركة ، وتلك هي المرحلة الإشعاعية الراحية(*) التي قال بها جيزل . ويستخدم الإبهام عندئذ داعماً . والطفل يمكنه أن ينقل الشيء من يد إلى أخرى .

ـ وأخيراً ، الاقتراب المباشر الذي يشارك فيه الكتف وتمفصلات القبضة واليد ، وتلك هي المرحلة الإشعاعية الإصبعية . ونرى أن الأخذ يخضع لقانون نمو الأعضاء القريبة والأكثر بعداً عن مركز الجسم : فالذراع تستجيب أولاً بصورة إجمالية دون أي تمايز بين الكوع والقبضة وقليل من التمايز في أصابع اليد كذلك . ولا يبدو الأخذ بمظهر الدقة القصوى إلا تدريجياً .

ـ كان الأخذ بين الشهرين الرابع والسابع أخذاً براحة اليد .

ـ بين الثمانية أشهر والسنة ، يظهر أخذ الأشياء الصغيرة بين الإبهام والسبابة ، ممسوكة بالجزء الأعلى من الإصبعين .

ـ وحوالي نهاية السنة الأولى ، يكتسب الطفل إمكان إفلات الأشياء بصورة إرادية .

وأصبحت اليد من الآن فصاعداً ما يسميه أندره توماس « عضواً ذا علاقة بقشرة الدماغ » . ويتيح تباعد الإبهام للرتب الأولى من الثديات أن تتميّز عن الثديات الأخرى . ومن الآن فصاعداً لم يعد ينصهر الطفل بالشيء ، فبوسعه أن يقلبه ويرخيه عندما نقدمه له . ولذلك على الأقل مدلول مزدوج :

ـ يكتسب الطفل بعداً بالنسبة للأشياء . وتساعده اليد على أن يحقّق نجوعه الخاص على هذه الأشياء . وبفعل هذا ذاته ، يجتاز الشعور بالأشياء ، وبذاته بالارتباط المتبادل . فالعالم من الآن فصاعداً موضوع أمامه بحسب اشتقاق كلمة « موضوع » .

ويوسعه الآن أن يعارض عالم الأبوين والعالم الثقافي ، ولكن ذلك لا يزال محدوداً جداً وقليل الاتصاف بأنه منظّم في السنة الأولى من عمره . ولم يكن له استحواذ حقيقي على العالم بالرؤية وحدها . ولا بد له ، ليستحوذ عليه ، من

(*) نسبة الى راحة اليد «م» .

اليد التي وُهبت « حاسة اللمس » . فاليد وحدها ، وهي تمسك ، تعرف حجم العالم وكثافته وثِقَله . إن اليد تأخذ ، وتبدع ، وتفكر أحياناً ، فهي حليف الدماغ .

٤ ـ جملات الحركات ، مراحل بياجه

يعرِّف معجم علم النفس لمؤلفه بيرون جملة الحركات بأنها وظيفة تتيح إنجاز حركات متسقة وناجعة . وليس ثمة فارق بينه وبين تعريف بياجه الذي يصفها بأنها « جملة من الحركات المتسقة تبعاً لنتيجةٍ أو لقصد » . وينبغي لنا مع ذلك أن لا نعتقد أن جملات الحركات لا توجد إلا عندما يبلغ الطفل وعياً رمزياً ، بل إن عالم النفس السويسري ، وتلك إحدى أصالاته ، يبيِّن أنها تبدأ منذ المرحلة الحسية الحركية ، كمصِّ الإبهام على سبيل المثال . فجملة الحركات لا تظهر ، كما كان يعتقد علم نفس عقلي ، عندما يكون لدى الطفل صور ، أو عندما يكون قادراً أيضاً على أن يضع لنفسه تصوراً مجرداً للعالم . إن الحياة السيكولوجية لا تبدأ بفِكَر أو بفكر مجرد ، بل تبدأ بالعمل(٥) .

ويصف بياجه أيضاً ضرباً من « الذكاء العملي تماماً ، ينصبّ على معالجة الأشياء باليد ولا يستخدم مكان الكلمات والمفهومات غير الإدراكات والحركات المنظَّمة في « رسوم أولية للعمل »(٦) . ويضرب مثالاً على هذه الرسوم الأولية استخدام الطفل عوداً لسحب شيء بعيد ، أو العمل أيضاً لسحب سجادة حتى يعيد لنفسه ما يقع خارج أخذه المباشر . فالطفل سيطبِّق هذه الرسوم الأولية على الواقعي ، ولكن هذه الرسوم الأولية يمكنها أن تلقى الواقعي على نحوين مختلفين ، إما بـالتمثّل وإما بـالتطابق . وهذان قانونان يوضِّحهما بياجه في علاقات العضوية بمحيطها . وقوام التمثّل إدماج الأشياء والأشخاص بفاعلية الفرد الخاصة ، أي قوامه جعل العالم الخارجي (مماثلاً) للبنيات التي تمّ إنشاؤها . وقوام التطابق تعديل رسوم التمثّل الأولية تبعاً للوضع الخارجي الذي

---

(٥) « الفعل والتفكير» ، هنري والون ، فلاماريون ، ١٩٤٢ .

(٦) «ست دراسات في علم النفس » ، ص ١٨ ، بياجه ، مجموعة غونتيه .

يلاقيه الطفل . ويصف لنا بياجه إذن ظاهرة « التكيف » على أنها التوازن بين التمثل والتطابق . والعمل الانساني بالنسبة له لا يتألف إلا من هذه « الآلية المستمرة والدائمة ، آلية التوافق وإيجاد التوازن » . وسنتبع ظهور جملات الحركات وتطورها خلال المراحل المختلفة والتوازنات الآنية التي يرسمها بياجه في تكوين الطفل :

المرحلة الأولى : من الولادة إلى الشهر الأول : التمرينات على المنعكسات : كالمصّ على سبيل المثال الذي يشير بدرجة محسوسة لدى الكائن الإنساني إلى فاعلية معيّنة . فيظهر بالتدريج ضرب من الإتقان ثم التعميم (عمل المصّ أي دون شيء يمص) ، وأخيراً التنسيق (يد ترفع إلى الفم) . وخلال هذه المرحلة ، يسود التمثّل .

المرحلة الثانية : (ضروب التكيف المكتسبة الأولى والارتكاس الدائري الأولي) (من الشهر الأول إلى أربعة أشهر ونصف) .

- إن الطفل سيعقّد التمرينات الارتكاسية بإدماجها في عادات وإدراكات منظّمة . ويكتسب الطفل عادات المصّ . وينشيء دورة بالانطلاق من المصادفة التي جعلته يضع إصبعه في فمه . وذلك يكوّن ضرباً من الارتكاس الدائري الأولي .
- ظهور رسوم أولية من النطق والسمع .
- بداية الرسم الأولي للأخذ . وجملات الحركات لا تبدأ إلا في المرحلة التالية .
- التصرّفات الآلية تتمايز وتتعمّم .

المرحلة الثالثة (أربعة أشهر ونصف إلى ٨ - ٩ أشهر)

الارتكاسات الدائرية الثانوية والأساليب المرصودة لجعل المشاهد الممتعة تدوم : « إنها المرحلة التي يظهر فيها الذكاء العملي أو الحسي الحركي ذاته » .

ماذا يحدث في هذه المرحلة ؟ التصرفات تصبح مرنة وتتمايز تدريجياً . والطفل قادر على أن يسجّل نتائج تجاربه الجديدة ، إنه يكتشف .

وتتّسق رسوم العمل الأولية بفعل التمثّل المتبادل ، وذلك بفضل النتائج التي حصلت بالمصادفة واحتفظ بها الطفل ، ويفلح أيضاً في التمييز بين الوسائل والغايات ، وذلك أمر يتصف بأنه تعريف جملة الحركات ذاته . والرسم الأولي لهزّات المهد والأشياء المعلّقة عليه بعيداً عن الطفل مثال نضربه على هذا التمييز . فبوسعه ، في المرحلة الثالثة ، أن يحرّك نفسه ليحرّك هذه الأشياء ، وهذا ما كان قد فعله من قبل بالمصادفة .

المرحلة الرابعة : تناسق الرسوم الأولية الثانوية وتطبيقها على الأوضاع الجديدة (٨ ـ ٩ أشهر إلى ١٣ شهراً) .

المرحلة الخامسة : رد فعل دائري ثالثي واكتشاف وسائل جديدة بفعل التجريب الفاعل (١٢ ـ ١٨ شهراً) .

ـ مثال : تجربة سقوط الأشياء . إن الطفل ، في هذه المرحلة ، يكتسب الذكاء الحسي الحركي حقاً . فهو قادر على أن يستخدم بصورة مستقلّة عصاً بمثابة وسيلة لينال شيئاً .

المرحلة السادسة : (١٨ شهراً حتى السنتين) . ابتداع وسائل جديدة بالتركيب العقلي .

وخلاصة القول ، إن المراحل الأساسية الأربع لإنشاء الرسم الأولي الاجرائي ، في رأي بياجه ، هي: ردود الفعل الدائرية الثانوية ، وتناسق الرسوم الأولية وتطبيقها على أوضاع جديدة ، وردود الفعل الدائرية الثالثية ، واكتشاف وسائل جديدة بالتركيب العقلي . وإذا كان علينا أن نحيي بياجه على هذا الجهد في المنهجة والملاحظة ، فان بوسعنا في الوقت نفسه أن نتساءل عما إذا لم تكن منظومته ، منظومة المفهومات التي أعدّها على نحو اختباري ، تكشف لنا عن صورة مجرّدة وصورية عن الواقع . والمرء يمكنه أيضاً أن يلاحظ أن هذه الدراسات لا تحيل إلى العالم الذي يعيشه الطفل . فكيف يعيش الطفل جسمه ؟ وكيف يعيش العلاقة بين الجسم والعالم ؟ نحن حتى هنا ، مع بياجه ،

لم نتكلم قطّ بوصفنا علماء نفس ، بل بوصفنا إبستيمولوجيين(*) . وسيكون من الضروري أن ننكبّ على ما يعيشه الطفل .

ثالثاً ـ اللغة لدى الطفل

الطفل ، يقول لنا بوهلر ، هو الموجود الوحيد الذي يمكنه أن يكشف لنا عن اللغة عند ولادته . فنحن ننطلق معه من النطق بصراخ غير ذي دلالة سيكولوجية إلى اكتساب لغة رمزية يشترك فيها جميع سكان بلد معيّن .

ـ ففي الشهر الأول ، يصرخ الطفل ، ويُصدر أصواتاً مادية على نحو صرف .

ـ وفي الشهر الرابع يبدأ الثغثغة التي تتكوّن بصورة أساسية من حروف صوامت . والطفل ، في هذه الفترة إياها ، قادر على أن يصنع وحدات صوتية عديدة إلى حدّ كبير جداً لا تنتمي حتماً إلى جماعته اللغوية . فاكتساب اللغة سيتألف إذن من إنقاص الوحدات الصوتية واصطفائها (الوحدة الصوتية هي الجزء الصوتي من الوحدة اللغوية)(٧) ، تلك الوحدات الصوتية المستعملة في محيطه (ثمة ٣٤ وحدة صوتية في اللغة الفرنسية وحوالي الأربعين في الانغليزية ، التي ، من تركيبها اللامتناهي ، تنشأ الوحدات اللغوية ، وهي الحد الأدنى من الوحدات الدّالة في اللغة) . وسيكون الراشد عاجزاً عن اكتشاف الغنى في إصدار الأصوات خلال هذه المرحلة ، ولن يفلح أبداً على الغالب في أن يلفظ بعض الوحدات الصوتية من لغة أجنبية .

(*) الإبستيمولوجيا هي نظرية العلوم ، أو فلسفة العلوم ، أعني دراسة مبادىء العلوم وفرضياتها ، ونتائجها ، دراسة انتقادية توصل الى إبراز أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية «المعجم الفلسفي ، الدكتور جميل صليبا» «م» .

(٧) انظر مارتينه ، «عناصر علم اللغة العام» .

ويحتفظ الطفل خلال هذه المرحلة ، في رأي غريغوار ، ببعض الأصوات ويعدّلها إذ يغيّر نبرتها ومدتها ، وذلك أمر يعبّر بدرجة محسوسة عن تغيّر في الطاقة والمزاج . وهذا أمر رئيس ، ذلك أن المرء يدرك أن الطفل يضفي على اللغة إيقاعاً قبل أن يتكلمها .

ـ الشهر الثامن : يبدأ الطفل بترديد ما يسمعه . ويصل إلى ان يدخل هذه الكلمات في لغة خاصة به . إنه الإيقاع الذي يسود أيضاً .

ـ الشهر الثاني عشر : يلاحظ غريغوار كثرة من الكلمات المنتحلة . إنها المرحلة التي تسود فيها الرطانة(*) التي تحظى بغالبية اللغة الصوتية ، والإيقاع ، والنغم ، والتغيّر في النبرة ، ولكنها التي تظلّ غير مفهومة بالنسبة للغير . وعندئذ تظهر الكلمة الأولى أو الكلمة الجملة . وتسمى الكلمة الجملة لأنها تكافىء بالنسبة له وحده جملة تامة . وينبغي لنا مع ذلك أن لا نعتقد بأن الطفل أدرك الفارق بين العلامة وما تدلّ عليه بهذا الاكتساب ، فهو لم يحقّق بعدُ ما تعني علامة لغوية . والعلامة ، بالنسبة له ، تشارك في ما تدلّ عليه مشاركة سحرية .

ـ وفي الشهر الحادي والعشرين يفلح الطفل في أن يجمع وحدتين لغويتين .

ـ وحوالي السنتين يبدأ في إنشاء جمل مع فعل .

ـ وبين الشهر الثامن عشر من عمره والثلاث سنوات يصبح الطفل متعاظم الانتباه إلى اللغة المحكية أمامه ، ويزداد تقليده ؛ ولكن علينا أن نلاحظ أن كثيراً من الأطفال لا يتقدّمون تقدّماً كبيراً ظاهراً في اكتساب الكلمات الجديدة خلال هذه الفترة . والأمر خادع ، ذلك أنه يبدو جيداً أنهم يسجّلون بعض الرسوم الأولية اللغوية التي يستخدمونها كثيراً حوالي السنة الثالثة بصورة مفاجئة ، وإن كانوا لا يستعملونها في حينها .

(*) الأسوب الغريب في الكلام الذي لايمكن فهمه « م » .

ويحدث الانتقال ، في السنة الخامسة ، من اللغة المتمحورة على الذات إلى اللغة المتكيّفة مع حياة الجماعة ، ويباشر الطفل في هذا العمر بأن يعبّر عن نفسه تعبيراً خاصاً به .

١ ـ شروط اكتساب اللغة

آ ـ اللغة والوجدانية

يقال إن لغة الطفل الأولى لغة أمومية . وذلك يعني أن على الطفل بصورة مستمرة، لكي يكتسبها ، أن يلجأ إلى وجدانية الأم والأسرة ليكتسب اللغة . وينبغي لنا أن نأخذ تعبير اللغة الأمومية بالمعنى الأول للمصطلح . وهذه اللغة الأولى لغة انفعالية جعلتها المبادلات الحنون بين الأم والطفل ممكنة . فبعض الفصاميين تنتهي بهم الأمور ، في كرههم لأمهاتهم ، إلى أن ينبذوا لغتهم الخاصة التي قدّمتها الأم لهم . وتلك هي الحالة التي وصفها لويس ولفسون[٨] ، حالة من لا يريد أن يسمع ، ولا أن يقرأ ، ولا أن يتكلم لغته . فليس الكلام إذن فاعلية عقلية خالصة ، وإنما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوجدانية ، وذلك يشرح أيضاً أن الأطفال يُبدون توقّفات في اكتسابهم اللغة تبعاً لبعض المشكلات الأسرية . ويبيّن لنا روستاند في مقال عنوانه « القواعد والوجدانية » كيف أن قدوم أخ جديد في أسرة من الأسر يثير غيرة الولد الثاني وتراجعه اللغوي . وينتهي هذا التراجع عندما يقدم إلى الأسرة موجود خارجي أعمر من البكر ، وذلك أمر يبيّن للولد الثاني أن أخاه ليس بكراً مطلقاً ، بل هو بكر نسبي . وتتيح هذه التجربة أن يُرفع الحصار عن الحالة ، ولا يستعيد الطفل معارفه القديمة فحسب ، ولكنه يكتسب صيغة الماضي البسيط والماضي التام والمستقبل . وتفسير هذا التراجع وهذا التقدّم الجديد يمكننا أن نشرحه على نحو بسيط بأنه كان يريد ، بفعل الغيرة ، أن يتراجع إلى حالة الوليد المدلّل مكانه ، ولكنه يخرج من هذا التراجع باكتساب الرسم

---

(٨) لويس ولسفون ، «الفصاميون واللغات» ، في «مجلة الأزمنة الحديثة» ، رقم ٢١٨ ، طبعة مكتملة لدى غاليمار مقدمة بقلم دلوز .

الأولي ماض ـ حاضر ـ مستقبل ، رسم أولي يمكننا تفسيره على النحو التالي : « كنت الأصغر ، ولكنني لم أعد كذلك ، وسأصبح الأكبر » . ويتّضح من ذلك أن اللغة تعبّر عن حالة الفرد في العالم ، لغة يوزّع الطفل بفضلها دوره بين ادوار الكوكبة الأسرية .

ب ـ البنية واللغة

حاولت دراسات حديثة لغوية ، كدراسات جاكوبسون[٩] ، أن توضّح آلية اكتساب الوحدات الصوتية . واكتشاف هذه الدراسات اكتشاف رئيس ، ذلك أنه يبيّن لنا أن هذا الاكتساب ليس من النموذج التراكمي والتجميعي كما قد يعتقد بعضهم ، والمقصود بذلك أن الطفل لا يتعلّم الكلام باكتساب وحدة صوتية ثم وحدة صوتية أخرى دونما تمييز . ولكن ثمة بنيات تقابلية ومميِّزة تعمل بين الوحدات الصوتية ، وبعضها تكوّنت بينها مثلثات أولية تتمايز تدريجياً . فليس اكتساب اللغة إذن أن يتعلّم الطفل وحدة صوتية منعزلة تعلّماً بالمصادفة ، بل هو ، بالنسبة لكل موجود إنساني ، أن يحفظ بعض الوحدات الصوتية الأصلية والمؤسِّسة . وربما يوجد نظام ثابت لا يتغير ، يشرف على ظهور بعض الوحدات الصوتية أو على اختفائها (في حال الحبسة) . ويمكننا أيضاً أن نشرح أمراً مفاده أن ثمة فقداناً مفاجئاً لبعض الأصوات بعد الثغثغة التي تتميز بعدد كبير منها ، إذ لا يستعمل الطفل غير بعض من هذه الأصوات . وهذا البعض ليس ، والحق يُقال ، أصواتاً بل وحدات صوتية ، وأعني أن المقصود أصوات مصطفاة من أجل اللغات الإنسانية ، اكتسبت صفة الوحدة الصوتية . وإذا حدث انخفاض ملموس في إنتاج الأصوات لدى الطفل ، فليس ذلك بسبب العجز الفيزيولوجي بل بسبب الاختيار الذي قام به . إنه سيكتسب ويتعلّم منظومة التقابلات المتّصفة بصفات الوحدة الصوتية . فالطفل دخل في نظام ، وفي بنية ، وفي منظومة . إننا نحيل القارىء إلى دراسة جاكوبسون ، ولكننا نحتفظ بهذه النتيجة : تعلّم

(٩) جاكوبسون ، «لغة الأطفال والحبسات» ، دار نسر مينوي ، ١٩٦٩ .

الكلام هوالانزلاق في نظام، وفي منظومة من التمايزات. وعندما يكتسب الطفل هذا النظام ، فذلك يعني أن ثمة « قصداً للتواصل » من جانبه ، ويباشر النفوذ إلى العالم الإنساني . وسنرى أن هذه الظاهرة يمكن وضعها مترابطة مع مساهمات فرويد ، وسبيتز ، ولاكان ، فيما يخصّ دخول الطفل في الإنسانية ، أعني في نظام المعنى(١٠) .

---

(١٠) « الاستجابة للابتسامة » (سبيتز) ، و «مرحلة المرآة» (لاكان) ، و«قصد التواصل» (جاكوبسون) ، تأخذ مكاناً في الفترة نفسها ولها المعنى نفسه ، معنى دخول الطفل في الإنساني .

الفصل الثاني

النمو الوجداني

لدى الطفل

١ ـ عالم الطفل

يتميّز « عالم » الطفل في البدء بضرب من اللاتمايز الكلي بينه وبين الآخر . فالطفل لا يعيش في العالم إلا من خلال الحالات الوجدانية للأم التي يكون الطفل في حالة من الانصهار ـ اللبس معها . ويفهم المرء من هذا ذاته أن ليس ثمة للطفل « أنا » ولا « عالم » ، قاصدين بالكلمة الأخيرة أمه وكل موضوع خارجي . وليس ثمة « أنا » ولا « لاأنا » ، ذلك أن « الأنا » لا يمكنها أن تتكوّن إلّا بافتراض « لاأنا » ، وبعبارة أخرى افتراض حدّ يطرح بقاومته ضرباً من الآخرية(*) . فليس الشعور بالذات إذن معطى بدئياً من معطيات الطفولة ، ولكنه نتاج متمايز من نتاجات الفاعلية النفسية . ولوحة الطفولة الأولى ، ومراحل ظهور الشعور ، كان قد رسمها على نحو مختلف جان بياجه وهنري والون . فالطفل ، في رأي بياجه ، ينطلق من نزعة التمحور على الذات ، وهي مفهوم كان بعضهم قد اقترف بصدده تفسيرات معكوسة عديدة . وليس المقصود به أولاً مفهوماً أخلاقياً ، وإنما المقصود ، كما يقول بياجه ، مفهوم معرفي أو من مجال الإبستمولوجيا . « وهذا الاتجاه يتعارض ، من الناحية السلبية ، مع وضع الكون في علاقات ومع تناسق المنظورات ، وأعني ، بالاختصار ، يتعارض مع

(*) الآخرية : صفة من هو آخر ، عكس الهوية «م» .

الفاعلية اللاشخصية . ويكمن هذا الاتجاه ، من الناحية الإيجابية ، في ضرب من اندماج الأنا بالأشياء والجماعة الاجتماعية ، اندماج إلى حدّ يتصور الفرد أنه يعرف الأشياء والأشخاص في ذاتهم ، في حين أنه في الواقع يعزو إليهم ، بالإضافة إلى خصائصهم الموضوعية ، صفات صادرة عن أناه الخاصة. . . » . « ويكمن الخروج من نزعته ، نزعة التمحور على الذات ، بكل بساطة ، في فصل الذات عن الموضوع »[1] . ومن المؤكد أن بياجه يصرح بأن المقصود أن يصف تطور الطفل تطوراً عقلياً ، ولكنه يبيّن لنا في كتابه « تكوّن الرمز لدى الطفل » أن تصوراته ليست بعيدة عن تصورات فرويد ، وأن نزعة التمحور على الذات موجودة في المجال الوجداني . يضاف إلى هذا أن المرء يرى ، في هذا الاستشهاد ، أن بياجه لا يفترض ، كما جعله بعضهم يقول ، أن الطفل يشعر أول الأمر بذاته ، وأنه يملك ذاتية يرغب في أن يستمتع بها ، وهو يتحوّل عن العالم ، استمتاعاً متمحوراً على الذات . بل إن العكس هو الذي يحدث ، ذلك أن الطفل مفقود ، و « مستغرق » في العالم ، وعاجز عن أن ينظر أن للأشياء قيمة نسبية وعن احتياز الشعور بإسقاطاته الشخصية . وإذا كان ثمة نزعة للتمحور على الذات في البدء ، بالنسبة لبياجه ، فليس ذلك لأن الفرد متكوّن ومنطو في ذاته ، بل على العكس لأنه عاجز عن التمايز . فاذا فسّرنا تفسيراً صحيحاً هذا المفهوم ، فإننا لا نرى ظهور تباينات أساسية في الرأي مع والون عندما يصرح على سبيل المثال : « لا ينتقل الطفل من الفردية إلى الاجتماعي ، بل ، على العكس ، لا بدّ له من أن يتفرّد هو ذاته انطلاقاً من انطباعات وارتكاسات تباشر في جعله يشارك في محيطه » .

والطفل ، إذ ينطلق على هذا النحو من حالة اللاتمايز ، عليه أن يتوصّل إلى تكوين أناه والغير بالتبادل ، وبصورة جدلية . إن مجرى هذا التكوين هو الذي

---

(١) بياجه، «بعض الملاحظات حول نزعة التمحور على الذات» ، المؤتمر العالمي للطفولة ، باريس ١٩٣١ .

سندرسه في مرحلتين : الأولى ، تكوين الموضوع ، أي نشوء العلاقات بما هو خارج الذات لدى الطفل ، وسندرس في مرحلة ثانية ، نشوء الأنا والشخصية .

أولاً - العلاقات بالموضوع

يعرّف لاغاش مصطلح الموضوع على النحو التالي : « هذا المصطلح ، في التحليل النفسي ، خاصة ميل أو تصرف يرمي إلى موضوع من الموضوعات ، بالتقابل مع تصرف أو مع ميل يرمي إلى الشخصية الخاصة (النرجسية) » . وينبغي لنا أن نفهم من « موضوع » موضوعات العالم الخارجي ، بل وعلى الأخص أفراداً آخرين كالأب أو الأم . وعلى المرء أن يلاحظ أن مصطلح موضوع ، هذا المصطلح الذي يحيل بصورة أساسية إلى أفراد بشر ، يحمل بدرجة محسوسة ضرباً معيناً من إضفاء الموضوعية على الغير ، ويدلّ على أن لدى الطفل إمكان وضع الغير على بعد منه ، والانفصال عنه . ويظلّ الالتباس قائماً حول طبيعة « هذا الوضع على بعد » . فما قوامه ؟ وهل يمس شخصية الفرد العميقة أو أن هذا الوضع ليس غير وضع سطحي على مستوى مجرد الإدراك ؟ إن وصف هذا التكوين يدخلنا الآن في نموذج من فهم الموجود الإنساني ، وهو فهم ربما ينبغي لنا أن نضعه موضع التساؤل مجدّداً . ولكننا سنتبع في مرحلة أولى أعمال سبيتز[٢] الذي يحيل إلى مؤلفات فرويد .

رأينا أن مصطلح موضوع يرمي إلى شخص أو شيء معدود على أنه خارج الشخص . ويفهم المرء الآن أنه ليس بوسعه أن يتكلم على علاقات بالموضوع بالنسبة للطفل الصغير ، ذلك أن التمييز بين الأنا والعالم غير موجود لديه . ولا يعلم إن كان حضن الأم يشكّل جزءاً من جسده أم لا . وقد بيّن والون أن ثمة متّحداً أولياً كان موجوداً في البدء ، متحداً لم يكن ممكناً للأم والطفل أن يُعتبرا

---

(٢) سبيتز، «من الولادة الى الكلام » ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٦٨ .

منفصلين ومتمايزين فيه . وستبين لنا دراسة التكوين السيكولوجي للطفل كيف أنه يكوّن ، انطلاقاً من حالة اللاتمايز لديه ، أنا وعالماً بعمل جدلي . وسيكون مسوقاً بالتدريج إلى احتياز الشعور ، وإلى أن يضفي الموضوعية على جسمه ، وهو يكوّن الغير في الوقت نفسه وعلى النحو ذاته ، وذلك في حركة متبادلة .

ويميّز سبيتز ثلاث مراحل في تكوين العلاقات بالموضوع :

- المرحلة الأولى : المرحلة السابقة على الموضوع أو الخالية من الموضوع .
- المرحلة الثانية : مرحلة البشير بالموضوع .
- المرحلة الثالثة : مرحلة الموضوع الليبيدي بالمعنى الدقيق للكلمة .

١ ـ المرحلة السابقة على الموضوع أو الخالية من الموضوع

إنها حالة من اللاتمايز . ولا يمكننا الكلام على إدراك ، فليس ثمة أنا ولا عالم . وليس ثمة موضوع ولا علاقة بموضوع ، ويترتّب على ذلك أن الطفل لا يحصل إلا على ضرب واحد من اللذة ذات الطبيعة الغلمية الذاتية ، وذلك أمر يقابل النرجسية الأولية عند فرويد : إذ تدل هذه النرجسية الأولية على حالة مبتسرة يوظّف فيها الطفل كل الليبيدو حول ذاته(٣) . إنها فترة ليس ثمة أي عنصر من عناصر الشخصية قائماً فيها ، وليس ثمة تمييز بين داخل وخارج ، ولا بين جسم خاص وجسم غريب ، وحضن الأم يدركه على أنه جزء متمّم من ذاته .

وليس ثمة ارتكاسات على المثيرات الخارجية لدى الرضيع ، إلا إذا كانت ذات شدة قوية جداً . وكل شيء يتم بواسطة قناة الاستقبال (وهي فئة من المستقبلات التي تثيرها الفاعلية الخاصة للأعضاء التي تحتوي عليها ، كمستقبلات العضلات على سبيل المثال) والمستقبلات الداخلية (وهي فئة من المستقبلات تنجم إثارتها عادة عن المنبّهات الداخلية المتصفة بأنها نقطة انطلاق المنعكسات الإنباتية ، انظر معجم علم النفس لبيرون) .

---

(٣) معجم لابلانش وبونتاليس ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

فالطفل عندئذ تابع تبعية تامة لأمه خلال « الحوار » أم ـ طفل ، الذي تؤدي الوجدانية دوراً أساسياً فيه . وتتكوّن على هذا النحو دورة هي دورة الفعل ـ رد الفعل ـ الفعل ، وذلك أمر يعني أن ثمة سببية دائرية لا خطية بين فعل الأم وبين استجابة الطفل .

ـ ويُلاحظ ضرب من الارتكاس لدى الطفل حوالي نهاية الأسبوع الأول : فالرضيع ، الذي يوضع في وضعية أفقية لكي يرضع ، إذا كان يتغذّى من ثدي أمه ، يدير رأسه نحو صدر الشخص الذي يحمله بين ذراعيه (بوهلر) . والمقصود بالتأكيد فعل منعكس على سبيل الحصر ، ذلك أن الطفل لا يتعرّف على الثدي .

ـ ويبدي الرضيع ، حول الشهرين ، إذا كان جائعاً واقترب أحدهم منه ، حركات مص . فادراك الطفل محيطه يتمّ تبعاً للجوع وللتوترات التي يولّدها لديه .

٢ ـ البشير بالموضوع : الابتسامة (الشهر الثالث)

يضفي الطفل امتيازاً على الوجه حوالي الشهر الثاني .

وفي الشهر الثالث ، يستجيب بابتسامة عندما يظهر الوجه له . ومع ذلك ، لا بدّ لاستجابة الطفل لوجه الراشد من أن تنطوي على بعض الشروط : يجب أن يكون ادراك الطفل وجه الراشد مواجهة بحيث يرى عينين ، وأن يكون الوجه متحركاً (حركة الفم ، إيماءات ، الخ). وليست هذه الاستجابة وقفا على الأم ، بل تحدث إزاء أي شخص . ويتبدل ذلك بعد ستة أشهر حيث لا يستجيب الطفل إلا لـ« موضوعات » الحب ، وذلك أمر يؤلف استجابة نوعية .

فهل ياترى هي الآن علاقات بالموضوع ؟ بوسعنا الإجابة بالإيجاب لو أن الطفل يعتبر الوجه ظهور شخص متفرّد بين الأشخاص الآخرين . والواقع أنه يستجيب بالابتسامة لأي فرد ، ذلك أنه لا يدرك غير صورة معيّنة (غشتالت) ذات امتياز تتألف من الجبهة والعينين والأنف ، والكل في حركة . ويخطر بالبال بعض الاستجابات الحيوانية ، الآلية على وجه التقريب ، التي تنطلق عندما

نعرض على الحيوانات بعض الأشكال وبعض الألوان(٤) . والأمر على هذا المستوى هو بالضبط أمر استجابة ذات طبيعة حيوانية ، فالطفل لمّا يفلح في أن يحدّد موضوعاً مفرداً . ويُلاحظ أنه يستجيب للرجل والمرأة على السواء ، وليس للون أية أهمية .

وهذه الاستجابة ذات صلابة معيّنة ، ولا تحدث إذا تبدّل الإدراك الإجمالي ، كأن يُعرض الوجه جانبياً . فيضيع الطفل في هذه الأثناء ، ولا يستجيب أبداً . ولا بد من الإشارة مع ذلك إلى أن الطفل يستجيب للقناع إذا عرض عليه في الشروط التي يُعرض فيها الوجه الإنساني .

وملخص القول ، إن الطفل ، إذ يستجيب بالابتسامة في الشهر الثالث ، لا يستجيب إلا لـمظهر معينّ محدّد كل التحديد ، ولكنه لمّا يتعرّف على الشخص ، الذي يعرض عليه هذا المظهر ، بصفته شخصاً مفرداً . فلسنا هنا إلا في المرحلة السابقة على الموضوع .

٣ ـ مرحلة الموضوع

ثمة بعض سلطات الشخصية التي تتأسس ابتداء من الشهر السادس وحتى الشهر الثامن : مضغة أنا ، وتكوّن ضرب من اللاشعور ، وتكوّن ما قبل الشعور والشعور . ولكي تنعقد علاقات بالموضوع ، ينبغي للطفل أن يكون قادراً على تمييز الموضوع الليبيدي (موضوع الحب) من جميع الأشخاص الآخرين . وفي الشهر الثامن ، يُبدي الطفل شيئاً من الحصر عندما تختفي أمه (موضوع الحب) من محضره . فبضرب من النقص في عالمه إنما يبني الطفل أناه . وعندما ينفصل الثنائي أم ـ طفل إنما يجتاز الشعور بفرديته . ولكنه يستجيب بشعور من الفقدان والنقص . وسبيتز يتكلم عندئذ على العامل الأساسي في نمو الطفل ، أي عامل

---

(٤) وهكذا يثير المعركة لدى الذكر من سمك أبو شوك إدراك «شيء متطاول ذي بطن أحمر» في منطقته ، سواء كانت هذه الإشارة من الورق المقوى أو أنه بكل بساطة سمكة من سمك أبو شوك .

الإحباط . والحق يقال إن هذا المصطلح ليس مصدره فرويد ولم يستخدمه قطّ .

ما النوعي في هذه الفترة ؟

ـ كان الطفل يستشعر من قبل توترات من النوع الفيزيولوجي .

ـ ونحو الأسبوع الثامن ، تبدأ بالتبنين مظاهر اللذة والانزعاجات مرتبطة بالجوع والامتلاء .

فتتكوّن عندئذ صلة بين نداءاته وبين المحيط . وبامكانه إرسال إشارات أولية لكي يُفهم حالته . وتخلف الاستجابات غير المنظمة إشاراتٌ يبثّها بصورة مقصودة . ويتكلّم فيرنزي عندئذ على (قوة الطفل المطلقة) . ولم يعد الطفل يبدي غير المخاوف .

ويمكننا أن نلخص التطور الذي وصفناه على النحو التالي :

ـ في مرحلة أولى ، تولّد التوترات الفيزيولوجية انزعاجاً عندما ينفقد التوازن .

ـ وفي مرحلة ثانية : ظهور المخاوف تبعاً لإدراكات ترتبط بتجربة من تجارب الانزعاج .

ـ وفي مرحلة ثالثة : الحصر بالمعنى الصحيح للكلمة ، فعندما يفقد الطفل أمه ، ثمة كون كامل مألوف يتوارى . ففي هذا حقاً علاقة بالموضوع ، ذلك أنه يستجيب لفقدان الأم على وجه الحصر .

ماذا ينبغي لنا أن نستنتج ؟

ـ ليس الاكتساب الذي يظهر في الشهر الثامن اكتساباً من النموذج المعرفي على وجه الحصر ، ذلك أن الطفل لم يتعلم تمييز شيء من شيء آخر فحسب ، ولكنه يتعرّف من الآن فصاعداً على « موضوع » حبه (الأم) ، « موضوع » ذي امتياز من الناحية الوجدانية .

ـ الأم هي الموضوع الأول المتكوّن ، وذلك أمر يجعل دورها رئيساً . وسنرى أن غيابها خلال هذه الفترة قد يكون له نتائج خطيرة على حياة الطفل .

ـ ويمكننا من الآن فصاعداً أن نتكلم على « أنا » لدى الطفل ، ذلك أن الأنا والموضوع يتكوّنان معاً . إن الطفل اجتاز المرحلة الحاسمة التي تجعله يبلغ

الإنسانية . فمن طفيلي وشيء في ذاته ، يبدأ الطفل في أن يكون فرداً لذاته . ولكنه يجتاز الآن مضغة من الشخصية .

ـ والإنسان موسوم في غضون هذا النمو بـالحصر الذي يؤدي دوراً بنّاءً إذا حدث تجاوزه . فالحصر يجرِّد من الملكية ويكفّ اليد ليتيح للإنسان أن يبلغ سيادة عليا .

ويقترح سبيتز خلال السنة الثانية مرحلة جديدة تكمل إرساء الاستقلال لدى الطفل ، هي الهزّ السلبي للرأس . فقد يكون ذلك ، في رأي هذا المؤلف ، هو الحركة الأولى التي لها معنى لدى الطفل ، أي حركة المعارضة والرفض . ومع ذلك ، يتحفَّظ بعض المؤلفين تحفظاً كبيراً إزاء هذه المرحلة التي لا تعكس إلا بصورة غير كافية ، في رأيهم ، ما يحدث في غضون السنة الثانية ، ولا تُلاحظ في عدد كبير من الثقافات .

ما معنى هذا النمو ؟

يمكننا أن نبينّ بعض اتجاهات المعنى التي تميّز عالم الطفل بعد أزمة الشهر الثامن من عمره :

ـ يكتسب الطفل استقلالاً حركياً . إنه يبدأ المشي ولم يعد جسم الأم هو الذي يحتفظ بالأهمية الكبرى ، بل الكلام والأفعال .

ـ وسط الطفل أقل تنظيماً مما كان من قبل بكثير . ويمكننا أن نقول إنه يكتشف البيت تماماً ، وهذا الاكتشاف ، الذي ينجزه على أربع قوائم بصورة عامة ، يجري على نمط حاد من الابتهاج . ولكن هذا الاكتشاف سيكون أيضاً تابعاً لضروب من حصر الأم وقلقها . وقد تصاحب الأم طفلها بصورة مستمرة .

ـ والطفل يتصل اتصالاً مشخَصاً بالأشياء من الآن فصاعداً . فألعابه سرعان ما تكتسي روابط وجدانية شبيهة بتلك التي تُنسج بين الطفل والأم . إنها الفترة التي يكوّن فيها أشياء انتقالية يصفها وينّيكوت في مجلة التحليل النفسي (رقم ٥ ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٥٩) . إنها أطراف أشياء (طرف الغطاء ، طرف غطاء الرجل الناعم) يحتفظ بها الطفل معه لكي ينام . إنها في

الوقت نفسه جزء لا يتجزأ من ذاته ، ولكنها أيضاً خارجية بالنسبة له ، أو هي بصورة أصح مختلفة عنه . ونشوء هذه الأشياء يبدأ قبل الشهر الثامن ، وهي تتيح للطفل أن يطرح فارقاً بالنسبة لأمه وهو يحّس بها في الوقت نفسه أنها حاضرة باستمرار . وهذه الأشياء تبقى طويلاً بعد هذه المرحلة .

ـ ثمة ظاهرات من الإسقاط على الأشياء تبدو إذن ، وذلك أمر يتيح للطفل في بعض الأحيان أن يحلّ مشكلاته مع أمه بفعل صلة مباشرة بهذه الأشياء . ويصف فرويد ، في محاولته « ماوراء مبدأ اللذة »(٦) ، حالة طفل في الشهر الثامن عشر من عمره ، ولكنه يتصف بتأخر كبير في اكتساب اللغة . وكانت عادته أن يلقي الأشياء الصغيرة في الزوايا وتحت السرير ، الخ ، وكان يلفظ مع هذا الفعل ، فعل إلقاء الأشياء ، بمظهر يدلّ على الرضى ، صوتاً يدوم طويلاً أو ـ أو ـ أو ، كان يعني بالنسبة للأم « بعيداً » باللغة الألمانية . يضاف إلى هذا أن سلوكه العام سلوك سوي ، ويصفه محيطه بالطبع « اللطيف » . وأخيراً ، إنه لا يبكي أبداً حال غياب أمه .

ويلاحظ فرويد ، وقد راقب ألعاب الطفل التي كانت تتألف بصورة أساسية من إلقاء ألعابه بعيداً ، أنه يتسلّى ببكرة من الخشب يحيط بها خيط : كان يقذفها بحيث تختفي عن ناظريه ، وكان يرفق بهذا الاختفاء صوت أو ـ أو ـ أو المعتاد . وفي فترة أخرى ، يسحب الخيط ، وعندما تظهر البكرة مجدّداً يقول فرحاً « دا » ، وذلك يعني « ها هي » بالألمانية .

ويفسّر فرويد هذا المشهد بأنه ، بالنسبة للطفل ، أسلوب يلعب به عودة الأم . فقد كان من قبل يعاني ذهاب الأم ، وهو ، من الآن فصاعداً ، هو الذي يُحدث هذا الذهاب وهو القادر على إحداث العودة السارة : فالطفل يحلّ مشكلاته بالإسقاط على الشيء .

ضروب القصور في عاطفة الأمومة

هذا الارتقاء إلى تكوين « الموضوع » الذي وصفناه ، وظهور ضرب من

---

(٦) «محاولة في التحليل النفسي» ، بيو ، ص ١٦ .

السيادة المعيّنة على العالم ، ليس آلياً ، وثمة احتمال كبير جداً في أن تطرأ عليه اضطرابات خطيرة في حال القصور الوجداني . وذلك هو ما أرسته أعمال سبيتز . فاللوحة التي رسمها للأمراض ذات المنشأ السيكولوجي في الطفولة ، المقابلة لمواقف الأم ، هي اللوحة الموجودة في هذه الصفحة(٧) .

ولن ندرس هنا غير ضروب القصور العاطفي .

آ ـ النقص الوجداني الجزئي

حالة أطفال دون أم بعد سته أشهر :

ـ **الشهر الأول** : يصبحون بكّائين ، متشدّدين وهم يتعلقون بمن يلاحظهم .

	عامل ذو علاقة بأسباب الأمراض تزود به مواقف الأم	المرض الذي يصيب الطفل
السم النفسي (عامل نوعي) ص ١٦٠ ــ ٢٠٥	نبذ أولي واضح	غيبوبة الرضيع (ريبل)
	تساهل أولي مغال ومقلق	مغص الأشهر الثلاثة من العمر
	ضغينة يقنعها القلق	قوباء طفولية
	الترجح بين التدليل والضغينة	فرط القدرة على التحرك (تمايل)
	مزاج ذو تغيرات مفاجئة دورية	اللعب بالغائط
	ضغينة يتم التعويض عنها بصورة شعورية	فرط الإنفعالية العدوانية
قصور (عامل كمي) ص ٢٠٦ ــ ٢١٨	حرمان عاطفي جزئي	اكتئاب اعتيادي
	حرمان عاطفي كامل	هزال

(٧) سبيتز، ص ١٥٨، « من الولادة الى الكلام » ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٦٨ .

ـ الشهر الثاني : يتحوّل البكاء إلى أنين ينمّ على الشكوى : ثمة نقص في الوزن وتوقّف في النمو .

ـ الشهر الثالث : رفض الاتصال . وضعية مميّزة لمرض معينّ (ينامون على بطونهم). فثمة أرق ، ونقص في الوزن ، وتأخر حركي وصلابة في تعبير الوجه .

ـ بعد الشهر الثامن : الوجه صلب بصورة مستمرة . ويتوقّف البكاء . ويزداد التأخر .

ـ ومع ذلك ، فاذا عادت الأم ، بعد غيابها ، بين الشهر الثالث والشهر الخامس ، يزول كل شيء . ويسمي سبيتز هذه الظاهرة : الاكتئاب الاعتمادي(*) .

الحرمان الكلي من الأم أو الايداع في مؤسسة :

ويوضح سبيتز أنه لا بد من أن تنعقد علاقات حميمة بين الأم والطفل قبل الانفصال حتى يكون هنال اكتئاب اعتمادي :

ومثال ذلك أن الأطفال المولودين حديثاً تغذوا ، في دار للأيتام ، من أثداء أمهاتهم مدة ثلاثة أشهر . ثم عُهد بهم ، حال فطامهم ، إلى ممرضات على الواحدة منهن أن تهتم بعشرة أطفال وسطياً ، وذلك أمر لا يدع لحظة لعلاقات وجدانية مع الطفل . والعناية الجسمية تامة ، ومع ذلك يبدي الأطفال :

- ضروباً من التأخر الحركي ، فهم يظلّون سلبيين بصورة تامة ؛
- وجهاً خالياً من التعبير وتطابقاً قاصراً في العينين ؛
- عجزاً تاماً عن أن يتقلّب في فراشه ؛

(*) الاكتئاب الاعتمادي : La depression anaclitiqe اصطلاح وضعه العالم الأمريكي رينه سبيتز (١٨٨٧ ـ ١٩٧٤) ، يصف به مجموعة من الاضطرابات الجسمية والنفسية التي تصيب تدريجياًرضّعاًفصلوا عن أمهاتهم بعد أن كان لهم علاقات مرضية بهن خلال الأشهر الستة الأولى من حياتهم على الأقل ، ولم يجدوا بديلاً مرضياً فحرموا على هذا النحو من سندهم الذي يعتمدون عليه «م» . .

- حركية على صورة تشنّجات ؛
- بلوغ مستوى العته .
ويموت ثلث الأطفال تقريباً .

وهكذا فان الاكتئاب الاعتيادي والايداع في مؤسسة يوقفان النمو الإجمالي للفرد . وليس بوسع الأطفال أن يقيموا علاقات بالموضوع ، ويتحوّلون بدوافعهم العدوانية ، التي لا بدّ لهم من توجيهها نحو أمهاتهم ، إلى ذواتهم . وبعضهم يضربون أنفسهم ، ويشدّون شعورهم . فبين الشهر الثامن والشهر العاشر يقوم ، في رأي سبيتز ، تنظيم الدوافع والسيطرة عليها بواسطة الأم ، تساعدها العلاقات بالموضوع . والارتقاء لإقامة هذه العلاقات يمثّل مرحلة رئيسة في تطور كل طفل .

ثانيا - بنيات الشخصية في رأي فرويد

١ - الدوافع والجنسية

عرضنا نشوء الأنا غير الموجودة عند الولادة . وعلى هذا النحو يقول فرويد في محاولته « لكي نُدخل النرجسية »[٨] : « من الضروري أن نسلّم بأنه لا وجود لوحدة شبيهة بالأنا لدى الفرد في البداية . فلا بد من أن يطرأ على الأنا ضرب من النمو . ولكن الدوافع الغلمية الذاتية موجودة منذ البدء » . فماذا ينبغي لنا أن نفهم من مصطلح دوافع ؟ وأي دور تؤديه في مؤلفات فرويد ؟ ثمة تفسيرات معكوسة عديدة ، ارتكبها بعضهم ، لهذا المفهوم الذي لم تكن ترجماته إلى الفرنسية أمينة . فمصطلح triebالألماني كان قد تُرجم إلى الفرنسية بكلمة غريزة في حين أن كلمة غريزة موجودة في الالمانية ويستخدمها فرويد عندما يكون المقصود بها غريزة بالمعنى الفيزيولوجي للمصطلح[٩] . والدافع « سيرورة دينامية تتألف

---

(٨) ص ٨٤ ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٦٩ .
(٩) انظر : مناقشة في «معجم التحليل النفسي» .

من دفعة [شحنة طاقة ، عامل حركية] تجعل العضوية نزّاعة نحو هدف . وتميّز ثلاث فترات في سير السيرورة الدافعية : المصدر ، وهو حالة من التوتر داخل الجسم ؛ والهدف ، ودوره أن يزيل هذا التوتر ؛ والموضوع ، وهو الأداة التي يحصل بها الإشباع » . وهذا المفهوم ، مفهوم الدافع ، يقول لنا فرويد[١٠] ، مفهوم حدّي بين النفسي والجسمي .

وهدف أي دافع هو الاشباع على سبيل الحصر .

وموضوع دافع من الدوافع متنوع جداً ؛ فقد يكون موضوعاً غريباً بقدر ما يكون جزءاً من جسم الفرد الخاص . ونسمي هذه الظاهرة مرونة الدافع .

والمصدر هو الجسم . ثمة إثارة تحدث في جزء من الجسم ، والدافع هو الامتثال النفسي لهذه الإثارة .

ومن العسير جداً مع ذلك أن نبيّن ما يقصده فرويد بالدوافع بياناً « مشخصاً » ، ذلك أن المقصود ليس واقعاً طبيعياً يسهل ملاحظته . بل يقول لنا « إن نظرية الدوافع هي ميثولوجيتنا إذا صح القول . فالدوافع موجودات أسطورية ، مجيدة في عدم تعيّناتها » .

ويفهم المرء أن ثمة عدة تعديلات طرأت على النظرية الفرويدية . فبعد أن أكّد فرويد أن هناك فارقاً بين دوافع الأنا التي تشرف على المحافظة على الفرد وبين الدوافع الجنسية التي تكون طاقتها الحركية هي الليبيدو ، والعصاب ينجم عندئذ عن النزاع بين دوافع الأنا التي تبغي كبت الليبيدو، انتهى في مرحلة ثانية إلى التشديد على الطبيعة الجنسية (الليبيدية) لبعض الميول المعزوّة حتى ذلك الحين إلى الأنا (١٩١١ ـ ١٩١٤) . وهكذا يصرّح وهو يعرض نظريته في النرجسية أن بوسع الدوافع الجنسية أن توجّه طاقتها الى موضوع خارجي (وذلك هو ليبيدو الموضوع) أو الى الأنا (وهذا هو الليبيدو النرجسي أو ليبيدو الأنا) . ويختفي لدى فرويد مفهوم دوافع الأنا لمصلحة التقابل بين الليبيدو الذي يتّجه إلى الأنا وبين الليبيدو الذي يتّجه إلى الموضوع . وأخيراً (١٩٢٠) يكتشف فرويد ، في تحوّل

---

(١٠) «ماوراء علم النفس» ، ص.١٨٠ مجموعة«أفكار» .

أخير ، ثنائية جديدة هي ثنائية دوافع الحياة ودوافع الموت . فدوافع الحياة أو الإيروس(*) تشمل معاً الليبيدو النرجسي والليبيدو ذا العلاقة بالموضوع ، وترمي إلى المحافظة على وحدات تزداد اتساعاً وإلى إقامة هذه الوحدات . ودوافع الحياة التي تتّجه إلى الأنا تؤمّن الليبيدو ذا العلاقة بالموضوع بفعل الإسقاط(١١) .

هذا الليبيدو الذي عرّفه فرويد بأنه « التجلّي الدينامي للدافع الجنسي في الحياة النفسية » سيرتسم تبعاً لنمو الطفل الجسدي على بعض المناطق ذات المنشأ الغلمي ، إذ يسجّل بذلك بعض المراحل الدافعية . وبعبارة أخرى ، سيأتي الليبيدو فيقطّع على الجسم أماكن استمتاع تتنوّع بحسب عمر الفرد ، إذ يجعل هذا الفرد ينتقل من النرجسية الأولية إلى إقامة علاقات بالموضوع . « والجسم ، بحصر المعنى ، منطقة ذات منشأ غلمي برمته » ، ولكن بعض المناطق وحدها سيتمّ اختيارها خلال النمو . ونميّز على هذا النحو :

---

(١١) انظر لاغاش ، «التحليل النفسي» .

(*) إيروس أو غرائز الحياة : إيروس إله الحب عند الإغريق وطفل أفروديت من زيوس واريس هرمز ، ويتم تصويره طفلاً مجنحاً . وكان قدامى الإغريق يرونه رمز القوة المبدعة في حياة البشر وباني المدن وموثق الصداقات . واعتبره الإغريق فيما بعد إله الرغبة الجنسية ، لذلك وصفوه بالقسوة، والصلف، والاعتداد . وتصوره الرومان طفلاً مجنحاً يحمل سهام الرغبة الجنسية يصوبها أنّى شاء ، وأطلقوه عليه أسم كيوبيد . واستخدمه فرويد ليرمز الى قوة الحياة والغرائز الجنسية ، كما استخدم اسم ثاناتوس إله الموت ليرمز إلى الموت بوصفها مقابلاً لغريزة الحياة (موسوعة علم النفس والتحليل النفسي) ، عبد المنعم الحنفي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، .

المرحلة الفمية : الأولية
الثانوية من الولادة الى السنتين
المرحلة الشرجية : الأولية
الثانوية من ٢ الى ٣ سنوات
المرحلة القضيبية : من ٤ الى ٦ سنوات
فترة الكمون : من ٧ الى ١٠ سنوات
المرحلة التناسلية : من ١١ الى ١٢ سنة

ويأتي ضرب من علم الأمراض النفسية فينضاف إلى هذا الوصف لتطور الليبيدو، علم يقابل مختلف تثبيتات الطفل على الليبيدو . وهكذا يتمّ ، كما يبدو، تصور كل مرض بمثابة عودة إلى مراحل التطور الليبيدي .

وبما أن تثبيت الليبيدو على هذا الجزء من الجسم أو ذاك يوجّه وضعية الطفل في العالم على نحو أساسي ، فان بوسعنا القول إن ثمة نمطاً من الحياة مختلفاً وطبعاً مختلفاً يقابلان كل مرحلة . وعلى هذا النحو ، أكمل بعض المحلّلين النفسيين ، كأبراهام ، هذه اللوحة ، ذات العلاقة بعلم النفس وبعلم الأمراض النفسية ، بضرب من علم الطباع ، وذلك أمر يبيّن جيداً وحدة الآراء الفرويدية . وسنصف مختلف المراحل وصفاً نُلحق به هذين العلمين ، علم الطباع وعلم الأمراض النفسية .

أ ـ الطور الفمي

يعلن فرويد أن « شهوة الرضاع الحسية ، ثم النوم ، تستغرق كل اهتمام الطفل أو حتى بوسعها أن تسبّب ارتكاسات حركية ، أي ضرباً من الانتعاظ » .

المرحلة الفمية الأولية (الأشهر الثلاثة الأولى من الحياة)

ـ الوصف : الطفل يمصّ . وثمة غلمية ذاتية : يجد الطفل إشباعاً وهو يمصّ جسمه الخاص . إنه سلبي .

ـ علم تصنيف الأمراض : هذه المرحلة قد تقابل الفصام[١٢] بوصفه مرضاً نفسياً .

ـ علم الطباع : الفميون الأوليون يتميّزون بتفاؤلهم ونزعتهم الى أن يتصرفوا تصرف الرضّع الدائمين : الميل الى الكلام ، وحب الكلام الجارح القارص ، وشهوة الى المعرفة .

المرحلة الفمية الثانوية

ـ الوصف : الطفل يعضّ ويفترس . ويتكلم فرويد على أكل لحم الانسان ، فالطفل يندمج بالفرد المحبوب . إنه ازدواجية المشاعر إزاء أمه التي يحبها ويرغب في أن يدمّرها في الوقت نفسه . والطفل يصبح أكثر نشاطاً ، ويهتمّ بجسمه بصورة أساسية ، إن ضروب الإشباع التي يحصل عليها هي من النوع النرجسي .

علم تصنيف الأمراض : سوداوية ـ هوس[١٢]

ـ علم الطباع : إنهم أفراد تصرفهم المفضل هو الرجاء والطلب والإلحاح . ولا يحتملون العزلة ولو أنها مؤقتة ، ويبدون ضروباً من الاكتئاب . فاعلياتهم تحتجب احتجاباً مؤقتاً .

ب ـ الطور الشرجي أو السادي الشرجي

الإشباع الليبيدي يرتبط بافراغ الغشاء المخاطي الشرجي وبإثارته . ويرتبط بتعلّم النظافة لدى الطفل .

الطور السادي الشرجي الأولي

ـ الوصف : كان ابراهام قد ميّز الطورين الساديين الشرجيين . والحركة المزدوجة المتعارضة ، حركة الاندماج والإبعاد ، هي خاصية الطور الأول . وفي هذه المرحلة أقام فرويد ضرباً من القطبية فاعلية ـ سلبية ، السابقة على التفريق الى مذكر ومؤنث ، وتُظهر البنت في هذه المرحلة سلبية أكبر من سلبية الصبي . وفي هذه المرحلة تولد إثمية الأنا .

---

(١٢) انظر تصنيف المرضى النفسيين ، الفصل الأول من الباب الرابع .

ـ علم تصنيف الأمراض : الذهان الهذائي[12]

الطور السادي الشرجي الثانوي (٣ سنوات)

ـ الوصف : الحركة الأساسية هي حركة الاحتجاز .

يبدأ الأوديب لدى الصبي[13] بالنظر إلى أن الأب مفروض أنه الخصم ، والأم على أنها موضوع جنسي .

تتميّز الأنا من الموضوعات تميّزاً كاملاً من الآن فصاعداً . ومبدأ الواقع قائم .

ـ علم تصنيف الأمراض : عصاب وسواسي .

ـ علم الطباع الخاص بالمرحلة السادية الشرجية .

يأخذ أبراهام بالحسبان أربع سمات رئيسة :

ـ إرادة القوة الكلية ، والشعور بالوحدانية ؛

ـ نزعة إلى عدم التصرف إلا في اللحظة الأخيرة ، الى تأجيل العمل ؛

ـ اهتمام بالدراهم ؛

ـ ميل موسوس إلى النظافة والنظام والطهارة .

ج ـ المرحلة القضيبية (من ٤ الى ٦ سنوات)

ـ الوصف : تصبح الأعضاء التناسلية هي المنطقة السائدة ذات المنشأ الغلمي (عضو الذكر والبظر) . ويتمّ تفريغ التوترات بالاستمناء القضيبي ترافقه أحلام جنسية واستيهامات . ويشهد المرء ، لدى الصبي ، انحسار عقدة أوديب وبداية هذه العقدة لدى البنت . إنها ، وقد خيّب أملها كون الأم محرومة من عضو الذكر ، تتّجه عندئذ الى الأب . وتفلح في أن تتغلّب على خصائصها بأن تتوحّد بأمها المخصيّة أيضاً . وبينما كانت تتقابل الفاعلية ـ السلبية في المرحلة الشرجية ، فإن التأثير من الآن فصاعداً للثنائي التالي : يملك القضيب ـ

---

(١٣) انظر العودة الى فرويد ، الفصل القالق القادم .

مخصيّ . وثمة ظهور الخجل وتكوّن الأنا العليا .

- علم تصنيف الأمراض : هستيريا(١٤)

د - فترة الكمون (٧ - ١٠ سنوات)

هذه الفترة موسومة بزوال إضفاء الجنسية ويكفّ الأهداف الجنسية . ويحدث ، في أثناء هذه الفترة ، كبت شديد يسبّب نسيان المعاش الطفلي ويتيح ارتياد المدارس .

هـ - الطور التناسلي (١١ - ١٢ سنة)

تتجمّع الدوافع الجزئية (الشرجية - الفمية) في ظل أولية المناطق التناسلية . ويصبح الفعل الجنسي هو الفعل الجنسي الراشد ، أي الجماع .

وتكمل البنت انحلال عقدتها ، عقدة أوديب ، وتكتشف فرجها .

وهكذا اتبعنا مسيرة الليبيدو كما أوضحها فرويد وتلامذته من خلال علاج المرضى الراشدين وملاحظة الأطفال . ورأينا أيضاً أن بإمكان كل مرحلة أن تكون إما موضوع تثبيت : فالطفل لا يرتقي إلى مرحلة لاحقة ، وإما موضوع نكوص ، وتلك هي الحال في المرض النفسي . ولهذا السبب كتب فوكول(١٥)يقول : « وملخّص القول ، كل مرحلة ليبيدية هي بنية مرضية افتراضية . والعصاب ضرب من علم الآثار العفوي لليبيدو ! » . ويبقى علينا مع ذلك أن نتساءل من أي طبيعة هذا النكوص ؟وماذا يمثّل المرض النفسي في مثل هذه اللوحة ؟وهل يمكننا القول إن الراشد يصبح مرة ثانية ، خلال مرضه ، طفلاً كما يؤكد عدد من المحلّلين النفسيين ؟ ثمة بالتأكيد كثير من التماثلات ، ولكنها ليس بوسعها أن تفيدنا إلا في وصفٍ للمرض ، ذلك أن كون الإنسان يصبح مريضاً ليس عودة بقدر ما هو « ملاذ »(١٦) . « فالنكوص ليس سقوطاً

---

(١٤) انظر تصنيف المرضى النفسيين ، الفصل الأول من الباب الرابع .

(١٥) في كتاب «المرض النفسي والشخصية» ص ٣٦ - ٤٠ .

(١٦) فوكول، المؤلف المذكور .

طبيعياً في الماضي ، بل هو هروب قصدي خارج الحاضر » . ولا يعود المرء أبداً الى ما عاشه ، ولكن « ماضي البدائل ، المصطنع والخيالي » هو الذي يجده مجدّداً .

٢ ـ الشخصية

رأينا كيف تنتظم الأطوار الدافعية انتظاماً تكوينياً . وعلينا الآن أن نوضح مانقصد بالشخصية . فما هي مكوّناتها المختلفة ، وكيف تعمل ؟ ومن أي طبيعة هذه المكوّنات ؟ وماذا يحدث لو أن إحداها تتغلّب على أخرى بصورة بارزة ؟وأخيراً ، ماهي الآليات التي تشرف على سير الشخصية سيراً وظائفياً ؟

آ ـ الأنا

يميّز بعضهم عامة ، على هذا النحو ، بين الهو والأنا : فالأنا هي ما هو شعوري ، والهو هو اللاشعور . والحال أن ذلك خطأ بالنسبة للأنا على وجه الخصوص . إن فرويد يتبينّ في العلاج أن الأنا تعارض أن تعود بعض الميول المكبوتة إلى النور . فثمة مقاومة داخلية للأنا تبدو . وهي تملك عمليات دفاعية لاشعورية جزئياً ، وتلك هي آليات الدفاع . ولنوضّح خصائص الأنا :

ـ إنها هي المتوجهة نحو الخارج والتي تنقل الإحساسات الداخلية نحو الخارج .

ـ فاعليتها فاعلية شعورية وتكوّن منظومة الإدراك ـ الشعور مع شمولها في الوقت نفسه ، وقد رأينا ذلك ، على عناصر لاشعورية .

ـ إنها هي التي تتفحّص وتراقب ، في الأحلام على سبيل المثال .

ـ إن الكبت ينطلق منها .

ـ إنها تخضع لمبدأ الواقع .

ـ إنها هي التي تحمي الشخص وتكيّفه مع المحيط .

ماهي صلات الأنا والهو

ـ إن الهو ، في البدء ، هو الأعمق ، والأنا هي الأكثر سطحية . والأنا هي واجهة الهو ، وهي الراق الخارجي للهو .

ـ ما الذي يتيح للأنا أن تتمايز من الهو ؟ إنه كون الأنا على اتصال بالعالم الخارجي و « تعاني تغيرات تحت التأثير المباشر للعالم الخارجي » . ولكن الأنا ستحاول من الآن فصاعداً أن تقاوم الهو ، وستسعى إلى تعديله . وبعبارة أخرى ، سيحاول مبدأ الواقع ، الذي يقود الأنا ، كما رأينا ، أن يقدّر ويقنّي مبدأ اللذة ، الذي يبحث عن إشباع مباشر دون أن يأخذ بالحسبان الشروط لإمكانات تفريغ التوترات .

ونحن نفهم الآن على نحو أفضل صلات الأنا والهو :

يبحث الهو عن إشباع مباشر ، في حين أن الأنا تقع في الجزء الأكبر منها بموقع متّجه نحو الخارج (منظومة الإدراك ـ الشعور) ، وتحاول أن توجد لحظة مناسبة حتى يكون بإمكان اللذة أن تُشبع دون أضرار . وهكذا فإن الأنا ستحتجز الأهواء وتعلّق إشباعها . ويستعير فرويد صورة فارس : فالأنا هي الفارس الذي يقع على عاتقهُ عبء السيطرة على القوة الفائقة للحصان (الهو) . ولكن ثمة فارقاً : الفارس يسيطر على الحصان بقواه الخاصة ، في حين أن الأنا تفعل ذلك بقوى مستعارة .

ب ـ الهو

للهو رابطة بالجسم وينفذ إليه . ومحتوياته هي التعبير النفسي عن الدوافع . وقد رأينا فيما سبق أن فرويد كان قد تخلّى عن أن يجعل دوافع الأنا متعارضة مع الدوافع الجنسية ، لمصلحة التعارض بين دوافع الحياة ودوافع الموت ، والهو هو الذي يجمع من الآن فصاعداً هذين النموذجين من الدوافع . إنه ، أي الهو ، طاقة بصورة أساسية ، (مستودع كبير) لليبيدو ، والأنا تستعير طاقتها من هذا القعر . وليس للهو قانون ولا منطق ولا تنظيم . ولا يخضع لقانون التناقض ، وليس ثمة سلب . ولا وجود للزمن أيضا ، لأن الزمن لا يبدو إلا مع الشعور . وهدفه الوحيد هو أن يفرّغ التوترات تفريغاً مباشراً ، إنه البحث عن الإشباع . وهو يجهل بالتأكيد معايير الأخلاق كالخير والشر . ويتألف أخيراً من دوافع ، ولكنه يتألف كذلك من رغبات مكبوتة .

كيف يمكننا أن نعبّر عن النزاع بين الهو والأنا ؟ إنه صراع داخلي يكون فيه

الهو حالة من حالات الطبيعة ، ودافعاً لم يُروّض وفي حالته الخالصة : ويمكننا القول إن هذه الطاقة الخالصة تبدو لدى أطفال من الأقوام البدائية . والأنا تبعث الثقافة ، أي تبعث تنظيماً لطراز معيّن من الحياة . فالطبيعة موجودة فينا إذن وتكشف عن استطاعة قصوى ، ذلك أن الهو هو الذي يملك الاستطاعة والطاقة ويهدّد الأنا في كل لحظة . فالموجود الانساني يحيق به دائماً خطر الوقوع مجدّدا في هذه الحالة ، حالة الطبيعة والطاقة الخالصة . ولا يمكنه أن يجهل هذه القوة التي تكوّنه تحت طائلة أن يكون ضحيتها .

ج - الأنا العليا

تبدو الأنا العليا في الفترة التي تسود فيها عقدة أوديب ، عند انحلالها . وفي هذه الفترة ، يستدخل الطفل شخصيتي الأبوين اللذين كان يتوحّد بهما . وبفضل صورة الآخرين التي أصبحت داخلية لدى الفرد ، سيناضل هذا الفرد ضد الدوافع . وينبغي لنا على هذا النحو أن نفهم أن الأبوين الواقعيين ليسا هما اللذان يحظّران في حالة الأنا العليا ، بل الأبوان المنقولان الى داخلية الفرد هما اللذان يعاقبان ، على الغالب مع ذلك ، بقسوة أشد من قسوة الأبوين الواقعيين . فالقمع الذي يُمارس داخل الفرد هو قمعه الخاص . ونفهم أن يكون مفهوم الاستدخال مفهوماً رئيساً . وليس النزاع بين واقع خارجي وبين أنا يقمعها هذا الواقع ، بل النزاع بين سلطتين للشخصية ، وهو داخلي لدى الفرد . فاذا تغلّبت الأنا العليا على سلطتي الشخصية الأخريين ، كما في حال السوداوية أو الوسواس ، سيطرت على هذا الفرد اتهامات ذاتية وضروب من اللوم ورغبات في أن يوقع العقوبة والقصاص على نفسه(١٧) .

وللأنا العليا علاقة بالهو . إنها راسب الحب الأول . والأنا العليا تمثل المجتمع فهي تتيح التماسك ، أي تتيح التقاء القيم ذاتها في مجتمع من المجتمعات . إنها خلاصة القول ، قاضي الأنا ومراقبها .

---

(١٧) انظر «تصنيف المرضى النفسيين» في هذا الكتاب .

د ـ آليات الدفاع

ينبغي لنا أن لا نتصور الشخص الانساني على أنه مؤلّف في الواقع من ثلاث شخصيات هي الهو والأنا والأنا العليا . فعندما يوجد انفصال ، فان ذلك يعني وجود مرض . يضاف الى هذا أن التوازن الذي تحقّقه هذه السلطات الثلاث ليس توازناً سكونياًبل توازناً دينامياً . ولا بدّ للفرد من أن يعيد تبنين تأثيرها المتبادل ، وأن يعيد توازنه بصورة مستمرة . وأخيراً ، يبدو ، بحسب هذا الوصف ، أن الأنا هي التي تؤدّي الدور الأساسي . وثمة تيار معيّن من المحلّلين النفسيين ألحّ على أهميته ، إذ محوروا بحوثهم وممارساتهم على هذا الدور . وبالنظر الى أن الدوافع تهدّد الأنا ، فإن علينا أن نحاول اكتشاف الأسلوب الذي تستطيع هذه الأنا أن تقاومها به . وكان فرويد قد اقترح فرضية هي فرضية دوافع الأنا ، التي ترمي هي ذاتها الى المحافظة على الفرد (ومثال ذلك أن دافع الجوع هو دافع الأنا الذي يتيح للفرد أن يحافظ على ذاته حيا من الناحية البيولوجية) ، ولو أن الهو يتغلّب على جميع السلطات الأخرى . ورأينا أن فرويد كان قد تخلّى عن هذه الفرضية ، ولكن الأنا تنظّم النضال بفضل آليات الدفاع التي درستها على وجه الخصوص أنّا فرويد(١٨)التي تعدّ من هذه الآليات تسعاً : الكبت ، والنكوص ، والتكوين الارتكاسي ، والعزل ، والإلغاء ذا المفعول الرجعي ، والإسقاط ، والاستدماج (اجتياف) ، والارتداد على الذات ، والتحوّل (الانقلاب) إلى الضد . وسنصف هذه الآليات بالتتابع .

الكبت : إنه أكبر آليات الدفاع أهمية . ويكمن الكبت في إبعاد الدوافع وجميع التصورات المرتبطة بها ، من صور وفِكَر وذكريات وأفكار ، من ساحة الشعور . وتلك هي فاعلية لاشعورية لا ينجزها الفرد ، بل هي آلية . ويمكننا أن نضرب عليها مثالاً ، مثال الطفل الذي لا يتذكّر أنه رغب في أمه . وذلك هو أسلوب للفرد في نبذ الدوافع التي تخافها الأنا . ولكن هذا الكبت ، الذي يحاول

---

(١٨) انظر أنّا فرويد «الأنا وآليات الدفاع» .

أن يحجب العناصر التي لا يستطيع الفرد أن يحتملها ، يسبّب الحصر والإثمية . ونجد مثل هذه الآلية تعمل في الهستيريا .

النكوص : يكمن النكوص ، بصورة أساسية ، في ارتداد الفرد الى حالة سابقة . وربما كان ذلك حالة طفل يباشر طلب عناية كعناية الرضيع ، عند ولادة أخ أو أخت ، بفعل الغيرة .

ولكننا نعيش نحن أنفسنا مثل هذه اللحظات كل يوم بهدف الاسترخاء على سبيل المثال أو في النوم أيضاً .

العزل أو الانعزال : إنه آلية دفاع نجدها لدى الموسوسين . فنلاحظ لديهم أفعالاً « معزولة » عن بقية الأفعال الأخرى ، عبثية وغير مفهومة ، وليس بوسعهم أن يضفوا عليها معنى . ومثال ذلك حاجة مستمرة للاغتسال . فللمرضى المصابين بالوسواس « نزعة الى تكرار الأعمال ذاتها ، وجعلها ذات إيقاع ، وعزلها عن الأعمال الأخرى »(١٩) . و دور عالم النفس يكمن في أن يجعل كلية الفترات الزمنية في وجود المريض متصلاً بعضها ببعض مجدّداً .

آلية الإسقاط : الإسقاط « عملية يطرد بها الفرد من ذاته صفات وعواطف ورغبات ، بل و « موضوعات » ، ينكر وجودها في ذاته أو يرفضه ، ويحدّد موضعها في شخص آخر أو شيء »(٢٠) .

ونضرب مثالاً على ذلك استيهام الرغبة الجنسية المثلية كما وصفه فرويد في منشأ الذهان الهذائي(٢١) . والاستيهام الأساسي بالنسبة لإنسان مصاب بهذيان الاضطهاد هو التالي : « أنا (انسان) أحبه هو (انسان) » :

وفي اللاشعور ، تصبح الجملة ، التي لا يمكنها أن تظهر في الشعور ، على النحو التالي : « إنني لا أحبه ، إنني اكرهه » . ولكي تمرّ في الشعور ، تتدخّل

---

(١٩) «المدخل الى التحليل النفسي الفرويدي» ،ص ٢٥٢.ولكي تقرأ حالة من الحالات المرضية انظر المؤلف نفسه ، ص ٢٤٦ وما بعد .

(٢٠) «المعجم والتحليل النفسي» .

(٢١) «خمس محاولات في التحليل النفسي» ، ص ومايليها .

آلية الإسقاط : ثمة إدراك مصدره الخارج يحلّ محل الإدراكات الداخلية : « إنه يكرهني أو يضطهدني » ، وتلك ترجمة لـ« إنني أكرهه » . فتصبح الجملة على هذا النحو : « إنني لا أحبه ، إنه يكرهني ، إنه يضطهدني » . لقد حدث إسقاط الكره الى الخارج .

التكوين الارتكاسي أو التعويض المغالي : يتدخّل التكوين الارتكاسي أيضاً ، أو التعويض المغالي ، للدفاع عن الأنا ضد الدوافع . وفي هذه الحالة ، لا تكبت الأنا ميولها فحسب ، بل (تبالغ في ذلك) إذا صحّ القول . إنها تفاقم هذا الكبت . ويذكر ألكسندر[٢٢] حالة مريض لم يكن بوسعه أن يحتمل تعذيب الحيوانات والموجودات الإنسانية : وخلال التحليل ، انتهى به الأمر الى أن يقصّ أنه كان يحب تعذيب الحيوانات عندما كان صغيراً (كان يجعل الضفادع منتفخة ، ويمارس ضروباً من القسوة على إخوته وأخواته) . إن ضرباً من التهذيب المغالي ، الذي يمكنه أن يساعد في تجاوز هذه العدوانية ، هو تهذيب ينتمي إلى هذا الإطار من هذه الآلية .

التوحّد ـ الاستدماج (الاجتياف) : رأينا أن الأنا العليا تتكوّن بفضل التوحّد بالأبوين . فيتمثل الفرد قواعد السلوك الخاصة بالأبوين ويجعلها قواعده .

وللآلية تأثير في التوحّد بالمعتدي . وتذكر أنّا فرويد حالة تلميذة كانت تقوم ببعض التكشيرات ، تقلّد وجه المعلم وهو غاضب . وكانت على هذا النحو تكتم حصرها بفعل التوحّد بالموضوع الخارجي المرهوب .

والاستدماج (الاجتياف) يقابل ، بوصفه آلية من آليات الدفاع ، ضرباً من التوحّد ولكنه أشد عنفاً . فثمة ، في السوداوية ، فقدان موجود عزيز ، فقدان حقيقي أو متخيّل . وسيحاول الشخص ، بوصفه لا يمكنه أن يتحمل هذا الفقدان ، أن يضع هذا الموجود المفقود داخل ذاته . ولكن الشخص الغريب المستدمج (المجتاف) على هذا النحو سيظلّ جسماً غريباً عن الفرد الذي لن

---

(٢٢) في «مبادىء التحليل النفسي» ، مكتبة بيو الصغيرة .

يتمكّن من أن يجعله متكاملاً مع شخصيته .

وهذا الموضوع الجديد يحبه ولكنه يكرهه أيضاً . فاذا تغلّبت عاطفة الكره ، فإن السوداوي يقتل نفسه مع الموضوع المحبوب المكروه .

التحوّل (الانقلاب) إلى الضد : تذكر أنّا فرويد[٢٣] حالة صبي تستحوذ عليه حماسات المحاربين كلما كان لديه باعث لمعاناة الخوف من الخصاء . فيرتدي لباسه العسكري ، ويتقلّد سيفه ، ويحمل أسلحته ، أسلحة الطفل ، الخ ، وينقلب الحصر على هذا النحو الى ضده ، أي الى عدوانية .

الإلغاء ذو المفعول الرجعي : سيحاول الفرد جهده أن يتصرف بحيث يلغي أفكاراً وأفعالاً ماضية[٢٤] . ويضرب فرويد مثال فرد عاد ، بعد أن سحب غصناً كان يعوق المرور ، فوضع الغصن على الطريق خوفاً من أن يعوق في الدغل ، شخصاً من الأشخاص(*) .

ما فائدة آليات الدفاع ؟

هدف آليات الدفاع أن تساعد الأنا في نضالها ضد الحياة الغريزية . إنها تستجيب ، في رأي أنّا فرويد ، أمام خوف مثلث :

---

(٢٣) المؤلف السابق، ص ٥٥

(٢٤) انظر «خمس حالات من التحليل النفسي » ، الانسان ذو الفئران ، ص ٢٢٤، الملاحظة الثالثة .

(*) نشير ألى أن كاتب هذا الفصل، من مؤلفي هذا الكتاب، نسي على ما يبدو أن يشرح الآلية التاسعة «الارتداد على الذات». وحتى لا يفوت القارئ فهم هذه الالية نقول إنها تكمن في أن يحوّل الفرد على ذاته عواطف يستشعرها إزاء الغير. فالكره لشخص من الأشخاص (دافع عدواني) قد يتجلى بكره الذات، أو التشويه، وحتى بالانتحار . وقد يتجلى الحب للغير بالغلمية الذاتية والنرجسية. ومن الواضح أن الفارق بين آليتي الارتداد على الذات والانقلاب (التحوّل) إلى الضدّ يكمن في أن الانقلاب في آلية الدفاع الأولى يكون في الموضوع، وفي الآلية الثانية يكون الانقلاب في الهدف «م».

خوف من الغرائز . دور هام من أدوار الأنا العليا .

خوف واقعي لدى الطفل على وجه الخصوص ، وذلك أمر يعني أن ثمة إمكانا لوجود آلية دفاع حتى عندما لا تكون الأنا قد تكونت .

خوف من استطاعة الدوافع .

أوضحنا كيف تقوم العلاقات بالموضوع ، وما هي المراحل المختلفة للشخصية ومكوّنات هذه الشخصية ، وأخيراً ما هي الآليات التي تقيمها الأنا لكي تحمي نفسها وتتكيّف مع الواقع .

وكل ما كنا قد عرضناه كتبه فرويد ذاته أو كان في حالة الرشيم في مؤلفاته . أما وقد أبرزنا مفهوم الشخصية والأنا ، أليس هذا المفهوم تفسيراً من تفسيرات التحليل النفسي الأخرى ؟ فما هي النتائج الناجمة عن ذلك ؟

الفصل الثالث

العودة إلى فرويد

ما وراء التقليدي

حرصنا على أن نعرض الصورة التقليدية للتحليل النفسي ولتطوراته ، تلك الصورة التي تزداد انتشاراً ، أي تلك التي تلحّ على الصلة بين الفرد والموضوعات ، بين الأنا والواقع ، وبعبارة أخرى تلح على تكيّف الانسان مع الواقع . ومن المؤكد أن المساهمات التي وصفناها خصبة ؛ وسواء أكانت هذه المساهمات عرض سبيتز حول تكوّن الموضوع ، أم كانت أيضاً آليات الدفاع التي درستها أنّا فرويد ، فإن بوسعنا القول إنها تمثّل معطيات إيجابية يمكن أن يقبلها[1] جميع الناس ، محللين نفسيين أو غيرهم ، ولكن بوسعنا التساؤل عما إذا لم يكن الأمر أمر قراءة خاصة قرؤوا بها فرويد ، قراءة لا تشرح كشوفه الأساسية .

أولاً ـ الواقعي أو الاستيهامات ؟

١ ـ تحليل نفسي للتكيّف

لا بد لنا من أن نلاحظ أن عدداً من المفهومات التي كانت تبدو دون مشكل عندما عرضناها مقتفين أثر سبيتز أو أنّا فرويد ، لم يكن فرويد ذاته قد جعلها أبداً موضوع دراسة . وتقضي المصيبة أن تكون هي المفهومات الأكثر استخداماً ،

---

(١) ثمة عدد كبير من المؤلفات التي تعرض التحليل النفسي تظل عند هذا الحد . وليس ثمة احتفاظ إلا بالنجوع المباشر وتقنيات التدخل .

كمفهومي العلاقة بالموضوع أو مرحلة النمو أيضاً . وإذا صدّقنا « معجم التحليل النفسي » لمؤلفيه لابلاش وبونتاليس ، فان « مصطلح العلاقة بالموضوع يلقاه المرء بقلم فرويد مصادفة . فاذا كان إذن غير صحيح أن نقول ، كما فعل بعضهم ، إن فرويد يجهل ذلك ، فإن بوسعنا أن نبيّن بالتأكيد أنه لا يكوّن جزءاً من جهازه التصوري » . والحال أن عدداً من أعمال التحليل النفسي الانغلو ـ ساكسوني تمحور تحليلاتها على هذا المفهوم الذي لم يسترع نظر فرويد ، ونحن نعلم ما يعني مفهوم من المفهومات ، بالنسبة لفرويد ، ومقتضى الدقة الموجود لديه في هذا المجال . وتكمن نتيجة هذا التوجّه في إبراز العلاقة بين الفرد والموضوع حتى نتفادى نقصاً مزعوماً في دراسة التواصل بين الذوات ، بالنظر الى أن الغالبية من مفهومات التحليل النفسي تتعلّق ، في رأي بعضهم ، بالفرد وحده . ولكن هذا التفسير يكتنفه الخطر : « بقدر ما يشدّد مفهوم العلاقة بالموضوع ، وذلك أمر منطقي ، على الحياة العلائقية للذات ، فانه يجازف بتوجيه بعض المؤلفين الى أن يعتبروا العلاقات الواقعية بالمحيط حاسمة بصورة أساسية » . وسيترتّب على ذلك أن نهمل مساهمة فرويد الحاسمة في الحياة الاستيهامية وعلاقتها بالحياة الواقعية .

وهذه الحركة في التحليل النفسي تؤدي إلى أربع ملاحظات :

الملاحظة الأولى : تقسيم مصطنع

نظرية مراحل النمو أولاً لا تقدّم عوناً كبيراً جداً لفهم الفرد .

الملاحظة الثانية : رفض اللاشعور

ثم إننا نلاحظ توجّها في حركة التحليل النفسي نحو ضرب من علم التربية ، وبفعل هذا ذاته ، نحو تكيّف مع الواقعي . وهكذا تزعم آنّا فرويد أن التحويل يتدخّل ، بالنظر الى أنه لا يمكنه أن يحدث لدى الأطفال الصغار ، على مستوى الواقعي ، إذ تصبح صديقة الطفل . فهي تتحالف معه ضد المحيط . وذلك أمر ينتهك حرمة نظريات أبيها . وأعني أن على المحلّل النفسي أن يحتفظ بضرب من الحياد خلال العلاج . وهي تستخدم حصر الطفل لتجعله طيّعاً ، أو أنها تذلّه بوسائل سلطوية ، وذلك أيضاً تأثير واضح للمحلّل في المريض . وتعارض ميلاني كلاين هذا « الترويض » الحقيقي للطفل ، الذي يمهّد لكل

علاج : « نحن نظن أن هذا المدخل قد يؤمّن لنا منفذاً جزئياً نحو لاشعور المريض ، ويقتضي ان نتخلّى بالتالي عن أن نقيم وضعاً تحليلياً حقيقياً تاماً ينفذ حتى الراقات العميقة للنفس »[٢] .

الملاحظة الثالثة : المبالغة في أهمية الأنا

هكذا تبدو التناقضات بكثير من الوضوح . فأنّا فرويد تهتمّ على نحو أساسي بـ« الأنا » . تقول أنّا فرويد : « كان التحليل النفسي من قبل يُعنى بالحياة النفسية اللاشعورية . وضروب عدم التكيف مع العالم الخارجي لا يمكنها أن توقف عمل التحليل النفسي الذي لم يكن يُعنى إلا بسيكولوجيا(*)الأعماق »[٣]. وأنّا فرويد تصف التحليل النفسي ، عام ١٩٣٦ ، بأنه يهتمّ ، من الآن فصاعداً ، بالأنا اهتماماً أكبر ، ولكن ذلك يعارض رغبة فرويد . إن الهدف الوحيد ، في رأيها ، أن يعيد التحليل النفسي « كمال » الأنا . وقد رأينا أن ميلاني كلاين أكثر فرويدية منها ، من حيث أنها تتنصّت إلى اللاشعور الذي تريد أن تدعه يتكلم ، لا الى مقاييس بيداغوجية أو الى مقاييس أخرى . إنه إذن بعد كامل من الأبعاد يفوت ضرباً معيّناً من التحليل النفسي الذي لا يرمي إلا الى تكيّف الفرد مع الواقعي . وما ساهم به فرويد في علم النفس ، قبل كل شيء ، إنما هو طريقة شاملة ، أي طريقة تتوخّى أن تشمل وتوحّد كلية المظاهر ذات الدلالة ، مظاهر الشخصية التي ليس التكيّف غير بعد من أبعادها . فالاهتمام بتكيف الفرد مع عالم يرفضه بسبب مرضه ، انما هو الخضوع للأوامر الاجتماعية الجزئية ، وهو قبول ما يقوله الشخص قبولاً مباشراً دون تدقيق ، بل بالحري قبول

---

(٢) «محاولات في التحليل النفسي» ، ص ١٨٢، دار نشر بيو .

(٣) انظر أنا فرويد ،« الأنا وآليات الدفاع » ، الفصل الأول : الأنا : موضوع الملاحظة . ص ٣ - ٩ .

(*) نودّ أن نلفت انتباه القارىء إلى أننا نستخدم مصطلحي علم النفس والسيكولوجيا بمعنى واحد ، والأسلوب هو الذي يقتضي أحدهما «م» .

ما يقوله عن أمراضه دون النظر الى الكلام الذي يتمفصل خلف أغراضه . إنه الخلط بين الأنا (تمثال ينصبه كل فرد لنفسه ، وصورة خدّاعة لائقة) ، وبين الذات (تجلّي شخص مفرد ينظّم عالمه وعلى اتصال به) .

الملاحظة الرابعة : نحو علم نفس عام

التوجّه نحو التكيّف مع الواقعي يقود على هذا النحو بعض المحلّلين النفسيين الى تصور التحليل النفسي على أنه تحليل الأنا المعروضة منذئذ على أنها وظيفة الإدراك والشعور ، أي التقاء الفرد والواقعي . وغاية التحليل النفسي ارتدّت على هذا النحو بفعلهم « الى ضرب من الفن لتقويم اعوجاج الأنا . وهم يجعلون مطمح العلاج ، أي علاج ، متمحوراً على الضرورة الماثلة في استرداد أنا « راشدة » كل الرشد . . .(٤) » وهذا يعني أن ننسى ، نسياناً مغالياً في سرعته بعض المغالاة كما تقول مود مانّوني ، أن « الإنسان يسدّد ثمن هذا التكيّف المزعوم من جنونه وانحرافه » . ويتميّز مناصرو هذه « الأنا السيكولوجية » ، مثل هارتمان وكريس لوفشتاين ، بمختلف النقاط التي كنا قد أشرنا اليها من قبل : « إننا ، في التحليل النفسي ، نجد مشكل التكيّف مرتبطاً بنظرية الأنا ارتباطاً رئيساً . ويبدو هذا المشكل أيضاً أنه هدف فن العلاج ، وأنه أخيراً يرتبط باعتبارات بيداغوجية »(٥) . وهم يحاولون ، في مشروعهم ، أن يدمجوا الحد الأقصى من معطيات الفيزيولوجية ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعي . إلخ ، ليؤسسوا « علم نفس عام للنمو » . وهم ، في سبيل ذلك ، يدخلون مفهومات كمفهومي « دائرة الأنا المتحرّرة من الصراع »(٦) ، والطاقة التي تجردت من صفتها الجنسية وبوسع الأنا استخدامها . فالأنا موصوفة على هذا النحو وكأنها جهاز

---

(٤) مانوني، «الطبيب النفسي ، « مجنونه» والتحليل النفسي» ، ص ٨٦ .

(٥) هارتمان ، « سيكولوجيا الأنا ومشكل التكيف » ، ص ١ ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

(٦) هارتمان، المصدر نفسه ، ص ١ الى ١٦ .

ضبط وتكيّف (ونحن نحيل القارىء الى النقد المفعم بالدعابة الذي وجّهه لاكان إلى هذه التصورات)[7] . أما من جهتنا ، فاننا نلاحظ فقط أن مبدأ الواقع الذي تخضع له الأنا يصبح التكيّف لدى المؤلفين الأمريكيين . ويظلّ هذا المفهوم غامضاً بالتأكيد ، ومثله مفهوم السواء . يضاف الى هذا أن المؤلفين الأمريكيين يرجعون الى مفهوم ساذج للواقعي هو « الواقع الخارجي الجيّد »[8] الذي تجنّبه فرويد على وجه الدقة تدريجياً . وهم ، أخيراً ، يرتّبون الأنا في فئات بحجة جعلها موضوعية . وفي هذا الصدد يقول لاكان : « صدّقوا إذن أن بوسعنا أن ننظر إلى الأنا على أنها شيء ، ولسنا نحن الذين نأكل من هذا الخبز إياه »[9] . وبهذا ذاته ، فالمحلل النفسي ، الذي يستجيب لطلبات أنا الفرد ، يلتقط هذه الأنا في الخيال الخدّاع ويضلّ الطريق الى رغبتها . وسنرى فيما بعد نتائج هذا الاحتقار . وتلخّص مانّوني تلخيصاً جيداً تناقض هذين المذهبين في التحليل النفسي (سيكولوجيا الأنا لهارتمان والتحليل النفسي الفرويدي المتمحور على مفعولات الدالّ في تبنين الرغبة ، مدرسة لاكان) عندما تكتب قائلة : « ما يرجح في سيكولوجيا الأنا هو علاقة معيار أخلاقي ، معيارنا ، نبحث عن أن نفرضه على المرشح للتحليل النفسي[10] . فموضوع الرهان في التحليل النفسي الفرويدي هو من مستوى تجديد الموجود ، والمقصود علاقة الذات بالحقيقة » .

٢ ـ الأنا والرغبة

بوسعنا القول إن الأمر في حالة أولى ، سيكولوجيا الأنا ، يكمن في

---

(٧) في «كتابات» ، ص ٢٤٠ ومايلي .

(٨) مانوني ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٩) لاكان، المصدر نفسه ، ص ٤٢٠ .

(١٠) تتحدث مانوني هنا عن التحليل التعليمي ، أي التحليل الذي ينبغي لكل مرشح لمهمة التحليل النفسي اتباعه لدى محلل نفسي آخر . وهذا ما يمكن تطبيقه على المريض الذي ننقل اليه معيار التكيف ، أي معيار مجتمع معين .

أن نضع الفرد مجدّداً موضع الاتهام ، مذكّرين هذا الفرد بمعايير المجتمع الذي يعيش فيه . والأمر في الحالة الثانية ، التحليل النفسي الفرويدي ، يكمن في الإصغاء إلى موجود وجعله يكتشف كلام رغبته . ينبغي ، من جهة ، أن يُقضى على ما يتكلّم لدى الفرد لمصلحة ما ينبغي له أن يتكلّم إلى الطبيب النفسي ، أي المجتمع ، إلخ . ومن جهة أخرى ، يُقدَّم له إمكان التعبير وإعادة التبنين . ففي الحالة الأولى ، نفضي إلى أن يفقد وجوده شخصٌ لم يعد سوى موضوع ، سوى لاحيّ ، سوى ضائع بالمعنى التام لهذا المصطلح ، وذلك أمر يجعل شكاوى هذه المريضة ، التي زعموا أنها شُفيت ، أمراً ممكناً : « الناس جميعهم مسرورون ، لأنني شفيت . ولكنهم لا يفهمون أن المهم ليس هذا الشفاء . ولا يفهمون أن المهم إنما هو رغباتي . فرغباتي هي التي تقتلها الأصوات ، إنها تلاحقها لتقتلها . وما فائدة أن أعيش إذا كنت محكومةً بأن تموت رغباتي ؟ ليس مرضي هو الغذاء ، بل مرضي أني على وشك أن أصبح مجنونة »[11] . أو هذا الكلام أيضاً لأحد الآباء : « ابننا على أحسن ما يرام ، إنه مستسلم ، مستسلم كليا ، وهذا،كما هو الأمر بالنسبة لكل شيء ، هو الدرب الجيد وهذا عظيم كل العظمة »[12] . ويتكّون ، بالتعارض مع « سيكولوجيا الأنا » هذه ، تحليل نفسي لا يهمل اصلاح هذه الأنا إهمالاً كلياً ، ولكنه يحاول أن يفهمها فهماً حقيقياً . فليس موضوع البحث أن نعرض مراحل التكوين وتاريخه وإيجابياته ، بل إن موضوع البحث أن نوضّح ما الذي يقود هذا التكوين ، « لا باللجوء إلى فكرة تمايز وظيفي ، وإنما بأن ندخل في الحياة النفسية عمليات نفسية خاصة ، هطولات حقيقية من السمات ، والصور ، والأشكال ، مقتبسة من الموجود الإنساني الآخر » . وهذه العمليات هي ، على سبيل المثال ، التمايز لدى ميلاني كلاين بين موضوع « جيد » وموضوع سيء » ، ومرحلة المرآة عند لاكان ، وظاهرات التوحّد والاجتياف « الاستدماج »

---

(١١) مانوني، المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

والنرجسية . وهذه العمليات والظاهرات لا يمكنها أن تتّضح إلا اذا كنا نصغي إلى اللاشعور ، وإذا لم نقتصر على تحليل منظومة الإدراك ـ الشعور . وهكذا تعارض ميلاني كلاين أنّا فرويد في أنها ترغب في أن « تقيم اتصالاً مباشراً بلاشعور الطفل » ، إذ أن المحلّل النفسي يفسّر الحصر الذي يتجلّى خلال العلاج ليكتشف « صوت الاستيهام » ويسبر أسراره . وتُعنى ميلاني كلاين على هذا النحو بالأعمق من الموجود الإنساني لا بما ينفذ منه إلى الواقع . يضاف إلى هذا أن آليات الدفاع التي وصفناها مع أنا فرويد ليست دفاعاً ضد الواقع الخارجي (وذلك أمر طالما ادّعته أنا فرويد) ، ولكنها دفاعات ضد الاستيهامات ، وهي ذاتها استيهامات . ولهذا السبب ، فان حياة الطفل الصغير ، في رأي ميلاني كلاين ، حياة من النموذج الاستيهامي تراهن على آليتي التوحّد والاستدماج (الاجتياف) . وسنكتفي هنا بأن نضرب مثال لاكان لنوضّح هذا المنظور في سيكولوجيا الطفل .

ولا يهتم لاكان أبداً بتأسيس ضرب من التسلسل الزمني للمراحل في الطفولة ، ولكنه يهتم بالحري بأن يبيّن نشوء فترات بنيوية تضفي معنى على هذه الطفولة . فهو ينكبّ على هذا النحو ليبرز التكوّن الاستيهامي والمتخيَّل الذي يستحوذ على الطفل منذ أصغر عمره ، ويصف ما تمثّله عقدة أوديب بوصفها ارتقاءً لعالم الرمزي . وسندرس ثلاث فترات أساسية ، أي الفترة قبل المرآوية وفترة المرآة وأخيراً عقدة أوديب .

ثانياً ـ الفترات البنيوية في رأي لاكان

١ ـ الفترة قبل المرآوية

صورة الأم

قدّم لاكان عرضاً منهجياً لهذه المرحلة في الجزء الثامن من الموسوعة الفرنسية . فالبنية الأسرية موسومة بنشوء ضرب من العقدة ، وذلك مصطلح ينبغي لنا أن نفهمه بغير المعنى الزائف المنتشر بسهولة . إنها عامل لاشعوري

بصورة أساسية موجود في قاعدة البنية الأسرية(١٣) ، إنها ضرب من العروة التي تنظّم سلوكات الكوكبة الأسرية وتوزّعها . وتتميّز هذه العقدة بثبات معيّن ، وضرب من النوعية ، وطراز من الحياة خاص بكل أسرة . وهذا التوازن تابع لمختلف الدوافع التي يبديها الثنائي الأبوي . والعقدة يمكنها ، بدمغتها اللاشعورية وتوازنها ، أن تكون عامل تقدّم بالنسبة للطفل الذي تستحوذ عليه ، كما يمكنها أن تكون عامل نكوص . ويصف لاكان ، وراء هذه العقدة ، ضرباً من الامتثال اللاشعوري يسميه باسم الصورة الذهنية المثالية التي يعرّفها بصورة مفارقة على انها « تصور لاشعوري » . ويبيّن لنا كيف تبنين هذه العقد والصور تكوين الطفل داخل القول الأسري . والعقدة الأولى التي تظهر لدى الطفل هي عقدة الفطام التي تقابلها صورة ثدي الأم . وليست علاقة الأم والطفل بالتأكيد علاقة تنفخ الغريزة فيها الحياة كما قيل من قبل ، وإنما هي علاقة ثقافية لا تنتهي بفعل الضرورة الفيزيولوجية فحسب بل بقرار ثقافي أيضاً . وبهذا ذاته ، يُطرد الطفل بالقوة من عالم بيولوجي صرف . « وللمرة الأولى ينحلّ توتّر حيوي في قصد ذهني » . فالطفل سيحاول أن يوطّد العلاقة التي تربطه بأمه حين يرفض الفطام . وهو يصون حالة من الانصهار الحقيقي بها : وستكون صورة الأم مدموغة بهذه الرغبة في العودة إلى الأم ، الجنة الحقيقية . وستأتي عقدة الفطام تعزّز وتولّد مجدّداً ، بصورة بعدية ، حصر الولادة الموسومة بالاختناق والبرد المرتبط بعري الغلاف والضيق التيهي . واذا كان لاكان يظن أن ليس ثمة حصر حقيقي عند الولادة(١٤) ، فان هذا الحصر يعيشه الطفل على نحو من الأنحاء خلال هذه العقدة ، ذلك أن الحياة خارج الرحم تظل زمناً طويلاً أشبه بالحياة داخل الرحم فيما يتعلق بضروب الضيق الناشىء عن الوضعيات الجسمية والصلابة في العضلات وعدم التوازن . وهذا يعني أن الموجود الانساني موسوم

---

(١٣) انظر فصل «اللاشعور والبنيات الأسرية » في هذا الكتاب .

(١٤) هذا ماكان قد عرضه رانك في مؤلفه «صدمه الولادة» .

بسمة مفادها أن زمن ولادته يحدث قبل الأوان . وسنرى أن هذه الولادة قبل الأوان تؤدي دوراً كبيراً في حالة المرحلة المرآوية . وهذه الصورة الذهنية المثالية للأم ، التي تعمل وظائفياً بوصفها محل الجنة بالنسبة للطفل ، يمكنها أن تعوقه في نمائه بفعل رغبة في العودة الانصهارية إلى الأم . ويوسع الطفل أن يرفض هذا الانفصال الذي أقامه الفطام بينه وبين أمه ، وبوسع الأم أيضاً ، من جهة أخرى ، اذ تفيد من نضج ابنها قبل الأوان ، أن تحول بينه وبين بلوغ استقلاله بفعل عناياتها المغالية في الحزم التي أصبحت ضرورية في الظاهر . والصورة الذهنية المثالية للأم تبعث عندئذ لدى الطفل ، في أعماقه ، دوافع الموت . ويوسعه أن يسعى ليجد مجدّداً هذه الأم المفقودة بفعل موت غير عنيف بصورة عامة ، وفقدان الشهية ، وتسمّم بطيء ، وعُصابات مَعِدية . وهو يبدي على هذا النحو رفضه أن يعيش منفصلاً عن أمه . وستظلّ هذه الصورة الذهنية المثالية لثدي الأم تؤدّي دوراً نفسياً كبير الأهمية ، ولو أن الطفل يتوصّل إلى التغلّب عليها والتسامي بها . وهذه العودة إلى اتحاد تام يمكنها دائماً أن تنتقل مجدّداً لدى الفرد من القوة إلى الفعل . وستبقى بعض الصور ،على أي حال ، تعبّر عن هذه العقدة . (وتجد هذه الصور رمزاً مناسباً في المسكن وعتبته ، وفي البيت ، والمغارة ، والكوخ) . وهذه الصورة الذهنية المثالية يجدها المرء أيضاً في طوباويات كون موحّد بصورة كلية .

غيرة الطفل

والعقدة الثانية التي تنبعث بعد عقدة الفطام هي عقدة التطفّل التي تسجّل مرحلة المرآة فترة أساسية منها . وتبدو هذه العقدة عندما الطفل يحتاز الشعور أن بامكان آخرين أن يحلّوا محله قرب أمه وأبيه . إنه إذن ارتكاس من ارتكاسات الغيرة يعتبره لاكان قاعدة النمو الخاص بالارتباط بالجماعة . وكما يشير الاسم ، ينبغي للطفل أن يناضل ضد متطفل يسرق مكانه قرب أمه . وتظهر هذه العقدة عادةً عند ولادة الطفل الثاني ، وعندئذ يحدث ضرب من توحّد البكر بالولد الثاني ، إذ ينكص الأول إلى حالة الرضيع على الغالب ، فاقداً ما أنجزه من

الاكتسابات القليلة التي كانت قد جعلته مستقلاً عن أمه(١٥) . وفي حالات أخرى ، يبدأ الطفل بكل بساطة اهتماماً بالغير ـ الطفل ، وينجذب إلى ندّ من أنداده أكثر بكثير من انجذابه إلى الراشد . فثمة لديه إذن هذه الازدواجية في المشاعر إزاء الغير الذي يغار منه بقدر ما يوشك أن يحتلّ مكانه قرب أمه ، ولكنه يشعر ببعض الانجذابات إليه . وتتقاسم الغيور حركةٌ مزدوجة تجعله يمتزج بالغير ، ولكنها تجعله في الوقت ذاته يدرك اختلافه بالكره الذي يكمن لديه تجاهه . فالغيرة تفيد الطفل إذن في أنه يحتاز الشعور بالآخر وبنفسه . ولكن تطفل الولد الثاني قد يوقظ الصورة الذهنية المثالية لثدي الأم ودوافع الموت .

٢ ـ فترة المرآة

سيكتسب الطفل علاقة بالغير ويحتاز الشعور بذاته بفضل المرآة . والارتكاس أمام المرآة مختص بالنوع الانساني . فالحيوان لا يظهر السلوكات نفسها . ويروي بريز قصة بطة تركية تجد ، إذا صح القول ، رفيقتها التي أضاعتها إذا وُضعت أمام مرآة . فليس على نفسها إنما تتعرّف في الصورة ، بل تتعرف على صورة رفيقتها ، وهي لا تعدّها على أنها صورتها الخاصة . ويصف كوهلر سلوك الشمبانزي أمام المرآة ، ولكن الشمبانزي يمدّ يده دائماً إلى الخلف ليجد شبيها له ، ويبدو خائب الأمل بهذا البحث . ولذلك يفقد الاهتمام سريعاً بهذا الانعكاس . وهو يسعى إلى أن يمسّ جسماً آخر ، وليس بوسعه الارتقاء الى هذا التصور للصورة على أنها صنو الواقع ، وليس بوسعه أن يكتسب هذا الوجود الأول اللاواقعي للشيء ،أي الصورة .وتكوين استجابة الطفل للمرآة يخضع لعدة فترات . فلا بدّ من أن نلاحظ أول الأمر أنه يكتسب صورة جسم الآخرين في المرآة بصورة أسرع من اكتساب صورة جسمه الخاص في المرآة ذاتها .

ـ ولا يبدأ الطفل بالاستجابة للمرآة ، في رأي والون ، إلا حوالي الشهر الثالث .

---

(١٥) انظر في «التطور العصبي النفسي للطفل» ، شروط اكتساب اللغة ، ص ٥٥ .

ـ وحوالي ٤ ـ ٥ أشهر ، ينظر الطفل إلى هذه الصورة بكثير من الانتباه ولديه إزاءها علاقات اهتمام .

ـ وبوسعنا الكلام بعد الشهر السادس على تصرفات حقيقية أمام المرآة . فالطفل يبتسم لأبيه الذي يراه في المرآة ، ولكن الأب اذا كلّمه استدار صوب مصدر الصوت بدهشة . وليس الأمر بالنسبة إليه بعدُ غير استشعار بأن المرآة ليست سوى صنو الواقع ، ولمّا يعرف أن ذلك ليس سوى انعكاس . ذلك أن مناوراته في الاكتشاف خلف المرآة تستمر فيما بعد .

ـ وفي الشهر الثامن ، حسب رأي والون ، إنما يُبدي الطفل ارتكاساً أمام المرآة لصورته الخاصة . ولا بدّ في رأيه من أن تحدث عملية مزدوجة :

١) أن يدرك أن الصورة التي يراها ليست هو . وعليه أن يفصل الجسم الذي يحس به عن الجسم الذي يدركه .

٢) أن يتحقّق أن بوسع الغير أن يراه . فجسمه مرئي ويتجلى لنظر الآخرين على النحو الذي تتجلّى به الصورة في المرآة . وتعمل الصورة المرآوية عملاً وظائفياً عندئذ وكأنها صنو لجسم الطفل . إنها جسم ثان إذا صح القول . ويعثر المرء على هذه الظاهرة في الحلم حيث يمكنه أن يمثُل بصفته ممثّل شخصية من الشخصيات ، في حين أنه يحلم . وظاهرات الحضور الكلي في الفكر البدائي معروفة أيضاً . ولن نتوصّل إلى التمييز بين مكان الصورة الفتّان وبين مكانيتنا الخاصة إلا تدريجياً ، إذ نضفي الصفة الفكرية على عالمنا .

ـ وفي السنة الأولى ، في رأي والون ، ينظر الطفل إلى الصورة حصراً على أنها ضرب من المظهر . وهكذا فان البنيّة ، التي تمر أمام المرآة وتعتمر قبعة ، تصلح وضع القبعة على رأسها دون أن تخلط بين المكانين . وليس هذا الاكتساب مع ذلك نهائياً ، ويمكننا أن نشهد عودات إلى الوراء . فالطفل يمدّ يده مجدّداً خلف المرآة .

تكوّن الفرد

ويستأنف لاكان هذه التحليلات وينهجّها إذ يوسّع حقل التقصيّ . فهو لا يلجأ إلى علم نفس الطفل فحسب ، بل يلجأ كذلك إلى علم الحياة وعلم نفس

الحيوان . فالطفل الذي لا يزال ، خلال هذه الفترة ، أدنى من الشمبانزي في ذكائه العملي ويحسّ بجسم مجزأ ، سيدرك بالاستباق المتخيل جسماً موحّداً ومسوداً . وتقع هذه الفترة ، في رأي لاكان ، بين الشهر السادس والثامن عشر ، أعني أن الاكتساب لا ينفد إذا حصل ولا يكتمل دفعة واحدة ، ذلك أن الطفل سيلعب ويقوم بحركات وإيماءات مقابل المرآة ، ويستمتع بهذا الذهاب والعودة بين انعكاس الواقع بالصورة وبين الواقع ذاته . ولا تنصبّ هذه اللذة إلى جسمه الخاص فحسب ، ولكنها تنصبّ أيضاً على الأشياء المحيطة وعلى أشخاص وسطه . فليست هذه إذن تجربة تقتصر على إدراك صورته الخاصة ، ولكن الغير مدعوّ في هذه الفترة . وكيف نفهم هذا التطور ؟ ينبغي لنا أن نفهمه ، يقول لاكان ، على أنه توحّد بالفهم شبيه بـ« التغيّر الذي يحدث للفرد عندما يقبل صورة من الصور » . ونحن نقصد هنا الصورة الذهنية المثالية . فالفرد يجعل صورته الخاصة أمراً ينتمي إليه . ولا بدّ من أن نلاحظ أن لاكان يتكلم على ضرب من التغيّر ، وهذا يعني إذن أن للتوحّد تأثيراً واقعياً ناجعاً في السلوك . ويتحقّق الطفل ، إذ يقبل صورته ، أن بوسعه أن يقدّم مشهداً عن نفسه : إن بوسعه أن يرى نفسه وأن يراه الآخرون . ولم يكن بوسعه من قبلُ سوى أن يحسّ بجسمه ، وهو من الآن فصاعداً يراه . ولم يكن لديه غير إثارات داخلية ، وبوسعه من الآن فصاعداً أن ينظّم نفسه في رسم أولي أول للأنا ، أي على مُضغة من أنا المتكلم التي يسميها لاكان « أنا المتكلم المرآوية » .

ولكن لماذا يتم مثل هذا التغيّر ؟ ماذا يعني ، بالنسبة للطفل ، « أن يقبل صورته » ؟ الواقع أن ما يدركه الطفل في المرآة إنما هو صورة ، شكل إجمالي يملك قدرة بنّاءة . ويحقّق الطفل وحدة جسمه الذي يحسّ به مجزّأً حين يرى الغير في المرآة أو يرى نفسه . فإدراك هذا الشكل الإجمالي ذو قدرة على إنضاج النمو وتسريعه . ويضرب لنا لاكان أمثلة على وجودٍ لهذه الصورة البنّاءة في مملكة الحيوان . وعلى هذا النحو تبينّ أعمال شوفان(١٦) أن الجرادة تتّخذ صوراً مختلفة

---

(١٦) شوفان، «سلوك الحيوانات الاجتماعي» ، مجموعة عالم النفس ، رقم ١١ .

بحسب كونها تعيش وحيدة أو مع القطيع ، ويتغيّر شكلها ولونها إذا رأت بعض مثيلاتها . وتتطوّر الجرادة الصغيرة نحو هذه الصورة أو تلك وفقاً لكونها رأت في البدء مثيلة لها أم لم تر . وهكذا فإن الصورة المرآوية يمكنها أن تقوم مقام المحرك الأساسي في التطور السيكولوجي للطفل .

ومن زاوية بنية الفرد ، فإن مرحلة المرآة ، وقد قلنا ذلك ، تتيح الرسم الأولي للأنا ، ولكن تركيب هذه الأنا موسوم إلى الأبد بأنه ذو خاصة متخيّلة . ويسميها لاكان على هذا النحو « الأنا المثالية » التي تتصف بأنها تكوين نرجسي بصورة أساسية ، يصفه لاغاش على أنه « ينطوي على توحّد أولي بموجود آخر يتقلّد القدرة الكلية ، وأعني الأم » . ونرى إذن أننا لا زلنا في مجال المتخيَّل الذي لا بد لنا من إلقاء الضوء عليه . ولكننا نعلم الآن أن الأنا تتألف من « اتجاه تخيّلي يتعذر على الفرد وحده أن يؤثر فيه ». فالطفل لم يكتسب على هذا النحو شيئاً إضافياً أو محتوى إضافياً ، بل اكتسب وظيفة جديدة هي الوظيفة النرجسية التي ستعزّز الانطواء على الذات لديه ، وبفعل هذا ذاته ستعزّز خطر تدخل الغير فيه .وإذا كانت المرآة فترة من النمو في احتياز الشعور (غير العقلي) بوحدة جسمه ، فإنها قد تكون أيضاً مصدر أسر للفرد ، موقظة لديه من جديد دوافع الموت . فكما أن نرجس هو هذا البطل الذي استحوذ عليه الرضى بصورته الخاصة ، فأحبها إلى حد ألقى بنفسه في الماء وهلك غريقاً ، كذلك فإن الطفل قد يرغب في حب نفسه الى درجة يقتل نفسه . ويتبيّن لنا أن الفرد النرجسي لا يواجه العالم ، ولا يلتقي بالغير ، وليس بوسعه أن يقيم علاقة بين ذاتية . فمرحلة المرآة تجعل ضرباً معيناً من معرفة الذات أمراً ممكناً ، ولكنها تكشف عن إمكان الضياع ، ضياع يكمن في الافتتان الذي تسبّبه صورته الخاصة أو صورة أمه أيضاً . يضاف إلى هذا أن الطفل يحقّق خطر ضرب آخر من الضياع ، ذلك الضياع الذي ينجزه الغير . إن الطفل يتحقّق من أن الغير رآه وأن الغير يفهمه على سبيل الحصر بالصورة الخارجية التي يراها في المرآة . فالغير إذن يقتلع الطفل من صميميته التي كان يحوزها قبل مرحلة المرآة ، إنه ينتزع الفرد من صميميته المباشرة . إن لاكان يلخص الاكتساب الأساسي لهذه المرحلة على النحو التالي :

« إن قبول الموجود صورته المرآوية قبولاً بهيجاً ، هذا الموجود الذي لا يزال غارقاً في العجز الحركي وتبعية الرضاع وهذا الموجود الذي يتّصف بأنه الإنسان الصغير في هذه المرحلة الطفلية ، يبدو لنا منذئذ واضحاً في وضع نموذجي ، الرحم الرمزي ، حيث تندفع أنا المتكلم في صورة أولية قبل أن تصبح موضوعية في جدل التوحّد بالآخر ، وقبل أن تصوّب لها اللغة في الكلي وظيفتها بوصفها فرداً » .

ويفهم المرء أن الأنا لا تكوّن الفرد بالمعنى الصحيح للكلمة ، بل ليست الأنا غير شكل من أشكاله المتخيّلة ، فلا بدّ من أن يندمج الطفل في نظام اللغة ، أي في نظام رمزي حتى يرتقي إلى حالة الذات . والخلاصة أن الطفل إنما يحقّق وحدته الخاصة بالتوحّد بصورته وصورة الغير . إن أناه تتكوّن في الأصل كما يتكوّن الآخر الخاص بها . فليس للأنا والآخر إذن أصل واحد فحسب ، بل لهما بنية مشتركة .

المتخيل

مرحلة المرآة تشارك فيما يسميه لاكان المتخيّل (١٧) . وتشارك عقدتا الفطام والتطفّل بهذا المتخيل الذي يتميّز على نحو أساسي بعلاقة ثنائية بين الأم والطفل . فليس الأخ ، في عقدة التطفل ، شخصاً ثالثاً حقيقياً ، بل إن الطفل يخلطه بنفسه . وثمة نمطان للحياة السيكولوجية يسودان في علاقة متخيلة : العدوانية والتوحّد بصورة الآخر . فثمة « عدوانية مرتبطة بالعلاقة النرجسية وببنيتي الإنكار وإضفاء الموضوعية المطلقتين اللتين تميّزان وظيفة الأنا » . يضاف إلى هذا أن هذه العلاقة محكوم عليها بالموت بفعل الانغلاق الذي تمثّله . فالفرد نفسه ، في المتخيل ، يتيه ، إنه لايلتقي بالغير ولاينفذ إلى الواقعي . ويمكن للمرء أن يقول ، كما يوضّح لاكان ، إن العلاقة الثنائية من النوع المتخيل شبيهة بأوصاف بين الذاتية التي صنعها سارتر في مسرحه وفي كتابه « الوجود والعدم » . إنه عالم مغلق تمزّق فيه الموجودات بعضها بعضاً ، وتقطّع

---

(١٧) انظر فصل «اللاشعور في قول الأم» في هذا الكتاب .

بعضها بعضاً ، ويعتدي بعضها على بعض ، في علاقات من النوع السادي المازوخي نجدها في العلاقة الثنائية بين الأم والطفل . ولابدّ مع ذلك من أن يتجاوز الطفل هذه العلاقة كما هو الأمر في حالة عقدة الفطام ، وبدون ذلك سيكون الطفل مرتداً إلى حالة الموضوع لرغبةالأم المتجهة نحو شخصه ، ولن يكون بوسعه الارتقاء أبداً إلى رغبته الخاصة .. وسيتم تجاوز هذه المرحلة في فترة عقدة أوديب .

٣ـ عقدة أوديب

من المتخيل الى الرمزي

يغيرّ الطفل حوالي ٣ ـ ٤ سنوات موقفه من أمه التي يسلك تجاهها ، على وجه التقريب ، سلوك الراشد الذي يتمنّى الطفل بالتأكيد أن يحلّ محله ، ونشهد على هذا النحو قيام رغبات عاشقة ومحرّمة لدى الطفل إزاء أبويه . وتبدو هذه الرغبات بمثابة تمنيات موت يتم التعبير عنها إزاء الخصم المتصف بأنه من جنس الطفل ،ورغبات جنسية متجهة نحو أحد الأبوين من الجنس المقابل لجنسه . فالمسألة أيضاً مسألة عقدة رئيسة بالنسبة إلى التطور المستقبلي للموجود الإنساني[١٨] . واذا لم تنحلّ هذه العقدة ، فان بوسعها أن توقظ لدى الصبي انجذاباً نحو الأم وعقدة الفطام القديمة ، وتوقظ في الحد الأقصى دوافع الموت . ويتحقّق الجانب الايجابي بضرب من التوحّد بالأب وبرغبة في أن يكون شبيها به . وتنحلّ العقدة لدى البنت بصورة أسهل ، من حيث أن أمومة المستقبل تفيد في حلّ عقدة الفطام لديها . فماذا يحدث لدى الطفل في أثناء هذه العقدة ؟ من خلال رغبة الصبي في أن يحب أمه ، سيصطدم بأبيه . وهذا الأب سيجبره ، بفرض قانونه ، أن ينتقل من علاقة ثنائية إلى علاقة ثلاثية . وسينتقل الطفل على هذا النحو من المتخيل الى الرمزي ، الموسوم بسمة القانون والثقافة واللغة . وستفرض اللعبة على الصبي أن يكبت رغباته المتجهة إلى أمه وأن يصعّد الصورة الأبوية . وهذا القمع الضروري ليخرج الطفل من الوضعية التي لامخرج لها ،

---

(١٨) انظر فصل «ظهور الأب» في هذا الكتاب .

وضعية هي الدرب المتخيل ، سيسبّب ضرباً من اعادة التنظيم الأساسي لحياة الطفل السيكولوجية . إنه كان من قبلُ لايخضع إلا لمبدأ اللذة ؛ وعليه من الآن فصاعداً أن يأخذ الواقع بالحسبان ، وأن يأخذ مبدأ الواقع بالحسبان . وهكذا تترتّب الحدود الثلاثةمن الآن فصاعداً ،حدّ الواقعي وحدّ المتخيل وحدّ الرمزي ، والرمزي هو الذي يبني الحدين الآخرين ويعيد تبنينهما .ويتبينّ عندئذ أن التقدم المستقبلي للموجود الإنساني ينبغي له أن يمر بالتخلّي عن دوافعه ، تخلٍ يقتضيه قانون الأب ، أب هو المعكّر الحقيقي في العلاقة الثنائية بين الطفل وأمه ، فيفرض الأب على التواصل المباشر بين جسم الطفل وجسم الأم توسطه الضروري . ومن الصورة(علاقة مباشرة بين الذات والموضوع المتأمّل)يتمّ الانتقال الى الرمزي الذي يتضمّن توسطاً بين الحدين اللذين يجمعهما .والعلاقة الوسيطة ، كما ينشئها الرمزي ، علاقة تفترض الآن تدخّل ضرب من الميثاق أو من القانون ، وتفترض احترام الغير . وسيسهم الأب بعنصرمختلف عن العنصرين الموجودين من قبلُ في علاقة الأم ـ الطفل . وسيتيح للطفل أن يتخلّص من عدوانيته الملازمة لعلاقاته المتخيّلة .« وهكذا فان التوحّد الأوديبي هو التوحّد الذي يتجاوز فيه الفرد تلك العدوانية التي تكوّن التفرد الذاتي الأول » . فإذا لم يكتشف الطفل هذا القانون ، سواء بسبب سلوك الأم أو بسبب غياب الأب ، فإنه يتعرّض إلى اضطرابات خطيرة على مستوى اللغة ، وإلى التباسات دلالية ، وإلى أفعال مشوّشة ، وإلى الإخفاق أخيراً .

قانون ـ الأب

يجد المرء أمثلة عديدة على هذا الفشل في مؤلفات تلميذة لاكان ، مود مانّوني . ونحن نتناول الحالة السادسة والعشرين المعروضة في كتابها « اللقاء الأول مع المحلّل النفسي » : إنه صبي في السنة الثانية والنصف من عمره مصابٌ بفقدان الشهية والأرق . في الشهر العاشر ، كان يثير أزمات من العنف تجاه نفسه ، وكان يصاب بتشنّجات . ويصرّح الطبيب النفسي الذي استشير في ذلك الحين : « هذا الطفل ، ياسيدتي ، سيفقدكم المقاومة إذا لم تفقدوه المقاومة ، وليس ثمة وقت لإضاعته » .وقامت عندئذ علاقة من النوع العدواني بين الطفل

وأمه . وبعد أن مكث مدة من الزمن خارج الأسرة كان ينام خلالها جيداً ، أصابه الأرق مجدّداً . وكان عندئذ ، ليخيف أمه ، يجسّد التهديدات التي توجّهها إليه على صورة اضطرابات في جسمه ، ومن جملة هذه التهديدات إرساله إلى بيت الطفل . وكانت الحياة في المنزل منظّمة بحيث أن بول يلتقي بالقليل من الراشدين . وبإعادة وجه الأب إلى الوضع الصحيح بالنسبة للأم والطفل ، توقّفت الاضطرابات المختلفة . وهكذا ارتقى الطفل من كونه موضوع رعاية الأم إلى اسم الأب(الأب بوصفه دالاً)(١٩) . وقدّمت المحلّلة النفسية عندئذ نصيحتين إلى الأم :

١ ـ حرية كاملة ما دامت هذه الحرية لاتزعج الآخرين (حرية في عدم النوم ، وعدم الأكل ، وعدم الاغتسال ، ولكن على أن لاينشأ إيقاع « مستقلّ » تبعاً لنزوات الطفل) .

٢ ـ ليكن الأب ، إذا نادى بول في الليل ، هو الذي ينهض ويقول : (اصنع ماتشاء ، ولكن دعني مع زوجتي ، إننا بحاجة الى النوم) .

واختفت الاضطرابات مباشرة . ثم انصبّت المحادثات على منزلة الأب ، وهو دور يتمنى أن يقوم به ، وذلك ما يتّفق مع قول الأم الذي كشف عن أنها تركت هذا الطفل للخادمات ولابنتها :وهكذا أصغى المحلل النفسي للأعراض ، وتركها تتكلم ، وأدخل الطفل مجدّداً في علاقة ثلاثية حيث فتح وجه الأب عالمه للمجال الرمزي . والطفل يمكنه بهذا ذاته أن يرتقي إلى اللغة وإلى مجال الثقافة .فالدافع ، في رأي لاكان ، يندرج في ضروب من الدال تنظّم منظومة الرمزي ، وهكذا فإن الأب ، حامل القضيب (دالّ الدال) ،يُدخل الطفل في ظلّ هذا النظام بصورة نهائية . فالدال يكوّن سلسلةقد تتحرك عليهابعض الآليات ، كالنبذ ، والكبت ، والإنكار ، والنقل . وهذا النظام الرمزي ينفذ إلينا ، ونحن مندمجون بهذا النظام الذي لا يمكننا الاستغناء عنه تحت طائلة

---

(١٩) مفهوم «اسم الأب » مشروح في فصل «اللاشعور والبنيات الأسرية» في هذا الكتاب .

الذهان . وبوسعنا أن نفهم ما يقصد لاكان بالرمزي وبحركة ضروب الدال إذا رجعنا إلى أقصوصة « الرسالة المسروقة » لإدغار بو . ففي هذه الرواية ، نشهد الحوادث التالية : يختلس الوزير الأول من الملكة رسالة تضعها موضع الشبهة تجاه الملك ، وتتمّ هذه « السرقة » بحضور الملك (الذي يجهل كل شيء) والملكة (التي تشهد عاجزة ، ذلك أنها لا يمكنها أن تثير ظنون الملك) . فالرسالة المسروقة هي الدالّ الذي سيحدّد بعض سلوكات الملكة والوزير الأول والملك : « إن النقل لديهم يحدّده المكان الذي احتلّه محض الدالّ ، أي الرسالة ، في ثالوثهم » . ونقل الدال ، الرسالة في هذه الحال التي تنتقل من يد إلى يد ، يحدّد الأفراد في أفعالهم ومصايرهم . . . » فلا الرسالة تنسى النقل ، ولا ينساه لاشعور العصابي . إنه ينساه إذا أحدثت فيه تغييراً مهما كان قليلاً مقداره » . وقد رأينا التغيّر الجذري الذي يقدّمه إلى الطفل ، خلال عقدة أوديب ، تأسيس هذا الفعل .

العَرَض أو الكلام

بلغنا على هذا النحو ، بفضل لاكان ، فهماً حقيقياً لعالم الطفولة ، ووصفنا مختلف الاستيهامات التي تكوّنها بالنسبة له فترات عسيرة ، وشاقة ، ومثيرة للحصر ، ولكنها ضرورية لبلوغ حرية الذات الراغبة ، حرية موجود متحقّق كل التحقق . وهكذا فان التعارض الموجود بين المدرسة اللاكانية ومناصري تحليل الأنا لا يرتدّ إلى مجرد خصام بوسع المرء أن لا يختار فيه ، ذلك أنه يمسّ علم النفس كله وكل فهمنا للموجود الانساني . والمسألة إجمالاً تكمن في أن نعرف هل يتّجه علم النفس نحو ضرب من النزعة التكنوقراطية المكيّفة التي لا تستجيب بفعل ذلك إلا إلى بعد سطحي من أبعاد الموجود الانساني ، أو هل علم النفس ملتزم بترك الموجود يكتشف الكلام المفقود وعالم رغبته . ومن هنا ، ينبغي لنا أن نؤسّس إصغاء جديداً . فليس على علم النفس أن يقتل الأعراض التي يعرضها الأشخاص ، وذلك أمر يمكنه ، من الآن فصاعداً ، أن يفعله على نحو سهل بفضل العقاقير المختلفة التي أصبحت ناجعة جداً . فليس عليه إذن أن يواجه العَرَض وكأنه مظهر لابد من التغلّب عليه ، بل ينبغي له أن يكشف عن الكلام تحت هذا العرض . وليس على علم النفس أن يأخذ قول الأبوين ، الذي يُسكت

الطفل ، على أنه قول مؤكد ، بل عليه أن يمحنه الكلام مجدّداً ، كما تبينّ مود مانّوني . « فالاستيهام ، بل العرض ، يبدوان وكأنهما قناع دوره أن يحجب النص الأصلي أو الحدث الذي يسبّب الاضطراب ... ومهمة الطبيب تكمن في أن يستثير التساؤل الذي يصوغه الفرد على غير علم منه ، ولكنه لا بدّ له ، من أجل ذلك ، أن يكون قادراً على أن يوجّه إصغاءه إلى مكان آخر غير المكان الذي تنبعث فيه الأزمة »[٢٠] . وذلك يعني أن عليه أن لايستجيب لطلب الآباء الأول عندما يأتون للبحث عنه ، كما يفعل « عالم نفس الأنا » . وسواء أكان الموضوع متعلّقاً بالإخفاق المدرسي أم بطلب توجيه جديد أو بأي طلب آخر يعرضه الأبوان ، فلا بدّ من أن تتضح ماتحمله هذه الأسئلة وماتخفيه هذه الطلبات ، ولا بدّ من أن يباشر الكلام ذلك الطفل الذي تستحوذ عليه الاستيهامات الأبوية .
ولا بدّ من النظر إلى العرض أيضاً على أنه كلام يبينّ الفرد به على نحو خفيّ ، غير مفهوم في مرحلة أولى بالنسبة له ، علاقته بالرغبة . ومثل هذا الإصغاء للرغبة يتيح للمحلّل النفسي أن لاينخدع بـطلبات الأم أو الأب اللذين يتدخلان دائماً على مستوى الواقعي ، ولكنهما يحجبان تحت شكاوى ، تبدو موضوعية في الظاهر ، قصورهما الخاص على مستوى رغبتهما .

---

(٢٠) مودمانوني ، «الطفل ، مرضه والآخرون» .

الفصل الرابع

الراشد والطفل

أولاً - الطفل المجهول واكتشافه

١ - جنة مفقودة

المشكل الأول الذي تطرحه سيكولوجيا الطفل هو مشكل العلاقة بين الراشد والطفل . إنها علاقة معاشة ، ولكنها على وجه الخصوص علاقة يفكر بها الراشد على نحو وحيد الجانب ، ذلك أن الطفل ، كما يذكّر بذلك والون ، لايحسن أن يعيش سوى طفولته . أما معرفتها ، فأمر يعود إلى الراشد . ولكن هذه الحياة ، المعاشة « على سبيل الحصر » في الطفولة ، عرفها الراشد أيضاً . ويفهم المرء منذئذ أن الطفل يجد نفسه ، بصورة طبيعية ، واقعاً في شبكة من الإسقاطات من النوع الذي تسمه صورة الراشد .ولكن هذه الإسقاطات مزدوجة .

- فالطفولة هي ، في الوقت نفسه ، ما ننبذه ،وما لا نرغب في معرفته ، وهي الحالة التي يكون فيها الموجود الإنساني عاجزاً وغير ناضج ، وهي فترة ضرورية ولكنها غير مثيرة للاهتمام .

- وثمة صورة أخرى موجودة مع الصورة الأولى مع ذلك : صورة الطفولة بوصفها جنة مفقودة ، وبوصفها عالماً لاتاريخ له وذا سعادة كاملة ، وبوصفها الهدف النهائي لحياة الراشد . ويجد الطفل نفسه إذن في وسط التمنّيات ، والحسرات ، والآمال ، التي سيحاول الراشد أن يحلّها بالتأكيد على حساب الموجود المتحقّق الذي يكوّنه الطفل .

٢ ـ العالم الثقافي والطفولة

فهمُنا الطفل يمرّ إذن مروراً حتماً بإدراك الرابطة التي تربطه بعالمه ، وبالراشد على وجه أخص . إنه يرتبط بعالم هو ، أول الأمر ، عالم الأم ، ثم عالم الأب ، لينفتح فيما بعدُ على كلية الأشخاص الذين يحيطون به . وقدومه الخاص إلى الوجود ، وبلوغه حياة فريدة ، سيرتبطان بالعلاقات التي يعقدها مع العالم ، العالم الخارجي والوسط الثقافي والعالم الإنساني . ففي دراسة سيكولوجيا الطفل إذن مغامرة أبعد بكثير مما في دراسة وحدة معزولة ومستقلة . إنها تكشف لنا عالماً ، وثقافة ، وحضارة كاملة ، يتلقّاها الطفل كلها أكثر مما يكوّنها . وبوسع المرء أن يقول ، دون تشويه الوقائع ، إن بالإمكان التنبؤ بالمنظومة الثقافية التي تكوّن الطفل إذا لاحظناه ملاحظة مكثفة (علاقات الأبوين ، أهمية الأخوة ، وظيفة الأسرة في المجتمع ، الخ) ، وذلك يُظهر أن الطفل واقع في منظومة ستدمغه بعلامتها . فالطفل ملتصق بعالم الأم والأسرة هذا ، ويسبح في هذا الكون من الاستيهامات والإسقاطات . وسيكولوجيا الطفل تكشف لنا الحجاب عن كيفية انفلاته من هذا الوسط الأول وبقائه سجيناً فيه ، وعن كيفية انتقاله من السلبية ، سلبية بيولوجية خالصة ، إلى تكوين عالم خاص به وإلى انبساط هذا العالم . ويبدو على هذا النحو أن ليس ثمة دراسة للطفل لا تحيل إلى الوسط الذي يعيش فيه .

٣ ـ نماء سحري

تصوّرَ الراشد ، على أنحاء شتى ، هذا العالم الذي كان قد عاشه هو ذاته . بل يمكننا القول إنه جهل زمناً طويلاً ، جهلاً إرادياً ، هذه المرحلة الضرورية بالتأكيد ، ولكنها المرحلة التي لم تكن تتصف بأي أهمية بالنسبة إليه . وكانت الطفولة تبدو فترة منطوية على ذاتها دون عواقب على الراشد الذي كان سينجم عنها . وكان يحدث ضرب من القطيعة بين مرحلة دنيا وبين الارتقاء ، بواسطة بعض الطقوس أو بعض الأعراف ، إلى حالة لم تكن تدين بشيء أساسي إلى الماضي : فكان تاريخ الموجود الانساني يبدأ مع سن الرشد . وكانت الطفولة تترك الفرد بكراً فيما يخصّ تكوينه السيكولوجي ، ولم تكن غير عهد

لابدّ له من أن ينقضي حتى تكتمل عملية النضج السيكولوجي . ومن المؤكد أن الناس كانوا يعترفون للطفولة بمشكلات في مجال متابعة الدراسة على وجه الخصوص ، ولكن هذه المشكلات كان يُنظر اليها على أنها عابرة . ونفهم منذئذ أن بعض علماء التربية ، الذين كانوا على اتصال مباشر بصعوبات الأطفال وكانوا يتناولونها تناولاً جدّياً ، هم الذين اقتضوا معرفة هؤلاء الموجودات الفريدة . لقد كان روسو يكتب في القرن الثامن عشر متوجهاً إلى الأساتذة : « تعلموا أن تعرفوا تلاميذكم ، ذلك أنكم لاتعرفونهم » . ولا بدّ من الانتظار أكثر من قرن حتى توضع هذه الصيغة موضع التطبيق ، مع برير وهال وبينه ، لا في دراسة الطفل الذي يتابع دراسته في المدرسة فحسب ، بل في دراسة الطفل بصورة عامة أيضاً .
وإنه لأمر ذو دلالة أيضاً أن تبدأ أعمال فرويد بملاحظة المرضى الراشدين وفهمهم ، وأن الأمور لم تنته به إلى دراسة المشكلات السيكولوجية للطفولة إلا بصورة تدريجية . ولم يكن اهتمام المحلّلين النفسيين بعالم الطفولة أخيراً اهتماماً مباشراً ، إلا مع ابنته أنا فرويد ومع ميلاني كلاين . فمن الجهل ، حدث الانتقال إذن ، شيئاً فشيئاً ، إلى الملاحظة المكثّفة وتراكم الدراسات الأحادية والمواد ، الضرورية لإنشاء كل علم . ولكن الاهتمام الموجّه إلى شيء من الأشياء لايضمن أن يُدرك إدراكاً موضوعياً . فالملاحظات التي مارسها علماء النفس الأوائل تكشف عن ضرب معيّن من تصور الفرد الملاحظ . وكما أن الغربيين كانوا يصفون البدائي بنظّارات فُصّلت في الثقافة الغربية ، ولم يكونوا يفكرون قط بوضع هذه النظرة ، التي وصفها بعضهم بأنها نظرة مستعمرين ، موضع التساؤل مجدداً ، كذلك كانت تبدو صورة معيّنة للطفولة ، تلونها صورة الراشد تلويناً قوياً ، من خلال الدراسات الأحادية الدقيقة والمدقّقة التي كان يبدو أنها تتوخّى أن تعوّض كثيراً من قرون الإهمال .

ثانياً ـ استبداد الراشد

١ ـ تاريخ تصوّر الرسم الطفلي

والطفل في هذه التصورات يُنظر إليه على أنه راشد ينقصه شيء . إن له شعوراً شبيهاً بشعور الراشد ، ولكن شعور الطفل يعمل عملاً وظائفياً أقل سوءاً . وسيكولوجيا الطفل بالقياس إلى سيكولوجيا الراشد شبيهة عندئذ ، في رأي الكثيرين ، بالسيكولوجيا المرضية بالقياس إلى سيكولوجيا الإنسان الذي يقال عنه إنه سوي ، وأعني قصوراً وصورة في حالة السلب . ولايدرك المرء في هذه الحالة خاصية الشعور الطفلي الايجابية والأصيلة والفريدة . وفي وسعنا أن نضرب مثالاً على هذا الضرب من اتّخاذ موقف ضمني لدى علماء النفس في حالة الرسم الطفلي :

ـ قام موقف الإنسان الغربي ، حتى القرن العشرين ، على النظر إلى رسم الطفل على أنه لاأهمية له . وكانوا لا ينظرون إليه بالمعنى الدقيق للكلمة .

ـ واهتم بعض علماء النفس ، في مرحلة ثانية ، بالإنتاج المرسوم لدى الطفل . وكان لوكه يميّز على هذا النحو مراحل مختلفة ، ولكن مقاييسه لتسمية هذه الفترات ووصفها مقتبسة في واقت واحد من تصوّر معّين للرسم في صلاته بالعالم الخارجي ومن درجة من المهارة التقنية يحتازها الراشد وحده من جهة أخرى . فالمؤلف ، على هذا النحو ، يصف المرحلة التي يسميها « الواقعية العَرَضية » في فترة أولى ، وذلك يعني أن الطفل إنما يصل إلى تقليد الواقعي بالمصادفة ، ثم يصف مرحلة الواقعية الخائبة التي تليها مرحلة الواقعية العقلية التي يرسم الطفل خلالها ما يعرف لا ما يرى . والفترة الثالثة هي مرحلة الواقعية المرئية التي مثالها الأمثل هو الراشد القادر على أن يضع في المنظور ، على ورقة ذات بعدين ، ما يراه ذا ثلاثة أبعاد .

ـ هذا الوصف لرسم الطفل يستدعي عدة ملاحظات :

ـ ليست الرسوم نسخة الواقع الخارجي . ومن المعلوم أن الفنون البدائية

اقتربت من نهايتها عندما بلغت هذه المرحلة . فصحة النقل تفوقّت على وظائف التعبير ، والتواصل الحيوي مع العالم .

ـ جميع المراحل التي يميّزها لوكه في تطور الرسم الطفلي لا تتحدّد إلا انطلاقاً من مقياس واحد ، مقياس الرسم لدى الراشد ، لدى راشد ، كما رأينا أيضاً ، موقعه في مرحلة معيّنة (بداية القرن العشرين) من حضارة معيّنة (أي الحضارة الغربية) . وقد بيّنت الثورة التكعيبية لنقّاد الفن ، لا للفنانين الحقيقيين الذين كانوا يعرفون ذلك من قبلُ ، أن الخلق الفني لم يكن منافساً لنسخة عن الواقع بالتصوير الضوئي . فالرسم الطفلي يُعامل بمثابة السلبي ، وإيجابي هذا الرسم هو رسم الراشد . ويصف لوكه على هذا النحو إنتاج الطفل المرسوم بعدم الاهتمام والعجز التأليفي ، الخ . والواقع أن رسم الطفل نمط من أنماط الفاعلية التي تملك إيجابيتها ونوعيتها . يضاف إلى هذا أن بوسعنا القول إنه يكشف لنا حقاً عن ماهية فعل الرسم التي لا يمكننا أن ندركها لدى الراشد الذي يصوره لوكه ، راشد يطابق الراشد الغربي الذي بلغ نهاية الدراسة في المدرسة . فالرسم لا يعبّر عن الموجود الذي رسمه ، وليس له سوى قيمة تمثيلية .

٢ـ الطفل يعبّر عن نفسه

والسبب أن العلاقة بعالم الطفل والعلاقة بعالم الراشد مختلفان . فالراشد يتحرك في عالم من الأشياء المعيّنة والمحدّدة ، التي يحاول أن ينسخها بأكبر ما يمكنه من الدقة . والمشهد الذي يرسمه معروض أيضاً من زاوية وحيدة . وقد هاجم التكعيبيون هذا العرف ، فانضموا بفعل هذا ذاته إلى مجال الطفولة . ويظلّ رسم الراشد نسخة مطابقة للموضوع المدرك في فترة واحدة من تاريخه .

ويقيم الطفل مع العالم علاقة ليست الأشياء فيها على قدر كبير من المتانة والثبات ، ويتواصل بعضها مع بعض في تبادل لا أهمية للزمان والمكان الموضوعيين فيه ، ومن هنا منشأ « الأخطاء » في الزمن التي يلومه الراشد عليها ، ومنشأ فقدان (الواقعية) : فهو عندما يرسم البيت يعرضه في كلية واجهاته المبسوطة على مستوى واحد . وعندما عرض أحد الفنانين ، (بيكاسو مثلاً) ، وجهاً في كلية تجلّياته على لوحة ، اعتبر الراشد الغربي هذا العرض ، الذي كان هو ذاته يعرفه

وهو يرسم عندما كان طفلاً ، ثورة غير إنسانية .

وإذا شئنا أن نصف هذا التعارض وصفاً مميزاً ، بوسعنا القول إن الطفل يعرض العالم بكلية ظاهراته ،ذلك أنه لايزال في تواصل معه . والراشد يتمثّل ، أي يضفي الموضوعية على العالم الذي يعيش فيه ، إذ يضعه على بعد منه ويجعله مواجهاً له . فالطفل يعيش عالمه ، في حين أن الراشد ، على غرار لوكه ، يبينّ في رسمه على أنه مشاهد منفصل عن العالم الذي يتمثّله . وهكذا يمكننا أن نلاحظ أن الاستبداد الذي تمارسه على الطفل رؤية الراشد يحول بيننا وبين أن ندرك نمطه النوعي بوصفه موجوداً ينتمي إلى العالم . والطفل الذي يرسم هو الآن موجود متحقّق كل التحقق ، يشارك في الإنسانية على نحو أصيل خاص به . فهو إذن ليس راشداً ينقصه شيء . وعلى الراشد أن ينفصل عن نزعته في التمركز على ذاته ، التي ينسبها إلى الطفل بسهولة كبيرة ، حتى يرتقي إلى النوعية الطفلية .

٣ ـ مآل : النزعة المغالية في الرشد

هذه المواجهة ، مواجهة الراشد والطفل ، التي تقوم على موازنة مايتقن الطفل صنعه ومالايتقن ، تفضي لا إلى أن ننقل إلى الطفل معاني ، ومفهومات ، وتجارب ، زيّفتها رؤية الراشد فحسب ، بل تفضي إلى أن تُعرض علينا ، في الوقت نفسه ، صورة كاريكاتورية للراشد عرضاً معكوساً . ويبدو أن عالم النفس الراشد ، ذا العقل والذكاء ، « غالى في الملاحظة » حول مايتقن صنعه ليعارض على نحو أفضل مالا يتقن الطفل صنعه . وذلك هو النقد الذي بسطه بيشون ضد بياجه . فقد استخلص من أعمال بياجه صورة عرفية جداً للراشد الذي يتصف بخصائص ذات صلابة كبيرة . إنه ذو نزعة آلية وحتمية في جميع الميادين ، ويرغب في تحديد كل شيء . وليس مطروحاً على بساط البحث هنا أبداً أن ننبذ جميع الوثائق والملاحظات التي قدّمها عالم النفس السويسري ، ولكن بوسع المرء أن يتساءل ألم يكن ، على نحو ضمني ولاشعوري ، فريسة النزعة التي تسمها صورة الراشد ، نزعة تنقلب في نهاية المطاف ضد هذا الراشد الذي يجعل منها لوحة أسطورية ، وذلك ما سمّاه بعضهم النزعة المغالية في الرشد في سيكولوجيا الطفل ؟

٤ ـ رؤية أخلاقية في الطفولة

لتشويه الطفولة الذي يمارسه الراشد مصدر آخر أيضاً، مصدرأخلاقي. ولأسباب من هذا النسق، رفض الناس خلال زمن طويل أن يمنحوا الطفل مظاهر من النموذج الجنسي. وبالنظر إلى أن الجنسية محجوبة بعلامة سلبية، فإنه لم يكن ممكناً للطفولة، التي لم تكن سوى الطيبة وانعدام الأهواء، أن تمسّها هذه «الخطيئة». وهنا نجد مجدّداً مع ذلك هذا التقابل بين الراشد والطفل، ولكن حالة الرشد، في هذه الرؤية الأخلاقية، هي الموصوفة بعدم الطهارة والموسومة على نحو نهائي بسمة الشر. وتكون الطفولة هي هذه الفترة غير المضطربةوزمن البراءة. وفرويد هو الذي رفع هذا الحجاب الساذج الذي كان الناس يضعونه على هذه الفترة من الوجود. فاكتشف أن ثمة قوة ذات منشأ جنسي تشرف بدرجة محسوسة على مصير الموجود الإنساني، وأن الطفولة ليست أبداً عالماً دون أزمات وجنة حقيقية لايجري فيها شيء. وأخبر الناس بقصة كاملة وتكوين كامل لدى الطفل الصغير. فالارتقاء إلى حالة الرشد يمرّ بدرجات عديدة، وكل عبور لايتم بصورة طبيعية، بل بأزمات، وذلك أمر يعني توقّفاً مؤقّتاً بل تراجعاً، ثم ارتقاء إلى مرحلة من النمو الأعلى. ونجد في الطفولة نزاعات، وأطواراً، وتوقّفات، وضروباً من التثبيت. ولا تبدو الطفولة على أنها عالم بسيط، بل تبدوبمثابة كون صغير حقيقييقدّم حقلاً دراسياً متنوّعاً إلى الحدّ الأقصى.

ثالثاً ـ مشكل الذهنيات

التحذيرات من نزعة الراشد الطبيعية إلى أن يسقط نفسه على الواقع الذي يدرسه لقيت، في بعض الأحيان، صدى لدى بعض الباحثين، بحيث وصلت بهم الأمور إلى التساؤل التالي: ألا يؤلّف الطفل كوناً مغلقاً على ذاته تظلّ الأحداث التي تجري فيه عصيّة على فهمنا، فهم الراشدين الآخرين؟ وبعبارة أخرى، ألا يحتمل أن تكون «ذهنية الطفل» غريبة بصورة تامة، وغير متجانسة كليا مع «ذهنية الراشد»؟ فهل الطفولة عالم لايمكننا بلوغه؟

وعلينا أن نلاحظ أن هذا السؤال طرحه في الحقبة نفسها ، بالنسبة للذهنية البدائية ، ليفي برول (١٨٥٧ - ١٩٣٤) ، وطرحه شارل بلوندل بالنسبة للمريض النفسي . وكان الأول قد بدأ يؤكد أنه لم يكن ممكناً وجود تواصل مع البدائيين ، ذلك أن فكرهم كان يخضع لمقولات مختلفة . فمبدأ السببية لديهم ، على سبيل المثال ، كان ذا صلة قليلة بمبدأ السببية لدينا ، فالسهم لا يقتل بالمفهوم الفيزيائي ، بل بقدرة فوق طبيعية (المانا) أُضفيت عليه بصورة مسبقة . ويعتقد البدائيون من جهة أخرى بسببية عن بعد تتيح ، على سبيل المثال ، أن تؤجّج الجروح التي أصابت العدو إذا وضعنا سهاماً قريبة من لهب النار : إن ليفي برول كان قد سجّل عدداً كبيراً جداً من الوقائع دعماً لقضيته . وفي الحقبة نفسها ، يصرح شارل بلوندل ، المعارض لريبو الذي كان يؤكد هوية الحالة المرضية والحالة السوية ، بالنظر إلى أن إحداهما ليست إلا تضخيماً للأخرى ، بأن عالم المريض يظلّ كثيفاً بالنسبة إلينا وعصيّاً على الفهم . وكذلك الشأن بالنسبة لذهنية الطفل التي تبدو لنا بعيدة جداً عن ذهنية الراشد . ألا تزيّف نظرتنا تزييفاً منهجياً ما تدركه لدى الطفل ؟ إن مشكل الذهنية ، الذي كان يُطرح في بداية القرن العشرين ، لم يعد يثير نقاشات لدى علماء النفس والاتنولوجيا أبداً . وكان ليفي برول قد محّص تأكيداته الحاسمة في المحاضرة التي ألقاها بأوكسفورد (١٩٣١) : إذا كان ثمة فروق في الذهنية ، فليست هذه الفروق مختلفة في الطبيعة ، والبرهان أن بوسع « البدائي » ، على نحو جيد جداً ، أن يتعلم اللغة ويرقى إلى الحضارة الغربية ، والعكس بالعكس . والذهنية قبل المنطقية من جهة أخرى ، ذهنية تتميّز بتدخّل قوى سحرية ، ليست غريبة عن ذهنيتنا بصورة كلية . فلنفكر ، على سبيل المثال ، بالتمائم والعُوذات ، والأحجار التي يُفترض أنها تشفي من جميع ألوان الاضطرابات . وأخيراً يجد المرء مجدّداً ، لدى الطفل الغربي ، اعتقادات شبيهة باعتقادات البدائيين ، كإمكان التأثير عن بعد في الأشياء حين يسميها . ويلتقي في مجال سيكولوجيا الأمراض النفسية مشكل الذهنية لدى المريض والذهنية لدى الطفل ، ونقصد بقولنا هذا أن ثمة إمكاناً في الحالين للاتصال والتواصل مع المريض والطفل . ومن المؤكد ، بالنسبة

للمريض ، أن منطقة من الجهل الأساسي تظلّ ماثلة أبداً كما في حالة الفصامي ، ولكننا نفلح ، بالجسم أو بتوسط الأشياء ، في التبادل مع المرضى . أما فيما يخصّ الطفل ، فان التحليل النفسي الذي مارسته أنّا فرويد ، ومارسته ميلاني كلاين ، يبرهن لنا على أن بوسعنا أن نبلغ هذا العالم الغريب ، عالم الطفل العصابي .

رابعاً ـ عالم النفس يجمع المعلومات وأصالة الطفولة

بوسع المرء أن يستخلص من هذا المشكل ، مشكل الذهنيات البدائية والمرضية والطفلية ، نتيجة مشتركة مفادها أننا في جميع هذه الحالات أمام ضرب من الاختلاف ، وأمام عالم يبتعد عن عالمنا مع أنه يشارك فيه . ويكمن المشكل في أن نعترف أولاً بهذا الفارق : فقد رأينا أن الناس كانوا يجهلونه زمناً طويلاً ليشدّدوا عليه فيما بعد . وكان ليفي برول ، المتأثر بحكايات الروّاد والمبشّرين الذين أدهشهم على وجه الخصوص ما كان يختلف عن كونهم الثقافي ، يعتقد أننا عاجزون عن أن نبلغ هذا الاختلاف . وثمة أخيراً قبول متعاظم في علم الأمراض مفاده أن المريض لم يعد أحداً يتصف بأنه ينقصه شيء ، ولكنه أحد ينظّم عالمه تنظيماً جديداً ، عفوياً فريداً تبعاً لإصابته ، كما يقول غولدشتاين في كتابه « بنية العضوية » . فللمريض إذن أسلوب مختلف يعيش به العالم . أما وقد تمّ الاعتراف بهذا الفارق على هذا النحو ، فلا بد من إنشاء طرائق تتيح لنا أن نجمع المعلومات عن هذا العنصر المختلف مع الاحتفاظ بأصالته : وتلك هي المهمة التي باشرها ليفي شتراوس في الإتنولوجيا ، محاولاً أن يبلغ كلية الفكر الإنساني مع احترام الفروق . يقول ليفي شتراوس : « إذا كان ممكناً أن نبلغ ضرباً من العمومية ، فإن في الاختلاف ذاته إنما نجدها [1] بصورة سابقة على كل مقارنة ، وتُبنى هذه المقارنة عندئذ على قاعدة متينة » . وفي مجال علم النفس ،

---

(١) جان بويون ، في «العراق والتاريخ» ، انظر كلود ليفي شتراوس ، مجموعة وساطات ، ص ٩٧ .

ينبغي لنا اذن أن لا نتصوّر الطفل شبيهاً بالراشد ولا مختلفاً عنه بصورة مطلقة ، وإنما يختلف عنه اختلافاً أساسياً ، وأنه نوعي ، ومتعدد الأشكال كما يقول فرويد . بل إن ليفي شتراوس يستخدم في موضوعه مصطلح « تعدّد الأشكال الثقافي » ، دالاً بذلك على أن الطفل ليس ذا طبيعة بدقيق العبارة ، ولكنه ينطوي على كثرة في الطبائع تقصرها التربية على طبيعة واحدة بالتدريج . فليس ثمة طبيعة طفلية ولا ذهنية وحيدة ، بل ثمة عينة كبيرة من الإمكانات التي ستنتقل من القوة إلى الفعل على نحو يختلف بحسب الإطار الاجتماعي الثقافي للطفل . ويوسع المرء ، على هذا النحو ، أن يلاحظ إلى أي حدّ سيكون ضرورياً علم اجتماع الطفل ، غير موجود بصورة عملية ، كما يشير إلى ذلك زازو(٢) .

والصلات بين الراشد والطفل ممكنة ، ولكنها تقتضي مقاربة دقيقة . فليس ثمة وجود لطبيعة أبدية لدى الطفل متكوّنة دائماً ، بل ثمة وجود لعلاقة ، متغيّرة دائماً ، بين الطفل والإطار الثقافي الذي ينمو فيه . ومن هنا يصبح المشكل الخاص بطرائق المقاربة في هذا الميدان مشكلاً أساسياً . وينبغي لهذه الطرائق أن تكون دينامية حتى تتكيّف مع تكوين الطفل : فالروائز على سبيل المثال لا تصلح إلا لسن معيّنة . ومن المعلوم أن بعض الروائز ، التي يُفترض أنها تقيس مع ذلك قدرة مستقرّة كالذكاء ، لا « تعطي مردوداً » على النحو نفسه تبعاً لأعمار الطفل ، وهي أكثر صحة في مرحلة معينة من النمو . وهذا يبيّن لنا أن مواد الملاحظة ينبغي لها أن يُعاد النظر فيها دائماً تبعاً لموضوع يتجدّد تبنينه باستمرار

ما مختلف الطرائق التي شادها عالم النفس لكي يعرف الطفل ؟

ـ الملاحظة المتنبهة أول الأمر ، التي بدأت منذ القرن التاسع عشر : وهذا هو عصر سيرة الأطفال الذين تمت متابعتهم منذ ولادتهم . وانكبّ على هذه الأعمال علماء كداروين وبرير وستيرن .

ـ وحوالي نهاية القرن التاسع عشر ، ظهرت الاستبانات كذلك ، وعلى وجه

---

(٢) في «التصرف والشعور» ، الجزء الأول ، ص ٢٢ (١٩٥٤) .

الخصوص استقصاء هال عام ١٨٩١ حول محتوى الفكر لدى الأطفال .
- وأتى رائز بينه وسيمون يقدّم أداة ملاحظة اكثر دقة بكثير .
- وأتاحت الاحصاءات ضرباً من الاستثمار الرياضي للنتائج .
- وأخيراً قدّم لنا فرويد ، بعد ذلك بقليل ، معطيات أساسية ليفهم المرء سيكولوجيا الطفل فهماً حقيقياً ، منطلقاً من تحليلات نفسية مارسها على الراشد . وعلينا أن نلاحظ مع ذلك أن فرويد ذاته لم يمارس تحليلاً نفسياً مباشراً على الطفل ، وأن تحليل هانز(٣) تمّ من خلال الوثائق التي كان والد هانز قد سلّمه إياها . وطبّقت تلميذتا فرويد ، ابنته أنا فرويد وميلاني كلاين ، طرائق مختلفة في التحليل النفسي للطفل ، فالأولى دلفت في العلاقات بين الشخصية مع الطفل موضوع العناية ، وذلك أمر كان يخالف قاعدة الحياد التي فرضها فرويد في أساس كل ممارسة للتحليل النفسي . والثانية (٤) تزيل عائق النقص في الكلام لدى الطفل بتقنية اللعب . فثمة ، تحت تصرف المرضى ، لعب مختلفة ، والمحلّل النفسي يفسّر ألعاب الطفل عندئذ .

والمطول لكارميكايل (٥) يأخذ سبعة عناصر تتيح جمع معلومات لعالم نفس الطفل :

١) السلوك الحالي للطفل بما في ذلك مردوده اللفظي .

٢) إنتاجات الطفل التي تؤلف وثائق دائمة ، كالرسوم والرسائل والدفاتر ، الخ .

٣) التوثيق انطلاقاً من أضابير البيت ، والمدرسة ، والمؤسسات الحكومية ، والصحة الاجتماعية ، الخ ، بما في ذلك الروائز .

٤) الاستبطان لدى الطفل ، الذي يتيح ، كما رأينا في حالة التحليل

---

(٣) «خمسة تحليلات نفسية» ، النشورات الجامعية الفرنسية .

(٤) « التحليل النفسي للأطفال » ، المنشورات الجامعية الفرنسية

(٥) ١٩٤٦، الجزء الأول، ٢٢- ٢٣ .

النفسي ، ضرباً من التوفيق بين الطفل وتاريخه القصير ، وإن كان لاينطوي على وثوق كبير في إثبات الوقائع الموضوعية .

٥) ذكريات الطفل والراشد عن حياته الخاصة السابقة .

٦) ذكريات عن حياة الطفل يحتفظ بها أشخاص كانوا على اتصال به .

٧) تقييات تنصبّ على الوالدين ، والإخوة ، والأخوات ، وعشراء الطفل الآخرين ، أو على الوسط ، والثقافة ، والشروط الأخرى التي نما الطفل فيها .

خامساً - التأمل في سيكولوجيا الطفل

بيد أن مجرد السيرة لايكفي لتشييد سيكولوجيا الطفل . وعالم النفس ليس بوسعه أن يثق بلمّة ساذجة للوقائع في ميدان الطفولة . وعليه ، في حال احتيازه مواد كثيرة ، أن يحلّ مشكل انفصال هذه المواد وتنظيمها . فهل ينبغي له أن يميّز أطواراً ، وفترات ، ومراحل ، في تطور الطفل ؟ وبأي مقياس يحدّد هذه المراحل ؟ وهل تقابل هذه المراحل تمييزاً واقعياً ، أم أنه لا وجود لها إلا بالنسبة للمنظّر ؟ فالانسان يُصاب بالدهشة حين يلاحظ ، وهو يتصفّح رائعة كارميكايل ، « الوجيز في سيكولوجيا الطفل » المؤلّف من ثلاثة أجزاء ، أن المشكلات المنهجية ، بمعنى التأمل الأساسي في الموضوع المدروس ، تحتلّ مكاناً ضئيلاً فيه . ولعل بوسع المرء أن يقول ، على العكس ، إن سيكولوجيا الطفل في أوربا لم تعش إلا من هذه النزاعات حول تصور الطفولة ، سواء أكان الخصام بين والون وبياجه ، بين ميلاني كلاين وأنّا فرويد ، أم بين بحوث كلاباريد ، وري ، وبينه ، ولوكه ، وبيرون ، وبورجاد . والمقصود دائماً محاولات في إيضاح ماهية الطفولة ، وشاغل فهم أساسي نعلم أن طريقة المقاربة فيه ستعطي رؤية موجّهة في الطفولة . وعلم النفس الأمريكي كما هو معروض لنا ، في هذا المطول لكارميكايل ، يعطينا معاينة للطفل تسمى « موضوعية » ، ولكنه لايطرح أي عنصر للفهم . ويصرح زازو في مقدمته ، عن خيبة أمله بهذا الصدد ، من حيث أن علماء النفس الأمريكيين لم يأخذوا بعين الاعتبار أي مؤلّف أوربي . فالمسألة

هي مسألة عالمين ، كل منهما مغلق بالنسبة للآخر . فأي علم نفس من الاثنين سيتغلّب ؟ والسؤال مطروح . هل سيكون علم نفس دون رأس ، عاجز عن أن يضع مفترضاته موضع الاتهام ، وينتقد نهجه ، ووضعه ، ووظيفته ، والموضوع الذي يدرسه على وجه الخصوص ، هو الذي سيتغلّب في أوربا ؟ وبوسع المرء أن يخشى ذلك : فأي علم نفس قادر من الآن فصاعداً على أن ينطلق من تخصّصه لكي يبلغ رؤية موحّدة ، أي شاملة لمسيرته ؟ وهل بوسع المرء أن يقول إن المناقشات والاختلافات بين والون وبياجه لاتجدي فتيلاً في تأسيس علم من العلوم ، على الرغم في بعض الأحيان من أن عدم التفاهم بينهما مغال بعض الشيء ؟ وثمة مؤلفات حديثة ، كمؤلفات داغونيه(٦) ، بيّنت أن الأطباء وعلماء النفس الحديثين يتّجهون اتجاهاً متعاظماً نحو ضرب من تراكم الوقائع ، كمي بصورة خالصة ، رافضين كل مناقشة تسمى « فلسفية » أو أساسية . والفائدة التي يقدّمها نتاج بياجه تكمن في أنه قرن الملاحظة الدقيقة بإشكالية حول بنيات المعرفة . فعالم النفس يزدوج بعالم في المنطق وبعالم في الابستمولوجيا : إن نتاج فرويد يتيح لنا أن ندرك معنى الفكر الطفولي على الرغم من الانتقادات التي يمكننا أن نصوغها حول انعدام الملاحظة المباشرة للطفل . ومن الجدير بالملاحظة مع ذلك كيف تلتقي أعمال بياجه وفرويد ، التي تبدو مختلفة ، في عدد كبير من الأمور فيما يخصّ تصورهما قيام علاقات بالموضوع ، وذلك ما بيّنته أعمال السيدة غوان ديكاري(٧) . وكشفت كذلك أعمال سبيتز ، التي أوحى بها التحليل النفسي ، عن عناصر أساسية لفهم العلاقات بين الأم والطفل(٨) . وخلاصة القول ، يبدو لنا أمراً لاغنى عنه أن تكون ثمة مبادىء منظّمة تنسّق الملاحظة في علم النفس .

---

(٦) « العقل والعلاجات » ، المنشورات الجامعية الفرنسية » ، (١٩٦٤) .

(٧) « الذكاء والوجدانية لدى الطفل الصغير» ، نيوشاتل ، دولاشووينستلي ، (١٩٦٢) .

(٨) ولو أن مواقفه عرضة للمناقشة كما بينا ذلك في الفصل السابق .

فلا بد من هيكل عظمي نظري يدعم كتلة المواد المجموعة . وليس بوسع سيكولوجيا الطفل أن تكون مجرد تجميع للملاحظات ، بل عليها أن تضع منهجية تتيح لها أن تنظِّم أسسها . فتتفادى على هذا النحو تلك النزعة الوضعية ، المزعومة بأنها علمية ، التي تقدم النتائج على أنها معايير ينبغي ترسيخها في الذهن . وذلك ما يحدث بالنسبة لعلم النفس الأمريكي المعاصر(٩) .

---

(٩) انظر «علم النفس موضع التساؤل» ، الفصل الأخيرمن هذا الكتاب .

الباب الثالث

عَدَم التكيف
والتربية المعادة

الفصل الأول: المقاربة الطبية الاجتماعية لعدم التكيف
الفصل الثاني: الضعف العقلي موضع التساؤل
الفصل الثالث: المؤسسة والتربية المعادة

الفصل الأول

المقاربة الطبية الاجتماعية

لعدم التكيف

١- عدم التكيف لدى الأحداث

من المشكلات الاجتماعية الكبرى في العالم ، يحتلّ عدم التكيّف ذلك المقام الأول من أقوال الوزراء ، والصحف ، ومحطات التلفزة . والرأي العام مرهف الحس ، بصورة غامضة ، لكل ما يمسّ هذه الفئة الاجتماعية . وهذا الاحتياز ، احتياز الشعور ، الذي يكتنفه اللبس في هذه السنين العشر الأخيرة ، برهان على أن المجتمع والجماعة خرجا من لامبالاتهما ومن احتقارهما في بعض الأحيان ، ولكنه يكشف أيضاً عن منعكسات اجتماعية من الدفاع والانزعاج ، بل من الدعاية والاستغلال السياسي . فمصطلح عدم التكيّف مصطلح ذائع الصيت ، ولكنه يقابل اهتمامات مختلفة جداً بحسب كون الناس يخلطونه ، على نحو غامض ، بأزمة الشباب ، والمخدّر ، وسيئي الأخلاق ، والعصابيين ، ومشوّهي الخلقة ، وغير الأسوياء ، الخ[1] .

إن لافون يعرّف الطفل غير المتكيف على النحو التالي : « المقصود تارة فتى تضعه ضروب شذوذه ، والقصور في قابلياته أو كفايته العامة ، أو العيب في

---

(١) وتنضاف منذ بعض الوقت حدود أكثر اتصافاً بأنها سياسية ، حيث يخلطون عن طيب خاطر بين «يساريين متطرفين» ومضطربي السلوك .

طبعه ، على الهامش ، أو تضعه في نزاع طويل الأمد مع وقائع محيط يطابق عمره ومنشأه الاجتماعي أو مع مقتضياته » .

« والمقصود طوراً فتى قابلياته وكفايته بقدرٍ كاف ، وطبعه سوي ، ولكنه يعاني وسطاً لايوافق حاجاته الجسمية ، والوجدانية ، والفكرية ، أو الروحية » .

« والمقصود تارة أخرى فتى غير متكيّف ، أو مصاب بالقصور ، يعيش في وسط غير مناسب بوصفه كذلك » .

ويبين لنا أن فهم عدم التكيف انطلاقاً من تعريف لافون فهم « موضوعي » جداً : فعدم التكيف مفهوم ، من جهة ، على أنه نقص في عملية النضج النفسي الفيزيولوجي ، إنه عندئذ ذو علاقة بتعذّر مفاده أن يبلغ أي طفل ما يتصف بأنه نماء سوي ، شائع وعادي ؛ ومفهوم ، من جهة أخرى ، على أنه يتعذّر على الوسط أن يقدّم ماهو ضروري لتفتح الطفل ونموه . ويبدو مع ذلك أن التعريفات التي يقدّمها بعضهم ، والتي توافق مقاييس شتى ، بيولوجية وتكوينية وسيكولوجية وطبية واجتماعية ، عاجزة عن أن تتيح الدنوّ بعمق من عدم التكيف لدى الفتيان . ومع ذلك فالاحصائيات تكشف الحجاب بوضوحها وبساطتها عن حدّة المشكل : إن ١٠ ٪ تقريباً من الفتيان يمكنهم أن يدخلوا في هذه الفئة بفرنسا ، وتدل هذه الاحصائيات ذاتها في الاستقبالية على زيادة محسوسة للظاهرة في السنين القادمة .

وعندما يرى الرأي العام في فرنسا غير المتكيفين ، فانه يتصدّى لهم بضرب من الإنكار : إنه لا يرى فيهم غير موجودات مشوّهة ، وغير سوية ، تعوقها حركات مشوشة ، صادفها يوماً من الأيام جماعة في الشارع ، ورأى وجهها المشوّه في المجلات ، أو أنه يعرفها معرفة غامضة لكونه رأى موجوداً منها لدى الجيران . وهذا الاتصال الأول العابر ، المنفّر بعض الشيء ، والمثير للقلق دائماً ، هو الذي يسترعي انتباه الرأي العام المتضايق إزاء التكيّف . ويبدو أن هذا الرأي العام ، في موقفه ، موزّع بين ضرورات احتياز الشعور والعمل وبين موقف النبذ والإحسان . « فعندما يجد الراشد نفسه إزاء شبيه به ليس على الصورة التي يعتقد أن بامكانه أن يتوقّعها منه ، فانه يترجّح بين موقف النبذ وبين موقف

الإحسان . . . وكل موجود إنساني يجعل بعض الإسقاطات غير ممكنة بفعل حالته يثير لدى الآخر ضرباً من الضيق »[٢] .

٢ـ إحصاءات خاصة بالطفولة غير المتكيّفة[٣]

حجم فئة الفتيان والأطفال غير المتكيفين من السكان في فرنسا . إن الجماعة الوسيطة المكلّفة بإعداد الخطة الخامسة قبلت قاعدة للحساب ، في الطفولة غير المتكيّفة ، فئة من السكان بلغ عددها ٢٣٠٠٠٠٠ ، يمثّلون شرائح الأعمار من ٥ إلى ١٩ سنة ، وحجمهم ، في رأي المعهد الوطني للدراسات الاحصائية والاقتصادية ، ينبغي له أن يبقى على وجه التقريب ثابتاً خلال الفترة من ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ :

« ومع ٨٠٠٠٠٠ ولادة في فرنسا ، بوسعنا القول إن ثمة متخلّفاً واحداً على الأقل يولد في بلادنا ويستمر حياً كل ٢٠ دقيقة ، أي ٧٥ يومياً ، ٥٢٥ أسبوعياً » .

---

(٢) مودمانوني، الطبيب النفسي ،«مجنونه والتحليل النفسي» .

(٣) في مجلة «أطفالنا غير المتكيفين» ، عدد خاص ١٩٦٨ .

طبيعة عدم التكيف	النسبة المئوية من فئة الفتيان	توزيع الاختصاصات		عدد المراحل الموجودة			التطور العددي لغير المتكيفين
		تربية	الشؤون الاجتماعية	أقل من ١٤سنة	أكثر من ١٤سنة	المجموع	
القاصرون عقليا	٪	٪	٪				
المصابون بالضعف العقلي البسيط	٪ ٣	٪ ٣	—	٥٢٩٠٥	١٩٧٣	٥٤٨٧٨	٣٦٩٠٠٠
المصابون بالضعف العقلي الخفيف ـــ اضطرابات مقترنة	٪ ٠,٥٥	٪ ٠,٢٥	٪ ٠,٣٠	٧٩٩٢	٤٩٩٢	١٢٩٨٤	٦٧٦٥٠
المصابون بالضعف العقلي المتوسط	٪ ١	٪ ٣٥	٪ ٠,٦٥	١٣٢٥٣	٦٩٩٥	٢٠٢٤٨	١٢٣٠٠٠
المصابون بالضعف العقلي العميق	٪ ٠,٧٥	—	٪ ٠,٧٥	٩٠٠٩	٤٤٢٧	١٣٤٣٦	٩٢٢٥٠
المصابون بتخلف عميق	٪ ٠,٢٥	—	٪ ٠,٢٥	—	—	—	٣٠٧٥٠
المجموع	٪ ٥,٥٥	٪ ٣,٦	٪ ١,٩٠	٨٣١٩٥	١٨٣٨٧	١٠١٥٤٦	٦٨٢٦٥٠
المصابون بالقصور الحركي	٪ ١,٧٥	٪ ٠,٧٠	٪ ٠,٤٧٥	٣٦٣٩	٢٨٢٠	٦٤٥٩	١٤٤٥٢٥
المصابون بالضعف الحسي	٪ ٠,١٥٧	٪ ٠,١٢	٪ ٠,٠٣٧	٧٠١٧	٣٦١٤	١٠٦٣١	١٩٣١١
الأطفال الذين تبدو عليهم اضطرابات في السلوك	٪ ٥	—	—	٨٩٦٨	٢١٣١٠	٣٠٢٧٨	٦١٥٠٠٠

ثمة ٢٧٠٠٠٠٠ شخص غير متكيف جسمياً أو نفسياً في فرنسا ، أي أكثر من ٥ ٪ من مجموع السكان .
في حزيران من عام ١٩٧٠ ، يظنون أن ثمة ١٢٠٠٠٠٠ معوق راشد ، منهم ١٧٠٠٠٠ مصاب بضعف عقلي .

في فئة الأعمار (من ٣ سنوات الى ٢٠ سنة ضمنا) ، وعددهم يصل الى ١٤٠٠٠٠٠ ، يوجد :

١٦٥٠٠٠ ذو عاهة حركية دماغية أو غير دماغية .
٣٥٠٠٠ ذو عاهة حسية (أصم ، أعمى ، الخ) .
٤٥٠٠٠٠ مصاب بضعف عقلي خفيف .
٢٥٠٠٠٠ مصاب بضعف عقلي متوسط وعميق .
٦٠٠٠٠٠ مصاب باضطرابات في السلوك .

والأماكن المعروضة لاستقبالهم تعاني نقصاً كبيراً . والمؤسسات المتخصصة لايمكنها أن تستقبل سوى ٣٠ و ٤٠٪ من المصابين بالضعف العقلي . أما بالنسبة للراشدين ، فثمة ٢٪ من الحاجات فقط مستجابة .

صحيفة « العالم » ، ٦ ـ ٧ كانون الأول ١٩٧٠

ولاوجود لاحصائيات رسمية خاصة بعدد الأطفال غير المتكيفين من ٠ إلى ٥ سنوات أو بعدد الراشدين غير المتكيفين الذين يربو سنهم على ٢٠ عاماً . ويحسبون عدد هؤلاء الراشدين ٢٠٠٠٠٠ على وجه التقريب . أما فيما يخص المصابين بالقصور العقلي ، فان بوسعنا القول ، آخذين الأرقام التي أقرتها الجماعة الوسيطة بالحسبان ، إن ثمة مليوناً من الأفراد مصابون بالاغتراب العقلي على درجات شتى .

ـ الإنجازات والإيضاحات في إطار القطاع الاجتماعي بالنسبة لجميع الفئات من غير المتكيفين عقلياً وجسمياً وحسياً :

ـ الخطة الثانية (١٩٥٤ ـ ١٩٥٧) أوجدت ٣٢٦٧ مكاناً وأعدّت منها ٣٢٥٢ .

ـ الخطة الثالثة (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) أوجدت ٣٤٦٨ مكاناً .

ـ الخطة الرابعة (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) أوجدت ١٤٢٠٠ مكان ، وأعدت منها ٢٥٠٠ .

ـ الخطة الخامسة (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠) توقّعت ١٣٧٩٠٠٠ عملية على سبيل التجهيز الاجتماعي « الطفولة غير المتكيفة » (آخذة بالحسبان مجهود المبادرات الخاصة المالي) .

ـ في أحسن الشروط ، ثمة ١ من المصابين بالقصور العقلي فقط من ٣ ، وجد في نهاية عام ١٩٧٠ حلاً لمشكلته(٤) .

٣ـ من هم غير المتكيفين

ليس ثمة مكان آخر إلا في علم الأمراض يصادف فيه المرء فيضاً من البطاقات والتصنيفات الطبية الاجتماعية لتمييز عدم التكيف ، إن لم يكن على وجه الاحتمال في مجال الطب النفسي . والبطاقات غزيرة غزارتها على قارورات التصنيف الصيدلي ، والمصطلحات المستخدمة ليست إنسانية ، ولاشاعرية ، ولاسيكولوجية . والمرء يمكنه أن يظن بأن هذا القصور في لغة التصنيف ، تصنيف وصف الأمراض ، هو ذاته انعكاس لمعنى عدم التكيّف كما يفهمه المجتمع ، أو خبراء العيادات والأطباء ، وعلماء النفس ، والإداريون : فببطاقة علمية تماماً وعقلانية ، وخالية من كل جمال ومن كل حسّ إنساني ، يتحاشى المجتمع ذلك القدر المشؤوم الذي يضطهد هذا العدد الذي يبلغ ١٢٠٠٠٠٠ طفل لم تكن الطبيعة رحيمة بهم ولا المجتمع والوراثة . وتذكّر مصطلحات « المعتوهين » ، و « البلهاء » ، و « المتخلّفين » ، و « الضعيفين عقلياً » ، بالقرون الوسطى « معتوه القرية » أكثر مما تذكّر بالقرن العشرين ، وترسم منظر عدم التكيّف بموكب وهمي وخفيّ من المسوخ الصغيرة ، ذوي الوجوه الخالية من التعبير ، التي تعاني مصيرها بتعاسة لا يمكننا مواجهتها ولا فهمها . وعالم غير المتكيفين ، ذلك أنه عالم من عوالم أخرى ، عالم مغلق ، عاقبه بالإبعاد مجتمعٌ يحّس في نفسه بأنه جانٍ لكونه ملزماً بأن يحتمل هؤلاء الأطفال الذين يتصفون بأنهم تحدّ لطهارة النوع الإنساني وكماله . ولاترى الهيئة الطبية والاجتماعية ، بفعل ضرب من التواطؤ الفعلي ، حلاً ، بالنسبة للمجتمع ثم بالنسبة للأطفال ، إلا بأن تجعل من عدم التكيّف مشكل صحة نفسية واجتماعية .

---

(٤) لاتتوقع الخطة الأخيرة زيادة ، و«قانون التوجيه» يرمي ، على العكس ، إلى تصفية القطاع الاجتماعي من نوعيته .

أولاً: الأطفال المصابون بالقصور والمعوقون جسمياً

المنظمة العالمية للصحة اقترحت التعريف التالي لتمييز القصور الجسمي :
« كل طفل يتعذر عليه خلال ردح من الزمن لايستهان به ، من جرّاء حالته الجسمية ، أن يشترك اشتراكاً كاملاً في نشاطات سنه في المجال الاجتماعي ، والترويحي ، والتربوي ، أو في مجال التوجيه المهني الخاص به » .

أ ـ المعوقون حركياً : يحصى من هذه الفئة ٤٠٠ فرد أقل من عشرين عاماً لكل ١٠٠٠٠٠ نسمة . ويقيمون هذا التصنيف على مفهوم عدم التكيف وقابلية التربية ، مفهوم يمكننا أن نستخلص منه أربع زمر :

ـ القصور ، دون مشاركة البنيات العصبية مشاركة أساسية ، ذو العلاقة على وجه الخصوص بالعظام ، والمفاصل ، والأجزاء الطرية . ومن هنا منشأ التشوّهات ، والبشاعات الفائقة ، وعواقب الأمراض المعدية ، والجروح ، والرضوض الخطيرة .

ـ القصور ، مع مشاركة البنيات العصبية مشاركة أساسية ذات نتيجة من النمط السطحي ، ومثالها الشائع التهاب النخاع الشوكي : بعض الضروب من الشلل الناشئة من الولادة ، والآفات الخِلْقية ، أو بعض الجروح والرضوض في الضفائر العصبية .

ـ القصور ، مع مشاركة البنيات العصبية مشاركة أساسية ذات نتيجة من النمط المركزي : وتلك هي العاهات الحركية الدماغية التي تلي التهاب الدماغ غالباً وبعض الجروح والرضوض أو الأورام ، أو الانحلال الخلوي في النخاع الشوكي والعمود الفقري أو في الدماغ على وجه الخصوص . ونموذج ذلك هو الشلل الدماغي لدى الطفل .

ـ عاهات حركية خطيرة ذات اتجاه للتطور ، والتهاب العضلات ، وبطء مفرط في التقلّص العضلي ، يرافق ذلك ضروب من الضعف الجسدي ، ويمكننا أن نضيف إليها العاهة الدماغية مع تخلّف عميق

ب ـ المعوقون حسياً : إنهم المصابون بالقصور السمعي الذين يشملون زمرتين :

ـ المصابون بالصمم الكلي والصمّ والبكم ، الذين يصل عددهم حوالي ٢٢٠٠٠ . إنهم الذين يتحدّدون بقصور أعلى من ٦٠ ـ ٧٠ وحدة سمع ، ولايسمعون الصوت الأشد ، وليس بوسعهم اكتساب اللغة إلا إذا كانوا يملكونها قبل صممهم .

ـ الضعيفو السمع أو أنصاف الصمّ ، الذين يقع صممهم بين ٢٠ ـ ٦٠ وحدة سمع . إن بوسعهم اكتساب اللغة المحكية ويمكنهم أن يتحسنوا ، ويؤلفون ٥٪ من التلاميذ .

ويمكننا أن نحدّد بعض النتائج للإعاقة السمعية بتواتر التأخر في المشي ، والاضطرابات الطفيفة في التوازن ، وبذاكرة لفظية ومجردة رديئة ، وبتأخر في النمو الوجداني والعقلي على وجه الاحتمال .

ـ المصابون بالقصور في الرؤية : ٤٢٦٦٣ أعمى . وقد صُنّف في هذه الفئة أولئك الذين لا يدركون الأشكال إطلاقاً ، ولا اللون أو الضوء . ويندرج في هذه الفئة أولئك الذين لديهم أقل من ١ / ١٠ من حدة البصر ؛ ثم المصابون بالقصور النظري الجزئي ، أو الذين يرون رؤية رديئة ، وهم الذين لديهم ١ إلى ٤ / ١٠ من حدة البصر . ونسبتهم من التلاميذ ١ إلى ٢٪ . وبين هاتين الفئتين ، ثمة أطفال معدودون بصورة عامة على أنهم عميان ، لكنهم في الواقع مصابون إصابة كبيرة بقصور في البصر ولديهم بعض البقايا من الرؤية ، وهم قابلون للتربية المعادة تبعاً لكونهم قادرين على التوجّه أم غير قادرين ، وعلى التعرّف على الألوان ، وقراءة المطبوع بالحرف الأسود ، وعلى إنجاز رسم من الرسوم .

ويمكننا أن نحدّد بعض النتائج للإعاقة البصرية بالتواتر في الصعوبات العقلية ، وبمفردات فقيرة ، وبالتباس في الزمان والمكان ، وبنقص في عملية النضج الحركي والمعرفي ، وبالاضطرابات الوجدانية وفقر في التعبير اللفظي ، ولكن ثمة تعويض غالب : المثابرة ، والفكر الفضولي ، والتحليل ، الخ .

جـ ـ الأطفال المصابون بالأمراض المزمنة

ـ الآفات التنفسية المزمنة : التدرّن الرئوي والربو وتوسع القصبات . وهذا هو نموذج المرض المزمن الذي يسبّب بعض الاضطرابات في التكيف : عدم التكيف في العلاج ، وفقدان التكيف بفعل العلاج ترافقه نتائج من النوع النفسي الجسمي أو نتائج من نوع الارتكاسات ، الخ .

ـ المصابون بمرض السكري : حوالي ٢٠٠٠ طفل أقل من ١٧ عاماً . ومرض السكري مرض يثير الحصر من حيث أن العلاج اضطراري : حقنٌ كثير بالأبر ، وحمية ، وتحليل ، وتعرّض لفقدان التوازن الناشىء من ارتفاع الغليكوز المفاجىء في الدم ، الذي يخلق لدى الطفل صعوبات في التكيف مع مرضه الخاص ومع المحيط .

ـ الآفات العصبية أو الروماتيزمية الخِلْقية أو المكتسبة : وهؤلاء هم أطفال معوقون إلى حد ٧٠ / ٨٠٪ . ويشيرون إلى حالة الأطفال المصابين بالسقم ، وثمة ٣٠٪ منهم يحتاجون من ٦ إلى ١٨ شهراً من التربية المعادة في مؤبسسات متخصصة .

ـ وثمة أمراض مزمنة أخرى : آفات دموية وعظمية مفصلية وحساسية ، وآفات الغدد الصم ، الخ . وثمة الضعف الجسدي : أطفال مصابون بالهزال ، والمتأخرون جسدياً ، والقَزَم والعملقة .

وتطرح الطفولة المصابة بالقصور والإعاقة ، في المستوى الأول إطلاقاً ، مشكلات في العناية الطبية ، وخطورة الإعاقة تابعة لطبيعتها ومنشئها ومدتها ، وتابعة للإعاقة الوظيفية الناجمة عنها في أغلب الحالات . ومع ذلك ، لا ينفكّ الجانب الطبي يؤكد الجانب السيكولوجي الذي يتبلور حول علاقة الطفل بمرضه (٥) في المؤسسة الاستشفائية أو مؤسسة التربية المعادة ، وعجزه الغالب عن التكيّف المهني والاجتماعي والثقافي . فالى أي مدى يمكننا تربيتهم ، واستعادتهم ، واستخدامهم ، ليكون لهم مكان في المجتمع ؟

---

(٥) انظر : اللاشعور والبنيات الأسرية ، الفصل الأول ، الباب الخامس من هذا الكتاب .

ثانياً: الأطفال المصابون بالقصور العقلي

المشكل الذي يطرحه تعريف المصابين بالقصور العقلي هو إحدى المهمات المتصفة بأنها الأكثر صعوبة وفقاً لمقاييس القصور، وخطورته، ودرجة قابليته للتربية .

ـ المنظمة العالمية للصحة ، في تقريرها[٦] ، تقترح المصطلحات التالية ، المرتكزة بصورة أساسية على حساب حاصل الذكاء[٧](العمر العقلي على العمر الفعلي) والمحتفظة بضرب من المصطلحات التقليدية :

مصطلحات وحاصل الذكاء	درجة القصور العقلي			
	خطيرة	متوسطة	خفيفة	حالة حدية
مصطلحات...	معتوه	أبله أبله عميق / خفيف	ضعيف عقلياً	ضعيف الموهبة مصاب بالضعف العقلي الخفيف
حاصل الذكاء التقريبي	٠ ـ ١٩	٢٠ ـ ٤٩	٥٠ ـ ٦٩	٧٠ ـ ٨٠/٩٠

(٦) تقرير رقم ٧٥ (المنظمة العالمية للصحة) ، ١٩٥٤ .

(٧) انظر : علم الأمراض وعدم التكيف المدرسي ، الفصل الثالث ، الباب الأول من هذا الكتاب .

والمصطلحات الأمريكية ، بوساطة « الجمعية الامريكية للطب النفسي » تقترح المصطلحات التالية :

- جسيم (قصور عميق) لوصف الزمر المتوسطة والدنيا التي لايتجاوز حاصل ذكائها ٥٠ .

- معتدل (قصور متوسط) لوصف الزمرة العليا التي يتدرّج حاصل ذكائها من ٥٠ إلى ٨٠ .

- خفيف (قصور خفيف) لوصف أولئك الذين يتدرّج حاصل ذكائهم من ٧٠ إلى ١٠٠ .

زمرة دنيا	زمرة متوسطة	زمرة عليا
معتوه تابع لايمكن تربيته حالة خاصة بمؤسسة درجة دنيا عميقة جدا حاصل الذكاء : ٠/ ٢٥	أبله شبه تابع يمكن تربيته نصف تربية متأخر عميق درجة متوسطة عميقة حاصل الذكاء : ٢٥/ ٥٠	مصاب بضعف عقلي خفيف مستقل هامشي يمكن تربيته — درجة عليا معتدلة حاصل الذكاء : ٥٠/ ٧٥

والإعاقة العقلية ، بالنسبة لهذه الفئة من غير المتكيّفين ، غالبة ، بمعزل عن أي إعاقة جسمية . فعلى المستوى النفسي والسيكولوجي إنما تتحقّق الإعاقة ، وعدم التكيف الناجم عنها يتصف على نحو أساسي بأنه من النوع المدرسي والثقافي والعلائقي . فقد تكون هذه الإعاقة النفسية أولية(تخلّف خِلْقي ، واستعداد مسبق لاضطرابات في السلوك والسيرة، واستعداد مسبق بنيوي، الخ)، أو ثانوية(اضطرابات في السلوك بفعل قصور تربوي، أو خلل أسري، واجتماعي، الخ)

١ـ المصابون بالقصور العقلي الذين يمكننا تربيتهم

إنهم المصابون بالقصور العقلي إصابة متوسطة وخفيفة ، الذين لا يثيرون قلق آبائهم على نحو سريع جدا . ولا يختلف سلوكهم ، في البدء ، عن سلوك الأطفال الآخرين ، ولكن البعد يتعاظم تبعاً للضرورات الناشئة من متابعة الدراسة والتنشئة الاجتماعية . وكان بينه وسيمون يعتبران ضعيفاً عقلياً « كل طفل يحسن التواصل مع أقرانه بالكلام أو الكتابة ، ولكنه يبدي تأخراً مدرسياً من ٢ ـ ٣ سنوات خلال دراساته ، دون أن يكون هذا التأخر ناشئاً عن القصور في ارتياد المدرسة »(٨) .

إنهم الذين يُعتبرون ، بعد إجراء الروائز والتحديدات السيكولوجية ، أنهم قادرون بصورة قبلية ، بفضل التقنيات الطبية السيكولوجية ، والبيداغوجية ، والاجتماعية ، على أن يكتسبوا استقلالهم ، وأن يلبوا حاجاتهم الأولية هم ذاتهم ، وأن يندمجوا بفعل مهنة من المهن في حياة اجتماعية سوية على وجه التقريب ، محتاجين مع ذلك إلى وسط حفّي وإلى تربية معادة . وحاصل ذكائهم لا ينخفض إلى ما تحت ٦٥ ، ولكنه يبلغ حده الأعلى بعشر سنوات من العمر العقلي بعد سن الرابعة عشرة . واللجنة الفرنسية للمصطلحات الخاصة بغير المتكيفين من الصغار تعرّفهم على النحو التالي :

« المصاب بالضعف العقلي الخفيف أو البسيط هو فرد دونيته العقلية طفيفة إلى حدّ يجهلها المحيط ، وينبغي للطبيب السريري الذي يرتاب فيها أن يلجأ إلى أساليب خاصة لكي يقيم الدليل عليها ويحدّدها . أما فيما يخص الذكاء ، فيشيرون لديه إلى مجموعة من السمات تميّز بنية التفكير الطفلي قبل ٩ إلى ١٠ سنوات . وتسود لديه وظائف الاكتساب على وظائف الإعداد ، والفكر الحسي العملي ، أي المشخص والعملي ، على الفكر اللغوي التأملي ؛ ويشقّ عليه أن يضع نفسه من وجهة نظر الغير وأن يجتاز الشعور بعمليات تفكيره الخاص . أما

---

(٨) بينه وسيمون «الأطفال غير الأسوياء» .

من وجهة نظر الطباع ، فإن بوسعنا أن نلاحظ عدم الاستقرار في الانتباه ، وغياب الحكم والنقد الذاتي ، وسرعة التصديق وقابلية الايحاء ، والزهو ، والمعارضة والعناد ، وسرعة التهيّج » .

وثمة استخدام شائع ، بالنسبة لهؤلاء الأطفال ، لمصطلحي « الأطفال المتخلّفين » و « المصابين بالضعف العقلي المتوسط أو الخفيف » . إنهم أطفال يتميّزون على الغالب بدرجة دنيا من التربية وبحاصل ذكاء أقل من المتوسط . وتنصب الاختبارات ، علىٰ وجه أخص ، على ذكاء الفرد وإمكانه في اكتساب المعارف المدرسية ، ودرجة نضجه الاجتماعي . والواقع أن التخلف أو الضعف العقلي لا يُدركان في النمو إلا في زمن متأخر ، لأن هؤلاء المصابين بالقصور العقلي لا يتميزون من الزمرة الاجتماعية بعدم النضج العقلي والاجتماعي معاً(٩) إلا في فترة المراهقة أو الدخول في حياة الرشد ، بسبب الضرورات في حياة الرشد والنضج .

• ٢ـ المصابون بالقصور العقلي الذين يمكننا تربيتهم تقريباً والأطفال المعدودون كذلك هم :

ـ أولئك القابلون للتحسّن والتكيّف المهني من الأطفال المعوّقين بفضل ضرب من البيداغوجيا والتربية الخاصة ، ولكنهم الذين سيكونون دائماً بحاجة إلى الحماية والمراقبة في إطار حياتهم أو عملهم أو الاثنين معاً (معونة الأسرة ، معونة بيت أو مؤسسة ، استخدام وعمل محميين ، الخ) . ولا ينخفض حاصل ذكائهم عن ٥٠ ـ ٥٥ ، ولا يتجاوز مستواهم العقلي ٩ سنوات في سن الرابعة عشرة . إنهم مصابون باضطرابات كثيرة ، جسدية ، ونفسية حركية ، وحسية . ووظائف الإعداد محدودة جداً ، ولديهم إمكان اكتساب الكلام والنظافة ، وبعض الإمكانات الأولية جداً لمتابعة الدراسة ، وبوسعهم أن يحلّوا المشكلات المشخّصة ولو أنها معقّدة . ولديهم ، دائماً على وجه التقريب ، اضطرابات غريزية ووجدانية ، واضطرابات في نضج الحركات واتّساقها وفي النضج المعرفي .

---

(٩) انظر : « الراشد والطفل » ، الفصل الرابع ، الباب الثاني من هذا الكتاب .

ثالثاً البلهاء بعمق والمعتوهون

تتسلسل مختلف درجات التخلّف العقلي من الدرجة الأدنى ، العُته ، إلى الفئة الأعلى منها مباشرة ، فئة البلهاء . والمعتوه يميّزه بينه بوصفه « طفلاً لا يفلح في أن يتواصل بالكلام مع أقرانه ، أي أنه ليس بوسعه أن يعبّر عن فكرته لفظاً ولا أن يفهم الفكرة التي يعبّر عنها الآخرون لفظاً ، في حين أن أي اضطراب في السمع ، وأي اضطراب في أعضاء النطق ، لا يشرحان هذه الحبسة المزعومة الناجمة برمتها عن قصور عقلي . وإذا تذكرنا أن بإمكان أي طفل سويّ ، له من العمر سنتان ، أن يفهم كلام الغير من أجل حاجاته الأكثر بساطة ، فإننا سنرى أن التمييز بين المعتوه والسوي يسير »[١٠].

ويذكر دول وبينه أن البله تخلف عقلي أيضاً . وفي حين يلحّ بينه على القصور العقلي اللغوي والثقافي ، يوضّح دول هذا التعريف مضيفاً إليه البيانات الخاصة بالنضج الاجتماعي . « فالبلهاء هم أولئك الذين يمكننا أن نعلّمهم تأمين حاجاتهم الشخصية ، وحماية أنفسهم من الأخطار الشائعة ، وانجاز مهمات بسيطة عادية تحت المراقبة . ولكنهم عاجزون عن أن يستفيدوا فائدة ذات قيمة من التعليم المدرسي أو أن يكتسبوا من المهارات المهنية إلا الأكثر اتصافاً بأنها أولية . وموقع البلهاء على سلّم القصور العقلي ، في كثير من النواحي ، منتصف الطريق بين المعتوهين والمصابين بالضعف العقلي . إنهم يحسنون التعبير شفوياً ، ولكن أفكارهم فقيرة جداً . وهم ليسوا سلبيين تماماً ، وبوسعهم أن يؤدّوا بعض الخدمات عندما يتم توجيههم على نحو جيد . وليسوا قادرين على أن يمارسوا غير القليل من المبادرات ، وطبعهم طبع وديع وبليد أكثر مما هو عدواني ومعاكس . ونموهم العقلي ، بصورة عامة ، ينتهي حوالي العاشرة أو الثانية عشرة مع عمر عقلي ، في رائز بينه ، من ٣ إلى ٧ سنوات ضمناً . ويبلغ نضجهم الاجتماعي

---

(١٠) بينه وسيمون ، «الأطفال غير الأسوياء» .

عادة في الرابعة عشرة من العمر، مع «عمر اجتماعي» بين أربع وتسع سنوات»[11].

والبلهاء بعمق والمعتوهون هم أولئك الذين لديهم حاصل الذكاء أدنى من ٣٥ ولا يتجاوزون عمراً عقلياً قدره خمس سنوات بعد الرابعة عشرة. فبعضهم أولو عاهة عقلية عميقة جداً، وحياة العلاقة لديهم حياة مختصرة جداً، ولا يمشون ولا يتكلمون، وقدراتهم الوجدانية والحركية عدمٌ على وجه التقريب. والمعتوهون ليسوا قادرين إلا على بعض الاكتسابات الخاصة بالذاكرة، وعلى بعضٍ من الترويض. والبلهاء بعمق أكثر تطوراً، وقادرون على اكتساب الكلام والنظافة، ولكن ليس لديهم القابلية لمتابعة الدراسة، وتفكيرهم تفكير حدسي.

وكان يقال عن البلهاء والمعتوهين في الماضي إنهم غير قابلين للتربية. أما حالياً، فان بعضهم يتقدّمون تقدماً ملحوظاً إذا بدأت تربيتهم في الوقت المناسب، وذلك بفعل التحسين في التقنيات التربوية.

ويصعب إجراء إحصائيات على عدد المصابين بالقصور العقلي: فإذا استندنا إلى دراسات هوير، وبيرون، والسيدة بيرون، وسوفي، الذين أشرفوا على وضع الخطتين الثانية والثالثة لمصلحة الطفولة غير المتكيّفة، فإن بوسع المرء أن يقترح الأرقام التالية للأطفال والفتيان من ٥ إلى ١٩ سنة:[12]

- المصابون بالقصور العقلي العميق: ٥٠٠٠٠ إلى ٨٠٠٠٠ أو ٠,٥٠ ٪ إلى ٠,٧٥ ٪ من فئة هذا العمر، ونصفهم من المعتوهين.
- المصابون بالقصور العقلي الذين يمكننا تربيتهم على وجه التقريب: ١٨٠٠٠٠ أو ١,٧٥ ٪ من فئة السكان في هذا العمر.
- المصابون بالقصور العقلي الذي يمكن تربيتهم على وجه التقريب: حوالي ٢٠٠٠٠٠ أو ٢ ٪ من فئة السكان في هذا العمر.

---

(١١) دول، مقال مذكور، ص ١٣٤٨.

(١٢) هوير، بيرون، السيدة بيرون، سوفي «المستوى العقلي لأطفال السن المدرسي»، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٥٠.

- المجموع : ٤٥٠٠٠٠ طفل من ٥ إلى ١٩ سنة ، أي ٤,٣ بالمئة من فئة السكان في هذا العمر ، يمثّلون المصابين بالقصور العقلي . ويلاحظ أن النسبة هي ذاتها في البلدان الأخرى ، والمنظمة العالمية للصحة تعطي نسبة ٤,٥٠ ٪ . ويشير الدكتور كلود كوهلر أن ثمة بنتين مصابتين بالقصور العقلي مقابل ثلاثة صبيان[١٣] .

رابعاً ـ المصابون باضطرابات في السلوك والمنحرفون

آ ـ الطفل المصاب باضطراب في السلوك

يعاني الأطباء وعلماء النفس صعوبات في تعريف المصاب باضطراب في السلوك أشدّ أيضاً من الصعوبات التي يعانونها في تعريف المصابين بالقصور العقلي : اضطرابات في السلوك والسيرة والطبع ، وجميع هذه المفاهيم متشابهة ولكنها ليست مترادفة .

وهوير ، في كتابه « المدخل إلى الطب النفسي للطفل » ، يعرّف الطبع بأنه « مجموعة من الميول الانفعالية ، الوجدانية ، الوراثية أو المكتسبة ، التي تنظّم صلات الفرد بشروط الوسط »[١٤] . ويمكننا أن نحدّد ، في هذا الكتاب ، ثلاثة معانٍ تستجيب لمقتضيات علم الأمراض :

- الفطرية ، والأصل التكويني : وهذه هي مجموعة الميول الناشئة من الوراثة أو ذات الأصل الولادي ، المكتسبة في الرحم . وهذا هو طبع المرء عند الولادة .

- التابع للوسط : بمعنى الطبع الذي تكوّنه التربية المشتملة على صفات أخلاقية وسيكولوجية والمكوّنة شخصية مكتسبة . وبوسعنا أن ندخل العوامل

---

(١٣) كلود كوهلر ، «ضروب القصور العقلي لدى الطفل» .

(١٤) انظر : النمو الانفعالي لدى الطفل ، الفصل الثاني من هذا الكتاب .

الاقتصادية ، والاجتماعية ، والأسرية ، والثقافية ، والجغرافية ، بوصفها تبنين الطبع ، ويوسعنا أيضاً أن ندخل العلاقات الذاتية ، والعوامل البيداغوجية ، وعوامل متابعة الدراسة .

ـ المعنى العام : كيف تصرفت واستجابت شخصية خلال تاريخها وعلاقتها مع المحيط ، مستندة إلى مقتضيات عملية النضج ، بنموذج معيّن من السلوك يميّز ما هي عليه . وذلك هو منظور تكويني وأكثر اتصافاً بأنه سيكولوجي .

ب ـ المظهر العام لاضطراب السّلوك

اضطرابات الطبع أو السيرة لا تؤثر على القدرات ، والكمال الجسمي والنفسي أو العقلي ، للمصاب باضطراب السلوك ، كما هو الأمر بالنسبة للمصابين بالقصور . فاضطرابات الطبع هي من النوع العلائقي والاجتماعي على نحو أساسي ، وهي ، لهذا السبب ، ذات ارتباط بوسط الفرد الاجتماعي والسيكولوجي .

ونلفت الانتباه إلى :

ـ اضطرابات المزاج والسلوك : والمقصود أطفال غير مستقرين ، عسيرون ، مصابون بمغالاة في الهيجان ، قلقون ، غضبيون ، مزهوون ، عدوانيون ، خائفون ، كذابون ، الخ . والاضطرابات إما ثابتة وإما خاصة بوضع يستجيبون له على نحو مألوف ودائم . وهذه الاضطرابات واقع أفراد أسوياء ، ولكن المصاب باضطراب السلوك يفاقمها ويعيشها على نحو حادّ جداً مع سمات في التصرفات ، بوصفها نتائج مترتّبة على هذه الاضطرابات ، تُعتبر غير سوية ، وفي بعض الأحيان مرضية بصورة صريحة . فالمصاب باضطراب السلوك منحرف فيما يخرج عن المألوف من السلوكات العادية بالمجتمع . وتسبّب اضطرابات السلوك وهذا الانحراف ، على الغالب ، ضروباً من عدم الانتظام في مجالي الانفعالية والوجدانية ، وفي المجال الخيالي والعقلي .

ـ الاضطرابات العلائقية الناجمة عن الطفولة : اضطرابات السلوك يمكنها أن تتجلّى على المستوى النفسي الحركي (الطفل غير المستقر) مع اضطرابات غذائية ، وإمساك ، وسَلَس البول ، واضطرابات في النوم . وتتجلى على المستوى

الوجداني بارتكاس التعلق بالمحيط ، أو ، على العكس ، بارتكاس عنيف وعدواني على الاتصال ، مع محاولة التحايل والتهيّج ، أو ، على العكس ، رفض الآخر بصورة مطلقة ، إلخ . وهذه الاضطرابات العلائقية هي ، بصورة عامة ، نتيجة سيرورة سيئة لعملية النضج ، ويظلّ المصابون باضطراب السلوك ، على الغالب ، مثبّتين ومرتبطين بمستوى من النمو ، أو بفترة طفولية من تكوين شخصيتهم (١٥) . وبوسعنا أن نلخّص ذلك بالكلام على عدم نضج ، أو على خلل في عملية النضج يمنع الفرد من أن يكون له سلوك علائقي متكيف .

ـ الاضطرابات الاجتماعية الناجمة عن الوسط : من الملاحظ على الغالب أن الأطفال المصابين باضطراب السلوك كان لهم وسط اجتماعي وأسري عسير : ثنائي منفصل ، أب قاس ومدمن على الكحول ، صعوبات مالية واقتصادية ، ضروب من القصور الوجداني ، إلخ . فثمة رابطة بين تكوين الطبع والوسط الاجتماعي والأسري اللذين تنمو فيهما الشخصية دون أن يكون الوسط مع ذلك سبباً مباشراً وضرورياً . فكل أطفال الوسط الاجتماعي والأسري العسير لا يصبحون مصابين باضطراب السلوك ، وثمة من جهة أخرى أطفال مصابون باضطراب السلوك في أوساط لا صعوبة فيها على ما يبدو .

ويمكن لنا ببساطة أن نؤكد أن عدة أسباب تساهم في نمو شخصية مصابة باضطراب السلوك :

ـ أسباب فيزيولوجية مرتبطة بالجملة العصبية وجملة الغدد الصم ؛
ـ أسباب سيكولوجية مرتبطة بتكوين فطري وبنيوي ؛
ـ أسباب نفسية اجتماعية مرتبطة بالعلاقة بين الطفل وبين وسط عسير .

وهذه النماذج الثلاثة من الأسباب يمكنها أن تحدّد ثلاثة نماذج من الشخصية المصابة باضطراب السلوك ، وفق كون السبب فيزيولوجياً أكثر منه سيكولوجياً أو اجتماعياً . وتقتضي مختلف النماذج نمطاً مختلفاً من التربية والمعالجة (العلاج

---

(١٥) انظر : « تصنيف المرضى النفسيين» ، الفصل الأول من الباب الرابع من هذا الكتاب .

بالأدوية ، أو العلاج النفسي ، أو العلاج الاجتماعي) . واضطراب السلوك ، في بعض الحالات المتواترة جداً ، ترافقه نواة عصابية أو ذهانية[16] .

جـ ـ جنوح الأحداث

نجد ، تحت هذه الفئة ، عدداً كبيراً من الأحداث ، غالبيتهم قاصرون ، يتميّزون بأنهم يطرحون مشكلات طبية ، واجتماعية ، وقانونية . إنهم في الواقع أطفال أو مراهقون تمثّل أفعالهم الجرمية انحرافات في التصرف إزاء القانون ، أخلاقياً كان أو اجتماعياً أو أسرياً . ومشكلهم الرئيس مشكل عدم الاستقرار ، والاضطراب الوجداني المبكّر ، بحيث يتم تكيفهم الاجتماعي بصورة عسيرة . وهم على علاقة مع الشرطة ، والمحاكم ، ومراكز التربية المعادة ، بسبب الجرم والانتقال إلى الفعل المعادي للمجتمع . وصيغ الجنوح متنوّعة جداً : السرقة (جرائم أكثر خطورة لدى الصبيان) ، والبلاغ الكاذب ، والجرائم الجنسية (لدى البنات على وجه الخصوص) ، والضربات والجروح ، والحريق ، والقتل . ويبلغ الجنوح نسبته العليا في البلوغ مع الحد الأقصى من المدى والخطورة في سن ١٦ . والجنوح ، بين ٧ ـ ١٢ سنة ، أكثر خطورة مما يتصور المرء ، وهو في حده الأدنى بين ١٢ و ١٣ سنة .

والطفل ، على المستوى القانوني ، يمكنه أن يدعى أمام المحاكم مهما كان عمره . ويسلّم التشريع الفرنسي لعام ١٩١٢ أن طفل الثالثة عشرة قادر على التمييز ، وأن الرشد الجزائي في الثامنة عشرة . يضاف إلى هذا أنه عندما يكون قد صدر حكم من الأحكام وأن هناك اجراءات قمعية ترافقها نتائج جزائية ونتائج ذات علاقة بالتربية المعادة ، فان هذه النتائج يمكنها أن تمتدّ حتى الرشد القانوني المحدّد بـ ١٨ سنة . وواضح أن المجتمع يحمي نفسه من الجنوح بضرب من تقييد حرية القاصرين وبتحديد حق الأبوين في التربية . ولهذا السبب ، فان الجانحين الذين سببوا جرائم يجدون أنفسهم وقد وُضعوا تحت الوصاية القانونية

---

(١٦) انظر : « تصنيف المرضى النفسيين» ، الفصل الأول من الباب الرابع من هذا الكتاب .

بوساطة قاضي الطفل ، وفي الوقت نفسه ، تحت وصاية إدارة العمل الصحي والاجتماعي (بيوت التربية المعادة ، والمعونة الاجتماعية والطب الاجتماعي) .

ولا يطرح الجانح مشكلات سيكولوجية أكثر نوعية من المشكلات التي يطرحها المصاب باضطراب السلوك أو غير المستقر . ومن وجهة النظر الاجتماعية والسوسيولوجية على وجه الخصوص ، إنما يكون مهماً ان نتناول جنوح الأحداث بالمعالجة . وكان تشخيص الطبيب النفسي أو عالم النفس ، في الماضي ، تشخيصاً سكونياً ومن غير أمل في التغير : فالجنوح كان فساداً جبلّياً ومظهراً من مظاهر طبع يعادي المجتمع . والمنحرف ، بالنسبة للرأي العام ، هو « المخفق » و « سيء التربية » و « مثير الاضطرابات » ، الذي يزعج النظام الاجتماعي القائم ويستحقّ لهذا السبب عذاباً وعقوبة . ومن هنا منشأ الصفة القمعية التي لا زال يحتفظ بها القضاء ومعاهد التربية المعادة والتشريع الخاص بالأطفال ، ولكن الجنوح ، في مجتمعاتنا المصنّعة ، تطور تطوراً كبيراً دون أن تدرس بنياته ودون أن يكشف عن الأسباب الاقتصادية والسياسية . ولهذا السبب ، فان الأطباء وعلماء النفس والقضاة والمربين لا يزالون ، دون علم منهم ، حراس القانون والنظام المختصين . ويطرح الجنوح في مجتمعاتنا ضرباً من الهامشية الاجتماعية والقانونية لجزء من الأحداث ، وكل نظام قانوني وتربوي ذي صفة قمعية لا يمكنه إلا أن يعزّز هذه الهامشية .

* * *

الفصل الثاني

الضعف العقلي

موضع التساؤل

أولاً. ملاحظة الأطفال غير المتكيفين وكشفهم

إحدى المهمات التي حدّدها المجتمع لنفسه ، فيما يخص الطفولة غير المتكيفة ، تدخل في إطار الوقاية والصحة النفسية والاجتماعية . وكان الطفل غير المتكيف ، قبل فترة التنظيم التي نشهدها حالياً ، يعيش منزوياً ، بعيداً عن الفاعليات الاجتماعية والعلائقية . إنه كان « معتوه القرية » و « المتخلف » و « المجنون » ، الذي كان الناس يتجنّبونه ، أو كان الناس لامبالين تجاهه ، شريطة أن يكون غير خطر . ومع تطوّر طب الأطفال غير المتكيّفين ، فإن لدى الطفل غير المتكيّف ، في أيامنا هذه ، إمكاناً مفاده أن تتكفّل به مختلف الدوائر الطبية الاجتماعية في زمن مبكر جداً ، مع تطور طب الأطفال غير المتكيفين ومؤسسات التربية المتخصصة . ولكن الأسرة لاتزال تتردّد في أن تسلّم الأطفال وأن تقودهم إلى العيادة من أجل فحص طبي وسيكولوجي : وسنرى فيما بعد معنى تصرف الآباء الذين يجعلون من أنفسهم المتواطئين اللاشعوريين مع مرض أطفالهم .

آ ـ كشف الأطفال غير المتكيفين

الكشف عن الاضطرابات يمكنه أن يتمّ في وسط الأسرة ذاته بمبادرة الأبوين ، أو طبيب الأسرة ، أو المساعدة الاجتماعية في القطاع . وقد يجري في

الوسط المدرسي بواسطة مربية روضة الأطفال أو المعلمة ، أو في الوسط القمعي بواسطة الشرطة . وهذا التعرّف على الاضطرابات ، الذي تحقّقه الأوساط المختلفة ، يترتّب عليه نتائج خطيرة ، لأن الطفل ستتعهّده مؤسسات مختلفة ذات طرائق وأهداف تربوية غير متشابهة . فذلك المصاب بالضعف العقلي الخفيف سيتمّ توجيهه في مؤسسة طبية بيداغوجية إذا كان فحصه قد جرى في عيادة الصحة النفسية . فإذا تمّ كشفه في المدرسة ، فإنه يُوجّه صوب صفوف الاستكمال . واذا كشفته الشرطة ، عُهد به إلى قاضي التحقيق الذي يفوّض أمره إلى مؤسسة تربوية مراقبة . فكل مستقبل الطفل منوط بمكان الكشف عنه ، على الرغم من أن هذا الكشف يُعتبر إلى حدّ معيّن صنيع المصادفة في الأسباب التي قادت طفلاً معيّناً إلى مؤسسة معيّنة . والطابع الوقائي ، الطابع السيء التنظيم والمتصف بالقليل من المنهجية ، يسبّب على الغالب توجيهاً بيداغوجياً وعلاجياً سيئاً للأطفال غير المتكيفين . والحال أن من الضروري ، لتوجيه طفل من الأطفال ، أن يتم الكشف في زمن مبكّر جداً عن القصور لديه وعن القصور في الوسط الذي يعيش فيه ، وعن عوامل عدم التكيف من النسق الطبي والسيكولوجي ، حتى تُستخدم العلاجات الطبية الممكنة على نحو سريع جداً ، والعلاجات النفسية التي قد تؤخذ بالحسبان ، والتربية المتخصّصة المأمولة . وذلك حتى لا يستقرّ الطفل في ضرب من الإزمان الذي يصعب علينا أن نجعله يتطور فيه . ومن الضروري ، لتوجيه طفل غير متكيّف ، إجراء فحص عام سريري وسيكولوجي كامل منذ الولادة ، أو منذ الأشهر الأولى لحياة الطفل .

ما هي الدوائر أو المؤسسات التي يمكنها حالياً أن تكشف القصور وتضع تشخيصاً له ؟ انها عيادات ما قبل الولادة ، ومساعدات المعهد الطبي البيداغوجي أو رعاية النسل ، ومساعدات القطاعات ، وأطباء الأطفال ، والعيادات الأسرية أيضاً . وقد تقوم بالتشخيص أيضاً دوائر الصحة المدرسية ، وفي مدرسة الأمومة على وجه الخصوص . فإذا لاحظ الأبوان اضطرابات عند الولادة أو خلال النمو ، فإن من المستحبّ أن يذهب فيخبر دائرة من هذه الدوائر . وبعد هذا الكشف ، يتلقّى الطفل تلك الاجراءات الأولى من النوع التربوي ، والطبي ،

والسيكولوجي ، ولكن لا بدّ عندئذ من تعميق الفحص العام بغية تحديد التشخيص ، وتوجيه الطفل إذا أكد الإعاقة فحصٌ سريع .

ويعدّد لافون مختلف الدوائر التي يُسمح لها رسمياً بأن تقوم بهذا الفحص العام :

ـ عيادات الوقاية النفسية والصحة النفسية الطفلية ، التابعة لدائرة الصحة النفسية أو الاجتماعية في المحافظة ، أو العيادة التي تقبلها هذه الدائرة ، أو العيادة التابعة لدائرة المشافي .

ـ مراكز التشخيص والعلاج المتنقلة (مراكز طبية نفسية بيداغوجية) ذات العمل العلاجي ، ولكنها أيضاً تضع تشخيصاً .

ـ العيادات المتخصّصة التي أقامتها بعض شركات التأمين وبعض الهيئات أو الجماعات العامة أو نصف العامة أو الخاصة ، التي تمنح على نحو واسع في بعض الأحيان هذا العلاج أو ذاك أو تربية معادة : مراكز الهيئات البيداغوجية ، والبلديات ، والمراكز المرتبطة بإدارة التعليم ، أو بصندوق الإعانات الأسرية ، أو بدائرة اليد العاملة الفتية ، والصليب الأحمر ، ومدرسة الآباء ، إلخ .

ـ اللجنة الطبية البيداغوجية التي نصّ عليها قانون ١٩٠٩ للدخول إلى صف الاستكمال ، ذلك القانون الذي أمر بانشاء إضبارة تعدّها هيئة أخرى أو دوائر التعليم المتخصصة في الأكاديمية .

ـ الدوائر الاجتماعية وعيادات التوجيه التربوي التي ترتبط بمحكمة الأطفال أو التي تعترف بها هذه المحكمة ، وهذه الدوائر والعيادات مكلّفة باجراء الاستقصاءات الاجتماعية والفحوص العامة الطبية السيكولوجية التي لها قيمة الخبرة .

ـ دوائر مشابهة إلى جانب إدارة العمل الصحي والاجتماعي : إنها دوائر الوقاية المكلفة ، في عداد ما هي مكلفة به ، بالاستقصاء واكتشاف الأطفال المعرضين لخطر معنوي .

ـ دوائر المراقبة الطبية لصناديق التأمين الاجتماعي التي يمكنها أن تتدخّل بفحوص جديدة في حال التكفّل .

وجميع هذه الدوائر يمكنها أن تجري فحصاً جزئياً أو كلياً ، ومستقبل الأطفال منوط بها . ولكن فقدان التنسيق والانسجام يجعل الأطفال مرتبطين بعدة دوائر ، والأضابير لا تلحق بهم من دائرة إلى أخرى ، ومن هنا منشأ تكرار الاستشارات والفحوص العامة الناجمة عن تنظيم إداري سيء . ويكمن هنا دور من الأدوار السلبية للمؤسسة بالصورة التي تسير عليها سيراً وظائفياً في التطبيق ، والأمر يسير على المنوال نفسه في الفروع الأخرى للإدارة .

ب ـ الاضبارة السريرية

ما هي العناصر التي تتألف منها الإضبارة والتي تُستخدم معياراً للتشخيص ؟ ذلكم وصف قدّمه الدكتور لونغ .

ـ شروط الكشف وظروفه ودوافعه .

ـ استقصاء أسري واجتماعي : السوابق الأسرية (بما في ذلك الجدود) ، والشخصية (الحمل ، والوضع ، والولادة ، والنمو الأول ، والنماء ، والمرض) ، والوسط الفكري والاجتماعي الاقتصادي ، والنزاعات الأسرية المحتملة ، والسلوك العادي للطفل منذ صغر سنه ، وشتى أوساط حياته وتاريخه الشخصي وإصاباته . وأخيراً ، ميوله ، وقابلياته ، ورغباته ، وأوقات فراغه .

ـ استقصاء بيداغوجي : التاريخ المدرسي ، والقابليات ، والسلوك العادي إزاء المعلمين والرفاق ، وأسباب عدم ارتياد المدرسة ، الخ .

ـ فحص عام سيكولوجي : المستوى العقلي بحسب رائز لفظي ، وروائز الإنجاز أو الإسقاط ، والمستوى المدرسي ، والمستوى الحركي أحياناً .

ـ فحص طبي ومحادثة طبية نفسية : ينصبّ الفحص أول الأمر على الطفل عارياً ، وتُسجّل حالته العامة ، والتشوّهات أو العاهات ، والطراز الإحيائي الغالب ، ونتائج الفحص الحشوي ، والعصبي ، والنفسي الحركي والحسي ، والوجود المحتمل لاضطرابات في اللغة والإدراك الحسي واتساق الحركات والبنية الزمانية المكانية . والفحص يحدّد الخلفية النفسية ، والنزاعات السائدة ، وعناصر البنية النفسية التحتية ، وأنماط الارتكاسات والاتصال ، ثم يكتمل الفحص بمحادثة مع الأسرة .

ـ ثمة فحوص متمّمة يمكنها أن تكون ضرورية : فحص عام حركي أو لفظي ، واختبارات سيكولوجية أو بيداغوجية ، وقياس السمع ، وصورة الدماغ الكهربائية ، واستقصاء قضائي ، ومحادثات عديدة ، إلخ .

وعندما يتمّ الفحص العام الكامل ، يكون النطق بتشخيص المرض وإنذاره ممكناً . فإذا كانت الاضطرابات سطحية وعابرة ، فإن بعض النصائح البسيطة ، أو وصفة من الأدوية ، قد تكون كافية . وإذا كانت الاضطرابات عميقة ودائمة ، فإن شتى المنظورات العلاجية تكون عندئذ موضع نظر : علاج طبي ، علاج نفسي ، تربية معادة ، وضع طويل المدة في مؤسسة . وقد بيّن الفحص العام ، القائم على استشارة واحدة أو استشارتين ، أنه غير كاف . ويكون موضع النظر عادةً أن يُعهد الطفل إلى دائرة للملاحظة خلال زمن طويل على وجه التقريب (ملاحظة في وسط مشفى ، وضع في مركز للملاحظة في وسط مفتوح مع فريق طبي نفسي واجتماعي ، مركز استقبال وفرز ، إلخ) .

ثانيا ـ تحليل الأطفال غير المتكيفين

يبين لنا ، من خلال هذه الوسائل المختلفة في الكشف ، أن المشرّعين ، وإداريي المراكز أو المسؤولين على المستوى القومي أو على مستوى المناطق ، استعادوا مشكل الضعف العقلي . والمقصود على وجه الخصوص ضرب من المقاربة الشكلية ، والقانونية ، والشرعية ، والذرائعية ، للضعف العقلي بغية تزويد المجتمع بوسائل دفاعه الخاص . ويفضي الأمر على هذا النحو إلى ضرب من عزل الضعف العقلي وإضفاء الموضوعية عليه ، يكون التعبير عنهما في الواقع بقاء المصاب بالضعف العقلي في ضعفه العقلي ، لأن المصاب بالضعف العقلي ليس لديه ما يقوله كما يظنّ بعضهم : ومن هنا منشأ كثرة الوصايات ، كثرة غير مألوفة ، والحراسة والرقابة ، والمؤسسات ، التي تتكلم وتتصرف بدلاً من المصاب بالضعف العقلي ، ويؤول بها الأمر إلى عدم الاعتراف بأن للمصاب بالضعف العقلي لغته في صمته وله ذاتيته الخاصة التي يبسط انطلاقاً منها معنى

إعاقته ومرضه . وتكشف الترسانة القانونية الإدارية ، الخاصة بالأطفال غير المتكيّفين ، عن أن المؤسسة تبقي المصاب بالضعف العقلي في صمته بفعل إضفاء الفئوية المغالية وبفعل هوسها في التصنيف ؛ ومن هنا ينشأ عجزه عن أن يلتمس العون لا من نفسه ولا من الغير ، وعجزه عن أن يدعو عالمه . وتاريخه سلسلة من البطاقات وضروب الرقابة على أفعاله وحركاته ، وسلسلة من الرصاتة الطبية والبيداغوجية . إن « المصاب بالضعف العقلي ، واضطراب السلوك ، والمعتوه ، والمتخلّف العقلي » يخنق المجتمع إمكاناتهم العلائقية دون علم منه . وذلك هو بعد من أبعاد مؤسسة المصاب بالضعف العقلي والطفولة غير المتكيفة بصورة عامة .

آ ـ ضياع مصنوع بمهارة

ثمة ضياع أكثر براعة (ذلك أنه يتّخذ صورة الحقيقة والمعرفة الطبية) يضغط بثقله على عدم التكيّف وعلى الضعف العقلي ضغطاً دائماً ، ولكنه كان يضغط على وجه الخصوص في القرون السابقة : هذه القرون ، قرون النور العقلاني والفكري (النهضة حتى القرن التاسع عشر) التي لم تستطع أن تواجه الضعف العقلي لأنه كان يمثّل الآخر وانعدام المعنى اللاعقلاني ، ولأن الجنون كان ، كالجسم ، غير مفهوم ، ولااعتبار له ولا دراية به . ولكن القرن التاسع عشر سيعوّض هذا الحكم على قابليات الضعف العقلي باضفاء المفهومات العقلانية على جميع اضطرابات الجنون والضعف العقلي بواسطة علم الطب والطب النفسي . ونحيل القارىء هنا ، من أجل عرض مفصّل لموضوع الضعف العقلي ، إلى الأعمال الرائعة التي أنجزها فوكول وجاك لاكان ومود مانوني ، وإلى أعمال بانسفنغر في بعض الحدود ، حول تاريخ الجنون ومعناه . فبحوثهم التحليلية ، واللغوية ، والوجودية ، تحاول أن تعيد الفرد إلى عرشه ، هناك حيث يمكنه أن يقول لنا شيئاً من الأشياء ، أي أن نضعه في مواجهة « كلامه ، إذ يحدّد ضرباً من الحقيقة الخافية عليه والمحجوبة عنه ، أو التي لا تنتمي إليه » . إن المصاب بالضعف العقلي مجرّد على هذا النحو من ذاته ، إذ يتخلّى الطبيب عن دوره الطبي لكي ينصب نفسه ، انطلاقاً من علمه ، منظّماً لهذا السجن الحقيقي الذي

كانت عليه ، ولا تزال جزئياً ، مشافي الطب النفسي أو معاهد التربية المعادة . وليس مطروحاً هنا على بساط البحث أن نضع موضع الاتهام إخلاص الجهاز الطبي وكفايته وإرادته الطبية ، بل ربما نطرح على بساط البحث أن نكشف عن الدور المضبوط الذي قام الأطباء به تجاه التخلّف العقلي ، وأي بنيات استشفائية وبيداغوجية واجتماعية أقاموها دون أن يكونوا على درجة كبيرة من الوعي ، بحيث أفضى ذلك إلى صور مموهّة من الجهل والقمع أكثر مما أفضى الى معنى ضربٍ من العلاج يعطي الكلام للمتخلف ولضعفه العقلي : ومن المناسب أن نكتشف اتجاه العلاقة بين المريض والطبيب[1] في سيرورة علاجية على نحو حقيقي أكثر من أن نقمع الضعف العقلي ونجعل منه قضية مزعومٌ أنها علمية . إن الأطباء بدؤوا حالياً ينفتحون على سيكولوجيا الضعف العقلي ، بفعل التحليل النفسي والبحث البيداغوجي ، ولكنهم يستندون في تشخيصاتهم إلى سيكولوجيا تجريبية وإحصائية أكثر من استنادهم الى سيكولوجيا الأعماق أو إلى سيكولوجيا أساسية .

ب - القمع والتكنوقراطية

استخدام الروائز ، ومستويات العمر العقلي ، وحاصلات الذكاء ، هي ، مرة أخرى أيضاً ، طريقة في منتهى الالتباس لأنها تقوم إجمالاً على منح الطبيب وسائل تقنية أكثر دقة وعقلانية تساهم أيضاً في جعل المصاب بالضعف العقلي ذلك الموجود في الحضيض ، تحت المتوسط ، وذلك الذي ليست لديه هذه القدرة ، أو تلك القابلية ، أو ذاك المستوى من النمو العقلي ، والجسمي ، والحركي ، واللفظي ، إلخ . ومهما كان هذا الإسناد المستمر ، إسناد الجهاز الطبي ، إلى علم النفس الاختباري والتجريبي الأكثر اتصافاً بالتقنية والعلمية ، فانه مع ذلك لا يجعلنا أكثر فهماً لتاريخ الطفل ومرضه ، بفعل فحص عام سلبي دائماً على وجه التقريب . فمفهومات عملية النضج ، ومستويات النمو والنضج المعنوي والجسمي ، غير جديرة بأن تجعل مشكل الضعف العقلي مفهوماً[2] . ولا بدّ من

---

(1) انظر : علاقة الطبيب والمريض ، الفصل الثالث ، الباب الرابع من هذا الكتاب ، وانظر : علاقة المعلم والتلاميذ ، الفصل الثاني ، الباب الأول من هذا الكتاب .

(2) انظر : العودة إلى فرويد ، الفصل الثالث ، الباب الثاني من هذا الكتاب .

التنديد بالتواطؤ الغريب ، تواطؤ بعض الأطباء وبعض علماء النفس ، لأن علم النفس التجريبي ، في ممارسته الاجتماعية واليومية ، يقدّم إلى الطبيب وسائل حديثة وتكنوقراطية لصورة جديدة من ضياع المصابين بالتخلّف العقلي : إنه فحص عام هزيل بالنسبة لهذا القطاع من الفاعلية الطبية التي تلاقي كثيراً من الاعتبار حالياً .

ولكنه على وجه الخصوص موت سيكولوجيا المصابين بالضعف العقلي بسبب اقتصار بعض من علماء النفس على إجراء الروائز ، ووضع مستويات للعمر العقلي ، وتقديم فحص عام سيكولوجي هزيل وشميلات (*) عقيمة إلى مؤسسة التربية المعادة . فوظيفة عالم النفس في المؤسسات الخاصة بالأطفال غير المتكيفين ينبغي لها أن تكون ذات معنى أساسي ودائم - لا يقتصر على مسّ سيكولوجي لكل شيء ، ولكنه يذكّر الأطباء والمربين ، وجميع أولئك الذين يدورون حول المؤسسة وفي فلكها ، تذكيراً مستمراً أن المصاب بالضعف العقلي ليس موضوعاً من موضوعات التجربة والمعرفة الطبية أو البيداغوجية ، وانما له كلام وحقيقة خاصة ، في الظفر العسير بهما يكمن الهدف الطبي والعلاجي الوحيد .

ثالثاً - استيهامات الأم (* *) والطفل المصاب بالضعف العقلي عند الولادة

أ - مرض مشؤوم

وضع المصاب بالضعف العقلي مقيّد دفعة واحدة بما يُسمى الصفة العضوية لمرضه ، وعلى وجه الخصوص بالنسبة للأطفال المصابين بالتخلّف العقلي ذوي

(*) شميلة : عرض تأليفي شامل لعناصر موضوع من الموضوعات «م» .

(* *) الاستيهام مجموعة من الصور أو «سيناريو متخيل يتصف الفرد فيه بأنه حاضر بصفته ممثلاً أو مشاهداً ، ويمثل السيناريو ، على نحو تشوهه السيرورات الدفاعية على وجه التقريب ، رغبة من الرغبات ، ورغبة لاشعورية في نهاية المطاف» « م» . (معجم علم النفس ، لابلانش وبونتاليس ، مذكور في معجم علم النفس ، من الألف من الياء) «م» .

الإصابة الخطيرة أو المنغوليين (*) . هذا السبب للضعف العقلي ، الذي يفرضه بعضهم بأنه عضوي وتكويني ، يضفي طابعه ، طابع العضال والشؤم على المرض : فالجهاز الطبي يعلن أن الطفل غير قابل للشفاء ، والتشخيص نهائي على الغالب ، ولو أن أم الطفل المصاب تمضي من عيادة إلى أخرى أملاً في وضع التشخيص المعروض بصورة نهائية موضع الاتهام . ويعاني الطفل إذن ، منذ المهد ، قدره إذ يصبح متردّداً على العيادات الطبية ، وعلى العيادات النفسية البيداغوجية فيما بعد . ومنذئذ تُرسم حياته دون أن يكون ممكناً أن توضع صفة الضعف العقلي أبداً موضع التساؤل مرة أخرى . بل إن حياته ، على العكس ، موسومة بفعل مختلف التشخيصات وقياس مستوى النمو العقلي ، وكل ما بوسع المؤسسة أن تبذله بسخاء في الحياة اللاحقة للمصاب ليس بوسعه إلا أن يؤكد خاصة الضعف ، تلك الخاصة شبه السكونية والنهائية . ومع ذلك يطرح السؤال الأساسي نفسه ، سؤال مفاده هل يؤدي السبب العضوي إلى الضعف العقلي ، أليس الضعف العقلي بالحري نتيجة لتاريخ الطفل الذي نبقيه في الضعف العقلي ؟

وتنزع البحوث الحديثة حول المتخيّل إلى أن تبيّن أن هذا المتخيل ناجم عن تكامل متبادل ، تكامل الجسم واللغة : إنه غير ذي محور . ويشير الارتقاء إلى الكلام واللغة ، لدى الطفل ، إلى تعذّر العودة إلى الجسم وإلى جسم الأم[1] على وجه الخصوص بوصفه محل الأمن والاستقرار . وتحمي اللغة من العودة الممكنة دائماً إلى أشكال من الحياة الجسمية ، خاصةٍ في الأشهر الأولى من نمو الرضيع . والحال أن الجانب الأساسي الذي يؤكده علماء النفس والأطباء لدى المصاب بالضعف العقلي هو ، على وجه الدقة ، هذا الغياب ، غياب اللغة ، وهذا الارتباط بجسم الأم الذي لا يمكنه الخروج منه ليولد ويوجد بوصفه ذاتية . وهذا

(*) المنغولية بلاهة خلقية تصيب الطفل منذ ولادته بانحراف العينين وتسطح الجمجمة «م» .

(١) انظر : فصل «العودة إلى فرويد» في هذا الكتاب .

التحليل صحيح جزئياً فيما يخص منشأ ضروب الذُهان لدى الطفل . ويبقى إذن أن نعرف السبب في أن الطفل المصاب بالضعف العقلي لا يرقى إلى اللغة ، وأن نعرف إن كان جسم الأم عاملاً أساسياً في الضعف العقلي . ومن المناسب أن نعرف إن كانت بعض البنيات العلائقية ، في علاقة الأم بالطفل المصاب بالضعف العقلي ، موجودة في التكوّن ذاته من الضعف العقلي .

ب ـ استيهامات الأم

يقع المتخيّل الأول في رأي لاكان ، ويتّخذ موضعاً ، في الاستيهامات الأولى ، أي في هذه اللغة الجسمية الناجمة عن الرغبات إزاء الأم . وتكوّن الاستيهامات نواة المعنى الأولى وبنية السلوك الإنساني العميقة ، وعلى وجه الخصوص تكوّن المتخيل الذي يتصف بأنه نمط أساسي للوجود لدى المصاب بالضعف العقلي . هذا النمط من أنماط الوجود بواسطة المتخيل يُدخل صيغة من الوجود سلبية وموضوع معاناة ، صيغة تتّخذ ، إذا ظلّت كما هو الشأن لدى المصاب بالضعف العقلي ، صورة ضرب من الغلّ وضرب من تعذّر الارتقاء إلى اللغة وإلى الذاتية ، تعذّر جذري . وذلك ما بوسعنا تسميته ، بصورة إجمالية ، الحتمية السيكولوجية للطفولة الغضّة . والحال أن لاكان ومانّوني يكشفان عن أن عالم المتخيّل غير ممكن إبعاده ولا رفع التصلّب عنه إلا بكلام الآخر ، وكلام الآخر غير ممكن إلا بكلام الأبوين[٤] بالنسبة للطفل ، وبكلام الأب على وجه الخصوص ، أو بكلام المحلّل في إطار ضرب من العلاج . وهذا الكلام هو الإمكان الوحيد المتاح لطفل صغير للارتقاء الى كلامه ، إلى كلامه الخاص به هو . والحال ، لدى الطفل المصاب بالضعف العقلي ، أن لاشيء ولا شخص يتكلم إلى الطفل ، وعالم المصاب بالضعف العقلي عالم لا وجود للآخر فيه . ويترتّب على ذلك أنه ليس بوسعه أن يرقى إلى كلامه الخاص . ذلك أن الاستيهامات ، مصدر الضعف العقلي ، حدّ أكثر مما هي إمكان . وإذا كانت

---

(٤) انظر فصل : «اللاشعور والبنيات الأسرية» في هذا الكتاب .

هذه الاستيهامات عوامل الضعف العقلي ، فان من جهة الأم إذن ، الأم التي هي محل في منتهى الدلالة ، حيث تنمو الاستيهامات الأولى ، إنما ينبغي إظهار كلام الآخر .

وكل أمل في تحسن الضعف العقلي ، وفي شفائه الجزئي ، يفترض أن تضع موضع التساؤل مجدّداً دور الأم ، أم المصاب بالضعف العقلي ، في تبنين ولدها سيكولوجياً : فعلينا أن نبحث عن مصير الضعف العقلي في أدوار الأبوين التي يُناط بها التاريخ الأسطوري للطفل المصاب بالضعف العقلي ، أكثر مما ينبغي لنا أن نبحث عنه في الصفة العضوية لمرضه . ويدخل هذا المصير في أسطورة الأسرة مع المكان الذي يعيّنه الأبوان والمجتمع للمصاب بالضعف العقلي . فضرب من العلاج النفسي هو القادر وحده على إخراج الرضيع من الأسطورة الأسرية والاجتماعية المقيِّد بها ليجعله يرتقي إلى تاريخه الخاص . وسيكون الطبيب النفسي المعالج ، على وجه الدقة ، هذا الآخر الذي سيبعث كلامه كلام المصاب بالضعف العقلي ، وسيكون هو هذا الموجود القائم بالوساطة الذي سيقطع العلاقة الثنائية ، علاقة الأم بالطفل المصاب بالضعف العقلي ، وتلك وساطة أساسية ما دام الارتقاء إلى الكلام الشخصي وإلى اللغة منعدم بدونها .

ويحطّم الطبيب النفسي المعالج ، إذ يحرّر الاستيهامات الأمومية الطّفالية ، ذلك الطابع الحتمي للمرض ، لينظر إلى المصاب بالضعف العقلي في ذاتيته وفي كلامه الخاص بوصفه مصاباً بالضعف العقلي : فإعادة التكامل إلى الذات بوصفها علّة قولها ، قول المصاب بالضعف العقلي ، ذلكم ما ينبغي أن يكون عليه منظور في سيكولوجيا الضعف العقلي .

وكون الأم سيدة الموت والحياة على طفلها المصاب بالضعف العقلي ، وعاهة الطفل تمسّها في نرجسيتها ، فإن ثمة فقداناً لكل مَعْلَم من معالم التوحّد : إنه الذعر أمام صورة لذاتها لا يمكنها أن تعترف بها ولا أن تحبها من خلال الطفل .

ولعلاقة الحب ، علاقة الأم ـ الطفل ، في هذه الحالة ، خلفية من حب الموت ، ذلك أن الاندفاعات إلى القتل كامنة هنا ، ولو أن الأم ليست على وعي

بها . وحب الموت ينفيه حب بطولي جليل ، يتنكّر فيه أو يحلّ محلّه : « إنني أم لطفل مصاب بالضعف العقلي » .

وهذا الوضع ، وضع الضعف العقلي ، هو وضع تكون فيه الأم والطفل لا يشكّلان غير شخص واحد ، وهذا هو السبب الذي من أجله كانت الرغبة في الموت بخصوص الطفل مترابطة مع الرغبة اللاشعورية في الانتحار من جانب الأم . فالضعف العقلي تستشعره الأم وكانه قصاص وخطيئة : أما وقد أصيبت في شخصها الخاص وفي حياتها الخاصة ، فإن تشخيص الضعف العقلي لدى الطفل يمهر بإمضائه « توقّف الموت بالنسبة لها » .

إنه توقّف ينجم عنه بحث دائم لدى الطبيب عن النصيحة والعون والسند . وهي ، إذ تلتمس ذلك بإلحاح على الغالب ، « ترفضه مع ذلك بمقدار ما يكون تشخيص الطبيب هو الذي أطلق الإدانة على طفلها وأطلق إدانتها الخاصة بالتالي . وعندئذ تمضي من عيادة إلى عيادة : فعمّ تبحث ؟ أعن الشفاء ؟ متعذّر . هل تبحث عن تشخيص ؟ كان التشخيص قد وُضع مرات كثيرة . أعن حقيقة تبحث ؟ ذلك أمر لا يمكنه أن يعنيها ما دامت هي وحدها التي لديها معنى الضعف العقلي . والطبيب ، عندئذ ، هو الشاهد على هذا البحث عن الأمن ، وعن الحصر في الوقت نفسه »[٥] .

جـ ـ غياب الآخر

وكون الرضيع ليس له لغة بعد هو السبب في أنه لعبة (موضوع رغبة الأم) لغة الغير ، دون أن يكون قادراً على أن يلعب لغته الخاصة . إنه لا يحوز الدّالّ ، وليس بوسعه إلا أن يدخل في نسق الدالّ الأمومي الذي يقع في شباكه بصورة كلية . وقد رأينا أن هذا الدالّ لدى المصاب بالضعف العقلي لم تكن الأم قد طرحته قطّ إلا انطلاقاً من الضعف العقلي لطفلها . فالأم لا تطرح طفلها بوصفه آخر ، إنه لا ينفصل عنها : إنه يظلّ دائماً في إمكانات الوضع الراهن وحدها أو

---

(٥) «الطفل المتخلف وأمه» ، مودمانوني .

إمكانات التراجع بحيث أنه لا يرتقي إلى اللغة . ولن يكون لدى المصاب بالضعف العقلي لغة الآخر المودعة لديه ، لغة هي الرحم لكل إمكان اللغة الشخصية ، ولن يكون لديه السيادة على العلامة أبداً والمهارة لمتابعة الدراسة . يضاف إلى هذا أن كلام الشخص الثالث ، كلام الأب عادةً ، ليس بوسعه أن يشيد إمكاناً لدى الطفل المصاب بالضعف العقلي لوجود « أنا » و « أنت » اللغويتين . ولن يكون ثمة انفصال لاثنينية الأم ـ الطفل المصاب بالضعف العقلي للتعبير عن هذه العلاقة ، لأن الأب ليس بوسعه أن يشيد هذا الإمكان . وسيكون بالتالي متعذّراً عليه ، بسبب غياب الأب ، أن يجعل نفسه حاضراً ، وأن يرتقي إلى الدالّ ، دالّ هو ميزة نمو الطفل « السوي » وخاصة إنسانية للإنسان بصورة نموذجية . والطفل المصاب بالضعف العقلي ، بوصفه لا يرتقي الى الدالّ ، لن يرتقي أيضاً إلى الوضع الأوديبي المتّسم بأنه المرحلة الأساسية لتكوين الشخصية في رأي فرويد[٦] .

رابعاً ـ العلاج النفسي للمصابين بالضعف العقلي العميق

آ ـ جوول

والطفل المعوّق عقلياً ، إذ تحكم عليه المؤسسة ، وكذلك أبواه ، بأن لا يكون غير مصاب بالضعف العقلي ، يصطدم برفض لاشعوري معمّم . ومصدر هذا الرفض ينشأ من الرفض الأولي للأم التي لا تقبل إمكان علاج نفسي ، ذلك أنها لا تقبل أن يتدخّل شخص من الأشخاص بينها وبين طفلها ، حتى ولا الأب ما دام مستبعداً من الحوار . وتذكر مود مانّوني مثال جوول :

« جوول بنت صغيرة جميلة عمرها ٨ سنوات ، حكم عليها ثلاثة من الأساتذة عند ولادتها : إنها منغولية ، وليس ثمة أمل في أن تمشي » .

---

(٦) انظر فصل «النمو الوجداني لدى الطفل» في هذا الكتاب .

« في السنة الثانية والنصف من عمرها ، كانت موضع عناية اختصاصي ألماني صرّح بأن ثمة سبع فقرات متوقّفة عن العمل في عنق الطفلة . وتمشي الطفلة بعد بضعة أيام وتختفي عرّاتها . ثم تبدأ بالنسبة للأم معركة التربية : هذه الطفلة التي تدين لها بأنها ليست عاجزة عجزاً كلياً ، تريدها ، من الآن فصاعداً ، أن تكون متعلّمة . ولكن السياق الرهابي يفرض أن جوول ضائعة دون أمها . فهل الأمر كذلك تماماً ؟ فحصتُ الطفلة دون حضور أمها ، وعلى الرغم من معارضة هذه الأم . ماذا سيحدث ؟ » ثمة اضطراب تسيطر عليه الطفلة (اضطراب يتجلّى بضروب شتى من الاضطرابات الجسدية) ، ولكن ثمة ذعراً من جانب الأم التي فاجأتنا ثلاث مرات بدخولها المكتب لترى هل جوول لا تزال هناك (أي لترى هل جوول لا تزال حية) . ثم تضيف مود مانوني : « ففي حالات مماثلة ، تكون محاولات العلاج النفسي مرفوضة بصورة عامة ، لأن الأم لا يمكنها أن تقبل إلا بصعوبة تطفّل شخص ثالث : ولا بدّ للطفل من أن يفلت على وجه التقريب من قانون الأب ، فالأم وحدها هي التي ستعيّن مكانه . وسيستمر الطواف على الأطباء : ولكن المقصود في هذه المرة ، ولا أكثر ، أن يوجد سبب عضوي يمكنه أن يكون موضع علاج »(٧) .

وهذه العرقلة للعلاج النفسي من جانب الأم تتحقّق أيضاً بصورة أخرى : رفض إرسال الطفل إلى مؤسسة متخصّصة ، وتشدّد الأبوين وعدوانيتهما إزاء الأطباء والمربين ، وخوف الأبوين من « التأثير » الذي قد يحدثه المربون في الطفل المصاب بالضعف العقلي(٨) ، والاستبسال الذي تبديه جمعيات الآباء في مراقبة مؤسسات التربية المعادة ، إلخ .

---

(٧) «الطفل المتخلف وأمه » مودمانوني ، ص ٢١ . (المرء يمكنه غالباً أن يلاحظ أن المرضى النفسيين أو أقاربهم يبحثون دائماً عن سبب عضوي لمرضهم . إنه سبب وهمي في غالب الأوقات) .

(٨) أشار إلى هذه الواقعة كثير من المربين . فالآباء لايقبلون أن يحل المربون محلهم .

ب ـ الطفل عَرَض الأم المرضي

سيعرقل الآباء ، في معظم الأوقات ، إمكان علاج نفسي بحجج شتى : إنهم لا يأتون لاستشارة الطبيب إلا ليطمئنوا ، ولا يرغبون في معلومات إلا عن التأخر النفسي والعقلي وحده ، رافضين الدنوّ السيكولوجي من الضعف العقلي على الأغلب . وبعبارة أخرى ، إنهم يأتون باحثين عن معلومات من النوع الطبي والسيكولوجي تؤكد ، بتشخيص أو بحاصل الذكاء ، خاصة عدم الشفاء التي يتصف بها الضعف العقلي . إنهم يرفضون أن يضعوا أنفسهم موضع الاتهام ، ولا يرضون لهذا السبب أن (يحرّكوا) الضعف العقلي لدى أطفالهم . وهذا الرفض يشرحه الدور ، والحصر الذي يجدون أنفسهم أمامه ، شرحاً جزئياً . إنه حصر ناشيء من استيهاماتهم الخاصة التي تعمل بوصفها وسائل دفاع ضد إحساسات الموت وبعض الإحساسات الانتحارية . فالخاصة العصابية لأمهات الطفل المصاب بالضعف العقلي تزيح مشكل الضعف العقلي لدى الطفل صوب حالة الأم : فالأم ، إذ تحقّق عصابها الخاص من خلال الضعف العقلي لطفلها ، تفرض طفلها بمثابة مصاب بالضعف العقلي غير قابل للشفاء[٩] . والطفل سيحميها عندئذ وسيكون عَرَض مرضها ، ولو أنها تبحث بصورة عامة عن شفائه وتريده . فهذه الخاصة التي تسبّب المرض ، خاصة علاقة الطفل والأم ، تستبعد عندئذ إمكان معالجته وحيداً ، وليس ممكناً علاجاً نفسياً للطفل إلا بموافقة الأم على شفائه الخاص . وبقدر ما يجعل الطبيب من نفسه متواطئاً لاشعورياً على أن المرض غير قابل للشفاء ، بقدر ما يكون جاهلاً أن الأم متورّطة في الضعف العقلي لطفلها . فليس بوسعه إلا أن يحمي نفسه بتشخيص سلبي ذي طابع علمي ، وظيفته السيكولوجية أن يسحب الكلام من الطفل . فهل بوسع الطبيب ،

---

(٩) ذلك يجعلنا نفكر أيضاً بالسيرورة السيكولوجية التي لايطرح فيها الطفل إلا بمثابة عرض لمرض الأم المتصفة بأنها هي ذاتها عرض لمرض آبائها الخاصين : فثمة نسابة للمرض العقلي .

وواجب عليه ، أن يكون له دور آخر ؟ إنه أحد الأسئلة التي سنتناولها بالبحث في الفصل القادم .

والإجراءات الطبية والتربوية لا يمكنها ، إذا بقيت بعيدة عن أي علاج نفسي ، إلا أن تعطي نتائج جزئية جداً ، لا تمسّ الأساس السيكولوجي لمشكل الضعف العقلي . وبوسع العلاج النفسي ، وحده في الواقع ، أن يدرك معنى علاقة الأم والطفل المصاب بالضعف العقلي ، وأن يعدل مكان المصاب بالضعف العقلي ، المعيّن للطفل في الكوكبة الأسرية . وبقدر ما يعطي الكلامُ مجدّداً للطفل المصاب بالضعف العقلي علاجٌ نفسي ، بقدر ما يصل الطفل إلى فكّ الحصار عن حالته ويتكوّن بوصفه أنا . فالصفة العضوية في الضعف العقلي تقوم هنا بدور الذريعة لمعاناة الضعف العقلي بوصفه قدراً . وهي ، من جهة أخرى ، تفترض التصور لضرب من الطبيعة في حالتها النقية ، التي يمثّل الضعف العقلي فيها الخطأ الوراثي الذي تنبني عليه كل الأخطاء الأخرى . وما دام ضرب من العلاج النفسي لم يُعد للمصاب بالضعف العقلي بعده بوصفه ذاتاً ، فإن التربية المعادة توشك أن تكون دون نتيجة . وما دام الطفل المصاب بالضعف العقلي يظلّ طفيلي أمه ، فان ذكاءه وحركيته ، وجسمه ولغته ، لا يمكنها أن تنتمي اليه[١٠] . فالعلاج النفسي يلزم المصاب بالضعف العقلي أن يرتقي إلى الوجود .

(١٠) انظر فصل : «التطور العصبي النفسي للطفل» في هذا الكتاب .

الفصل الثالث

المؤسسة والتربية المعادة

آ - المؤسسة موضع التساؤل

مشروع المجتمع ، ذو العلاقة بالمعنى الذي يطلقه المجتمع على دوره التربوي ، إنما يرتسم بالدور الذي تضطلع به مؤسسات التربية المعادة وبالوظيفة التي تؤديها هذه المؤسسات . والمؤسسات من أجل الطفل غير المتكيّف ، التي كانت أجهزة إحسانية ذات طابع ديني ، أصبحت هيئات هامة ، متبنينة ومنظّمة . وثمة إدارات تهتم بالصحة النفسية والاجتماعية ، مع رجحان لدور الدولة في تصورها وفي تنظيمها ، وكذلك في تحديد الأهداف البيداغوجية والعلاجية ، والوسائل من أجل بلوغها . وإزاء هذا الإضفاء المنهجي ، إضفاء الصفة المؤسسية المنهجي ، كثيرون من الناس ، مربين متخصّصين وأطر مؤسسية ومحلّلين نفسيين وأطباء وعلماء نفس ، يظنون أن المؤسسة في أزمة ، وأن الوسط التربوي من أجل الطفولة غير المتكيّفة يعاني نقصاً في الوسائل ، وبخاصة في المنظورات العلاجية بصورة صحيحة . ومن هنا منشأ نزاع متنام[1] بين المسؤولين عن المؤسسة وأصحاب السلطان فيها وبين القاعدة المؤلفة من أولئك الذين هم على علاقة دائمة مع الأطفال غير المتكيفين ، بعملهم الطبي والسيكولوجي والبيداغوجي . فثمة شاشة بين عالم الأطفال غير المتكيفين وإطارهم الهامشي (علماء ومربين) وبين المجتمع الحامي والذي يحمي نفسه . وذلك يفضي إلى

(١) نزاع تجلى في مؤسسة من المؤسسات الطبية التربوية في بوغر (أردش) حيث كانت مديرة المؤسسة وزوجها قد طردا .

مدلول واقعي يعاكس الأهداف العلاجية والبيداغوجية التي تقتضيها الطفولة غير المتكيفة . . . ذلكم هو المشكل كله ، مشكل التوتر بين المؤسسات التي ترمي إلى الاندماج وبين الهامشية المرضية .

ب ـ اجتماع فرساي(٢)

يتساءل المربون المتخصّصون من ٤٩ أمة عن موقفهم من المجتمع . فمجموع الأحداث غير المتكيفين اجتماعياً ، في فرنسا (١٢ بالمئة من إجمالي السكان) ، أعلى من مجموع ضحايا الكوارث الاجتماعية كلها (التدرّن الرئوي ، والسرطان ، وإدمان الكحول ، وحوادث الطريق) . ومهنة المربي المتخصص في تطور . لقد كان المربون الأوائل ، في غالبيتهم ، يتصورون عملهم على أنه مهنة رسولية من الإخلاص للغير : كانوا يريدون أن « يكيّفوا » الأحداث ، الذين كانوا في عهدتهم ، مع مجتمع يقبلون قيمه . ويبدو ، منذ بضع سنين ، أن المربين في البلدان المتطورة ، بما فيها الولايات المتحدة ، يجتازون أزمة إذ أصبحوا لا يقبلون أن يكونوا « كلاب حراسة » ، وفق عبارة أحدهم . إنهم لا يستشعرون دائماً ضرورة ردّ الأطفال غير المتكيفين إلى قيم المجتمع الحالي . فهل ينبغي للمربي أن يكون المتواطىء مع فرد غير اجتماعي أو مع مجتمع ليس دائماً على وفاق معه ؟ وهل عليه ، لكي نتناول مجدّداً مثالاً مضروباً ، أن يعتاد على المخدّرات أم أن يندّد بأولئك الذين يتعاطونه من الأحداث الذين هم في عهدته ؟ ويودّ المؤتمر السابع أن يعرّف المربي المتخصّص بوصفه وسيطاً يؤثّر على الطفل ، ولكنه يؤثر أيضاً على كل ما يمكنه أن يسبّب الضرر في المحيط : التربية ، وتنظيم المدينة ، والوسط الأسري . إنه يجعل موقع عمله بين الطفل والمجتمع ، عمل ينبغي له أن يحترم كليهما . فليس المربي المتخصص بحصر المعنى مدرساً ، ولا عاملاً اجتماعياً ، ولا باعث الحياة في أوقات الفراغ ، ولا معالجاً : إن له بعض الارتباط بهذه الوظائف جميعها في الوقت نفسه . وهذا التعدّد في الأدوار التباس آخر من التباساته . فهل بوسعنا عندئذ أن نتصور المربي المتخصص أنه قطب فريق يضمّ

---

(٢) المؤتمر السابع لمربي الفتيان غير المتكيفين ، ٦ ـ ١٠ تموز ١٩٧٠ ، فرساي .

أساتذة وعلماء نفس ومساعدين اجتماعيين ؟ إنه سؤال من الأسئلة التي ينبغي للجان أن تجيب عنها خلال أعمالها . أطفولة غير متكيفة ؟ ثمة مسألتان حديثتان ، مسألة أب أوجز الآلام التي تعانيها ابنته وهي معوق جسمياً وعقلياً ، ومسألة قاصر مسؤول عن خطف قاصر آخر وقتله ، نعلن عنهما للتذكير بخطورة هذا المشكل وحاليته(٣) . وهذا المقال الذي يعرض أعمال المربين المتخصصين يطرح عدة مشكلات :

ـ النقص في عدد المربين المتخصصين لمواجهة الحاجات المتزايدة الناجمة عن ازدياد عدد غير المتكيفين .

ـ رفض المربين أن يربطوا هدفهم بالأهداف التي تمّ تبليغهم إياها رسمياً ، وتعكس معايير المجتمع .

ـ وضعهم المتأزم وهامشية مهنتهم .

ـ تصور مهنتهم تصوراً جديداً يجعل منهم منشّطي الفريق البيداغوجي والعلاجي كله .

أولاً ـ العلاقة البيداغوجية والتربوية

وعندما يتمّ كشف الطفل غير المتكيف ويوضع موضع الملاحظة ، يُوجّه ، وفق التشخيصات وخطورة حالته والطرائق التربوية والعلاجية الموصى بها ، إلى مراكز متخصصة تتكفّل بالطفل غير المتكيف إما بقبوله مقيماً داخل المؤسسة أو خارجها ، وإما في وسط مفتوح أو مغلق . إنه إذن مفصول عن أسرته ومعهود به إلى مؤسسة يقع على عاتقها مهمة رباعية :

ـ السهر على التطور الطبي وتأمين الرقابة الصحية للطفل بالعلاجات والاستشارات المتكرّرة قليلاً أو كثيراً حسب الضرورة .

---

(٣) مقال في صحيفة «العلم» ، ٨ تموز ١٩٧٠ .

ـ السهر على التطور النفسي برقابة طبية نفسية تتمّ بصورة دورية ، مع إمكان علاج نفسي في بعض الأحيان .

ـ رقابة تطور السلوك والنمو النفسي الحركي واللفظي ، رقابة يقوم بها عالم النفس المكلّف بمتابعة الطفل بواسطة المحادثات السيكولوجية ، وتقييم ضروب التقدّم لدى الطفل أو ركوده بواسطة الروائز .

ـ رقابة منتظمة لسلوك الطفل وارتكاساته في حياته اليومية ، يؤمنها المربون المتخصصون ، وجهاز المؤسسة ، وتُعرض بمناسبة جلسات « العرض الشامل » الدورية التي تُناقش فيها حالة الطفل مناقشة يقوم بها الفريق بهدف الإشراف على الوضع بمجمله ، واستخلاص المنظورات البيداغوجية العلاجية التي تُقدّم في فترة معينة من تطوره .

والمؤسسات المتخصصة تنتمي إلى فئتين كبيرتين بحسب حاجة الطفل أو عدم حاجاته إلى الاجراءات الطبية والبيداغوجية المتخصصة وعلى مدى طويل :

آ ـ الأطفال خارج المؤسسة

١ ـ الطفل الذي لا يحتاج إلا إلى رقابة دورية ، يمكنه أن يبقى في إطار الحياة الأسرية إذ يذهب للاستشارة ويتلقّى النصائح . وثمة أيضاً تعليمات طبية وبيداغوجية كلما كان الطفل في غير حاجة الى فصله عن وسطه الأسري . ويمكن توجيهه أيضاً إلى أسرة أخرى ، وأن يُعهد به إلى آباء آخرين أو أصدقاء . وإذا كانت المسألة مقصورة على صعوبات مدرسية ، وُجّه الطفل إلى صفوف الاستكمال حيث الطرائق التربوية والبيداغوجية أكثر قدرة على تطوير الطفل من الصفوف ذات الطرائق البيداغوجية التقليدية . وسيكون على هذا النحو مع أطفال أسوياء ، أو سيكون على سبيل الحصر في صفوف إعادة التكيّف أو صفوف الاستدراك . ويمكنه أن يكون أخيراً في مدرسة داخلية سوية أو في مدرسة مهنية داخلية سوية شريطة أن يتابعه بعض المعلمين .

ـ ويمكن أيضاً أن يبقى الطفل ، الذي يحتاج إلى رقابة دائمة ومتخصصة بوضوح ، في وسطه الطبيعي والمدرسي :

ومع ذلك يتلقّى الطفل علاجات دورية ، تسمى « العلاجات المتنقلة » ، في كنف مركز طبي نفسي بيداغوجي ، على سبيل المثال ، يتيح تحقيق علاجات مناسبة : العلاجات النفسية المحتملة والتربية المعادة المتخصصة . وقد يكون من المناسب علاج في مراكز الملاحظات ذات الهدف العلاجي أو في إدارة للوقاية أو الكشف . وأخيراً ، ثمة بعض الأطفال الذين لديهم ، منذ بعض الوقت ، إمكانية تلقّي التربية المعادة في وسط مفتوح وطبيعي ضمن جماعات أو زمر من الأطفال أو المراهقين بواسطة بعض الفرقاء من المربين المتخصصين يسمون فرقاء الوقاية . ويُستخدم هذا النموذج من العلاج والتربية المعادة ، على وجه الخصوص ، لحالات الانحراف والتشرّد والهرب ، وللمخدرات الآن .

٣ ـ وفيما يخصّ المصابين بالعاهات العقلية الكبيرة ، اتُّخذت إجراءات بيداغوجية وطبية نفسية في مدرسة داخلية متخصصة ، أي في المعهد الطبي المهني أو في المعهد الطبي البيداغوجي . والمقصود بهؤلاء أطفال جرى التقدير بصورة عامة أن تربيتهم غير ممكنة ، وأنهم بمعزل عن كل إمكان للعلاج (سقهاء ، أو معتوهون عتهاً كبيراً ، أو مصابون بالتخلّف العقلي العميق ، إلخ) . وقد يكون المقصود أيضاً أولئك الذين حاولوا التربية المعادة مدة سنتين أو ثلاث ، ولكنهم أثبتوا أن تربيتهم غير ممكنة (شبه الذين يمكن تربيتهم ، أو المصابون بالضعف العقلي ، أو المصابون بالتهاب العضلات التطوري ، الخ).ونجد أخيراً ، في هذه المنشآت ، معوقين إعاقة عقلية تزدوج بمرض نفسي أو عصبي مزمن ، كالمصابين بالصرع والعصابيين أو المصابين باختلال عقلي ، الذين يبدو عسيراً بالنسبة لهم مباشرة علاج دينامي .

ب ـ الفاعليات في معهد طبي بيداغوجي

مستوى الأطفال الذين يرتادون المعاهد الطبية البيداغوجية تقع حوالي ٥٠ ـ ٥٥ في حاصل الذكاء ، وأقل من ذلك حتى أدنى المستويات ، باستثناء المصابين بهياج كبير الذين لا يمكنهم أن يتكيّفوا مع معايير الجماعة ومع المؤسسة . وبوسع هؤلاء الأطفال أن يكونوا داخليين ، أو نصف داخليين تأخذهم أسرهم كل مساء . وينشغل الأطفال بأربعة ضروب من الفاعليات التي تمثّل طرائق

التربية المعادة المنظورة وأهدافها :

ـ تربية نفسية حركية : وتتألف من التربية على الحركة ، وعلى السير الوظائفي للجسم ، وعلى احتياز الشعور بالجسم المعاش[٤] على وجه الخصوص . ومن الضروري تعليم الأطفال أن يبنينوا صورتهم الجسمية وأن يتوجّهوا زمانياً ومكانياً . والتوجّه في المكان يشتمل على كثير من التمرينات ، كالقفز ، والسير ، والرقص لاكتساب الايقاع . والمقصود ، بالنسبة للزمان ، احتياز الشعور بالديمومة ، ولكن ذلك أكثر اتصافاً بأنه عسير الاكتساب . وثمة تربية حسية (الرؤية ، والتصنيف ، والعدد ، الخ ، واللمس : اتصال بالمادة ، الخ) ، وتربية الايماء (المهارة اليدوية ، ورقابة الحركات ، ودقة الايماء) ، وتحريض الانتباه ، وحثّ الذوق الفني . والتربية النفسية الحركية أصل التربية المعادة ، ذلك أن قوامها جعل الطفل يحتاز الشعور بجسمه وبحركاته ، أي بأناه . وهي ترمي إلى إقامة الصلة بين إدراك الجسم وبين الشعور بالأنا وبالعالم[٥] .

ـ تربية يدوية : ثمة فاعلية كل يوم وفي كل صف بعهدة المربي المتخصص : كتابة الخط ، ورسوم ، وصنع نماذج ، ورسم زيتي ، وصناعة أشياء صغيرة مع التلوين ، واستخدام ألعاب قليلة التعقيد أيضاً ولكنها تربي الوظائف النفسية الحركية . والمقصود بذلك أن نجعل الطفل ، بواسطة العمل واليد ، يصل إلى شعور بجسمه ذي علاقة بالمادة : شعور بامكان استخدام الأشياء ، شعور بالعلاقة بين الغاية والوسيلة ليُنمّي الحذق لدى الأطفال والتعبير والإبداع .

ـ تربية لفظية : ليست المسألة متابعة الدراسة التي يبدو غالباً أنها متعذّرة التحقيق : ثمة محاولة لجعلهم يتعلّمون بعض الكلمات موجّهين العناية إلى اللفظ القاصر في الغالب . ويعلّمونهم العدّ ، والقيام ببعض العمليات البسيطة جداً ولكنها المجردة ، ويقصّون عليهم قصصاً بسيطة جداً بهدف إعطائهم مركز اهتمام

---

(٤) انظر فصل «علم النفس الأساسي» في هذا الكتاب .

(٥) انظر فصل «علم النفس ، حضور ووجود» في هذا الكتاب .

ذي حيوان واحد على سبيل المثال وعمل واحد .

ـ تربية على حياة الجماعة : وهذه التربية عسيرة التحقيق ، ذلك أنه لا وجود للتنشئة الاجتماعية . ومع ذلك ، ثمة إمكان لوجود نشاطات مشتركة ، كالنزهات ، والطواف ، والألعاب الجماعية . ويشعر الأطفال بالصعوبة في أن ينتظموا في جماعة من أجل لعبة تنطوي على قاعدة ، ولهذا السبب فان الألعاب البسيطة تتيح احتياز الشعور بالآخر وتتصف بأنها الرسم الأولي لإدراك العلاقات الاجتماعية .

جـ ـ الأطر التربوية والطبية في المعهد الطبي البيداغوجي

المرء يمكنه ، في غالبية المعاهد الطبية البيداغوجية ، أن يميّز أربع جماعات من الموظفين ، تقوم كل منها بوظائف محدّدة تماماً وفق حاجات المؤسسة ، ووفق عمل كل منها واختصاصها الخاص .

ـ الجماعة التربوية الدائمة التي تضمّ المربين المتخصّصين ، ومربيات رياض الأطفال المتخصصات ، مع المربي الرئيس والمدير ، ويشغل هذه الوظائف حالياً جهاز نسائي على الغالب . إنها جماعة تؤطر الأطفال بصورة دائمة وتجعلهم يقومون بالنشاطات المختلفة والتمرينات البيداغوجية في التربية المعادة . إنها الجماعة الأساسية التي تتصف بأنها على علاقة مستمرة بالأطفال ، تتابعهم في تطورهم ، وهي البديل الأسري في الواقع والنواة التربوية . ولهذا الجهاز حالياً نظام أساسي مهني مع الشرط الحديث الذي ينصّ على نيل دبلوم الدولة بالنسبة للمربين المتخصصين .

ـ جماعة السير الوظائفي والجهاز الإداري : موظفو المكاتب والطاهية هم أولئك الذين يهتمون بالأعمال المادية ، ودون دور تربوي محدّد . وهؤلاء الموظفون يتعاظم اندماجهم بالأعمال التربوية ، ذلك أنهم ، هم أيضاً ، على اتصال بالأطفال ، وعلى وجه الخصوص عندما يكون هؤلاء الأطفال في عمر يخوّلهم مساعدتهم في عملهم ، والمساهمة في صيانة المنزل وسيره الوظائفي المادي .

ـ جماعة العناية : ولهذه الجماعة وضع هامشي ودور ضعيف التحديد . وتشتمل هذه الجماعة على الممرضة ، والمساعدة الاجتماعية ، وعالم النفس ،

والدلّاك الطبي ، والمدرّب على النطق الصحيح ، إلخ . إنهم أناس غير دائمين ، ويقومون بالمعالجات المتخصّصة وفق حاجات طفل معيّن والتعليمات الطبية والبيداغوجية . ويلاحظ مع ذلك أن هؤلاء الموظفين ، الذين كانوا يقومون بمعالجات متخصّصة وفردية ، هم حالياً أكثر اندماجاً على نحو دائم بكل حياة المؤسسة وبمجموع فاعلياتها(٦) .

ـ الجماعة الطبية : وتشتمل غالباً على طبيب مسؤول عن المعهد الطبي البيداغوجي ، ويمكن أن يضمّ إليه مختلف الاختصاصيين : طبيب أطفال ، محلّل نفسي ، طبيب نفسي ، اختصاصي في الأعصاب ، إلخ ، بحسب حاجات المعهد . وللجماعة الطبية في الواقع رقابة التطور الجسمي والنفسي للأطفال ، وبإشرافها وتعليماتها يسير المعهد الطبي البيداغوجي سيره الوظائفي . ويبعدهم ملاكهم ، ملاك الأطباء ، عن المعهد الطبي البيداغوجي ، واتصالاتهم قليلة بالأطفال في غير أوقات الاستشارات الطبية السيكولوجية . ولكن عملاً تعاونياً مع الجماعات الأخرى من الموظفين يلزمهم بحضور أكبر إلى المركز وبجاهزية أكبر .

وهذه الجماعات الأربع تؤلّف القاعدة الطبية البيداغوجية لكل معهد طبي بيداغوجي ، ومهمتها ، وكذلك تكوينها ودرجة مسؤوليتها ، لا تقودها دائماً نحو وحدة العمل والطريقة ، مع أن ضروباً كبيرة من التقدم كانت قد لوحظت في هذا الاتجاه خلال هذه السنين الأخيرة . ومن هنا منشأ النزاعات والتوترات التي ترتبط بأسباب كثيرة .

(٦) عدد علماء النفس والأطباء النفسيين غير كاف .

ثانياً. المربون، وعلماء النفس، والأطباء، والأطباء النفسيون

آ ـ المربي المتخصص

بدأ المربي المتخصص يسكن اللوحة الاجتماعية للأدوار المهنية . وله احترام الرأي العام الذي يشفق عليه لعمله في وسط غير سوي يتصف بهذا القدر من القسوة والمتطلّبات . . . « إن لك فضلاً كبيراً » . . . « إنك تؤدي عملاً عظيماً ولكنه لا بدّ من أن يكون شاقاً » . . . « إنه لأمر مريع أن يعمل المرء على الدوام مع هؤلاء الأطفال المساكين » . . . « إنه عمل لا بد من أن يكون مرهقاً ، ولكنه مثير للاهتمام » : تلك هي ردود الفعل التي يسمعها المرء غالباً . وعامة الناس يضفون المجد والإعجاب على المربي المتخصص .

وليس المربي المتخصص مع ذلك مطمئناً إلى أنه يؤدي « عملاً جيداً » ، ذلك أنه موجود في الوسط ذاته من هُدب من السكان موضوعه موضوع « اللاسوي » و « المرضي » و « الهامشي » . إنه يفهم دوره التربوي قرب الأطفال غير المتكيفين ، ولكنه يجد نفسه في عمله أنه في صراع دائم : فهو ، من جهة ، يمثّل المجتمع ، وعليه بهذه الصفة أن يربي ، ويعيد التربية ، ويراقب أفعالاً تُعدّ غير اجتماعية أو معادية للمجتمع ، ويقمعها في بعض الأحيان . إنه هو الذي يقيم العلاقة عندئذ بين المجتمع المسمى سوياً وبين الأطفال غير الأسوياء ، فهو وسيط الاندماج الاجتماعي . وهو ، من جهة ثانية ، يحتكّ بدنيا المرض في عالم الأطفال المعوقين الذي يمثّل الهدب الخفي لمجتمع يتصف بأن المرضيّ مستبعد منه . إنه عالم لا قيمة اجتماعية له ، وليس له منظور مهني ولا منظور زواج . وقد تسوّل للمرء نفسه أن يقول في نفسه إن هؤلاء الأطفال سعيدون على هذا النحو ، وليس ثمة أي داع يدعو إلى ان نقودهم صوب مجتمع سيجدون فيه من الصعوبات وضروب الظلم أكثر مما لو ظلّوا في حالتهم . وهذا هو السبب الذي من أجله يرفض المعلم المتخصّص مجد مهنته ، ذلك أنه يحسّ جيداً أنه هامشي ، وبمعزل عن المجتمع كالأطفال الذين يتكفّل بهم . يضاف إلى هذا أن دخله غير مغرٍ : فعمله عمل مفيد ولكنه يشعر بأنه مجرد حارس ، وناظر ، ومراقب دون إمكان

التأثير على أسباب الطفولة غير المتكيفة ، شأنه شأن المعالج على المستوى الذاتي والمساعدة الاجتماعية إزاء الأسرة أو البنيات الاجتماعية .

وعلى حدود الذاتي والاجتماعي ، والسوي والمرضي ، والمؤسسي والمبادرة الحرة ، يتصف المربي المتخصص بأنه على الحياد دائماً ، ملوم لإخفاقه اذا حاول ان يربي (ضروب التقدّم الهزيلة بطيئة) ، وملوم لنجاحه إزاء الأطفال عندما يفكر بأن النجاح الاجتماعي وعدم التكيف متعارضان في مجتمعاتنا العقلانية التي لن يكون أبداً للمعوق فيها مكان حقيقي ، ولو أنه حقّق تقدماً . ولهذا السبب فان المربي المتخصص مستبعد : من المجتمع لأنه هامشي ، ومن الطفولة غير المتكيفة لأنه لا يمكنه أن يتواصل مع العالم . وفي بحثه الدائم عن حلّ لمشكلته ، قد تقتضي المهنة منه أن يعيش هذه الصراعات وهذه التناقضات ، والهامشية لا بدّ من أن تكون نوعيته .

ب ـ الطبيب وعالم النفس وعالم النفس المعالج

طبيب المعهد الطبي البيداغوجي ، شأنه شان الأطباء الآخرين الذين لهم صلة بالطفولة غير المتكيفة ، يجد نفسه دائماً أنه ذلك الذي يتصف بأنه محرّك المؤسسة ، ما دامت السلطة الطبية هي سلطته وحده في نهاية المطاف . فحركات الطبيب وكلامه هما التعبير عن قول يقبل المؤسسة بوصفها كذلك ، ويضفي الفئوية على عدم التكيف انطلاقاً من التشخيص . إنه ذلك الذي يسوس النظام الطبي ، ويعلن عن ضروب التقدّم ويلاحظها ، ويصف العلاجات ، وهو المسؤول أمام المجتمع . والحقيقة أنه الشخصية الأفضل تمكّناً في المؤسسة ، تلك الشخصية التي عنها تنجم وتصدر وظيفة كل فرد فيها ودوره . إنه مطاع ، وكلامه قرارات ، وردود فعله موضع المتابعة باهتمام(٧) . واذا كان ثمة نزاعات ومشكلات ، فهو الأخير القادر على أن يقضي فيها ويحسمها . وتبدو منزلة الطبيب التراتبية في المعهد الطبي البيداغوجي أنها متناقضة على الغالب مع مقتضيات فريق

---

(٧) انظر علاقة المريض والطبيب ، الفصل الثالث من الباب الرابع من هذا الكتاب .

متعدّد الاختصاص ومع مقتضيات الطرائق التربوية . إنه ضرب من كلية الوجود الأسطورية بعض الشيء التي يحترمها من يحيطون به ، بوصفه بعيداً لأنه طبيب وقريباً جداً لأنه المسؤول الوحيد . وهو ، بوصفه ممثّل المؤسسة ، وحارس القانون الطبي ، ووثوقياً في معرفته وقراراته ، يضع مع ذلك حالياً موضع التساؤل جميع هذه الأدوار ، ذلك أنه لا يشعر أبداً بالراحة في دوره ، دور حارس للمؤسسة ، ويحتاز الشعور بأنه ، هو أيضاً ، واقع في تناقضات الهامشي والاجتماعي .

وبالنظر إلى هذا الاحتياز ، احتياز الشعور ، يساعد الطبيبَ حالياً عالمُ النفس المعالج الذي لا تتوافق كثيراً تقنيته وهدف العلاج لديه مع ضرب من إضفاء الصفة المؤسسية على علم النفس العلاجي للأطفال غير المتكيفين(٨) . فعالم النفس المعالج هو الشخصية التي ترفض البطاقات الطبية والطبية النفسية وتريد أن تعطي للمصابين بالضعف العقلي كلامهم الخاص مجدّداً . ولهذا السبب ، تخالف ممارسة عالم النفس المعالج أهداف المؤسسة التي ترمي إلى حبس الطفل غير المتكيف في عدم تكيفه ، وهي ، أي ممارسة عالم النفس المعالج ، في صراع مع الدور الشكلي الموكول إلى الطبيب .

وأخيراً ، يتساءل عالم النفس بصبر لكي يجد مكانه في المعهد الطبي البيداغوجي ، محاولاً أن يقوم بشيء آخر غير تحديد حاصل الذكاء ، أو تصحيح مستويات النمو العقلي في حال الضرورة : إنه يتفرّد في أدوار ضبابية ضعيفة التحديد بوصفه ليس معالجاً ولا طبيباً ولا مربياً . فإذا حاول أن يكون منشّط الجماعة كلها ، فإنه يتعثّر بالإدارة والمدير . وإذا شاء أن يمارس قليلاً من العمل السريري ، فإنه يسبّب لنفسه كره الهيئة الطبيةالتي تريد أن تستأثر لنفسها وحدها بالتشخيص والعلاج ، ولو أن العلاج من نوع العلاج النفسي(٩) . وعندئذ يرضى عالم النفس بجمع الفتات ، وإجراء بعض الروائز ، والقيام ببعض المحادثات .

(٨) انظر : «الطبيب النفسي ، «مجنونه» والتحليل النفسي» ، مودمانوني .
(٩) ثمة نزاع كامن بين جماعة الأطباء وبين نقابات علماء النفس .

فثمة انطباع بأنه المتطفّل الذي يقدم على أكل خبز الغير[١٠] ، إلا إذا أعطي بالفعل ، وذلك ما يلاحظ بازدياد ، إمكان ممارسة المهنة ، مهنة عالم النفس ، ووضع التشخيصات بالتعاون مع الطبيب ، والاشتراك في العلاج النفسي . فإذا كان المربي المتخصص هامشياً والطبيب رب عمل ، فان عالم النفس ، إياه ، قاصر في مهنته وفي المعهد الطبي البيداغوجي . . . قاصر مع الأسف ، يرضى في الكثير الكثير من الأحيان أن يُضفى عليه القصور .

ثالثاً مؤسسة التربية المعادة في نزاع مع ضرورات سيكولوجيا المصاب بالضعف العقلي

« الأطفال المتخلّفون » يحبسهم المجتمع في ضرب من التصنيف وفي دور يتجنّب بعضهم في أغلب الأحيان وضعها موضع التساؤل . وقد ينفذ الرأي المسبق حتى إلى عالم المحلّلين النفسيين حيث ينفي بعضهم إمكان ضرب من العلاج للمصابين بالضعف العقلي . إن « المصاب بالضعف العقلي ، بوصفه موضوع حصر الأم ، وخاضعاً لضروب التربية المعادة من كل نوع ، ولأنه يوضع في مؤسسات شتى بعد استنفاد جميع الوسائل ودون أمل كبير في النجاح ، تعلّم أن ينتظر حقيقته وكلامه من الآخر . ومع ذلك ، فكل ارتقاء إلى مكان الفرد غير مسدود أمامه في الحقيقة » . وكتاب مود مانّوني[١١] أول كتاب حاول البيان أن المصاب بالضعف العقلي قادر على الدخول في علاقة تحليل نفسي صحيحة . وإذا كانت دراسة مود مانّوني تتركّز على تبعية الطفل المتخلّف لأمه ، « فذلك لأنه أولاً تلقّى منها ، أكثر من أي فرد آخر ، هذه المنزلة ، منزلة الشيء التي يعاني الطفل كثيراً من الصعوبات للتخلّص منها ، وذلك لأنه ، ثانياً على وجه الخصوص ،

---

(١٠) انظر : علم النفس موضع التساؤل ، الفصل الأخير من هذا الكتاب .

(١١) «الطبيب النفسي ، مجنونه والتحليل النفسي» ، مودمانوني .

ليس بوسعه أن يتخلّص منها إلا إذا شعرت الأم ذاتها شعوراً عميقاً بأنها موضع اتهام . فمغامرة المصاب بالضعف العقلي مغامرة جماعية » . وتعبّر هذه الفقرة لمود مانوني عن حرارة التناقض بين مشكل مؤسسة التربية المعادة ودورها ونظامها الأساسي وبين ولادة ضرب من علم النفس الخاص بالمصاب بالضعف العقلي وضرورات علم النفس العلاجي .

آ ـ غموض المؤسسة

مؤسسة التربية المعادة ، بوصفها أُقيمت أولاً لحماية المجتمع والأطفال المصابين بالضعف العقلي ، تسير سيراً وظائفياً بمثابة الامتداد التقني والاجتماعي لجسم الأم : إنها الأم التي أُضفيت عليها الصفة الاجتماعية ما دامت تقوم بالدور الذي تقوم به الأم الفعلية ، أم المصاب بالضعف العقلي . وهي تشعر بأنها ، كالأم ، معالجة ، موحية بالأمن ، وبيداغوجية ، وكريمة ، وتتيح للمصاب بالضعف العقلي فرصة التربية المعادة والاندماج الجزئي في المجتمع . ولكن هذا الدور الأمومي للمؤسسة لا يُدخل أي قطيعة جذرية بين اتجاه التبعية إزاء الأم وبين الضرورات في إعطاء الكلام للطفل المصاب بالضعف العقلي . فالمؤسسة وسيلة الآباء للتدخّل في بيداغوجيا المصابين بالضعف العقلي وفي علاجهم ، وسيلة طويلة المدة ويُضفى عليها الصفة الاجتماعية . وهذا يميّز من جهة أخرى تدخّل الآباء الذين يريدون أن يستعيدوا بوساطة جمعية الآباء ، شأنهم عندما ينتصبون بين الطفل والمعالج في إطار علاج نفسي ليستبعدوا منه شخصاً ثالثاً ، دورهم التربوي المفوَّض إلى المؤسسسة ، دوراً مشروعاً على المستوى الأخلاقي ولكنه كم يكتنفه اللبس على المستوى التربوي والعلاجي . وإحدى خصائص الضعف العقلي الأساسية ليست قائمة في الأسباب العضوية ، بل هي قائمة أكثر في تبعية المصاب بالضعف العقلي تبعية جذرية للمؤسسة ، بديل الأم .

ب ـ هذه التبعية تتخذ صوراً متعدّدة

والصورة الطبية هي الصورة الأولى التي تتّخذها هذه التبعية : فبطاقة وصف المرض التي تلتصق بالمصاب بالضعف العقلي حياةً برمتها ، بوصفها نتيجة التشخيص البدئي ، تجرّ سلسلة من التعليمات والإجراءات الكفيلة بأن تلغي لدى

المصاب بالضعف العقلي كل إمكان لإيجاد حقيقته الخاصة : فلم يعد عليه حتى أن يبحث عن القيام بفعل ، فهو « المصاب بالضعف العقلي » ، والمحاط والمحزوم والمصرور ، وهو ماهية كلية لمعرفة طبية سيكولوجية ، وليس له سبيل إلى وجوده التاريخي الخاص بوصفه « أنا المتكلم » . لقد أصبح المرآة السلبية التي يقرأ فيها الأطباء ، وعلماء النفس ، والاختصاصيون ، علمهم الخاص ويُسقطون عليها عقلانيتهم الخاصة . وهذ العقلنة لحياة المصاب بالضعف العقلي تتجلّى ببطاقات معقّدة : إنه يتحرك على الدوام في عالم مجرد من التشخيص ، والروائز ، والتقييمات ، والتأليفات ، التي تجعله موجوداً مجرداً ، وتُظهر الخاصة غير السوية والاستثنائية التي تتصف بها حالته . والحقيقة أن له الوضع نفسه ، وضع حيوان من حيوانات المخبر ، الذي نجعله يعاني العلاجات والتجارب ، وعليه أن يستجيب للروائز ويخضع إلى حقيقة الباحث التي نحاول أن نكتشفها فيه . فالمصاب بالضعف العقلي مقيّد بأغلال الضرورات العقلانية للمعرفة الطبية البيداغوجية ، بوصفه موضوع الفرضيات العلمية والبحوث الطبية والرعاية البيداغوجية .

والصورة الثانية هي الصورة البيداغوجية : فالمصاب بالضعف العقلي تابع للوسط المؤسسي عادة لأنه يجد نفسه محاطاً بأناس يطلبون إليه أن يتقدّم تقدماً حسياً وحركياً ولفظياً ، وهذا التقدم ينتظره جميع المربين ما دام داعي وجودهم يكمن في أن يجعلوا الأطفال يتقدمون . والحال أنه يحدث بالنسبة للمصاب بالضعف العقلي ما يحدث للشعوب المتخلّفة في المجال الثقافي : فالشعب الذي يعرف هو الشعب الذي يملك الحقيقة ، والآخر هو التابع بالضرورة لأنه لا يملك القابليات والقدرات والمستويات . إنه لا يملك أي حقيقة ، وعليه أن ينتظر كل شيء من الآخر . والحال أن التجديدات البيداغوجية السيكولوجية تمثّل بالتأكيد تقدماً في علم التربية المعادة ، ولكنها لا تقطع العلاقة على نحو جذري بالتقليد المؤسسي الذي ينكر القول الخاص للمصاب بالضعف العقلي ، ويحافظ بالتالي على ضرورات الداعي الخاص لوجوده بوصفه مؤسسة . و « المعالج (أو المؤسسة أو المربي » ، كما تقول مود مانوني ، يتّخذ مكاناً في هذا القول « يمكن لعقلناته العلمية

أن تحجب حاجة إلى أن يسوّغ نفسه في وضعه ، وضع المعالج) الذي يضع « المريض » و « مرضه » في المركز ، « مريضاً » ينتهي . . . كالطبيب النفسي ، الى أن يتكيّف مع صورة « مرضه » كما يكوّنها الآخر »[١٢] .

جـ - أثمة تمرّد للمصابين بالضعف العقلي ؟

عندما يكون الناس غير مسرورين من قدرهم ، فإنهم يثورون ويقلبون البنيات ويحاولون إقامة سلطة أفضل لا بفعل من أفعال العنف ، بل ثمة ضرب من التوسّط ، توسط الشعور الذي ليس بوسعه أن يتحمّل مثل هذا الغلّ والذي يدمّر النظام القائم .

والمصاب بالضعف العقلي لا يشكّل جزءاً من هؤلاء المتمردين أبداً ، مع أننا نلاحظ في بعض الأحيان أفعالاً من العصيان في المعهد الطبي البيداغوجي ضد السلطان . إنه لا يتمرّد ، ذلك أنه لم يسبق أن كان لديه إمكان وضع الوسط الذي يعيش فيه ، وضعاً يقوم به هو ذاته ، موضع الاتهام . والمصاب بالضعف العقلي ، بوصفه مصنوعاً لكي يكون تابعاً ، حتى أيامنا هذه ، تحمّل القدر الذي كان منحة من يعنون به والمجتمع . فالضعف العقلي يشكّل حالياً جزءاً من هذه الأساطير التي يعتقد الناس بأنها حتمية وثابتة الى الأبد : أسطورة الوراثة الفيزيولوجية التي تفرض على الإنسان مصيراً محدّداً كل التحديد ؛ وأسطورة العقل الذي يتعرّض الى الجنون والتخلّف العقلي ؛ وأسطورة ضرب من الطبيعة النقية التي قد تخطىء في بعض الأحيان وهي تنتج مسوخاً ؛ وأسطورة حصر المصاب بالضعف العقلي الذي يخيف والذي يبقيه الناس بعيداً ؛ وأسطورة الصحة النفسية والطبية والاجتماعية التي تضع المصاب بالضعف العقلي في أماكن « لا ينقل فيها العدوى الى الناس الأسوياء » . وجميع هذه الأساطير ، بالإضافة الى بعض الأساطير الأخرى ، هي التعبير عن الاستيهامي الجماعي الذي يقوم المصاب بالضعف العقلي على هذا النحو مقام كبش الفداء اللاشعوري بالنسبة له . . .

---

(١٢) «الطبيب النفسي ، مجنونه والتحليل النفسي» ، مودمانوني .

ويتّخذ الاستيهامي الجماعي صورة العدالة ، والإحسان ، والوجدان البورجوازي الطيب ذي النزعة الانسانية .

ولكن المصاب بالضعف العقلي ليس بوسعه أن يدرك معنى هذه الأساطير ولا أن يقولها ، لأن الناس حرّموا عليه الكلام دائماً . فليس ثمة إمكان للتمرد بوصفه لا يملك الكلام . وليس في الغد إنما المصابون بالضعف العقلي يدمّرون المؤسسة ليغيّروا شروطها ، ذلك أن « مرضهم » ضرب من « مرض » القول .

ولهذا السبب يبقى المصابون بالضعف العقلي ، شأنهم شأن الشخصيات الأسطورية ، هي أيضاً ، أنصاف أشباح ، وأنصاف مسوخ ، وأنصاف بشر ، خلف الجدران الحامية ، مثيرين الشفقة والكرم والغموض والنفور ، كلها معاً . إنهم موجودات مشوّهة ، لا مستقبل لها ، لأنهم ليسوا أبداً حاضرين أمام أنفسهم . إنهم موجودات دون كلام ولا ثقافة ولا إيمان ، بفعل تعذّر ارتقائهم إلى لغتهم الخاصة . إنهم موجودات سلبية ووحيدة ، لأنهم لا يقدرون على أن ينقلوا ألمهم وسعادتهم في الحياة . ومع ذلك فإنهم عائشون وموجودون ، وغالبيتهم سعداء جداً ولو أنهم لا يشعرون بذلك ، وربما بسبب هذا الفقدان ، فقدان الشعور .

وربما في يوم من الأيام ، إذ يحرّرون كلامهم ، سيقرّرون أيضاً تلك الأفعال التي تخلّصهم من ضعفهم العقلي . فهل الاعتقاد بتمرّد المصابين بالضعف العقلي اعتقاد طوباوي ؟

* * *

الباب الرابع

علم النفس المرضي

والنظرة الطبية

الفصل الأول : تصنيف المرضى النفسيين
الفصل الثاني : علاج المريض النفسي
الفصل الثالث : علاقة المريض والطبيب

الفصل الأول

تصنيف المرضى النفسيين

مفهوم البنية

هذا الجزء الأول الخاص بعلم النفس المرضي وبعلم النفس العلاجي أريد له أن يكون وصفياً . ومن المؤكد أن المرض النفسي ، بوصفه مفهوماً من المفهومات ، يثير مشكلاً ، ويبدو قليل الفائدة أن نعرض وصفاً منهجياً لظاهرة نشك فيها ، ومقاييس تقييمها ليست دقيقة في الغالب ، وهي في تطور مستمر[1] . ومع ذلك ، علينا أن لا ننسى أن تصنيف الأمراض النفسية الحالي ، الوارد في وصف الأمراض ، عرضة للشبهة ، وهو مع ذلك النتيجة التاريخية لممارسة في الطب النفسي حوارها مستمر مع موضوعها . وبهذه الصفة ، فإن فهماً عميقاً لتصنيفات الطب النفسي الحالية ، ولعلم العلامات الذي تستند إليه ، جدير بدراسة قد تتيح أن ندرك العلاقات المعقّدة القائمة بين الطبيب والمريض في الفترة المحدّدة التي يكونان فيها وجهاً لوجه ، لا في جميع الأوقات . وبما أن مثل هذه الدراسة في التطور الديالكتيكي لهذه العلاقات تتجاوز تجاوزاً كبيراً إطار هذا المؤلّف ، فإن المشروع المباشر يكمن في أن نعرض لوحة الأمراض النفسية كما يقدّمها الطب النفسي الحالي . ومن المؤكد أن وصف الأمراض ، والتحديدات التي يتيحها ، لا يحلّ بأي حال من الحالات محلّ العلاقة المباشرة بين المريض

---

(١) «ولادة العيادة» ، ميشيل فوكول ـ « القول ، المسيرة وفرويد» ، لودفيغ بانسوفنغر .

(٢) «المحاضرات الجديدة» ، غاليمار ، ١٩٣٨ .

والطبيب . وهو مع ذلك أداة لا غنى عنها في وضع التشخيص ، وبالتالي ، في وضع الاختيار العلاجي .

التصنيفات الأكثر قبولاً على نحو شائع تتمفصل جميعها حول مفهوم البنية . وإذا كان فرويد قد أضفى صفة المفهوم على مصطلح البنية النفسية ، فإن هذا المصطلح لم يكتسب مركزاً رئيساً في التأمل في علم النفس المرضي إلا حديثاً بصورة نسبية[٣] .

ونقول بصورة مختصرة جداً : لا تدلّ بنية نفسية على مرض نفسي ، وإنما تدل على نموذج معينّ أو نمط من التنظيم والسير الوظائفي النفسي . وهذا التنظيم تابع للوراثة (ربما) ، وللعلاقات الأبوية ، وللإحباطات التي يواجهها المرء ، وللدفاعات التي تنظّمها الأنا ، وللنزاعات ، إلخ ؛ إنه تابع ، بصورة مختصرة ، لتاريخ الفرد ، تاريخه الباكوري . ويتجلّى هذا التنظيم بمثابة « تبلور » للشخصية مع خطوط التصدّع لديها وخطوط الانقطاعات المحتملة ، النوعية والثابتة .

وما يميّز بنية من البنيات إنما هو استقرارها ما إن تتنظّم (في نهاية المراهقة على وجه العموم) .

وعلينا أن ننظر ، على مستوى علم النفس المرضي ، إلى أن المظاهر المرضية (الأمراض النفسية) ليست سوى احتمالات ممكنة من احتمالات البنية : وعلى هذا النحو ، علينا أن نفهم العُصاب أنه الحالة غير المتوازنة لبنية عُصابية ، وأن الذُهان هو الحالة غير المتوازنة لبنية ذهانية . والفرد ذو البنية العصابية أو الذهانية المتوازنة تماماً غير ذي علاقة بعلم الأمراض بأي صفة من الصفات (وبالتالي بالطب النفسي) .

إن نمطي البنية الأساسيان هما البنية الذُهانية والبنية العُصابية .

وتتميّز البنية العُصابية بتنظيم الأنا تبعاً لأوديب وللعلاقات بالموضوع من النموذج التناسلي . والنزاع أو النزاعات تقع بين الأنا والدوافع . والدفاع

---

(٣) «موجز في علم النفس المرضي» ، ماسون وشركاه .

الرئيس هو كبت الامتثالات الدافعية . والليبيدو المعنيّ هو من النموذج الخاص بالموضوع ، ومفهوم الواقع محترم .

وتتنظّم البنية الذهانية حول إحباطات باكورية جداً . والدفاعات ، المتنوّعة ولكنها الباهظة الثمن بالنسبة للأنا ، تنزع إلى ضرب من إنكارجزء من الواقع ، لا إلى كبت الامتثالات الدافعية . والسيادة لليبيدو النرجسي في البنية الذهانية .

ويقابل هذين النمطين البنيوين فئتان كبيرتان من الآفات المرضية : العصاب والذهان .

ـ يتميّز العصاب باضطرابات نعتبرها خفيفة ، اضطرابات كافية لكي يدركها العصابي ذاتياً ، ولكنها لا تكفي لكي تولّد في الخارج ضروباً من الخلل الخطير في السلوك الظاهر .

ـ ويشير الذهان إلى مجموعة من الآفات التي نعتبرها خطيرة ، وتزرع الخلل في السلوك الظاهر للفرد .ـفشخصية الفرد ذاتها هي التي تكون ممسوسة . ويعبّر مصطلح المغترب العقلي عن هذه الغرابة(٤) . فالآفات الذهانية من اختصاص الطبيب النفسي .

ويبيّن الفحص السريري مع ذلك أن العصاب والذهان لا يغطيان كلية الآفات المرضية . فبعض الآفات التي تسمى الآفات الحدّية تُبدي ضرباً من المرونة في التطور لا يتيح الكلام بمصطلحات البنية . وعلى عكس من السلالات العصابية والذهانية ، وعلى عكس صورها المرضية من عصاب وذهان ، ذات الخاصة المتخثّرة والاتجاه الواحد ، تشير هذه المظاهر المرضية إلى تنظيمات قادرة على أن تتطوّر صوب أنماط تنظيمية (بنيات ذهانية وعصابية) ، أو قادرة على أن تتحوّل ، على نحو مستقر نسبياً ولكن دون رسوخ أو اتجاه لا ينعكس ، إلى

---

(٤) الاغتراب مرتبط بالشعور بالغرابة ، وعلى وجه الخصوص في الفصام . وننصح بقراءة «مذكرات مصابة بالفصام» ، سيشيهاي .

انحرافات أو إلى أمراض الطبع . فالاكتئاب والضروب العديدة من الرهاب غير العصابي أمثلة جيدة على هذه الحالات .

أولاً- العصاب

الأساسي من البحوث المنجزة على مستوى العصاب كان فرويد قد قام به والذين تلوه في حقل التحليل النفسي . ولا بد من القول إن نوعية العصاب السريرية تنزع إلى أن تمتزج بنظرية التحليل النفسي ذاتها ، ذلك أن هذه النظرية قائمة برمتها على تحليل الصراع العصابي . فالتصنيف الراهن ، منذئذ ، لا يزال تابعاً إلى حد واسع جداً لأعمال فرويد . واكتسب مصطلح العصاب ، منذ فرويد ، شهرة تتجاوز إطار الأطباء السريريين تجاوزاً واسعاً جداً . وبينما كان فرويد ، بالإضافة إلى ذلك ، يدّخر مصطلح العصاب لعدد من الآفات الواضحة والمحدّدة ، نسمع الآن كلاماً على العصاب من كل نوع ، وذلك لا على مستوى الجمهور الواسع فحسب ، ولكن حتى في دوائر التحليل النفسي أو في دوائر أخرى . وهذا الشمول ، شمول المصطلح ، أدّى على الغالب إلى التباس بين العصاب ، بوصفه اضطراباً محدّداً ـ عصاب وسواسي ، هستيريا ـ وبين بعض الأعراض التي يمكنها أن تكون ذهانية بقدر ما تكون عصابية ، أو ينبغي لها على الأغلب أن تُصنّف على أنها مظاهر فئة « الحالات الحدية » ـ كعصاب الطبع على سبيل المثال .

ولكي لا نخلط المسائل ، فإننا لن نحتفظ مما يلي إلا بالاضطرابات التي تنطوي على بنية عصابية محدّدة . ومنذئذ تُستبعد بصورة مباشرة تسميات كـ « عُصاب الإخفاق » أو « عصاب المصير » . فثمة ثلاثة نماذج كبرى من العصاب : العصاب الوسواسي ، وعصاب الصدمة ، والهستيريا . وثمة حالة خاصة هي عصاب التحويل ، وهو ليس آفة تقتضي علاجاً ، بل هو سلوك يقابل فترة خاصة من العلاج بالتحليل النفسي .

١ ـ العصاب الوسواسي

العصاب الوسواسي كيان في وصف الأمراض أبرزه فرويد حوالي عام ١٨٩٥ .

ـ ويعرّفه آي[٥] على أنه « حالة من الشعور الغلّاب والشاق يكافح الفرد إلحاحها ، وهذا الكفاح الواعي يميّز الحالات الوسواسية » . ونتيجتا هذا الكفاح هما الشعور بالصعوبة والحصر . وبقدر ما يكون الكفاح شعورياً نكون أمام عصاب .

ـ وعلينا إذن أن نلاحظ أن الفرد يعيش الوسواس على أنه إكراه وأن الحصر دفاعي . إنه آلية دفاع ضد غزو الوسواس . وأخيراً ، قد يحدث للنزاع السيكولوجي الداخلي أن يتم إسقاطه وظهوره على أنه خارجي .

آ ـ ملخص سيرته

العصاب الوسواسي يقابل الهوس الأحادي لدى إسكيرول . وكان دو كليرمبول قد لاحظ آليات نفسية . وكان موريل يتكلّم على الهذيان الانفعالي ، على المستوى الوجداني . وأخيراً أفضت دراسات جانه إلى تمييز المزاج الوهني النفسي الذي ينطوي على توتر سيكولوجي . وكان جانه يلاحظ لدى المصاب بالوهن النفسي شعوراً بالنقص ، وتعزيزاً للدفاعات ، وتدقيقاً . ولكن الوسواس ليس سوى مظهر من مظاهر الوهن النفسي . وأخيراً ، فإن فرويد جعل العصاب الوسواسي هو التعبير المرضي عن آليات الدفاع الخاصة بالطور السادي الشرجي[٦] مع أهمية خاصة لإمساك العضلات الضّارة والسيطرة عليها . فالطفل كان ملزماً بالاستسلام للتربية . وهنا تكمن قاعدة الإمساك وإضفاء الشبقية على الإمساك .

ب ـ اللوحة السريرية

نميّز مجموعتين رئيستين من العصاب الوسواسي :

---

(٥) آي ، «الموسوعة الطبية التشريحية» .

(٦) انظر فصل «النمو الوجداني لدى الطفل» في هذا الكتاب .

ـ العصاب الوسواسي الفكرة

ـ العصاب الوسواسي الاندفاعي (وسواس ـ اندفاع)

الوسواس الفكرة

إنه نموذج الفكرة الطفيلية ذاتها . وقد يكون المقصود حالة من حالات الشعور ، أو حيرة ، أو مشكلاً سياسياً ، أو مشكلاً ميتافيزيائياً ، إلخ . وتفرض الأفكار نفسها على العصابي بصورة طفيلية . ويقود هذا الوسواس سريعاً إلى ظهور الدفاعات التي تُعاش على المستوى السحري . والمريض يعيش الوسواس بوصفه شيئاً سحرياً يهاجمه ، ويحاول التخلّص منه بالوسيلة نفسها . ويلاحظ المرء منذئذ ظهور الطقسي الوسواسي . والمقصود طقوس تعزيمية يرافقها التكرار ، هدفها استبعاد الوسواس . فالفعل المكرّر على سبيل المثال يتمّ تنفيذه في المرة الأولى ونقضه في المرة الثانية . والصورة الغالبة لهذا الوسواس هي جنون الشك وجنون اللمس (هل أنا نظيف ؟ والطقس التعزيمي هو الغسيل بالتأكيد) وتكرار الكلمات أو الأعداد ، إلخ .

الوسواس الاندفاع

، يكافح الفرد كل فعل مثير للسخرية ، وضار ، وغير أخلاقي ، وجرمي ، يحس أن عليه أن يقوم به . وما يميّز الوسواس الاندفاع هو النضال ، ذلك أن الفرد لا ينتقل أبداً إلى الفعل بصورة عملية . والواقع أنه إذا انتقل إلى الفعل ، انتهت لعبة العضلات الضّارة . والمهم في العصاب الوسواسي هو السيادة .

واللذة كلها موجودة في الإمساك ، وفي السيادة على الاندفاع . فالفرد يعيش قدرته في فعل الامساك ، ولهذا السبب لا يحقّق اندفاعه إلا نادراً . ويحسّ الفرد بأنه لديه إمكاناً مفاده أن يكون قوياً ، وأن يقتل وينتحر ويسرق ، إلخ . وتُقاس قوته ولذته بقدرته على أن يسود هذه الإمكانات . ويتميّز هؤلاء الأفراد ، على وجه العموم ، بمغالاة في التقدير لأنفسهم .

جـ ـ علاج العصاب الوسواسي

ـ العلاج السطحي ، مع أنه كاف في بعض الأحيان ، يمكنه أن يتمّ بالمهدّئات وعلاجات الاسترخاء .

ـوليس ثمة علاج أساسي ، إلا علاج التحليل النفسي . فإذا كان العصاب غير قديم جداً ، فإن الإنذار يكون مناسباً على وجه العموم ، ولكن العلاج طويل ، من أربع سنوات إلى خمس .

٢ ـ الهستيريا

الهستيريا هي النموذج ذاته للمرض دون أساس عضوي جذري . وقد ميّزها آي بـ « التعبيرية الجسدية المغالية عن الأفكار والصور والمؤثرات اللاشعورية » . ويتكلّم فرويد على التحوّل ، أي على التعبير بصيغة جسدية رمزية ، تلميحية وتهويلية معاً ، عن النزاعات وعن المأساوي اللاشعوري . والهستيري يمكنه ، بفضل قوته في الإنجاز على المستوى الجسدي ، أن يقدّم أي لوحة مثيرة للمرض . والهستيري ، من جهة أخرى ، سريع التأثر بالإيحاء جداً .

آ ـ سيرتها التاريخية

كان إفلاطون من قبل يلحّ كثيراً على الجانب الغلمي والتناسلي من الهستيريا . ولاحظ آخرون جانبها المعدي . وأجرى شاركو في باريس ، خلال القرن التاسع عشر ، دراسة معمّقة . وشاركو سريع التأثر بالعنصر العلائقي والجنسي في الظاهرة الهستيرية . ويلحّ جانه على الجانب الرمزي من هذه المظاهر . وأخيراً ، كان فرويد وبروير[٧] قد استخلصا اللوحة السريرية للهستيريا بصورة واضحة . وسنركّز بصورة خاصة على نمط من العلاج الناجع .

ب ـ الدراسة السريرية

نميّز نموذجين أساسيين من الهستيريا :

- هستيريا التحوّل
- هستيريا الحصر

---

(٧) «دراسة في الهيستريا» ، بروير .

هستيريا التحول

ـ أزمات شاركو الكبرى

لهذه الأزمات الكبرى أهمية تاريخية ، ذلك أن الناس لم يعودوا يشاهدونها في فرنسا ، في حين أنها كانت من قبلُ نمطاً من أنماط التعبير العامة . ويصفها شاركو بموازنتها بالصرع . فالهستيري ، على خلاف المصاب بالصرع ، لا يفقد أبداً وعيه فقداناً تاماً . والأزمة الصرعية أكثر سرعة . يضاف إلى هذا أن الهستيري لا يتعرّض إلى تشنّجات (تبقي على تنفّس المصاب بالصرع متوقفاً) ولا إلى سُبات الراحة .

وفي الهستيريا[8] ، تؤدي النزعة المسرحية دوراً كبيراً ، والنزعة المسرحية في الوضعات الجسمية على وجه الخصوص . وثمة رعدات هستيرية ، ينبغي لنا أن لا نخلط بينها وبين التشنجات الصرعية ، هي مظاهر بهلوانية .

ـ المظاهر الجسدية

إنها التعبير الجسدي والرمزي عن النزاعات اللاشعورية . وثمة عدة صور عنها :

ـ الصور الحركية : الشلل دون أساس عضوي . وهذا الشلل تلميحي على وجه العموم سواء أكان وظيفياً أم محدّداً في موضع . والصعوبة تكمن في أن هذا الشلل الهستيري قد يكون عبئاً إضافياً بالنسبة للشلل العضوي الحقيقي .

ـ التشنّج ، والإجل (*) ، والفُواق ، والتقيؤ .

ـ الصور الحسية : فقدان البصر أو صمم دون أساس عضوي .

هستيريا الحصر

والمقصود هنا مجرد ضروب من الرهاب العصابي لا هبّات الحصر كما قد تبدو في بعض « الحالات الحدّية » . ويظهر الرهاب على أنه خوف أكبر (حصر) مرتبط ببعض الأوضاع ، والتطورات ، أو الأشياء ، المحدّدة نسبياً : خوف من

---

(٨) أهمية الظاهرات الهيسترية الجماعية وسلوك الجمهور .

(*) إجل : التواء العنق وألمها .

بعض الحيوانات ، ومن حشرات وعناكب على وجه الخصوص ، وخوف من البقاء في مكان مغلق (رهاب الاحتجاز) ، أو من الخروج (رهاب الخلاء) على سبيل المثال . ونحن هنا إزاء ممنوعات حقيقية .

والمظاهر الرهابية متعددة الصور ، وليس مطروحاً على بساط البحث ان نضع قائمة بها .

ويقابل الرهابُ آليةً من آليات الدفاع ، تنزع إلى تغيير وجهة (النقل الرهابي) الحصر المرتبط بوضع جنسي يسبّب صدمة نفسية . فبين الموضوع الرهابي (الحصان بالنسبة للصغير هانز(٩) على سبيل المثال) وبين الوضع الجنسي (تهديد بالخصاء) ، ثمة على وجه العموم علاقات رمزية ليس الفرد شاعراً بها .

ومما ينبغي لنا أن نأخذه بالحسبان هو أن الحصر ليس سوى حصر منقول ، ونجده عملياً ، على حالته النقيّة ، في الرهاب .

التشخيص والعلاج

سمتا الهستيريا هما قابلية الايحاء وهوس الكذب . والبنية الهستيرية بنية مرنة إلى أقصى الحدود : فليس الهستيري متظاهراً ، بل يضع فيها كل اقتناعه . وحساسيته للاقتناع كانت قد قدّمت لشاركو فكرة العلاج بالنوم المغناطيسي ، وهي تقنية يهملها علاج الهستيريا على وجه التقريب ، في أيامنا هذه .

والنزعة المسرحية مظهر آخر من مظاهر الهستيريا . والمقصود التزييف اللاشعوري للواقع . والبرودة الجنسية والغلمة(*) هما على الغالب اضطرابان منشؤهما هستيري . وللهستيري مظهر متقلّب وسطحي . إنه التهويل الهستيري : فهو يخدع الآخرين ويخدع نفسه .

ـ أما فيما يخص التشخيص الفرقي ، فلا بدّ على وجه الخصوص من أن نميّز الهستيريا من الفصام . ولا بدّ على وجه العموم من أن نتجنّب الخلط بينها وبين مرض ذي منشأ عضوي .

---

(٩) فرويد : «خمس حالات من التحليل النفسي» .

(*) الغلمة : هوس الشبق الجنسي «م» .

ولا يؤدي العلاج بالمهدّئات وعلاج الاسترخاء إلا إلى تحسن مؤقت . والعلاج بالتحليل النفسي ، في الهستيريا أيضاً ، هو وحده الناجع حقاً . فالإنذار جيد على وجه العموم ، والزمن قصير نسبياً ، من سنتين إلى أربع . وتكمن الصعوبة في أن المريض ميّال إلى عدم المجيء إلى موعد المحلّل النفسي .

٣ ـ عصاب الصدمة

إنه نموذج من العصاب يتلو ظهور الأعراض فيه صدمة من الصدمات . وتحدث هذه الصدمة على وجه العموم في وضع يحسّ الفرد بأن حياته معرضة للخطر فيه (خطر واقعي أو متخيل ، في الطفولة مثلاً) .

ويتميّز عصاب الصدمة على وجه العموم بأزمة من الحصر الحادّ في فترة الصدمة ، قد تمضي حتى الذهول أو الخلط العقلي . والصدمة ، فيما بعد ، وتبعاً للحالات ، تقتصر على أنها تنقل إلى مجال الفعل بنية عصابية موجودة مسبقاً ، أو أنها تساهم مساهمة كبيرة في محتوىالعَرَض . فالعرض ، على سبيل المثال ، قد يكون تكراراً للوضع المثير للصدمة . والعلاج بالتحليل النفسي مناسب على وجه العموم .

ثانياً. الذهان

بينما تكافح شخصية الفرد في العصاب آفة من الآفات يحسّ بها أنها مضنية ، فإن شخصية الفرد في الذهان ، الأنا ، هي التي تُصاب إصابة خطيرة جداً : الذهان يترك بصورة حتمية آثاراً ، ولو أن العلاج ناجح . وثمة ، في الذهان ، قطيعة بين الأنا والواقع . ويقول فرويد إن الأنا ، منذئذ ، تحت سيطرة الهو ، سيطرة الدوافع(١٠) .

ونميّز ثلاث فئات كبيرة من الذهان :

---

(١٠) انظر فصل «العودة إلى فرويد» في هذا الكتاب .

ـ الفصام (انشغال بالذات ، وخبل البلوغ ، وإغماء تخشبي ، وهذيان شبه الذهان الهذائي) .
ـ الهذيانات المنتظمة المزمنة (الذهان الهذائي ، وذهان الهلوسة المزمن) .
ـ السوداوية والهوس

الفئة الأولى : الفصام

الفصام هو الذهان الأكثر تواتراً ، ويصيب المراهقين والراشدين الشبان على وجه الخصوص .

ونفرّق ، بحسب المستويات في تنظيم الأنا ، بين أربعة صور سريرية : انشغال بالذات ، وخبَل البلوغ ، والإغماء التخشبي ، وهذيان شبه الذهان الهذائي .

ويبدو أن العمر يؤدي دوراً هاماً . ويبدو أن الجنس لا يتدخّل في التواتر ولا في خطورة الحالة .

وعلى المستوى الوراثي ، يلاحظ أن ثمة احتمالاً يبلغ ١٠٪ ، مفاده أن يُصاب بالفصام أخوة الفصاميين ، وترتفع النسبة إلى ٧٦ بالمئة لدى التوائم . وتفقد النسبة المئوية دلالة واضحة إذا لم تكن الأم هي التي ربّت الأطفال .

ـ والفصامي ، على مستوى الشكل ، واهن (*)(طويل وهزيل) .
ـ والفصامي ، على مستوى الطبع ، بارد ، ومكفوف ، وصلب ، ومغلق ، وسيء التكيّف اجتماعياً .

ولم يكن بوسع البحوث العديدة فيما يخصّ بداية الفصام ، أن تحدّد شيئاً واضحاً على المستوى البيولوجي ، والعوامل العصبية غير متعيّنة .

ـ العوامل الأسرية أكبر أهمية . ويمكن وصف الصورة النموذج لأم الفصامي على النحو التالي : إنها شخص قاس ، آسر جداً ، يشكّل الطفل جزءاً

(*) النموذج الواهن أحد نماذج كرتشمر . انظر : «الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث» ، ص ٨١ ، القسم الثاني ، بيير داكو ، ترجمة وجيه أسعد ، الدار المتحدة ، دمشق ، ١٩٩١ .

منها[11] : إنها تهب نفسها للطفل على أنه الموضوع الوحيد الممكن . وتتفجّر المأساة عندما ينبغي للمراهق الفتى أن يترك وصاية الأم . ومنذئذ تكون الارتباطات التي قد يصنعها المريض ضروباً كثيفة من التحويل الأمومي . فأم الفصامي أم مصابة بالمرض ، إنها في أغلب الأحيان عصابية . والظروف التي تثير الفصام كثيرة : كل الأوضاع التي تسبّب الصدمة للفرد . وقد يكون الفصام حاداً أو تدريجياً .

الدراسة السريرية : ثمة أربع صور للفصام .

- الانشغال بالذات ؛
- خبل البلوغ ؛
- الإغماء التخشبي الذي ينطوي على اضطرابات حركية ؛
- شبه الذهان الهذائي ذو الشكل الهاذي .

١ ـ الانشغال بالذات [12]

إنه أقدم مستوى من مستويات التنظيم . ومُعاش قريبٌ من البيولوجي هو المظهر الأساسي من مظاهره ، مظهر يتجلّى على نحو مشخص بسلبية كلية أو كلية على وجه التقريب ـ نوم ووضعية جنينية ـ تعبّر عن زوال التركيز النفسي على العالم الخارجي . فكل علاقة مع الواقع ، في الانشغال بالذات ، يعيشها الفرد بمثابة علاقة كارثية . وهذا الرفض لكل اتصال قد يؤدي إلى توقّف الوظائف الحيوية (التغذية والتغوّط والرؤية ، الخ) ، إذ يعرّض بقاء الفرد إلى الخطر .

٢ ـ خبل البلوغ

اللوحة السريرية معقّدة ومتنوّعة إلى أقصى الحدود . ومن الضروري أن نلاحظ بصورة أساسية هبوطاً واضحاً في الوجدانية وتنافراً وجدانياً في الوقت نفسه (غرابة ، وضحك متنافر ، ومظاهر شاذة ، الخ) . ويمكننا أن نشير أيضاً إلى

---

(١١) من المفيد إقامة إرتباط بين صيغة العلاقة بالطفل الخاصة بأم الفصامي وبين صيغة العلاقة الخاصة بأم المصاب بالضعف العقلي .

(١٢) انظر بتلهايم .

ضرب من التصنّع الذي ليس من اليسير دائماً تمييزه من النزعة المسرحية الهستيرية . والفاعلية ، على المستوى الجنسي ، مكفوفة (عجز وبرودة جنسية) أو مغالية (غُلمة) .

٣ ـ الاغماء التخشبي (كاتاتونيا)

يبدي المريض اضطرابات حركية ترتبط بنظام سيكولوجي من الدفاع . ويصعب الحصول على أي اتصال صعوبة كبيرة . ويعيش المريض بصورة حادة تجارب هلوسية . والطابع المميّز نزعة السلبية . ويرى المرء على الغالب بعض النمطيات تنمو . ويمكن للإغماء التخشبي أن يكون ذهولياً : فثمة عدم تناسق لفظي وحركي ، كامن أو دوري (إفراط) . ويبدو أن المريض مصاب بالهلوسة إصابة كبيرة .

٤ ـ شبه الذهان الهذائي

يعيش الفرد تجارب هلوسية وتجارب تأثير . وإلى هذه الخلفية الهذيانية ينضاف هذيان ثانوي ذو موضوعات متنوّعة : تجزؤ جسمي (١٣) ، وتحوّل ، وفرض أفكار عليه ، وموضوعات في هوس العظمة ، الخ . ويعبّر المريض عن هذه الموضوعات بكلمات مجردة ، ذات صفة وجدانية ضعيفة جداً . والمظهر المتنافر واضح كما في خبل البلوغ . ويلاحظ كذلك توقّفات مفاجئة : ضروباً من العجز الفكري ، واضطرابات في اللغة. والفصامي يقمع وجدانيته ولكنها لا تزول .

العلاج

العلاج بالأدوية متنوّع جداً وتابع لمختلف الحالات . والعلاج البسيط بالتحليل النفسي غير ممكن ، ولكن محاولات أكثر تعقيداً ، كمحاولات جيزيلا بانكو (١٤) ، تعطي في بعض الأحيان نتائج مفيدة .

---

(١٣) انظر «صورة الجسم لدى الفصامي» في الفصل القادم .

(١٤) انظر «الإنسان وذهانه» .

الفئة الثانية : الهذيانات المنتظمة المزمنة

ثمة زمرة من الأمراض يدل عليها هذا المصطلح بالتقابل مع الفصام ذي الهذيان غير المنتظم . وتغطّي هذه الزمرة مجموعة من التناذرات لا نأخذ منها غير الاثنين الأكثر أهمية : الذهان الهذائي ، والذهان الهلوسي المزمن .

١ ـ الذهان الهذائي

للذهان الهذائي على وجه العموم بداية بطيئة وخدّاعة . فثمة تطور مزمن خلال نظام هاذٍ ودائم تتعذّر زعزعته . والأمر الهام أن ثمة احتفاظاً ببنيات عقلية كبيرة واستخداماً مغالياً لها في بعض الأحيان : الإرادة ، والذاكرة ، والحكم ، والملاحظة ، إلخ . ولكن هذه البنيات الكبيرة موضوعة في خدمة الهذيان . وخاصة الذهان الهذائي صلابة نفسية ترافقها نزعة التمركز حول الذات ، وتقدير للذات مغالٍ : من هنا منشأ الزهو والحذر . وقد ألح فرويد (١٥) على أهمية الجنسية المثلية الكامنة : فثمة تحوّل في دافع الحب إلى دافع عدواني . والتعلّق المغالي بالجنسية المثلية ، كما في الفصام ، صورة من الارتكاس على حصر التجزؤ ، في رأي ناتش وريكاميه .

أولاً ـ اللوحة السريرية

ثمة صورتان : الصورة الغرامية والصورة التفسيرية .

الصورة الغرامية : التمجيد سمة هذه الصورة ، ترافقه فكرة التفوّق غير المسوّغة من الناحية العقلانية . ويبدو الفرد سوياً خارج قطاع هذيانه . والصورة الهاذية الأكثر أهمية هي : المطالبة والغيرة وهوس الشبق :

ـ هذيان المطالبة : مرضى محبّون للخصام ، يحتجون ضد العالم كله .

ـ هذيان الغيرة : ليس له داع موضوعي ، إنهم المرضى الذين يقتلون .

ـ هذيان هوس الشبق : يتوهّم المريض توهماً هاذياً بأنه محبوب . وهو مستعد لأن يفعل أي شيء لكي يعترف المحبوب بحبه صراحة .

---

(١٥) إننا نحيل إلى حالة الرئيس شريبر في كتاب فرويد «خمس حالات من التحليل النفسي» .

الصورة التفسيرية : إنها نموذج الهذيان في الذهان الهذائي : وهذا هو الجنون الذي يعقل . والموضوع الأكثر تكراراً هو الاضطهاد ، سواء أكان داخلي المنشأ أم خارجي المنشأ . ويتميّز هذا الهذيان ببنية سردية : فكل شيء موضع تفسير ، ولكل شيء معنى . إنه نظام حقيقي في الاستقصاء .

ثانياً- التطور

وتصبح هذه الهذيانات ، في أغلب الأوقات ، مزمنة وذات اتجاه واحد : فكلما أضفيت الصفة العقلية على الهذيان ازداد دواماً . والمريض موجود في الغالب على نحوين : مظهر هاذ ، وسويّ في غير ذلك من وجوده . والهذيان دوري في بعض الأحيان ، يظهر ويزول . إن هؤلاء المرضى قتلة بالقوة ، وبالفعل في بعض الأحيان .

٢ - الذهان الهلوسي المزمن

كان جيلبرت بالّه قد اكتشفه عام ١٩١١ . إن مقياس العمر هام : فنحن نواجه فصاماً قبل الثلاثين ثم هذيانات مزمنة بعدها . والهذيان أولي كما في الذهان الهذائي (إنه العرض الذي يظهر أولاً) . ويظهر الهذيان والهلوسة في الوقت نفسه . والهذيان ينصبّ بصورة عامة على صوت يقول كلاماً بذيئاً ، وعلى وجه الخصوص لدى النساء . ويحاول الفرد أن يبرّر نفسه : فالفرد يمكنه أن يخدش شخصاً كأن يقول له كلاماً بذيئاً ، أو إن يشرح شرحاً جيداً أن ثمة من يرسل له موجات وموجودات فوق طبيعية ، إلخ . ويقوم المرضى بمحاولات في إضفاء التنظيم ، ولكن ذلك ليس بالمتانة التي في الذهان الهذائي . والذهان الهلوسي المزمن مخيف ، ولهذا السبب يُرسل هؤلاء المرضى به إلى المشافي بسرعة . ولا يتطور الذهان الهلوسي المزمن إلى خبل البلوغ أبداً . والإنذار إيجابي أكثر بكثير مما هو بالنسبة للذهان الهذائي .

علاج الهذيانات المنتظمة المزمنة

المصاب بالذهان الهذائي إصابة كبيرة لا أمل في شفائه بصورة عملية : فسيادة العنصر العقلي تجعل الإنذار سلبياً جداً . وعلى مستوى العلاج بالأدوية ، تستخدم مهدّئات الأعصاب المتوسطة . والنتيجة تختلف اختلافاً كلياً .

والإنذار ، بالنسبة للذهان الهلوسي المزمن ، أكثر ايجابية . والعلاج هو نفسه على مستوى العلاج بالأدوية . أما فيما يخص المعالجة بالعلاج النفسي ، فان عقد الصلة بالمريض أمر عسير جداً . ويُستخدم التمثيل النفسي ، والعلاج النفسي الرمزي ، على الغالب .

الفئة الثالثة : السوداوية والهوس

١ ـ السوداوية

يعرّف آي السوداوية على النحو التالي : اضطراب وجداني يتجلّى بحالة اكتئابية نوبية بصورة عامة ، ويتحدّد بالطابع المؤلم لمحتوى الشعور ، وبانهيار الإرادة ، والكفّ العقلي ، والتسلسل التشاؤمي للأفكار ، والقلق .

آ ـ الوصف السريري

قلّما تكون فترة البدء حادة . والمقصود أناس مكتئبون بسهولة (٦٤ بالمئة) ، أو أسوياء ، أو مرحون (٣٦ بالمئة) . والأسباب التي تثير السوداوية هي السأم ، والحداد ، والإخفاق . فنحن ، على وجه العموم ، بصدد فقدان شيء ذي أهمية . ولكن أحداثاً سارة قد تثير السوداوية في بعض الأحيان . والنساء ، من الناحية الإحصائية ، أكثر إصابة من الرجال . ولا بد ، أخيراً ، من الإشارة إلى أهمية الانتكاسات الفصلية : فالأفراد ليس بوسعهم احتمال التغير في الحياة التي يفرضها التغير المناخي عليهم (ربيع وخريف) .

ب ـ اللوحة السريرية

نميّز أربع صور من السوداوية : البسيطة ، والقلقة ، والذهولية ، والهاذية .

السوداوية البسيطة

السوداوية البسيطة هي الأساس المشترك لجميع السوداويات الأخرى . وهي تنطوي على جميع تعبيرات الألم : الحزن والنظرة الباهتة والحاجبين المقطبين والبكاء ، الخ . ونلاحظ ، على المستوى الحركي ، كفّاً ولامبالاة بالنسبة لكل نشاط نفعي . والكف ، على المستوى النفسي ، كلي في بعض الأحيان . فالفرد يتكلم ببطء جداً ، وثمة في بعض الأحيان خرس كلي . والمظهر متخثّر . وأزمنة

الارتكاس مرتفعة . والاستجابة بالحساسية الحركية الإنسانية لرائز رورشاخ نادرة جداً . ويقول الأفراد غالباً إنهم يشعرون بالفراغ الداخلي ، وثمة فقدان للوجود ، والسأم عام . ويتعذّر على السوداوي أن يجد نفسه في وضع ملائم . إنه مصاب بالأرق على وجه العموم ، واذا نام ، فإنه يرى في منامه الكوابيس . والخاصة الرئيسة هي التشاؤم العميق ، وتلك حركة نحو الفناء ، والعرض الرئيس هو الانتحار والانتحار الفعلي . إن السوداوي يريد فعلاً أن يموت . ونسبة السوداويين بين المنتحرين تبلغ حوالي ٧٠ بالمئة .

السوداوية القلقة

ثمة غلبة لعنصر القلق على عنصر الاكتئاب . فالمرضى مهتاجون : وهذا الهياج يقودهم إلى الانتحار ، ولا بد إذن من تهدئتهم بالضرورة .

السوداوية الذهولية

لا يتحرك المريض على الإطلاق : إنه لا يأكل ولا يتكلم . ولا بد من تمييز السوداوية من الضروب الأخرى من فقدان الشهية والذهول .

السوداوية الهاذية

تضيف هذه الصورة إلى السوداوية البسيطة عنصراً هاذياً يظهر على المريض إذا تكلم ، وهو يتكلم بعنف . ومحتوى الهذيانات محتوى اكتئابي على نحو بارز : اتهام ذاتي ، وإثمية ، ومرض عضال ، أو حتى الخلود ، ذلك أن الموت إنقاذ بالنسبة إليه . وقد يقتصر المريض على موضوع وحيد في هذيان واحد ، أو قد تكون الموضوعات كثيرة . ويبدي المريض ، على المستوى البيولوجي ، جميع خصائص الهيجان العميق . وعلى مستوى التحليل النفسي ، يلحّ مانكوفسكي على اضطرابات في المعاش الزمني : فليس للسوداوي مستقبل . ويلاحظ فرويد وميلاني كلاين إلغاء العلاقة بالموضوع . فالموضوع المفقود يجتافه الفرد على أنه موضوع سيء .

جـ ـ علاج السوداوي

يجب إدخال السوداوي أحد المشافي ، ذلك أنه خطر على نفسه وعلى الآخرين . وعلى محيطه أن يكون صارماً . فلكي يحرّره من الشعور بالإثم ،

عليه أن لا يكون لطيفاً معه ، وإنما عليه أن يكون حيادياً ، بل عدوانياً . أما العلاجات بالأدوية ، فقد كانت المسكّنات الأفيونية ، ثم استخدموا الصدمات الكهربائية . والآن يستخدمون الأدوية المضادة للاكتئاب . والمعالجة بالعلاج النفسي دقيقة جداً وذات إنذار غير إيجابي على وجه العموم .

٢ ـ الهوس

إنه حالة من الإثارة النفسية تتميّز بتهيّج المزاج ، والحيوية الوجدانية ، والهياج الحركي ، وتبخريّة الحياة النفسية إلى الحد الأقصى . ويمكن للهوس أن يبدو على صورة إفراط هوسي محض . ولكن الغالب ان هذا الإفراط الهوسي تندرج فيه أطوار اكتئابية بصورة دورية . فذلك هو الذهان الهوسي الاكتئابي .

آ ـ الوصف السريري

ـ هياج حاد يرافقه نغمية مرحة عنيفة في بعض الأحيان . وثمة تحرير غريزي كبير : غذائي وجنسي . ومع ذلك يقول المصابون بالهوس أكثر مما يفعلون . وثمة على الغالب تحرير عدواني وتقلّب .

ـ هياج حركي نفسي : الوجه المتهيّج ، الأحمر ، والعينان المحتقنتان بالدم ، والإيماءات ، والغزارة في الثياب ، والصراخ ، والزعيق ، وخمود الصوت ، هي الأعراض الغالبة . الصبيب غزير ويترافق مع هروب الأفكار .

ـ النغمية الوجدانية مرحة . بل وينكر المريض صعوباته . إنه مريض أليف . لذته يجدها في ذاته ، ومعاشه نرجسي . واللعبة الهوسية ليست واقعية ، إنها نفي للواقع . ويُظهر المريض ، على المستوى اللفظي ، ضرباً من تسرب في الأفكار ، وفقدان الجدية ، وفظاظة واضحة في الغالب ، ولا يأكل ولا يشرب ، أو العكس . ويشهد المرء في بعض الأحيان إنهاكاً تدريجياً . ومعاش المصاب بالهوس جشع وعدواني ، وموقعه على المستوى اللفظي . فالمصاب بالهوس مفعم بالنوايا ، ولكنه يحقّق قليلاً . والزمن يعيشه مقدماً ، وذلك عكس الاكتئاب . إنه يحس بأنه ذو قدرة كلية .

ـ وعلى مستوى التحليل النفسي ، ثمة توحّد بالشيء الجيد الذي اجتافه المريض ، وتلك هي العودة إلى القدرة الكلية النرجسية . فإسقاط الذات يحلّ

محلّ العلاقة بالموضوع . وثمة انصهار بين أنا المريض وبين مثال الأنا . وترتوي الرغبة على نحو هلوسي .

ـ ونميّز الهوس البسيط من الهوس الهاذي . وهذا الهوس الهاذي نادر . والهذيانات تنصبّ ، بصورة عامة ، على النسب والقوة والاختراع والغنى ، الخ . ولا بد ، بالنسبة للتشخيص ، من تمييز الهوس الصريح من ضروب الهوس العرضيةلآفات أخرى : فهذه اللوحة الهوسية قد تكون عرض فصام أو عرض شلل سفلسي . وعلينا أيضاً أن نميّز الهوس من ضروب السُكْر .

ب ـ علاج الهوس

إدخال المصاب بالهوس مشفى أمر لا غنى عنه ، والمرضى لا يريدون الذهاب إلى المشفى بصورة عامة . والمعالجة بالراحة ضرورية . والعلاجات بالأدوية تلجأ إلى مهدّئات الأعصاب ، ولا بدّ من التصرف بسرعة وقوة . ولا تغيّر هذه العلاجات بنية المريض الذهانية . والنوبة الهوسية تشفى على وجه العموم ، ولكن ثمة انتكاسات بصورة حتمية . وقد يتطور المرض نحو الإزمان أو نحو الفصام لدى الأحداث .

ثالثاً ـ الحالات الحدّية

مصطلحات « الحالات الحدّية » و « الإصابات الحدية » و « التخوم » ، تضمّ مجموعة من الآفات التي تتميّز من السلالات العصابية والذهانية على المستوى السريري أولاً ، ولأن أي بنية بالمعنى الدقيق للكلمة لا تقابلها ثانياً . ونؤثر أن نستخدم مصطلحات الشخصية ، والطبع ، والتنظيم (تنظيم منحرف ، شخصية قبل الذهانية ، على سبيل المثال) على أن نستخدم مصطلح البنية . وهذه الشخصيات أو التنظيمات ليس لها خاصة محدّدة ونهائية كالبنيات الحقيقية ، على الرغم من أنها قد تتطور فيما بعد نحو وضعية متبنينة .

ـ ومفهوم الحالة الحدّية ليس له وحدة سريرية ، إن لم تكن سلبية (لا ذهان ولا عصاب) ، ولا تبدو بمثابة كيان إلاّ على مستوى التفسير النفسي المرضي . وينزع المنظور التكويني إلى بيان مفاده أن هذه الشخصيات أو الطباع ليست منظمة حول الأوديب (عصاب) أو حول إحباطات باكورية (ذهان) ، وانما حول

صدمة مفسدة للتنظيم توقف التطور الأوديبي ، في حين أن الأنا اجتازت دونما عوائق رئيسة تلك المرحلة التي كان فيها ممكناً ضرب من التثبيت الذهاني . وهذه الصدمة الوجدانية (غواية جنسية باكورية على سبيل المثال) لا يعيشها الفرد على نمط تناسلي (أوديبي) بل على نمط نرجسي ، من جراء انعدام التنظيم الأوديبي الثلاثي .

والمجازفه النرجسية التي سيعيشها الفرد بصورة أساسية على أنها حصر فقدان الموضوع ، حصر التخلّي ، تجمّد كل التطور التناسلي ، وتجد الشخصية نفسها متخثّرة في ضرب من الكمون (كمون مزعوم) لزمن غير محدّد .

والحالات الحدّية ، التي يكون عدم نضجها الوجداني واضحاً في بعض الأحيان ، تنتظم في ترتيبات ذات اضطراب في الطبع أو منحرفة ، لها ثبات نسبي ، ولكن ليس لها صلابة التنظيمات الذهانية والعصابية ولا رسوخها . والصدمة اللاحقة ، في أوقات أخرى ، هي العلامة لأزمة كبيرة من الحصر (عصاب الحصر) يمكنه أن ينفذ إلى عصاب أو ذهان ، أو اضطراب جسدي نفسي على حد سواء .

وثمة عدة لوحات سريرية توافق هذه الحالات الحدّية ، بعضها مستقر وبعضها الآخر نوبي . ويظلّ العرض الرئيس هو الاكتئاب الظاهر أو الكامن .

ولتوضيح الأمر ، نميّز الصور النوبية من الصور المنظّمة .

آ ـ الصور النوبية

تنبعث أزمة حادة من الحصر حالما تحدث صدمة ثانية ، أزمة عابرة تقلب تنظيم الأنا . ويشهد المرء أزمات اكتئابية ومظاهر من الانكفاء قد تمضي إلى حد فقدان الشخصية .

وكل شيء يحدث كما لو أن المرء كان يشهد ضرباً من أزمة المراهقة المتأخرة ، والحادة ، والعنيفة (١٧) ، وفي غير أوانها بالمعنى الدقيق ، بمناسبة حدث من

---

(١٦) «أعمال في التحليل النفسي» ، بيو ، ١٩٦٧ .

(١٧) «مختصر في علم النفس المرضي» ، ماسون وشركاه ، ١٩٧٢ .

الأحداث : ولادة ، وزواج ، وإياس ، وحداد ، وحوادث من كل نوع . ولن يكون ممكناً ، للحالة الحدّية منذئذ ، والحصر الاكتئابي لم يعد بالمستطاع ضبطه ، إلّا أن تتطوّر نحو دروب عصابية أو ذهانية أو جسدية نفسية ، بوصف هذه الدروب هي وحدها التي تقدّم لها نظاماً من الدفاع الناجع ضد الحصر الاكتئابي الذي لا يطاق .

٢ ـ الصور المنظّمة

ـ أمراض « الطبع »

ـ الصور المنحرفة

أولاً ـ أمراض « الطبع »

ـ عصاب الطبع (١٨)

ـ ذهان الطبع

ـ انحراف الطبع

* عصاب الطبع

المقصود بالحري ، كما يقول بيرجه ، شخص يلعب لعبة العصاب دون أن تكون لديه الوسائل الأوديبية . فليس ثمة أعراض ، بل مشاهد اكتئابية . والمقصود أشخاص نشيطون جداً على الغالب ، متصفون بالصلابة ، يتلاعبون بالسلوك . والحياة الاستيهامية ضعيفة . والنقص النرجسي تعوّضه أعراض من نموذج الارتكاس (سيطرة تخفي حاجة إلى التبعية على سبيل المثال) . إنهم أفراد يصعب جداً على المحيط احتمالهم .

* ذهان الطبع

لسنا بصدد صعوبة في الاتصال بالواقع كما هو الشأن في الذهان الحقيقي ، بل بصدد تقييم مانوي (*) للواقع . ودون أن يكون ثمة نفي للواقع ، فان العالم

---

(١٨) مصطلحا العصاب والذهان مرتبطان بتاريخ الطب النفسي ، وينبغي لهما أن لا يختلطا بضروب العصاب والذهان الحقيقية .

(*) مانوي نسبة إلى مذهب ماني الفارسي الذي يعتقد بأن العالم يحكمه مبدآن : الخير والشر «م» .

مجزأ إلى جزأين : جزء « صالح كله » وجزء « سيء كله » . فما هو غير مستحب لنرجسية الفرد سيء برمته .

والمقصود هنا « أناس نشيطون » حاجتهم إلى أن يكونوا موضع العبادة أو الكره ، المترافقة مع قدرات علائقية مدهشة ومحيّرة ، تصنع « قادة » على الغالب . والإخفاقات الاجتماعية والعلائقية تبعث على الاكتئاب غالباً .

* انحراف الطبع

طبيعة الفرد النرجسية واضحة على وجه الخصوص . ومن الضروري أن يؤمّن كمال الأنا وكمال سعادتها ، وأن يجعل نفسه موضع الاحترام بجميع الوسائل . وهذه الضرورة التي مفادها أن « يجعل نفسه موضع الاحترام » ، تجعله على وجه الخصوص لا يحترم الغير ، وبعبارة أخرى تجعله ينكر حق الغير في أن يكون له نرجسية خاصة به . إنهم أفراد لا يعيشون أي إثمية ولا ينبعث مظهرهم الاكتئابي إلا في الحالة (وهي نادرة) التي يستجيب المحيط استجابة عنيفة لعدوانياتهم الزهيدة بصورة عامة ، ولو أنها يصعب احتمالها . وهذه « الطباع » معدودة على الغالب بأنها طباع مزعجة ، يصعب احتمالها ، ولكنها بمنتهى اللطف .

ثانياً ـ الترتيبات أو الصور المنحرفة

يتم تجنّب الحصر ، في حالة الانحرافات ، برفض ينصبّ على جنس المرأةوبمغالاة في توظيف القضيب . واذا كان ثمة ، كما في الذهان ، إنكار لجزء من الواقع ، فان الواقع المجحود ، المتصف بأنه واحد دائماً ، موضع تركيز كبير . ويلغي هذا الإنكار كل إثمية وكل ألم . وهذا هو الذي يشرح الصعوبة التي يواجهها الناس في العناية بالمنحرفين : إنهم لا يريدون أن يروا الطبيب .

والأمر المهم الموجب للملاحظة هو إذن غياب الكبت . ومع ذلك بيّن فرويد أن أنماطاً أخرى من الدفاع تتدخل ، كإنكار الواقع على سبيل المثال وتصدّع الأنا . ولا تمرّ هذه الأنماط دون أن تذكّر بأنماط الدفاع التي تتدخل في الذهان .

ونذكر الأمور التالية بوصفها أمثلة على الانحراف : الجنسية المثلية والسادية

والمازوخية والتلصص ، والاستعرائية ، والفيتيشية (*) . وقد يكون التعريف التالي تعريفاً عاماً للانحراف : « الانحراف تحويل بالنسبة للفعل الجنسي « السوي » ، بالنظر إلى أن هذا الفعل محدّد بأنه الجماع الذي يرمي إلى أن يبلغ ذروة النشوة الجنسية بفعل الإيلاج التناسلي مع شخص من الجنس المقابل » .

رابعاً- لوحة وصفية للأمراض النفسية

١ ـ العصاب

العصاب الوسواسي — الوسواس الفكرة

الوسواس الاندفاع

الهستيريا — هستيريا التحوّل

هستيريا الحصر

- العَرَض : علامات وسواسية وهستيرية
- الحصر : الخصاء
- العلاقة بالموضوع : تناسلية
- الدفاع : الكبت
- المرجع التكويني : تنظيم أوديبي

٢ ـ الذهان

الانشغال بالذات

خبل البلوغ

الفصام — الاغماء التخشبي

شبه الذهان الهذائي

الذهان الهذائي

الهذيان المنتظم المزمن — الذهان الهلوسي المزمن

(*) ننصح بالرجوع إلى كتاب بيير داكو « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث» ، ففيه شرح واضح مفصل لهذه المصطلحات «م» .

السوداوية

الهوس

- الأعراض الرئيسة : فقدان الشخصية والهذيان
- نموذج الحصر : حصر التجزؤ وحصر فقدان الوجود
- نمط العلاقة بالموضوع : علاقة انصهارية
- الدفاعات الرئيسة : إنكار ، ازدواج الأنا
- المرجع التكويني : تنظيم تبعاً للإحباطات الباكورية جداً (الأشهر الأولى من الحياة)

٣ - الحالات الحدّية

الصور النوبية

الصور المنظّمة

أمراض « الطبع »

- عصاب الطبع
- ذهان الطبع
- انحراف الطبع

الصور المنحرفة

- العرض : الاكتئاب
- الحصر : حصر فقدان الموضوع
- العلاقة بالموضوع : علاقة اعتمادية (علاقة تبعية للآخر)
- الدفاع : ازدواج الصور الذهنية المثالية
- المرجع التكويني : تنظيم قبل الأوديبي

الفصل الثاني

علاج المريض النفسي

ممارسة العلاج النفسي وتصنيف الأمراض

إن وصف الأمراض الذي قدمناه فيما سبق كنا قد أردناه أن يكون وصفياً بصورة أساسية . وليس لهذا التصور الوصفي سوى معنى منهجي . والواقع أن اللوحة الوصفية الحالية للأمراض هي نتيجة لتاريخ الممارسة في الطب النفسي والتحليل النفسي على وجه الحصر . ومما لا غنى عنه ، منذئذ ، أن ننتقل إلى دراسة الطرائق في العلاج النفسي ، ذلك أنها وإن كانت تستعين باللوحة الوصفية للأمراض في بعض الأحيان ، فإن هذه اللوحة هي ذاتها نتيجة الممارسة . ولكن ذلك ليس بعدُ سوى تسويغ ثانوي . وحقيقة الأمر ، فيما يخص ممارسة من الممارسات التي دخلت التاريخ ، أن سيرورتها دينامية وبالتالي فان أسبقية عنصر على آخر ، في نهاية المطاف ، ليست ذات أهمية كبرى ، ذلك أن التفاعل المتبادل مستمر . وما ينبغي لنا تأكيده أن من الضروري أن يكون ثمة ضرب من التأثير المتبادل الدائم بين النظرية والتطبيق ، لا بالنسبة إلى علم النفس بصورة عامة فحسب ، بل للعلاج النفسي على وجه الخصوص (١) . وإذا كانت النظرية تقود الممارسة في بعض الأحيان ، فانها ليست ذات معنى إلا إذا مَحّصْنا مفهوماتها باختبارها من خلال ممارسة مشخّصة . وذلك يعني أن وصف الأمراض ، كما يبدو في أيامنا هذه ، لا يطرح نفسه إلا بوصفه معرفة تضعها ممارسة العلاج النفسي

(١) انظر فصل «علم النفس الأساسي» في هذا الكتاب ، ومن المفيد أن نشير كيف أن النظرية والممارسة ، في مؤلفات فرويد ، تستند كل منهما إلى الأخرى . ولايجد هذا الاستناد شبيهاً له في تاريخ الفكر ، في رأينا ، إلا في مؤلفات كارل ماركس .

موضع التساؤل بصورة دائمة . فمن خلال دراسة الممارسة في الطب النفسي ، على سبيل الحصر إذن ، قد يتطور نقد لوصف الأمراض التي يتناولها الطب النفسي .

ويبغي ما سنقدّمه في هذا الفصل أن يكون في الوقت نفسه عرضاً موجزاً لطرائق العلاج النفسي وموضوعها وأسسها وصعوباتها ، والبرهان أيضاً ، أو البيان على الأقل ، على أن الإنسان هو الموضوع موضع الاتهام في الطب النفسي ، وعلى أن في الإنسان على سبيل الحصر يمكن أن يضع الطب النفسي نفسه موضع التساؤل ليفهم معناه (٢) . فالطب النفسي لا يتوطّد إلا في المجموع الإنساني المؤلف من الإنسان المريض والإنسان الطبيب النفسي وعلاقتهما . والطب النفسي ، باديء ذي بدء ، هو علاقات المريض والطبيب (٣) . وعلى مستوى هذه العلاقات بين الإنسان المريض والإنسان الطبيب إنما تنمو طرائق العلاج النفسي . فمن هو السوي ؟ ومن هو المريض ؟ ومن يفصل في ذلك ؟ وبأي شيء يتميّز الإنسان السليم ؟ ولا نتناول هذه الأسئلة جميعها بالتوضيح هنا . والحقيقة ، مع ذلك ، أن هذه الأسئلة ، من حيث هي أسئلة ، موجودة في أساس طرائق العلاج النفسي وتقنياته جميعها .

أولاً ـ العلاج النفسي والمرض النفسي

موضوع العلاج النفسي وهدفه ، أو بالحري موضوع ضروب العلاج النفسي وهدفها ، يصعب تحديدهما بدقة ، شأنها في ذلك شأن العلاقات بين النظرية والتطبيق . يضاف إلى ذلك أن المسألتين متشابكتان . وعلاوة على مسألة المعرفة ، معرفة من هو المريض ومن هو غير مريض ، وهذه المسألة تحلّها بالفعل وظيفة الطبيب بصورة عملية ، لا يكفي القول إن الشفاء غرض العلاج

(٢) انظر فصل «علم النفس ، حضور ووجود» في هذا الكتاب .

(٣) انظر الفصل التالي من هذا الكتاب «علاقة المريض والطبيب» .

النفسي . فهل الشفاء إزالة أعراض المرض ؟ أم هل ، على العكس ، هو التدخّل في بنية الشخصية ، بأن نحلّل الفرد المريض بصفته إمكانية إنسانية ؟ وإذا ذهبنا إلى الحدّ الأقصى ، فإن لنا حقاً في التساؤل عما يبحث عنه العلاج النفسي ، أهو حقيقة علمية أم نجوع عملي : فهل هو إزالة أعراض المرض أم هو قيادة المريض ، بفعل ضرب من التحليل المعمّق ، إلى أن يتعرّف على ذاته كما هو وأن يأمل في أن يكون لهذا التعرّف مفعول علاجي ؟ إن ضرباً من المثل يوضّح هذا المشكل توضيحاً جيداً : ثمة مريض كان يبدي دوافع قوية إلى الانتحار مع أنه كان شديد الهدوء . وأزال دوافعه ضربٌ من العلاج النفسي اعتُبر ناجحاً . ولكن سلوكاً ينطوي على سمات بارزة في انحرافات الطبع لدى المريض حلّ محل السلوك الكامن . فهل كان هذا الفرد قد شفي من مرضه أم لا ؟ إن علم النفس المعالج كان يرى أن المريض قد أبلّ من مرضه . أما والدا المريض ، فيما يخصهما ، فكانا يعتقدان أن الأمر أسوأ من ذي قبل . فمن المصيب ؟ وهل ثمة بالحري من هو على حق ؟

ويبين لنا من هذا المثال ان موضوع العلاج النفسي غير بسيط على الإطلاق : فالمقاييس غير واضحة إلى أقصى حد . يضاف إلى ذلك أن هذا المثال لم يشرك في الأمر حكم المريض ذاته . فما أكثر الذين ، من المرضى ، يرون أن لا شيء قد تغيّر ـ عندما لا يظنّون ان العلاج النفسي احتيال ـ ، ولكنهم يكتشفون أن العالم الخارجي ، ذاته ، غيّر تصرفه إزاءهم . هذا من غير أن نتكلم على أولئك الذين لم يتغيّر لديهم أي شيء قط ، ويرون أنهم يعانون الألم دائماً أكثر مما كانوا يعانونه من قبل ، ولكنهم الذين شرعوا ينجحون في مشروعاتهم ، كما لو أن الأمر قد حدث بالمصادفة ، هذا في حين أن حياتهم السابقة كانت سلسلة من الإخفاقات . وليس هذا المريض ، أو المريض السابق ، على خطأ بالضرورة : فمن يقيم الدليل على أن حالتها الجديدة من فعل العلاج النفسي ؟

وربما كان الارتياب هو البعد الأساسي للممارسة في العلاج النفسي ؛

---

(٤) فصل «علم النفس ، حضور ووجود» في هذا الكتاب .

والتقنيات ـ حتى التي كانت أفضل اختباراً ـ هي موضع التساؤل بصورة مستمرة أمام الأصالة الجذرية لكل مريض . وبهذا الصدد ، ربما كانت كثرة الطرائق ، كما يظن بعضهم غالباً ، ضرباً من الضعف . وقد يكون ذلك ، على العكس ، شرط من شروط ممارسةٍ صحيحة وناجعة .

وهذه الصحة لا تيسّر العرض مع الأسف . فعرض طرائق العلاج النفسي ضرب من المراهنة عندما نعلم أن شتى المقاربات الخاصة بالمريض ، حتى بين المحلّلين النفسيين الذين يستخدمون الطريقة الأفضل تسويغاً وتحديداً ، هي ، في نهاية المطاف ، من الاختلاف بحيث أن كل محلّل نفسّي يستخدم تقنية خاصة به . يضاف إلى هذا أن ثمة ، في التحليل النفسي ، ما يُسمى العلاج النموذج أو العلاج النمط ، ونعني علاجاً عناصره الأساسية مشتركة بين جميع المحلّلين النفسيين . ولكننا عندما ننتقل من فحص العصابيين إلى فحص الذهانيين ، فاننا لم نعد نجد ولو ضرباً من الاشتراك في تقدير فترات التدخّل الكبرى ، ولا أنماط التواصل بين المريض والمعالج النفسي .

طرائق مبنيّة على الكلام

كل محاولة ، في هذه الشروط ، لعرض الضروب المختلفة من العلاج النفسي لا يمكنها إلا أن تعترف بأنها جزئية ، وبالتالي متحيّزة . ونحن لا ندّعي فيما نكتبه سوى أن نضرب بعض الأمثلة على الطرائق التي تمثّل الاتجاهات الأكثر أهمية في الزمن الراهن . وثمة مقطع سيضيف إلى فحص الطرائق في العلاج النفسي الدقيق للكلمة ، فحصاً سريعاً للممارسات في علم العقاقير النفسية . فقد مرّ زمن كان الصراع مكشوفاً بين أنصار الطرائق المبنية على الحوار والكلام وبين انصار الأساليب في علم العقاقير النفسية . ونقول على نحو مبسّط إن بعضهم كان يريد علاج المرض النفسي بالتأثير مادياً في جسم المريض ، وكان بعضهم الآخر يزعم أن علاج المرض النفسي ينبغي له أن يكون بعلاج النفس بالنظر إلى أن المرض النفسي هو مرض النفس . وهذا الصراع لم يختف دائماً في المجال الخاص بتقييم مصدر المرض . فليس من المؤكد إطلاقاً أن الفصام ، على سبيل المثال ، لا ينطوي على مظاهر عضوية . فثمة استخدام في الوقت نفسه لوسائل

علم العقاقير النفسية ولوسائل العلاج النفسي بالمعنى الدقيق للكلمة .

ويستبعد هذا العرض استبعاداً قبلياً فحص الوسائل الخاصة بالأمراض النفسية ذات المصدر العضوي الواضح ، كالتقنيات الطبية الخاصة بالصرع والخبل على سبيل المثال . وليس هذا الاستبعاد لوناً من تعزيز الفصل الكلاسيكي بين الجسم والنفس ، فالكل يعلم أن الطب في أيامنا هذه يضع بين هذين « الكيانين » حاجزاً يضيق شيئاً فشيئاً ، وإنما ، ببساطة ، لأن تقنية العلاج الضرورية لفحص هؤلاء المرضى تابعة للطب الجسمي ، حتى وإن كان يتباهى ، وهو على صواب في بعض الأحيان ، بأنه طب نفسي جسمي .

وهذه الطرائق ، طرائق العلاج النفسي ، مبنيّة على الكلام ، على التواصل الذي يتمكّن عالم النفس المعالج أن يقيمه مع المريض . ولكن هذا المتّحد هو أيضاً محل التباين في وجهات نظرها . فمن خلال مفهوم اللاشعور ، مفهوم محوري بالنسبة إلى التحليل النفسي ، تكون صيغة التواصل هي الموضوعة موضع التساؤل . فالعلاج النفسي الوجودي يحاول أن يحدّد ، بمفهوم الحضور ، ما هي العلاقة بالعالم الخاص بالإنسان المريض . ولمشكل الجسم ، لدى الذهانيين ، كما ينظر إليه بانكو ، وظيفة مفادها أنه يمنح وسيلة للدخول إلى عالم المريض ، وبالتالي يمنح وسيلة تواصل . وأخيراً ، إن المشاركة الوجدانية التي يتكلم عليها روجرز هي الوسيلة ، بالنسبة للمعالج النفسي ، لإيجاد علاقة إنسانية خالية من التهديد بصورة استثنائية .

وعلينا أن نضيف إلى ذلك أن طريقة العلاج النفسي الجماعي متمحورة على مشكل التواصل بين الشخصي . وجميع طرائق العلاج النفسي تدّعي النجوع بفعل الدينامية التي تستطيع أن تشيدها في العلاقة بين المريض والطبيب ، ولكن المفهومات التي توجّه هذا التشييد مختلفة جداً . ولهذا السبب يتغيّر الحضور المتبادل ، حضور المريض والطبيب ، وربما يتصف نموذج (الشفاء) ، هو أيضاً ، بأنه مختلف .

ثانياً طرائق العلاج النفسي

ليس مطروحاً على بساط البحث أن نعرض جميع طرائق العلاج النفسي . والطرائق التي أتينا على إبراز مفهومها الأساسي هي وحدها التي نفحصها فيما يلي . وكون التحليل النفسي ، من الناحية التاريخية ، هو الطريقة الأولى التي ركّزت ، في العلاقة العلاجية ، على هذه الوسيلة الممتازة ، أي الكلام ، فإن هذه الدراسة ستبدأ به . ويبرّر هذا الاختيار أيضاً كون التحليل النفسي هو التقنية الوحيدة التي تعرف بعض الشمول في المرحلة الراهنة .

١ ـ التحليل النفسي

فرويد أب التحليل النفسي . والأهمية التي أضفاها على الجنسية فيما يخص تحليل العصاب وفيما يخص ، على نحو أكثر اتساعاً ، مجموع نمو الشخصية (٥) السليم أو المرضي من جهة اخرى ، والتي تتصف ، حتى في أيامه ، بأنها إما ليست موضع ظنّ وإما مرفوضة ، هي أهمية يعرفها كل فرد معرفة تقريبية . وهذه الأهمية يقبلها الآن جميع الأطباء مع التحفّظات غالباً . ومن الضروري أن نحدّد أي نموذج من العلاقة يقيمه التحليل النفسي ، وكيف يمكنها أن تكون ذات مفعول علاجي بصورة علمية .

وعلينا ، في هذا المنظور ، أن نستجوب الممارسة العلاجية ذاتها ، وأن نتوجه بالأسئلة اليها حول الفترات الحاسمة التي تبدو في العلاج . وبهذا الصدد ، فإن ظاهرة التحويل محورية هنا وينبغي لمفهوم اللاشعور أن يتّضح ونحن ننجز هذا الاستجواب .

آ ـ اللاشعور

كان مفهوم اللاشعور ، على الغالب ، موضع معارضة (٦) . وعلينا أن نعترف بأنه فرض نفسه الآن على المستوى العلمي وفي اللغة الشائعة على حدّ

---

(٥) انظر فصل«النمو الوجداني لدى الطفل» في هذا الكتاب .

(٦) جان بول سارتر ، «مجمل نظرية في الانفعالات» ، «الوجود والعدم» .

سواء . ومع ذلك ، فإنه لا يتّخذ قيمة إجرائية إلا إذا ارتبط بمفهومي الدافع والكبت[٧] . و « سيرورة الكبت لا تكمن في أن تلغي امتثالاً يمثّل الدافع ولا أن تحيله إلى العدم ، وإنما تكمن في منعه من أن يصبح شعورياً . ونحن نقول عندئذ إنه موجود في الحالة « اللاشعورية » وبوسعنا أن نقدّم أدلة قوية على أن بإمكانه ، مع أنه يظلّ لاشعورياً ، أن يحدث مفعولات يبلغ بعضها الشعور أخيراً [٨] » . ويتيح هذا الاستشهاد الذي يقدّمه فرويد إدراك العلاقة الأبسط بين هذه المصطلحات الثلاثة : يعمل الكبت على دافع (ممثّله) بحيث يصبح لاشعورياً . ويميّز فرويد ثلاثة مستويات : الشعور وتحت الشعور واللاشعور . فالامتثال الذي يبدو لشعورنا ، وندركه بوصفه كذلك ، هو امتثال شعوري . والأفكار والامتثالات التي يبلغ ضعف شدتها درجة لا تتجاوز عتبة الشعور ، ولكنها قادرة على الظهور فيه حالما تزداد شدتها ، هي تحت الشعورية . والأفكار والامتثالات اللاشعورية ليست ضعيفة بل تستبعدها من الشعور قوى حيّة ، هي آليات الدفاع .

والظاهرات اللاشعورية دينامية ولها ضرب من النجوع في سلوك الأفراد ، مع أن الفرد لايعرف السبب الحقيقي لهذا السلوك.والأحلام ، في رأي فرويد ، وسيلة ممتازة لرصد المحتويات اللاشعورية والدينامية التي تمثّل الدوافع المكبوتة . وتحليل الأحلام ، خلال علاج بالتحليل النفسي ، وسيلة تقصٍ ، حاسمة على الغالب . وهذه الصيغة ذات الشهرة الكبيرة ، « الحلم تحقيق رغبة » ، تعني أن رغبة من الرغبات ، ممثّلة الدافع الذي ليس بوسعه أن يتجلّى في الواقع ، سيتمّ إشباعها في الحلم على نحو متخيّل . ولا بد للدافع ، في هذا المستوى ، من أن يجعل جميع الآليات تتدخّل ، آليات التستّر ، والتكثيف ، والتشويه ، والنقل ، والتمثيل ، إلخ . وتلك الآليات ، يستخدمها الدافع لكي يتجلّى على الرغم من الدفاعات .

---

(٧) انظر فصل «النمو الوجداني لدى الطفل» في هذا الكتاب .

(٨) فرويد ، «ما وراء علم النفس» .

والأمراض النفسية ، في رأي فرويد ، والعصاب على وجه الخصوص ، هي نظير الحلم إذا صحّ القول ، أي أن العصاب وسيلة التعبير التي وجدتها الرغبة لكي تتجلّى . والمثال الأكثر نموذجية هو مثال الهستيريا التي يتجلّى فيها الصراع جسدياً ، بين رغبة لاشعورية وبين مقاومة هذه الرغبة ، بتقفّع (*) وشلل وآلام[٩] ، الخ .

والمهم أن نفهم أن طريقة التحليل النفسي قائمة على الفكرة التي مفادها أن العصاب هو التعبير عن نزاع موجود بين رغبة لاشعورية تنزع إلى أن تتحقّق وبين مرجع ، لاشعوري هو ذاته ، يحرّم عليها أن تظهر . وهذا المرجع هو ما يسميه المحلّلون النفسيون الأنا العليا . وهذه الأنا العليا الشبيهة بالممثل الداخلي للأخلاقية ، والثقافة ، والأسرة ، والمجتمع ، تسرّب الرغبات التي يقبلها كل ما تمثّله ، وتمنع الرغبات الأخرى أن تظهر بوصفها كذلك . وستكون وظيفة المحلّل النفسي منذئذ أن يكشف عن هذا النزاع بين الأنا العليا والرغبات ، نزاع يسبّب السلوك العصابي . وفحوى الفرضية العلاجية أن الأعراض ، التي ليست سوى التعبير عن هذا النزاع ، تختفي بمقدار ما يحتاز المريض الشعور بها . وربما يتيح هذا العرض البسيط ، بل والمفرط في التبسيط ، أن نفهم الكيفية التي يجري بها علاج التحليل النفسي بصورة مشخّصة .

ب ـ الممارسة في التحليل النفسي

يرمي العلاج بالتحليل النفسي إلى أن يبلغ المريض ، بضرب من العلاقة اللفظية التي تنطوي على صيغ محدّدة ، احتيازالشعور بالنزاع ، نزاع هو سبب اضطرابه ، وأن يقبله . وقد بيّن فرويد أن الرغبات الأكثر اتصافاً بأنها مثيرة

---

(٩) انظر الفصلين في هذا الكتاب « تصنيف المراض النفسية» و «علم النفس الأساسي» .

(*)تقلص عضلة أو عدة عضلات دون خلل في الألياف تقلص غير إرادي وطويل المدة «م» .

(١٠) انظر على وجه الخصوص « دور الأب بوصفه محرماً أصلياً» وانظر فصل «اللاشعور والبنيات الأسرية» وانظر «النمو الوجداني لدى الطفل» ، في هذا الكتاب .

ومكبوتة في الوقت نفسه ، وترفضها الأنا العليا ، هي رغبات من النوع الجنسي على وجه الضبط . ويبيّن على وجه الخصوص أن الرغبات في غشيان المحارم ، التي تبدو في فترة عقدة أوديب [11] ، هي سبب الاضطرابات العُصابية على وجه العموم . ويكون العصاب ، على وجه التقريب ، انبعاث الرغبات الطفالية الخاصة بالأب والأم على صورة أعراض . ولهذا السبب ، بوسعنا الكلام على ضرب من النكوص : فالعصابي ينكص فعلياً على المستوى الوجداني إلى نموذج من العلاقات عاشها في مرحلة سابقة ، مرحلة الأوديب . والمرء يمكنه أن يصف هذا النموذج من العلاقة بأنه رغبة في امتلاك الأم وتنافس ينطوي على عدوان إزاء الأب وتوحّد به . ويحاول العلاج بالتحليل النفسي ، من خلال الحوار الذي ينمو ، ومن خلال التحليل لأحلام المريض أيضاً أو تحليل التداعيات الحرة ، أن يقوده إلى أن يُظهر الرغبات التي كانت تميّز علاقاته الأوديبية أمام عالم النفس المعالج . والفترة التي يتدخّل فيها المحلّل النفسي بوصفه النظير الوجداني للأب أو الأم هي فترة التحويل . وهذه الفترة ذات امتياز بقدر ما يكون بوسع المحلّل النفسي أن يعيد للمريض معنى سلوكه بالحوار المباشر . يضاف إلى هذا أن فائدة هذه الطريقة هي أن سلوكاته العدوانية ، التحويل السلبي ، أو سلوكاته العاشقة ، التحويل الايجابي ، تتجلّى لفظياً ، وذلك أمر يجعل احتياز الشعور بالرغبات الكامنة التي كانت سبب اضطرابه ، احتيازاً ينبغي للمريض أن ينجزه ، أكثر يسراً .

ج - التحويل

من الضروري هنا أن ننظر إلى مسألة التحويل على نحو أكثر عمقاً ، ذلك أنه هو الذي يوجّه تطور العلاج النفسي كله . والواقع أن عدداً كبيراً من الأسئلة يطرح نفسه على هذا المستوى : الأسئلة التي تتعلق بالمحلّل النفسي ، سلوكه وارتكاساته ؛ والأسئلة ذات العلاقة بالمريض وعن ماذا يعبّر بهذا التكرار للعلاقات الطفالية ، وكيف يخلط من الناحية الوجدانية بين المحلّل النفسي وبين

---

(11) انظر فصل «العودة إلى فرويد» وفصل «اللاشعور والبنيات الأسرية» في هذا الكتاب .

أمه ؟ بينه وبين أبيه ؟ يضاف إلى هذا أن المرضى ، في الزمن الحالي ، يعرفون على وجه العموم عناصر التحليل النفسي ، ويعلمون إذن بصورة مسبقة ، من الناحية الفكرية ، أن سبب مرضهم كامن في نكوص إلى مرحلة الطفولة ، وهذا مع ذلك لم يشفهم . وأخيراً ، ثمة الأسئلة الخاصة بعلاقات المحلّل والمريض أيضاً ، كيف ستتطور ؟ ولا يزعم تحليل التحويل أن يجيب عن هذه الأسئلة كلها ، بل المسألة تقتصر على محاولة لفهم ما يحدث في هذه الفترة المحدّدة وما معنى ما يحدث بالنسبة للمريض .

د ـ المحلل النفسي ليس محاوراً حقيقياً

لا بد أول الأمر من الإجابة عن السؤال الذي يطرحه هذا الحوار : لماذا كانت العلاقة اللفظية في التحليل النفسي ذات امتياز بالقياس إلى العلاقات التي يمكنها أن تكون للمريض مع الغير ؟ الجواب بسيط في الظاهر . فالسبب يكمن في أن المحلّل النفسي هو ذاته خاضع لنمط نظري يحدّد وظيفته ووضعه . والحال أن هذا الوضع وهذه الوظيفة ليس لهما معنى إلا ليجعلا « القول المفتوح على الفراغ » ، حسب تسمية لوكليز ، يظهر لدى المريض . وبعبارة أخرى ، إذا بدا التحويل في حالة التحليل النفسي ، فذلك لأن المحلل النفسي لا يحاور ، وكلامه ضرب من اللاجواب ، ضرب من الإرجاع الذي يومض بسؤال المريض . فالمحلّل النفسي يلاحظ « كيف يتصارع مع متعته ذلك الذي يتكلم »[١٢] . وليس المحلل النفسي ، ولا يمكنه أن يكون ، محاوراً حقيقياً . فهو يقتصر بقوله على أن يوفّر للمريض إمكاناً مفاده أن يقول لنفسه ، وأن يجد قوله مجدّداً . والعلاقة العلاجية ، في مدى هذا الإمكان ، حيث يتصارع المريض مع متعته ورغبته ، هيّأت الانفتاح ليتمفصل المريض مع عالمه . والمريض يمكنه أن يمارس هذه اللعبة لأن المحاور لا يجيب ، ولأن المحلل النفسي غائب يترك المكان الضروري شاغراً ليجدّد المريض علاقته بالآخرين .

ويتيح هذا العرض السريع أن نفهم الإلزام المصنوع للمحلّل النفسي بأن

(١٢) لوكلير ، «المحلل النفسي» .

يكون ضرباً من « الحضور الغياب » : فليس له غير وظيفة واحدة مفادها أن يلاحظ فراغاً ينبغي لقول المريض أن يملأه ، إذ يضع نفسه فيه مع عالمه الخاص . فأحد الأمور الرئيسة في التحليل النفسي ، إذن ، هو سلوك المحلّل النفسي : إن عليه أن يتجنّب ما نسميه ضرباً من عكس التحويل ، أي ارتكاس ، يُظهر به رغباته اللاشعورية إزاء المريض مثلما يُظهرها المريض إزاء نفسه . ومستقبل علاقتهما ، في الوقت نفسه ، مستقبل أساسي ، إنه الغياب : فالمريض تكلّم وحده ، وقوله الخاص هو ما استدركه جزئياً على الأقل . وليس لعلاقات المريض والمحلّل النفسي مستقبل ، ذلك أن المحلل النفسي محاور مزيّف وممثّل مزيّف . والتحويل هو ما ينمو في مجال حيّز فارغ فتحه اللاقول ، لا قول المحلّل النفسي .

هـ ـ حضور غياب

المريض خاضع لموضوع واحد بفعل التحويل ، موضوع يقود إلى المشهد البدائي ، الأوديب ، الذي أرسى قواعد المتعة والرغبة وقواعد تحريمهما . فمعرفة المريض العقلية ، أي معرفة البنية الأوديبية في عموميتها ، أمر لا طائل تحته منذئذ . والتحويل ناجع من حيث أن المريض ، بالحضور الغائب للمحلّل النفسي ، سيبسط حالته الوحيدة ، ورغبته الأصلية ، في الصورة الخاصة لفرديته . وعلينا أن نفهم التحويل لا على أنه نقل رغبة شخص أو صراعه ، الأب على سبيل المثال ، إلى شخص آخر هو المحلل النفسي ، بل على أنه نقل هذه العلاقات ، علاقات حضور أب أو أم ، إلى ضرب من الغياب . الرغبة والنزاع يمكنهما ، بفعل هذا الغياب ، أن يتجلّيا وأن يضطلع المريض بهما ، ذلك أن التحريم الذي كان يضغط بثقله عليه يختفي لمصلحة حيّز فارغ يمكنه أن ينمو فيه .

وعلينا أن نؤكد ، بقصد الاختصار والتوضيح ، أن التحويل ليس مجرد نقل لوضع نزاعي إلى وضع آخر ، بل إن الوضع الآخر ليس سوى وضع وهمي : فلوضع التحليل النفسي ديناميته الماثلة في خاصة الغياب والفراغ التي يتصف بها .

وثمة بالتأكيد أيضاً كثير من الأمور التي ينبغي لنا أن نقولها عن التحليل

النفسي ، سواء عن المستوى العلاجي أو عن البنيات السيكولوجية التي أتاح معرفتها أو يتيحها أيضاً . فما ترمي هذه الدراسة الحالية إلى إبرازه ، على سبيل الحصر ، هو نموذج العلاقة العلاجية التي ينطوي عليها التحليل النفسي . ومن خلال هذا العدد القليل من الأسس الخاصة باللاشعور وتحليل التحويل ، حاولنا أن نبيّن أن هذه العلاقة ليست العلاقة الايجابية في الصداقة ، علاقة شخص بشخص ، وليست ببساطة علاقة إحباط ، أي علاقة ترفض ما يأتي المريض يبحث عنه ، وأعني حماية أو ، على العكس ، إدانة . وإذا كانت علاقة التحليل النفسي علاقة إجرائية ، فذلك لأنها تستخدم مصطلحين غير متجانسين على الإطلاق : اللاشعور أو الذات اللاشعورية وغياب بوسع اللاشعور أن يتجلّى فيه .

٢ ـ العلاج النفسي الوجودي

هذا النموذج من العلاج النفسي ، الأقل شيوعاً من التحليل النفسي ، يستمدّ أصوله من أعمال هايدغر (١٣) ، أو بالحري مستوحى من أعماله . وهو لا يستند إلى مفهوم اللاشعور ، بل إلى مفهوم الحضور . والطبيب النفسي الألماني لودفيغ بنسفنغر (١٤) يمثّل هذا الاتجاه على وجه الخصوص . واهتم العلاج النفسي الوجودي على نحو أساسي بالذهانيين ، والفصاميين منهم على وجه الخصوص ، على عكس التحليل النفسي الذي انصبّت أعماله على العصاب بصورة خاصة .

ويلحّ هذا النموذج من الطب النفسي على أن المريض النفسي إنسان قبل كل شيء ، ويفسّر التركيب الأساسي للإنسان بأنه حضور . ويعرّف هايدغر مفهوم الحضور بهذه الكلمات : « الحضور موجود في وجوده رهان وجوده » . وهذا يعني أن نمط وجود الانسان هو وضع ما يتصف به موضع التساؤل : موجود أو موجود موضع التساؤل هما الشيء نفسه بالنسبة للانسان . والتحليلية الوجودية لدى هايدغر حاولت أن تبرز هذه العلاقة بالذات التي تميّز الحضور الإنساني : فالطب

---

(١٣) «الوجود والزمن» ، هايدغر .

(١٤) انظر في هذا الكتاب فصل «علم النفس ، حضور ووجود» .

النفسي الوجودي لدى بنسفنغر يفسّر الفصام على أنه مرض إنساني بحصر المعنى ، مرض هذه العلاقة بالذات ، التي تتصف بأنها الحضور . وبتحليل نمط الحضور في الذات وفي العالم لدى المرضى ، وبالتدخل العلاجي الذي يمكننا استنتاجه من هذا التحليل ، يتحدّد الطب النفسي . فكيف يجري هذا التحليل ؟ إنه يجري بدراسة البنيتين الكبيرتين ، بنية التواصل والبنية المكانية الزمانية ، اللتين لهما دلالة بالنسبة للحضور وأنماطه ، سواء أكانت هذه الأنماط سليمة أم قاصرة . يقول بنسفنغر : « إن الحضور يعقل ما يتصف به هو نفسه في الأصل على أنه عالم »[١٥] . وهذا يعني أن على التحليل في الطب النفسي أن يفهم تاريخ المريض ، ذلك أن هذا التاريخ هو الذي يكشف عن بنيات العالم والزمان والمكان وجسم المريض[١٦] . ومن خلال تاريخ المريض ، على الطبيب النفسي أن يدرك مجدّداً نمط الحضور بنمط من التحليل أكثر مما يدركه بممارسة خاصة : فكل وسائل العلاج النفسي جيدة ، شريطة أن يكون استخدامها تابعاً لتحليل عالم الانسان المريض موضع البحث .

وهذا النمط التحليلي سيوضّحه مثال قدّمه بنسفنغر ذاته[١٥] : والمقصود حالة من الفصام الذهاني الهذائي . فثمة امرأة ، سوزان إربان ، علمت أن زوجها مصاب بالسرطان . إن موضوع السرطان سيغزو عالم المريضة كله بالتدريج ، وهو موضوع مرعب . ثم سيختفي السرطان ذاته بصفته موضوعاً وسيبقى المرعب وحده : وهذا هو هذيان الاضطهاد . وإليكم ، على نحو سريع ، تحليل بنسفنغر ، الخاص بانبعاث الهذيان : تعيش المريضة في عالم من الرعب ، موضوع السرطان فيه ، بالنسبة للطور الذي يسبق الهذيان ، هو الذي يغزو كلية العالم لا موضوع الزوج المصاب بالسرطان وهو موضوع امرأة سوية . وليس ثمة تمييز بين القريب والبعيد ، ولا بين المكان الخاص والمكان الغريب . فثمة جزء من العالم ، السرطان ، يسود الكلية : أصبح العالم بالنسبة إليها خالياً

---

(١٥) بنسفنغر ، «حالة سوزان إربان» .

(١٦) انظر فصل «علم النفس الأساسي» في هذا الكتاب .

من الإمكان ، ذلك آن إمكاناً واحداً يشغل الأفق كله . وبين المريض والسرطان حلول ، ولم يعد ثمة مدى للحركة : فلا وجود لها هي ذاتها إلا بموضوع السرطان ، وكل جديد مستبعد ، وكل شيء « مصاب بالسرطان » . فالموضوع الموضوعي ، السرطان بوصفه مرضاً واقعياً ، فقد معناه بالتدريج ، بفعل الاجتياح الذي أنجزه ولم يبق غير الرعب : وهنا تقع فترة أساسية ، ذلك ان الرعب ، أو الحصر والثقة بالحري ، هما الحالتان الوجدانيتان القبليتان للوجود . فالمريض ، هنا ، ألغى الثقة ، ولم يعد بإمكان العالم أن ينبسط إلا على صورة المرعب ، وهذا هو الهذيان . وسبب تحرّر المرعب يكمن في عبارة لطبيب البولية الذي أتى ، وقد فحص زوجها ، يعلن « السرطان » إليها : فمصطلح « السرطان » أصبح مناخ العالم كله . إن قراءة كتاب بنسفنغر الرائع أمر لا غنى عنه لفهم معمّق . ولم يكن هذا المثال يرمي إلا إلى إعطاء فكرة عن نمط الفهم الذي ينطوي عليه العلاج النفسي الوجودي . فماذا حدث لمصطلح الحضور الذي كان يبدو على أنه المحل ذو الامتياز في علاقة المريض بعالمه ؟ هذه العلاقة ، في حالة المريضة التي أتينا على ذكرها ، مرّت بالسرطان ثم بالرعب ، وذلك من حيث أن المكان الدينامي للحركة ، أي للعلاقة بالذات ، هو نفسه موضع اجتياح ، وكل إمكان مغلق منذئذ . فعلاقة المريضة بالعالم علاقة قاصرة : إنها لم تعد سوى تكرار المرعب ، دون نافذة ممكنة .

٣ ـ مقاربة الذهانيين لدى جيزيلا بانكو

جيزيلا بانكو معالجة نفسية ألمانية تمارس العمل في فرنسا ، وباللغة الفرنسية على وجه العموم ، منذ سنين عديدة . وكانت مسوقة ، وقد أذهلتها الصعوبة ، وربما التعذّر ، في ممارسة تحليل نفسي عندما يكون المرضى ذهانيين ، إلى التركيز على « صورة الجسم » لدى هؤلاء المرضى . ولا بد ، في رأيها ، من القيام بضرب من إعادة تبنين الجسم ، أي تبنين الصورة التي لدى المريض عن جسمه ، قبل ممارسة تحليل نفسي . وهذا الأمر هو الذي سنعرضه هنا . فالأنا [١٧] ، وحدة

---

(١٧) انظر فصل «تصنيف المرضى النفسيين» في هذا الكتاب .

الفرد ، وحدة جسمية أيضاً ، ليست متفكّكة في العصاب ، والشخصية ليست مصابة . أما في الذهان ، فان هذا المرجع ، الأنا ، أو وحدة الجسم ، هي التي تنحلّ . وتقول بانكو إن « الإنسان تبتلعه سيرورة التفكّك في جسمه المعاش » . وهذا التفكك في الجسم المعاش(١٨) يبدو لها من الأهمية بحيث أن ممارستها العلاجية سترمي إلى أن تعيد تبنين الجسم .

وظائف صورة الجسم

لصورة الجسم (١٩) وظيفة مزدوجة ، وظيفة تبنين صوري أو مكاني : وتؤمّن هذه الوظيفة « رابطة دينامية بين الأجزاء وبين كلية الجسم » . وعندما تتهدّم هذه الوحدة الصورية ، في الفصام على سبيل المثال ، نقول إن الجسم متفكّك : وتلك هي الحالة التي يكون فيها جزء من الجسم يكافىء كلية الجسم . وثمة وظيفة أخرى لصورة الجسم ليست خاصة ببنية الجسم بوصفها صورة ، بل من حيث هي محتوى أو معنى . فعندما تكون هذه الوظيفة مصابة بالقصور ، في الهذيانات المزمنة لا في الهذيانات الفصامية ، فان وظيفة جزء من الجسم ، الوظيفة الجنسية على وجه العموم ، هي التي يجهلها المريض . ومشكل المعالج النفسي إذن يكمن في أن يصل إلى أن يبنين جسم المريض المفكك تبنيناً جديداً من الناحية الصورية أو من وجهة نظر المعنى .

وكان فرويد قد اعترف من قبل بأن من المتعذّر أن يمارس المحلّل تحليلاً نفسياً مع الذهانيين ، لأن هؤلاء غير قادرين على الدخول في علاقة متبادلة مع الغير . وليصبح هذا الدخول ممكن البلوغ ، تحاول بانكو أن تقود المرضى إلى الاعتراف بـ حدود جسمهم الخاص . والواقع أن المريض عاجز عن الدخول في علاقة مع أي كان ما دام عاجزاً عن أن يميّز جسمه الخاص ، على نحو موحّد ، من بقية العالم ، ومن جسم الغير على وجه الخصوص . إنه عاجز عن إدراك الآخر بوصفه آخر بما أنه عاجز عن إدراك ذاته على أنه واحد . وترمي طريقة بانكو إلى

---

(١٨) «الإنسان وذهانه» ، جيزيل بانكو .

(١٩) انظر الفصل التالي في هذا الكتاب : «علم النفس الأساسي» .

أن تمنح الذهاني ، ذا الجسم المفكّك ، هذه الوحدة ومعنى هذه الوحدة ، منحاً جديداً . وطريقة بانكو ، شأنها شأن التحليل النفسي ، تندرج في علاقة لفظية . ومن الضروري مع ذلك أن نستخدم وسائل خاصة لنبلغ عالم المريض ، بالنظر إلى أن التحويل غير موجود لدى الذهانيين . وإحدى هذه الوسائل ذات الامتياز هي الرسم في رأي بانكو ، وصنع النماذج على وجه الخصوص ، ذلك أنه يتطلب من المريض اتصالاً مباشراً بالمادة ، اتصالاً مؤاتياً جداً ليتعرّف المريض على الإحساسات الجسمية ، أي على وظيفة واقعية للجسم . ومن الصعب جداً ، في بعض الأحيان ، أن نجعل مريضاً من المرضى يمسّ العجينة . فإذا طلبنا إليه أن يصنع نموذجاً لشيء من الأشياء ، فإن ثمة احتمالاً مفاده أن نبلغ عالمه المهجور ، مهما كان الاحتمال ضعيفاً . فهناك إذن تقنيتان ممكنتان : بوسعنا البحث مباشرة ، من خلال الشيء موضوع الصنع ، عن دينامية العلاقات الموجودة بالنسبة للمريض مع المحيط الاجتماعي ، أو بين الأشياء ، أو بين الناس . ونحن إذن نطرح السؤال التالي على المريض ، في معرض صنعه النموذج : « إلى من يمكن أن تعود ملكية هذا الشيء ؟ » ، فان هذا السؤال يمكنه أن يتيح لعلاقات بالموضوع أن تتبنين في عالم يقظ [٢٠] ، علاقات تندرج في تاريخ الفرد . وهذه العلاقات ، علاقات بموضوعات الرغبة ، ستتيح انبعاث الطلب فجأة والاعتراف بالرغبة . وهذا أمر غير ممكن إلا اذا كانت بنية الجسم سليمة من الناحية الصورية ، أي إلا إذا كان المعنى وحده هو المفقود . وتتدخّل التقنية الثانية إذا كان « المريض عاجزاً عن أن يتعرّف على الشيء الذي يصنع نموذجه بأنه جزء من عالم مكاني منظّم » [٢١] . وعندئذ ينبغي لنا أن نوجّه الأسئلة إلى المريض كما لو أنه هو ذاته كان الشيء الذي يصنع نموذجه ، أي أن نوجّه إليه الأسئلة كما لو أن الشيء يكافىء كلية جسمه .

وهاتان التقنيتان مبنيّتان على فكرة مفادها أن رغبة المريض تتجلّى حول صور

---

(٢٠) انظر فصل «النمو الوجداني لدى الطفل» في هذا الكتاب .

(٢١) «التبنين الدينامي في الفصام» ، جيزيل بانكو .

دينامية نسميها الاستيهامات ، وأن صنع النماذج قد تكون درباً لبلوغ هذه الاستيهامات ، والتعرّف على الرغبة . ونسمي هذه الطريقة النظرية « التبنين الدينامي » (٢١) .

ولا يرمي العلاج النفسي إلى إرضاء المريض ، بل إلى مساعدته على ان يصوغ طلباته ، ويتعرّف على رغباته اللاشعورية . والمريض يمكنه ، وقد تعرّف على جسمه وعلى رغباته التي تتجلّى فيه ، أن يلاقي الغير ، أي أن يخرج من اللدهان ، بفعل هذه الصياغة وهذا التعرّف على سبيل الحصر .

٤ ـ كارل روجرز واللاتوجيهية

كارل روجرز عالم نفس معالج ، أمريكي ، ذو تكوين نظري متعدّد الجوانب ، قاده تاريخه الشخصي ، ونشاطه المهني أيضاً إلى أن يطرح المبدأ الذي ينبغي للعلاج النفسي بحسبه أن لا يتمّ تبعاً لنظريات غريبة عن تجربة المريض ، تجربة هو مركزها ، بل أن يتمّ على وجه الخصوص لمصلحته ولأن من الضروري أن يكون هو ذاته الدليل في هذه المصلحة . واحتياز الشعور ، الذي يحقّقه المريض ، بتجربته الفردية ، هو الذي ينبغي له أن يكون قاعدة التنظيم الجديد اللاحق لسلوكه . ويقتصر دور الطبيب على ان يساعد جهد المريض ذاته ويعزّزه ويرافقه . ويستبعد روجرز ، بهذا المبدأ ، كل تدخّل من نموذج التحليل النفسي ، كتفسير الأحلام أو الاحباطات القادرة على أن تبعث ضرباً من التحويل .

وتكمن فرضية روجرز في أن تبرز أن للإنسان قدرة ، كامنة على الأقل ، على أن يستشعر ويفهم ما يجعله يتألم (٢٢) . وتتيح للإنسان هذه القدرة ، في رأي روجرز ، أن ينظّم نفسه ، هو ذاته تنظيماً جديداً ، وأن يبلغ أكبر قدر من نقل ما لديه من مجال القوة الى مجال الفعل . والقدرة على فهم الذات ، ولو أنها ليست نظرية وصريحة ، هي مع ذلك كافية لكي تتيح للفرد أن يدمج التجربة المباشرة دون تشوّش . ويضيف روجرز أن هذه القدرة نزّاعة إلى الممارسة حتى لدى الفرد المريض . والسؤال الذي يطرح نفسه هو بالحري ما يلي : كيف يتوصّل الفرد إلى

---

(٢٢) «العلاج النفسي والعلاقات الإنسانية» ، كارل روجرز .

ان يكون مريضاً نفسياً ؟ ويجيب روجرز عن هذا السؤال في نظريته ، نظرية الأنا .

أولاً ـ الحياة ، في رأي روجرز ، دينامية تدفع كل فرد إلى أن ينقل من القوة إلى الفعل كوامن عضويته وكل ما تتيح تجربته أن يدركه بوصفه ملائماً لحاجاته . وبعض هذه الجوانب تتجلّى في ضرب من وعي الذات ينتظم لكي يكوّن الأنا : وهذه الأنا المتغيّرة ، متبنينة مع ذلك على نحو متماسك . فتصبح عندئذ جزءاً من تجربة الفرد والدليل السوي لسلوكه في الوقت نفسه . وليكون بوسع هذه الوظيفة ، وظيفة الدليل ، أن تكون واقعية ، ينبغي للأنا أن تكون ذات نزعة واقعية ، أي مبنيّة على التجربة الصحيحة . وما يتّسم بأنه ضروري للسواء هو إذن توافق الأنا مع التجربة الكلية . وينبغي لكلية التجربة الفردية أن تكون جاهزة بالنسبة إلى الأنا . فلا شيء ينبغي له أن يُستبعد استبعاداً جذرياً من الشعور . ولكي يشبع الفرد حاجاته الأساسية ، كحاجته إلى أن يحترمه الغير على سبيل المثال ، فانه يكتم مع الأسف بعض عواطفه ، وسرعان ما لم يعد يتعرّف عليها بوصفها عواطفه التي يكابدها على الأقل .

ثانياً ـ إن ضرباً من القمع الذاتي ، المرتكز على الحاجات ذات العلاقة بالغير ، هو الذي ينتزع إذن من الشعور كتلة كاملة من التجربة . ولم تعد الأنا ذات علاقة بكلية التجربة لدى الفرد . وهذه هي الشخصية العصابية في رأي روجرز : فالأنا توجّه سلوك الفرد بمعزل عن جزء كبير من التجربة . وسينزع هذا الجزء إلى أن يظهر ظهوراً جديداً على الرغم من الأنا : فالإنسان قادر دائماً على أن يرمّم نفسه بنفسه ، ولكن هذه القدرة مصدر كبير للحصر عندما تنزع إلى الانتقال من القوة إلى الفعل ، ذلك أن الأنا تشعر بأنها مهدّدة .

ثالثاً ـ من المناسب أن يقدّم المعالج إلى المريض علاقة إنسانية تخلو من التهديد : ولا بد من ابتكار وضع بوسع المريض أن يضطلع بكلية تجربته الفردية دون أن يسبّب ذلك نزاعات مع الغير . وهذه العلاقة علاقة لاتوجيهية ، أو بالحري علاقة متمحورة على الفرد ، ذلك أنها ترفض التفسير ، ولا ترمي إلا إلى

أن ترافق المريض في بحثه . فتحديد عمل المعالج أمر بسيط : إن عليه أن يقدّم للمريض علاقة إنسانية إيجابية ، وحفيّة ، وقادرة على أن تتيح له الانفتاح على تجربته الخاصة ، وتتيح له على هذا النحو أن يجري ضرباً من التنظيم الجديد حول أنا « ذات نزعة واقعية » . وعلى المعالج النفسي ، من أجل ذلك ، أن يكون هو ذاته موضع ثقة ، منفتحاً وحفيّاً بعاطفة المريض . وعليه أيضاً أن يبدي مشاركة وجدانية ، أي أن يحسّ هو ذاته بعالم ذلك الذي يرافقه . وينبغي له أن يكون ذا حضور حقيقي بالنسبة للمريض . ولا بد له أخيراً من أن يبدي احتراماً لمريضه غير مشروط .

رابعاً ـ علاج روجرز مرتكز على الفكرة التي مفادها أن مهمة عالم النفس المعالج ليست سوى شرط مؤات لعمل المريض ذاته ، عمله الفعلي . وتسويغ ذلك أن العمل لا يمكنه أن ينجح إلا إذا كان عمل من يفيد منه . ومن غير أن نقصد تقديم ضرب من النقد ، نقد عسير في بعض الأحيان ، نظراً للنتائج الحاسمة التي حصل عليها روجرز ، فإن مما لا شك فيه أن الجزء النظري من تأليف روجرز ضعيف نسبياً . فالرفض المطلق لاعتبار التناقض والصراع فترة دينامية لا يبدو على وجه الخصوص موضع نقاش فحسب ، بل يبدو ايديولوجياً بصورة صريحة .

ثالثاً ـ علم العقاقير النفسية والطرائق المسكّنة بفعل التأثير على الجملة العصبية

طرائق الطب النفسي تستخدم في أيامنا هذه، استخداماً مترافقاً، طرائق العلاج النفسي والطرائق الخاصة بجسم المريض . والحقيقة مع ذلك أن استخدامها معاً استخدام حديث . والمؤثرات في الأصول الخاصة بكل من هذين النوعين من الطرائق مؤثرات متعارضة . فعلم العقاقير النفسية لم ينم إلا حديثاً ، في حين أن التقنيات المسكّنة بالتأثير على الجملة العصبية مرتكزة على فكرة قديمة جداً : كان

ثمة اعتقاد بأن عدداً كبيراً من الأعراض ناجمة عن التهيّج الدماغي . فمن الضروري إذن إيجاد الوسائل القادرة على إيقاف هذا التهيج ، ومن هنا منشأ الفصاد والمسهّلات ، التي كانت تمارس في بدايات القرن التاسع عشر . وإلى هذه الفكرة انضافت فكرة مناطق القشرة الدماغية . فبعض التقنيات ، التي لا تزال تُستخدم في أيامنا هذه ، وريثة هذه النظريات .

١ ـ الطرائق المسكّنة بالتأثير على الجملة العصبية

هذه الطرائق ثلاثة أنواع : الصدمات الكهربائية ، والسُبات الأنسوليني ، والجراحة النفسية .

أولاً ـ إذا كان تواتر استخدام هذه الطرائق متغيراً ، فان نجوعها موضع شك ، أي موضع نقد كبير . وفيما يخص النوع الأخير منها ، الجراحة النفسية ، فانها عاثت فساداً مع الأسف على صورة الجراحة الفصّية ـ قطع الفصوص الجبهية ـ خلال العديد من السنين ، في جميع البلدان بحدود ضعيفة ، وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص . وكانت موضع النصح في حالات القابلية المرضية للهيجان والحصر والوسواس . ولم تكن ترمي إلا إلى إزالة العرض . ويبدو أن حالات « النجاح » كانت نادرة وتبدو على وجه الخصوص بسبب مشكلات ذات علاقة بالأعصاب . أما النتائج المؤسفة ، فانها ، على العكس ، عديدة جداً . ويصعب على المرء أن يفهم السبب الذي يدعو إلى أن لا تهمل هذه التقنية إهمالاً كلياً بعد .

ثانياً ـ مشكل الطريقة بالصدمات الكهربائية أكثر تعقيداً . وميزة هذه الطريقة على الأقل أنها لا تُحدث تلفاً عضوياً . وهي ترتكز على فكرة التنافر بين الصرع والذهان . فالمعالج يُحدث صدمة كهربائية قادرة على تحديد أزمة شبيهة بالصرع ، ويعتقدون بأنهم على هذا النحو يزيلون الأعراض الذهانية . ومستوى النجوع في هذه الطريقة هو مستوى النجوع نفسه في طرائق الصدمة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومن المعلوم أن صدمة قوية جداً ، أو خطراً ، يمكنهما أن يزيلا القلق أو الاكتئاب إزالة مؤقتة . وثمة ضروب من العلاج التي تثير التشنّج ، مرتكزة دائماً على التنافر بين الصرع والذهان ، كانت قد تمت

ممارستها بالحقن بالكارديازول بجرعة كبيرة . وهذا الحقن كان يحدث أزمة صرع[٢٣] .

ثالثاً- السُبات الأنسوليني سبق الصدمة الكهربائية . ومن الضروري أن ينغمر المريض في ضرب من العدم ليُعاد تكوين شخصيته . والحقن بالأنسولين بجرعة كبيرة يُحدث إفراغ الأوعية ، وعلى وجه الخصوص ثمة أوعية دموية تخلو من دمها . والنتيجة تكافىء نتيجة الصدمة الكهربائية مع أنها أقل خطراً على مستوى الأعصاب ، فثمة حوادث وعائية دماغية عقب الصدمة الكهربائية .

٢ - علم العقاقير النفسية

أولاً- لا يرمي علم العقاقير النفسية إلى مفعول مسكّن فحسب ، بل يرمي على وجه الخصوص إلى مفعول منظّم . ومنذ منتصف القرن الأخير ، كانت بعض البحوث الخاصة بالمسكنات قد تطورت . وتكاثرت البحوث منذئذ وتنوّعت المنتجات . وأصبحت العقاقير المهدّئة للأعصاب ضرورية للمعالجة بالعلاج النفسي .

ثانياً- وإلى هذه المعالجات ، لا بد من إضافة العلاج الفيزيولوجي ، كالعلاج بالنوم والإسبات والاستخدامات العلاجية الخاصة بالأوعية والخلايا ، والعلاج بالإشراط أيضاً ، إلخ .

والحقيقة مع ذلك أن جميع هذه الطرائق ، باستثناء العلاج النفسي بالمعنى الدقيق للكلمة ، لا ترمي أبداً إلا إلى أن تزيل عرضاً لفترة زمنية طويلة على وجه التقريب : فبنية الفرد المرضية لا تبرز ، ولا يمكنها إذن أن تُمسّ على نحو واقعي . ومن الضروري مع ذلك ، وليس في نيتنا أن ننقد هذه الطرائق ، أن نعرف أن جوّ مشفى للطب النفسي لا يشترك ، بفضلها ، بأي صفة من الصفات مع الجو الذي كان سائداً منذ بعض العقود من السنين .

---

(٢٣) والحقيقة مع ذلك أن هذه الطريقة تخدم سادية الطبيب النفسي «اللاشعورية» أكثر بكثير مما تخدم المريض . إنه لأمر كارثي على وجه الدقة أن يستمر مثل هذا الأسلوب باقياً في الطب النفسي .

وتتيح هذه الطرائق غالباً ، من جهة أخرى ، ممارسات علاجية جديدة : العلاج النفسي الجماعي الذي لا نجادل في أن عدم بحثه هنا ضرب من النقص ، والعلاج بالعمل ، إلخ .

رابعاً ـ الاتجاه المعادي للطب النفسي

ليس بوسعنا ان ننجز هذا الفصل حول علاج المريض النفسي دون أن نفحص مجموعة من الاتجاهات التي نجمعها تحت المصطلح التالي : الاتجاه المعادي للطب النفسي . وليست الطرائق العلاجية وحدها مطروحة على بساط البحث ، بل بالحري منظورات حول الجنون يمكننا أن نجمعها في أمور أربعة :

- نقد لوصف الأمراض في الطب النفسي ؛
- نقد لمؤسسة الطب النفسي ؛
- تأمل حول صلة الجنون بالمجتمع ؛
- وضع السلطة الطبية موضع الاتهام في مجال علم الأمراض النفسية .

١ ـ نقد لوصف الأمراض في الطب النفسي

وصف الأمراض أو تصنيف الأمراض النفسية ضرب من عملية التحقّق ـ بالمعنى البوليسي للكلمة ـ المرتكزة على إمكان تشخيص . ووضع المعلومات عن الأفراد المنحرفين في بطاقات ، مهما بدا علمياً (٢٤) ، هو ، مع ذلك ، ممارسة تنزع إلى إيجاد التماثل بين الانحراف الاجتماعي (الغرابة والالتباس واللامنطقية) وبين الكيان المرضي ، كالفصام على سبيل المثال .

ومشروعية هذا التماثل يقلّ اتصافها بأنها مضمونة بقدر ما تكون السيرورة العاملة في الفصام (سبب هذه السلوكات المنحرفة) بعيدة عن الوضوح . فمنشأ الفصام ، في رأي المؤلفين ، محدّد في تشوّه حيوي كيميائي ، أو في عيب بنائي في

---

(٢٤) انظر معنى البنية في الفصل «تصنيف المرضى النفسيين» في هذا الكتاب .

الدماغ ، أو في عجز تكويني ، أو في إنتان فيروسي ، أو في إحباطات أو صدمات وجدانية شتى . . . والقائمة ليست تامة .

وفي هذه الشروط ، يطرح الذين يعارضون الطب النفسي سؤالاً مضحكاً : وإذا لم يكن الفصام (و « الأمراض النفسية » الأخرى) مرضاً ، أليس ثمة مرض للفرد يُعرض على أنه فصام ؟ وإذا لم يكن « المريض النفسي » المزعوم سوى كبش الفداء لأزمة تخصّ فئة اجتماعية أو لأزمة المجتمع ؟ وإذا لم يكن الأطباء النفسيون وعلماء النفس الآخرون يصلحون إلا ليضمنوا دورة الشعوذة ويؤكدوها ، دورة قوامها أن تعزو صفة « المرض » إلى ذلك الذي ليس في الواقع سوى الضحية لتنظيم اجتماعي هاذٍ إلى حدّ يصيب بالعجز أحداً من اعضائه ، أحداً يتمّ تسميته ليحمل خطيئات الجميع ؟

ويبدأ ضد الطب النفسي هنا . وليس المقصود مجموعة من الطرائق العلاجية التي تتعارض مع طرائق أخرى ، بل ممارسات تتناقض مع أساس الطب النفسي ، أساسه ذاته ، من حيث كونه فرعاً من فروع الطب . فليس الجنون مرضاً ، حتى ولا مرضاً نفسياً . وذلك هو التأكيد الأول . وكل السيرورة الطبية التي تمضي من رصد الأعراض إلى وضع العلاج ، مروراً بمعرفةٍ لوصف الأمراض والتشخيص والإنذار ، ليست سوى خديعة تحتاز السلطة الطبية بواسطتها مجالاً واسعاً من التدخّل الاجتماعي : فتصبح الهيئة الطبية ، بواسطة عالم العلوم النفسية ، هي الوسيلة الحاسمة في الرقابة الاجتماعية . وفي مؤسساتها المتخصصة ، مشفى الطب النفسي ، بل والطب النفسي القطاعي أيضاً أو المؤسسة الطبية البيداغوجية ، تتكفل الهيئة الطبية ، بنجاح ، بالتحذير من كل خطر جدّي هدّام في الحيّز الاجتماعي للرغبة .

٢ ـ نقد لمؤسسة الطب النفسي

على المركز ذاته ، مركز سلطة الطب النفسي ، انصبّ اعتراض بعضٍ من المعارضين للطب النفسي ، الإيطاليين منهم على وجه الخصوص . فهم لم يقتصروا ، كما فعل العلاج النفسي المؤسسي ، على تحليل الأدوار الخاصة بكل جهاز من أجهزة المؤسسات ، وكل عنصر من عناصرها ، ليمنحوها على جميع

المستويات وظيفة علاجية . بل بيّنوا أن كل مؤسسة للطب النفسي ، أياً كانت ، كانت في نهاية المطاف عاجزة عن أن تعمل مع الجنون . فاذا كان الجنون صورة من أمهات صور التعبير عن التناقضات الاجتماعية والثقافية والايديولوجية ، فان مؤسسة الطب النفسي ، بوصفها آلة معيارية ، ليس بوسعها إلا أن تكبته لا أن تفهمه : بوصف الطب النفسي آلة لحجب الجنون في العالم . فجعل الجنون محل التناقض الاجتماعي والسياسي ذا الامتياز ، واستخدام الجنون ضد مؤسسة الطب النفسي لكشف القناع عن طبيعتها القمعية ، ذلكم ، باختصار ، معنى الممارسة المؤسسية المعارضة للطب النفسي . إنها ممارسة عابرة بالتأكيد ، ولكنها كان لها الفضل في أنها هزّت الوجدان الطيّب لأولئك الذين يعالجون المرضى النفسيين ، أكثر من أي معارضة أخرى .

٣ ـ تأمل حول صلة الجنون بالمجتمع

تستحق المسألة عدة كتب حتى نعالجها على نحو تفصيلي . ولنقل ، وما نقوله إشارة فقط ، إن الاتجاه المعارض للطب النفسي يُرجع الجنون ، حين تنزع الصفة الطبية عنه ، إلى محل انبعاثه الأول : الأسرة ، والجماعة الاجتماعية . فأي نقيصة ، غير طبية ، بل ثقافية ، وايديولوجية ، وسياسية ، يتيح الجنون للمرء أن يرى ؟ وإلى أي المكائد الماكرة والقاتلة تستند كارثة الجنون ؟ وما واقع مجتمعاتنا التي لا تعرف سوى أن تحتجز الأكثر اتصافاً بأنها مثقلة بالدلالة في مؤسسات أو في أنفسها ؟

هذه التساؤلات ، وكثير من التساؤلات الأخرى ، الخاصة بنظرية الطب النفسي وممارسته ، تتمفصل بالتأكيد حول تحليل سياسي لوظيفة الطب النفسي .

٤ ـ وضع السلطة الطبية موضع الاتهام

يبيِّن الآن ما سبق أن الجنون لا يحتاج أي حاجة إلى الأطباء لعلاجه إذا لم يكن مرضاً . ولكن هذا غير كاف ، ذلك أن الواقع يُظهر أن الطب النفسي يفلح كثيراً في أن يبلغ الهدف الذي يقصده : فليس ثمة مجال لأن ننكر نجوع الوسائل العلاجية ـ عقاقير ، ومؤسسات ، وضروب العلاج النفسي ، إلخ ـ في الإقلال من الانحراف . ورحى الطب النفسي ذات قدرة تامة على هضم المجانين ، ولو أنه لا

بد لها من سحقهم في سبيل ذلك . ويكون السؤال بالحري : أي مصلحة في كل ذلك ، لا بالنسبة للمرضى بالتأكيد ، بل بالنسبة للأطباء ؟

والمرء لا يمكنه أن يجيب إجابة متسرّعة عن هذا السؤال . ولنشر ببساطة إلى ان السلطة ، إذا كانت قوة المعيار في مجتمعاتنا الغربية تنزع إلى التغلب على قوة القانون [٢٥] ، يحتازها عندئذ ، على نحو متعاظم ، أولئك الذين يحتفظون بمفاتيح السوي والمرضي . فعام ١٩٨٤ [٢٦] ليس بهذا القدر من البعد عنا ، يقول أورويل ، وشرطة الفكر ربما كانت الآن أفضل تكويناً مما يظن الناس .

* * *

---

(٢٥) انظر ميشيل فوكول .

(٢٦) أورويل ، عام ١٩٨٤

الفصل الثالث

علاقة المريض والطبيب

أحد التأكيدات الحديثة في علم النفس حول المرض يكمن في القول إن المرض ليس شيئاً في ذاته . وليس موقعه في فرد منطوٍ على ذاته ، وليس بوسعنا أن نحدّد موقعه في عضوية ننظر إليها على أنها منعزلة . فالمرض يدخل في مجال بين ذاتي . والمريض ليس مريضاً في ذاته ، بل المريض مريض بالنسبة لعالم مادي وبشري يساعده أو يحول بينه وبين أن يتكوّن من حيث هو مريض . وهكذا فان المرض لا يحدده من يحسّ بأنه مريض تحديداً نهائياً ، بل ثمة وضعُ مريضٍ لن يُمنحه إلا تبعاً لوسط طبيعي يسمح بمرضه أو لا يسمح ، وتبعاً ، على وجه الخصوص ، لوسط ثقافي (أسرة ، محيط ، طبيب ، مجتمع) يعترف ببعض الأمراض وينبذ أمراضاً أخرى ، ولكنه سيكيّف أعراض المريض وفق مقاييس تحدّدها التربة الثقافية .

فالمرض يتكوّن إذن ، أول الأمر ، في جسم فرد ذي علاقة بعالم اجتماعي اقتصادي معينّ ، يدلي بحجج ليتّخذ صفة المريض أو حتى لا يتّخذ هذه الصفة . ومآل المرض كامن في علاقة ثنائية على الغالب بين فرد من الأفراد وبين الطبيب . ونحن نعنى هنا بالجانب السيكولوجي من هذه العلاقة ، علاقة المريض والطبيب .

أولاً. ما قبل تاريخ المرض

إننا نقصد بهذا المصطلح تلك الفترة التي يحسّ فيها فرد من الأفراد بتغيير في

وجوده في العالم ، ويقرّر الذهاب لرؤية طبيب . وهذه الفترة رئيسة ، ذلك أنها تكشف لنا عن مقاييس المرض ، أو بالحري ، عن أعراض تُقلق فرداً من الأفراد . يضاف إلى هذا أن ثمة قولاً كاملاً أسرياً واجتماعياً ، سينعقد حول هذه الأعراض ، قولاً يمكنه أن يكيّف هذه المظاهر الأولى التي ربما يكون قد أوجدها ، أو يوقفها ، أو يعزّزها .

وهكذا فان علاقة المريض والطبيب مآل مُحْتَمل يتلقّى نهايته في عيادة الطبيب . ومن المؤكد أن لهذا الما قبل التاريخ دوراً يبدو ضئيلاً في حالة الأمراض العضوية بالتحديد ، كمرض فيروسي على سبيل المثال ، حيث يبدو أن الجسم وحده يكون مصاباً وأن لعلم النفس دوراً ضئيلاً يؤديه . ومع ذلك ، ليس بوسع المرء أن ينكر أن انطلاق مرض من هذا النوع سيجرّ ضرباً من التبنين الجديد المباشر ، واللاشعوري غالباً ، لوجود المريض في العالم . فحضوره في العالم سيجد نفسه متغيراً : علاقته بجسمه ، وعلاقته بالوسط الإنساني الذي يحيط به ، وعلاقته بحياته الخاصة الاستيهامية ، وكذلك علاقته بالتوازن الدافعي المتحقّق في أسرته أو في الوسط الإنساني الذي يعيش فيه . ويبرز المرض ، جسمياً كان ، أو جسمياً نفسياً ، أو سيكولوجياً ، على أنه أمر جديد متوقّع أو منتظر ، أو موضع إنكار ، أو ربما منبوذ ، ولكن على موجود ذي علاقة بعالم من العوالم أن يأخذه بالحسبان . فأنا لست أبداً وحيداً في انطلاق المرض ، بل الغير حاضر في هذا المرض .

والسؤال الذي يطرح نفسه يكمن في معرفة الكيفية التي ينتهي بها فرد من الأفراد إلى أن يعتبر نفسه مريضاً . ويحدث ذلك عندما يعاين شخص من الأشخاص بنفسه ، أو بواسطة شخص آخر ، تغيراً في موقفه من العالم . وربما كان ذلك في الأغلب على مستوى إحساس بالانزعاج العام موضعه غير محدّد ، يجعله يجتاز الشعور بجسمه . وبما أن علامة « السواء » تكمن ، على وجه التقريب ، في نسيان الجسم في أعماله العادية ، فإن الإحساس بالمرض يولد عندما يتجلّى الجسم بثقله على نحو مركّز ، وبمقاومته للأعمال . وهذا الاحساس لا ينصبّ ، في رأي غولد شتاين ، على التغيّرات في محتوى الظاهرات الحيوية

كالنبض والتنفس ، بقدر ما ينصب على الاضطراب في سير هذه الظاهرات . ويلاحظ الفرد ارتكاسات مشوّشة وكارثية . فالفرد يعيش المرض إذن على انه ضرب من « تزعزع الوجود » ، ولكن قرار المرض ليس بالوسع اتخاذه إلا بالرجوع إلى الوجود الفردي ، وإلى كل عضوية خاصة في علاقتها بوسط معيّن . وعلى هذا النحو ، فإن الأفراد ذوي القلب الصغير جداً يمكنهم أن يعيشوا في هيئة معيّنة ، أو في مهنة من المهن ، عيشاً على ما يرام ودون مشكلات ، ولكنهم قد لا يستطيعون أن ينجزوا أعمالاً أكثر صعوبة . فالمرض والصحة هما إذن تابعان ، على مستوى بنية العضوية ، لفرد محدّد ، وللوسط الذي يواجهه هذا الفرد . وغولدشتاين يعرّف الصحة عندئذ بـ « التوافق التام بين التجلّيات الخارجية في الحياة لدى فرد من الأفراد وبين احتياجاته البيولوجية الخاصة كما تنجم عن المواجهة بين وضع الحياة الخارجية وبين قدرته الوظيفية الفيزيولوجية [1] » . ويظهر الإحساس بالانزعاج عندما يوجد تنافر بين العضوية ووسطها . وعندئذ يحسّ الشخص بجسمه على أنه يقاوم مشروعاته ، وأنه لم يعد المساعد على التأثير في العالم .

وتأتي فتنضاف إلى هذا الانزعاج العام فروق تابعة للتكوين الذي يميّز كل فرد (عمر ، وعرق ، وجنس) ، وتابعة كذلك للوسط الثقافي الذي يتردّد إليه ؛ فهذا الوسط يقبل بعض الأمراض بسهولة متزايدة أو متناقصة ، بل ويمكنه أن ينبذ أمراضاً أخرى . وهكذا فإن كوس [2] يلاحظ ، وهو يدرس العلاقة الموجودة بين الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليهاالفرد وبين إحساسه بوجود أعراض مرضية كفقدان الشهية ، والألم القطني المتكرر ، والسعال الدائم ، والألم العضلي أو المفصلي الدائم ، والعادات الشهرية الحادة ، أن « ٥٧ ٪ من أولئك الذين يفقدون الشهية ، في الطبقات العليا ، يرون في ذلك علامة مرضية ، وهذه النسبة تبلغ في الطبقات المتوسطة ٥٠ ٪ وفي الطبقات الدنيا ٢٠ ٪ . . . . » . ويكبر الفارق ،

---

(١) «بنية العضوية» ، غولد شتاين .

(٢) ذكره لان أنترالغو ، «الطبيب والمريض» هاشيت ، ص ١٧٠ .

فيما يخص السعال الدائم ، فيمضي من ٧٧ ٪ في الطبقات العليا إلى ٢٣ ٪ في الطبقات الدنيا . أما فيما يخص الآلام العضلية والمفصلية ، فانها ٨٠٪ و ١٩٪ .

١ - المريض ومحيطه

فرجع الفرد إذن للانزعاج الذي استحوذ عليه يختلف تبعاً للهيئة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، ولكن ما يحمله على رؤية طبيب من الأطباء هو العلاقات التي يقيمها مع حياته الدافعية الخاصة المتوافقة مع حياة محيطه . وهكذا فإن بعض الأفراد ، الذين يواجهون هذه « الكبوات » ، الموضوعية مع ذلك ، يمكنهم تماماً أن يرفضوها . إنهم لا يريدون أبداً أن يسمحوا لأنفسهم بمرض سيمثّل بالنسبة لهم خطراً من الأخطار (حصراً ، خوفاً من الموت ، خوفاً من التراجع) ، ويحاولون الاستمرار في فاعلياتهم العادية بقدر ما يستطيعون . وثمة ، أخيراً ، أشخاص آخرون يعترفون بهذه الأعراض على أنها أعراض جدّية ، ويذهبون لاستشارة الطبيب الذي ينبغي له أن يقول لهم إن كانوا مرضى أم لا . وعندئذ يفوّضون أمرهم إلى كلام الطبيب . وصورة المرض صورة واضحة نسبياً إذا اقتصرنا على دراسة المرض الجسدي (إنتان ، كسر ، الخ) . وفي هذا المستوى ، كما قلنا ، قد تمنع بعض الآليات السيكولوجية ، إلى درجة محسوسة ، بعض الأشخاص من أن يعتبروا انفسهم مرضى ، ولا يقبلون علاجاً إلا تحت ضغط محيطهم ، وذلك يبيّن لنا علاقة المريض والمرض والمحيط . وثمة ، مع ذلك ، أمراض يصعب الإحاطة بها لنقص كبير في وضوحها ، ذات منشأ نفسي جسمي وذات أعراض أقل وضوحاً بكثير ، كالمصابين بعسر الهضم ، والإمساك ، والشقيقة ، والبدانة ، وبعض المصابين بمرض القلب الكاذب ، والموظفين الذين سيطرحون على الطبيب العام أو الاختصاصي بعض المشكلات . إنهم أشخاص يقولون عن أنفسهم إنهم مرضى ، ولكنهم عاجزون عن أن يتّخذوا صفة المريض بسبب الطبيب الذي لا يرى أي اضطراب عضوي محدّد . إنهم على هذا النحو رُدّوا على أعقابهم دون أن يحصلوا على وضع كانوا يبحثون عنه . فهل هم مرضى أم لا ؟ ومن خلال المحادثة بين المريض والطبيب يوضع موضع المناقشة تأسيس

وضع مرفوض على نحو أكثر عمومية .

٢ - هوية مرفوضة

و « المريض » الذي لم يُعترف به أنه مريض يقابله « المريض » الذي لا يريد أن يكون مريضاً ، ولكنه مريض بفعل الضغوط التي يمارسها عليه محيطه والمجتمع . وفي هذه الحالة ، يفرض الوسط عدم القبول بهذا المظهر أو ذاك المظهر الذي يبتعد عن القبول ابتعاداً كبيراً .

وهكذا فإن لوران (٣) ، الذي بلغ الثانية والأربعين من عمره ، وجد نفسه يرسو ، وهو في الرابعة والعشرين ، في مشفى للأمراض النفسية ، نقلته إليه شرطة النجدة ، ذلك أنه كان قد شرع في أحد الأيام يكدّس أساس المنزل كاتباً على راية وضعها فوقه : « أبحث عن هويتي » . وإذ أثار هذا الفعل قلق الأم والطبيب ، قالت الأم « إنه مجنون ، سيقتلنا جميعاً ، فأجاب الطبيب : دعيه وحيداً في البيت ، ستأتي سيارة الإسعاف لتأخذه غداً صباحاً » . وكان لوران قد أعاد تنظيم الأساس ، ولكنه كان قد بدأ ، في اليوم التالي ، « حياته » في المشفى . ويمتنع عندئذ عن كل كلام شخصي : وكيف يستطيع الكلام ، ذلك أنهم يرفضون هويته من الآن فصاعداً . إنه لا ينوي أن يخرج من المشفى ، فقد وضعوه فيه ، وهو باقٍ فيه : « منذ عشرين عاماً وأنا مجبر ، لخيري ، على أن أبقى تحت السقف الذي اختارته لي أمي » . وهكذا فان لوران قبل المرض الذي لا يحسّ به ، فقد عمّدوه « مريضاً » . ويقبل لوران ، والزمن يمضي ، أن يكون مريضاً طوال حياته ما داموا لا يسمحون له بأن يكون موجوداً .

٣ - مرض الآخر

نجد في حالات الأطفال اضطرابات ليست على الغالب إلا نقلاً لمشكلات الابوين من مجال القوة إلى مجال الفعل . فالطفل مريض عندئذ من أجل الآخر أو من أجل الآخرين ، إنه يُظهر أمراضهم . ونحن نحيل القارىء إلى الأمثلة التي

---

(٣) مودمانوني ، « الطبيب النفسي ، «مجنونه» والتحليل النفسي » ، ص١١٦ ،لوسوي .

تضربها مود مانوني في جميع مؤلفاتها . وتذكر (٤) حالة جاك ، الذي بلغ التاسعة والثلاثين من عمره ، الموجود في مشفى الأمراض النفسية منذ أن كان في الثامنة عشرة . والسؤال ينصبّ على « عائدية » مرضه . والواقع أن الأب مريض وهاذٍ . وتخلّت الأم عن الطفل إلى الجدة التي تزقّه مستجيبةً لحاجاته ، ولكنها لا تسمح له أن يعبّر عن رغباته . وعندما يريد جاك أن يتخذ وحده قرارات تخصّ مستقبله ، يأتي غضب الأب فيعيده الى نصابه ، أي يعيده هاذياً إلى مكان أبيه . وبما أن النبوءات الأسرية لا بد لها من أن تتحقّق ، فان جاك لم يستطيع الإفلات منها . ومن المحتم عليه أن يشغل دور المجنون . وتلاقى على هذا النحو قولان : قول الأب« الطليق » الذي يوضّح « إن لي إخوة مشوّهين أتوا من بويضات لم تبق في جنين الأم مدة الحمل الكافية » ، وقول الابن « المحجوز » الذي يعقّب على قول الأب : « كنت صغيراً جداً عندما فهمت حالة أبي » . أيها المجنون ، هل الأب يا تُرى أم الابن ؟

وخلاصة القول ، رأينا ان المرض « تبادل بين ذاتي » ، فالإنسان يعتبر نفسه على الدوام مريضاً بالنسبة لعالم من العوالم ، وبالنسبة للغير . . . و « ليس ثمة اضطرابات مرضية في ذاتها ، كما يقول كانغيلم ، وغير السوي لا يمكن تقييمه إلا في علاقة من العلاقات »(٥) . وعلينا إذن أن ندرس هذه العلاقة ، علاقة المريض والطبيب ، التي ستجمع كل المسيرة السابقة التي وصفناها . وفي المحادثة ، تتبلور جميع النزاعات التي تكلمنا عليها . وثمة فرد حيادي يلقي نظرة علمية على الأعراض ، فرد سيعترف بالمرض ، ويفهمه ويصغي إليه ، أو ينبذه . ويبقى علينا أن نصف هذه النظرة الطبية .

---

(٤) مودمانوني ، «الطبيب النفسي ، «مجنونه» والتحليل النفسي» ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ، وانظر الفصل التالي في هذا الكتاب : «اللاشعور والبنيات الأسرية» .

(٥) «السوي والمرضي» ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

ثانياً ـ الطبيب ومريضه

النظرة الطبية ، التي تجري توزيعاً في أحاديث المريض بين ما هو جدير بالملاحظة وبين ما هو غير جدير ، هي التي تحدّد المرض . والطبيب هو الذي يصغي إلى بعض العروض التي يقدّمها المريض عن أعراضه ، أو ينبذها ، تبعاً للتكوين الذي تلقاه . فالنظرة الطبية تستمدّ إذن منشأها من تربة من المعرفة (تربة إبستمولوجية) ذات علاقة بمختلف مراحل الطب وتكوينه . والطب قائم على ثنائية الجسم والنفس ، وكان من المفروض أن لا يهتم بغير الجسم ، ولكنه ، هنا أيضاً ، لا يهتم بجسم ذي رغبات وحيّ ، بل بالجسم ـ الميت ، بالجسم ـ الموضوع ، بالجسم ـ الجثة !! وعلى هذا النحو ، يعرض فوكول مؤلفه حول « نشوء العيادة » على أنه ضرب من علم العاديات الخاص بالنظرة ، ذلك أن النظرة إنما هي ما يضع المشهد الذي تتأمله على بعد ، وهي ما يضفي صفة الموضوع على ما تدركه وتضعه في حيّز لا حياة فيه ولا توتّر . « فالموضوعات المطروحة على بساط البحث في هذا الكتاب هي المكان والقلق والموت ، إنها النظرة الطبية المطروحة على بساط البحث فيه » (٦) . والتقدّم الكبير الذي أنجزه الطب في القرن الثامن عشر يكمن في الانتقال من وصفٍ لأعراض المريض ، وصفٍ محض استيهامي ، إلى تعداد إدراكي وكيفي لما يستطيع الطبيب أن يراه . والعيادة هي المحاولة الأولى ، على وجه الاحتمال ، منذ عصر النهضة ، لتأسيس علم قائم على مجرد الحقل الإدراكي ، وممارسة قائمة على مجرد استعمال النظرة . وهكذا فإن الطريقة التي أعدّها بيشا في القرن الثامن عشر تستمدّ حقيقتها من إخفاقها ، أي الجسم الميت . إن علم الطب تكوّن بملاحظة هذه الجثة : إنه التشريح السريري . « افتح بعض الجثث تر أن الغموض ، الذي لم تكن مجرد

---

(٦) «نشوء العيادة» ، فوكول ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

الملاحظة تستطيع تبديده ، سرعان ما يزول » (٧) . فحيّز النظرة الطبية ، في أيامنا هذه ، لا يزال موسوماً بهذا النشوء ، نشوء ضرب من الملاحظة التي قامت على جسم متخثّر . ومن المؤكد أن هذه الملاحظة اكتسبت موضوعية بفضل طرائقها في التحليل . وذلك ناجم عن تنظيم جديد كامل ، أي وضع جديد أُضفي على المريض ، وعن طريقة في القراءة تتيح الرؤية وهي تقول ما يُرى . وهذه البنية التي يتمفصل حولها الحيّز ، واللغة ، والموت ، أي ما يُسمّى بالإجمال الطريقة التشريحية السريرية ، تكوّن الشرط التاريخي لضرب من الطب يقدّم نفسه على أنه موضوعي ، ونتلقّاه نحن بوصفه موضوعياً . . . « فعندما أصبح الموت هو القبلي المشخّص للتجربة الطبية ، إنما تمكّن المرض أن ينفصل عن الطبيعة المضادة وأن يتّضح في جسم الأفراد الحي » (٨) . ويذكّرنا فوكول بأن علم الفرد شأنه شأن علم النفس : فكما أن علم الأمراض النفسية كان قد جعل علم النفس ممكناً ، كذلك فان علم الفرد ناشيء من الموت . فالذاتية لم تعد تمثّل الفردية ، والموضوعية هي التي حلّت محلها . ولا يزال الطبيب في أيامنا هذه يدرك الفرد المريض في جسمه بصورة أساسية ، ولو أن بعض الطرائق الأخرى ، أكملت ، الطريقة التشريحية السريرية بالتأكيد .

وسيكون الطبيب المعاصر ، الذي لا تزال نظرته موضع المحص (*) وأدوات التحليل لديه تضفي الموضوعية على أوهى عرض بصورة لا تزال تزداد يقيناً ، فريسة التحديدات في نظرته . والمؤكد أن بوسعنا القول إنه يرى كل شيء ، ولكنه يظلّ من الآن فصاعداً أصمّ الأذنين عن ما يُقال في حضوره .

وليس قول المريض غير البيان الذي يجب أن يضع الطبيب على الدرب ، ثم لم يعد ضرورياً وجود الطبيب ، فالمخبر يقوم بالباقي . وإذا كانت نظرة الطبيب تتصف ببعض العيوب ، فإن الاختصاصيين يمارسون إدراكاً محدّد الموضوع بصورة جيدة ، ويعرفون ما يخفيه الرحم والكبد . ولكن ما الذي لا يسمعه الطبيب ؟

(٧) ذكره فوكول في المصدر المذكور سابقاً ، ص ١٤٨ .

(٨) فوكول ، المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .

(*) محص الشيء محصاً : خلصه من كل عيب (م) .

١ ـ رحلة المريضة

ستتناول مثالاً على هذا الصمم الطبي . والمثال مثال سيدة بلغت من العمر عامها الثاني والثلاثين ، متزوجة لا أطفال لها . وكانت السيدة قد عبّرت من قبلُ عن اضطرابات شرسوفية وصدرية حثّت الطبيب العام على أن يرسل السيدة إلى اختصاصي لم يلاحظ أي شيء غير سوي ، ويصرّح : « يبدو لي أنها راضية جداً . . . وآمل أنني طمأنتها » . وعادت ، بعد انقضاء بعض من الزمن ، تشكو هذه المرة من صدرها . وأُرسلت إلى فحص شعاعي في عيادة سلّية . ونُصحت السيدة بالتدليك بعد أن لوحظ أن منشأ اضطراباتها منشأ عضلي أو ليفي ، ولكن التدليك لم يقدّم أي نجاح . وعندئذ فكر الطبيب بزائدة دودية مزمنة . فاستشارت السيدة عندئذ طبيباً نسائياً لم يبد رأياً ، وطلب استدعاء جراح « نصح المريضة بالدخول إلى المشفى لاستئصال الزائدة الدودية » ، فاستؤصلت الزائدة الدودية . ولكن آلام المريضة استمرت ، إذ غيّرت على الغالب تحديد الموضع ، مرة في الحفرة الحرقفية ، ومرات أخرى في الظهر . وتعلّقت لدى الطبيب بأقوال أثارت أعصابه إلى حد نبذها نبذاً متعاظماً . وأوحت آلام الظهر إلى الطبيب فكرة إرسالها لدى جرّاح مقوّم للاعضاء أوصى بعلاج فيزيائي . وحاولت المريضة عندئذ إغواء الطبيب ، وعادت تضايقه كل أسبوع . فأرجعها الطبيب إلى عملها ، ولم تعد ، بوصفها مغتاظة ، إلى رؤيته خلال عام . وظهرت المرأة مجدّداً تمارس اللعبة ذاتها غير المفهومة ، ماضيةً إلى حد تعبّر للطبيب عن رغبة غرامية وتضع يديها على يديه . وبالتدريج ، منح الطبيب ، الذي شرع عندئذ في تحصيل تكوين سيكولوجي ، كلامالمريضة اهتماماً أكبر . ومنذ ذلك الحين ، تحسّنت أعراضها . « ولكنها احتاجت ، لكي تصل إلى هذه الساعة من المحادثة ، إلى أربع سنوات وإلى استئصال الزائدة الدودية . إن الخطأ يقع على عاتقي » (٩) .

---

(٩) م . بالان ، «الطبيب ، مريضه والمرض» ، بيو ، رقم ٨٦ ، ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

٢ ـ ما هي الإيضاحات التي يمكننا استخلاصها من هذا المثال ؟

ـ لا يرى الطبيب اضطرابات المريضة إلا رؤية من النموذج العضوي . فهو لا يرى سوى ذلك ، وحيّز فهمه يكمن في الاستجابة المباشرة لطلبات مريضته ، طلبات تنصبّ على الجسم . والطبيب لا يمكنه ، بفعل تكوينه ذي النزعة العضوية على سبيل الحصر ، أن يثير مشكل المعنى ، معنى هذه الطلبات التي يأخذها على حرفيتها . وهكذا تنشأ لعبة من الطلبات تتم تلبيتها مباشرة . ويسري المرض في جسم المريضة ، وليس بوسع الطبيب ، الذي يصيبه العجز ، أن يوقف هذا السريان . فالتروية قوية ، وثمة أعراض تنشأ وتختفي ثم تعود . وما يعتقد الطبيب أنه وضع يده عليه يتلاشى بسرعة .

ـ يمكننا القول إننا في مجال متخيّل سيطرت فيه على الطبيب حاجات المريضة وطلباتها . فكما أن الأم تلبّي على الغالب طلبات الطفل جميعها ، تزقّه بالطعام على سبيل المثال ، بل تسبق به طلب الطفل وتفوّت بذلك ظهور رغبة مستقلة لديه ، كذلك الطبيب : إنه مجرور في حلقة ليس بوسعه أن يحطّمها إن لم يكن بطرد المريضة نهائياً ، مهاجماً إياها عندما قامت بمحاولة الإغواء . والتقابل ، تقابل العدوان والإغواء ، الذي يميّز العلاقات المتخيّلة التي يرعاها الطفل وأمه ، موجودة هنا (١٠) .

ـ ويسري المرض في الجسم كما تسري المريضة في مختلف مكاتب الاختصاصيين : فكل ألم يقابله طبيب خاص . وعوملت المريضة ، التي جعلت كلية جسمها تتكلم لكي تطرح مشكلاً يجازف بوجودها في مجموعه ، معاملة جسم ـ شيء متجزّىء كلياً . وتم فحصها ، هي التي يمكنها بسهولة فائقة أن تعبّر عن اضطراباتها من خلال أعضائها جميعاً ، عضواً فعضواً . ولم يقم الطبيب معها غير علاقات بموضوع جزئي ، فهو لم يُعن إلا بجزء من جسمها ، دون أن يجعله ذا علاقة بالأجزاء الأخرى ، بل دون أن يطرح على وجه الخصوص مشكل شخص كلي ، جسم ونفس . فليس ثمة علاقة بين حضورين ، بين موجودين بشريين ،

---

(١٠) انظر في هذا الكتاب فصل «العودة إلى فرويد» .

وإنما بين حضور ، حضور الطبيب ، وبين جزء من الجسم ، جزء من جسم مريض من المرضى .

٣ ـ عبرة الرحلة

ذلك الوضع ، من جهة اخرى ، جعله ممكناً ما يسميه بالان تواطؤ الغفلية ، وأعني أن الطبيب العام تحرّر من مسؤولياته حين أرسل المريضة إلى الاختصاصي ، ولكن الطبيب الّذي استّشير لا يشعر ، هو ذاته أيضاً ، بأنه مسؤول مسؤولية تامة عن مريضة ليست مريضته . وهكذا يشهد المرء ضرباً من التبرؤ من المسؤولية وإدلاء بالآراء والنصائح المتتالية دون أن نعلم كثيراً لماذا : « إن القرارات الحيوية تتّخذ دون أن يشعر أي شخص بأنه مسؤول عنها مسؤولية تامة » . يضاف إلى هذا أن العلاقة بين الطبيب العام وبين الأطباء الاختصاصيين ليست علاقة ناجعة ، ذلك أن الأول يحمل للثاني عواطف متناقضة . فهو يشعر أنه التلميذ بالنسبة للمعلم الذي يظلّ الأستاذ على الغالب ، وأسئلة الطبيب العام ليست مصاغة على الدوام صياغة واضحة ، وقلّما يلتقي مع الطبيب الاختصاصي .

وهكذا أُنجز النبذ بصورة تدريجية ، نبذ مريضة لأنها أرادت أن تكون على وفاق مع عروضها الأولى . وقام الطبيب بعمله على نحو نزيه ، وتحقّق في زمن متأخر جداً ، مع الأسف ، أن مريضته تتحدث اليه بلغة أخرى ، وأن آلام جسمها لا تفتأ تحيل إلى مأساة أكثر عمقاً . فاستقرّت بالتدريج في مرضها ولم يعد ممكناً للطبيب ، بالرغم من إرادته الطيبة اللاحقة ، أن يغيّر الوضع .

وقد يقول بعضهم : الواقع ان المسألة مسألة خطأ ، وكان من الواجب توجيه المريضة إلى عالم نفس لا إلى طبيب ، إنه خطأ في التوجيه ! وعلى المرء أن يلاحظ ، أول الأمر ، أن هذه المريضة لا تعتبر نفسها مريضة بمرض سيكولوجي ، وترفض علاجاً نفسياً . ولكن الطبيب لو كان قد أصغى إلى أعراضها الأولى ومنحها معنى ، لأتاح لها أن تعبّر عن موضوع مشكلاتها الحقيقية في فترة أولى . وما أمكن لها أن تحدّد بالاتفاق مع طبيبها إن كان العلاج النفسي ضرورياًإلا فيما بعد . فقد انحبست في حلقة من المنح والإحباط حالت بينها وبين أن تطرح

مسائلها . والعاقبة في هذه الحالة سلبية ايضاً ، ذلك أن المريضة لم تقبل عروض الطبيب عندما اقترح عليها علاجاً نفسياً : لقد ذهبت إلى زميل يمارس اللعبة نفسها ، لعبة الطلبات العضوية والإجابات بالفحوص الجسمية . وفات الأوان الآن للتدخل وتغيير شيء ما ، فالزوج هو الذي عاد ، بعد أن انقضت بضع سنوات ، مريضاً مرضاً خطيراً . ويبرز مشكل الثنائي دون أي إمكان للعلاج ، ذلك ان الإجابة عن المسائل الحقيقية لهذه السيدة لم تُنجز بالسرعة الكافية .

واتّضح إذن أن النظرة الطبية المعاصرة تعاني صعوبة في الانفتاح على بعد شخص كلي (وحدة من جسم ونفس) ، وحدة تموضعت في جسمه أول الأمر ، وفي الطواف المتتالي على الاختصاصيين الذين يقطّعونه دون ان يدركوا أنه وحدة ، ودون أن يلحقوه بموجود متحقّق . إن أقوال المريض معدودة أنها مقالة أعراض لا كلام يعبّر عن ألم في الوجود .

وهذا الوضع ، وضع عدم الإصغاء إلى كلام الموجود ، غير خاص بالمحادثة بين المريض والطبيب في حال المرض العضوي ، بل يوجد أيضاً في مشفى الأمراض النفسية . فثمة دائماً شكوى يرفعها شخص من الأشخاص ومحيط المحجوز على الأغلب . وشبيه بذلك ما يحدث في الاستشارة السيكولوجية : فشكاوى الطفل هي شكاوى الأم . وهكذا فان الطبيب النفسي ، المتأثر بالاحتياجات التي يطرحها المجتمع (عدم الإخلال بالنظام) والأبوان (الحياة متعذّرة مع طفل معيّن من أطفالهما) يؤدي دوراً معيارياً وإخضاعياً . فعليه أن يقود الفرد إلى الخضوع ، بفضل الوسائل الدوائية والضغوط المعنوية ، وذلك أمر يُدخل الفرد ، نتيجة الصدمة ، في غفلية إرادية لن تتجلّى فيها أي هوية أو تعبير شخصي [11] . وستنتصر معرفة الطبيب النفسي على مقاومات المريض جميعها . والمعرفة تكنس الكلام وتخرسه « إذا المريض تلقّى صمت الطبيب بوصفه الإجابة الوحيدة عن حصره ، طبيب يعلم ما لديه ، ولم يعد بحاجة إلى ان يسمع ما قيل له ، ولم يعد للمريض ملجأ آخر سوى أن يختفي ، بصفته ذاتاً تتكلم ، في قلب

---

(11) مودمانوني ، «الطبيب النفسي ، «جنونه» والتحليل النفسي» ، لوسوي .

ضربٍ من التصنيف لوصف الأمراض»[١٢] . فالتشخيص يوقف كل كلام ، والإدانة تمّ فرضها ، ويشهد المرء بالتدريج ضرباً من التثبيت في التصرفات لدى المريض الذي لم يعد سوى حي ميت .

ثالثاً - الاستيهامات في العلاقة

توقّفنا عند وصف واقعي لما يجري في لقاء المريض والطبيب ، ولكن ثمة ، من هذا الجانب إياه من هذه العلاقة وما يؤسسها ، حركة من **الاستيهامات والدوافع والروابط الانفعالية** تنشط من خلال هذه العلاقة . فالمريض ، أول الأمر ، يصل إلى عيادة الطبيب ترافقه صورة ضمنية عنه . إنها صورة تكوّنها أساطير مجتمع من المجتمعات ، يختار منها المريض تلك الأساطير التي تناسبه . ويحاول فالابريغا [١٣] أن يجمع عدداً معيناً من الاستيهامات التي تنصبّ على الطبيب الذي يُعتبر أنه ليس إنساناً :

- إنه إنسان أسمى (ساحر - عرّاف)
- إنه كاهن (إنك كاهن طبيب)
- إنه إنسان (بشهوانية) ذو رجولة ؛ ولكن الناس ينفون ذلك (نفي) .
- إنه إنسان ، ولكنه معمّر ، شيخ (كأنه ساحر له مظهر الشيخ دائماً) أي أكثر من إنسان كل إنسان ، أو هو إنسان بدّل الحكمة والتجربة بالشهوانية ، « إنسان ليس إنساناً مع أنه إنسان في الوقت نفسه ، إنسان يجمع الضدين » .
- إنه إنسان غير متجسّد ، وغير متشخّص ، وإنسان لا صفات له ، (إنه محض وظيفة مؤسسية) .
- إنه إنسان خصيّ ، أو عاجز ، أو لوطي ، إنه إنسان ليس كغيره من

---

(١٢) مودمانوني ، المصدر السابق ، ص٢٤ .

(١٣) فالابريغا ، «العلاقة العلاجية ، المريض والطبيب» ، فلاماريون١٩٦٢ .

الناس ، وموجود ثنائي الجنسية .
ـ إنه امرأة ، طفل .
ـ إنه ، أخيراً ، ليس موجوداً انسانياً ، ولكنه شيء . و « ليس موجوداً حياً » . وقد يمضي ذلك ، بالطبع ، إلى حدّ يعني الموت ، موته .

والطبيب يتوحّد لاشعورياً بهذه الاستيهامات من جهة أخرى ، ويصاب بالارتباك تماماً إذا أقدم أحد المرضى على انتهاكها . وفي حالة المرض الذي ذكره بالان ، رأينا ذعر الطبيب الذي نظرت إليه المرأة على انه موجود إنساني ذو جنسية ، وموضع الإغراء . وإذا كانت الجنسية تؤلف أساس المحادثة (ولنفكر بألعاب الأطفال الجنسية حول موضوع الطبيب) فينبغي لها أن لا تظهر إلى النور . فالطبيب يجب النظر اليه على أنه موجود لا جنسية له . وإلى هذه الاستيهامات التي تنتمي إلى مجال الأنتروبولوجيا (ونقصد أن نقول إن كل فرد يحتازها بصورة ضمنية ولو أنها لم تتجلّ أبداً) ، تنضاف الاستيهامات الخاصة بالمريض والطبيب . وذلك يتّخذ أهمية رئيسة في المحادثة السيكولوجية حيث ينبغي لاستيهامات عالم النفس أن لا تحلّ أبداً محل استيهامات المريض خلال التفسيرات . ولدينا من ذلك مثال رائع حول شخص فرويد ، شخصه ذاته ، في تحليل من « التحليلات الخمسة » ، تحليل « الرجل ذو الذئاب » . وكان فرويد ، ذلك الوقت ، في غمرة اختلافه مع يونغ ، وكان يريد بأي ثمن أن يجد حالة يمكنها ، على وجه السرعة ، أن تحكم له ضد يونغ . ولهذا السبب ، لم يكن يبدي إزاء مريضه كل الصبر الضروري لكي تنبعث بالتدريج ضروب الدالّ في تعاقبها . يضاف إلى هذا انه وجد نفسه إزاء مريض يتصف بالحد الأقصى من المهارة والحدسية لاكتشاف استيهامات فرويد الخاصة : « فقد ألحّ في قوله على ضروب الدال الحسّاسة من لاشعور فرويد » (١٤) . وهكذا اعتقد فرويد ، عندما روى المريض حلماً من أحلامه كان ذا علاقة بلاشعور فرويد ، أن التحليل كان قد انتهى وأن مريضه نفذ إلى ذكرى كانت تحرّره كلياً من مشكلاته . والحال ان

(١٤) لوكلير الذي نقتبس منه التحليل ، في «دفاتر من أجل التحليل» ، رقم٥ .

فرويد هو الذي كان قد أقدم بالفعل على التصالح مع جزء من حياته الدافعية واللاشعورية :

ـ « حلمت أن رجلاً نزع جناحي بور » .

ـ « بور ، سأل فرويد ، ماذا تقصد بذلك ؟ » .

ـ « أنت تعلم تماماً ، إنها هذه الحشرة ذات الخطوط الصفراء على الجسم والتي يمكنها أن تقرص . هذا يجب ان يكون إشارة إلى الغروشا ، إلى الإجاص المخطط بالأصفر » .

ـ « أنت تقصد بقولك «دبوراً»، صحّح فرويد ، الخ (١٥) .

ولن ندرس هنا حصراً إلا ما فعله المريض بالدال « أصفر » لكي يمسّ لاشعور فرويد ذاته . والحال ، من قبيل المصادفة ، أن الأصفر على صورة « مبقّعة بالأصفر » هو الدال الذي نشر فرويد تحليله في كتابه « حول الذكريات الحجُب (*) » ، تحليلاً يقود من فستان أصفر ترتديه جيزيلا فليس ، حبه الأول ، إلى الذكرى الحجاب للأزهار التي انتزعها من ابنة عمه بولين . وعندما ذكر المريض فستاناً أصفر ، سرعان ما فكر فرويد باللون الأصفر لفستان امرأة شابة . ونرى على هذا النحو يجري ، على حساب المريض ، ضرب من التبادل في الاستيهامات وضروب الدال ، تبادل جرّ فرويد إلى درب تاريخه الخاص ، لا تاريخ مريضه . ويبدأ هذا المريض ، بعد بضع سنين ، ذهاناً عالجه روث ماك برانسفيك الذي لم يترك نفسه هذه المرة موضوعاً لغواية مريضه كما فعل فرويد .

---

(١٥) فرويد ، في «خمسة تحليلات» ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

(*) الذكرى الحجاب أو الغطاء «هي الذكرى أو الذكرى المزعومة التي تخطر بدلاً من ذكرى يغلفها الحصر . وقد استعمل كلابارد هذا المصطلح المقتبس من التحليل النفسي ليدل به على ذكرى مزعومة تغطي وتحجب في فكر الراشد ذكريات حقيقية تعود إلى أيام الطفولة (معجم علم النفس) «م» .

١ - جهل المريض

هكذا رأينا أن علاقة الطبيب والمريض كانت تستدعي وتستثيرالاستيهامات التي تحدّد مصير المريض ومرضه ، وإن كان الطبيب ينفيها على الأغلب . فمن جهة ، كان الطبيب التقليدي ، ذو النزعة العضوية ، يهمل بعد الوجود والحضور للموجود الإنساني ، بوصفه لا يرى غير سبب واحد للمرض . وهذا الوضع ، من جهة ثانية ، كان اكثر خطورة من حيث أنه لا وجود للمرض الذي لا يستجيب له الفرد بكلية وجوده ، ومن حيث أن الأمراض ، بالإضافة إلى ذلك ، حتى تلك التي تسمى عضوية ، يتناقص اتصافها بـ « النقاء والصفاء » . ونحن نقصد أن نقول إن المرء ، في أيامنا هذه ، يشهد ازدياداً كبيراً في الأمراض النفسية الجسمية حيث الانزعاج الجسمي يقابله انزعاج الشخص كله . فعلى الطبيب إذن أن ينظر إلى الموجود في كليته أكثر فأكثر . ويبدو جيداً أن هذا التطور لا يحدث في دوائر المشافي ، حيث السير الوظائفي للمشفى ينفي نفياً مستمراًهذا الحضور ، حضور الموجود الانساني في جسمه وفي عالم من العوالم .ويصبح المريض جسماً ـ شيئاً يتلاعب به سادة من داخل المشفى وخارجه . فليس بوسعه أبداً أن يتكلم خلال « الزيارات » حيث يقتحم عليه فجأة جمهور من الأشخاص عالمه القريب . و « الحاجة » إلى قيادة المريض إلى الشفاء والقيام بالبحث في وقت واحد تمضي على الغالب عكس احترام الشخص من حيث كونه يتصف بموهبة الكلام والرغبة والحصر . وهذا الحصر ، بوصفه منفياً باستمرار على مستوى بنيات السير الوظائفي ، يذر المريض وحيداً أمام مشكل الموت ، الموت الذي يشارك في الحضور ، والدائم ، ولكنه الموت المنظور إليه على انه الغائب . والمريض المعرّض للانكفاء (الواسع) ، خارج عالمه المألوف ، موجود في حالة من الضياع . فالمشفى إذن هو هذا المحل الذي لا وجود فيه ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، لعلاقة المريض والطبيب . وليس ثمة لقاء ، ذلك أنه من الضروري أن يكون ثمة ذاتيتان وجهاً لوجه ، وأن تكون كل منهما تستقبل ما تلفظه الأخرى حتى يكون ثمة لقاء . والحال أنه لا وجود إلا لفرض معرفةٍ ، معرفةٍ واثقةٍ من فنها التقني ، تفرض نفسها دون أن تعلن عن نفسها . والمريض جدير بلقبه ، لقب

« عليل » ، بمعنى موجود سلبي ، وعندئذ ينظر إليه على أنه « المريض الطيّب » الذي لا يطرح أسئلة ، ويتناول عقاقيره دون مشكل ، الخ .

وإلى جانب هذا الطب ، طب المشافي ، يوجّه الأطباء العامون اهتماماً متزايداً بسجلات بشرية لم يكونوا قد تعلّموها في الكلية . والواقع أنه لا وجود لتكوين سيكولوجي حقيقي في الطب . والمرء يمكنه أن يتساءل ، من جهة أخرى ، عما إذا كانت صورة المحاضرة ملائمة لتكوين حقيقي . وهكذا فان بالان يكوّن الأطباء تكويناً ذاتياً بمناقشة الحالات التي يشارك فيها أطباء عامون ، وأطباء نفسيون ، وعلماء نفس ، ومحلّلون نفسيون . فالإرادة الطيبة لا تكفي في هذا المجال ، ولا بد للطبيب من أن يكتسب تكويناً حقيقياً حتى يتعلم أن لا ينخدع أبداً بالشكاوى التي يعبّر عنها المريض أمامه . والخطر العام مع ذلك لدى الأطباء ، وعلماء النفس ، والمحلّلين النفسيين ، يكمن في أن يتركوا أنفسهم فريسة الضلال الذي تسبّبه الشكاوى الواقعية التي يعبّر عنها الفرد أمامهم (١٦) . وعلينا أن نرى ما تحجبه شكاواه ، التي يجب أن لا تُؤخذ على حرفيتها ، بل على أنها تحيل إلى مسألة ليس بوسع الفرد بعدُ أن يصوغها بوضوح : وهكذا يحيل الواقعي إلى دراسة للاستيهام التي تعبر الواقعي وتؤلّفه . « فالواقعي ، في رأي فرويد ، هو ما يظلّ غير ممكن معرفته إلى الأبد » ، وذلك أمر يعني أنه ليس ثمة ، بالنسبة للموجود الانساني ، حالات واضحة بصورة موضوعية يمكننا تقديم إجابة عنها واضحة أيضاً . وتنشّط علاقة المريض والطبيب ، اذا كانت موجودة ، هذه الاستيهامات التي ينبغي للمحلل النفسي وعالم النفس أن يكشف عنها . واذا لم يكن دور الطبيب أن يوضّح حدودها ، فعليه على الأقل أن لا يدع نفسه تنخدع بها . والمشكل الباقي يكمن في إعداد طريقة للاصغاء تتيح للاستيهامات أن تبرز للنور . وعلم النفس الأمريكي الراهن ، الذي تستبدّ به فكرة التكيّف مع الواقعي ، ليس هو الذي يفلح في ذلك .

---

(١٦) انظر فصل «اللاشعور والبنيات الأسرية» في هذا الكتاب .

الباب الخامس

الفصل الأول: اللاشعور والبنيات الأسرية

الفصل الثاني: بنيات القرابة

الفصل الأول

اللاشعور والبنيات الأسرية

أولاً. الأدوار الأسرية: الأب والأم والإخوة والأخوات

كان زوندي معتاداً على أن يطرح سؤالاً على مرضاه: «في أي ظرف التقيت بزوجك أو التقيت بامرأتك؟». و «ما الوضع الذي حدّد اختيارك؟». «وما الذي دفعك صوب الآخر فلان؟». فقد كان يعلم في الواقع أن ثمة ظاهرات دافعية أساسية كانت معنيّة حين حدث مثل هذا الاختيار، وأن مصير الثنائي كان يتكوّن منذ هذا اللقاء الأول. ومنذ هذه اللحظة، ترتسم كذلك كوكبة أسرية مستقبلية كاملة ستكون تابعة للحياة الأسرية الخاصة التي عاشها الأب والأم والولد والأولاد. وعندما نتكلم عن ظرف اللقاء، فإننا لا نتوخّى أن نعينّ بيئة خارجية من البيئات تشرف على ولادة رابطة من الروابط. بل نتوخّى الكلام على ضرب من التبادل الدافعي يؤلف الواقع بالنسبة للموجودات الانسانية لا العكس. وبهذا المعنى، يمكننا القول إن الموجود الإنساني يلاقي من يرغب في ملاقاته. ولكن من المعلوم، على العكس، أن أي شخص قلّما يعرف الواقع فيما يتعلق برغبته الخاصة، التي يصوغها الأبوان خلال تاريخه ويوقفانها أو يكبتانها. فالموجود الانساني يختار منذئذ موجوداً، ولكنه اختير هو أيضاً. ونعني بهذا أن الموجود الانساني يخضع لحركات لاشعورية تدفعه إلى اختيار هذا الآخر أو ذاك. ويظلّ التبرير العقلاني والشعوري لاختيار موجود انساني سطحياً ومتخيّلاً. فالغير يستجيب لدوافع ليس بوسعي أبداً، أنا ذاتي، أن أجعلها موضوعاً لفاعليتي الفكرية. إنه يقدّم إجابة عن سؤال لم يسبق له ان

كان مطروحاً لدي بكل وضوح . ولاكان يمكنه أن يقول في ذلك إن « الرغبة هي الرغبة الخاصة بالآخر » . وذلك أمر يعني أن كل رغبة تمرّ بوساطة الغير . ولكن المسألة ليست مجرد اختيار كما قد تفهمه التقنيات السيكولوجية ، المسماة تقنيات الدافعيات ، أو يفهمه قياس العلاقات الاجتماعية . وليست المسألة في هذا المستوى سوى علاقة متخيَّلة . وعلينا أن نأخذ كلمة « الخاصة » بالمعنى التالي : إن المقصود هو الآخر في رغبتي التي تتّجه إليه ، ولكن الآخر أيضاً هو الذي يكوّنها ، إنه المحل الرمزي الذي تتصف رغبتي انطلاقاً منه بأنها ممكنة . فلست علة رغبتي إلا من حيث كوني آخر . ولا تولد هذه الرغبة إلا انطلاقاً من هذا المحل الذي يتيح الكلام . . .

وهذا الآخر ، على سبيل المثال ، هو اسمي ، وعلاقات القرابة الموجودة في مجتمع معيّن ، والرموز الاجتماعية التي تحدّد بنية من البنيات ومحلاً ينبغي للفرد أن يتكوّن انطلاقاً منه . فكل فرد من الأفراد مستغرق في هذا الآخر منذ ولادته ، وهذا الآخر هو ضرب من البنية التي تقابل « الهو » الفرويدي في رأي لاكان . إنه يصفه باللاشعوري ولكنه يصفه ، بالحري ، على أنه محل للقول ، ضرب من « الهو الذي يتكلم » . فكل شخص إذن مستغرق منذ منشئه في قول يكوّنه بصورة مسبقة وعليه أن يُبرز كلامه الخاص انطلاقاً منه : « تغلّف الرموز ، في الواقع ، حياة الانسان بشبكة هي من الكلية بحيث توحّد « لحماً وعظماً » ، قبل أن يولد ، هذين اللذين يلدانه ، وتساهم عند ولادته مع هِبات النجوم ، إن لم يكن مع هِبات الجنيات ، في مخطط قدره ، وتمنح الكلمات التي تجعل منه مؤمناً أو كافراً ، وقانون الأفعال التي ستلحق به حتى الموت ، بل وإلى ما بعد موته ، وتجد نهاية الانسان ، بفعل الرموز ، معنى في الحكم الأخير حيث الكلمة تبرّىء وجوده أو تدينه ، باستثناء المسّ بالإنجاز الذاتي للموجود من أجل الموت »[1] . وهكذا يقدِم القول الأبوي على الاستيلاء على الطفل وتكوينه .

وعلى الإنسان أن يتحرّر ، خلال نشوئه ، من هذا القول ، الذي يقال من

---

(١) لاكان ، «كتابات» ، ص ٢٧٩ .

أجله وبدلاً منه ، حتى يبلغ مقام الذات المستقله التي تملك موهبة الكلام . هناك حيث كان (هناك حيث يقال قول الهو) ، هناك ، عليّ أن أبلغه بصفتي ذاتاً ، يقول فرويد . أو هناك ، حيث كان يقال قول كاذب ، ينبغي لـ « أنا شخصي » ، أنا حقيقة من الحقائق ، أن تصل فجأة . ويفهم المرء منذئذ أن كل موجود إنساني (أبوين وأولادهما بفعل ذلك ذاته) يمكنه أن يقع في شرك هذه الرموز ، وليس بوسعه أن يتحرّر منها . فالرغبة عندئذ هي رغبة الآخر ولكن في اتجاه لا ينعكس ، بمعنى أن الآخر هو الذي يحدّد الموجود الإنساني على وجه الإطلاق ، ويمنعه بذلك من أن يبلغ رغبة خاصة به . إن الآخر هو الذي يفرض قانوناً لا يعترف به الطفل أو الراشد . وفي حالة المصاب بالذهان ، يقع الفرد في شرك رمزيّ مزيّف . « فاللعبة تتمّ في أغلب الأحيان منذ ما قبل ولادته . وثمة جيلان سابقان نسجا من قبلُ شرك شبكةٍ سيجد الطفل القادم نفسه واقعاً فيها ومقاداً صوب الذهان » (٢) . وثمة « أسطورة أسرية » كاملة تتكوّن حول الطفل ، ولا يمكنه أن يتخلّص منها دائماً مع أنه يجتاز الشعور بها . وتروي مانّوني حالة مريض ، طالب في كلية الطب ، كان قد بدأ علاجه طالباً من المحلّل النفسي تشخيصاً : « ما مرضي ؟ » وبما أن الطبيب لم يكن قد طرح أي إدانة ، أي أيّ تشخيص ، ليتّخذ المريض وضع المريض ، فإن كلامه يظلّ حراً ويتيح له أن يطرح مرة ثانية سؤالاً آخر حول رغبته الخاصة ، رغبته في أن يصبح مجنوناً . « كانت أمي تقول لي : سأصبح مجنونة . فتمنيت ذات يوم أن أصبح مجنوناً بدلاً منها » . إن « الهو » كان يتكلم فيه ، وأعني بذلك أن القول الأسري كان يعيّن له مكاناً لم يكن بمقدوره ، ولم يكن يريد ، أن يتملّص منه . فلو ان المحلّل النفسي كان قد استجاب للطلب الأول استجابة مباشرة ، لكان كل تطور نحو الكلام قد توقف ، وكل ارتقاء صوب الكلام قد انسدّ بصورة نهائية . إن « أنا » المريض كانت تطلب أن تُمنح مكانة المريض ووضع المريض ، وكانت تقول « الأنا » عن نفسها إنها مريضة ، ذلك أن الأنا تستسلم أمام قول الأم . ولم يكن ذلك سوى

---

(٢) «الطبيب النفسي ، مجنونه والتحليل النفسي» ، مودمانوني ، ص ٤٣ .

قول الآخرين . فلم يكن المريض يريد أن يرتقي إلى رغبة خاصة به ، إلى منزلة الذات التي تستخدم في قولها « أنا المتكلم » لا « أنا » البنية النفسية . فلا بد لنا إذن من أن ندرس نشوء هذا القول الأبوي ، لا بالدراسة الاختبارية لألعاب الأدوار المختلفة التي قد يضطلع بها الأب والأم وأولادهما ، ويمكنها أن تتنوّع تنوعاً لاحدود له وأن تفتن بذلك علماء النفس التفصيليين الذين يعشقون ألعاب الدور . والمهم أن نبرز مختلف الحركات الدافعية التي تؤسس بنية لاشعورية تكوّن الفرد ، وأن نبينّ في مرحلة ثانية كيف يكون بوسع الفرد أن يتحرّر من حتمية دقيقة ليرتقي إلى كلامه وإلى حقيقته .

١ ـ الطفل في قول الأم

رأينا ان الطفل (٣) كان يقيم ، حتى المرحلة الأوديبية ، علاقات مثنوية مع أمه من النموذج المتخيّل . والطفل ، في هذه المرحلة ، لا يعيش الآخر إلا بوصفه مرآة لأناه الخاصة . ولهذا السبب فان الطفل ليس سوى محل الإسقاط لاستيهامات الأم ، ولا يحتاز مكان الفرد في الأسرة ، بل هو موضوع أمه . وسيقدم الطفل ، عند ولادته ، على أن يأخذ مكان الأحلام الضائعة ، أحلام الأم . إنه يتيح ضرباً من اخذ الثار ، أو ، بالحري ، ضرباً من تكرار المناسبات التي فوتّتها الأم في طفولتها الخاصة . وستحاول الأم أن تمثّل بطفلها تاريخها الخاص تمثيلاً جديداً ، إذ تكرّر بذلك مناخ أسرتها الخاصة . وعلى هذا النحو ، يحيلنا دور الأم إلى ضرب من علم الآثار ، إلى ضرب من ما قبل التاريخ الخاص لعلاقة الأم بأبيها الخاص وأمها الخاصة . وإمكان أن تأسر طفلها في ظلّ استيهاماتها أمر يجعل تكرار مشكلاتها على الطفل سهلاً جداً . وهكذا تريد السيدة برناردان (٤) ، التي أتت تستشير المحلّل النفسي من أجل ابنها البالغ من العمر احدى عشرة سنة ، والعاجز عن أن يتابع دراسته في الصف الثامن ، أن تعرف بالفعل إن كان بمقدور ابنها في المستقبل أن يلبي رغبتها ، رغبتها في ان

---

(٣) انظر فصل «العودة إلى فرويد» في هذا الكتاب .

(٤) ذكرت المثال مودمانوني ، «اللقاء الأول مع المحلل النفسي» ، ص٥٧ .

يصبح مهندساً . بل إن هذه الرغبة ليست رغبتها الخاصة ، فهي تتمنى في الواقع أن يصبح ابنها مجدّداً ما كان أخوها : مهندساً . إنها لا تريد سوى أن تكرّر أسرة كان عليها أن تتركها وأن تجدها مرة ثانية . إنها ، وقد فقدت أباها في الرابعة عشرة من عمرها ، لم تستمر في دراستها ، وظلّت في حضن الأم الذي يسود كل شيء ، ويسحق كل شيء . وهذا الوجه ، وجه أم الأم ، هو الوجه الوحيد الذي يفرض نفسه في هذه الأسرة ويأمر داخل الثنائي . فالأم ، التي تراقبها على هذا النحو نظرة أمها التي تعيش معها ، تقيم مع ابنها علاقات قلقة ليس بوسع الطفل فيها أن يطرح نفسه إلا بكبوات متتالية (اضطرابات لغوية ومدرسية ، الخ) ، ويستجيب استجابة الصدى لأوهى الآلام الجسدية لدى أمه التي يشعر بأنه منصهر بها . أما الأب ، الذي تصفه الأم بأنه نموذج الفضيلة ، « كان يمكنه ان يكون خورياً خجولاً طيباً » ، « فقد تخلّى عن هذا الابن الذي وهبه للمرأتين » ، ذلك « أنني لم يكن بوسعي أن أصارع صراعاً مستمراً ، فالحياة كانت ستصبح ضرباً من الجحيم » . فالطفل إذن هنا هو موضوع الأم ، وموضوع الجدة بفعل هذا ذاته . فالمذكر مشطوب من الخارطة . وليس بوسع الطفل أن يرتقي إلى « أنا المتكلم » التي لا يلفظها . إنه سجين استيهامات الأم ورغبتها .

٢ ـ ظهور الأب

بماذا يساهم تدخّل الأب في هذه العلاقة المتخيّلة ، علاقة الأم والطفل ؟ إنه الارتقاء إلى مجال الرمزي [٣] . ورأينا أن وجه الأب يحتلّ مكانه في علاقة الأم والطفل خلال عقدة أوديب بواسطة عقدة الخصاء . والتغيّر تغيّر من النسق النوعي ، ذلك أن الطفل يرتقي إلى رغبة خاصة به داخل حقل الرغبات التي يكوّنها أبوه وأمه والإخوة والأخوات . وعندئذ يهجر المكان الذي كانت الأم تريد أن تعيّنه له ، من تلقاء نفسها ، في حياتها الاستيهامية الخاصة . ففي الحالة السابقة ، رأينا أن الطفل لا يمكنه أن يهرب ، ويصرّح بدوره « أنه يريد أن يكون مهندساً » (وذلك هو كلام الأم ذاته) .

---

(٣) فصل «العودة إلى فرويد» في هذا الكتاب .

بماذا يساهم إدخال صورة مذكرة ؟ إن الأب ، خلال المرحلة الأوديبية ، يفرض ممنوعاً أساسياً تتوزّع جميع الممنوعات الأخرى انطلاقاً منه . هذا الممنوع هو تحريم غشيان المحارم ، الذي يمكننا أن نصوغه على النحو التالي : « لن تنام مع أمك التي هي امرأتي » . وعلى الطفل أن يتحقّق من أن حبه لأمه لا يمكنه أن ينصبّ على جسدها . فإذا لم يكن التحريم مطروحاً بصورة واضحة ، كان من العسير عليه أن يضفي الجنسية على جسمه ، ويفقد بهذا ذاته فقداناً نهائياً توجّهه الزماني المكاني ، وتبدو اضطرابات تجسّد مقدماً إثارة عصاب (٥) . ويذكر دولتو (٦) حالة طفل ذهاني تنام الأم معه : « إنها على صواب ، ماما ، ولكنني لا أعلم ، ذلك يجعلني مضحكاً ، لا أعلم » . وهذا الارتياب الذي ينشأ لدى الطفل ، وهذا الصواب ، صواب الأم الذي يرضى به ولكنه يشك فيه ، هو السبب في نكوصه . إنه لايميّز بين الأنواع والأجناس ، والمذكر والمؤنث . فليس ثمة صورة محرِّمة تتوسّط هذه العلاقة بأمه ، وتمنع هذا الالتصاق ، التصاق الجسم بالجسم .

وشك الطفل في « طبيعية » هذه العلاقة ظهر بالتأكيد خلال تجربة تربوية مختلفة عاشها عند جدته . يقول الطفل : « لدى جدتي ، عندما كنت آخذ شيئاً ، كنت دائماً أسبب لنفسي التأنيب الذي توجّهه بعد ذلك جدتي بقولها : إذا رغبت بشيء من الأشياء ، اطلب مني الإذن . فأمي ، ليست مثل ذلك ، وكل ما لها هو لي » . فلا وجود إذن لفردتين مطروحتين حقاً في علاقة الطفل والأم ، بل ثمة ضرب من النزعة إلى الخلط ، حيث يمرّ الواحد في الآخر بصورة مستمرة . إنه ضرب من حركة الانعكاسات اللامتناهية من الصور في مرايا لا نوافذ فيها ، وليس ثمة أي حدّ مفروض على عالم الطفل . فكيف يعرف ما هو ذات وما هو آخر ، ما هو قريب وما هو غريب ، ذلك أن الكون الذي أُلقي فيه لا يبدي

---

(٥) انظر فصل «علم النفس الأساسي» في هذا الكتاب ، وكذلك فصل «علم النفس ، حضور ووجود» .

(٦) في «الطفولة المصابة بالاغتراب» ، ١١ ، «بحوث» ، كانون الأول ١٩٦٨ ، ١٩٧ ، ٢١٠ .

أي مقاومة . ولا وجود لأي ممنوع مفروض على جسم الأم الذي يدركه الطفل جيداً على أنه محل اللذة . وإقامته عند جدته جعلته يحسّ بأن جسم الأم لا يمكنه بالفعل أن يكون محل الرغبة . فالجدة أفلحت في فرض ممنوعات يفرضها الأب بصورة عامة . وبفضل جدته ، كان قد تعلّم النظافة والكلام والقراءة ، وكان قد ارتقى إذن إلى عالم الثقافة .

وبعد أن قال الطفل إن « كل ما لها هو لي » ، سأله المحلّل النفسي : « وحتى سرير ماما ؟ » . فصمت الطفل وأصبح خطيراً ، ثم قال : « أودّ أيضاً لو أنام معها ، وفي سريرها أيضاً ، أنت تعلم ، ولكنني أعلم أنه ينبغي لي أن لا أفعل ذلك » . فماذا كان قد حدث لدى الجدة ؟ كان الطفل قد استغنى عن علاقة متخيّلةمع أمه ، علاقة كان كل شيء فيها مباحاً . ذلك أن كل شيء مسموح في العلاقة المتخيلة كما رأينا ، ولا وجود لأي ممنوع ، وغشيان المحارم مباح ، وجميع الاندفاعات الجنسية ، الشرجية والفمية ، تعبّر عن نفسها دون إكراه . ثم أتت الجدة تفرض ممنوعات كان مفعولها أنها قمعت هذه الاندفاعات ، وذلك أمر أتاح له تحرير إمكانات التعلّم الثقافي التي ظهرت حين عودته إلى أمه ظهوراً جديداً ، وتعلّم الطفل أن يعلّق لذّاته المباشرة على الحصول على إذن يفرض قانوناً . فاستشعر إذن تدخّل الجدة في علاقته بأمه كما يستشعر كل طفل تدخّل المذكّر في هذه العلاقة .

وبوسع الطفل ، عندما يجعله الأب يرتقي إلى الرمزي بفرض الممنوع والقانون ، أن يرتقي إلى عالم الكلام ، والثقافة ، والقانون . ومنذئذ يكتسب مكانه في الكوكبة الأسرية ، ورغبتُه معترف بها في هذه الكوكبة ، ومعترف به على أنه علة هذه الرغبة . ونفهم منذئذ أهمية حلّ العقدة الأوديبية ، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لما يعنينا هنا ، وما يعنينا مفاده أن الأب يمكنه أن يتّخذ مكاناً بين الأم والطفل وأن يتدخّل بينهما . فما دوره ؟ « إنه وظيفة من القوة والاعتدال معاً ، وأمر لا يخبط خبط عشواء ، ولكنه مطلق ، وشخص يسود التمزّق الطمّاع والازدواجية الغيورة ، اللذين كانا يؤسسان علاقات الطفل الأولى بأمه وبالمنافس الأخوي ، ويفصل فيهما . ذلك ما يمثّله الأب ولا سيما ، على ما يبدو ، أنه أكثر

بعداً عن المخاوف الوجدانية الأولى من الأم»[7] والأب ، كما قلنا سابقاً ، سيقدم على أن يُحلّ علاقة غير مباشرة (رمزية) محلّ علاقة مباشرة (متخيّلة)[8]. ولكن ماذا يعني هذا (البعد) ، بعد الأب بالنسبة إلى ثنائي الأم والطفل ، وبعبارة أخرى كيف يرتسم وجه الأب ؟

٣ ـ وجه الأب

الكلام على « وجه » الأب أو « الصورة الأبوية » قد يفتح باباً لبعض التفسيرات الخاطئة . وينبغي لنا أن لا نخلط بين مثل هذه المفهومات وبين مفهوم الدور ، على سبيل المثال ، الذي يحيل إلى نسق أنتروبولوجي . والحال أن الرمزي يسير سيره الوظائفي ، أياً كان الوضع الثقافي الممنوح إلى الأم والأب في شتى المجتمعات . إنه يضفي التعالي (الأمر الذي يعني أنه يتجاوز ويبني) على تنوّع الأدوار الخاصة التي يقبلها هذا المجتمع أو ذاك . فليس من الضروري إذن أن نصف الأدوار الواقعية التي يعتقد بعض الأفراد أنهم يؤدّونها ، بل ينبغي لنا أن نحاول ، في حالة الأب ، أن نكتشف أي قانون لاشعوري يبني ويكوّن علاقات الأم والأطفال بهذا القانون ذاته . . . ولا تكشف الأدوار إلا عن ظاهر العناصر التي تؤثر في الأسرة ، فهي ليست سوى التعبير في السطح عن ظاهرات دافعية لاشعورية .

فالأب يمثّل بعداً أساسياً لوجود الطفل قبل أن يصبح وجهاً ، في المرحلة الأوديبية . وهذا البعد يعيشه الطفل تماماً قبل أن يكون قادراً على أن يحدّد موقع الأب في صلات واضحة للقرابة . والمسألة هنا مسألة اتجاه ذي معان ، لها دلالة تكلّم عليه بانسفنغر في « الحلم والوجود » [9] ، معان تمسّ كلية حضور الموجود في العالم . فالأب ، أولاً ، هو محور العالم بالنسبة للطفل ، والقطب الذي يأمر كلية

---

(٧) لاكان ، «كتابات» .

(٨) انظر فصل«العودة إلى فرويد» في هذا الكتاب .

(٩) انظر مالدينه ، «ماذا يعني فهم ؟»، مجلة الميتافيزياء والأخلاق ، ١٩٦١ . وقد تكرر المقال في «النظرة والمكان والكلام» .

العالم بالتأكيد . ويؤدي الأب ، على ما يبدو ، دوراً يماثل دور شجرات النسب التي تصفها النظريات القديمة في نشأة الكون . إنه انبعاث صورة أولية تقيم عالماً وتبنينه ؛ وتلك صورة يكون عالم من العوالم ممكناً ابتداءً منها . فكما أن وضع شجرة من شجرات النسب يُعتبر ، في الأساطير ، كتشييد عالم من العوالم ، كذلك الأب بالنسبة للطفل . فإذا زال الأب ، فإن العالم ينهار ويفقد نظامه ، وعندئذ يشهد المرء ضرباً حقيقياً من فقدان التوجّه لدى الطفل . فالأب هو الموجود الذي يتيح للطفل أن يتعرّف على نفسه في العالم . إنه الوسيط بين العالم الداخلي ، الذي تمثّله علاقة الأم والطفل ، وبين العالم الخارجي . إنه ما به لا يطغى هذا العالم الخارجي على الطفل ويشوّشه بصورة عنيفة ، وهو الذي يتيح هذا التواصل بين الداخل والخارج . واذا كانت الأم ، فضلاً عن ذلك ، هي العنصر الذي ييسّر للطفل أن ينتقل داخل المنزل ، فان الأب هو الذي يمثّل صلابة هذا المنزل ومتانته . والأب ، بوصفه محور العالم ، والشجرة الأولية ، وعنصر النظام ، ركيزة أساسية بالنسبة للطفل يتعلّق بها التمفصل مع عالمه أو تفجّر هذا العالم . وغيابه ، بوصفه عاملاً مدمراً ، يجعلنا نفكر بضروب الحصر والبلبلة العميقة ، التي كانت تستولي على البدائيين عندما كان المستعمرون يغيّرون بصورة إرادية ترتيب أكواخهم . فعالمهم كان ينهار ، وكانوا عندئذ ضائعين في العالم تماماً (١٠) .

رأينا أن الأب ، في مرحلة العقدة الأوديبية ، يتّخذ وجهاً معيّناً بالنسبة للطفل : إنه يتيح للطفل أن يرتقي إلى الرمزي ، أي إلى علاقة ثلاثية تتجاوز وتبني العلاقة المتخيّلة المصنوعة من ضروب العدوان والتوحّد (١١) بين الأم والطفل . ولكن في أي شيء يكمن أن الأب هو حامل النسق الرمزي ومؤسسه ؟

---

(١٠) ذكر ذلك ليفي شتراوس في كتابه «المناطق المدارية» .

(١١) فصل «النمو الوجداني لدى الطفل» في هذا الكتاب ، فقرة «آليات الدفاع من أجل التوحد» .

وما هي الصفات التي تتيح له أن يؤدي هذه الوظيفة ؟ ما الذي يجعله متميّزاً بالنسبة للأم ؟

إن لاكان يسمي الأب بوصفه ممثّل الرمزي ، « اسم الأب » . والعصاب ينطلق ، بالنسبة لفرد من الأفراد ، عندما لا يرتقي إلى هذا الاسم ، اسم الأب . وفي هذه الحالة ، ثمة استبعاد للأب ، وذلك أمر يعني أن الفرد لا يمكنه أن يقبله في منظومته ، منظومة الدالّ ، وفي لاشعوره بفعل هذا ذاته . وليست المسألة مسألة غياب واقعي للأب أو متخيّل . ووجود الاستبعاد ليس لسبب مفاده أن الطفل ترعرع دون حضور واقعي للأب في المنزل الأسري . « وليس المقصود بالضرورة أبداً أب الفرد ، بل المقصود أب من الآباء . . . » ويكفي أن يكون موقع هذا الأب من الآباء هو الموقع الثالث في علاقة قاعدتها الثنائي المتخيل (ونحن نقصد علاقة الأم والطفل) . وموقع اسم الأب منوط على هذا النحو بما تصنع الأم بكلام الأب ، الذي هو زوجها ، وبالحفاوة التي تدّخرها له . ويحيلنا مشكل الطفل إلى مشكل بين الذاتية في الثنائي ، وتلاقي رغبات الزوجين واختلافهما .

والفارق الأساسي الذي ينبعث بين الرجل والمرأة هو العلاقة التي يقيمانها مع القضيب فالمرأة موسومة بهذا النقص ، إنها رغبة هذا القضيب . والطفل محكوم عليه بفعل ذلك أن يكون رغبة هذه الرغبة . إنه يدرك الأم بوصفها راغبة في هذا النقص ، ويحاول أن يسدّ هذا الغياب حتى يكون موضع إعجابها . فيصنع من نفسه على هذا النحو قضيباً في عينيّ أمه . إنه هذا القضيب . ورأينا ما ينجم عن ذلك ، وتلك هي آونة العلاقة المتخيلة : فالطفل هنا موضوع رغبة الأم .

ثانياً. كونه القضيب يعني أن يمتلك القضيب أو لا يمتلك

يرتسم وجه الأب ، بالنسبة للطفل ، في المرحلة الأوديبية : إنه يبدو بمثابة من يتصف بأنه موضوع الرغبة من جانب الأم ، إنه هو القضيب حقاًفي الأسرة ، ويفرض القانون . فلاكان يفهم الأم على أنها تابعة للقضيب ، ملكية الأب . ويعرضها على أنها تستشعر هذا النقص ، وعلى أنها خاضعة لقانون المذكر . وتلك صورة سلبية على نحو مزدوج بالنظر إلى أن الأم مقصيّة عن الصميمية التي كانت تقيمها مع طفلها ، وأنها في الوقت نفسه تجد نفسها موضوعة في حالة من الخضوع إلى القانون الأبوي الذي يمكنه أن يمنح القضيب أو يرفض . ومع ذلك فالمسألة بالنسبة للطفل مسألة مرحلة أساسية ينتقل فيها من وضعية الإذعان ، التي ليس له فيها أي نوعية ولا خصوصية ، إلى موقف مستقل يتيح له أن يطرح رغبة خاصة به . وهذا الارتقاء إلى الرغبة لا يمكنه أن يحدث إلا بمقدار ما يتخلّى ، كما رأينا ، عن هذا الالتصاق بأمه ، ويجعل اللغة وإضفاء الرمزية وسيط هذه الرغبة .

ووجه الأب الذي ليس بعدُ إذن سوى مرجع تحريم بالنسبة للطفل في نهاية المرحلة الأوديبية ، مرجع سلطوي ، سيتغير أيضاً . فالطفل ، في علاقة الأم والطفل المثنوية ، كان يؤدي ، بالنسبة للأم ، دور القضيب الذي كان ينقصها . وكان يتصرف كما لو أنه كان القضيب . والحال أن الأب هو الذي يطرح نفسه على أنه القضيب . والموقف الأخير بالنسبة للأب هو أن يتجلّى بوصفه مالك القضيب . ويبدو عندئذ لا بوصفه موهوباً سلطة حرمان الأم فحسب ، بل بوصفه ذلك الذي يمكن له أن يقدّم ويهب ما يملك . والطفل يمكنه من الآن فصاعداً أن يتوحّد بالأب الذي لا يقتصر على وظيفة تتصف على نحو محض بأنها سلبية ومانعة . والطفل يمكنه بفضل التوحّد بالأب ، أن يتجاوز عقدته ، عقدة أوديب ، ويحلّها .

رأينا أن العلاقات التي تنشأ بين مختلف أعضاء الأسرة تسير سيرها الوظائفي داخل الأسرة وداخل لاشعورها . ويرتقي الطفل ، من كونه موضوع الأم ، إلى

منزلة الفرد ، ولكن داخل مجال دافعي حيث وجود العلاقات بين الذكر والأنثى يسبق وجوده . ويقدم الطفل على الاندماج في حركة ديالكتيكية بين الجنسين منحازاً بالتناوب إلى أحدهما وإلى الآخر . والأسرة هي بالضبط ، المحل الذي تتكوّن فيه رغبة الموجود الإنساني . ولكن في حركة الموقف ذاتها ، تلك الحركة التي تكوّن هذا الموقف في الوقت نفسه ، تبدو الممنوعات التي يفرضها وجه الأب ، ممنوعات هي الناطق في الواقع باسم المجتمع والثقافة ، لا الناطق باسم مجتمع واحد وثقافة خاصة واحدة ، بل الناطق باسم كل ثقافة وكل مجتمع : فالأوديب ، يقول فرويد ، كلي ، وذلك أمر لا يستبعد وجود تنوّع أقصى على مستوى الأدوار . فقد يحدث أن لا يؤدي الأب الوالد أي دور مباشر في تربية الطفل ، وأن يُستبعد الأب والأم لمصلحة الأخت أو الخال ، كما يصف مالنوسكي ذلك . وإذا كان ثمة كلية لأوديب ، فانها لا تكمن في لانهائية الحالات الأبوية الممكنة ، ولكنها تكمن في وحدة البنية : المهم ليس العواطف بل « المواقع التي قد يشغلها فرد إزاء فرد آخر »[12] . وهذه المواقع تابعة لعلاقتها بحد رابع هو القضيب . وحول هذا الدال ، ينتظم مختلف أعضاء الأسرة بما فيهم الأب . إنه نظام رمزي ذو بنية كلية يؤسس الأسرة . وفي بحث حديث العهد ، بيّنت ماري سيسيل وإدمون أورتيغ كيف أن هذه البنية كانت تظهر بأفريقيا أيضاً ، في مجتمع داكار ، وهذا على الرغم من الاختلافات الظاهرة في غياب الاستيهام الخاص بموت الأب . ولكن ذلك ناجم عن أن الحياة الجنسية ، في هذا المجتمع ، لا تبدو كثيراً على أنها مشكل فردي ، ولكنها تحتاز دفعة واحدة دلالة اجتماعية . فحياة الفرد الجنسية لا يعارض بها أباه ، بل تتيح له أن يفرض نفسه في مجتمع معيّن . وإذا كان القانون لا يفرضه الأب ، فإن الجدود هم الذين يفرضونه . والسلطة ، والثقافة ، والقانون ، معروضة على الطفل في صورة جماعية أو بتأثير الجدود أيضاً . فالبنية الأوديبية كلية إذن : وأياً كان الحد الذي ينقلها من القوة إلى الفعل

---

(١٢) أورتيغ ، «الأوديب الأفريقي» ، ص ٦٨ ، بلون ، ١٩٦٦ .

(الأب ، العم ، الخال ، المجتمع بصورة الجدود) ، فالعلاقات بين الحدود لا تتغيّر .

وثمة مع ذلك سؤال لا يزال مطروحاً في التحليل الذي تقدّمه المدرسة اللاكانية . فاذا كان التفسير البنيوي لعقدة أوديب يبدو أنه بدّد جميع الاعتراضات الممكنة حول كليتها التي يؤكدها فرويد ، أليس الدور الذي يؤديه الأب والأم متعلّق في الواقع بالمنزلة الأنتروبولوجية الموقوفة للأبوين في مجتمعنا ؟ هل مسألة إظهار الأم على أنها راغبة بصورة أساسية والأب على أنه فارض القانون مسألة وصف كلي أم وضع خاص على سبيل الحصر ؟ أليس بوسع الأم أن تفرض القانون ؟ لماذا كان الإدخال في المجال الرمزي والمجال الثقافي وقف على الأب ؟ هل الأم ، في ماهيتها ، واقعة دائماً مع طفلها في علاقات متخيّلة ؟ ويبدو أن ثمة لوحة ترتسم ، لوحة كانت الأم بحسبها مرادفة لـ الطبيعة (١٣) ، وتباشر مع طفلها علاقات طبيعية يؤدي الهوى والعدوان فيها دوراً كبيراً ، في حين أن الأب ممثّل الثقافة ، إذ يكبح المظاهر العاطفية . فهل ذلك ياترى ضرب من المخلّفات التقليدية التي تقابل بين الطبيعة والثقافة في كنف الانسانية ذاته ؟ إن السؤال يظل مطروحاً .

(١٣) انظر فصل «السيكولوجي والاجتماعي» في هذا الكتاب ، «علاقة الثقافة والطبيعة» .

الفصل الثاني

بنية القرابة

أولاً. الأسرة موضع التساؤل

ليس لعلاقات القرابة أهمية واحدة في جميع الثقافات . وحتى لو أننا لا نعرف مجتمعات دون قواعد تنظّم هذه العلاقات ، فإن ثمة مجتمعات تفرض فيها علاقات القرابة مبدأ العلاقات الاجتماعية كلها ، ومجتمعات أخرى يتضاءل فيها هذا المبدأ جداً . والأسرة ، في بعض المجتمعات (موريجان أوستراليا) ، يمكنها دون اعتراض ، أن تُعتبر الحجيرة الاجتماعية الأساسية ، وعليها يرتكز النظام الاقتصادي والسياسي في نهاية المطاف . والعلاقات الأسرية نفسها هي التي تحدّد حتى صورة المسكن لدى الهنود البوروورو في البرازيل . والوظيفة الاجتماعية للأسرة أكثر تقلصاً بكثير في مجتمعات أخرى ، كالمجتمعات الأوربية على وجه الخصوص ، وبعض المجتمعات التي تسمى بدائية ، كمجتمعات هنود السهول في الولايات المتحدة الامريكية . ويبدو أن هذه الوظيفة تزداد ضعفاً فيما يتعلّق بالمجتمعات الأوربية . فقد بيّن استقصاء أنجزته مجلة (الدراسات) (1) لدى قرائها ، في بداية عام ١٩٦٨ ، بياناً واضحاً أن جميع الذين أجابوا يستشعرون بصورة عملية شيئاً شبيهاً بضرب من تفكّك الأسرة ، استشعاراً يرافقه الترحاب بذلك أو ، على العكس ، يرافقه الأسف . أما فيما يخصّ الأسرة التي تمتدّ إلى أولاد العم والحواشي ، فان جميع الأشخاص الذين شاركوا في الاستقصاء كانوا

---

(١) مجلة «الدراسات» عدد نيسان ١٩٦٨ .

متفقين : هذه الأسرة تفجّرت . والبواعث التي يذكرونها لشرح هذا التفجّر أنواع شتى ، ولكنها ترجع جملة إلى شمول الحركية الاجتماعية ، والتوزّع المكاني لشتى أعضاء الأسرة ، وفي الوقت نفسه ، إلى الصعوبة الكبرى في تحقيق اتحادات تشمل الأسرة كلها . وإلى ذلك ينبغي لنا أن نضيف ، ولا ريب ، أن النظام الاقتصادي الحديث جعل على الغالب متعذراً بقاء وظيفة اقتصاديةواضحة للأسرة بوصفها كذلك : فلم تعد مهنة الأب قدر الابن .

١ - أثمة اقتصار على الوظيفة البيولوجية ؟

وإذا كانت الأسرة تظلّ واقعاً ، فانها تقلّصت إلى العلاقات بين جيلين : فالأسرة الأوربية تبدو على أنها تتألف من الأبوين والأطفال . ولنا الحق في التساؤل عمّا إذا كان لا يزال للأسرة ، ولو أنها تقلّصت إلى هذا الحدّ ، وظيفة اجتماعية محدّدة . والأسرة التي نتصورها على هذا النحو ، تؤدي الوظيفة البيولوجية في الإنجاب بالتأكيد ، ولكن المشكل الذي يبدو في أغلب الأحيان من خلال الإجابات المقدّمة في الاستقصاء هو المشكل التالي : ألا يحلّ الجماعي ، أي التنظيم الاقتصادي الاجتماعي الإجمالي ، محل الأسري ؟ أليس للأسرة نزعة متزايدة إلى أن تتقلّص إلى الوظيفة البيولوجية ؟ إن الجماعي يحلّ محلها في كل المهمات التربوية ومهمات التنشئة الاجتماعية التي كانت تؤديها حتى الآن . وليس الموضوع المطروح على بساط البحث أمراً واقعاً ، بل المطروح على بساط البحث هو اتجاه ، هو تفسير سيرورة تحدث أمام أعيننا .

ماالحجج المقدمة لتسويغ هذا التفسير ؟ الحجج متعدّدة وتتعلق بما سمّي ، في موضع آخر ، حركة التنشئة الاجتماعية . ولكي نكتفي بالاستقصاء المذكور أعلاه ، نشير إلى أن الأفراد لا يتكلمون على تقليص المجال الأسري ، تقليصه إلى الثنائي والأطفال فحسب ، وإنما على تقليص الحياة الأسرية . وهذا التقليص معزوّ بصورة عامة إلى حركة مزدوجة : حركة ترك الأبوين والأطفال منزل الأسرة ؛ فللأب والأم ، على الغالب ، نشاط مهني ، ويوضع الأطفال في زمن مبكّر جداً في المدرسة أو في دار الحضانة ؛ والحركة الأخرى هي ، على العكس ،

غزو المنزل الأسري بالحياة الاجتماعية الخارجية ، وعلى وجه الخصوص بالتلفزيون .

وهذه الحركة المزدوجة ، التي ينبغي لنا تحليلها لكي نقيّم نتائجها الواضحة ، تتيح على الأقل أن نفهم أن الأبوين يُعزلان فعلاً ، بصورة متزايدة ، من وظيفتهم التربوية ، لمصلحة هيئات ، هي المدرسة والتلفزيون والشارع ، تابعة للجماعة الإجمالية على نحو مباشر . ولكي نؤكد ، في نهاية الأمر ، أن الأسرة تتفكّك أو أنها تتقلّص إلى الوظيفة البيولوجية ، فإننا نستند إلى الفكرة الواقعية القائلة إن الأسرة لم تعد المحل المفضّل للاندماج الاجتماعي . ولم يعد الفرد بالأسرة ، وعلى أي الأحوال بالأسرة وحدها ، يتدرّب على الحياة الاجتماعية .

ومما لا جدال فيه أن الأسرة ، من وجهة النظر هذه ، لم يعد يمكن النظر إليها على أنها الحجيرة الاجتماعية الأساسية . فهي ، فيما يتعلق بالتكوين الاجتماعي والثقافي ، تتقاسم سلطاتها مع هيئات أخرى تنزع على الغالب إلى أن تحلّ محلها بصورة نهائية . ويبقى صحيحاً أن هذا التحوّل في دور الأسرة الاجتماعي لا ينطوي بالضرورة على تقليصها إلى الدور البيولوجي في الإنجاب . والواقع أن النقص الفعلي في الوظيفة الفاعلة ، وظيفة التنشئة الاجتماعية والتكوين الثقافي للأطفال ، لا يغيّر بصورة أساسية أهمية وجهي الأبوين في النمو السيكولوجي للطفل(٢) . فقد بيّن التحليل النفسي كم يتصف بالأهمية وجه الأب ، والمعنى الذي يتضمّنه بالنسبة للطفل ، في نموه المتوازن . ويمكننا أن نقول عن الأم ، في هذا الصدد ، ماقلناه عن الأب . ولدى المرء دون شك نزعة ، لها ما يسوّغها ولكنها مغالية ، إلى أن ينظر إلى الأسرة من وجهة نظر الطفل وحدها . والحال أن للأسرة أيضاً وظيفة مفادها أن تحقّق حياة الثنائي . وإذا كان لهذه الحياة ، دون ريب ، جانب بيولوجي ، وجنسي ، فان مما لا يحتمل الشك أنها لا ترتدّ في شيء إلى مجرد وظيفة الإنجاب . ويبدو إذن أن الكلام على تفكك الأسرة ، أو افتراض زوالها في النهاية ، ناجم عن فرضيات جسورة وعن تفسيرات متسرّعة .

(٢) انظر فصل «اللاشعور والبنيات الأسرية» في هذا الكتاب .

والموقف المعاكس ، من جهة أخرى ، الكامن في التأكيد على الدور الراجح والثابت لبنية الأسرة ، يبدو عرضة للمناقشة أيضاً . فالدور الاجتماعي للأسرة كان قد تغيّر ، وعلى نحو عميق في الغالب ، بفعل النمو في التواصلات ومقتضيات التنظيم الصناعي . ويبدو مفيداً ، في هذا المنظور ، أن نناقش قضية تظهر على الغالب في الاستقصاء الذي أنجزته مجلة (الدراسات) .

٢ ـ هل الأسرة بمثابة مثال اجتماعي ؟

القضية ، في خطوطها العامة ، هي التالية : من المؤكد أن ثمة اعترافاً بأن الأسرة لم تعد الحجيرة الاجتماعية الأساسية ، ومن المؤكد أن ثمة تسليماًبحق هيئات أخرى في التدخّل في تكوين الأطفال . ولكن ألا تصبح الأسرة ، إذا لم تعد أساس المجتمع ، غاية المجتمع والهدف المطلوب إنجازه ، بضرب من التغيّر المفاجىء الغريب ؟ فتصبح الأسرة ، لا بوصفها قاعدة المجتمع ، بل بوصفها مثالاً اجتماعياً . ولن يكون للأسرة وظيفة سابقة على تأثير الجماعة ، وإنما سيكون لها وظيفة غائية . وهذه القضية تثير الاهتمام ، ذلك أنها تماثل على وجه التقريب تلك القضية التي تنصبّ على الفرد منظور إليه بالنسبة لحركة التنشئة الاجتماعية : فكلما وحّدت السلوكات حركةُ التنشئة الاجتماعية ، نَخَرت هذه الحركة دائرة الخاص والأصالة والفارق ، وكلما علا شأن هذا الفردي ، وهذا الخاص ، وهذا الفارق ، فرض كل منها نفسه بوصفه مثالاً ينبغي للمجتمع أن يحقّقه . ويبدو أيضاً أنه كلما تناقصت الأهمية الاجتماعية للأسرة ، علا شأنها . إن تحليل تقنيات الجماعة بينّ خطر هذا الإضفاء لصفة المثال على الأسرة . وإذ يُبْرَز الفردي والشخصي بحجة تقليص القسر الاجتماعي ، فإن هذا الإبراز يكون النمط النهائي الذي يفلح المجتمع به في أن يدمج من يعارضه . وربما كان هو الأسلوب الأعمق الذي يفلح القسر الاجتماعي به في أن يصبح كلياً .

وليس تقليص استطاعة الأسرة ناجماً عن إرادة الأفراد الطيبة الذين يؤلفون الأسرة : إن هذا التقليص يستجيب لضرورات اقتصادية واجتماعية وسياسية تميّز المجتمعات الصناعية الحديثة . وللمرء الحق ، منذئذ ، في أن يتساءل عما إذا لم يكن الإحباط ، الذي يقابل هذا التقليص ، قد تحوّل إلى ضرب من المثال حتى

يكون مقبولاً . فلهذا التفسير الجديد للأسرة جميع خصائص الأسطورة التي لها في المجتمعات البدائية ، في رأي شتراوس ، وظيفة مفادها أن تقلّص تناقضاً وتسدّ فراغاً . وتبدو الأسرة ، منظوراً إليها على أنها غاية المجتمع ، حلماً بالمعنى الدقيق للكلمة ، أي أنها تبدو بوصفها إشباعاً متخيّلاً لرغبة لا يتيح الواقع أن يرضيها . ويظلّ ذلك فرضية ، ولكن التماثل مع محاولاتٍ لعلم النفس ، تبتغي أن تبعث الإنسان الأصيل ، يمنحها أساساً معيّناً .

والعنصر النهائي الوحيد الذي ينجم عن هذا التحليل هو أن تفكك الأسرة الأوربية ، الفعلي أو المزعوم ، ليس تقليصها إلى مجموعة علاقات من النسق البيولوجي . وتكفي هذه الملاحظة لكي نؤكد أن علاقات القرابة ليست طبيعية بصورة أساسية ، بل ثقافية . وتبعاً لهذا التأكيد حاول ليفي شتراوس تحليل (البنيات الأولية للقرابة) . ولا يمكننا ، في رأيه ، أن نفهم هذه البنيات إلا إذا نظرنا اليها على أنها التنظيم الذي يحدّد تبادل النساء . فليس تحليل بنيات القرابة هو تحليل ما به ترتبط علاقات القرابة بالبيولوجي ، بل على العكس هو تحليل ما به تنفصل عنه .

ثانياً تبادل النساء

أعمال ليفي شتراوس ، فيما يخص تحليل بنيات القرابة ، تُعتبر حجة . ومجموع ما سيقال مقتبس إما من مؤلفه الكبير المعنون « البنيات الأولية للقرابة » ، وإما من مؤلفه « الأنتروبولوجيا البنيوية » . ويتيح الفصل المخصّص للإتنولوجيا أن يكون لدى المرء رؤية عامة حول طريقة ليفي شتراوس ، وعلى وجه الخصوص حول الصلات التي يقيمها مع علم اللغة . ويودّ ما يلي أن يكون عرضاً لنجوع هذه الطريقة ، وذلك انطلاقاً من دراسة ليفي شتراوس الأقل اتصافاً بأنها موضع نزاع : تلك التي تنصبّ على بنيات القرابة .

وتأكيد ليفي شتراوس الأول ، الذي ينبغي لبنيات القرابة بحسبه أن لا تدرس انطلاقاً من منظور بيولوجي بل انطلاقاً ، على العكس ، من رؤية ثقافية ،

يستند إلى ملاحظة بوسع كل فرد أن ينجزها . أي أننا ، من جهة ، نلاحظ قواعد الزواج في جميع المجتمعات ، وأن هذه القواعد ، من جهة أخرى ، غير متجانسة ، في الظاهر على الأقل . فالقاعدة الخاصة بتحريم غشيان المحارم وقاعدة زواج السِّلفة (*) ، على سبيل المثال ، تشرحان قواعد الزواج التفضيلي ، الخ . وعلى هذه القواعد ، تتنضّد مواقف محدّدة في مجتمع معيّن . وعلى الرغم من أن التناظر المباشر بين منظومة المواقف ومنظومة قواعد القرابة مفقود ، فإن هاتين المنظومتين ناجمتان عن تحليل بنيات القرابة .

ووظيفة اللغة ، كما يلاحظ ليفي شتراوس ، محدّدة في تحليل اللسانيات ، إنها التواصل . وما ينبغي تحديده هو الوسيلة التي حصلت بها اللغة على هذه النتيجة . فمنظومات القرابة ، بالنسبة لتحليل علاقات القرابة ، معروفة ؛ وموضوع الخلاف ، على العكس ، هو وظيفة هذه المنظومات . وفي هذا المنظور ، يبني ليفي شتراوس تحليله على فرضية يقع عبء تحقيقها على البحوث . فبدلاً من أن نصنّف قواعد القرابة بفئات غير متجانسة ، نفترض أن لها جميعها وظيفة تكمن في أن تؤمّن تداول النساء في قلب الجماعة الاجتماعية . وتكون كل قاعدة من قواعد الزواج المختلفة وسيلة مختلفة لتأمين هذا التداول . وتنظر هذه الفرضية ، التي ستكون موضع التحليل على نحو أكثر وضوحاً فيما بعد ، إلى علاقات القرابة على أنها التعبير عن التبادل الأساسي الذي ترتبط بواسطته الجماعات الاجتماعية فيما بينها ، إذ تحلّ منظومة من علاقة المصاهرة ذات الطابع السوسيولوجي والثقافي محلّ منظومة من علاقة دموية ذات منشأ بيولوجي . فالأسرة تتكوّن ، في رأي ليفي شتراوس ، لا انطلاقاً من البيولوجي ، بل تبعاً للقطيعة مع البيولوجي .

وتتيح هذه القضية على وجه الخصوص إيجاد حلّ لسؤال تركته الأنتروبولوجيا الكلاسيكية معلّقاً : كيف نشرح حضور الخال وأهمية هذا الخال

(*) قانون عبراني كان يلزم الرجل بالزواج من أرملة أخيه الذي مات دون وريث «م» .

الذي نجده في منظومات عديدة من القرابة ؟ ويجيب ليفي شتراوس عن هذا السؤال على نحو بسيط جداً : « ليس علينا أن نبحث كيف يتدخّل الخال في علاقات القرابة ، ذلك أنه موجود فيها دفعة واحدة ، إن موقعه فيها بالضرورة » . والواقع أن قواعد القرابة إذا لم تكن سوى صيغ مختلفة يتبادل الرجال بواسطتها النساء ، فذلك يعني أن « أي رجل ، في المجتمع الانساني ، لا يمكنه أن يحصل على امرأة إلا من رجل آخر يتنازل له عنها على صورة ابنة أو أخت » . وهذا يعني أن بنية القرابة الأكثر بساطة ، « أي عنصر القرابة » ، تتضمن أربعة حدود على الأقل : رجلاً وامرأة وطفلاً ورجلاً آخر يتنازل عن المرأة إلى الأول المذكور ، بوصف هذا الرجل الأخير على وجه العموم أخاً للأم ، أي الخال .

ثمة سؤالان يطرحان نفسيهما حول موضوع هذه البنية المصغّرة من القرابة . لماذا يجب إدخال الطفل بالضرورة ؟ ولماذا لا يتدخّل الخال ، بصورة ظاهرة دائماً ، أي صلة الخؤولة ؟

ـ الجواب عن السؤال الأول مباشر . فقد يتفق أن يُحدث فعل التنازل عن امرأة إلى جماعة أخرى ، في الجماعة التي تنازلت ، ضرباً من فقدان التوازن البدئي يجب حلّه بـ أداء مقابل : فعلى الجماعة التي تلقّت المرأة أن تعطي امرأة من الجيل اللاحق . ومنذئذ يكون حضور الطفل ضرورياً للبنية ذاتها . فالنتيجة النظرية ذات أهمية : من المتعذر أن نفهم بنيات القرابة على نحو سكوني ، وعلينا أن نتصورّها على نحو دينامي وتاريخي .

ـ والسؤال الثاني اكثر تعقيداً ، فغياب الخال ، الغياب الظاهر ، في بعض علاقات القرابة ، يبدو أنه يضع النظرية ذاتها موضع الاتهام . والاجابة التي يقدّمها ليفي شتراوس عن هذا السؤال تقع على عدة مستويات :

ـ فمن الضروري أولاً أن نلاحظ أن أهمية منظومة القرابة ليست واحدة في كل مكان ، يضاف إلى هذا أن البنية ذات الحدود الأربعة ، أي صلة الخؤولة ، هي « ذرة القرابة » . وهذا يعني أن كل منظومة للقرابة ، مهما كانت معقّدة ، يجري إعدادها بدءاً من هذه الذرة . وتتسّع المنظومة الأكثر تعقيداً إما بتكرار البنية

الأولية هذه ، وإما بدمج عناصر جديدة . فإذا أخذنا الحالة الأولى بالحسبان ، فإن توزيع البنية الأولية ، أي صلة الخؤولة ، يظلّ ظاهراً على الدوام . و « على العكس ، ففي الحالة التي تتّسع فيها منظومة القرابة إذ تدمج عناصر جديدة ، قد تصبح وحدة البناء في المنظومة أكثر تعقيداً وتغرق صلة الخؤولة في سياق متمايز » (٣) .

والملاحظة الأولى ، التي قد يستخلصها المرء مما سبق ، أن دور الأسرة الأساسي ليس من نسق بيولوجي ، بل من نسق اجتماعي . فالأسرة ، أياً كانت الصورة التي تتّخذها ، ضرورية لوجود المجتمع ، وجوده ذاته . ومنذئذ تكون التخمينات حول زوال مزعوم للأسرة ، بتأثير البنيات الاجتماعية الأكثر اتساعاً ، غير ذات أساس بالتأكيد .

والملاحظة الثانية ، التي بوسعنا أن نبديها ، أن عدد صور القرابة متناه . ومن الممكن مبدئياً أن تحدّد بالحساب مجموع بنيات القرابة موضع النظر . ومن المؤكد أن هذا التحديد يظلّ أيضاً ، على نحو أساسي على الأقل ، رؤية فكرية . ومع ذلك ، فإن هذا الإمكان النظري يقرّب التحليل البنيوي من الطرائق العملية .

وثمة ، أخيراً ، سؤال يخطر في الذهن مباشرة : ينظر ليفي شتراوس إلى قواعد القرابة على أنها الصور المختلفة التي تتبادل الجماعات الاجتماعية بواسطتها النساء . والحق للمرء في أن يتساءل عما إذا كان ممكناً للرجال أن يؤلفوا قيماً للتبادل كالنساء . والواقع أننا لم نلاحظ قط مجتمعاً يكون الرجال فيه هم موضع التبادل . فالمجتمعات القائمة على نظام الأمومة ليست مجتمعات تستأثر المرأة فيها بـ السلطة ، بل هي مجتمعات تستأثر الجماعة التي تنتسب اليها المرأة ، وعلى وجه الخصوص رجال هذه الجماعة ، بالسلطة على الأسرة المعنيّة . وما نسميه نظام الأمومة هو صورة اجتماعية تمثّل فيها السلطان على الطفل ، وفي الغالب أيضاً على الزوج فيما يخصّ صلته بامرأته ، جماعة الأم ، وعلى وجه الخصوص أخ الأم .

---

(٣) ليفي شتراوس ، «البنيات الأولية للقرابة» .

ولكي نتجنّب عدداً معيّناً من الالتباسات الشائعة ، ثمة ما يدعو إلى أن نميّز المصطلحين التاليين : نظام الأمومة ونظام الأبوة من مصطلحي نظام النسب الأمومي ونظام النسب الأبوي ، وكذلك من مصطلحي النظام الخاص بمحل إقامة الأم والنظام الخاص بمحل إقامة الأب ، من جهة أخرى .

ـ نظام الأمومة أو نظام الأبوة يدلّان على صورتين متعارضتين من صور السلطان : فأسرة المرأة ، في النظام الأول ، هي التي تحوز السلطان وتهتم بتربية الأطفال . أما نظام الأبوة ، فهو صورة السلطان الأبوي .

ـ ونظاما النسب الأمومي والنسب الأبوي يدلان على نموذجين من الخَلَف : فتبعاً لكون الأطفال ينتسبون إلى جماعة الأم أو إلى جماعة الأب ، يكون الخلف ذا نسب أمومي أو نسب أبوي . ويعبّر الاسم الذي يتخذه الأطفال عن هذا الخلف .

ـ ويدلّ مصطلحا النظام الخاص بمحل إقامة الأم والنظام الخاص بمحل إقامة الأب على مكان إقامة الأسرة .

ـ والحقيقة أن التزامن شائع بين نظام الأمومة ونظام النسب الأمومي والنظام الخاص بمحل إقامة الأم ، وكذلك بين نظام الأبوة ونظام النسب الأبوي والنظام الخاص بمحل إقامة الأب . ولكن هذا التزامن غير مطلق . فثمة نظام الأمومة لدى قبائل « النرويريند » ونظام إقامة الأب أيضاً .

ـ وأخيراً ، يتفاقم التنوّع أيضاً في قواعد القرابة بفعل عادات اجتماعية كتعدّد الزوجات وتعدّد الأزواج أو الزواج بالجماعة . وإذا كانت هذه العادات تنزع إلى التلاشي ، فذلك لأن الصور الاقتصادية ، والاجتماعية ، والصناعية ، المتحدّرة من أوربا ، التي تغزو العالم برمته ، تجعل ممارستها على الغالب عشوائية جداً . فبالنسبة لقبائل التودا في الهند ، على سبيل المثال ، اختفى تعدّد الأزواج ، أي زواج المرأة بعدة رجال ، مع تدخّل البريطانيين ، ذلك أن هؤلاء منعوا ضرباً من الممارسة يكمن في أن يُقتل عدد معين من الأطفال من الجنس المؤنث منذ الولادة . وعلى عكس ما توقّعه الأوربيون ، فان ذلك لم يقد التودا إلى ممارسة الزواج الأحادي . إن الزواج بالجماعة هو نظام الزواج الذي تبنوه .

ومهما يكن من أمر ، فانه ينجم ، من خلال تنوّع الصيغ التي تتبناها المجتمعات ، أن وظيفة الأسرة وقواعد القرابة تظلّ وظيفة تبادل ، أي وظيفة تواصل . وبالتماثل مع علم اللغة ، أجرى ليفي شتراوس بحثه حول بنيات القرابة . فقيمة هذا التماثل وكذلك الافتراضات المسبقة التي يُدخلها ، هي التي ينبغي لنا الآن أن نأخذها بالحسبان .

ثالثاً ـ اللغة والقرابة

المسألة التي يطرحها هذا العنوان مزدوجة ، إنها خاصة بطريقة التحليل من جهة ، وبالموضوع من جهة ثانية . فهي خاصة بطريقة التحليل من حيث أن الطريقة موضع الاعتبار في علم اللغة أوحت ، بشهادة ليفي شتراوس ذاتها ، بأعماله وقادتها ؛ وهي خاصة بالموضوع بما أن بنيات القرابة ، المنظور اليها على أنها صور التبادل الاجتماعي للنساء ، تبدو منذئذ بوظيفتها التواصلية بمثابة لغة (٤) ، « ولا بد من الاعتراف بأن علماء اللغة وعلماء الاجتماع لا يطبّقون طرائق واحدة فحسب ، بل ينكبّون على دراسة الموضوع نفسه » (٥) .

وإذا كان نمط اللسانيات يفرض نفسه بكثير من السلطان على المسيرة الأنتروبولوجية ، فذلك ، أول الأمر ، لأن « ثمة علماً اجتماعياً يفلح للمرة الأولى في صياغة علاقات ضرورية » (٦) ، وربما على وجه الخصوص أيضاً ، لأن شأن مصطلحات القرابة كشأن الوحدات الصوتية ، « فكما أن الوحدات الصوتية أساسية في الكلام ، كذلك مصطلحات القرابة عناصر ذات دلالة » (٦) . والواقع أن ليفي شتراوس يعتقد ، مقتفياً بذلك أثر فرويد وعلماء اللغة على حد

---

(٤) «البنيات الأولية للقرابة» ، ليفي شتراوس . انظر فصل «الأنتروبولوجيا الثقافية» في هذا الكتاب .

(٥) «الأنتروبولوجيا البنيوية» ، ليفي شتراوس .

(٦) «المصدر نفسه» .

سواء ، أن الانسان ، على عكس الحيوان ، يتحدّد بالوظيفة الرمزية . والمرء يمكنه ، في رأيه ، أن يتصور الثقافة على أنها مجموعة من المنظومات ، لغة وقرابة ، بل ، على أنها أيضاً ، فن وأسطورة واقتصاد ، وحتى فن الطهو ، توطّد التواصل بين الناس على مختلف المستويات . وبناء عليه ، ينبغي لنا أن ننظر إلى منظومات القرابة لا على أنها منظومات تواصل فحسب ، ولكن يمكننا أيضاً أن ننظر إلى مجموعة المنظومات التي تكوّن ثقافة شعب من الشعوب على أنها تكافىء لغة من اللغات .

والتواصل في منظومة اللغة يتوطّد بالكلمات بين أعضاء الجماعة ، ويتوطد بالنساء في منظومة القرابة . ويظلّ صحيحاً في الحالة الأخيرة أن « الرسالة » التي تؤلفها النساء لا تمضي من فرد إلى آخر ، بل من عشيرة وأسرة وسلالة إلى أخرى ، ولكن ذلك لا يبدّل في شيء من مظهر التواصل الرمزي لصلات القرابة .

١ ـ منح المرأة

النظر إلى علاقات القرابة على أنها صورة من صور التواصل ، هو الوسيلة الوحيدة ، في رأي ليفي شتراوس ، لنفهم منظومات القرابة فهماً إجمالياً . والواقع أن الانترويولوجيا الكلاسيكية كانت قد أوضحت المقابلة بالمثل التي كانت موجودة في بعض المجتمعات إيضاحاً كبيراً . فثمة جماعة كانت تمنح امرأة لجماعة أخرى كانت تمنح بالمقابل وهذا يتم على نحو تزمّني (تاريخي) ، إحدى نسائها إلى الجماعة الأخرى . وقد بيّن ليفي شتراوس أن منظومات القرابة جميعها كانت من هذا النوع ، ولكنه نجح ، فيما يخصّ المجتمعات التي لم تكن الأنترويولوجيا الكلاسيكية قد توصّلت إلى تحديدها من وجهة النظر الخاصة بعلاقات القرابة ، في بيانٍ مفاده أن المقابلة بالمثل في منح النساء أكثر تعقيداً . والحقيقة أن جماعة من الجماعات ، في منظومات معقدة للقرابة ، ليست هي التي تمنح امرأة إلى جماعة أخرى وتنتظر منها أداء مقابلاً معادلاً . فهذه المنظومات ، التي يمكنها أن تضمّ عدداً من الجماعات ، أياً كان هذا العدد ، تقيم ضرباً من الهبة الدائرية . فإذا فرضنا أن المجتمع يحتوي على خمس جماعات أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، فإنه يمكننا أن نعرض التواصل الذي تحقّقه النساء عرضاً مبسطاً بقولنا إن الجماعة أ تمنح امرأة

إلى الجماعة ب التي تمنح ، هي ذاتها ، امرأة إلى الجماعة ج ، والجماعة ج تمنح امرأة إلى الجماعة د ، ثم من د إلى هـ ، وأخيراً من هـ إلى أ . فالدائرة تنغلق ، والمقابلة بالمثل ليست ظاهرة ، ذلك أن أي جماعة لا تمنح امرأة إلى جماعة تتلقّى منها امرأة . وهذا النظام هو ما يسميه ليفي شتراوس التبادل المعمّم .

ولهذه القواعد المختلفة في المقابلة بالمثل وتبادل النساء وظيفة أساسية تكمن في أن تؤمّن تواصلاً يتجنّب رابطة الدم . فحيث كانت القواعد الواضحة ضرورية للحصول على هذه النتيجة ، أي لإحلال العلاقات الاجتماعية محلّ العلاقات الدموية ، كانت الحركية الاجتماعية ، وكثافة السكان وسيولتهم ، تكفي في بعض الأحيان . وتلك هي حال الشعوب الأوربية ، على سبيل المثال ، التي يكفي فيها عدد قليل من الأوامر السلبية ، تحريم الزواج بالمحارم والزواج بين أبناء الأعمام الأشقاء ، ليؤمّن « تماسكاً اجتماعياً ناجماً عن الزواج بين أزواج درجة القرابة بينهم بعيدة جداً ، إن لم يكن يتعذّر تذكّرها » (٧) . ومنظومة القرابة ، في هذه الشعوب أيضاً ، التي تتكوّن من نمط التبادل المعمّم ، هي نمط من الأنماط التي تؤمّن تحريم غشيان المحارم(٨) ، أي التي تتجنّب صلة الدم . وفي هذا الأمر ، تشترك اللغة ومنظومة القرابة في خاصتين : اللغة ، كالقرابة ، ظاهرة ثقافية ، وكلتاهما ذات وظيفة للتبادل ، الكلمات أو النساء . ولكي نسوّغ النظرية الخاصة بعلاقات القرابة بوصفها مكافئة للغة من اللغات ، من الضروري أن نعمّق التحليل .

٢ ـ البنيات الاجتماعية بنيات لاشعورية

« اللغة ظاهرة اجتماعية تؤلّف موضوعاً مستقلاً عن الملاحظ ولدينا عنها مجموعات إحصائية طويلة » (٨) . وهذا يعني أن اللغة بوصفها كذلك ، لا كلام فرد معيّن ، تتيح المجال لتصرفات لغوية لاشعورية . إننا لا نشعر ، حين نتكلم ، أي شعور بقوانين النحو والصرف في اللغة . يضاف إلى هذا أننا لا

---

(٧) انظر فصل «الأنتروبولوجيا الثقافية» في هذا الكتاب .

(٨) انظر فصل «اللاشعور والبنيات الأسرية» في هذا الكتاب .

نملك أي معرفة بالوحدات الصوتية التي نستخدمها لكي نميّز معنى كلامنا ، دون أن نتكلم بالتأكيدعلى التقابلات الصوتية . ولكن عالم اللغة لا يخلط أبداً بين معارفه النظرية وبين تجربته ، بوصفه فرداً متكلماً . فهل بوسعنا النظر إلى أن علاقات القرابة تنطوي على الموضوعية نفسها ؟ إن علاقات القرابة ، شأنها شأن الكلام ، ليست موضوعية . فكما أن الكلام موسوم بسمة الفرد الذي ينطقه ، كذلك تكون علاقات القرابة تابعة لفردية أولئك الذين يعقدونها . ولكن لنا الحق في النظر إلى بنيات القرابة ، أي إلى المنظومة الرمزية التي تدعم العلاقات الواقعية في القرابة ، على أنها شرط الإمكانية اللاشعورية لهذه العلاقات . ومنذئذ ، تكتسب منظومة القرابة ، بوصفها بنية ، ضرباً من الموضوعية المعيّنة . فكما أن من يتكلم لا يشعر بقواعد اللغة [٩] التي تؤسس الكلام ، كذلك من يتزوج امرأة لا يشعر بتحقيق تبادل له وظيفة التماسك الاجتماعي والثقافي .

وهذا اللاوعي ، بالنسبة للفاعلين في منظومة القرابة ، هو الشرط ذاته لسيرها سيراً وظائفياً ، كما أن اللاوعي بالقواعد اللغوية هو شرط الكلام . فثمة إذن ، فضلاً عن الجانب الاجتماعي واتجاه التبادل ، نقطة مشتركة أخرى بين اللغة ومنظومة القرابة ، أي أن ثمة بنية لاشعورية هي شرط العلاقات الواقعية ، زواج وكلمات ، وهي في الوقت ذاته تؤلّف في الحالتين حقلاً للتحليل الموضوعي ، أي حقلاً غير منوط بالفرد الذي يتكلم أو يتزوج ، وبوسعنا أن نتكلم على علاقات ضرورية فيما يخصه .

ـ وأخيراً ، إذا كانت بنيات القرابة وبنيات اللغة منظومات تبادل ثقافية لاشعورية ، فالحقيقة مع ذلك أن طبيعة ما يجري التبادل عليه مختلفة من حيث الظاهر . والواقع أن كل فرد يعترف بأن الكلمات علاقات ، في حين أن الناس أكثر نظراً إلى النساء على أنهن قيم . ويجيب عن هذا ليفي شتراوس أن الشعراء يعلمون أيضاً ، لحسن الحظ الكبير ، أن الكلمات هي قيم أيضاً .

ـ وتعرف بعض الحضارات ، بالإضافة إلى الشعراء ، أهمية الكلمات .

---

(٩) ليفي شتراوس ، «الأنتروبولوجيا البنيوية» .

فليست جميع الحضارات ، كحضارتنا ، خصيبة بالكلام . واذا فقدت الكلمة في الغالب ، على نحو ظاهري على الأقل ، بعدها القيمي لحساب انتفاخ في وظيفتها بوصفها علامة ، فمن المؤكد أن هذا الإرجاع إلى بعد واحد لا يتعرّض إلى خطر الحدوث فيما يخص النساء . وكما يقول ليفي شتراوس ، « إذا كانت الكلمات لا تتكلم ، فالنساء ، هنّ ، يتكلمن . وهنّ ، من حيث كونهن علامات ، بل ومنتجات للعلامات أيضاً ، لا يمكن إرجاعهن إلى حالة الرموز أو الفيشات »[١٠]. ومنذئذ يبدو أن التواصل لا يتم أبداً إلا انطلاقاً من موضوع له بعد رمزي مزدوج ، بعد العلامة وبعد القيمة . والحقيقة أن بوسعنا أن نشدّد على هذا الجانب أو ذاك تبعاً لمستويات التواصل . وتتخذ الكلمة كل معناها بوصفها علامة ، وتتخذ المرأة كل معناها ، أو كل معناها على وجه التقريب ، بوصفها قيمة .

٣ ـ النساء لسن كلمات

يبدو أن النظر إلى علاقات القرابة كما يُنظر إلى لغة من اللغات كان ضرباً من المراهنة . فالتماثلات بين هذين الواقعين ، التي أوضحناها ، تبينّ جيداً معالجة علمية ذات منهجية مماثلة يمكننا تطبيقها على هذين الموضوعين . ومع ذلك ، فليس من الضروري ، وهو أمر غير مستحب ، أن نستخلص على عجل ضرباً من التطابق التام بين اللغة وعلاقات القرابة ، انطلاقاً من تناظرات بينهما في المظهر الثقافي والمظهر التواصلي ، والبنية المنظومية اللاشعورية ، ومظهر العلامة والقيمة . فالنساء لسن كلمات،والكلمات ليست نساء. والفائدة من دراسة ليفي شتراوس أنها تبينّ بوضوح أن هذه الظاهرات الاجتماعية المختلفة ليست غريبة بعضها عن بعض . يضاف إلى هذا أن دراساتها الخاصة تدخل بعض الأحيان في منظور واحد . ومن خلال هذا الالتقاء في وجهة النظر ، يدعم ليفي شتراوس قضية ضرب من كلية الفكر الإنساني منذ النتاجات « البدائية » حتى البراهين العلمية ، وذلك لا يعني على الإطلاق أن مختلف الظاهرات الاجتماعية يمكن

---

(١٠) «الأنتروبولوجيا البنيوية» ، ليفي شتراوس .

تصورها على أنها انعكاسات هذا الفكر . فعلى كل عالم أن ينظر إلى موضوعه على نحو خاص ، واذا تم اكتشاف بعض التناظرات ، فان الافادة من مساهمة العلوم القريبة ليست ممنوعة . وبهذا الاتجاه المنظوري ، يجب تصور الصلات بين الاتنولوجيا وعلم اللغة . وليس ثمة أي محاولة من محاولات التقليد المباشر في هذه الصلات .

الباب السادس

سيكولوجيا العَمَل

الفصل الأول: عالم النفس التقني في المشروع

الفصل الثاني: تاريخ سيكولوجيا العمل وطريقته

الفصل الثالث: نقد سيكولوجيا العمل

الفصل الأول

عالم النفس التقني

في المشروع

لكل مكانه

ـ في بداية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين ، شهد مجتمعنا التقني والعلمي ينتشر ، في قلب المشروعات والإدارات من كل الحجوم ، استخدام طرائق التوجيه والاصطفاء في وسط العمل بواسطة الروائز السيكولوجية . وتستوحي طرائق الاصطفاء هذه من روح جديدة تكمن في أن لا تترك أي شيء للمصادفة في الوظيفة ، والمهنة ، والوسط الاجتماعي المهني ، التي ينبغي للناس العاملين في كنفها أن يتطوروا . وتتحقّق هذه الروح على مستوى تنظيم العمل ، حيث تكون سياسة الاستخدام ، وسوق اليد العاملة ، والتوجيه المهني ، موضع التنبؤ المتعاظم والتخطيط والتعقيد . ويحاول مخطّطو تطوير البيع ومخططو العمل أن يتنبؤوا بغير المتوقع بغية معرفةٍ أفضل ، وبغية اتخاذ القرار مع معرفة بالأسباب . وهذه المعرفة تجد التعبير عنها في المجال النفسي السوسيولوجي حيث يجب أن لا يُترك شيء من قدرات أي إنسان أو جماعة في المشروع لـ « الحظ » أو للمصادفة . وثير هذه الطرائق ارتكاسات شتى جداً وفقاً للعمر ، والوسط ، والمهنة .

استعباد الأفراد

ويرى فيها بعضهم ، في الحالة الأسوأ ، طرائق جديدة ماكرة وناجعة من أجل اندماج الأفراد واستعبادهم ، على نحو أفضل . وسيكولوجيا العمل في هذه

الحالة موضع انتقاد شديد ، وكذلك وسائل الاصطفاء التي يرون فيها ضياعاً جديداً وصورة من صور استثمار الانسان .

المردودية الاقتصادية

ـ وعلى العكس ، يرى الآخرون ، وفي عدادهم على وجه الخصوص أولئك الذين يستخدمونها ، أن مقاييس المردودية والعقلانية يجب دمجها دمجاً كاملاً في الطرائق السيكولوجية السوسيولوجية . وفي نهاية المطاف ، ننجح على هذا النحو في أن علم النفس وعلم الاجتماع يحلّلان الأفراد ، والجماعات ، ويفحصانهم ، ويراقبانهم بالضرورة بغية أن يسير المجتمع الصناعي سيراً جيداً في إطار ضرب من التنبؤ والتخطيط للسلوكات البشرية والاجتماعية ، حتى يعمل نظامنا الاجتماعي عملاً لا عيب فيه ، عملاً يرافقه الحد الأدنى من اللامتوقع (١) . ويكون علماء النفس والاجتماع ، في هذه الحالة ، نموذج جديد من التكنوقراطيين الذين يدمجون « الآلة البشرية العاملة » بالميكانيك الصناعي .

علماء النفس . . . هؤلاء الغرباء !

ـ وتُدخل طرائق الاصطفاء والتوجيه ، في رأي آخرين أيضاً ، مقاييس جديدة في الحكم على الأفراد والجماعات ، الذين ينكرون على علماء النفس والاجتماع حق التدخّل في حياتهم المهنية . وتلك هي الحالة الأغلب لدى المهندسين والأطر في المشروعات ، الذين يرفضون أن يمنحوا الطرائق السيكولوجية مصداقيتهم وينبذونها لأن علماء النفس ، الغرباء عن مهنهم وأولي تكوين مختلف ، عاجزون عن الحكم على قابلياتهم ومعارفهم .

أسحرة جدد ؟

وإذا كان مجموع الرأي العام يقبل طوعاً أو قسراً أن « يُمتحن » بهذه الطرائق ، طرائق الاصطفاء ، فإنه يعتقد أن هذه الطرائق ليست صحيحة ومجرّبة على نحو يكفي لتُستخدم استخداماً مطلقاً وعلى مستوى كبير . وهذا الرأي العام لا يطلق حكماً جيداً أو سيئاً على الاصطفاء والتوجيه المهني . وينتظر ،

---

(١) انظر فصل «السيكولوجي والسوسيولوجي» في هذا الكتاب .

انتظاراً يرافقه الشعور بالخشية والريبة ، أن يبرهن هؤلاء السحرة الجدد ، علماء النفس ، سحرة المجتمع ، على نجوع طريقتهم ، وأن يزيلوا من أنفسهم هذا المناخ ، مناخ الريبة والخشية ، الذي يكشف عنه علم النفس الاجتماعي في وسط العمل .

ما فائدة عالم نفس للعمل ؟

يجد الأفراد والجماعات تحت تصرفهم ، على نحو متعاظم ، « سيداً » يسمى عالم النفس ، يتابعهم وينصحهم ، ويحدّدهم في اختيار مهنة من المهن ، وفي المركز الذي يشغلونه في قلب المشروع ، وفي الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه . وهدف عالم النفس هذا ان تكون لديه معرفة موضوعية بسلوكات الأفراد والجماعات لتسهيل تكيّفهم مع وسط العمل . ويتيح عالم النفس هذا التكيف بواسطة مجموعة من الطرائق والمعارف التي تسمى علم النفس الصناعي أو علم النفس الاجتماعي ، وهذا المصطلح الأخير يقصد التأكيد على البعد الاجتماعي للمشكلات التي تُعالج . ويهدف علم النفس الصناعي إلى التكيف المتبادل بين شروط العمل وخصائص الموجود الانساني . ولغالبية المشروعات الكبرى إدارة سيكولوجية ، وتلجأ مشروعات عديدة أخرى إلى عون خارجي . وتلك هي حالة كهرباء فرنسا ، وإدارة استثمار المناجم ، وإدارة رينو ، ومشروعات تجارية وصناعية هامة ، وبعض الهيئات الإدارية أيضاً . وبعض المشروعات الأصغر حجماً يمكنها ان تستخدم اختصاصياً واحداً أو عدة اختصاصيين . ويمكنها أيضاً أن تلجأ إلى عيادة تضع تحت تصرفها عالم نفس ، وهي تتعامل في الأغلب مع عالم في علم النفس الاجتماعي مستقل . وأياً كان عالم النفس ، فهدفه أن يساعد المسؤولين في المشروع على حلّ بعض المشكلات الإنسانية بتطبيق علم النفس الاجتماعي . وهكذا فإن العالم في علم النفس الصناعي يمكنه أن يهتم باختيار الناس في وسط العمل ، وبالتكوين المهني ، وبتحسين شروط العمل أيضاً . وبإمكانه ، على سبيل المثال ، أن يساعد في التكوين المستمر للناس في شتى المستويات بغيه تحسين قابلياتهم للقيادة ، وأن يجري أيضاً تحليلات لبنيات التواصل في المشروع ، وأن يدرّب على تعلم طرائق التنشيط والحياة في الجماعة .

وبوسعه أن يحسّن شروط العمل باجراء دراسات على المركز والوضع الاجتماعي والوظيفة ، آخذاً بالحسبان أن المشروع كيان اجتماعي وانساني يقبل التحسين دائماً . فهو يرمي إذن إلى تكوين الناس حتى يكونوا أكثر كفاءة في مهماتهم وفي تغيير الوسط المهني . وهو يساعد أيضاً في اختيار المرشحين للاستخدام : أطر من كل الفئات ، وعمال فنيين متخصّصين ، ورؤساء التنفيذ في المشروع ، ووكلاء تجاريين ، ومستخدمين إداريين ، وعمال مؤهلين من كل صنف . ثم إنه يتابعهم ، حين يتمّ استخدامهم ، ليؤمّن توجيههم في قلب المشروع ، وأعني أنه يكيّفهم . ولا بدّ ، أول الأمر ، من أن يعرف خصائص المركز المطلوب إشغاله ومتطلّباته ، ليكيّف شخصاً من الأشخاص مع العمل . فعالم النفس التقني يحلّل المراكز والمهن قبل كل شيء . وعليه ، بوصفه كذلك ، أن يكون لديه إمكان الاتصال بالواقع ، واقع الورشة والمشغل والمكتب أو النشاط التجاري . وعليه أن يحدّد أي القدرات هي المعنيّة في مختلف نشاطات الانسان الذي ينتج ويدير أو يبيع . وحين يعرف خصائص المركز ، فانه يبقى عليه أن يختار المرشح الذي يناسب هذه الخصائص على نحو أفضل ، ثم يؤمّن له التوجيه الأفضل في قلب المشروع بواسطة بعض الشروط الملائمة من الحفاوة والتكوين . فكل مرشح لعمل من الأعمال يجلب إلى المشروع قدرات اجتماعية وإنسانية . فهو يجلب إليه :

ـ مكتسباً : مزيجاً من المعرفة والخبرة الانسانية والمهنية ناجمة عن التكوين السابق ، وعن المراكز التي شغلها من قبلُ في المشروع الحالي أو في مشاريع أخرى .

ـ كموناً فكرياً : مكتسبات مدرسية ، ومعارف ، وأذواقاً شخصية ، وتكويناً ، وذكاء ، وروحاً تنظيمية وتقريرية ، الخ .

ـ عوامل وجدانية ، وطبعاً ، وإمكانات للارتكاس تجعله أكثر أو أقل كفاءة للقيادة ، والبيع ، والعمل في فريق ، ومعاناة بعض الإيقاعات .

ويبحث إذن عالم النفس العمل عن المطابقة المثلى بين خصائص مرشح للاستخدام وبين متطلّبات العمل . والتوجيه والاصطفاء يكمنان على وجه

الدقة ، بالنسبة للعالم في علم النفس الاجتماعي ، في أن يقيّم ويحلّل ويقدّر جوانب شخصية المرشح ومتطلّبات الوظيفة والمهنة المطلوبة .

أولاً ـ الروائز ومقاييس الاصطفاء التقليدية

١ ـ ما فائدة الروائز ؟

تبيّن في بعض الأحيان أن بعضهم يقابل بين طريقة الاصطفاء السيكوسوسيولوجية وبين دبلومات مرشّحي المستقبل ، وتجربتهم ، وماضيهم المهني ، مقابلة مصطنعة . وتبدو هذه المقابلة مفتعلة بمقدار ما لا يتبلور ضرب من الاصطفاء حول الروائز ، ولو أن عالم النفس لا ندركه إلا وكأنه من يدير الروائز . والواقع أن مقاييس الروائز تبدو على وجه السرعة الكبيرة مكمّلة لما يتصف به المرشح . فهي على الأغلب إذن مقاييس تتكامل ، ودور الروائز أن تنضاف إلى وسائل أخرى إخبارية ، لا مجال لنبذها على الرغم من قصورها . وهذا القصور هو الذي يكوّن مع ذلك أهمية الروائز السيكولوجية التقنية ، أهميتها ذاتها ، ويمكننا القول إن الروائز التي تمّ إجراؤها وتفسيرها تبدو مكمّلة لاصطفاء بالدبلوم ، والماضي المهني ، والاختبار المهني .

٢ ـ الدبلوم

للدبلوم دلالة اجتماعية ومهنية في وقت واحد يأخذها عالم النفس بالحسبان . وكون المرء حامل دبلوم ، في عالمنا المصاب بـ « تفجّر حاد في الدبلومات » ، يعني أنه تلقّى ، من حيث المبدأ ، تكويناً نظرياً وعملياً يُعتبر ضرورياً للوصول إلى بعض الوظائف . والذين يقومون بالاختيار ، أرباب العمل في نهاية المطاف ، حسّاسون جداً لشهرة مدرسة من المدارس أو لمتانة دبلوم من الدبلومات . وكون المرء حامل دبلوم يعني أنه ينتسب أيضاً إلى الجماعة الثقافية لأولئك الذين يحملونه ، وهو يعني أن له منزلة اجتماعية ، وعلاقات ، ووسطاً ، وتصورات هي جميعها وسائل نجاح أساسية إن لم تكن ضرورية . ولكن هذه الوسائل ، وسائل النجاح التي يوفّرها الدبلوم ، قلّما يكون لها صفة الحسم التي

تحدّد الاستخدام ، مهما كانت ذات أهمية من وجهة نظر المستخدم والمجتمع . فحيازة المرء دبلوماً أمر لم يعد يؤلّف الآن ضمان استخدام . وليس للدبلوم إذن غير قيمة عامة ، وهو شاهد على تكوين فكري ، ويؤمّن ضرباً من تعدّد الكفاءة النسبي في العمل ، ولكن هل هو كاف من أجل الدخول والنجاح في وظيفة لها متطلباتها الخاصة ؟ كلا بالتأكيد ، ذلك أن الأمثلة في العمل تبيّن أن شخصاً لا يحمل دبلوماً بوسعه أن ينجح في حياته المهنية ، في حين أن حائز الدبلوم قد يفشل في مهنته كلياً أو جزئياً . فليست حيازة الدبلوم إذن ضماناً مفاده أن هذا الشخص سيتكيّف بنجاح مع عمل معيّن . ولا بد ، بالإضافة إلى الدبلوم ، من صفات شخصية وقابليات واهتمامات على سبيل المثال ، لا يضمنها الدبلوم ، وهي ذات شأن كبير في النجاح أو الإخفاق . وهذه المطابقة ، الأصلح والأوضح والأعمق ، بين الوظيفة المهنية والفرد ، يزعم الفحص السيكولوجي أنه يساهم فيها . ويمكنه أن يسهّل ترقية مستخدم ذي قيمة شخصية مؤكدة ولكنه لا يحمل دبلوماً ، فيجنّب على هذا النحو هدراً في الطاقة الفكرية . ويمكنه أيضاً أن ييسّر البحث عن مركز يناسب بصورة خاصة حامل دبلوم معيّناً ، ويتيح له الفرصة على هذا النحو ليعطي ماهو قادر عليه .

٣ ـ الماضي المهني

والغالب أنه ليس لدى مرشح لمركز من المراكز سوى مصدرين يقدّمهما لمستخدمه : الدبلومات التي كانت موضع البحث فيما سبق ، والماضي المهني إذا كان الأمر يتعلّق بمرشح مارس المهنة المعنيّة من قبلُ . والماضي المهني يمكنه أن يقدّم مؤشرات مفيدة للتنبؤ بالنجاح . ومع ذلك ، من الضروري أن نتحقّق من هذه المعلومات وأن نكملها بنتائج امتحان سيكولوجي . والواقع أن التجربة تبرهن على أن تأكيدات المرشح أو البيّنات التي يقدّمها المستخدمون السابقون ، الخاصة بالقيمة المهنية لفرد من الأفراد ، لا يمكن الاعتماد عليها . أليس أمراً سوياً أن يعرض مرشح من المرشحين ماضيه المهني بوصفه مجموعة من النجاحات والقابليات الايجابية ؟ فقانون الأقوى هو من السيادة في سوق العمل ، والوظائف هي من الندرة ، بحيث أن المرشح نزّاع بصورة طبيعية إلى أن يقدّم نفسه في جو

ملائم . وينجم عن ذلك أن معرفة الماضي المهني معرفة قاصرة وقلّما تكون موضوعية . وماذا نقول عن معلومات مصدرها المستخدمون السابقون ؟ وإذا كان المرشح لم ينجح في أعماله السابقة ، فذلك قد يكون بسبب عيوبه ، ولكنه قد يكون أيضاً بسبب التنظيم السيء للمشروع ، حيث أُجبر المرشح على أن يمارس عمله في مركز لم يكن معدّاً له . فالتبعة في هذه الحالة ، وهي حالة تتكرّر كثيراً ، تقع على عاتق المستخدم . فطموح المشروع يمكنه أن يحثّ المرشح على نحو جيد جداً ، وأن يتكيّف بصورة تامة في وسط جديد من العمل يناسبه على نحو أفضل . وسيكشف الامتحان السيكولوجي عن أن الإخفاق كان بسبب عيب في تنظيم العمل داخل المشروع السابق لا بسبب نقص في قدرة المرشح : فالفحص السيكولوجي يمكنه أن يرفع جوراً سببه قصور المستخدم السابق . وهذا الوضع الكثير الحدوث يصعب على المستخدِم أن يدركه على الغالب . إن الفحص السيكولوجي (روائز ، محادثة ، الخ)هو الذي يوضّح بالنسبة للمرشح فرص النجاح . فالفحص ينبغي له أن يتمّ تبعاً للمركز المطلوب إشغاله ، أي تبعاً لمستقبل المرشح المهني لا تبعاً لماضيه . وكون المرشح أخفق مهنياً ، أمر ليس دليلاً على أنه سيخفق .

٤ ـ الاختبار المهني

إن فترة مؤقتة من الممارسة قبل الاستخدام النهائي أفضل أسلوب لنعرف كيف يتكيّف شخص من الأشخاص مع عمل من الأعمال . ولكن هذا الاختبار يلزمه ، حتى يكون حاسماً ، عددٌ معينٌ من الشروط يصعب تحقيقها على الغالب في التطبيق . فلا بدّ لهذا الاختبار من أن يكون ذا مدة طويلة على نحو كاف : ستة أسابيع على الأقل بالنسبة للعامل ، وثلاثة أشهر في الحد الأدنى بالنسبة للأطر . إن فترات الاختبار القانونية قصيرة جداً ، ووضع الاختبار يبدو على الدوام طويلاً جداً . ومن الصعوبة إجراء اختبار مهني حاسم حقاً . يضاف إلى هذا أن هذه الفترة من الاختبار ينبغي لشخص من الأطر ، كفيّ على المستوى التقني وعلى المستوى الإنساني ، أن يتابعها باهتمام . والشروط تجعل طريقة الاختبار المهني الحاسم ذات كلفة عالية لأنه اختبار معمّق . وينبغي ، في الواقع ، لهذا الاختبار

أن يكون معمّقاً ليتيح تنبؤاً مؤكداً وتحليلاً موضوعياً : ألا يحدث مع ذلك أن بعض طالبي الخدمة الجدد يبدّلون سلوكهم في نهاية فترة الاختبار المهني ؟ يضاف إلى هذا أن الاختبار المهني لا يمكنه أن يكون معمّماً ، ذلك أن المبتدئين في مهنة من المهن ، أو بعض الأشخاص الذين تمّ توجيههم توجيهاً جديداً نحو فاعليات جديدة ، ليس بوسعهم أن يعبّروا تعبيراً تاماً عن قدرتهم بسبب نقص التجربة على وجه الدقة ، ويتجلّى هذا الاختبار متعذّر التطبيق في بعض الحالات . فالفحص السيكولوجي لا يحلّ إذن محل المقاييس التقليدية في الاستخدام ، ولا محل الدبلومات ، ولا الماضي المهني ، ولا الاختبار الحاسم ، ولكنه يعدّد هذه المقاييس إذ يجعل الأحكام أكثر سرعة ونجوعاً وموضوعية .

ثانياً - رأي عالم النفس وتقدير « رب العمل »

١ - من يقرّر الاستخدام ؟

قد يحدث في الغالب أن رأي عالم النفس يوحي بالاعتقاد أنه نافل بالقياس إلى رأي التراتب . وعلى الرغم من أنه يُقال إن رأيين أفضل من رأي واحد ، فمن المؤكد أن رأيين حول الشخص الواحد يمكنهما أن يتطابقا أو يتضاربا . والواقع أن رأي عالم النفس ورأي التراتب ، عندما يكون موضوعهما مرشحاً للاستخدام ، لا يمكنهما أن يتضاربا للسبب البسيط المتمثّل في أن رئيس التراتب المسؤول عن الاستخدام هو الذي يطلب من عالم النفس معلومات ضرورية حتى يبرّر على نحو أفضل حكمه الخاص ، وحتى يتّخذ القرار الأنجع . فرأيان إذن أفضل من رأي واحد ، وينبغي لنا أن لا نخلط بين اقتراح بالاستخدام ، صادر عن عالم النفس ، وبين قرار بالاستخدام من الاختصاص النهائي لرب العمل . والواقع أن عالم النفس لا يتّخذ قرارات ، على عكس ما يظن بعضهم في بعض الأحيان . فسلطة القرار هي أحد امتيازات التراتب ، وينبغي له أن لا يتخلّى عنها أو يفوّض أمرها ، في تقدير الرأي العام ، إلى عالم النفس . إن عالم النفس يظلّ مستشاراً ، ويقدّم وجهة نظر ، ويصوغ اقتراحات ، ولكن دوره يقف عند هذا

الحد : ذلك أنه غير ذي منزلة تراتبية بل استشارية . وهو يساعد المستخدم المسؤول في إجراء اختبار يستند إلى معطيات أكثر عدداً وكمالاً . بل لنقل إن المستخدم الذي يعتقد بأن لديه « الحدس » وقدرة الحكم على الناس في لحظة ، سيرى اختياره ودوره معقّدين تعقيداً فريداً بفعل ما يقدّمه عالم النفس . ويفيد مع ذلك مما يقدّمه عالم النفس في أن ارتكابه الأخطاء تتناقص على الغالب ، ويقلّ اقترافه ضرباً من الجور . وعندما لا يكون الموضوع ذا علاقة بمرشح للاستخدام بل بتوجيه أو ترقية في المشروع ، فثمة نظام العلامات المهنية ومجموعة كاملة من الأحكام التي تكوّنت خلال أشهر ، بل خلال سنين من التجربة . فهل سيقلب عالم النفس منذئذ هذه التقديرات بصورة مفيدة ؟ وهل دوره ضروري ؟ ألن يُغضب بتدخّله الأطرَ التراتبية الذين تعود إليهم المسؤولية الدقيقة في الحكم على مرؤوسيهم ؟ وهنا أيضاً ، للأطر وعلماء النفس وجهات نظر ومقاييس مهنية أشد تبايناً من أن تكون أحكامهم متكاملة . ولتقديرات الأطر قيمة لا تنكر ، وآراء التراتب تكوّن ، بالنسبة لعالم النفس ، مصدراً ثميناً من المعلومات عليه أن يُخضعها إلى ضرب من النقد اليقظ ، ولكنه ليس بوسعه الاستغناء عنها . ولتقديرات الأطر قيمة لا تنكر ولكنها تنصبّ ، هي أيضاً ، على الماضي . ذلك أن تقديرات التراتب تنصبّ على ما كان قد لوحظ ، في حين أن وسائل عالم النفس تنصبّ على صورة من التنبؤ المهني تبعاً للاستخدام في المستقبل . ألم نر أن العامل الأفضل لن يكون بالضرورة أفضل رئيس للعمال ؟ فثمة ترقيات ترهق على نحو مأساوي أولئك الذين كان يُعتقد أنهم قادرون على النجاح . إن عالم النفس إذن هو الذي يمكنه ، بوصفه يحكم بواسطة مقاييس أكثر عدداً ، أن يقدّم تأليفاً أكثر كمالاً عن قدرات المفحوص ، وبخاصة إذا كان من الضروري تحديد القابلية لممارسة فاعلية في المستقبل . بل إن هذا الفحص يمكنه أن يكشف عن قابليات هي رأس مال ثمين لم يفكر أحد باستثماره . فمن خلال الحوار المتواصل المستمر ، إذن ، بين التراتب وعالم النفس يجري إعداد التقديرات الأكثر جدوى . وستكون هذه التقديرات هي الأفضل بالنسبة للشخص المعنيّ ، لأن الحكم عليه لن يكون تبعاً لعمل من الأعمال ، بل تبعاً لشخصيته الكلية ولخطّه

الممكن . وستكون هذه التقديرات هي الأفضل بالنسبة للمشروع أيضاً ، لأن اتجاهها سيكون تبعاً لمجموع مراكز المشروع . فإذا كان ثمة تطابق أو تضارب في أحكام التراتب وأحكام عالم النفس ، فذلك لأن أدوارهم الخاصة كانت تُفهَم فهماً خاطئاً .

ثالثاً ـ صوب ضرب من سيكولوجيا العمل

١ ـ عقلنة الاصطفاء

من الضروري ، قبل أن نطلق حكماً من الأحكام ، أن يدرك المرء هدف هذه الطرائق وقيمتها ليصنع لنفسه فكرة صحيحة عن مكانها في المجتمع الراهن . وهذه الطرائق ، طرائق الاصطفاء والتوجيه ، تتجمّع بصورة عامة تحت مصطلح علم النفس التقني . والمقصود بها ، في مجموعها ، عدد متنوع من الطرائق وممارسات التقصيّ السيكولوجي التي تبغي التأثير ، بصورة كبيرة ، على مواقف الأفراد والجماعات ، والآليات الاجتماعية وعلى سلوكاتهم . فثمة ، في أساس هذه الطرائق ، إرادة اصطفاء الأفراد والجماعات عقلانياً بغية التطوير في شروط العمل والوسط ، حتى يكون كل فرد جديراً بإنجاز المهمة التي تنتظره . وقد شغل الاصطفاء دائماً بال أولئك الذين كانت تقع عليهم مسؤوليات في المجتمع ، وكان انشغال البال يمضي في اتجاه تحليلٍ منهجي للأفراد تبعاً لعدد محدّد من القدرات الخاصة الضرورية لممارسة مهنة من المهن : وهذه الطرائق تتمحور مبدئياً على الانسان وعلى بيئته الاجتماعية . ولكن ضرورة تقييم الإنسان في وسطه منوطة بتطور الاقتصاد ، والتقنية ، والعلم ، والبنيات الاجتماعية في مجموعها . فعلى الإنسان ، في الواقع ، أن يواجه علاقات تزداد عدداً وتعقيداً (٣) ، وعليه أيضاً ، في الإطار المهني والاجتماعي ، أن يستخدم مواقف وسلوكات متكيّفة مع وسط عمله ومع ضرب من التطور التقني ، وعليه أخيراً أن يصمّم على أن يتوجّه

---

(٣) انظر الفصل التالي في هذا الكتاب : «سيكولوجيا الجماعة والتنشيط الإجتماعي» .

أفضل توجّه : ذلك أن مجتمعاً يمارس التخطيط لم يعد بوسعه أن يتحمّل الغامض ، والمصادفة .

٢ ـ بعيدون عن التقدير التقريبي . . .

والحال أن أي شخص لا يحتاز في البدء ، بالنسبة للتوجيه والاصطفاء ، عناصر تتيح له أن يعرف استعداد مرشح من المرشحين لوظيفة ولا يعرف أن يختاره بدلاً من هذا المرشح أو ذاك . فكل شيء قبل سيكولوجيا العمل ، سواء كانت الدبلومات التي لا تمنح غير شهادة نسبية بالمعارف المكتسبة في فترة معينة ، أو كانت المراجع الخاصة بالمراكز التي شغلها المرشحون سابقاً ، أو كانت التوصيات المختلفة أو الأحكام المختلفة ، أقول كل شيء كان متروكاً لـ الحس السليم والاصطفاء الطبيعي حيث يجري اختيار المرشح بدءاً من خمس دقائق من المحادثة ، وحيث لم يكن ممكناً سوى إطلاق أحكام خارجية وسطحية . فلا شيء في طريقة « التقدير التقريبي » قادر على أن يدلّ على إمكانات الفرد للتلاؤم مع عمله ، والتماثل مع جماعة اجتماعية ، والتطور المستقبلي في المهنة أو في الوسط . ومن هنا منشأ الضرورة التي يزداد الإحساس بها ، ضرورة مفادها أن تُستخدم وسائل في التحليل قادرة على المساهمة في إعداد تشخيص وتنبؤ حول موضوع الفرد في وسطه الاجتماعي المهني .

٣ ـ المجتمع يحدّد هذه السيكولوجيا

والحقيقة أن سيكولوجيا العمل تبسط ، منذ نشوئها في الولايات المتحدة الأمريكية ، مروحة من الأهداف والوسائل ، ذلك أن التطور السريع في الشروط الاقتصادية والاجتماعية يؤدي إلى تكاثر المناسبات التي يتمّ اللجوء فيها إلى عالم النفس . ولا تكمن سيكولوجيا العمل ، على سبيل الحصر ، في إجراء الروائز والمحادثة السيكولوجية . إنها تنطوي ، أكثر من ذلك بكثير ، على سياسة إجمالية في الاستخدام والترقية تلجأ إلى أسس من السياسة الاقتصادية والاجتماعية . وتجد هذه السياسة ، فيما يخص علم النفس ، تطبيقها في مجموع ثلاثي العناصر ، توجيه ، اصطفاء ، ترقية ، يقع على عاتق عالم النفس عبء تطبيقه وتشجيعه انطلاقاً من عمله . وعالم النفس ، في تطبيق هذه السياسة ، يحدّده وضعه في قلب

المشروع أو الشركة التي تستخدمه ، وسياسة الاستخدام العامة والترقية ، والسياق الاقتصادي ، وفكرةٌ أو إيديولوجيا في ممارسة علم النفس . وعلى الرغم من أن عالم النفس يعتقد في نفسه بأنه حر ، فإنه موجود في حيّز المواجهة بين نموذجين من السياسة : سياسة أرباب العمل الذين يستخدمونه ، وسياسة النقابات التي تدافع عن مصالح العمال .

الفصل الثاني

تاريخ سيكولوجيا العمل وطريقتها

أولاً - ما وراء الروائز

١ - اختيار الناس على نحو أفضل وتنظيم العمل جيداً

يبدو أن مستقبل علم النفس المطبّق على العمل كامن تماماً في المداخلات التي لا ترمي إلى اختيار الناس على نحو أفضل فحسب، وانما إلى التنظيم الأفضل للعمل أيضاً، وكامن أيضاً في إعداد طرائق بيداغوجية جديدة وفي استخدامها، طرائق يحتاجها مجتمعنا حاجة كبيرة. ويبحث عالم النفس عن معرفة الانسان والوظيفة ليقترح اختيارات في الاصطفاء مبنيّة على هذه المعرفة المزدوجة. ولكن من الضروري أيضاً، لتكون هذه الاختيارات جيدة، وجود ضرب من التوافق المقرّر سلفاً بين مقتضيات الأعمال وقدرات الناس. وإذا كان هذا التوافق غير موجود أو لم يعد موجوداً، «الإنسان المناسب في المكان المناسب»، فان سيكولوجيا العمل تجازف جداً في أن تكون غير ناجعة. وماذا نفعل عندما لا تكون القابليات الضرورية موجودة لدى الناس أو أن الأعمال لا توافق القابليات الإنسانية؟ ومن المرجّح أن يكون هذا المشكل أحد المشكلات الأشد خطورة في عصرنا، عصر أزمة العمل، وعدم الاستقرار، وإعادة التكيّف. وينطوي هذا المشكل على حلين سيكولوجيين ممكنين (وليسا الوحيدين): إما زيادة القدرات الانسانية بالتكوين والاستكمال، وإما تغيير متطلّبات الوظائف لجعلها متكيّفة مع القدرات الانسانية. فالحلّ الأول هو البيداغوجيا، والحلّ الثاني هو الهندسة

البشرية (١) . وليس ثمة مع ذلك خيار بين هذين الحلين ، فهما متكاملان والجهود ينبغي لها أن تتّجه نحو إضفاء الانسجام على هذين المسعيين : تكوين الناس على نحو أفضل من أجل أعمال متغيّرة . وعندما ننظر إلى المهمات التي يجب إنجازها بجانبيها ، البيداغوجي والهندسي البشري ، فانها تمسّ العمل الانساني كله وتقدّم لسيكولوجيا العمل منظورات وتطبيقات جديدة .

٢ ـ ضرب من البيداغوجيا التي لا تنحصر في المدرسة

علماء النفس في الوسط المدرسي (٢) الذين يتعاونون مع المدرسين في إطار المدرسة ليسوا وحدهم الذين يعنون بالبيداغوجيا ، بل إنها تجمع أيضاً باحثين يدرسون طرائق بيداغوجية جديدة أكثر علمية ، وأكثر وضوحاً ، وأشد نجوعاً : تعليما مبرمجاً وتقنيات سمعية بصرية ، على سبيل المثال . وينشىء العلماء في علم النفس الاجتماعي المطبق على العمل ويطوّرون ، من جهة أخرى ، ضرباً من بيداغوجيا الراشدين ، التي أصبحت ضرورية لـ الطلاب السرمديين الذين سنكون ، بصورة متزايدة دائماً ، هؤلاء الطلاب السرمديين . فلم يعد من المناسب عندئذ أن تقتصر البيداغوجيا ، وفق الصيغ التقليدية ، على أن تنقل عدداً معيّناً من المعارف المفيدة ، بل لا بدّ أيضاً من أن تتيح البيداغوجيا الجديدة إغناءً عميقاً للشخصية . ومن الضروري أن تؤمّن في وقت واحد ازدياداً في المعارف وتجديداً للمواقف وللبنى الفكرية . وينبغي لها أن تكون ضرباً من بيداغوجيا التأمل واحتياز الشعور . وتلك هي دلالة هذه الألوان من التكوين الجديد ، والتدريب ، والحلقات الدراسية ، والدورات ، التي ترمي إلى أن تجدّد طراز العلاقات الإنسانية وأن تجعل المساهمات في العمل أكثر متعة وأشد نجوعاً (٣) .

٣ ـ علم لتنظيم العمل

موضوع الهندسة البشرية لدى علماء النفس ، والهندسة البشرية لدى علماء

---

(١) انظر فصل «علم النفس في الوسط الصناعي» في هذا الكتاب .

(٢) انظر في هذا الكتاب فصل «علم النفس والمؤسسة المدرسية» .

(٣) انظر في هذا الكتاب فصل «سيكولوجيا الجماعة والتنشيط الاجتماعي» .

الفيزيولوجيا أيضاً ، تنظيم مراكز العمل الموجودة أو ايجاد مراكز جديدة تبعاً لخصائص الموجود الانساني . وهدفها أن تجعل المهمة أكثر سهولة وأكثر إنتاجاً ، وأن تتجنّب في الوقت نفسه إمكاناً مفاده أن يفضي العمل إلى تلف من ينفذّه . ولتحقيق ذلك ، يستند علماء النفس إلى معطيات الفيزيولوجيا ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع . وحقل البحوث والتطبيقات في الهندسة البشرية حقل واسع جداً ، لكن الانجازات لا تزال محدودة . ومع ذلك ، من الممكن أن تشارك هذه البحوث ، في المستقبل ، في وضع أساس لتصور جديد لعمل الإنسان . ولم تكن هذه الهندسة البشرية ممكنة إلا بدءاً من المرحلة التي كانت قد اندرجت خلالها في التاريخ طرائق سيكولوجيا العمل في الولايات المتحدة الأمريكية .

ثانياً ـ عقلنة العمل في العصر الرائع

ـ عندما يُعنى فلاسفة الولايات المتحدة بالعمل

حوالي عام ١٩٢٥ ، وضع إلتون ميو ، أستاذ الفلسفة في الولايات المتحدة ، أسس سيكولوجيا العمل . وانطلقت استقصاءاته من ضرب من المعاينة : مردود العمل ونجوعه يضعفان إذا كانت شروط الوسط المادية والسيكولوجية غير ملائمة لسعادة العامل . وأصدر فرضية حكم الناس عليها بأنها جريئة : إننا ، حين نحسّن الشروط المادية والسيكولوجية للوسط الصناعي ، نزيد مردود الإنتاج ، ونجعل العامل أكثر تكيّفاً مع وظيفته في سبيل تفتّح شخصي . وقد جرى التجريب في ورشة من مصنع للغزل يوجد فيها تبديل في العمّال يصل إلى ٢٥ بالمئة في العام ، وانصبّ التجريب على عدم استقرار العمّال في مراكز عملهم . واصطدم ميو بمقاومة عنيفة أبداها رؤساء العمال . ولكن الإدارة ، وقد فهمت فائدة هذا التجريب لمردود مشروعها ، سمحت للعمال بأربع استراحات ، مدة كل منها عشر دقائق ، في يوم العمل . وبعد هذه التجربة وفي هذه الورشة ، استقرّ التبديل على معدل ٥ ـ ٦ بالمئة ، وتجاوز الإنتاج في الورشة ، لوجود أفضل جو في العمل ، معايير لم يسبق له أن بلغها من قبل ، وتناقص

الغياب عن العمل . واستنتج ميو من ذلك إذن أن الوسط السيكولوجي الفيزيولوجي ، وإدراك وسط العمل تحسّنا لمصلحة المشروع والعمال . فتنظيم الاستراحات غيّر سيكولوجية العمال ومواقف العمل . وكانت الاستراحات مفيدة للعمال ، ذلك أنها ألغت التعب ، جزئياً ، والسأم ، وتشتّت الانتباه ، وأحلام اليقظة السوداوية التي يثيرها ضرب من رقابة الأنوال رقابة تدوم طويلاً . وفي تجارب أخرى ، عمّق ميو تجريبه ، وتحقّق من فرضياته . فمن الضروري ، يرى ميو ، أن تتغيّر شروط العمل المادية (الضجة ، والإيقاع ، والرطوبة ، والنور ، والهيئة المكانية للورشة) لتخفيف التعب في وسط العمل . ولكن هذه التحسينات في الشروط المادية ثانوية بالقياس إلى طرز العلاقة القائمة بين العمال والتراتب ، وبالقياس إلى الجو العام الذي يسود في المشروع . ويبدو منذئذ ضرورياً أن يتعدّل المناخ السيكولوجي السائد في المشروع ، وأن يُنظر إلى العمال لا على أنهم أفراد منعزلون (« هذه الحشود الفوضوية المنعزلة » يقول ميو) ، بل أن يُنظر إليهم في علاقاتهم الاجتماعية المتبادلة داخل الورشة [٤] . وتُطلق هذه التجربة بداية سياسة في العلاقات الانسانية ستكون أساس التحسّن في العلاقات الإنسانية داخل المشروع .

١ ـ الوحدة النفسية الاجتماعية لجماعة العمل

أ ـ السأم لا يصنع التواصل بين العمال

ليس لدى العمال ، وهم يتعرضون للعزلة وفقدان الاهتمام والسأم ، إمكان لأن يقيموا علاقات فيما بينهم ولا أن يرتقوا إلى المسؤولية . وتكمن الفكرة الأولى لسيكولوجيا العمل في إضفاء ضرب من الوحدة ، والتفتّح ، والمسؤوليات ، على الجماعات الأساسية . ومن أجل ذلك ، لا بد للتنظيم الانساني في العمل من أن يتغيّر . وقد أجرى ميو ضرباً من التجربة ـ الاستقصاء في ورشات صناعة المواد الهاتفية التي يُستخدم فيها النساء .

---

(٤) انظر فصل «المنظورات الجديدة في تنظيم العمل» ، في هذا الكتاب .

ب ـ عندما نحرّر العاملات من القيود

يعمل في الورشه التي جرى فيها الاستقصاء ست عاملات صبايا ذوات خبرة ، تباشر التجميع خمس منهن ، والسادسة ، ذات اتصال بالخارج ، تؤمّن تموين الورشة . ورئيس العمال هو رئيس العمال في ورشة كبيرة مجاورة ، حيث العاملات فيها أكثر حرية : فبوسعهن تبادل الحديث ، ويُناقش المردود الحاصل معهن . فثمة اهتمام بالمحافظة على جو من الصداقة ، وسهر على نومهن وصحتهن ، ودعوة لهن إلى العمل بصورة سوية دون تسابق . وكشف الاستقصاء عن أن المردود وجو العمل يفوقان مثيليهما في الورشة الثانية . وبان التغيّر في المواقف وفي التأثيرات النفسية الاجتماعية المتبادلة أنه عدّل من وسط العمل . فبدلاً من أن تكون العاملات في الورشة الثانية منعزلات ويشعرن بالعزلة ، ارتقين إلى ضرب من الشعور الجماعي . وبدلاً من أن تعمل العاملة بصورة منعزلة وكل منهن لمصلحتها الخاصة ، إذ تعاني بصورة سلبية شروط العمل المادية والسيكولوجية ، نظرن إلى أنفسهن على أنهن ينتمين إلى جماعة . وكانت النتائج مرضية : فقد اختار بعضهن بعضاً . ويقبضن ضرباً من أجر الفريق ، ويُستشرن حول التغيّرات التجريبية المنوي إجراؤها ، ويناقشن عملهن بينهن ، ويناقشن مردودهن وهذه التغيّرات . وأتاحت لهن حرية المحادثة أن يعرف بعضهن بعضاً معرفة أفضل . ونما التعاطف وتعزّز بينهن ، إذ أفضى إلى لقاءات وقضاء أوقات فراغ مشتركة خارج العمل . وكانت للفريق دينامية نموذجية ، وكان المردود في ازدياد .

جـ ـ الانسان يعيش وجوده في العمل ويستشعره

النتيجة الأساسية لهذا الاستقصاء ، بالنسبة للسيكولوجيا الاجتماعية وسيكولوجيا العمل ، هي التجريب على ما لدى الفرد من إحساس بشروط العمل ، لا بوصفها كما هي بل بوصفها كما يحس بها ويعيشها . وهذا الأسلوب في الإحساس بوسط العمل تسبّبه ، في الجزء الأكبر منه ، المعايير والمناخ الذي توجد فيه الجماعة ، ودرجة التصاق الفرد بالجماعة . وأخيراً ، نشأت من هذه التجارب الأولى سيكولوجيا للعمل عدّلت معطيات السيكولوجيا الاجتماعية تعديلاً

كبيراً : فالجماعات لا تتكوّن من تجمّع أفراد منعزلين ، بل هي على العكس ، وحدة نوعية ، جديدة ، لا ترتدّ إلى مجرد مجموع الفرديات ، بحيث أن الأفراد لا يسلكون على نحو واحد وفقاً لكونهم في الجماعة أو منعزلين . فثمة إذن ضرب من التأثير المتبادل الدينامي بين الأفراد والجماعات الذين يتكوّنون بالتبادل .

د ـ من الفرد المنعزل إلى جماعة العمل

فرضيات تجارب ميو تؤكدها النتائج : الانسان في عمله غير مشروط إلا بالوسط المادي . وسلوكه في العمل تابع لتاريخه الشخصي ، ولطبيعة علاقاته بالجماعات الداخلية والخارجية بالنسبة للمشروع ، ولقابلياته وأذواقه ، ولإمكاناته واختياراته . « فالأفراد الذين يؤلفون ورشة تعمل ليسوا أفراداً محض أفراد ، بل يكوّنون جماعة نمّوا في كنفها عادات من العلاقات بينهم ، ومن العلاقات برئيسهم ، وعملهم ، ولوائح المشروع » (٥) .

ثالثاً ـ قياس القابليات في الوسط الصناعي

١ ـ علم النفس في خدمة المردود الاقتصادي

تلقّت سيكولوجيا العمل مساهمات السيكولوجيا التطبيقية القيّمة ، وعلى وجه الخصوص في إعداد طريقة الروائز ، التي تسمى كذلك علم النفس التقني . ومنشأ علم النفس التقني في الوسط المدرسي لا في الوسط الصناعي ، على عكس علم النفس الاجتماعي المطبّق على العمل . إن بينه وسيمون ، طوّرا في فرنسا ، مطلع هذا القرن ، روائز لقياس القابليات الفكرية استجابة لمتطلّبات البيداغوجيا (٦) . وبدءاً من ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ ، جرى تطبيق علم النفس التقني في الوسط الصناعي والاقتصادي بفرنسا . ويحاول علم النفس التقني ، في

---

(٥) ميو : «المشاكل الإنسانية لحضارة صناعية» .

(٦) انظر في هذاالكتاب فصل: «علم الأمراض وعدم التكيف المدرسي» .

مجموعه ، أن يحدّد الفروق والتشابهات الموجودة في القابليات بالقياس إلى اختيار المهنة والوظيفة في مشروع من المشروعات ، تحديداً موضوعياً وعلمياً . وإذ يأخذ علماء النفس بالحسبان هذه المعاينة ، فانهم يقيسون ويروزون في الوقت نفسه تنوّع القابليات بين الأفراد وتنوع المهن . فمن الضروري إذن قياس القابليات ودراسة المهن لنبلغ عقلنة قصوى في توجيه العمال واصطفاء علمياً لمراكز العمل ، ولنبلغ ، بفعل ذلك ، ازدياداً في الانتاجية والمردود .

٢ ـ مجموعة من الاختبارات تسمى روائز

قياس القابليات ودراسة الوظائف إذن يظلّان الغرض الرئيس لعالم النفس التقني . ويستخدم عالم النفس التقني ، من أجل الاستخدام في المشروعات ، مجموعة من الروائز لاختيار أيد عاملة متكيّفة ، ومستقرة ، وذات جودة مهنية . ولهذا السبب ، تقاس عند الاستخدام على الأغلب ، القابليات الفكرية ، والقابليات النفسية الحركية والإيمائية ، والقابليات الإدراكية ، وقابليات الرؤية ، وقابليات اكتساب المعارف الثقافية والمهنية الجديدةأيضاً . وتبدو هذه المجموعة من الروائز مع ذلك غير كافية لبعض علماء النفس التقنيين ، وأُدخلت في الوسط الصناعي بعض الروائز الأكثر اتصافاً بالصفة « السيكولوجية » على نحو بارز : رائز الطبع لـ لوسين وبعض روائز الإسقاط ، وعلى وجه الخصوص رائز رورشاخ . فليس من المناسب في الواقع أن يتم الاختيار انطلاقاً من المعايير الفكرية أو السيكوفيزيولوجية وحدها ، ومن المناسب أيضاً مع ذلك إجراء امتحان كامل للشخصية ، وبخاصة في الأطر التنموية (اختيار رؤساء العمال ورؤساء الورشة أو العمال المتخصصين) .

٣ ـ علم النفس يمكنه أن يكون ناجعاً

بان علم النفس التقني ناجعاً في عدد معينّ من المشكلات التي كان يطرحها العمل :

ـ في الوقاية من حوادث العمل : كثير من الحوادث ناشىء من عدم التكيّف مع المركز في العمل أو من انعدام القابلية . إن تعاون المكاتب الطبية ومكتب علم النفس التقني حسّن الكشف عن حوادث العمل والتكيّف الجسمي مع العمل .

وهذا الكشف ناجم في أغلب الأوقات عن استقصاءات منهجية تُجرى في سبيل فهم الحوادث ، فهم أكثر اتصافاً بأنه علمي .

ـ وأثرّ علم النفس التقني في استقرار المستخدمين . إن إدخال طرائق علم النفس التقني وطرائق التوجيه أتاح ، على نحو عام وانطلاقاً من معطيات إحصائية دقيقة ، انخفاضاً كبيراً جداً في عدم استقرار المستخدمين ، وفي الحركية المهنية أيضاً . ومع ذلك ، يبدو من العسير أن نحكم بصحة هذه الطرائق انطلاقاً من هذه المعايير : ولا بد من أن نرى إلى أي حد يتعلّق الاستقرار أيضاً بطب العمل وبسياسة الاستخدام في المشروعات .

وإذ يعمل عالم النفس التقني على قياس القابليات وعلى دراسة مراكز العمل والمهنة في وقت واحد ، يصبح المعين الذي لا غنى عنه في سياسة لتوظيف المستخدمين . ويبدو مع ذلك أن دوره محدود جداً في اختيارهم . وإذ يمحور عمله على فعل الاستخدام ، فانه يغيب عن باله هيئة المستخدمين عندما وجد هؤلاء مكانهم في المشروع .

رابعاً ـ الارتقاء المهني والاجتماعي

١ ـ ما الارتقاء ؟

الاصطفاء المهني ، في النظام الراهن ، متضامن مع سياسة في الارتقاء الاجتماعي والمهني . وعالم النفس التقني مرتبط ، طوعاً أو كرهاً ، بهذه الصورة من التقدم الاجتماعي وتنظيم العمل ؛ ففي الكتب الوجيزة التي تبحث في إدارة هيئة المستخدمين المنشورة في الولايات المتحدة الأمريكية ، نجد الكثير من التفسيرات حول معنى مصطلح ارتقاء . والارتقاء ، في رأي مختلف هؤلاء المؤلفين ، ارتقاء خاص :

- بتغيّر الاستخدام أو الوضع الاجتماعي ؛
- بازدياد المسؤوليات أو بارتفاع مستوى التأهيل ؛
- بمنح العمال الذين تمّت ترقيتهم شتى المزايا الإضافية

٢ ـ كل فرد يجد في الارتقاء فائدة لنفسه

ـ الارتقاء في رأي مور، عالم النفس الاجتماعي الصناعي في الولايات المتحدة الأمريكية، «هو، قبل كل شيء، بلوغ وظيفة جديدة تقتضي من صاحبها أكثر مما كانت تقتضيه الوظيفة السابقة، وتتطلّب منه كفاية كبيرة جداً، وتقدّم له بالمقابل مزيداً من المنافع» (٧).

ـ يعبّر تغيّر الوظيفة أو الوضع الاجتماعي عن حركية الاستخدام في شبكة تراتبية واسعة أو في بنيات من التخصّص في العمل. وصاحب العلاقة يمكنه أن يرتقي، على سبيل المثال، درجة في التراتب ليبلغ مركزاً من مراكز السلطة، من عامل إلى رئيس عمال أو يصبح عاملاً متخصّصاً بعد أن كان عاملاً يدوياً. وهذا النظام في الارتقاء، بواسطة التراتب، يقابل الاستخدام التام للقابليات بفعل الارتقاء الداخلي. وهذا النظام ذو علاقة بشتى الدرجات من هذا الارتقاء الذي يتناول: الاستخدام والتعيين الأول، والارتقاء الداخلي للمهنيين القائمين على رأس العمل، والارتقاء إلى وظائف رؤساء العمال والورشات والفرقاء وإلى وظائف الإدارة.

٣ ـ مختلف ضروب الارتقاء

شتى المعايير مطبّقة فيما يخص زيادة المسؤوليات أو ارتفاع مستوى التأهيل. وهكذا فإن من الممكن، بالنسبة للأطر، قياس المسؤولية تبعاً للسلطات التي توكل إليهم في مجال الإدارة أو مراقبة عمل الغير. والارتقاء يمكنه، باستثناء الأطر، أن يتجلّى بمسؤولية شخصية متزايدة في نوع الوظيفة ذاته، عندما ينتقل العامل، على سبيل المثال، من عمل ضعيف التأهيل إلى عمل يقتضي ضروباً أعلى من التأهيل. وفي الحالتين، يمكننا الاستناد أيضاً إلى معيار آخر، معيار سلطة القرار، الذي يكمن، بالنسبة للعامل، في أن يتمتع بحرية كبيرة جداً في اتّخاذ القرارات أو حرية الحكم.

---

(٧) مور، «علم النفس من أجل العمل والصناعة».

٤ ـ الاهتمام بالمشروع

ـ الفوائد الإضافية الناجمة عن مثل هذه الارتقاء تتجلّى بأنماط شتى من « اهتمام » العامل بالمشروع . وبعض هذه الفوائد ذات طابع مالي (زيادة مباشرة في الأرباح ، وإمكانات متزايدة لربح أكبر في المستقبل أو الحصول على ترفيع جديد ، ومكافأة على المردود ، والمشاركة بالأرباح ، وانضمام إلى صندوق التقاعد . . .) . وبعض الفوائد الأخرى ذات طابع مادي وتتألف من بعض التسهيلات (حق استخدام أفضل التجهيزات فيما يتعلق بالمكتب ، والمطعم ، والمغسل ، الخ) ، أو من تحسّن شروط العمل (مواقيت عمل أكثر مرونة ، وعطل ذات مدة طويلة ، وقد تكون حق العامل في تعيين نفسه في الفريق الذي يختاره) . وقد تكون هناك أيضاً فوائد ذات طابع غير محسوس ، ناجمة عن شهرة الوضع الجديد ، وعن ارتفاع المنزلة الاجتماعية ، أو ناجمة أيضاً عن كون العمل الجديد يمنح الرضى أكثر ما كان يمنحه العمل القديم .

ـ وهكذا فإن الارتقاء يفسح مجالاً ، بصور شتى وأساليب متعددة ، للتعبير عن الفوائد المالية ، والاجتماعية ، والسيكولوجية ، التي قد يحقّقها صاحب أجر وهو يرتفع في التراتب ، ويعبّر أيضاً عن الفوائد التي يجنيها المشروع منه فيما يتعلق بالمردود والنجوع .

٥ ـ هل توجد سياسة اجتماعية ؟

ليس علماء علم النفس الاجتماعي متفقين جميعاً ، في الوقت الراهن ، على ما يسمى « الارتقاء » ، ما دام هذا الارتقاء يتغيّر بحسب ما تكون المشروعات أمريكية أو أوربية ، ومشروعات كبيرة أم صغيرة ، وبحسب المناخ الاجتماعي والسياسي للوسط الصناعي . ويبدو أن ثمة تفضيلاً في فرنسا لمصطلح « الترفيع » الذي يعبّر تعبيراً أفضل عن فكرة ارتقاء في التراتب ناجم عن القدم ، والتأهيل ، أو ناجم عن الحسّ بالمسؤوليات . فلهذا المصطلح عندئذ معنى ارتقاء داخلي ينبغي له أن يتم ويتحقّق في الإدارات والجيش والمشروعات المؤممة ، حيث تكون الأنظمة الأساسية الاجتماعية والمهنية ، وأنظمة الأجور ، أفضل تحديداً وتعييناً وأكثر تراتباً (وزارة التربية الوطنية على سبيل المثال) .

وينجم عن هذا العرض السريع أن الارتقاء أو الترفيع ليسا ظاهرتين بسيطتين ومنعزلتين . إنهما تندرجان ، على العكس ، في إطار « سياسة اجتماعية » للمشروع ترمي إلى تقدم العمال في اعمالهم المهنية وفي أوضاعهم الاجتماعية . فقانون ١٣ تموز ١٩٥٩ ، في فرنسا ، ينص على أن غرض الارتقاء الاجتماعي أن توضع « في متناول العمال وسائل في التكوين ، والاستكمال ، جديرة بتيسير بلوغهم مركزاً أعلى ، أو توجيههم مجدّداً نحو فاعلية جديدة » .

٦ - متطلّبات العمال الإنسانية

- يجد عالم النفس التقني نفسه على هذا النحو يساهم إلى حدّ معين في تقديم كشف عام للإدارة عن هيئة الموظفين والمستخدمين بغية ترفيعهم . ويذكر فيه ، هنا أيضاً ، مجموعة من الطرائق والوسائل ، ويقدّم إلى الادارة معايير أكثر موضوعية في اختيار من يتم ترفيعهم . ويبدو شرط الاستخدام التام للقابليات أنه إحدى الوسائل التي يمكنه فيها أن يتبنّى موقفاً مؤيداً للمطالب الاجتماعية ، من حيث أنه يرمي إلى أن يكون لكل فرد تكافؤ في الفرص ، مع الأخذ بالحسبان قابلياته وتأهيله ووضعه الاجتماعي . والواقع أن العامل لا يطلب ترفيعاً مالياً ومادياً فحسب بل يتطلّع أيضاً إلى عدالة أكبر ، وإلى المسؤولية ، والتفتّح السيكولوجي . فإذا لم يتحقّق هذا الارتقاء في الإطار السيكولوجي للمشروع ، فإن المشروع يمضي ، نحو توتّرات في هيئة الموظفين والمستخدمين تزداد حجماً . ومن هنا منشأ الضرورة في الكشف عن ضروب الارتقاء التي تتحقّق في جو من الظلم أو المحاباة ، وفي استخدام سياسة في الارتقاء تحقّق تكافؤ الفرص والعدالة . فكل طريقة في الارتقاء لا تعتمد على هذه المعايير ، معايير العدالة والمساواة ، تثير مناخاً من التوتر والصعوبات السيكولوجية التي يشقّ إدراكها على من كان غريباً عن تطلّعات العمال ، كما تشهد على ذلك بعض الفقرات التي ذكرها عالم نفس تقني خلال مقابلة في مشروع من المشروعات :

- « تخرّجت الأول على دفعتي في مدرسة التدريب . ومنذ ذلك الحين ، شقّ الذين أتوا آخر الدفعة طريقهم ، وتوارى الأفضلون . وكنت سأستقيل قبل أن يبلغني رأيك » .

ـ « اقتراحاتك لهيئة الموظفين والمستخدمين بطلب ترشيحات أمر حسن ، ولكنك لن تتلّقى غير تلك التي يريدون تماماً أن يحوّلوها . وبرهان ذلك أن ترشيحي لم يصلك » .

ـ « ليس لعامل جيد أي حظ في الصعود . إنه مفيد جداً جداً على آلته . فلكي يتقدّم العامل ، ينبغي له أن لا يكون قوياً جداً . فلو كنت تعلم عن هذا المصنع ما أعلم ، لفهمت أن الثقة لاتعود من المحاولة الأولى » .

ـ « وعدني رئيس الورشة منذ أربعة أعوام أنني سأسمى رئيس فريق . ثم كان رئيس الفريق قد نُقل . وكان لدى رئيس الورشة التالي ابن أخ للمركز ، في حين أنني « أصبت بالجمود » .

٧ ـ الاحباط بفعل الظلم

تبينّ هذه الارتكاسات ، التي صدرت عن العمال الذين ظلموا ، نموذج الارتكاس لدى هيئة الموظفين والمستخدمين إزاء سياسة في الارتقاء تشجّع اللامساواة . ودور عالم نفس في وسط العمل يكمن بالتالي في تقليص هذه الضروب من اللامساواة إلى الحد الأقصى . ولكن هل لديه الوسيلة لذلك في السياق الحالي ؟ وهل سياسته في الارتقاء يمكنها أن تصبو إلى الحصول على حصة أكبر من العدالة والمساواة ؟ في عداد الوسائل التي يحتازها عالم النفس التقني ، نذكر ثلاثاً منها :

ـ معرفة هيئة الموظفين والمستخدمين بغية تشجيع ارتقاء صائب وعادل : فعالم النفس ، بنظام من الاستقصاءات والمحادثات والروائز ، يمكنه أن يتابع هيئة الموظفين والمستخدمين ليختار أولئك الذين استقرّ الرأي على أنهم أكثر جدارة ليكونوا موضع الارتقاء . وذلك يفترض أن يثق المشروع بعالم النفس حتى يكون بمقدوره أن يقوم بالاتصالات التي تبدو له ضرورية بعد استخدام المستخدم . والواقع أن معرفة هيئة الموظفين والمستخدمين تبدو على أنها الشرط الضروري لكل سياسة في الارتقاء . ومع ذلك ، ثمة كثير من المشروعات التي تلجأ إلى الخارج لاختيار رؤساء العمال والورشات والفرقاء ، أو اختيار أطرها . « وهكذا تختار هذه المشروعات ، لا من دون صعوبة ، مندوبين ذوي قيمة مشكوك فيها ، دون

أن تعلم أن لديها الآن ، في هيئة الموظفين والمستخدمين ، أولئك الذين تبحث عنهم منسيين في ورشة من الورشات . . . فترفيع رئيس عمال أو ورشة أو فريق إلى وظيفة فني ، وإحلال رئيس آخر من مرتبة أدنى محله ، وإحلال مهني محل هذا الأخير ، مهني سيحلّ محله عامل متخصّص ، أمر يفترض سلسلة معقدة من ضروب الارتقاء المتلاحقة والاستكمال والاطلاع » (٨) . فتعقّد مهمة من هذا النوع يشرح أن عدداً كبيراً من الصناعيين الذين لا يتابعون هيئة الموظفين والمستخدمين ، أو يتابعونها متابعة سيئة ، يتخلّون عن سياسة من الارتقاء في قلب مشروعاتهم . وعالم النفس التقني يمكنه ، في نطاق ما يطلبون منه رأيه ويسمحون له بإجراء الدراسات الضرورية ، أن يساعد كثيراً في تأسيس نظام للارتقاء يمنح المكان الذي قد يتطلّع إليه كل فرد تطلّعاً مشروعاً .

ـ البحث عن التأطير : يصعب إيجاد أطر للمشروعات من حيث أن الإدارة ليست هي وحدها التي يوجد لديها نظام من الارتقاء . وللنقابات ، هي أيضاً ، سياستها في الارتقاء ، ويحدث على الغالب أن الإدارة والنقابات تجد كل منهما نفسها ، بصورة مفارقة ، تختار القائد نفسه للتأطير في كل منهما . من هنا منشأ الخلافات ، والصدامات ، والنزاعات ، بمقدار ما تكشف النقابات عن أن في صفوف العمال مفوّضين ومسؤولين هم ، على وجه الدقة ، أولئك الذين تأمل الإدارة في أن تجعل منهم رؤساء العمال والفرقاء والورشات لديها ، وعمالها الفنيين وأطرها . وهنا أيضاً ، بوسع عالم النفس التقني ، غير المتحيّز في النزاع نفسه ، أن يساعد في ان يقدّم إلى الإدارة ذلك التأطير المؤهل الذي تحتاجه دون أن يستأصل مع ذلك من هم أكثر فاعلية وأكثر التزاماً من بين صفوف النقابيين .

ـ وسائل التعليم : كل سياسة في الارتقاء تفترض وضع نظم في التحسّن ذات أساس ثقافي ، وبيداغوجي ، وتربوي . ذلك أن « تسمية شخص لوظيفة جديدة دون مساعدته في أن يتهيأ لها ، أمر يعرّض إلى الإخفاق » (٩) . فعدم

---

(٨) «مستقبل علم النفس الصناعي» ، جارديليه .

(٩) «مستقبل علم النفس الصناعي» ، جارديليه .

التكيف في تعليمنا من جهة ، وإهمال المشروعات من جهة أخرى ، هما العائق الرئيس ، في هذا المجال ، لسياسة في الارتقاء . ويوسع عالم النفس التقني أن يتصرف بحيث يفلح المشروع في إعداد مجموعة من وسائل التعليم ستصبح ، بتأثير التقدّم التقني ، ضروباً من التقدّم الثقافي .

الفصل الثالث

نقد سيكولوجيا العمَل

أولاً - سيكولوجيا العمل والمجتمع الاجمالي

١ - هل علم النفس التقني يخدم سياسة محافظة ؟

علم النفس التقني ، الناشىء من ما كان يشغل بال العسكريين والصناعيين ، لم يتوافر له الزمن ولا الوسائل لينظر نظرة موضوعية إلى عمله . فعلم النفس التقني لم يتحدّد ولم يتعينّ موقعه ، على الرغم من بعض القوانين التي تسوسه في تشريع العمل ، وعلى الرغم من التصريحات المبدئية التي تطمح إلى أن تضع أسس أخلاقه الفلسفية ومهنة عالم النفس التقني . وليس على المرء ، مع ذلك ، إلا أن يراقب المجلات المتخصّصة ليقتنع بالبلبلة التي تسود علم النفس التقني وبالمأزق الذي يقع فيه . ومن المؤكد أنه اغنى علم النفس بمجموعة من الملاحظات ، والطرائق ، وإعداد الروائز ، والعلوم الجديدة (دراسة المركز والهندسة البشرية) ، التي تحتلّ مكاناً بارزاً في مروحة البحوث التطبيقية والأساسية في مجال علم النفس ، تلك المروحة التي تزداد غنى كل يوم . ومن المؤكد أيضاً أن هذا العلم ، علم النفس التقني ، أتاح تقليص الاعتباطي في الاختيارات المهنية ، والجور في ضروب الارتقاء الاجتماعي ، وخطر اللاأمن وعدم الاستقرار في العمل ، تقليصاً يزداد باستمرار . وعلى الرغم من أن علم النفس التقني نبيل في أخلاقه الفلسفية ويرغب في أن ينشد قدراً أكبر من الدقة والموضوعية والصفة العلمية ، فانه يصطدم مع ذلك ، اصطداماً مستمراً ، بوسط صناعي ، وبنيات اقتصادية اجتماعية ، وبسياسات أرباب العمل ونقابات العمال ، وبذهينات لا

يفهمها وتوليه ظهرها في أغلب الأحيان . يضاف إلى هذا أيضاً أنه منح نفسه ، إذ أراد أن ينقذ ما يبدو له أنه لا يمكننا مسّه في الإنسانالعامل ، خط الدفاع عن الفكر ، وجدارة العامل [1] ، وحريته ، في حين أنه يجد نفسه يواجه عداوة المعنيّين المباشرين جداً : عداوة الصناعيين ، الذين يعيبون عليه دائماً عدم نجوعه ، وعدم كفاءته في تنظيم العمل ؛ وعداوة المنتفعين ، أي العمال ، الذين يندّدون به ، بوصفه لعبة ، وحيلة خطرة ، وبارعة ، تناظر صورة جديدة من صور الاستثمار ؛ وعداوة علماء الاقتصاد والاجتماع ، الذين لا يحدّدون دائماً ، بوصفهم يواجهون بنيات أكثر إجمالية تحكم الوسط الصناعي في الواقع ، موقع علم خاص بالذاتي والفردي يمكنه أن يساهم مساهمة جيدة في علمي الاقتصادي والاجتماع ؛ وعداوة السياسيين « اليساريين » ، الذين يشبّهونه بنزعة بغيضة إلى كل التسويات مع سياسة محافظة ورجعية في مجال تنظيم العمل ، وينسبون إليه هذه النزعة ؛ وعداوة الدولة ، التي ، على نحو يثير الرثاء ، تترك للفوضى في مجال سياسة الاستخدام والتوجيه المهني والارتقاء الاجتماعي أن تتعضّى ؛ وعداوة الدجّالين في علم النفس التقني ، الذين يتوخّون أن يحلّوا المشكلات الجديدة ، التي تطرحها صلة الانسان بالوسط الذي يعمل فيه ، حلاً ساذجاً ، ببعض الوصفات السيكولوجية الجاهزة . هذا الحساب الختامي السلبي قد يبدو تشاؤمياً بمغالاة ، ولكن المسألة ليست مسألة التشاؤم أو التفاؤل ، بل هي جهد من الوضوح هدفه أن يحلّ تعقيد الظاهرات . وهذه العداوة شائعة في الواقع عند إدخال العلوم الإنسانية على وجه العموم منذ أن يُراد لها أن تكون ناجعة ويراد لها أن تحلّ مشكلات العمل ، التي تبدو متعذّرة الحلّ ، حلاً أسطورياً ووهمياً . وتنشأ هذه اللغة الأسطورية والوهمية من أن موقع علم النفس التقني قائم في القلب ذاته من مأساة بدأت مع نمو التكنولوجيا ، ورأس المال ، والعالم الصناعي . وإذ توخّت سيكولوجيا العمل أن تجدّد ضرباً من الحوار الدائم بين الإنسان والبنيات ، بين الإنسان والآلة ، فقد وجدت نفسها تتجاذبها اتجاهات معاكسة . إنها تعاني

---

(١) انظر فصل «علم النفس موضع التساؤل» في هذا الكتاب .

هذه الثنائية المزدوجة : الرغبة في أن تنقذ الإنساني من خلال البنيات والتقنيات ، ورؤية نفسها ينبذهاباستمرار ، من هذه البنيات والتقنيات ، أولئك الذين يملكون السلطة عليها في التوجيه والتقرير . فوجد علم النفس التقني نفسه ، من جراء ذلك ، منخرطاً بالقوة في الدفاع عن خط إنساني في العمل يطمح إلى أن يحلّ محل الخط الإنساني القديم ، متكلماً لغة العلوم الإنسانية . لا جديد تحت الشمس ، إن لم يكن هذا الضلال الإضافي ، القائم على الاعتقاد أن العلوم الإنسانية يمكنها أن تكون ناجعة ، وأنها بالتالي ذات دور تؤديه في تنظيم العمل . وتنجم هذه الذهنية التي تنتشر انتشاراً كبيراً في الوسط السيكولوجي عن وهم ثلاثي يجعل موقع سيكولوجيا العمل في عالم من الخيال العلمي .

٢ ـ أين الإنسان ؟

ويكمن الوهم الأول في الاعتقاد بأن ثمة في مجتمع العمل أيضاً مرجعاً هو الإنسان ، قيمه جواهر خالدة وثابتة يمكننا الدفاع عنها : جدارة العامل ، وتفتّح الفرد ، والإبداع في العمل ، والعقلنة الممكنة لقابليات العمل وسلوكاته . والحال أن هذا الخط الإنساني المرجعي ، الذي يمنح سيكولوجيا العمل حالياً معناها ومبرّر وجودها ، يعتقد بأنه يدرك صورة للإنسان والمجتمع ، متماسكة وموحّدة وذات دلالة . ومن المؤسف أن هذا الخط الإنساني ذا الدلالة ، الذي يحفز علم النفس التقني ، ناجم عن الماضي والأسطورة أكثر مما هو ناجم عن الواقع . فليس ثمة إنسان مثالي ، خالد ، وثابت بوسع المرء أن يعزو إليه مجموعة من القيم التي يجب الدفاع عنها . وهذا الإنسان المثالي الذي اختير صورة المرجع يجد نفسه ، على أي حال ، وقد استبعدته البنيات الصناعية التقنية . ولا يرى المرء على أي شيء يعتمد ضرب من علم النفس ، الذي يدّعي اتجاهاً إنسانياً داعياً لخير البشرية ، في أن يمنح نفسه خطاً لتجديد الحوار بين الإنسان والوسط الذي يعمل فيه . ولن يبلغ ذلك لأنه ليس بوسعه أن يطرح صورة الإنسان ، التي تزداد غموضاً كل يوم . ومنذئذ ، أين يوجد مبرّر وجوده وأساسه ، وماذا لديه ليدافع عنه ؟ فهو موجود في ردْب ، ولهذا السبب فهو يعود باستمرار إلى الادّعاء بأنه يتوخّى أن يعيد للإنسان ، في العمل ، الوجه الحقيقي للإنسان .

٣ - الإنسان يستبعده الوسط الذي يعمل فيه !

ويكمن الوهم الثاني في الاعتقاد بأنه سيوجد أيضاً وسط للعمل يكون فيه الإنسان كلي الحضور[٢] . وتبرهن ، على العكس ، دراسة الاستقبالية التكنولوجية ، وتطور الآلية ، ونمو الطرائق في إدارة المشروعات وتنظيمها ، على أن الإنسان ، الذي نستبعد أن يحاور الآلة ويندمج بها ، لن يكون سوى مراقب ، يبقى على بعد ، لمجموعات ومجموعات فرعية بنيوية تقنية تستبعده مباشرة وتسير سيراً وظائفياً ذاتياً . والمرء يمكنه بالتالي أن يتساءل أين يتحدّد موقع التأثير الذي تمارسه سيكولوجيا العمل ؟ ومن ينبغي لها أن تكيّف ؟ وما هي الروائز الجديدة التي تتيح لنا أن نقيس قابليات جديدة جعلتها هذه البنيات الجديدة ضرورية ؟ وأي عالم سيكون عالم العمال ، وأي وسط سيكون وسط العمل ؟ ألن يجد هذا العلم ، أي سيكولوجيا العمل ، نفسه ، في الواقع ، خارج نطاق أي حاجة إليه ؟ ومن الممكن عندئذ أن لا يكون له موضوع ولا وسط ، كما هي الحال في هذه الفترة بالنسبة للمشروع الكبير . وعلى أي حال ، سيتغيّر هذا الموضوع وهذا الوسط تغيّراً بحيث يحين الحين لأن يجدّد نفسه مجدّداً ، وأن يوضّح أغراضه المستقبلية .

٤ - علم النفس والاستغلال

والوهم الثالث أشد خطورة لأنه اكثر اتصافاً بأنه تاريخي ومباشر . ويكمن هذا الوهم في إرادة المحافظة على سيكولوجيا العمل بمعزل عن السياق الإيديولوجي والسياسي الذي يتجذّر فيه . وهذا الرفض ، رفضه ان يرى ، على وجه الدقة ، ما يؤدي إليه هذا الوهم على المستوى الاجتماعي ، يضعه على وجه الضبط في عالم البِدَع ، والوصفات الجاهزة ، في العلوم الإنسانية . كيف نقبل أول الأمر ، ثم لا نعلن ، بأن ممارسة الروائز ، والاصطفاء ، والتوجيه ، والارتقاء الاجتماعي ، هي وسائل تقوم مقام مقلّصات النزاعات ، وتمنح أرباب العمل شعوراً بالرضى . لا على مستوى فن تقني معين ، وفي مستقبل مباشر :

---

(٢) انظر فصل «التواصل بين الإنسان والآلة» في هذا الكتاب .

فجعل الوظائف متوافقة مع القابليات ، وتمييز السلوكات عقلانياً ، وترقية بعض العمال إلى رؤساء عمال وورشات وفرقاء ، وأخذ تطلّعات العمال بالحسبان ، ليست بالتأكيد ضروباً ثانوية من التقدّم في تنظيم العمل . وأن تحلّ محلّ بعض الضروب من الظلم ، وبعض الضروب من اللامساواة ، ممارسة سيكولوجية ترمي إلى تقليصها ، وتفلح بعض الأحيان في ذلك ، أمر يتصف بأنه مديح للروّاد وممارسي علم النفس التقني الحالي . ولعلم النفس التقني ، هنا أيضاً ، نكهة الثرثرة ذات المنحى الإنساني ، التي سادت في القرن التاسع عشر ، وقامت على حلّ المشكلات على نحو فردي ومنعزل ، وعلى نحو يمنح نفسها الشعور بالرضى لأنها حلّت « المسألة الاجتماعية » للعمال بأن أرضت معاً ، في زعمها ، العمال الذين يجدون في ذلك خيرهم وسعادتهم ، وأرباب العمل الذي يجدون فيه خيرهم أيضاً بزيادة الانتاج . والحال أن هذه الممارسة الاجتماعية لسيكولوجيا العمل لا تقاوم التحليل الاقتصادي : فالنزاع بين العمل ورأس المال بالنسبة للغرب ، أو بين العمل وإضفاء البيروقراطية بالنسبة للشرق ، أمر يتعذّر حلّه ، وليس علم النفس التقني بالتأكيد هو الذي سيفلح في التوفيق بين ضروب التنافر في البنيات . ومن المؤكد أن المقصود هنا ليس إنجاز تقدّمٍ في نوايا علماء النفس التقنيين : فبعضهم يعون المشكل ، ويعلمون ان على علم النفس التقني أن لا يقدّم عن نفسه صورة مخادعة فيما يخصّ نتائج الثلاثي المزعوم « اصطفاء ـ توجيه ـ ارتقاء » ، وفيما يخص رفاهية العمال . وبعضهم الآخر ، أقل وعياً ، يستمرون في الاعتقاد بأن علم النفس التقني يقدّم خدمات فعلية للعمال . وآخرون أيضاً يمارسون علم النفس التقني ، وهم يحصرونه في حدود تقنية ومهنية ، ويرفضون أن ينظروا إلى أبعد من ذلك .
وما هو موضع التساؤل هنا ، على أي حال ، ليس الوجدان المهني لعلماء النفس التقنيين ولا أريحيتهم . بل من المناسب بالحري أن ندرك أن نزاعات العمل ولّدت بنية جديدة هي سيكولوجيا العمل ، التي لها ، هي ذاتها ، منطقها الداخلي واستقلالها النسبي . وهذا المنطق يفضي ، وقد رأينا ذلك في الولايات المتحدة الامريكية ، إلى أن يجعل الطبقة العاملة سلبية ، وإلى أن يقدّم رؤساء العمال والورشات والفرقاء ، والأطر ، والمديرين ، إلى رأس المال الكبير الذي يحتاجهم

لزيادة مردوده وتحسين إنتاجيته . أما العمال ، إياهم ، فإنهم يجمعون الفئات ، والارتقاء الاجتماعي يقدّم الطلاء الذي يرغب فيه العلم السيكولوجي ليجعل النظام جيداً على أفضل وجه ، وليخدم حاجات رأس المال خدمة أفضل . ويتبيّن لنا عندئذ ، على العكس ، أن علم النفس التقني ، الذي لا « يضفي الإنسانية » على العمل ولا يرتقي بالعمال ، يشارك مباشرة في سياسة رأسمالية جديدة ، معاكسة لمصالح العمال . والوهم هنا قتّال ، ذلك أنه وهم ناجع جداً ، ولو أن ميو كان قد رأى نتائج بحوثه واستغلالها ، لكان من المرجح أن يرفض التصريح بأنه أعاد الجدارة ، والعدالة ، والتفتّح ، إلى العمال .

٥ ـ غموض علم النفس التقني

هذا الوهم الثلاثي ذو الخط الإنساني (لا محتوى) ، والتكنولوجي (لا موضوع) ، والسياسي (العمال يزداد استغلالهم) ، ربما يشرح العداوة التي كانت موضوع البحث فيما سبق . ومن المؤكد أنه يشرح أن علم النفس التقني ، الجدي والواثق من طرائقه ، مدروز بالغموض في ممارسته .

ويشرح علم النفس التقني أيضاً ذلك الرضى الذي تحسّ به الطبقة المالكة عندما ترى سيكولوجيا العمل تسقط بين يديها ، هذا السراب الذي يزدهي بالعلم ، وبأعماق الإنسان ، ليحلّ ، إلى حين ، علاقة رأس المال والعمل .

ثانياً ـ الوضع الخاص بكل من عالم النفس والرائز

١ ـ مكانة عالم النفس

آ ـ عالم النفس غير حر

سياسة الاصطفاء والتوجيه ضرورة تقنية من ضرورات عقلنة العمل ، ولكنها عائق أيضاً . فالطرائق السيكولوجية حيادية في ذاتها ، مع أنها ، هي أيضاً ، انعكاس نموذج من نماذج المجتمع ، ولكن علماء النفس أقل حياداً بكثير على الرغم من تصريحهم المبدئي . والواقع أن عالم النفس في المشروع تابع ، هو ذاته ، بأجره ومنزلته الاجتماعية ، لـ مكان تراتبي في المشروع ، ويبدو منذئذ أنه

يدعم قادة المشروع دعماً ضعيفاً أو قوياً . وليس هذا الإضفاء ، إضفاء الصفة المؤسسية ، دون محذور ، ما دام يضع عالم النفس بصورة صورية « في الأعلى » من علاقة ذات نموذج تراتبي يعاني فيها المحلِّل والمروز عبء التنظيم في العمل وسياسة الاستخدام .

ب ـ حليف جديد لأرباب العمل

وبالرغم من استقامته ووجدانه المهني اللذين ليسا موضع التساؤل هنا ، فهو حليف موضوعي لسياسة العمل ، واستثمار أرباب العمل بفعل وضعه على أنه أحد الأطر في المشروع ، وبفعل أجره الذي يقبضه من رب العمل . ولا يبين لنا ، في هذا الشروط ، كيف يكون بوسع عالم النفس التقني أن لا يجري اختياراً يستجيب استجابة أكبر ، في نهاية المطاف ، لمتطلّبات الطبقة البورجوازية لا لمصالح العمال . وهذا العلم ، علم النفس ، لا يمكنه عندئذ أن يكون غير علم نفس طبقي ، علامته الأكثر وضوحاً هي تاريخ علم النفس التقني . ولهذا السبب ، فإن علم النفس في المشروع يساهم إلى حد بعيد ، بوصفه حليفاً موضوعياً للطبقة القائدة ولنزعتها التكنوقراطية الحالية ، في إضفاء وجه جديد على الاستغلال ، ذلك أن أي سياسة في الثلاثي ، الاصطفاء والتوجيه والارتقاء ، ليس بوسعها إلا أن تؤدي ، في النظام الراهن ، إلى أن تضع في خدمة أرباب العمل مجموعة من الطرائق صالحة لدمج الإنسان في عمله على نحو أفضل . إن علم النفس التقني ، وقد تلقّى طوال تاريخه معايير غريبة عنه ، يقسر عالم النفس على أن يكون المنفّذ لسياسة في العمل لم يختبرها . ولكي يكون ضرب من سيكولوجيا العمل عادلاً وصحيحاً ، فإنه يفترض أول الأمر أن يكون ثمة تكافؤ في الفرص بين الجميع ، وأن يكون ثمة ديموقراطية صناعية حقاً . والظن بأن عالم النفس ، في المرحلة الراهنة ، يساهم في صورة من الاعتباطي قد يكون بوسع المرء أن يصفها بـ الموقف الأبوي الجديد ، أمر ممكن . إن سيكولوجيا العمل هذه تفترض إذن أن يوضع النظام الاقتصادي والسياسي موضع التساؤل ، وعلى عالم النفس التقني أن يشارك هنا النقابات والمسؤولين عن التكوين العمالي في ما يبدونه من حذر صائب مشاركة تامة ، النقابات والمسؤولين الذين يرون أن علم النفس

يمارس عمله في نظام من هذا النوع لا ينفكّ يتزوّد ، على نحو متزايد أيضاً ، بالوسائل التي تخدم أرباب العمل . وتبدو هذه المعايير الايديولوجية غريبة عن وضع عالم النفس ، والواقع أنها تحدّده بصورة أساسية ، وتفسد كل العلاقة بين عالم النفس التقني وبين طرائقه وزُبُنه المألوفين . فعلم النفس التقني ، بوصفه مولوداً في سياق ليبرالي ورأسمالي ، ليس في أغلب الأحيان ، وعلى الرغم منه ، سوى وسيلة من وسائله في خدمة هذا الغرض . وعالم النفس التقني ، بوصفه إنساناً ذا مركزويوصف علمه ، علم النفس ، ممارسة اجتماعية ، يجب عليه ان يمارس فكره النقدي . وينبغي لهذا النقد أن ينصبّ :

ـ على بنيات العلاقة في المشروع (٣) : فعالم النفس التقني ، بوصفه واقعاً في شبكة تراتبية ، لا يمكنه أن يكون إنسان المساواة ، ما دام يقدّم معايير تسمى موضوعية في الاصطفاء تروزها القيادة وحدها . فلو أن موقعه خارج هذا التراتب الصناعي ، لكان ذا حظ في أن يراه الناس على نحو آخر . ومن حيث كونه داخلاً في ملاك المشروع ، فإنه المنفّذ لسياسة في العمل تتوافق توافقاً سيئاً مع الأخلاق النظرية لمهنته ومع مقتضيات هذه المهنة .

ـ على حالته بوصفه صاحب أجر : وعالم النفس التقني ، اذ يقبض أجوره من رب العمل الذي يحدّد في نهاية المطاف اصطفاء العمال ، ليس حيادياً . إنه ، هو ذاته ، تابع لإرادة رب العمل الطيبة من جراء كونه أجيره . وهذه الحالة غير المريحة تضع حداً لوسائله في العمل وتحول بينه وبين النظر إلى استقلال مهنته بجدية . فما ان يتبنّى في اختياراته وسائل تعاكس وسائل رب العمل ، حتى يرى نفسه مفصولاً وكأنه الأخير بين الأجراء . فهذا الوضع يجعله تابعاً لإرادة رب العمل الطيبة ويدين قبليا كل المشروعات التي يراها مفيدة لخير العمال .

ـ على تاريخ علم النفس التقني : وإذ يستخدم عالم النفس التقني علماً عرف نموه الأقصى لدى الانغلوساكسون ، فانه يقتبس من إيديولوجيات اقتصادية وسياسية أنماطه وطرائقه التي تتصف بأنها انعكاس لها . والواقع أن معايير النجوع

(٣) انظر فصل «المنظورات الجديدة في تنظيم العمل»في هذا الكتاب .

والعقلانية مرتبطة بنموذج من المجتمع يبدو للوهلة الأولى غريباً عن معايير علم النفس التقني . وهكذا فإن تاريخ علم النفس التقني مرتبط بتاريخ العمل ، وسياسة الاستخدام ، والمهنة ، ومرتبط بتاريخ رأس المال الكبير والمجتمع الصناعي . وهذا الرباط الولادي أجبر علم النفس التقني على أن يصوغ فرضيات وأن يبتكر لنفسه أدوات للعمل تتطابق في بعض الأحيان تطابقاً كبيراً جداً مع مقتضيات الإنتاج الصناعي .

٢ ـ مكانة الرائز

العمال لم يختاروا

إن عالم النفس التقني يُخضع فاعلياته السيكولوجية لرغبات المشروع ، بوصفه ذا دور « أساسي » . فالعامل ، عندئذ ، يعاني الامتحانات السيكولوجية وهو في وضع التابع . ويعاني العامل ، بوصفه المستفيد من علم النفس التقني بمقدار ما هو ضحيته ، سياسة في الاستخدام وطرائق الاصطفاء ، وسياسة في الارتقاء لم يخترهما . وهو يحسّ إحساساً غامضاً بأن « الروائز » أصبحت ضرورة ، وبأن رأي عالم النفس راجح في تقرير الاستخدام ، وبأن مستقبله المهني يمر بـ لغة سيكولوجية تقنية لا يفهم شيئاً منها ، وهو محروم وسيء الاطلاع على العمل الذي يقوم به عالم النفس التقني ، وعلى المصادرة الإيديولوجية والسياسية لسيكولوجيا العمل . إنه يدرك مع ذلك ، بصورة يكتنفها اللبس ، أن هذه الطرائق الجديدة توحي ، على الرغم من أن لها مظهر الوسائل الموضوعة لتخدم « خيره » الإنساني والمهني ، بعدم الثقة لدى النقابات ولدى جزء من أولئك الذين يدافعون عن مصالحه . ولا يعرف العامل ، بوصفه ممزّقاً بين ضرورة الخضوع للامتحان بالروائز وبين شعوره بعدم الثقة ، رأيه بسيكولوجيا العمل وبعالم النفس التقني ، أحد تعبيراتها الأكثر جدة . وفي هذا المناخ من الخشية والريبة ، يلزمونه مع ذلك بالخضوع للاختبار بالروائز والذهاب لرؤية عالم النفس التقني . وفي أفضل الأحوال ، ينظر العامل إلى ذلك على أنه « مزاح كبير » ، ولا يمنح قيمة الروائز أي مصداقية . وفي أسوأ الأحوال ، يخضع خضوعاً يسيراً ، ويسيراً جداً ، لهذه « المناورة » ، مناروة علم النفس التقني . فالملهاة ، من جهة ، والخضوع من

جهة أخرى ، ذلكم ما يحيل « الجديّ » في علم النفس التقني إلى قعور اللاشعور الجمعي الذي يتجلّى على نحو مدهش في مخيال الرأي العام : فعدم الثقة ، والسخرية ، والابتسامة ، والأسطورة ، والصمت ، هي السلوكات الرائجة إزاء علم النفس التقني وعالم النفس التقني . إن وضع من يخضع للرائز ينبغي له أن يتجلّى بغير قناع المأساة أو الضحية ، إلا إذا كان الممثل الهزلي والضحية هما عالم النفس التقني في نهاية التحليل .

ثالثاً - أزمة علم النفس التقني أو موته

١ - اندماج الانسان أم تحرّره ؟

سيكولوجيا العمل ، بوصفها متضامنة مع تاريخ العمل ، متضامنة أيضاً مع مستقبل العمل . وأرادت سيكولوجيا العمل ، وقد نشأت عن شاغل المردودية وإضفاء الانسانية على عصر كانت الآلية فيه تسبّب ضياع الشخصيات ، أن تجعل تفتّح العمال أمراً مشروعاً . ولم تبلغ هذا الغرض إلا في بعض الحالات الفردية التي وُجد في أثنائها علماء نفس شجعان وناقدون . فإجراء الروائز ، وقياس القابليات ، ودراسة المراكز ، كل منها ضرورة من ضرورات المجتمع الصناعي . ولكن هذه الضرورات لا تنطوي على هذا المصير المشترك لـ النمو الصناعي ونمو علم النفس التقني . فسيكولوجيا العمل هذه ينبغي لها أن تقطع صلتها الولادية مع الآلية ، وعقلنة السلوكات ، ورأس المال الكبير . وعليها أن تكون سيكولوجيا ، أي أن تكون معرفة وممارسة لا تستخدم الوسط الصناعي إلا لتشجّع لدى الإنسان فكره النقدي وإمكان الإبداع لديه . فعلى وسط العمل ، أول الأمر إذن ، يجب أن تنصبّ تقصّياتها ، وطرائقها ، وممارستها الاجتماعية . وليس الإنسان من ينبغي له أن يكون موضع التكيّف ، حتى في وسط العمل ، وليس الإنسان بالحري من ينبغي له أن يكون موضع الاندماج في العمل العقلاني والميكانيك الصناعي . وهو من أجل ذلك ، ليس بحاجة إلى عالم النفس .

يضاف إلى هذا أن التطور المحتمل في التقنيات والآلية (٤) ، بفعل تنظيم العمل آلياً ، يفسح المجال للتنبؤ باستقلال متعاظم للمجموعات آلات ـ ناظمات آلية (*) ، وبالتالي ، سيغيّر هذا التطور تنظيم المشروع وبنياته . ونحن نميّز في هذه المعاينة اتجاهين متناقضين :

الاتجاه الأول

يبيّن تاريخ علم النفس التقني أن هذا العلم يرمي إلى احتواء الانسان ودمجه في الآلة وفي الوسط الذي يعمل فيه . وعلم النفس التقني ، في ذلك ، علم نفس حدّد طرائقه تبعاً لاستخدام معمّم للآلة ولتنظيم العمل اللذين يعود تأريخهما إلى الثلاثينات من هذا القرن . والحال أن هذه الحركة من الاندماج يعارضها اتجاه آخر ينظر إلى علاقة الإنسان والبنيات على أنها مشكل كاذب : وهذا هو الاتجاه الثاني .

الاتجاه الثاني : علاقة الإنسان والبنيات مشكل كاذب

نمو التقنيات والآلات التي تعمل على أنها منظومة ، وستعمل على نحو متعاظم ، تستبعد الإنسان منفّذ العمل ومنظّمه . وبناءً عليه ، فإن علم النفس التقني ربما لم يعد يقوم على تكييف الانسان وتعقيل السلوكات ومراكز العمل . وهذا المنظور في علم النفس التقني ، في رأينا ، عاش في أيامنا هذه لأن علم النفس التقني يتوخّى احتواء الانسان بأي ثمن ، في حين أن الآلة تستبعده دائماً على نحو أكبر . ويبدو أننا في مأزق ، والأزمة الراهنة في علم النفس التقني الذي يبحث عن اندماجه هي التعبير عن هذا المأزق . فخلفية سيكولوجيا العمل كانت دائماً اتجاهاً إنسانياً لكي تبرّر نفسها : فكيف توفّق بين العمل والحرية ، بين التفتّح والبنيات الصناعية ، بين الإبداع والآلية ، بين جدارة العامل ومقتضى العقلانية والمردودية ؟ ألا يعني ذلك أنها تطرح مشكلاً كاذباً ، وأنها تمنح علم النفس التقني مزايا لا يمكنه أن يتصف بها ؟ ألا يعني ، هنا أيضاً ، أنه يلجأ إلى اتجاه إنساني

---

(٤) انظر الفصل التالي في هذا الكتاب : «تواصل الإنسان والآلة» .

(*) أو الحاسوب كما درج بعضهم على استعماله «م» .

عاجز عن أن يجعل علاقة الإنسان مفهومة لدينا ؟ وهو عاجز لأن الإنسان والاتجاه الإنساني الذي يطمح إلى تعيين موقعه يجدان نفسيهما أكثر استبعاداً على الدوام كلما تطورت البنيات التكنوقراطية الصناعية . وإذا كان الإنسان مستبعداً ، فإن المرء لم يعد يرى بوضوح كبير جداً مكان سيكولوجيا العمل ودورها، ما دامت هذه السيكولوجيا ، بوصفها علماً للذاتي والفردي ، ستصبح في نهاية المطاف علماً غير ذي جدوى ، من جرّاء كون الإنسان في وسط العمل عديم الجدوى .

٢ ـ هل علم النفس التقني بقية من ماض أم أنه أداة لا غنى عنها ؟

تبدل فجائي في سيكولوجيا العمل أم موتها ، ذلكم هو رهان علم النفس التقني الذي يتعرّض الى خطر مفاده أن يكون بقية من ماض ، شأنه في ذلك شأن الاتجاه الإنساني الذي ينتسب هذا العلم إليه ، بوصفه لم يفلح في تحديد نفسه ولا في البرهان على جدواه الأساسية .

* * *

الباب السابع

علم النفس في الوسط الصناعي

الفصل الأول : تواصل الإنسان والآلة
الفصل الثاني : المنظورات الجديدة في تنظيم العمل

الفصل الأول

تواصل الانسان والآلة

أولاً - الآلات والجسم

التساؤل عن ما يسمى آلة مسألة تضعنا دفعة واحدة في حيّز نسبي ، وذلك يعني أن الإجابة عن هذا السؤال يتغيّر مع نمو حضارتنا . والكلمة نفسها التي كانت تدلّ على شيء وحيد ، كدولاب الخزفي على سبيل المثال أو كفخ الحيوانات ، تنطبق في أيامنا هذه على مجموعات حقيقية من العناصر التي تدمج مختلف النماذج من الآلات . ولكن الانزلاق في معنى هذا المفهوم ليس النتيجة لتطور من نموذج كمي . فليس ثمة تبدّل فجائي يحدث لأن النجاح يتحقّق في أن نزاوج نماذج مختلفة من الآلات . ويحدث التبدل الفجائي في هذه الحالة عندما يحلّ ترتيب عمودي لمجموعة من الآلات محل تجميع وفق صورة أفقية . ويجد المرء نفسه ، من الآن فصاعداً ، إزاء منظومة تدمج بالتدريج تلك الوظائف الدنيا (آلات أولية وبسيطة وأحادية العلاقة وأحادية الوظيفة) وتشرح عملها بكل جانب من جوانبه لآلة قائدة أو ، إذا شئنا ، لضرب من الناظمة الآلية التي تراقب تشغيلها ، وإيقاعها في العمل ، ومردودها ، ونجوعها ، إلخ . فالتصريح بأن الناظمة الآلية تصبح على هذا النحو وعي الآلات الأخرى ، ما دامت تبدو أنها تؤدي الدور الذي يؤديه الدماغ في الجسم الانساني بالنسبة لمختلف الأعضاء التي تؤلف هذا الجسم ، تصريح يستهوي المرء كثيراً . فثمة مواجهة بين الانسان والآلة تصبح ضرورية ، وقد حدثت ولا تزال تحدث ، محاطة بالأساطير والمعتقدات ، ولا يزال باقياً ضرب من التحليل النفسي لهذه العلاقات ، على

طريقة باشلار (*)، ينبغي إجراؤه .

١ - بنيات الآلات والوظائف الجسمية

يمكننا البرهان على أن الانسان اخترع أدواته وآلاته على صورة جسمه الخاص، بالنظر إلى أن مخترعاته ليست إلا استطالة لصفاته الجسمية . وهذه الأدوات والآلات أتاحت له أن يزيد قدرته، وأن يضفي على العالم المحيط ضرباً من الصورة [١] . وتاريخ الآلة في هذا المنظور، بوصفها مصنوعة على صورة الانسان، هو تاريخ الإنسان وازدياد قدرته .

والنموذج الأول للآلة، الأكثر بساطة وأولية، هو الآلة الهندسية [٢] التي تتحدّد ببنية معيّنة تحتلّ مكاناً في الفراغ، دون أن تتبادل مع الإنسان، مع ذلك، أي ضرب من الطاقة أي كانت . وهذه الآلات هي أشياء في ذاتها حقيقية : فالطاولة والكرسي والمقعد، الخ، تقدّم لنا أمثلة على ذلك . والنظير لهذا الجهاز الأولي في الجسم الإنساني بوسع المرء أن يجده في المثانة أو في الجملة العظمية . والمقصود ميكانيك ثابت .

والنموذج الثاني من الآلات، الأكثر إعداداً بدرجة محسوسة، يتألف من محوّلات القوة . فهي تتيح إنقاصاً لكمية الطاقة الضرورية بالنسبة لعمل معيّن، كالمخل على سبيل المثال . وليس ثمة تغيير في نموذج العمل والطاقة، بل يترتّب العمل على نحو يكون أكثر سهولة في التنفيذ . وذلك هو الدور الذي تؤديه المفاصل في الجسم الإنساني . فالكوع، حين ينثني، يقلّص الجهد الضروري لرفع ثقل من الأثقال (وذلك يقابل الكشوف الكبرى في عصر النهضة) .

(*) فيلسوف فرنسي (١٨٨٤ - ١٩٦٢)، صاحب مؤلفات كثيرة في الإبستمولوجيا والتحليل النفسي للمعرفة العلمية . وندين إليه بتحليلات للخيال الشعري «م» .

(١) انظر أعمال لوروا غوران، «الوسط والتقنيات»، ألبان ميشيل، طبعة ثانية، ١٩٧١ .

(٢) انظر واتاناب، في منتدى حول «الحضارة التقنية والاتجاه الإنساني»، ص ٢٠ - ٣٥ .

والنموذج الثالث من الآلات يمنح إمكاناً لتحويل طاقة متاحة الى نموذج آخر من الطاقة المطلوبة : ذلك هو النموذج من الآلة الأكثر استخداماً في المعمل التقليدي ، والذي يتيح على وجه الخصوص تشغيل المعمل . والمثال الأكثر شيوعاً في أيامنا هذه هو مثال السيارة ، حيث المحرك الانفجاري يحوّل الطاقة التي يقدّمها انفجار مزيجٍ مفحّم لكي يعطي الدواليب طاقة ميكانيكية . فالأعضاء في الجسم الإنساني هي التي تنفّذ عملاً مشابهاً .

وحتى هذه المرحلة من الآلات ، نتبع التوازي مع الجسم الإنساني تماماً ، ولكن علينا أن نلاحظ أن هذه الأجهزة « ذات العلاقة بالحركة » تنصبّ ، حصراً ، على فئة من الأعضاء هي فئة الأعضاء المنفّذة . ولا تستخدم الآلات إلا في التأثير على الواقع ، ولكنها محرومة من كل حساسية للعمل الذي تنجزه ولحالتها الخاصة . فالآلة من نموذج المحوّل للطاقة لا تعرف معيار سيرها الوظائفي الخاص . إنها في وضع جسم لا يملك أي معلومات عن حالته الداخلية (الحساسية التي تنقلها المستقبلات الخاصة والحساسية التي تنقلها المستقبلات الداخلية) ولا عن الوسط الذي يتطور فيه . والآلة الحديثة ستلطّف هذا المحذور ، ذلك أنها ستراقب السير الوظائفي للآلات الأخرى الموضوعة من الآن فصاعداً في مرحلة أدنى . ولم يعد الانسان ضرورياً لقراءة العدّاد : فالناظمة الآلية تتكفّل بذلك ، وبوسعها ، في كل مناسبة ، أن تتدخّل بثقة أكبر من ثقته ودونما تخلّف في برنامج يواصل مسيرته ، فتقطعه أو تصحّح سيره أو تسرّعه ، الخ . وليس نقل الطاقة هو الذي يميّز الناظمة الآلية ، بل نقل الإعلام . إنها مجهّزة ومكوّنة من منظومات لتفسير المعطيات التي تتلقّاها ، ومن منظومات ناقلة ، ومنظومات تقرير ، ومن منظومات لحفظ المعلومات يسهل استخدامها . فعملها يكمن إذن في جمع المعلومات ، ومعالجتها ، وإرسالها . وهي تنظّم حولها جميع الآلات الأخرى التي تتولّى قيادتها . فنحن أمام تبدّل فجائي نوعي .

ثانياً - الآلات الحديثة - التقنية - الدماغ

بوسعنا أن نأخذ بالحسبان اتجاهين أساسيين في تطور الآلة بالقياس إلى جسم الانسان : الاتجاه الأول هو الانفصال المتعاظم للآلة بالنسبة لجسم الإنسان . فالآلة ، على خلاف الأداة ، لا تكمن في الاستطالة المباشرة لحركات الجسم ، وذلك أمر يفرض أن على الإنسان أن يعتاد عليها . وثمة تعلّم لتشغيلها أطول مدة بكثير من مدة التعلّم لاستخدام أداة . فالتعلّم أمر ضروري لقيادة سيارة . والاتجاه الثاني : التنامي الهائل في الاستطاعة التي أمكن للآلة أن تكتسبها . إنها قادرة من الآن فصاعداً على أن تعمل بدارة مغلقة تنبذ الانسان . ويبدو ، بالإضافة إلى ذلك ، أن بوسعها أن تنافسه ، ما دامت قد اكتسبت ضرباً من الوعي . ولكن ما هي قدراتها الحقيقية ، وهل أصبحت الآلة ذكية ؟ وإذا أردنا ، والحق يُقال ، أن نوازن بين النمو العصبي والناظمة الآلية ، فإن علينا أن نلاحظ أن الناظمة الآلية ليست قادرة إلا على فاعلية انعكاسية . وهي تستجيب لرسالة معيّنة بهذه الاستجابة أو تلك ، استجابة تُعطى بسرعة أيضاً . فالناظمة الآلية ليست إذن دماغاً قادراً على أن يوقف أي ارتكاس أو أي عمل ، ولكنها مخيخ في الأكثر . والمخيخ ، في الجسم الإنساني ، يؤدي دور المنظّم ومحقّق التوازن ، وذلك ما تفعله الناظمة الآلية . والمخيخ ، مع ذلك ، يمكنه أن يعلّق عمله في كل لحظة ، ولا يملك سوى استقلال نسبي ممنوح إليه في حالة الأعمال العادية ، ولكن الدماغ هو الذي يستعيد التفوّق منذ أن تقتضي التنفيذ عمليةٌ دقيقة . فللمخيخ إحساساته ، ولكنه عاجز عن أن يمنحها معنى ، وليس بوسعه على وجه الخصوص أن يعمل وهو على وعي بما يعمل .

ومع ذلك ، فان ما بوسعه أن يميّز الدماغ من الآلة ، تمييزاً أساسياً ، أن ارتكاس الآلة مجرد مجموع المنعكسات ، في حين أن السلوك الإجمالي لدى الموجود الإنساني نتيجة ديالكتيك حقيقي حيث الفعل ليس محصّلة لجمع الأجزاء الأولية . فأولئك الذي كانوا يزعمون أنهم يكوّنون الإنسان تكويناً جديداً بجمع المنعكسات الأولية ، يمكنهم أن يكتشفوا نتيجتهم في الآلة الحديثة التي ليست سوى هذا

الجمع . ومن المعلوم أن المنعكس ، الذي ليس سلوكاً أولياً وبسيطاً ، تصرّف نادر جداً لدى الموجود الإنساني ، ولا يحدث إلا في الحالات المرضية(٣) . أما وقد انطلقنا من موازنة بين الإنسان والآلة ، فإننا نرى أن الفارق لا يتقلّص بل ، على العكس ، يتعاظم أيضاً بكثير من الوضوح . إن الآلة تحلّ محل الإنسان في ما يصعب عليه جداً أن يفعله ، أي في سلوكات انعكاسية حيث الشعور خلالها لا يمكنه أن يبدو إلا مزعجاً . فثمة تكاملية في التنوّع لا تعارضٌ مطلق ، وليس ثمة تجاوز .

وهذا الإحلال ، إحلال الآلة أو الأداة محل الإنسان في أعماله التقنية ، ليس جديداً ، بل كان دائماً إحدى خصائص الموجود الإنساني ، وذلك ما تكشفه لنا أعمال لوروا ـ غودان الرائعة جداً . فهي تعلّمنا أن الدماغ استبعد خارج وظائفه كل تذكّر من المجال التقني منذ البدء . إن « إنسان نيندرتال كان يحتاز من قبلُ دقة في تنسيق حركاته المبدعة لم تكن قط أدنى من دقتنا » . ولم ننجز ، من ناحية المخيخ ، أي تقدّم ظاهر في المجال التقني بالقياس إلى أجدادنا القدماء . والإنسان العامل ، الذي نتصف به ، ليس أكثر موهبة من الإنسان العامل الأول أبداً ، فماذا حدث إذن ؟ إن الإنسان ، إذ طرح تقنيته في العالم الخارجي ، ترك المجال حراً لإعداد الوظائف الفكرية . والآلة الأوتوماتيكية الحديثة تحقّق هذه السيرورة تحقيقاً كاملاً . « فالتقنية تدع الإنسان حراً على المستوى الفيزيولوجي . والكارثة الحقيقية كانت ستقع لو أن الاتقان التقني كان مندمجاً في الدماغ الانساني ، وأن الموجودات الإنسانية نمت بدماغ تقني يزداد حجماً وتعقيداً ، وحركات تزداد وضوحاً ونجوعاً ، وتقنيات منقوشة في الوراثة » . وما كان الانسان موجوداً انسانياً لو أن التقنيات لم تكن قد أفلتت منه منذ البدء ، وأنها لم تدع المجالات الدماغية المستقبلية لكل الباقي . فها هما التقنية والآلة إذن أُعيدتا

(٣) انظر مرلوبونتي : «بنيات السلوكيات » ، غولدشتاين : «بنيات العضوية» ، ـ غانغيلم : «تكوين مفهوم المنعكس في القرنين السابع عشر والثامن عشر» و «مفهوم المنعكس في القرن التاسع عشر» ، في«دراسات التاريخ والعلوم» .

الى مكانها بالقياس الى الجسم الانساني ، ولكن ذلك لا يشرح الانحرافات ، ولا العداوة التي أمكنها أن تتجلّى ضد هذه النتاجات ، نتاجات الفاعلية الانسانية .

ثالثاً ـ صلة الانسان والآلة : انحرافاتها

التاريخ ، كما أتينا على رسمه ، يبيّن لنا ، على نحو موضوعي ، استطالة الجسم الإنساني في الآلة ثم حلول الآلة محل الجسم الإنساني . ولكن التاريخ الفعلي لا يتوافق مع هذا المنطق التاريخي . فالإنسان لم يتعرّف على نفسه في الصورة التي كان قد أبدعها ، أو لم ير في هذه الصورة غير السلبي من ذاته . وعندئذ تبدو الآلة وكأنها ما يتصف الإنسان بأنه محروم منه ، فهي تتعهّد كل ما ينبذ .

والانسان أسقط نفسه في ما أبدع ، إذ نسب إليه صفاته الخاصة . فالآلة يدركها الإنسان تارة على انها عدو ، وعلى أنها ما يسلب ماهية الإنسان ويستمتع بها مستقلاً ، وطوراً يتصورها على أنها الصورة السلبية له ، بدلاً من أن تكون مشحونة بشحنة إيجابية . إنها ليست عندئذ سوى النسخة السلبية من ذاته ، وهي تحمل ما يرفض الانسان في نفسه . إنها الشيء المرئي الذي يحمل الشقاء . ويلاحظ المرء أن ما يتيح هذه الإسقاطات مفترض مشترك مفاده أن الآلة إنسانية في ماهيتها . فنحن إزاء ضرب من نزعة التأنيس الإحيائية التي سمّمت كل صلة الإنسان بالآلة في حضارتنا الغربية .

ومفهوم الآلة ذاته يمكنه الآن أن يدفعنا في هذا المجال من الإسقاط . والواقع أن مصطلح الآلة مشتق من « mekane»(*) التي تعني الفن باليونانية ، والخديعة ، والحيلة البارعة . وليس ثمة غير خطوة للتفكير بأن النتاج الناجم عن الحيلة سيكون لديه القدرة على أن يردّ هذه الخديعة ضد من منحه إياها . ويبدو الانسان هنا كريماً . فهو يمنح ما أبدعه الذكاء والشعور .

(*) الكلام على الاشتقاق باللغة الفرنسية «م» .

ونسب بعضهم غالباً إلى ما أبدعه الإنسان صفات إنسانية بسيطة ، دون المضيّ الى حدّ يمنحه الذكاء والشعور . وتلك هي حالة هيغل الذي عرّف الآلة ، بوصفه شهد ولادة الآلية ، تعريفاً يتّخذ شكل النبوءة ، ذلك أن الحضارة الغربية ستعيش علاقتها بالآلة كما يستشعر ذلك هيغل : « الآلة قلق الذاتي والمفهوم ، قلق مطروح خارج الذات ! » . فالآلة إذن تغذّيها قدرة من السلبية ، لكنها قدرة غير مسؤولة ، ذلك أنه لا وجود لذات تبعث فيها الحركة . وهيغل يكتشف المعنى الأصلي لكلمة« Mekane »ذلك أن الآلة في رأيه أفضل مثال لـ « حيلة العقل ». « إن العقل يستخدم خصائص ميكانيكية ، وكيميائية ، وأشياء ، ليجعل بعضها يعمل ضد بعض دون أن يتدخّل مباشرة ، ولكنه مع ذلك يحقّق في الوقت نفسه غاياته »[٤] . وسيعتقد الإنسان أن هذا القلق الذي يكوّن الآلة لا يظلّ ملقياً خارج الذات ، ولكنه يحاول الرجوع اليها ، وذلك ضد الذاتمن أجل تهديمها . ونحن نرى مجدّداً تلك الإسقاطات التي عرضناها فيما سبق : الإنسان ينسب القلق إلى الآلة .

وليس هذا القلق دون مبرّر ، فقد توطّن دائماً في صلة الانسان والتقنية . إنه ناجم عن أن الانسان كان دائماً ناضجاً قبل أوانه[٥]بالنسبة لمخترعاته . فهو غير قادر على أن يتمثّل نتاجاته الخاصة التي تفلت منه[٦] . وقد بيّن لورروا - غوران على هذا النحو أن الناس الأوائل ، مبدعي الأدوات ، لم يكن لديهم من

---

(٤) ذكر ذلك بابيؤوانو ، «هيغل» ، مجموعة : من كل الأزمنة ، سويغرس . انظر لهيغل «فلسفة الفكر الأولى» ، ص ١٢٥ وما يليها ، و «علم المنطق» ، الجزء الثاني ، ص ٤٥٠ وما يليها .

(٥) انظر فصل «العودة إلى فرويد » في هذا الكتاب ، فقرة : «مفهوم النضج قبل الأوان» لدى لاكان .

(٦) نجد هنا مجدداً مشكل الذهنيات المذكورة في فصل «الراشد والطفل» . القليل من «الجهود» التي بذلتها الحضارة الغربية في فهم الشعوب والعروق المختلفة عنها ، وفي الاحتفاظ بها في نوعيتها .

الناحية التشريحية دماغ قادر على أن يبتكر هذه الأشياء . وأقام الانسان منذ البدء عالماً تقنياً لم يكن بوسعه أن يسيطر عليه سيطرة كلية . وليس متكيّفاً بصورة فطرية مع عالم تقني أبدعه . وهو أكثر ضياعاً بقدر ما لا يسمح دماغه ، كما رأينا فيما سبق ، بالحركات التقنية . ويخاف الإنسان الحالي أن يتغيّر ، وأن يكون عليه ، بصورة مستمرة ، أن يتحاور مع عالم من الأشكال لا ينتمي الى منطقه الخاص (٧) . وهذا هو الحصر أمام المتصف بصورة جذرية أنه الآخر الذي نرفضه . و « سبب الضياع في العالم المعاصر ، السبب الأقوى ، يكمن في هذا الجهل بالآلة ، وهو ضياع ليس سببه الآلة ، بل سببه الجهل بطبيعتها وماهيتها ، وسببه غيابها من عالم الدلالات وإسقاطها من لوح القيم والمفهومات التي تشكّل جزءاً من الثقافة » (٨) .

وليس بوسع العامل الفني الذي يعمل على الآلات وانطلاقاً من الآلات إلا أن يحسّ بعاطفة الاستبعاد والهامشية في الحياة الثقافية لمجتمع من المجتمعات . وتكمن المفارقة في أن حضارتنا ، التي غزتها جميع أنواع الآلات ، لا تفلح في أن تدمج المجال التقني في تربتها الثقافية . فالعامل الفني يملك قدرة تزداد عظمة ووضوحاً ، ومع ذلك ليس له مكان وسط النشاطات البشرية الأخرى . والموضوع التقني أيضاً ، كما يصرّح سيموندون ، لا يُعترف به بالطريقة التي يُعترف بها بكل موضوع آخر ، كالموضوع الجمالي على سبيل المثال . ولكن ذلك يثير بالمقابل ما يسميه سيموندون « نزعة تقنية مغالية » ليست سوى ضرب من وثنية الآلة ، ويثير من خلال هذه الوثنية ، بواسطة ضرب من التوحّد ، تطلّعاً تكنوقراطياً الى السلطة غير المشروطة . « إن الرغبة في القوة تكرّس الآلة وسيلة للتفوّق ، وتجعل منها شراب المحبة الحديث » .

ولفساد العلاقات بين الانسان والآلة أسباب كثيرة ، ولكن منشأ الفساد ليس منشأً اقتصادياً واجتماعياً على سبيل الحصر ، وله أيضاً معنى سيكولوجي ، بل

---

(٧) سيموندون ، «في نمط وجود الأشياء التقنية» ، ص ٩ - ١٠ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

نفسي فيزيولوجي ، ناجم عن التواصل المباشر بين الانسان وآلته . وفي هذه الحالة الأخيرة ، يكمن الضياع في التعارض بين الصورة الجسمية والآلة التي لا تفلح في أن تكون استطالة لجسم العامل . ويحاول علم النفس الفيزيولوجي والهندسة البشرية ، في أيامنا هذه ، أن يعيدا هذا الحوار .

رابعاً - الترتيبات الحديثة أو تكييف الآلة

١ - الانسان تطرده الآلة

يعلّمنا التاريخ أن العامل عارض الآلة منذ القرن الثامن عشر ، ولكن النزاع تمايز بالتدريج . ويحكي ماركس كيف أن الآلات الأولى لنسيج الأشرطة المتنوعة حُطّمت منذ ظهورها ، بل منعتها السلطات التي كانت تخشى إضراباً كبيراً حداً . وحدث الأمر نفسه عند ظهور منشرة على الهواء في القرن السابع عشر . ودام الأمر حتى القرن التاسع عشر ، ذلك أنه « لا بدّ من الزمن والتجربة قبل أن يوجّه العمال ، وقد تعلّموا تمييز الآلة من استخدامها الرأسمالي ، هجومهم على النمط الاجتماعي في استخدام وسيلة الانتاج المادية لا على هذه الوسيلة ذاتها » (٩) . وقلّما وضع العامل موضع التساؤل ، في أعقاب ذلك ، آلة عمله التي يحافظ عليها ، دائماً على وجه التقريب ، خلال اعمال المطالبة التي كان يقوم بها . فهو يتكيف معها تكيفاً مقبولاً ، ويستخدمها أفضل استخدام ممكن لديه . فالآلة هي التي تشمل الانسان في تأثيرها ، وهو الذي يقع عليه عبء التوافق معها . ولكن ماركس فهم جيداً أن الهدف النهائي من إدخال الآلات ليس هذا الاتحاد القاسر بين الإنسان والآلة ، وأن غائية هذا الحدث تكمن في طرد الإنسان بوصفه عنصراً مندمجاً في سير الآلة ذاته . فهذه الآلة يمكنها أن تنجز معظم الأعمال الحقيرة ، التي تسبّب الإنهاك ، بأمان أكبر ومهارة أفضل . بل إن العامل لم يعد

---

(٩) ماركس ، «رأس المال» ، الجزء الأول ، الفصل الخامس عشر ، ص ٣٠٧ ، دار نشر غارنيه - فلاماريون ، رقم ٢١٣ .

يبذل الطاقة الحركية الضرورية لتشغيل جهاز من الأجهزة ، وارتدّ تدريجياً الى دور المراقب : « فموهبة الفنان وجدت نفسها ، بحسب المنظومة الآلية ، وقد حلّ محلها بالتدريج مجرد مراقبين آليين » (١٠) . « إن إنتاج الثرواب يرتبط ارتباطاً متناقضاً بزمن العمل وكمية العمل المستخدمة ، ويرتبط ارتباطاً متعاظماً بالعناصر الميكانيكية . . . ويجدالعمل مكاناً خارج سيرورة الإنتاج ، بدلاً من ان يكون الفاعل الرئيس فيها » (١١) . وهكذا يرتسم منذ الآن ، في رأي ماركس ، تطور للقاء الانسان والآلة ناجم عن الآلية المتعاظمة في سيرورة التصنيع . وإذا كان العمل اليدوي باقياً في أيامنا هذه ، فإنه يتناقص تناقصاً متزايداً تبعاً للمسيرة التي كان ماركس يتوقّعها . فأعمال العامل ، بفعل هذا ذاته ، تبدّلت تبدّلاً جذرياً ، إذ أتاحت ضرباً من تكييف الآلةمع الانسان تكيفاً أسهل ، وليس العكس . ويبدو أن مثل هذا التغيّر في المنظور لا يرتبط ارتباطاً كبيراً بقرار سيكولوجي ، بل يرتبط تماماً بتطور في صيغ الانتاج وتبنينها الجديد . وأتاح هذا التغيّر مع ذلك لعلم النفس ، ولعلم النفس الفيزيولوجي وعلم النفس الاجتماعي بصورة أكثر دقة ، عدداً كبيراً من التطورات . ولن نتكلم هنا على دور الاصطفاء المسبق لاحتلال مركز من مراكز العمل ، بل على ترتيب هذا العمل ترتيباً يتيح أفضل تكيّف مع الآلة يحقّقه الإنسان .

٢ ـ الهندسة البشرية

يمارس الانسان ممارسة متناقضة فاعلية ذات ارتباط مباشر بالأشياء . وعلاقة الإنسان بالعالم تجري بتوسّط العلامات أو الرموز التي تتيح له أن يؤثر في الواقع . ولا يفلت العامل من هذا التطور . فالآلة هي التي تبدّل الواقع ، ويكتفي الانسان بقراءة الإشارات التي تعبّر عن العمل المنجز : « يساهم العامل في سيرورة عامة تتوسط فيها بين الانسان والآلة ، توسطاً متزايداً ، قوى وعالم من

---

(١٠) إور ، ذكر ذلك ماركس في المصدر السابق ، الفصل الخامس ، ص ٣٠٩ .
(١١) ماركس ، في «الأسس» .

الإشارات معرفي وشبه لغوي »[١٢] . ونكتشف ما قلناه عن خاصة الآلات الحديثة ، أي جانبها الإعلامي الذي يجبر الموجود الانساني على أن يصبح قارئاً للعلامات ، أي ضرباً من عالم في علم العلامات . فيصبح إذن أمراً هاماً إنشاء علم يكون قادراً على أن يدرس السير الوظائفي لهذه العلامات ، ومكوّناتها ، وإدراك الفرد إياها . وعلى ذلك تعكف الهندسة البشرية جزئياً . فدراستها تنصبّ بالفعل على التواصل بين الانسان والآلة ، وعلى التواصل في منظومات[١٣] الناس ـ الآلات بصورة أكثر دقة . وذلك أمر لا ينطوي على وصف الإدراكات ووصف الارتكاسات على هذه الإدراكات فحسب ، بل ينطوي أيضاً على وصف المجموعات التي تحتلّ فيها هذه العلامات مكاناً . وتُعنى الهندسة البشرية بوصف العلامات الصورية التي تقيمها عناصر منظومة الناس ـ الآلات . وهكذا تميّز الهندسة البشرية في دراستها ثلاثة أبعاد موضوعها معالجة الاعلام : الاعلام ـ العلامة ، والإعلام ـ الاستجابة ، وضرباً من الإعلام الذي لا يتكلّم ، بوصفه لم يعد يُعنى بمشغّل الآلة ، إلا بمصطلحي مدخل ومخرج (وتلك هي حالة المشروعات ذات الآلية الذاتية الحركة على وجه التقريب ، التي لم يعد فيها الإعلام يتوجّه صوب مشغّل الآلة أو يتوجّه بفعله ، إذ يتزايد استبعاد الانسان منها) .

ويوسعنا على هذا النحو أن نرسم تخطيطية للتطور في معالجة الإعلام[١٤] .

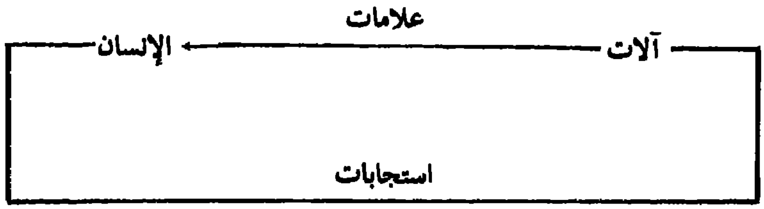
---

(١٢) باجه ، في «المطول في علم اجتماع العمل » ، لفريدمان ونافيل ، الجزء الأول ، ص ١١١ .

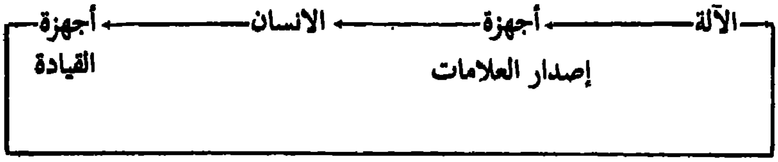
(١٣) « المنظومة مجموعة مرتبة تؤمن اكتساب المعلومات ونقلها وتذكرهاومعالجتها على نحو متكامل ، بفضل وسائل مادية وتقنيات ذات استخدام مناسب» . ذكر ذلك مونمولان ، ص ٢ .

(١٤) مونمولان ، ص ١٣٩ ، «منظومة الإنسان ـ الآلة» .

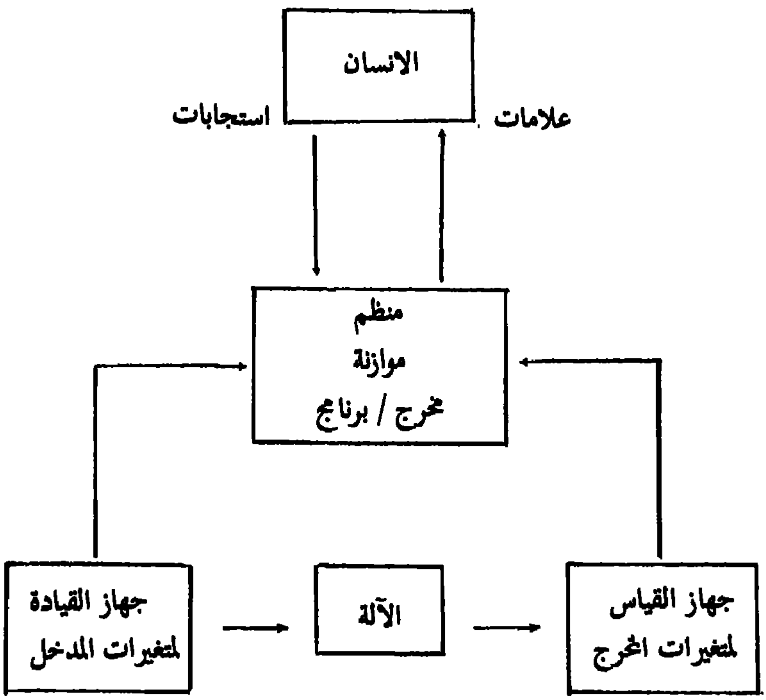
١ ــ الإدراك والاستجابات المباشرة (المرحلة الحرفية)



٢ ــ الإدراك والاستجابات المباشرة(المرحلة ذات الآلية الذاتية الحركة على وجه التقريب)



٣ ــ المرحلة ذات الآلية الذاتية الحركة تماماً



إن دراسة إدراك العلامات ينقسم إلى كشف وتمييز وتفسير . والمتغيّرات موضوع التحليل ، فيما يخص الكشف ، هي طبيعة الصوت (البصري - السمعي) ، وشدة العلامة ، وكثافة العلامات ، وتغيّر كثافة العلامات ، ومدة الفاصلة الزمنية بين العلامات ، وعدد فئات العلامات ، ودور العلامات الحيادية (أي العلامات التي لا تقتضي أي استجابة) ، وبنية المنطقة التي تظهر فيها العلامات ، والإيقاع الحر أو المفروض ، وتنسيق الإيقاعات ، وفترات التوقّف لدى مشغّل الآلة (توزّعها وتواترها) ، ومدة المهمة (إطالة مدة المهمة تؤدي دائماً إلى هبوط الإنجاز) ، وتعليمات العمل ، والمعرفة المباشرة للنتائج (إنجاز مشغّل الآلة يتحسّن بصورة بارزة إذا تمّ إعلامه على وجه السرعة بالأخطاء التي يرتكبها) ، ودافعيات العامل على مهمة الرقابة ، وعوامل البيئة ، كوسط النور ، والصوت ، والاهتزازات ، والوسط الحراري ، والنوم ، والمثيرات الكيميائية ، وجماعة العمل ، وأخيراً العوامل الفردية المتغيّرة إلى الحد الأقصى . ونحن نحيل القارىء ، من أجل مثل هذا التحليل ، إلى كتاب فافرج ولوبلا : « تكيّف الآلة مع الانسان » .

ونلاحظ أن الهندسة البشرية تفكّك الوضع إلى عناصر متمايزة وتحلّلها بالتتابع . وهي تعمل على النحو نفسه في الكشف عن العلامات والتفريق بينها ، إذ تميّز على سبيل المثال أفضل مجموعات الرموز أو أفضل الخصائص في الكتابة ، الخ . وتطبيقها على المنظومات ذات الآلية الذاتية الحركة ينهج على النحو نفسه .

« واللغة منظومة من العلاقات تعبّر عن الأفكار ، وهي بذلك شبيهة بالكتابة ، وأبجدية الصم والبكم ، والطقوس الرمزية ، وأصول اللياقة ، والإشارات العسكرية ، الخ . إنها فقط المنظومة الأكثر أهمية في هذه المنظومات . وبوسعنا إذن تصور علم يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية . وقد يكوّن هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعي ، وبالتالي من علم النفس

العام . ونسمي هذا العلم « علم العلامات » (*) (١٥) . والمرء يمكنه أن يقول تماماً إن الهندسة البشرية علم من العلوم يقدم على احتلال المكان الذي كان فردناند دو سوسّور قد عيّنه له . ويُعنى هذا العلم في الواقع بالعلامات المستخدمة في الوسط الصناعي . وقد رأينا أن ذلك كان يناظر التطور في نموذج الآلات التي يتعاظم كونها آلية على وجه التقريب . وتبدّل فيها وضع العامل تبدّلاً جذرياً . فهذا العامل يتناقص دوره في مجتمعاتنا الغربية ، بوصفه القوة المحرّكة التي تطلق حركة الآلة . ويعالج بيده كذلك معالجة متناقصة أدوات عمله . ويمثّل ذلك ، بالنسبة له ، تحرّراً لا يكتنفه الشك ، ولم يعد الإنهاك يصيبه في جسمه بصورة أكثر مباشرة . ولكنه يستجيب منذ الآن إلى علامات . والحال أن العلامة تتطلّب وتقتضي من جانب العامل استجابة انعكاسية لوضع من الأوضاع ، أو استجابة أولية على الأقل . وتمثّل العلامة مستوى من السلوك نشترك فيه مع الحيوان ، فليس هذا السلوك ارتكاساً إنسانياً على نحو نوعي والمرء يمكنه إذن أن يتكلم على ضرب من الضياع الذي يسبّب البلاهة للفكر الإنساني . فالعلاقة تتطلّب ارتكاساً عفوياً ومباشراً يستبعد كل إمكان للاختيار . ويوسع المرء أن يعتقد بأن الآلة ستفلح في دمج هذا الدور ، دور قراءة العدّادات والعلامات ، ولكن بالتأكيد لن يكون كلياً على الإطلاق .

وهذا الإلزام ، بالنسبة للعامل ، في أن يستجيب لبعض العلامات (المختارة بصورة خاصة) حتى تكون مدركة كما رأينا ، يجعلنا نفكر بالبيئة المعاصرة ، حيث الإعلان ، والدعاية ، يحاولان جعلنا نشغّل مجرد علامات ونستجيب لها ، إذ ينفيان بذلك إمكان الاختيار ، والتقرير ، والمداولة ، لدى الموجود الإنساني . وينتهي الإنسان المعاصر ، بفعل تقدّمه الخاص ، إلى أن يبني كوناً يشبه خلية تخضع لعلامات أكثر مما يشبه عالماً إنسانياً بصورة حقيقية .

---

(١٥) فردناند دو سوسور ، «محاضرات في علم اللغة العام» ، ص ٣٣ .

(*)«Sémiolgie» كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية «semeion» أي «علامة» .

(١٦) انظر فصل «الدعاية والإعلان» في هذا الكتاب .

الفصل الثاني

المنظورات الجَديدة

في تقسيم العَمَل

الإلحاح المتزايد منصبّ على تحسين شروط العمل في القطاع الصناعي منذ الستينات من هذا القرن . ومن المؤكد أن العمال ومنظّماتهم يطالبون ، ومنذ وقت طويل ، بشروط للفاعلية أكثر إنسانية ، وبيئة أكثر اتصافاً بأنها مُرضية (ضجة ، حرارة ، الخ) ، وإيقاعات في التنفيذ أقل تسبّباً للألم . ولكن هذه المطالب ، المستمرة على الغالب ، كانت ثانوية على وجه العموم بالقياس إلى مقتضيات الأجور .

يضاف إلى هذا أن ثمة بحوثاً وتجارب ، كتلك التي قام بها إلتون ميو[1] ، بيّنت أن إنتاجية العمال تابعة لشروط الوسط المادية والسيكولوجية الذي يمارسون فيه فاعليتهم . وتجسّدت هذه البحوث في سياسة للعلاقات الانسانية تنزع ، دون أن تحلّ محل التنظيم التيلوري للعمل بصورة واقعية ، إلى أن تتنضّد على هذا التنظيم على نحو تخفّف بعض مفعولاته .

ومع ذلك ، فان ضرباً من الاستراتيجية الحقيقية لم تنزع إلى أن تفرض نفسها طباقاً للتنظيم التقليدي إلا على نحو حديث . ولا تطمح هذه الاستراتيجية ، التي تقوم على بحوث أنغلوساكسونية كبحوث هرزبرغ ، إلى إلغاء المفعولات ، بل إلى تشجيع نمط آخر من التنظيم يتصف معاً بأنه « ناجع بالنسبة

(١) «تاريخ سيكولوجيا العمل وطريقتها» . ص ١٨٥ .

إلى أهداف المشروع » (٢) (المحافظة على إنتاجية رأس المال ومردوده أو زيادتها) وقادر على « أن يستجيب ، إلى الحدّ الأقصى ، لتطلّعات الناس » (٢) .

ويقابل هذا المقتضى المزدوج طريقة في الإدارة ، من جهة ، الإدارة المشاركة بالأهداف ، وإعداد مجموعة من التقنيات التنظيمية التي ترمي إلى أن تتبين المهمات تبنينا جديدا ، من جهة أخرى .

ومهما كانت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (٣) التي تساهم في تطبيق هذه الطرائق الجديدة في الإدارة والتنظيم ، فان الأساس النظري مقاربة جديدة : الدافعية(٤) .

أولاً - العمل والدافعية

يجيب المشروع التقليدي عن السؤال التالي : كيف نحفز المستخدمين ؟ نحفز بتحسين مستوى الدخول ، وسلوك التراتب ، وشروط العمل المادية ، والعلاقات بين الأشخاص أحياناً ، وسياسة المشروع وتنظيمه في أفضل الأحوال .

وقضية فردريك هرزبرغ (٥) تكمن في أن مجموع هذه المعطيات غير معنيّة إلا بعوامل الجو المحيط التي ينتج عنها استياء بالتأكيد إذا لم تكن مرضية ، ولكنها ليست ذات خاصة إيجابية دائمة ، من حيث أن الرضى يُعتبر ، في هذا المستوى ، الحد الأدنى الواجب الأداء للعمال .

ولا بد ، في رأي هرزبرغ ، من التأثير في عوامل يسميها العوامل التي تضفي القيمة ، لحفز المستخدمين بصورة إيجابية ، أي على نحو دائم :

---

(٢) ديفري : «تحسين شروط العمل» ، ١٩٧٦ .
(٣) (٤) انظر فصل «الموقف والدافعية» في هذا الكتاب .
(٥) هرزبرغ ، «العمل وطبيعة الإنسان» ، ١٩٧١ .

- تحقيق الذات بالعمل أو من خلاله ، وواقع النجاح في ذلك ؛
- اعتراف الآخرين بما يصنع المرء وبما يتصف به ؛
- الاهتمام بالعمل ذاته ؛
- المسؤولية ؛
- الارتقاء وإمكان التطور والنماء (٦) .

وما ينبغي لنا أن نأخذه بالحسبان أن هذه العوامل التي تضفي القيمة معنيّة بالشخص كله في علاقته بالعمل ذاته .

ويفهم المرء بيسر علاقات هذه المقاربة بموضوع إغناء المهمات ، لأن هذا الموضوع يلحّ بصورة أخص على مضمون العمل وعلى علاقات الانسان بالعمل .
ولكن الإدارة بالأهداف تستوحي أيضاً ، بوصفها طريقة في التسيير أو طرازاً من الإدارة ، من رؤية مماثلة ، ما دامت تفترض أن إنسان أيامنا هذه يبحث عن إرضاء حاجات النمو لديه على وجه الخصوص .

ثانياً - الادارة التي تشارك بالأهداف

تستند الإدارة بواسطة الأهداف ، بوصفها تولي المقاربة الجديدة في الدافعيات على مستوى العمل أهمية ، إلى فكرة مفادها أن بوسع الأجراء أن يتبنّوا أهداف المشروع بوصفه وسيلة لبلوغ أهدافهم .

وتأخذ الإدارة بواسطة الأهداف بالحسبان ، شريطة أن تكون « عوامل الجو المحيط » ، بالمعنى الذي أعطاه هرزبرغ ، مرضية ، أن الأفراد يرغبون في العمل ، وأن رغبتهم الخاصة في التفتّح هي حافزهم ، وأنه سيكون ثمة توافق بين أهداف المشروع وأهداف الأجراء الشخصية إذا كان هؤلاء قد اشتركوا في سيرورة

---

(٦) ديفري ، تحسين شروط العمل ، ١٩٧٦ .

(*) الإدارة المشاركة بالأهداف أو الإدارة بالأهداف أو بواسطة الأهداف نمط من الإدارةيلجأ إلى مشاركة المستخدمين في المشروع بواسطة الأهداف «م» .

تحديد الأهداف . فالاستقلال (بوصفه عاملاً من عوامل الدافعية) وتعيين الأهداف بدقة على كل مستويات المشروع ، ذلكم هما المحوران الأساسيان للإدارة بالأهداف (طراز من الإدارة ناجع وحفّاز) [7] .

ومن المتعذر أن نصف هنا الصور المشخصة لإدخال الإدارة بواسطة الأهداف ولسيرها الوظائفي ، ذات الأنماط التي تتنوّع مع ذلك تبعاً لوضع المشروع . ويمكننا أن نحاول مع ذلك أن نقدّم فكرة عن ما يعنيه إدخال الادارة بالأهداف في مشروع من المشروعات .

ـ علينا أن نأخذ بالحسبان عنصر المنفعة على أنه أمر حاسم ، من جراء كون الادارة المشاركة بالأهداف طريقة من طرائق التسيير . ويعبّر باتن [8] عن ذلك تعبيراً رائعاً : « المنفعة هي اسم الرهان » ، فالأدوات والتقنيات تخضع لها . ولكن المنفعة بالمعنى الاقتصادي للمصطلح تابعة للمنفعة بالمعنى الاجتماعي أو السياسي أو الروحي . وهذا هو السببالذي من أجله تفترض الإدارة المشاركة بالأهداف فلسفة واضحة للتسيير ولتواصله المفصّل مع كل مستخدم .

ـ ثم إن هذه الطريقة ، وهذا هو ما يعطي للادارة المشاركة بالاهداف اسمها ، تقتضي تطور الأهداف ووصفها . فلكل مشروع ، ضمنياً على الأقل ، أهداف ، ولكن الإدارة المشاركة بالأهداف تلحّ على سيرورة المشاركة التي تحقّق هذه الأهداف : إن على كل شخص أن يعرف بدقة ، في مستواه ، أهداف فاعليته والمعايير التي ينبغي له بلوغها . وكل شخص مسؤول عن الحصول على نتائج مع الأخذ بالحسبان مشاركته في تعيين الأهداف .

ـ ثمة ضرب من التخطيط المزدوج الذي لا غنى عنه .

١ ـ تخطيط التنظيم : تحليل الوظائف ، وتحديد الوظائف أو إعادة تحديدها بحسب المشاركة في أهداف المشروع ، وخطة إجمالية لتنظيم الادارة .

٢ ـ تخطيط الإنجازات والنتائج .

---

(٧) جالينيه : الإدارة المشاركة بالأهداف ـ الناس والتقنيات ، العدد ٢٨١ ، ١٩٦٨ .

(٨) «الإدارة بالأهداف ودافعية الناس» ، دالوز .

ـ ينبغي للتواصلات في المشروع أن تتجّه بصورة مستمرة نحو أهداف المشروع المباشرة والنهائية .

ـ وأخيراً ، على نظام من الرقابة وتقييم الأهداف مجدّداً أن يضمن الحصول على النتائج المثلى .

هذا العدد من النقاط لا يكوّن بالتأكيد إعلاماً عن الإدارة بواسطة الأهداف . وربما تكفي مع ذلك لإبراز قصدها الدينامي ومحاولتها في التنسيق بين نمو المشروع والنمو الإنساني .

ثالثاً ـ التقنيات الجديدة في تنظيم العمل

هذه التقنيات الجديدة ربما كانت مبنيّة على تحليل دافعيات الفرد في الوسط المهني أكثر من الإدارة المشاركة بالأهداف .

ويوسعنا أن نجمع هذه التقنيات تحت مصطلح التبنين الجديد للمهمات . ويضم هذا التبنين الجديد ، من الناحية المشخّصة ، أربعة مستويات (٩) :

- تعاقب مراكز العمل ؛
- توسيع المهمات ؛
- إغناء المهمات ؛
- الجماعات شبه المستقلة .

١ ـ تعاقب مراكز العمل

قوام التعاقب في مراكز العمل تبديل العمال في مختلف المراكز . والغرض من ذلك التقليل من رتابة العمل أو عدم ترك الأشخاص أنفسهم في المراكز غير المرغوبة كثيراً .

---

(٩) مجموعة التعريفات التي تلي مقتبسة من : جانْ روفيه «تنظيم العمل وصوره الجديدة» ـ التوثيق الفرنسي ، ١٩٧٦ ، أو «الاقتصاد والاتجاه الإنساني» ، رقم ٢٢٧ ، كانون الثاني ـ شباط ١٩٧٦ .

وعندما تكون المراكز ذات طبيعة واحدة ، فان تعاقب المراكز لا ينطوي إلا على ضرب من التساوي في أنواع التأهيل . وإذا كانت المراكز ذات طبيعة مختلفة ، كان من الضروري ضرب من التكوين لكي يُتاح التعدّد في الكفاءات لدى العمال .

٢ ـ توسيع المهمات

قوام هذه التقنية تجميع عمليات التنفيذ الموزّعة حتى الآن على عدة مراكز . وهكذا ينجز العمال مجموعات كاملة أو مجموعات فرعية كاملة . ويرمي هذا التجميع إلى إعادة الاهتمام بالعمل إذ يتمفصل على نتاج أكمل ، إذن أكثر اتصافاً بالدلالة ، وتتنوّع العمليات .

٣ ـ إغناء المهمات

إنها صورة من توسيع المهمات تكمن في إضافة مهمات أكثر نبلاً إلى عمليات التنفيذ ، كالصيانة والرقابة . ويرى بعضهم على هذا النحو أن تُعطى لمشغّل الآلة رقابة معيّنة على آلته ونتاجه . ومن الضروري أن نلاحظ أن هذه التقنية تنال من التقسيم المألوف للعمل (التقسيم التيلوري) بحسب الوظائف المختلفة .

٤ ـ الجماعات شبه المستقلة

المقصود صورة جماعية من إغناء المهمات . فثمة جماعة شبه مستقلة عندما تنظّم العمل الذي حُدّد لها مجموعة من العمال لا يرأسها مسؤول تراتبي ، وتوزّعه بين أعضائها توزيعاً حراً .

ـ ونظراً إلى أن الجماعة مسؤولة عن إنتاجها بصورة إجمالية ، فان مبدأ الجزاء الفردي هو الموضوع موضع الاتهام ، وبالتالي الصلة بالتراتب .

ـ تنفّذ الجماعة شبه المستقلة ، بصورة عامة ، مهمات تابعة في العادة لفئات مهنية خاصة ، كإعداد المنتوجات للبيع أو التصدير على سبيل المثال ، وتوزيع العمليات بين العمال ، واختيار الأساليب ، ورقابة المنتوجات ، وصيانة الآلات وإصلاحها ، وفي بعض الأحيان إدارة ميزانية وإدارة المستخدمين الذين يؤلفون الجماعة (المواقيت والعطل ، الخ . . .) . فبنية السلطة في المشروع ، على هذا

النحو ، هي التي تبدّلت بالتأكيد ، لأن العمال ينتقلون من الخضوع للتراتب إلى الزام في الإنتاج تعانيه الجماعة مباشرة .

إن ما سبق ذكره معنيٌ بالتقنيات ، ونحن نعلم الأهمية في مجال تنظيم العمل ، وإجراءات إدخال التقنيات . والجماعة شبه المستقلة ، بوصفها وسيلة الإدارة في التحاور مع القاعدة دون المرور في قناة النقابة ، ليس لها على الإطلاق ذلك المدلول الذي لتحسين تفرضه النقابة أو تفاوض عليه ، ولو أن هذا التحسين ينفذ إلى صورة شبيهة بصورة الجماعة شبه المستقلة .

ويبدو إذن من الضروري لا أن نحلّل ، تحليلاً سريعاً على الأقل ، الأسس النفسية الاجتماعية لهذه التعديلات في شروط العمل فحسب ، ولكن أن نحلّل أيضاً الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي الذي تبرز فيه هذه المحاولات الجديدة في مجال تنظيم العمل .

رابعاً - نهاية التيلورية ومؤسسة التنظيم العلمي للعمل

إن تقنيات كالجماعات شبه المستقلة أو إغناء المهمات ، تضع موضع الاتهام تماماً مبادىء التنظيم التيلوري للعمل ذاتها . والواقع أن هذا التعديل في الصلات بالسلطة داخل المشروع يتناقض تناقضاً تاماً مع توزيع الأعمال إلى أعمال تصورية وأعمال تنفيذية ، ومع رقابة إيقاعات التنفيذ ، ومع تفكيك المهمات (العمل المفتّت) ، ومع الجهد المتّجه نحو تجريد العامل من كل معرفة خاصة دعماً لسلطة التراتب . وهذه الأمور الأربعة تؤلّف عناصر التنظيم التيلوري الأساسية . وعلينا مع ذلك أن نضيف أن الإلحاح على الدافعيات التي تضفي القيمة يقلّص أثر الضابط الرئيس في التيلورية ، أي سياسة الأجور .

وإذا كان يبدو إذن أن بعض الاتجاهات الجديدة في تنظيم العمل تتجاوز التيلورية تماماً ، فان أثر هذه الأنماط الجديدة ومستقبلها يظلاّن واجبي التقييم .

كم عامل كانوا معنيّين بالتنظيم الجديد للعمل ؟ إن جان روفيه يقدّر ، بالنسبة لعام ١٩٧٥ ، أن فئة من عشرة آلاف إلى ثلاثين ألف عامل كان قد مسّهم

هذا التنظيم الجديد . والحال ، في الوقت نفسه ، أن الحرمان من التأهيل في العمل سيرورة تستمر في النمو . وثمة قطاعات كانت قد أفلتت حتى ذلك الحين من تجزيء المهمات ، ومن العمل المتسلسل والمكننة ، هي في سبيلها إلى تنمية إمكانات تيلورية (أبنية وتجهيزات) . ومؤسسة التنظيم العلمي للعمل ، بمظاهرها في التقسيم التقني للعمل ، ومكاتب الطرائق لديها التي تحلّل تفصيل سيرورات الإنتاج (الأنماط الإجرائية والزمن المخصّص) ، مطمئنة بالحري ، ولا سيما أن النتائج لم تكن سيئة على مستوى التنظيم والانتاجية خلال ثلاثة أرباع القرن .

وكان التنظيم التقليدي ، على وجه الخصوص ، قد عزّز سلطة رؤساء المشروع والتراتب ، إذ رفع عن المنتج عبء التصور وتنظيم العمل ، ووضع حدوداً لإمكان التواصل والتأثير الجماعي في مكان العمل ، إذ شدّ العامل إلى الآلة وأخضعه إلى إيقاعها .

ويفهم المرء أن كثيراً من إدارات المشروعات تتردّد في أن تنطلق في أنماط من التنظيم تحرم التراتب من مصادر سلطانه الأكثر نجوعاً : الكفاءات التقنية والرقابة الفردية ، وعلى الرغم من هذه العوائق ، يتابع التغيير سيره .

وكل شيء يحدث كما لو أنه كان لابد ، أول الأمر ، من استنفاد إمكانات التيلورية : فتفكيك المهمات وقياس أوقات الإنتاج ، في بعض القطاعات ، هما على حال يتصف فيها الكسب الإضافي في الانتاجية بأنه أمر من أكثر الأمور عشوائية . فلا بدّ إذن من أن تتوجّه الزيادة في الإنتاجية ، وفي مردودية رأس المال ، نحو طرائق أخرى .

يضاف إلى هذا أن إدخال التألية (*) عزّز الاستقلال الداخلي لمختلف القطاعات في مشروع من المشروعات ، وهو يلحّ على أن تُدمج هيئة المستخدمين دمجاً أفضل لتجنّب الشلل . ومن المعلوم ، في هذا الصدد ، أن السياسات

(*) التألية هي استخدام الآلات الحديثة ، كالناظمة الآلية على سبيل المثال ، التي يعهد إليها بمهمات كثيرة في البرمجة والمراقبة ، إلخ ، كان يقوم بها الإنسان من قبل (م) .

التقليدية أفلست بالحري (نزعة الغياب وتعاقب هيئة المستخدمين والنزاعات الاجتماعية ، الخ) ، وليس من قبيل المصادفة إذا لاحظ المرء ، في القطاعات التي تستخدم جمهوراً كبيراً من العمال المتخصّصين ، سيلاً كثيفاً من العمال الغرباء الذين لن تكون صلة القوى ، بالنسبة لهم ، ملائمة .

ولا ريب في أن التقاء هذه العوامل التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة هو السبب في المحاولات الجديدة . وعلينا بالتأكيد أن نضيف الى ذلك الجاهزية لدى بعضٍ من رؤساء المشروعات أو المسؤولين .

والخلاصة ، لا يمكننا أن نضرب صفحاً عن موقف المنظمات النقابية في مجال التبنين الجديد للمهمات .

ومن خلال التنديد المستمر لاتحاد العام للعمال والاتحاد الفرنسي الديموقراطي للعمال بمؤسسة التنظيم العلمي للعمل ، وبتكاليفها البشرية والاجتماعية ، وتنديدهما أيضاً بالاستغلال الذي تعقلنه ، لم يبدوا معادين قبلياً للمحاولات الجديدة في التنظيم . واذا كانت المنظمتان لم توقّعا الاتفاق الذي اقترحه الاتحاد الوطني المهني الفرنسي ، خلال المفاوضات مع هذا الأخير ، فإنهما قد صرحتا مع ذلك بأنهما موافقتان على التبنين الجديد للأعمال ، مع عدد معيّن من الضمانات الخاصة بعبء العمل ، والتكوين المهني ، والتصنيفات ، والأجور ، والمزايا المكتسبة ، والأمن .

وقد رفض الاتحاد الوطني المهني الفرنسي أن يلتزم بأي التزام صريح حول مختلف هذه الأمور .

يضاف إلى هذا أن الاتحاد العام للعمال والاتحاد الفرنسي الديموقراطي للعمال يحذّران العمال من استخدام هذه الأنماط من التنظيم لغايات معادية للنقابات (حوار الإدارة المباشر مع القاعدة) أو ، بصورة أعم ، بغية ممارسة التعاون مع الطبقات .

ويحرص هذان الاتحادان النقابيان على التأكيد ، مع بعض الاختلافات البسيطة ، أن كل تنظيم للعمل ، في إطار النظام الرأسمالي ، ليس أبداً سوى ترتيب لنمطٍ في استغلال العمال ، وأن من المناسب تحليله بمصطلحات

استراتيجية . ويتكلم الاتحاد العام للعمل على « ارتداد الأسلحة ، التي يحاول أرباب العمل استخدامها ، ضد أرباب العمل هؤلاء [11] » . ويلحّ الاتحاد الفرنسي الديموقراطي للعمال على أن ما يرمي إلى أن يقيمه أرباب العمل ، في ظل مصطلح « الجماعات شبه المستقلة » ، هو جماعات شبه مراقبة [12] ، وأن إنشاء هذه البنية ليس سوى التعبير عن صورة خاصة من صور الخصومة بين العمال والنظام الاقتصادي . وليست الصراعات المختلفة حول هذه الأمور إذن سوى فرصة للعمل النقابي .

---

(١١) الشعب ، رقم العدد ٩٢٣ ، آب ١٩٧٣ ، مقال موانوا ، أمين سر الاتحاد العام للعمال .

(١٢) الاقتصاد والاتجاه الإنساني ، كانون الثاني / شباط ١٩٧٦ ، رقم ٢٢٧ ، مقال هوغ بلاسل : «الاتحاد الفرنسي الديمقراطي للعمال والجماعات شبه المستقلة» .

الباب الثامن

دراسة التصرفات الاجتماعية
وإثارتها

الفصل الأول : الدعاية والاعلان

الفصل الثاني : المواقف والدافعية

الفصل الثالث : تقنيات في علم النفس الاجتماعي

الفصل الأول

الدعاية والاعلان

١ - ... إنهم لا يعلمون أننا نحمل اليهم الطاعون

ربما قال فرويد ليونغ أمام تمثال الحرية ، عندما وصلا الى الولايات المتحدة الأمريكية ، « إنهم لا يعلمون أننا نحمل إليهم الطاعون » . وبوسع المرء أن يتساءل : هل كان مؤسس التحليل النفسي يستخدم الصيغة نفسها دائماً لو انه كان بإمكانه أن يلاحظ ما صنع الأمريكيون بطاعونه ؟ ولكن بوسع المرء أن يلاحظ أن هذا الفيروس من نوع عدّاء جداً ، إذ احتاز مجالات لم يسلكها فرويد . والأمريكيون لم يستقبلوا التحليل النفسي على أنه فيروس، بل على أنه ، بالحري ، وسيلة تقنية في خدمة السير الوظائفي الجيد لمجتمعهم . فكانوا الأوائل ، على هذا النحو ، الذين درسوا دراسة علمية ، وعلى نطاق واسع ، تلك التطبيقات العلمية التي كان بوسعهم أن يستخلصوها من مكتشفات فرويد حول اللاشعور ، والشخصية ، ودرسوا وسيلة التأثير عليهما . وكان المجال الذي سيقدّم أكثر الامكانات لحسّهم العملي هو مجال الدعاية والاعلان . والحق يُقال إن الدعاية والاعلان كانا موجودين سابقاً على نطاق واسع قبل هذا التطبيق للتحليل النفسي (عاش فرويد تماماً مأساة النازية ودعاية غوبلز) ، ولكن بوسع المرء أن يقول إن انتقال هذه التقنية من الاختبارية الماهرة الى علم يزداد نجوعاً لم يكن إلا بفضل التحليل النفسي . ومعرفة آليات اللاشعور ، كما اكتشفها فرويد منذ عام ١٩٠٠ في كتابه « تفسير الأحلام » ، سيستخدمها وكلاء الإعلان بنجوع متزايد . وتظلّ الدعاية متخلّفة بعض التخلّف بالقياس إلى الإعلان عندما تكون دعاية على نحو صرف ، ومن النادر أن تكون هذه هي الحالة . وتتحوّل الدعاية ، في الأغلب ،

إلى مشروع من الإعلان يكمن « في بيع عضو في البرلمان أو رئيس » . ولكن ماذا كان مفعول الدعاية الأمريكية على شعب فيتنام الشمالية ، حيث الخاصة المأساوية للوضع الواقعي لم يكن بإمكانها أن تفلح في تحويل الأعداء إلى أصدقاء ؟

٢ ـ حلم مستثار

لم يتردّد بعض الأساتذة في الجامعة الأمريكية في أن يحاولوا تطبيق معرفتهم في التحليل النفسي على مجالات غير مجالات العلاج . فاذا توصلنا الى أن نعدّل سلوك الفرد خلال أزمة من الأزمات ، فلماذا لا نحاول تجربة شبيهة في مجالات مختلفة وعلى نطاق أكبر اتساعاً بكثير ؟ ولماذا لا يمكن أن يتصف ببعض النفع ، بالنسبة إلى الجماعات ، ما ينجح بالنسبة لفرد من الأفراد ، ولماذا لا يمكنه أن يكون ذا نفع بالنسبة للجماعات ؟ إن فرويد رسم المسيرة التي يجب اتباعها برمتها . فلكي نعدّل سلوكاً خارجياً ، علينا أن ندرك ما يحدّد هذا السلوك بصورة حقيقية ، وعلينا أن نمضي إلى أبعد ما يبديه هذا السلوك للوهلة الأولى . وعلينا أن نبرز اللاشعور الذي يشرح موقفاً شعورياً . ويتطلّب هذا البحث إذن أن نعرف لغة اللاشعور وقوانينه الخاصة ، ولكنه يتطلّب أيضاً محاولة مفادها أن ندرك الكيفية التي يمضي المرء بحسبها من الشعور إلى اللاشعور . وبعبارة أخرى ، لا بد لنا من المضيّ ، على النحو الذي مضى به فرويد ، من المحتوى الشعوري (المحتوى الظاهر) الى المحتوى اللاشعوري (المحتوى الكامن) بواسطة عمل من أعمال التفسير . ولكن علينا ، بصورة عكسية ، أن تكون لدينا القدرة على أن نتابع إعداد فعل سيكولوجي ظاهر ، منطلقين من المحتوى الكامن لنبلغ المحتوى الظاهر . والتحليل اليقظ لهاتين المرحلتين من التفسير والإعداد ينبغي لوكيل الإعلان ووكيل الدعاية أن يقوما به .

والواقع أن المرحلة الأولى من مراحل البحث في الدافعيات تكمن في الانطلاق من الرغبات الشعورية التي يعبّر عنها الشاري ، ومن حوافزه التي يعترف بها ، لنعود إلى الرغبات الأكثر عمقاً والأكثر أساسية . وهذا ما كان فرويد يسميه مرحلة التفسير . ويكمن هذا العمل ، في الحلم ، في الانطلاق من رواية الحلم ، الواضحة جداً في بعض الأحيان ، ولا تتطلّب أي شرح ، لنكشف

مصدر هذا الحلم . والتأكيد الأساسي لفرويد كامن فيما يلي : « الحلم تحقيق رغبة » . ويصرّح وكيل الإعلان بدوره : « الشراء تحقيق رغبة » ، ولكن أي رغبة ؟ رغبة خفيّة ، ومموّهة ، علينا أن نبرزها .

٣ ـ انعدام المعنى في الشراء

بدأ وكلاء الاعلان في أن يكونوا ناجعين حقاً عندما تمكّنوا من أن يتجاوزوا سراب شعور الفعل لدى الشاري . فأدركوا أن سلوك الشاري لم يكن ينطبق على تأكيداته الصريحة . ولم يكن منطق الشراء منطقاً عقلانياً . وكانت الرغبات التي يعترف بها الشاري تحيل الى رغبات أخرى ، غير معترف بها ، ومكبوتة ، كانت تحدّد الزبون بصورة واقعية . ولم يكن الزبون يرغب في ما كان يزعم أنه يرغب فيه ، ومن المؤكد أن شراء السلعة كان يقابل على الغالب إشباعاً مباشراً . ولكن الشراء ، بالإضافة الى هذا الإشباع ، كان يعوّض نقصاً أكثر عمقاً . وكان تحليل هذا النقص يكشف عن مشكلات التماثل مع جماعة يتطلّع إليها هذا الشخص ، ومع صورة كان يرغب في أن يعكسها بدوره ، إلخ . وكان القول الذي يصرّح به الشارون للتجار ، والمستقصين السذّج ، ضرباً من اللغة التي كانت عقلنتها تتمّ بعد فوات الأوان . وتحدث ظاهرة التسويغ نفسها عندما يجعل فرد من الأفراد حلمه ، وهو يقصّه ، واضحاً ومنطقياً على غير علم منه . فمن يبحث عن دافعيات الزبون ، عليه إذن أن ينفذ الى هذه اللغة الشعورية التي تضبط فعل الشراء لكي يكتشف الرغبات اللاشعورية الدفينة ، سواء أكانت شخصية (تبعاً للتاريخ الفردي) أم مرتبطة بسياق سوسيولوجي يريد الفرد أن يتشبّه به أو يتميّز منه (أسرة ، جماعة اجتماعية ، طبقة ، ثقافة ، الخ) . وسنضرب مثالاً مقتبساً من كتاب فانس باكار « الاقناع غير المشروع » .

أجرى أحد أصحاب مصانع المرق استقصاءً لدى زبنه بصدد تغيير نموذج القارورة في أعقاب بعض الشكاوى التي صدرت عنهم . وبما أن الغالبية العظمى برزت لمصلحة التغيير ، وضع المشروع في السوق شكل القارورة الذي كان قد عرضه في فترة السبر . والحال أن ذلك كان إخفاقاً ، إذ رفضت هذا الابتكار غالبية كبيرة جداً من الزبن . ولكن الأكثر دلالة بالنسبة إلينا هو أن بعض الزبن

الذين اختاروا التغيير في فترة السبر ، رفضوا أيضاً هذه الجدّة ! » والإجابات التي حصل عليها القائمون بالاستقصاء من الناس الذين قابلوهم ترمي إلى أن تعطي عن أنفسهم الانطباع بأنهم أفراد أولو حصافة ، وبأنهم أذكياء وعقلانيون[1] . فجميع هذه التناقضات ، وكل الإخفاقات الناجمة عن الاعتقاد دون نقد بالتصريحات الصادرة عن الزبن المحتملين أو الفعليين ، تقود الاختصاصيين في الإعلان إلى الاعتقاد بأن اللاشعور هو الذي يحمل إلينا حقيقة ما هو شعوري . والموازاة مع البحث الفرويدي حول الحلم حقيقة أيضاً : معنى الحلم ، اللاشعور هو الذي يمنحنا إياه . فانعدام المعنى الشعوري هو المعنى اللاشعوري .

٤ ـ نظر المرء إلى رغباته على أنها واقع

الروائز التي أعدّها الاختصاصيون في الإعلان [2] ستكشف لنا أول الأمر ما أشرنا إليه من قبل ، أي انعدام الشعور بشراء يتمّ الإعلان عنه بأنه شعوري : فالمدخّن الذي يدّعي بأنه قادر على التعرّف على « لفافة التبغ » الخاصة به ، التي اختارها من بين أخريات ، عاجز عن أن يفعل ذلك في ٧٥ بالمئة من الحالات . وربة المنزل قادرة على أن تفرّق بين منتوجات صابون الغسيل ، في حين أنه لم يُعرض عليها سوى منتوج واحد في توضيبات مختلفة ! فالخاصية الجوهرية للمنتوج ، في هذه الحالة ، تختفي لمصلحة الخاصية الخارجية دون أي رابطة بالمفعول المطلوب للمنتوج .

فعمّ يبحث الشاري إذن ؟ وما هي الرغبات غير المعترف بها ، التي تتوارى وتتجلّى لناظري الملاحظ المنتبه ؟ إن باكار يحلّل عشرية منها ، ولكن بوسعنا أن نلاحظ أن تعريف الرغبة لديه هو من الاتساع بحيث يضمّ الحاجات ، والأمنيات ، وضروب الاشتهاء ، والرغبات بالمعنى الدقيق : الرغبة في الأمن الانفعالي ، والرغبة في أن يطمئن المرء بأنه جدير ، والرغبة في إرضاء الذات ، والحاجة إلى المودة ، والإحساس بالقوة ، والحنين إلى الزمن الغابر ، والرغبة في

---

(١) فانس باكار : «الإقناع غير المشروع» ، كالمان ليفي .

(٢) انظر فصل «المواقف والدافعيات» في هذا الكتاب .

الخلود ، والرغبة الجنسية التي تنزع الى احتلال المكان الأهم . فالإعلان ، كما نرى ، يتوجّه الى مجال الاشتهاء ومجال الأمنية ، ولكنه يتوجّه بفعل هذا ذاته الى مجال الرغبة الأساسي .

٥ ـ خلق الرغبات

يتجاوز الشراء إشباع الحاجات الأولية ، ويتيح تحقيق الرغبات . إنه لأمر حقيقي أن الإعلان ، في مجتمعاتنا ، يتناقص اهتمامه بالحاجات الأولية التي يُفترض أنها أُشبعت بالنسبة للجميع . بل بوسعنا أن نتساءل : هل يمكننا أن نصنع قائمة دقيقة بحاجات الإنسان الضرورية وبحاجاته الأخرى التي سيكون منظوراً إليها على أنها غير ضرورية ؟ فالاختصاصيون بالإعلان يعملون على اتساع هذه الحاجات الكبير جداً لدى الإنسان . إن ديشتر يهاجم غالبريس الذي يصرح في كتابه « مجتمع الوفرة » : « إذا كان أمراً صائباً أن يضع المرء في غرفة فارغة بعض الأثاث ، فإن من الحمق ، على العكس ، أن يرغب في أن يضيف بعض الأثاث إلى غرفة مليئة به » ، فيقول : « إنه مخطىء ! إنه ينسى أن حاجات الإنسان قابلة للاتساع ومرنة . وإذا كانت الغرفة مليئة بالأثاث ، ألا يمكننا أن نجعلها أوسع ؟ يضاف إلى هذا أن من المرجّح أن هذا الأثاث يتعرّض الى خطر مفاده أن يصبح عتيقاً ، وأن لا يتناسب مع ذوق العصر ومقتضياته ، ولا بدّ من تبديله في هذه الحالة . تلكم هي صورة الواقع : الحاجات تتطوّر ، وتتغيّر بسبب إشباعها ، بسببه ذاته » (٣) .

وهكذا فان الإعلان لا يكتشف الرغبات القديمة ويشبعها فحسب ، بل يخلق ، بضرب من الهروب الى الأمام ، حاجات أخرى خلال الإشباع وبواسطة فعل الإشباع ، فعله ذاته . ويفضي الأمر بنا إلى لون من احتداد الرغبة لدى الإنسان الذي يسقط في انحطاط حقيقي . فالإعلان يعمل بحيث تكون الرغبة بفضله غير مشبعة بصورة كلية أبداً ، أو إنه ، بصورة أكثر دقة ، يعمل بحيث لا يدوم الاشباع ، ليرغب الموجود الإنساني في أن يستهلك مجدّداً . وعليه أن يمزج

---

(٣) ريشتر ، «استراتيجية الرغبة» ، ص ٢٥٢ .

المهارة بالإحباط مزجاً بارعاً حتى لا يفقد حركته . وعليه أن يعرض « الـ » نتاج الجديد على أنه « ثوري » ، عرضاً أفضل دائماً .

٦ ـ ضرب من الإنابة

والواقع أن الدعاية والإعلان لا تزوّدان الانسان إلا بحلول كاذبة في اكتساب اللذة . ولا تنشد الدعاية على وجه الخصوص تحرير الانسان . إنها لا تجعله على وفاق مع دوافعه الخاصة . فهي ، على الأكثر ، تحاول أن تحلّ توترات أثارتها دوافعه الخاصة ذاتها في بعض الأحيان . وعندما يشتري شخص من الأشخاص شيئاً ، فإن هذا الشيء يقدم على أن يسدّ نقصاً ، ويصبح هذا الشيء ، بفعل ذلك ذاته ، ملك الفرد . غير أن الإعلان يعمل على أن يكون الفرد ملك الشيء المشتهى . « فالهدف أن يُتاح للدوافع ، التي كانت السلطات العقلية (المحرّمات والأنا العليا والإثمية) قد جمدّتها في سالف الأيام ، أن تتبلور حول بعض الأشياء التي تكون سلطات مشخّصة ، حيث تقدم القوة الانفجارية للرغبة على الزوال ، وتتجسّد الوظيفة القمعية الطقسية للنظام الاجتماعي تجسيداً مادياً . . . إن حرية التملك ليست هجومية ، ذلك أن هذه الحرية تدخل في اللعبة دون أن تعلم » (٤) . وهكذا فان الإعلان لا يرمي إلى « السعادة الانفجارية » للانسان ، بل يرمي الى حلّ التوترات فقط . فالدوافع أخطر من أن يطلقها الإعلان الذي لا يباشر نجوعه إلا بالاستناد الى نظام اجتماعي وأخلاقي يدّعي الاعلان ذاته أنه يجعله مرناً ، ولكنه يعزّزه في الحقيقة . ومن هنا ، فإن تجربة المستهلك لا يمكنها إلا أن تكون تجربة خادعة ومخيّبة للأمل ، فلا يعلّمونه أن يرغب ، وليست رغبته أبداً هي موضوع البحث ، بل ضروب الاشتهاء : أصناف من الإغراء المتخيّل تسجنه ، في بحث لامتناه عن « شيء » لا يمكنه أن يوجد ، ذلك أنه ليس ثمة شيء يضع حداً لتعاقب الأشياء . فيتعلّم الموجود الإنساني أن تكون له نزوات لا يفهم منشأها وغائيتها .

---

(٤) جون بودريلارد ، «منظومة الأشياء» .

٧ ـ الحياة والموت

ربما كان الناس قادرين بصورة أفضل على أن يفهموا ما بوسعه أن يوحّد بين الإعلان والدعاية وأن يميّز بينهما . فالتمييز بينهما بمجال التطبيق تمييز سطحي : إن الإعلان ينصبّ على فاعليات الشراء لدى الفرد . بل على كلية حياته ؛ ولا تُعنى الدعاية إلا بالمجال السياسي . والحال أن من المعلوم أن الحملات السياسية ، في أيامنا هذه ، ترتبط بمشروع إعلاني وتجاري أكثر مما ترتبط بشروح سياسية بالمعنى الدقيق للكلمة . فالإعلان يمتصّ الدعاية . يضاف إلى هذا أن الكلام على طابع أكثر عدوانية تتصف به الدعاية ، ليس مقياساً مُرضياً . أليس بوسع المرء أن يؤكد ، ربما على سبيل فرضية للبحث ، ان الدعاية تختلف عن الإعلان في أنها تغوص في أعمق أعماق اللاشعور الإنساني ، أي في دوافع الموت ؟ وتقتضي الدعاية من جانب من يقوم بها أو من يتصف بأنه ضحيتها ، في الحد الأقصى ، تضحيات قد تمضي حتى موت الغير ليؤكد نظريته ، بل وقد تمضي حتى موته الخاص . والدعاية النازية ، التي كان غوبلز يقود جوقتها ، تقدّم لنا تماماً مثالاً على الإطلاق الحر لهذه الدوافع ، دوافع الموت . أما الإعلان ، فانه يعمل ، بالعكس ، على مستوى دوافع الحياة التي يحرّضها إلى أقصى درجة ، دون قدرة على إشباعها أبداً ، كما رأينا . ولا يتيح الإعلان إلا انحطاط الرغبة التي تستمدّ مصدرها من هذه الدوافع ، دوافع الحياة والموت . وتملك الدعاية في خلفيتها إمكان معركة مميتة ، إمكاناً قابلاً للتحقّق دائماً . وبعبارة أخرى ، يعمل الإعلان على تبرير أفعال ذات علاقة بدوافع الحياة ، أعني بالدوافع التي ترمي الى المحافظة الذاتية على الفرد مع رجحان دور الجنسية ، في حين أن الدعاية يمكنها ، في وظيفتها النهائية والقصوى ، أن تضع نفسها في خدمة دوافع العدوان والتهديم . وهذا التمييز صحيح فقط عندما تعمل الدعاية بصورة حقيقية وفقاً لنوعيتها ، وليست هي الحالة في أيامنا هذه . فجهاز « الخدمات والطرائق » ، في فرنسا على سبيل المثال ، الذي ينظّم الانتخابات لمصلحة الاتحاد الديموقراطي في الجمهورية الخامسة ، منذ عدة سنين ، وكالة حقيقية للإعلان . « أعدّوا نصكم بعناية ، وارسلوا ، إذا لزم الأمر ، مشروع النص إلى الخدمات والطرائق . وسنعيده

إليكم متلائماً مع هذا النوع من الدعاية . شروط البيع (انظر فهرس الإعلان) (٥) .

كل شيء معروض هنا بمصطلحي الإعلان والتجارة . وتُباع خدمات الجهاز وطرائقه إلى مرشحين لم يعد عليهم إلا أن يتحوّلوا إلى منتوج يمكننا استهلاكه . ولا يلجأ المرشحون الى الدعاية وفقاً لنوعيتها إلا في حالة النزاعات والانتخابات العسيرة . فهم ، في أيامنا هذه ، يقتصرون في أغلب الأحيان على إثارة الخوف ، والتهديد ، والتنبؤ بفقدان النظام ، أي يقتصرون على البيان أن ثمة آخرين يثيرون مجدّداً دوافع التهديم ، وهؤلاء الآخرون ، بالتأكيد ، هم السود واليساريون المتطرفون والشباب ، الخ . إنهم يحرّضون على هذا النحو خطراً موجوداً في دعايتهم بصورة مسبقة : إن الخوف أو ، بالحري ، تنشيط الحَصَر مجدّداً يكفي بعض السياسيين لكي يبقوا في مكانهم . فالدعاية في هذه الحالة لا تنصبّ على الموت ، بل تلحّ على قرب حدوثه . والجوهري أن يفهم المرء أن قوتها الأساسية والنهائية تستند الى هذا الدافع ، دافع الموت (٦) .

٨ ـ انسان بافلوفي

يستند الإعلان والدعاية إذن إلى دوافع الموجود الإنساني الأكثر أساسية ، لا من أجل تحريرها ، بل لاستخدامها وتبديل اتجاهها لغايتها الخاصة . وموضوع البحث سقوط الرغبة في سلسلة دائمة من ضروب الاشتهاء التي لا يمكنها إلا أن تخدع من يحاول إشباعها . فيجعلون الإنسان ضحية دوافعه اللاشعورية الخاصة ، مثله في ذلك مثل امرأة حبلى ضحية ضروب من الاشتهاء المفاجئة التي لا يمكنها أن تشرح منشأها ولا تثبيتها على هذا الشيء أو ذاك . وهكذا فإن الإنسان تروّضه الدعاية والإعلان ، كحيوان المختبر ، على الاستجابة لأوضاع

---

(٥) «الجمهورية الخامسة» ، إضبارة المرشح ، الإنتخابات التشريعية ، آذار ١٩٦٧ ، في «الإقناع السياسي» لمونيكا شارلو ، ص ١٠٣ . وما انفك هذا الإتجاه في التفاقم منذ عام ١٩٧١ : اشتروا شيراك ، صوتوا لأومو ، فليس ثمة أي فرق .

(٦) الثنائية الديغولية ، «أنا أو الفوضى» .

مشروطة يخفون عنه شروطها بالتأكيد . وكما يحدث بالنسبة للحيوان ، من الضروري استخدام « لغة » معيّنة بوسعها أن تؤثّر على الإنسان ، ومن الضروري أيضاً إعداد منظومة من العلامات بحيث يمكنها أن تكون مفهومة بصورة مباشرة ، وأن تثير العمل المرغوب . وخلاصة القول ، من الضروري أن يُنقل إلى النسق الإنساني ما ينجزه المجرّب في مختبره عندما يشرط حيواناً من الحيوانات . فإذا كان ثمة مجال يمكن أن تُنقل إليه شروح بافلوف من الحيوان إلى الإنسان ، فهو مجال الدعاية ، والدعاية الهتلرية على الوجه الأخص (٧) .

وتكمن الدعاية الهتلرية ، في مرحلة أولى ، في إعداد المنعكسات المشروطة . ففي حالة الصليب المعقوف على سبيل المثال ، لا يعني الصليب شيئاً في الأصل . إنه شبيه بالجريس أو الإشارة الضوئية بالنسبة للكلب الذي يبحثون عن إشراطه . وستفعل الدعاية بحيث تعبّر بالرمز عن الإيديولوجيا القومية الاشتراكية ، وعن فكرة انتصار العمل المنتج على وجه أخص ! فالرابطة بين هذه « العلامة » والفكرة التي ينبغي لها أن ترسخ في الذهن رابطة غير موجودة إذن ، وموضوع البحث حقاً ترويض اصطناعي جعلته السهولة الكبرى في الانتاج ، الذي يقدّمه الصليب المعقوف ، يسيراً . « كان كل كلام عنيف ينطقه هتلر أو يكتبه ، وكل تهديد ، يرتبط في فكر سامعيه بهذه الرموز التي كانت قد أصبحت بالتدريج علامات تذكّر بكلماته وتهديداته . وكانت هذه العلامات ، بوصفها موجودة في كل مكان ، تؤثّر بصورة مستمرة وتذكي الميل المؤيد لهتلر ، مجدّداً ودون انقطاع . . . » (٨) . وهكذا يلخّص الصليب المعقوف جميع البراهين العقلانية أو اللاعقلانية ويصلح لها . إنه يتجنّب كل قول منسّق . فالقول إنما هو ما يستغرق الوقت حتى يلفظه الإنسان ، أما الشعار والرمز ، فانهما يحملان دلالتهما بصورة مباشرة . ويؤدي إدراكهما إلى ضرب من السلوك كما هو الأمر لدى الحيوان . ولكن الشعار ينبغي له ، حتى يكون ناجعاً ، أن يتعزّز ويتجدّد من حين إلى

---

(٧) انظر تشاكونين ، «انتهاك حرمة الجماهير بواسطة الدعاية السياسية» .

(٨) تشاكونين ، المصدر نفسه ، ص ٢٦١ .

حين . فلا يستجيب الكلب للجريس وحده إذا لم نقدّم له الحلوى بعده من حين إلى حين . كذلك هتلر ، فينبغي له أن يبينّ فعّالية هذه الرموز ، ومن هنا منشأ غزو النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، اللتين ستتّحدان مجدّداً بالصليب المعقوف ، والسلام الهتلري ، وصورة هتلر ، وبفكرة القوة والنجوع . فلا بد إذن من أن تكون هذه الرموز ، بصورة مستمرة ، موضع التنشيط الجديد ، والحثّ الجديد حتى لا يفقد الفرد زاوية من زوايا مدلولها . والهدف النهائي جعل الفرد يستجيب مباشرة لإدراك رمز من الرموز .

٩ ـ سقوط الانسان

ويوسع المرء مع ذلك أن يتساءل عمّا إذا كان الموضوع موضوع رمز في حالة الصليب المعقوف أو أي شعار آخر . ويمكنه أن يرى ، بالإضافة إلى ذلك ، ضرباً من الانزلاق الذي أوردناه عن تشاكونين . فالرموز تصبح علامات . ونحن نقول ، فيما يخصنا ، إنها تصبح إشارات حقيقية . والإنسان الذي يدركها يلتصق بها ، وليس بوسعه الانفصال عنها ، ولا يمكنه أن يرفضها . إن الطفل (٩) ، في الشهر الثالث من عمره ، يستجيب بالابتسامة لظهورٍ معينّ لوجه موجودٍ إنساني أو تمثال من تماثيل عرض الأزياء . ويكفي أن تتحقّق بعض الشروط ، أي أن يُعرض هذا القناع أو الوجه عرضاً متحرّكاً ومواجهة . إنه يستجيب لشكل معينّ ، لضرب من الصيغة ، أي لإشارة ليس بوسعه أن يرفضها . فهو يلتصق بهذا العرض كلياً . ولن يتعلّم أن يميّز وجه أمه والتعرّف عليه إلا بالتدريج . إنه سينتقل من الإشارة إلى العلامة فالرمز . وكل شيء يحدث كما لو أن الإنسان كان يشهد ، في ظاهرة الإعلان والدعاية ، ضرباً من التراجع . وكل ما كان يكوّن الانتماء إلى النسق الإنساني ، القادر على أن يفهم العلامات والرموز ، ويختارها ، ويرفضها ، ويرتّبها ، أي يكوّنها ، يفوت الفرد . فيعلّمونه أن لا تكون لديه مهارة التعلّم ، ويعلمونه أن يفقد إنسانيته . إنه شبيه بالنحلة التي تذهب إلى مكان الجني ما إن ترى إحدى شبيهاتها تؤدي هذه الرقصة أو تلك . وليس

---

(٩) انظر فصل «النمو الانفعالي لدى الطفل» .

بوسعها إلا أن تقبل هذه المجموعة من الرموز التي ليست مع ذلك لغة . بل الموضوع مجرد نقلٍ لإعلام يحرّض فعلاً من الأفعال بصورة آنية . وهكذا استطاع بعضهم أن يقارن المجتمعات الإنسانية ، الواقعة في شبكة مشدودة من الدعايات ، بالمجتمعات الحيوانية .

وليس موضوع البحث هنا أن نوجّه إلى الإعلان أو الدعاية انتقادات أخلاقية أو انتقادات نستمدّها من علم الواجبات ، بل أن نحاول فهم العلاقات التي تقيمها هاتان التقنيتان ، تقنيتا التلاعب ، مع علم النفس الفردي . وقد رأينا أنهما تؤديان إلى ضرب من الانحطاط المزدوج ، انحطاط الرغبة التي تضيّعانها وتتحايلان عليها وتبدّلان اتجاهها ، وانحطاط الوجود الإنساني في مجموعه . فالإنسان الخاضع للدعاية والإعلان إنسان غير موجود بصورة حقيقية . وليس بوسعه أن يتجاوز ما هو عليه ، ذلك أنه مخدوع على نحو أساسي في هذه الصلة بنفسه . فلا وجود لهذه الحركة من النفي المستمر داخل الموجود الإنساني ، التي تؤلف وجوده(١٠) . ولا وجود لوجود حقيقي ، إنه هو ما هو عليه ، أي أنه لا يكوّن حياته الخاصة ، بل واقع في نظام يهبه مكانه بصورة نهائية . فالإنسان ، بهاتين التقنيتين ، لا يصنع نفسه ، إنه مصنوع .

---

(١٠) انظر فصل «علم النفس ، حضور ووجود» في هذا الكتاب .

الفصل الثاني

المواقف والدافعية

النجوع وعلم النفس

يرتبط النمو الراهن لعلم النفس ، على وجه الخصوص ، بالامكانات العملية التي يضعها تحت تصرف الفعّاليات المتنوّعة ، بالاضافة إلى ارتباطه بجانبه العلاجي . فالإعلان (1) حالة تتمتع بالامتياز ، ولكنه ، على العكس ليس حالة وحيدة . وحتى لو أننا لا نحسب حساب أهميته بالنسبة للتوجيه المدرسي أو المهني ، فقد وجد حقولاً كثيرة للتطبيق . إن تنظيم المشروعات ، والتواصلات ، والتجارة بصورة عامة ، وتنظيم أوقات الفراغ ، بل واختيار برامج التلفزيون ، هي مجالات مفتوحة أمامه من الآن فصاعداً .

هذا التوسّع في حقل التطبيق لعلم النفس يرتبط باكتشاف النجوع في طرائقه . ومع ذلك ، لا ينطوي هذا الالتزام الاجتماعي بالممارسة السيكولوجية إلا على المزايا . والواقع أن على المرء ، إذا كان مبدأ النجوع لا يمكنه أن يكون موضع الشك بوصفه كذلك ، أن يعترف جيداً بأن هذا المبدأ يقود غالباً إلى أن تُهمَل شروط الدقة العلمية . وإذا كان فرويد يؤكد ضرورة التبادل المستمر بين النظرية والممارسة ، فإنه يبدو جيداً أن النظرية كانت موضع التضحية لحساب التطبيق . فالمفهومات المستخدمة ، المقتبسة في الأغلب إما من علم النفس التقليدي وإما من اللغة الرائجة ، مفهومات تقريبية أو لم تكن موضع النقد . يضاف إلى هذا ضرب من غياب النقد فيما يتعلق بمعنى الممارسة السيكولوجية ،

---

(1) انظر فصل الدعاية والإعلان» في هذا الكتاب .

وضرب من الرفض لأن تُؤخذ بالحسبان نتائجها الاجتماعية أو الاقتصادية . ومن المؤكد أن علم النفس ، بصورة عامة ، أمّن لنفسه الوسائل التقنية الضرورية لينفتح على ميادين جديدة تزداد اتساعاً ، وأتاح التخلي عن الخصومة بين علم النفس وعلم الاجتماع (٢) ، على الغالب ، تعاوناً مثمراً . وتتيح تقنيات المقابلة ، والتحليل ، والشهادة ، لعلم النفس أن يغطّي ميادين كانت حتى ذلك الحين ممنوعة عليه . وإلى هذه التقنيات ، ينبغي لنا ان نضيف استخدام الاستقصاءات المنهجية ، والإحصاءات ، والطرائق التجريبية . وينبغي لنا ، بالتأكيد ، أن لا ننسى آلات القياس ، والملاحظة ، التي وضعتها التكنولوجيا الحديثة تحت تصرف عالم النفس .

جميع هذه الوسائل التي استعملها علماء النفس الأمريكان استعمالاً وفيراً أتاحت لعلم النفس أن يكون تحت تصرفه مجموعة من المعلومات كانت مجهولة من جميع جوانبها حتى ذلك الحين . وإذا كان هذا التراكم في المعلومات نصيب كل العلوم ، فتلك ظاهرة عامة بصورة خاصة لعلم النفس ، وبصورة عامة للعلوم الإنسانية ، من حيث أن البحث كان حتى ذلك الحين بحثاً نظرياً أكثر مما هو اختباري . وعلى أي الأحوال ، فالبحث المنهجي في الإعلام بحث حديث . وإحدى نتائج هذه الوفرة في المواد هي التنوّع المتزايد في البحوث والممارسات السيكولوجية ، وتكوين هيئة الاختصاصيين بصورة متلازمة مع هذه النتيجة .

ولا ينطوي هذا التطور في ذاته على أي محذور . ولكن هذه الشروط تنزع ، مرتبطة بآمر النجوع في الممارسة السيكولوجية ، إلى أن تفصل الميادين المختلفة وتجعل إمكان وضع المنظورات المختارة ، والمفهومات المستخدمة ، موضع التساؤل ، أمراً يزداد اتصافاً بالعشوائية . ومنذئذ ، علينا أن نشرح مسألتين . فمن جهة ، يبدو مفارقاً أن يكون علم من العلوم ، مفهوماته تفسح مجالاً للمناقشة ، ذا نجوع واقعي دون منازعة . فكيف نشرح التدخل الناجع متحالفاً

(٢) انظر فصل «السيكولوجي والسوسيولوجي» في هذا الكتاب .
(٣) انظر فصل «التقنيات في علم النفس الإجتماعي» في هذا الكتاب .

مع الضعف النظري ؟ ومن جهة أخرى ، لنفرض هذا المشكل محلولاً ، يبقى أن نعرف أمراً مفاده ما يلي: أليست الممارسة المشخّصة والموسّعة لعلم النفس ، على الرغم من الارتياب الخاص بالأسس العلمية ، هي العامل الأكثر اتصافاً بأنه لمصلحة الاعتراف بقيمته وأصالته ؟ وينبغي لهذه النقطة الثانية ، من حيث أنها تمسّ مستقبل علم النفس ، أن تظلّ إشكالية . والحقيقة مع ذلك أن مجموع هذا المؤلّف يمكننا النظر إليه على أنه محاولة للإحاطة بهذه المسألة : فالاحتفاظ بالمشكل لا معنى له إلاّ إذا أكمله تحليل استقبالي . أما فيما يخص المسألة الأولى ، نجوع علم نفس معينّ على الرغم من الأسس اللايقينية ، فإنه يبدو أن دراسة الموقف والدافعية منظور ذو امتياز . والواقع أن هذه المفهومين يوجّهان البحث ، على الغالب ، في مجالي التجارة أو البيع .

أولاً ـ المواقف

١ ـ أصوب ضرب من التعريف ؟

إذا كان مفهوم المواقف مشتركاً بين اللغة الرائجة وعلم النفس ، فإنه ليس أكثر بساطة لهذا السبب . فما الفارق ، في الحقيقة ، بين موقف وسلوك على سبيل المثال ؟ والمرء يمكنه أن يقول تماماً إن الموقف يوجّه السلوك ، بقدر ما يمكنه أن يقول العكس تماماً . فهل الموقف هو التعبير عن سلوك أم أن السلوك ، على العكس ، هو ما يكشف عن موقف من المواقف ؟ ويبينّ هذا السؤال دفعة واحدة التباس المفهوم الذي لا يمكنه أن يصبح قابلاً للاستخدام إلا إذا حدّدناه على نحو أكثر وضوحاً بكثير . ويعرّفه بيرون ، في « معجم علم النفس » ، على النحو التالي : « ارتكاس مكتسب ، انفعالي على وجه التقريب ، على مثير من المثيرات » . ويعرّفه أيضاً بأنه : « ضرب من التبنين التمهيدي ذي الاتجاه المعينّ من وجهة النظر الإدراكية والاستجابية » . ويمتاز هذان التعريفان ، مهما كانا موجزين ، بأنهما يفتحان سبيلاً : فالموقف استجابة لوضع من الأوضاع ، وهي استجابة محدّدة على وجه التقريب ، ولكنها معيّنة بضرب من الثبات النسبي .

وإذا عمّقنا هذه القضية ، يمكننا القول إن الموقف محصلة سلوكية لمعارفنا ، وآرائنا ، ومنعكساتنا المكتسبة ، وعواطفنا ، إزاء وضع معيّن . ومن هذا المنظور ، فان المواقف تتعدّل تدريجياً مع تجربة الفرد الاجمالية المتنامية . إن فعلاً ومعرفة وإكراهاً يعيشها الفرد ، قد تُحدث فيه ضرباً من الترسّب يخلق موقفاً أو يعدّل موقفاً . وبهذا المعنى ، يكون السلوك تعبيراً عن الموقف أكثر مما هو العكس . وبناء عليه ، فان الموقف الذي يتّسم بأنه لُوين فردي صالح للاستجابة لوضع معيّن ، يجد نفسه وقد تحوّل بالتدريج ، ومن هنا منشأ ثبات معيّن بفعل اندماج الإحساسات والتجارب الجديدة . ولكن المواقف تعدّل ، على العكس ، إدراكاً للعالم والغير ، وتؤثّر أيضاً على تفكيرنا وحكمنا .

ومن المعلوم أننا نستقبل بموقف متحفّظ زائراً لا نعرفه ، ولكنه كان موضع حكمٍ قاس أمامنا قبل فترة قصيرة من الزمن . وقد يحدث أن يكون الفرد قد عاش الإدراك أو التجربة ، اللذين سيعدّلان موقفه عيشاً على نحو لاشعوري : فالتجربة القائمة على أن ندرج في عرض فيلم صورة إعلانية أو عدة صور ، ذات علاقة بمنتج من المنتجات ، بيّنت أن موقف المشاهدين ، الذين لم يكونوا قد رأوا هذه الصور على نحو واع ، كان ملائماً جداً لمصلحة المنتج موضع البحث عقب ذلك ، وعلى النحو نفسه كان موقف الذين لم يكونوا يعرفونه من قبل . وبهذا المثال ، ندرك الأهمية التي ينبغي للبحوث في الإعلان أن تمنحها للمواقف . والحقيقة أن الموقف ، من حيث أنه يصفّي المعلومات التي ترد من الخارج ، يجد نفسه أنه نمط من الدفاع ضد الغزو الذي يوجّهه العالم إلى الأنا . ونرى ، بالمثال الذي مرّ ذكره ، أن شبكة المواقف يمكن لها أن تكون موضع تعديل وتلاعب : ولايحرم الإعلان والدعاية نفسيهما من ذلك (٤) . ومن الضروري أن نعرض هنا العناصر التي تنسبها سيكولوجيا المواقف إلى هذه المواقف عرضاً مفصّلاً .

٢ ـ تحديد الموقف وتطوره

في إطار البحوث في الإعلان على وجه الخصوص ، نما تحليل المواقف .

(٤) انظر في هذا الكتاب فصل «الدعاية والإعلان» .

ومن الضروري ، بالنسبة لهذه البحوث ، أن لا تبرز العناصر التي تكوّن الموقف فحسب ، بل أن تكتشف القوانين التي تحكم تطور المواقف أيضاً وعلى وجه الخصوص . والاختصاصيون في الإعلان والدعاية يمكنهم ، بمعرفة هذه القوانين على سبيل الحصر ، أن يؤثّروا في الجمهور تأثيراً ناجعاً .

ويتألف الموقف بالنسبة لهم من جميع العناصر النفسية الاجتماعية التي تربط فرداً أو جماعة من الأفراد ، في لحظة معيّنة ، بموضوع الموقف : المنتج ، والخدمة ، والشخص ، والمنظّمة ، والحركة ، الخ . ونميّز أربعة نماذج من العناصر التي تكوّن الموقف :

- عناصر معرفية ؛
- عناصر الحكم (موازنة بالنسبة لنمط الإحالة) ؛
- عناصر وجدانية (عواطف) ؛
- عناصر تحضّ على الفعل .

أ ـ العناصر المعرفية

لا بد للانسان من أن يعرف الشيء حتى يكون لديه موقف منه ، ولو أن هذه المعرفة غير تامة . ويظلّ صحيحاً مع ذلك أنه ما إن يعرف شيئاً من الأشياء حتى يكون لديه موقف معيّن منه ، محدّد على وجه التقريب ، وثابت على وجه التقريب . وقد تكون المعرفة الخاصة بالشيء موضوع البحث ذات درجات متنوّعة جداً : فالمعرفة بالرواية كافية في بعض الأحيان لتفضي إلى موقف واضح ، كموقف النبذ على سبيل المثال . وتفضي المعرفة النظرية والمعرفة العملية ، مع الفروق الدقيقة بينهما ، إلى مواقف متمايزة : فعلى الاختصاصي في الإعلان أن يقيّم أي نموذج من المعرفة أكثر ملاءمة لمصلحته ، تبعاً للسكان الذين يتوجّه إليهم الإعلان وتبعاً لمعرفة ما يريد اقتراحه . إن معرفة بالرواية تكفي لبيع مسحوق الصابون ، والمعرفة العملية والبرهانية ضرورية للآلات ـ الأدوات .

ب ـ عناصر الحكم

يُنظر إلى شيء على أنه داخل في مجموع من الأشياء الأخرى ، وعلى وجه الخصوص في مجموع الأشياء التي تشبهه . وتتدخّل دائماً ، في موقف من سيارة او

حزب ، عناصر موازنة بالنسبة لسيارات أخرى وأحزاب أخرى . وهذه العناصر ، عناصر الموازنة والحكم ، هي التي تتدخّل في التقييم . ولهذا السبب ، كان على الاختصاصي في الإعلان أن يحرص على القول إن منتجه ليس جيداً فحسب ، بل هو الأفضل . والمشكل ، هنا أيضاً ، مشكل متغيّر جداً بحسب الشيء موضوع البحث ، والسكان الذين يستجيبون لهذا الشيء .

جـ ـ العناصر الوجدانية

يبدي الفرد ، بالنسبة لشيء من الأشياء ، ارتكاسات ذات طابع وجداني عاطفي ، ومن مجال الرغبة . وهذه الارتكاسات ، هنا أيضاً ، متغيّرة إلى الحد الأقصى ، تبعاً لنموذج الشيء موضوع البحث . ويظلّ مع ذلك صحيحاً أن دراسة الإعلان ، حول هذه النقطة ، هي التي حقّقت أكبر التقدّم . ذلك أن بوسعنا أن نُحدث لدى الفرد ، بوسائل لا يشعر بها ، توظيفات وجدانية تتيح تكوين الموقف المراد من شيء غير مهم في البدء ، أو من مجال اهتمام مختلف ، علمي أو تقني ، كالسسيارة على سبيل المثال .

د ـ عناصر الحضّ على الفعل

ليست هذه العناصر مباشرة كالعناصر السابقة . فعناصر الموقف التي تهيّء مسبقاً للفعل هي محصّلة القوى العاملة في إطار الموقف . إن الفعل ليس الشراء بالضرورة ، فقد يكون الاستعلام ، وقد يكون أيضاً ضرباً من المحاولة ، وقد يكون أن نصرف بعض الناس عن الشيء . فهذه العناصر ناجمة ، أكثر بكثير من العناصر الأخرى ، عن الشخصية الخاصة بفرد من الأفراد . ولهذا السبب كانت المحاولات المبذولة لتعديلها ضعيفة النتائج . والنجاح في أن نقلّل من أهميتها ، إذ نضخّم أهمية بعض العناصر الأخرى ، والعناصر الوجدانية على وجه الخصوص ، أيسر بكثير . وقد بيّن الوصف السابق أن المسألة تكمن ، من الناحية العملية ، في أن نعرف كيف سنتدخّل في هذه العناصر . ولكي يكون التدخّل مرْضياً للمشروع ، فإن علينا أن نعرف قوانين تطور المواقف .

٣ ـ تطور المواقف

إذا كان الموقف تأليفاً لعناصر كثيرة ، فإن التطور لا يمكنه أن يُدرَك على نحو

بسيط . والواقع أن لكل عنصر من العناصر المختلفة إيقاعه في النمو ، وجميعها متفاعلة في كل لحظة . فالمعارف الجديدة يمكنها أن تؤثر على الحكم ، وعلى العواطف أيضاً . ولكن هذا التأثير يندرج ، على وجه التقريب ، على نحو ديالكتيكي بحيث لا يوجد تطور مواز لمختلف العناصر ، بل تطور دينامي : ويتجلّى هذا التطور الدينامي بمظهر متغيّر للموقف ، مع أنه معنيّ بدوام أسلوب في السلوك . والصعوبة في منظور تدخّل إعلاني أو تدخّل آخر ناجمة على وجه الدقة من الارتياب الخاص بأثر هذا المعطى الجديد أو ذاك على كلية العناصر المختلفة ، وبصورة خاصة على الدينامية الداخلية التي ستنشأ من ذلك . ولهذا السبب ستحاول دراسة الدافعيات أن تحدّد عن كثب لأي دافع يستجيب سلوك معيّن .

ثانياً ـ الدافعية

يبدو مفهوم الدافعية في أيامنا هذه ، ربما أكثر من مفهوم الموقف ، أنه رئيس بالنسبة لعلم النفس التجاري ، أعني بالنسبة لعلم النفس الذي يهدف إلى انتشار منتج وبيعه بفعل التأثير على السكان الذين يؤلفون سوق هذا المنتج . ومصطلح الدافعية اشتُهر ، ولا يزال ، شهرة بحيث أن « البحث في الدافعيات » يُعتبر في الولايات المتحدة الآن فرعاً من فروع المعرفة له طرائقه الخاصة وموضوعه الخاص . وإذا كان ثمة ، مع ذلك ، مفهوم ضعيف الوضوح ، فإنه مفهوم الدافعية بالضبط . والالتباس الأكثر اتصافاً بأنه كلي يسود ، في أغلب الأوقات وحتى لدى « الاختصاصيين » ، بين مصطلحات الدافعية ، والدافع ، والاهتمام ، والميل ، والحاجة ، والرغبة . ويعترف كلينبرغ ذاته ، الذي يخصّص مع ذلك فصلين من كتابه ، « موجز علم النفس الاجتماعي » ، لدراسة الدافعية ، أنه يصعب المحافظة على التمييز بين دافع وميل ، بالنظر إلى أن هذين المصطلحين يُعتبران مكافئين لمصطلح الدافعية . ومن الضروري أن نعود إلى المعنى الاشتقاقي للدافعية لنعطي هذا المصطلح محتوى متماسكاً . فالدافعية ، في

هذا السياق الواضح ، هي ما يضع موجوداً حياً في حالة حركة ، وبعبارة اخرى ، هي ما يجعل موجوداً حياً يتصرف . وعلم النفس الحيواني ، الوحيد الذي يأخذ الدافعية بهذا المعنى الدقيق ، ربما يتصف أيضاً ، بين الضروب الأخرى من علم النفس التي تستخدم الدافعية ، بأنه الوحيد الذي يسلك سلوكاً علمياً بصورة واقعية .

فما هي الشروط لدراسة في الدافعيات التي نتصورها بهذا المعنى الواضح ؟ إن هذه الشروط بسيطة بقدر ما هي طوباوية . ويكفي لتحليل الدافعيات ، أي ما يجعل موجوداً حياً يتصرّف ، أن يكون لدينا جرد بكل التصرفات الإنسانية ، وبالأهمية الخاصة لكل منها . يضاف إلى هذا أن من الضروري أيضاً أن نكون قادرين على تصنيف هذه التصرفات وشرحها بعدد محدود من العوامل . وهذه العوامل ستكون الدافعيات . ويتبينّ للمرء أن هذه الشروط لن تكون متحقّقة في مستقبل متوقّع . واحتمال أن يكون لهذا الإمكان ذاته أي معنى احتمال ضعيف . فمصطلح الدافعية عاجز حتى عن بيان المجال الذي تنتمي اليه هذه العوامل التي تحدّد التصرفات . فهل هي تنتمي يا تُرى إلى المجال الجسمي أم إلى المجال النفسي ، إلى المجال الشعوري أم إلى المجال اللاشعوري ؟ إن مفهوم الدافعية يغطّي عناصر ناجمة عن جميع هذه المجالات .

فلماذا نحتفظ لهذا المفهوم ، منذئذ ، بقيمة نظرية ؟ السبب أن علم النفس الذي يستخدم المفهوم يرمي إلى التدخّل ليعدّل تصرفاً أو سلوكاً في اتجاه محدّد ، بمعزل عن موضوع التصرف أو السلوك . ومنذئذ ، علينا أن نتقن إدراك العوامل التي تشرط هذا التصرف ، عوامل يمكننا أن نؤثر فيها في الاتجاه المرغوب. ويتبين للمرء أن مفهوم الدافعية يستجيب لمقتضى اقتصادي، أو سياسي، أو غير ذلك، أكثر مما يستجيب لمقتضى الدقة العلمية. أما وقد أبدينا هذه الملاحظة، فإنه يظلّ صحيحاً مع ذلك أن البحث في الدافعيات موجود وأنه من الضروري أن ندرك كيف يعمل .

١ ـ طريقة التحليل

نمط التحليل الذي يستخدمه بحث الدافعيات في جميع المجالات نمط بسيط نسبياً . ويمكننا تلخيصه ببعض الأسئلة :

ـ ما شتى القوى الداخلية أو الخارجية التي تحرّك عضوية من العضويات ؟
وهل لدينا البراهين على وجود قوى داخلية نسميها غرائز أو ميولاً ؟
ـ وهل يمكننا تصنيف هذه الغرائز أو الميول ؟
ولكي نجيب عن هذين السؤالين ، ننهج على النحو التالي :
ـ ما الرغبات الشعورية التي تُعتبر حوافز بالنسبة لفاعلية معيّنة ؟ إن الاستقصاء يمكنه أن يتيح تعيينها .
ـ ما الشروط التي تجعل هذه الفاعلية ممكنة ؟
ـ أي الرغبات الشعورية التي تشبعها فاعلية من الفاعليات ؟
ـ ما مفعولات فاعلية معيّنة ؟ وما الصلات الموجودة بين هذه المفعولات وبين الرغبات التي كانت سبب هذه الفاعلية ؟

ويتبينّ للمرء ، من خلال هذا العدد القليل من الأسئلة ، أن هذه الطريقة تستبعد ، ما يمكنها ان تستبعد ، عنصر المعنى ، العنصر الإنساني بالمعنى الصحيح للكلمة : فالمهم ان نشرح أكثر من أن نفهم .

في هذا المنظور ، وهو منظور سيكولوجيا الحيوان بقدر ما هو منظور الاختصاصيين في الإعلان ، سنحاول أن نميّز العوامل الداخلية من العوامل الخارجية . فبعضهم يلحّ على أهمية العوامل الأولى ، وبعضهم يقدّر ، على العكس ، أن العوامل الثانية أرجح . وعلينا أن ننظر إلى البنية السيكولوجية والنفسية على أنها بنية من الارتكاسات بصورة أساسية . ويظلّ التمييز بين العناصر الداخلية والعناصر الخارجية أسلوباً ناجعاً من حيث أن المجموعة فرد ـ وسط خارجي تُعتبر حقلاً دينامياً ذا متغيرات كثيرة ، ولو أن بعضهم توصّل في أعقاب بحوث أجراها لورنز ، وتنبرجن ، أو بويتنديجك في سيكولوجيا الحيوان الى النتيجة الحاسمة التي مفادها أن التمييز بين عناصر داخلية وعناصر خارجية ليس سوى تمييز طرائقي . فإذا بدّلنا بصورة تجريبية متغيراً من المتغيرات بآخر ، فإن بوسعنا أن نقيس تأثيره في السلوك الإجمالي .

هذه الطريقة التي تستخدمها سيكولوجيا الحيوان كثيراً ، ذلك أن بالإمكان التأثير على عدد كبير من المتغيّرات (تعديل الوسط الخارجي بل تعديل عضوية

الحيوان ذاتها أيضاً) ، تستخدمها سيكولوجيا الإنسان أيضاً . وثمة اتجاه مع ذلك الى أن تحلّ محلّها طرائق أكثر ملاءمة .

وبالإضافة الى البحوث الإحصائية ذات العلاقة بالرغبات الشعورية لسكان معيّنين ، سيلحّ البحث في الدافعيات ، بصورة خاصة ، على أهمية العوامل اللاشعورية . فقد طرح البحث في الدافعيات ، عقب أعمال فرويد ، مبدأ مفاده أن الفرد ليس سلبياً على الإطلاق ، بل ، على العكس ، هو « مجموعة من الرغبات » . ويكمن المشكل في أن نقترح على الفرد أشياء قادرة على إشباع هذه الرغبات . ومن الضروري أن نجعل المنتجات ، والخدمات ، والجماعات ، الخ ، صالحة لإشباع هذه الرغبات إما بصفاتها الفعلية وإما بصفات متخيّلة في الأغلب . ولهذا السبب ، كان من الضروري أن نصنّف الرغبات أو الميول الأساسية ، وندرس الأشكال التي تتّخذها في أوضاع اجتماعية ثقافية مختلفة دراسة على نحو واضح .

٢ ـ تصنيف الميول

معروف في أيامنا هذه أن عدد التصنيفات عدد كبير . فبعض المؤلفين لا يقترحون سوى ميلين أساسيين ، ويحدّد بعضهم الآخر منها أكثر من خمسين . والصعوبة تكمن في أن مفهوم الميل يصلح لضرب من وصف التصرفات بقدر ما يصلح لبحث عن بعض الغرائز الأساسية . والحال أن القيمة الشارحة ضعيفة جداً سواء لم نجد سوى ميلين ، غريزة الحياة وغريزة الموت ، أم جمعنا منها عدداً كبيراً : فاذا لم يكن ثمة سوى ميلين ، فإن المفهومات لا تدلّ إلا على زمر كبيرة بنيتها من أكثر البنيات اتصافاً بأنها ضعيفة الاستقرار ؛ وإذا طمحنا إلى اقتراح لائحة كاملة بـ « الميول » ، فإننا ، على وجه العموم ، بصدد ضرب من المدّ الاستقرائي انطلاقاً من التصرفات الأكثر شيوعاً .

ويرتبط هذا التنوّع في التصنيف أيضاً بالموضوع الذي يُعنى به كل باحث . فسيكون لدى الطبيب النفسي « ميل » إلى الالحاح على الجنسية ، من حيث أن المرض النفسي يندر أن يكون ذا علاقة بحاجات أو ميول كالجوع . فهذا الجوع يظهر قليلاً ، إذ يبذل المجتمع جهوداً لإشباعه في حين أن الإحباطات من النوع

الجنسي تبرز في سياق الطب النفسي .

ومقاييس التصنيف ، أخيراً ، هي أيضاً غير متجانسة . فهل ينبغي لنا أن نصنّف الميول المختلفة بحسب مجال فاعلياتها ، أو بحسب حالة العضوية ، أو وفقاً للهدف الذي تنزع إليه ؟ إن لكل مقياس قيمة ، ولكن المقاييس المختلفة ليست دائماً متوافقة . وهذا الارتياب الخاص بعدد الميول أو الدافعيات ، وبطبيعتها وشمولها ، يعوق النجوع ذاته ولا ريب ، المبدأ الأسمى ، نجوع سيكولوجيا الدافعيات . وحتى نرى كيف يبرز هذا النجوع من هذه المسألة ، ثمة مجال لتحليل المفهومات وأنماط التدخّل لدى ممارسة أمريكية ، « البحث في الدوافع » ، كما هو الأمر في فرنسا ، « البحث في الدافعيات » .

٣ ـ البحث في الدافعيات

البحث في الدافعيات (أو الدوافع) أصبح في الولايات المتحدة فرعاً من المعرفة ذا شمول كبير . ففي نهاية عام ١٩٥٤ ، كان عدد الجمعيات الأمريكية التي صرحت بأنها كفيّة لمباشرة البحوث السيكولوجية من هذا النوع ٨٢ جمعية . و « البحث في الدافعيات » هنا ذو هدف تجاري معترف به . والمهم وضع وسيلة مناسبة للتقصّي في متناول الزُبُن ، الصناعيين والتجار على وجه الخصوص ، لتقييم موقف جمهور من الجماهير إزاء منتوج ، وتعديله عند الاقتضاء . وخصوصية « البحث في الدافعيات » تكمن في أن الدوافع الشعورية ليست من مجال اختصاصه . إنه متخصص في الكشف عن الارتكاسات تحت الشعورية أو اللاشعورية التي يعتقد ، خطأ أم صوابا ، أنها محدّدة أكثر من الارتكاسات الشعورية . فهو يستوحي دون شك من ميدان التحليل النفسي ، وهدفه يفتح إمكانات في ميدان الإعلان على وجه الخصوص .

آ ـ الاعلان يزيل الخشية

والأمثلة كثيرة . إليكم واحداً من الأمثلة الأكثر اتصافاً بالدلالة : كان ثمة معمل للبيرة يصنع نوعين منها ، نوعاً يسمى عاديا ، ونوعاً آخر ذا جودة ممتازة يسمى خفيفاً . وأُجري استقصاء كان قد طُلب فيه إلى الأفراد إن كانوا يشربون العادي أو الخفيف . وكانت النتيجة أن ثلاثة أفراد من أربعة زعموا أنهم يشربون

النوع الخفيف . وبناء عليه أنتج المصنع ، لكي يستجيب للطلب ، من البيرة العادية تسعة أضعاف ما أنتجه من البيرة الخفيفة . ويبيّن هذا المثال ، وثمة إمكان لأن نذكر أمثلة كثيرة من نوعه ، بياناً واضحاً ، أن ثمة فارقاً بين ما يفعله الأفراد وبين ما يزعمون أنهم يفعلون ، يقع على وجه الضبط عبء إظهاره على « البحث في الدافعيات » . وهذا الفارق تكوّنه بعض الدوافع تحت الشعورية أو اللاشعورية التي توجّه ، في نهاية المطاف ، تصرفات الأفراد ، وبصورة خاصة عندما يتعلّق الأمر بين منتجات متكافئة على وجه التقريب . وسيرمي البحث في الدافعيات ، وسيفلح ، إلى تحديد طبيعة الدوافع تحت الشعورية أو اللاشعورية التي تشرح ارتكاس الأفراد تجاه منتج من المنتجات . وستتيح هذه المعرفة تعديل المنتج موضوع البحث ، عند الاقتضاء ، أو ستتيح بالحري تعديل عرضه أو « صورته » ، على نحو يلبي رغبة أو ، بطريقة مختلفة ، على نحو لا يوقظ خشية . وهذه النقطة الأخيرة ذات أهمية ، ذلك أن عدداً من الحملات الإعلانية أخفقت إخفاقاً مخزياً لأنها أثارت خشية لاشعورية وهي تعتقد بأنها ترفع شأن المنتج المراد بيعه . والمثال الذي يلي يجعل هذه الصعوبة واضحة . فثمة شركة كانت قد عرضت ، بوصفها تمحور إعلانها على متانة الحقائب التي كانت تبيعها ، إعلاناً بوسع المرء أن يرى فيه الحقائب ذاتها تسقط من الطائرة دون أن تتحطّم . والحال أن هذه الشركة أُصيبت بخيبة أمل . وتبيّن ، عند التحليل ، أن عدداً من الأفراد كان يربطون بين سقوط الحقائب وسقوط الأفراد الذين يملكون هذه الحقائب ، ولا أهمية لمتانة الحقائب إذا كانوا ، هم أنفسهم ، يسقطون من الطائرة . ويبيّن هذا المثال أهمية العوامل الانفعالية التي تتدخّل في التجارة .

والتقنيات المستخدمة لسبر ما تحت الشعور لدى الأفراد وسبر لاشعورهم ذات أنواع مختلفة : روائز الإسقاط ، وروائز رورشاخ ، وروائز تفهّم الموضوع ، وروائز زوندي ، وكذلك روائز مشتقة تتناسب مع بحث معيّن . فثمة ، على سبيل المثال ، إدخال ملفات ، في رائز تفهم الموضوع ، يُقترح استخدامها إعلانياً . إن جميع الوسائل القادرة على أن توصل إلى اللاشعور ، كالمقياس الغلفاني ، والنوم المغناطيسي ، والحوار من نموذج التحليل النفسي ، والملاحظة المستترة ، الخ ،

تنطوي على بعضٍ من خصائص البحث في الدافعيات .

ومن المناسب أن نحدّد الرغبات ، والحاجات ، أو المخاوف ، الأكثر انتشاراً في سكان معيّنين . وتتيح هذه الحاجات ، والرغبات ، أو المخاوف ، تكييف إعلانٍ للسكان الذين يتوجّه إليهم . وهذا التكييف ، كما يقول فانس باكار ، هو تكوين صنّارات سيكولوجية ، بحيث يوجد ضرب من النجوع التجاري حتى بمعزل عن صفات المنتج المعنيّ الفعلية . ولهذا السبب ، عكف المحلّلون في « البحث في الدافعيات » على مجال الصور :

ـ وتكمن التقنية الأولى في التمييز بين المنتجات المتماثلة على مستوى إدراك الأفراد . وموضوع البحث تفريد المنتج ، وتقديم « صورة شخصية حيّة » ، بالنظر إلى أن هذه الصورة يصعب تقليدها أكثر بكثير مما يصعب تقليد المنتج نفسه . وهذه التقنية تمارس حالياً لكل منتجات الاستهلاك الشائع . ومع ذلك ، فإن دراسة الصورة لا تتوقّف هنا . فقد تبيّن للمحلّلين ، على نحو سريع جداً ، أن الصور التي كانت أكثر تأثيراً هي صور الفرد ذاته . ومنذئذ ، من الضروري أن تُعزى الصفات ، التي يتعرّف كل فرد على نفسه فيها أو يريد أن يتعرّف على نفسه فيها ، إلى السلع المعروضة للبيع . وينبغي لنا إذن أن نبيع صور المنتج التي قد يجد فيها كل فرد مجدّداً ما هو عليه أو ما يرغب في أن يكون . فالبحوث التي أجراها التحليل النفسي ، على مستوى الرمز ، عظيمة الفائدة . ويصبح الرمزي الجنسي ، بالنسبة للبحث في الدافعيات ، ممكن الاستخدام تجارياً . وإلى ذلك يضاف عدد معيّن من البحوث تنصبّ على قوة الألوان ودلالتها الانفعالية . فإمكان التلاعب بالأفراد مفتوح . فكل خشية ، وكل عاطفة ، وكل رغبة ، وكل اندفاع ، يمكنها أن تُوجَّه على نحو يثير الفعل المأمول ، أي الشراء . ومما لا غنى عنه ، دون ادّعاء بالاستنفاد ، أن نعرض مواضع التدخّل الأكثر شهرة والأكثر نجوعاً .

ب ـ تحرير الشاري من الشعور بالإثم

أحد الحواجز الأكثر أهمية لنجوع الإعلان هو الشعور بالإثم . وكان فرويد قد أشار إلى الرابطة بين اللذة والإثم . ويتصرف البحث في الدافعيات بحيث

يكون بوسع الزبون ، أن يحصل بشراء المنتج على اللذة دون أن يعقبها الإثم . وعلينا أن نتصرف ، يقول الدكتور دتشر ، بحيث لا تُمنح اللذة فحسب ، وإنما الغفران أيضاً : « لن يقتلك التبغ » ، كان يقول الاختصاصيون في الإعلان قبل « البحث في الدافعيات » . وقد بيّن البحث في الدافعيات أنه كان لا بدّ للإعلان من أجل لفائف التبغ ، الذي لاينفي التهمة عن نفسه ،من أن يبدو، بالعكس ، على صورة حياة متوازنة : « الأمريكيون يدخنون لكي يبرهنوا على نضجهم الرجولي » . فلا بدّ إذن من أن نبتكر الصورة الإعلانية التي تدور حول هذا الموضوع ، وأن نفرض أفراداً أصحاء ، نشيطين ، عاملين ، في سبيلهم الى تدخين لفافة تبغ من النوع المرغوب (*)

وبالإضافة الى الشعور بالإثم ، كل خشية ، أو قلق من النوع اللاعقلاني ، حقل للمتلاعبين بما تحت الشعور . ومع ذلك ، فان الحاجات أو الرغبات الدفينة حقل مفضل لدى البحث في الدافعيات أكثر من ضروب الخشية أو القلق .

وستكون لدى البحث في الدافعيات قدرة اللعب على كل رغبة من هذه الرغبات التي حدّدها دتشر (٥) : فلم يعد الإعلان منصباً على بيع ثلاجة ، بل على الضمان القائم على الاطمئنان بأن لدى المرء ما يأكل ، ولا على بيع سيارة ، بل على القوة المتجدّدة .

ويسعى البحث في الدافعيات ، متجاوزاً هذه الرغبات العامة ، للاستفادة من الدوافع الجنسية الواضحة التي كان التحليل النفسي قد أبرزها . فالدوافع السادية ، والمازوخية ، والاستعرائية ، والجنسية المثلية ، تحرّكها رموز ملائمة . واكتشفوا كذلك أن لدى الأمريكيين والأمريكيات حاجة إلى أن يطمئنوا على الجنس لديهم . فلبيع منظّف للشعر ، ينصبّ الإلحاح منذئذ على الأنوثة ،

(*) أمر الإعلان عن التبغ في أيامنا هذه مختلف بعد صدور القوانين الناظمة حول هذا الموضوع ، «م» .

(٥) انظر قائمة هذه الحاجات في فصل «الدعاية والإعلان» ، فقرة «نظر المرء إلى رغباته على أنها واقع» ، في هذا الكتاب .

والرجل مستبعد من الصورة . ولبيع آلة للحلاقة ، من الضروري تجنّب الإشارة إلى الدقن أو الادّعاء أنها ستختفي كلياً ، ذلك أن الذقن رمز يطمئن على الرجولة . والإمكانات التي قدّمها اكتشاف الإشباع الطفلي ، الشرجي أو الفمي (٦) ، كانت هي ذاتها أيضاً موضع الاستخدام : فالعلك ، في رأي بعض المحلّلين ، تعويض عن الحرمان من ثدي الأم .

والمرء يمكنه على هذا النحو أن يكثر من وسائل التدخّل التي يقدّمها البحث في الدافعيات . واتخذ هذا البحث أهمية بحيث أن أي وكالة في الإعلا ن لا يمكنها أن تجهل تعليماته . ويظلّ صحيحاً مع ذلك أن الأهمية الأساسية للبحث في الدافعيات تكمن في الامتناع عن إبداء رأي مسبق في سلوك الأفراد إزاء منتج أو وضع معيّن . وعلى هذا النحو ، فإن البحث في الدافعيات يتجنّب الصعوبات الملازمة لكل محاولة في تصنيف الميول أو الدوافع . ذلك أن المرمى ليس إنشاء علم من العلوم ، بل الإمكان العملي للتدخّل بصورة ناجعة في السوق ، حتى يقبل الأفراد منتجاً معيّناً قبولاً إيجابياً . فموضوع البحث هنا ليس علم النفس ، بل علم النفس التجاري .

٤ ـ ضرب من علم النفس دون محتوى

ينبغي لنا الآن أن نجيب عن السؤال الذي كان مطروحاً في بداية هذا الفصل : كيف يكون ممكناً لضرب من علم النفس ، ذي أسس تصورية قاصرة ، أن يكون ناجعاً ؟ فمن خلال دراسة المواقف والدافعيات ، استطعنا أن نلاحظ أن علم النفس هذا يستند إلى ملاحظة السلوكات والتصرفات لعدد كبير من الأفراد . وهذا البحث يستمدّ من ملاحظة هذه السلوكات والتصرفات بعض العناصر التي يعتبرها متشابهة لدى جميع الأفراد المعنيين ، أو جميعهم على وجه التقريب . ثم إنه ، في هذه الفترة إياها على سبيل الحصر ، يفتش عن علة هذه الظاهرات التي عزلها . فالبحث عن الدافعيات ، على سبيل المثال ، يستخلص من ملاحظته أن الأفراد ، في وضع معيّن سوسيولوجي ، واقتصادي ، وسياسي ،

---

(٦) انظر فصل «النمو الإنفعالي لدى الطفل» في هذا الكتاب .

وثقافي ، يشترون أو لا يشترون منتجاً معيّناً . وسيتكلم منذئذ على ضرب من سلوك الشراء ، أو سلوك الرفض ، سلوك سكان معيّنين تجاه المنتج . ولا بدّ لهذا السلوك من أن يكون له علة ، سبب . وهذا السبب هو الذي ينبغي لنا أن نحدّده على نحو يجعل ضرباً من التدخّل القادر على تعديل الظاهرة أمراً ممكناً .

والحال أن من المؤكد أن بوسعنا ، على مستوى عام ومجرد ، أن نحدّد العناصر الثقافية أو الاقتصادية المترابطة بالفعل مع الظاهرة موضوع البحث . ومن المؤكد أن المقصود هنا ترابط إجمالي لا يخص الفرد على الإطلاق ، بوصفه كذلك ، ولكنه سيتّضح على المستوى الاحصائي أنه مقنع . وإذا كان هذا التحليل ، الذي نسي الفرد بوصفه كذلك على نحو مقصود ، تحليلاً ناجعاً ، فذلك لأنه يرمي إلى التلاعب بما يتصف في الفرد بأنه الأضعف اندماجاً . ويتيح علم النفس هذا تأثيراً فعلياً على الأفراد لأنه يقتصر على البحث عن الكيفية التي يمكن بها لإكراه مستور أن يؤثّر على نحو أمثل[7] .

وعلم النفس هذا ، المجرد في نقطة انطلاقه ، يظلّ مجرّداً في طرائقه أيضاً . فثمة مفهومات ذات منشأ اختباري تكفي لإقامة علاقات ذات طابع عام يتحمّل الفرد عاقبتها .

وليس علم النفس هذا علم نفس أصيل ، ذلك أنه لا يباشر اللقاء بالواقعي . وهذا ما يمكننا تسميته علم نفس ذا نزعة تدخّلية . وليس مطروحاً على بساط البحث هنا أن ننكر أن البحث في الدافعيات ، على سبيل المثال ، يستخدم معطيات نظرية متماسكة ، كمعطيات التحليل النفسي . والمشكل يكمن في أنه يعمل دائماً بالتعميم ، أي بالتجريد ، ويستند إلى نجوعه . وقد مرّ زمن كان الناس يعتبرون فيه العصا والسوط وسيلتين ناجعتين لشفاء المجانين[8] .

---

(٧) انظر فصل «الدعاية والإعلان» في هذا الكتاب .

(٨) في مشافينا ، مشافي الطب النفسي ، التي «تتحرر» على ما يبدو ، لايزالون حالياً يربطون المريض بسريره بواسطة رباط في الرجلين ، ويدعي بعضهم أن هذا الأسلوب أسلوب علاجي .

والمؤسف أن هذه الطريقة لم تكن ناجعة إلا بالنسبة لأولئك الذين لم تكن تعنيهم ، أي الآباء والأطباء النفسيين . وربما كان نجوع سيكولوجيا المواقف والدافعيات من النوع نفسه ، وربما تكون غير ناجعة إلا بالنسبة للبائع ، وبالنسبة لأولئك الذين يفيدون من الممارسة التي تتيحها ، وعالم النفس في عدادهم .

الفصل الثالث

التقنيات

في علم النفس الاجتماعي

الإعلام والتقنيات في علم النفس الاجتماعي

عندما يلاحظ المرء تلك الميادين التي نما فيها علم النفس الاجتماعي ، يتّضح له هنا وهناك أنها ضبابية ، غير معيّنة الحدود ، وأن هذا النموذج من علم النفس كان قد تحدّد تحديداً غير كاف . وليس ثمة مع ذلك نقص في البحوث المفيدة ذات العلاقة بتحليل الميدان الاجتماعي وتقصّيه . وبالجهد المتضافر لعلم الاجتماع ، والإتنولوجيا ، وسيكولوجيا الجماعة ، وعلم النفس الاجتماعي (١) ، أمّنت الملاحظة السيكولوجية لنفسها محتويات للتحليل ، تبعاً للمشكلات التي كان عليها أن تحلّها خلال هذه السنين الثلاثين الأخيرة . وتبدو لنا هذه المشكلات أنها من نموذجين كبيرين :

- البحوث النظرية والعملية والتقنية الخاصة بالتواصل والإعلام والدعاية (٢) . فمسائل التواصل والعلاقة الاجتماعية كانت محور الدراسات السيكولوجية تحت تأثير الانطلاقة المتضافرة لظاهرات الحشد والجمع والجمهور ، وبدءاً من اتساع العلاقات الفردية والعلاقات بين الجماعات .
- البحوث النظرية والعملية والتقنية الخاصة بالإعلان ، والاستراتيجية

---

(١) انظر في هذا الكتاب فصل «السيكولوجي والسوسيولوجي» .
(٢) انظر في هذا الكتاب فصل «الدعاية والإعلان» .

التجارية ، وسيكولوجيا البيوع والدافعيات (٣) . وهذه السيكولوجيا التي تأثّرت تأثّراً قوياً بمقتضيات الاستهلاك والشراء ، أمّنت لنفسها وسائل في التحليل النوعي وهبتها نجوعاً في عالم الأعمال والتجارة الكبيرة . بل يمكننا القول ، لا من دون سخرية من مجتمعنا ذات دلالة قوية ، إن علم النفس في الوسط التجاري هو العلم الذي عرف نمواً واسعاً يجهله علماء النفس المهنيون في الأغلب .

وعلى الرغم من رغبتنا في أن نوضّح موضوع علم النفس الاجتماعي ، فإنه يبدو عسيراً أن نقدّم تأليفاً متماسكاً للبحوث في هذا المجال . فنحن ، في الحقيقة ، إزاء علم نفس « متشعّب الاتجاهات » ، نما على نحو فيه قليل من الفوضى،تبعاً لحاجات المجتمع ، ومنظورات البحوث في علم النفس التطبيقي ، وحدس علماء النفس العاملين في البحث الأساسي بالمجال الاجتماعي .

أولاً ـ الشهادة وانتقال الرسائل

من منا لم يسبق له أن لعب لعبة النقل المباشر للخبر ؟ والمقصود في هذه اللعبة ، التي يتغيّر عدد المشاركين فيها (من ٦ الى ٢٠) ، أن ننقل جملة من الفم الى الأذن لنرى بأي حالة تطرأ عليها التحوّلات التي يمكنها أن تفضي ، في وقت واحد ، إلى تشوّه كلي في معناها ، ومحتواها ، وبنيتها . وهذه اللعبة ، شأنها شأن كل لعبة ، ليست سوى التمثيلية الإيمائية المصغّرة لما يجري على مستوى العلاقات الاجتماعية . ففي مجتمعاتنا ، مجتمعات الإعلام ، والتواصل ، والرسالة ، والعلاقات المتنوعة ذات المستوى الواسع ، يطرح انتقال الرسائل ومحتوياتها مشكلات حسّاسة يجب حلّها . وهذه المشكلات موجودة في قلب العديد من القطاعات الاجتماعية :

ـ مشكل الشهادة بالمعنى الدقيق للكلمة : ما الطبيعة الموضوعية للشهادات في القضاء ، وما فائدتها ومعناها ؟ كيف يمكن سماع الشهود بصدد مشاهد

---

(٣) انظر في هذا الكتاب فصل «المواقف والدافعيات» .

رأوها ، وجمل سمعوها ، ووقائع لاحظوها ، لنحدّد نصيب أحد المتهمين في المسؤولية ؟ فهل بوسعهم أن يشهدوا بصحة الوقائع ؟ وهل لديهم إدراك موضوعي للواقع ؟أليس أداؤهم تفسيراً لما يريدون أن يشهدوا به ؟ إن مشكلات الشهادة موجودة في مجال القضاء ، والتحقيق البوليسي ، والخبرة المتخصّصة ، الخ .

ـ مشكل الإعلام : الإذاعة ، والتلفزيون ، والصحف ، تنقل لنا الرسائل والمعلومات . ولكن هذه المعلومات تتبع سلسلة من المرسلين والمستقبلين من البشر ، ومن بنيات التواصل ووسائله التقنية . فما هي مصداقية هذه المعلومات ؟ وما مصدر الحدث ، ومصدر الإعلام فيما يتعلق بالحدث ، ومن هم مختلف ناقلي الرسالة ، ومختلف المستقبلين ؟ وما واقع الرسالة بالقياس الى ما كانت عليه عند حدوثها ؟ وما التحوّلات والتشوّهات التي طرأت عليها ؟ وعلى أيّ نحو استقبلها الرأي العام وفسّرها ونقلها ؟ وما تأثير هذا الإعلام على الرأي والسلوك ؟

ـ مشكل الإعلان والدعاية : ماذا يمكن أن تكون الخصائص السيكولوجية لرسالة إعلانية ؟ كيف تشهد الرسالة الإعلانية بجودة منتج ؟ وهل ترمي الى الإعلام الموضوعي ؟ وكيف ستُدرك الرسالة الإعلانية وتُستقبل وتُنقل ؟ بأي شروط ستثير الارتكاس المأمول لدى الأفراد والرأي العام ، أي فعل الشراء والإخلاص لهذا المنتج ؟ (٤) .

ويقترح علم النفس الاجتماعي ، فيما يخصّ هذه الأسئلة ، مجموعة من الشروح والإجابات التي كان بعضها موضوع تحليلات منهجية .

ـ إدراك الرسائل : من الشائع أن يُقال إن الإعلام الموضوعي ، والشهادة الأمينة أمانة كلية ، والإعلان الإخباري على نحو صرف ، لا وجود لها . والواقع أن الشهادة ، أو نقل الرسائل ، تشهدان أو تنقلان ، بموضوعية ، واقعاً لم يسبق له أن كان مدركاً بصورة موضوعية ، إذا قصدنا بالموضوعية الأولى أنهما تنقلان ما

(٤) انظر في هذا الكتاب فصل «الدعاية والإعلان» .

رُؤي ، وسُمع ، وأُدرك ، نقلاً أميناً ، واستنفادياً ، وكلياً . فكل إدراك انتقائي وتفسيري معاً ، إنه إذن ، بالضرورة ، متلقّى متحيّز وجزئي من الواقع . ولكل شاهد أو مخبر ميل طبيعي إلى أن يكوّن الوقائع الملاحظة تكويناً جديداً ، تبعاً لدافعياته الشخصية ، ولما يبدو له أنه الأكثر احتمالاً ، وللسياق الاقتصادي والاجتماعي الثقافي الذي يندمج فيه ، ولما يتوقّعه أولئك الذين يطلبون إليه أن يشهد أو أن يخبر . وجميع هذه الأسباب ستساهم في تشويه الوقائع ، والرسالة المنقولة على هذا النحو لن تكون الواقع ، بل ستكون الواقعي كما كان قد اصطفاه وفسّره من يقدّم المعلومات أو من يقدّم الخبر . و « يظلّ الواقعي غير معروف إلى الأبد » ، يقول فرويد .

وليس الواقعي في علم النفس من مجال الموضوعي أبداً ، بل ، على العكس ، نتيجة تحوّل ذاتي . فالإدراك هو ، على هذا النحو ، إجمالي (فنحن لا نلاحظ تفصيلات وضع من الأوضاع ، بل نلاحظ البنية الإجمالية ، وبالتالي فإن ثمة تفصيلات أو أشياء جزئية أو هامشية تفوت إدراكنا) ؛ وإسقاطي(فنحن ندرك الوضع أو الرسالة تبعاً لميولنا وحاجاتنا . وننسب خصائص لا نرغب في أن نعترف بها على أنها خصائصنا وننقل إعلاماً يبرّر سلوكنا ومواقفنا) . يضاف إلى هذا ان للانتباه والذاكرة حدوداً ، ولهما عتبات إدراك يصيبهما الاشباع بعدها . والواقع أن الذاكرة لا تحتفظ إلا برسائل ، وأحداث ، أو أوضاع تحابي الفرد ، بحيث أننا لا نتعلّم إلا ذا الدلالة بالنسبة لنا ؛ واكتساب الذكريات ، هو ايضاً ، انتقائي جداً . فاذا رأينا مشهداً من المشاهد ، على سبيل المثال ، سقطت تفصيلات عديدة بعد بضعة أيام ، وغاصت الأشكال والشخصيات التي شوهدت في الغموض ، وغرقت بعضُ من خصائص المشهد في النسيان بسبب ضروب من النسيان ذات الدلالة . فالإنسان يحفظ الذكريات حفظاً سيئاً جداً ، وربما سيحتاج إلى الآلة (المعلوماتية والناظمات الآلية) ذات الوسائل الأكثر دقة ، وصحة ، وأمانة في الاستقبال والادراك وحفظ الذكريات (٥) . فآلة التسجيل ،

---

(٥) انظر في هذا الكتاب فصل «تواصل الإنسان والآلة» .

على سبيل المثال ، لا تفسّر ، إنها تسجّل مناقشة في أدق تفصيلاتها .

وكون أعضاء الحس ليست مجرد مسجلات ، وانعكاسات صحيحة للواقع ، هو السبب في أن مشكلات الشهادة ونقل الرسالة تطرح نفسها . ويختلف هذا الادراك التفسيري والانتقائي تبعاً للجنس ، والعمر ، والانتماء الاجتماعي والثقافي ، ونموذج الطبع ، الخ . فالمرأة على سبيل المثال أكثر أمانة في حفظ التفصيلات والأشكال والألوان ، في حين أن للرجل إدراكاً أكثر اتصافاً بأنه « إجمالي » وتأليفي . والطفل خيالي أكثر بكثير من الراشد في أسلوبه لادراك الواقعي بحيث أن مشهداً مبتذلاً رآه يتحوّل إلى حكاية حقيقية مختلقة ، في حين أن الراشد يُدخل بالحري اهتماماته وآراءه المسبقة وتجربته . ومن هنا منشأ العوامل الشخصية في الادراك ، وذلك أمر أكثر اتصافاً بالحقيقة بمقدار ما يندر أن يكون الفرد واعياً بأنه يفسّر . وهذا هو السبب الذي من أجله يتدخّل علم النفس أو علم الاجتماع لكي يحدّد بالتحليل ما هي العوامل والآليات وبنيات الادراك المعنيّة في كل حالة من حالات الشهادة أو الإعلام .

التحليل السيكولوجي

يتيح علم النفس الاجتماعي تحليل مجموعة من الظاهرات الخاصة بالشهادة وبنقل الرسالة :

ـ للسياق الذي يشهدُ فيه الشاهد أو يخبر فيه المخبر (المحكمة بالنسبة للشاهد ، وكالة صحافية بالنسبة للصحافي) تأثير حاسم على محتوى ما يُقال وعلى شكله معاً . والتحليل السيكولوجي السوسيولوجي يمكنه أن يساهم في ضرب من تنوير السياق .

ـ التصور الذي يصنعه الشاهد أو المخبر لأدواره : إن محتوى ما يقال يخدم دائماً إعلاء شأن من يخبر أو يشهد ، ويجعله ما يتمنى أن يكون . ولهذا السبب ، كان معنى الشهادة تابعاً للتصور الشخصي والاجتماعي الذي يصنعه المخبر لمهنته : فالمجتمعات والمهن ، على سبيل المثال ، تكوّن فكرة لما هو عليه شاهد موثوق أو شاهد غير موثوق ، ومخبر أمين أو مخبر غير أمين .

ـ الأشخاص والمؤسسات الذين تنتقل الرسالة أو الإعلام انطلاقاً منهم

(فالشهادة أمام قاض من القضاة لا تحدّد المواقف التي تحدّدها الشهادة أمام رجال الأمن . ونقل الإعلام ، اذا كان المرء يعرف مدير التلفزيون ، لا يحدّد الإعلام الذي يحدّده حال كونه غير مطّلع على المعلومات) .

ـ مرجعية الشهود أو المخبر الاجتماعية الثقافية : يختلف الحدث الواحد الذي تنقله صحيفة « العالم » وصحيفة « فرنسا الأحد » اختلافاً جذرياً . ولا يؤدي الشهادة نفسها أستاذ في كلية فرنسا وعامل في مصانع دونو . فالتربية ومعايير الحياة ، والأخلاق النظرية الشخصية ، والإطار الاجتماعي الثقافي المألوف ، كلها عوامل حاسمة فيما يخص محتوى الرسالة أو الشهادة وشكلهما .

ـ بنية الجملة الإدراكية : إدراكنا تفسيري وإسقاطي دائماً . ولهذا السبب ، يجب أن لا تكون أي شهادة أو اي إعلام موضع الحكم وفقاً لمقاييس الموضوعية ، بل ، بالحري ، وفقاً لتحليل بنيات الادراك لدى الانسان [٦] : ان التفسيرات التي تطرأ على رسالة مرئية لا تطرأ على رسالة سمعية ، ولا تحدّد الرسائل الوجدانية والرسالات التقنية طبيعة اعلام واحدة (يثير تأثير بريجيت باردو ارتكاسات من النموذج الإسقاطي أكثر مما تثيرها معرفة الخصائص التقنية لنوع معيّن من الفولاذ أو لجودة منتج تركيبي) . وشاهد مشهد من مشاهد الاغتصاب لا يوظّف في شهادته البنيات الشخصية التي يوظّفها لو كان شاهداً على انفجار في بيت من البيوت . فدراسة بنيات الإدراك ونوعية المثير يمكنها أن تتيح إبراز الجانب الذي كانت سيرورات سيكولوجية معقّدة جداً قد سوّته في الشهادة أو الخبر .

ـ الزمن وبنية التواصلات : ويطرح ذلك مشكلاً مفاده أن نعرف إن كان المخبر هو الذي رأى الأحداث التي يخبر بها رؤية مباشرة ، أم أنه يقتصر على رواية أخبار المخبرين الآخرين . والمشكل نفسه مطروح بالنسبة للشهادة ، مع أن الشاهد ، مبدئياً ، هو من شهد الوضع بصورة مباشرة ودون وسيط . وتبرهن ضروب من التجريب ذات الطابع السيكولوجي أن المخبر ، أو الشاهد ، كلما كان بعيداً عن مصدر الأخبار كان ذا ميل إلى أن يحذف ، ويفسّر ، ويؤكد ، ويضيف

---

(٦) مرلوبونتي ، «فينومينولوجيا الإدراك» .

بعض الكلمات أو بعض العناصر من شهادته . والواقع أن « الشاهد » الأخير في النقل المباشر من الفم إلى الأذن سيكون ذا ميل الى ابتكار جملة أو ، على العكس ، إلى أن لا ينقل سوى بعض الكلمات غير المفهومة ، بالنظر إلى انه ليس لديه كلية الجملة الأصلية ولا صحتها . وتشوّه الرسالة تابع للزمن الذي ينقضي بين المرسل والمستقبل من جهة ، ولعدد الوسطاء الذين يؤلفون « سير النقل » في الإعلام ، من جهة أخرى . وهنا يكمن كل مشكل الإعلام الحديث بوسائل الاعلام : فبفضل الإنجازات في نقل الإعلام وسرعة هذا النقل ، يمكننا أن ننقل الرسالة نقلاً تقنياً في اللحظة التي تلي الحدث ، والتقنية في هذه الحالة تسعف العجز في ذاكرة الإنسان . غير أن أولئك الذين ينقلون الإعلام عديدون ، وقد يصل الإعلام من جراء ذلك مشوّهاً ، وعلى وجه الخصوص إذا وُجدت رقابات رسمية وناجعة تمنع الإعلام الموضوعي . ولا تكفّ سلسلة الذين ينقلون الإعلام عن الازدياد بسبب المسافة وتعقّد وسائل الإعلام . وبناء عليه ، فإن الإعلام لا يصلنا إلا وقد تحوّل إلى صدى بفعل « صناديق الرنين » ، أي مختلف الوسطاء ، ووكالات الأنباء ، والبنيات التقنية والبشرية للإعلام . فزمن الإعلام وبنياته يمكنها أن يساعدا على أن يكون الإعلام شاشة وحاجزاً ، أو ، على العكس ، أن يكون تعبيراً دقيقاً عن الحدث وموضوعياً بصورة نسبية .

ـ تأثيرات الامتثالات الذهنية والوجدانية : يتمّ تفسير رسالة الشاهد أو المخبر تبعاً لسلوكات ذاتية وإيديولوجية هي أسلوبنا في عَقْل الأحداث والإحساس بها انطلاقاً من الاختيار الضمني الذي نجريه بصورة لاشعورية على وجه التقريب . وعلى هذا النحو نفسّر المحتوى الذي نضعه في الرسالة وفق عاداتنا العقلية والوجدانية ، وآرائنا المسبقة ، وأفكارنا وارتكاساتنا الكامنة . فالرسالة ، بوصفها انعكاس مجتمعنا وأنفسنا معاً ، تغلّفها معتقداتنا وعاداتنا . والتحليل السوسيولوجي الذي يتناول محتوى الرسائل يمكنه أن يكشف عن نصيب الأنماط الثابتة ، الذهنية والوجدانية ، المساهمة في إعداد الرسالة أو في محتوى الشهادة الموضوعي .

ـ فرضية شارحة : إن الشاهد أو المخبر ، أخيراً ، ينطلق دائماً على نحو

ضمني أو صريح ، من رأي مسبق أو من فرضية شارحة ، ليؤدي شهادة أو ينقل رسالة . فالحدث أو الوضع هما غير مترابطين في ذاتيهما ، والإخبار أو تأدية الشهادة هما دائماً إعادة تبنين وضع من الأوضاع انطلاقاً من مقتضى الشرح العقلاني والتأليف . ويتيح إعداد هذا العمل العقلي عرض الرسالة ، أو الشهادة ، على أنها طبق الأصل وحقيقية بصورة عقلانية . وللمرء ميل إلى أن يرجع الحدث إلى ما يعتقده المجتمع أنه حقيقي بصورة مألوفة .

ثانياً - المقابلة أو العلاقة المتخصّصة

ممارسة العلاقات الإنسانية تجري ، على نحو متزايد ، في ظل نمط الحوار المتخصّص . فالمقابلة ، أو المحادثة ، علاقة ناشئة بين فردين ، لأحدهما دور إداري لأنه يحدّد هدفها وطريقتها ويضطلع بادارتها . وإلى فرويد إنما ندين ولا ريب بطريقة المحادثة ، بما أنه أسّس طريقة علاجية قاعدتها اللغة والمحادثة السيكولوجية التي أصبحت ميزة يتفرّد بها العلاج التحليلي ، إذ تخلّى عن النوم المغناطيسي في علاج الهستيريا .

إن علم الاجتماع أيضاً هو الذي نشر أيضاً طرائق المقابلة وأسّسها بفضل دراسة التواصلات ومتطلّبات الاستقصاء . وهذا التيّار المزدوج ، التحليلي والسوسيولوجي ، في العلاقات الاجتماعية والفاعليات المهنية ، شجّع هذه الصورة الجديدة المتخصّصة للعلاقات بين الأفراد . فالخبر ، والتلفزيون ، والإذاعة ، والسينما ، والصناعة ، والتجارة ، إلخ ، منحت صورة وأسلوباً لهذا النوع من العلاقات التي أصبحت الآن مألوفة لدينا . وتفترض طريقة المحادثة وتقنيتها حذقاً طابعه التقني ومهارته لا تُدرَكان أحياناً ، حتى أن هذا الاسلوب من العلاقات أصبح واضحاً لنا ومألوفاً : فالمخبرون الصحفيون ، والاستقصاءات ، والمقابلات المباشرة ، والملحق التجاري ، وعالم النفس ، الخ ،يستخدمون هذا النوع من التقنية استخداماً غالباً .

١ ـ الأسس النظرية للمقابلة

المقابلة أو المحادثة علاقة متخصّصة نشأت بين فردين صممّ أحدهما هدف المقابلة وطريقتها ، حتى يحصل على معلومات من الآخر ، وعلى أخبار أو أفعال ، تمضي في اتجاه الهدف الذي اختاره لنفسه . ولكن هدف المقابلة الصريح والظاهر يستخدم سلوكات لدى الفردين ، ودافعيات ، وارتكاسات غير معنيّة بهدف المقابلة ، وهي لاشعورية . ولهذا السبب ، فان علم النفس مسوق إلى النظر في الأسس النظرية للمحادثة باتجاهين :

ـ اتجاه التحليل النفسي الذي يتوقّف عند واقع مفاده أن للشخصين تاريخاً ورغبات لاشعورية تحدّد نتيجة المحادثة(٧) أكثر مما يتوقّف عند الوضع الحالي والدافعيات الشعورية لعلاقة المقابلة كما تبدو خلال التبادل . والمحادثة تواصل منوط بتاريخ فردين ، وبالنحو الذي بَنَيْنا عليه شخصيتيهما في الطفولة . والمحادثة ، إذا تجاوزنا هدفها الموضوعي ، هي التجلّي الضمني لرغبات فردين متواجهين ولميولهما . ومحتوى الرغبات اللاشعورية هذا غنيّ بالدلالة ، ذلك أنه سيتيح للمقابل أن يعبّر عنها . وذلك يفترض من جانب المقابل أن يعرف آليات اللاشعور المختلفة ليستخدمها في اتجاه الهدف من المحادثة وفي سبيله . فكل محادثة تستند إذن إلى محتوى ظاهر يُعبَّر عنه على وجه العموم تعبيراً واضحاً ، وإلى محتوى كامن من المناسب أن نكشف عنه القناع ، وأن نفسّره ، ونستخدمه(٨) .

ـ اتجاه دينامي (كورت لوفن) . فليست المحادثة ، على سبيل الحصر ، وصفاً يحدّده ماضي الفردين تحديداً تضافرياً ، وليست التعبير عن رغبات لاشعورية فقط . والمهم ، على العكس ، أن نرصد القوى التي ستؤثر على سلوكات فردين . فثمة دينامية للمقابلة تبنين لدى الفردين أدواراً نوعية وحالية تحدّد محتوى الاعلام المتلقّى . إن إجراء دراسة لشبكات التواصل الموضوعية ولتفاعل

---

(٧) انظر في هذا الكتاب فصل «العودة إلى فرويد» .

(٨) تحليل السلوك هنا يحيل إلى بنيات التفسير الموجودة في الأحلام (انظر «تفسير الأحلام» ، فرويد) .

الأدوار ، ذلكم هو هدف علم النفس الدينامي الخاص بالمحادثة .

وسيفهم عالم النفس ، انطلاقاً من المحادثة ، كيف ينبني التواصل بين الفردين . فالمحادثة إذن تطرح على الدوام مشكل الدافعيات ، ذلك أن السلوك ليس نتيجة وضعه الموضوعي . إنه أيضاً وعلى الغالب دفاع ضد تطفّل الغير (مستقصٍ أو ملحق تجاري) الذي يُدرَك بوصفه مهدّداً وعدوانياً . ففي إطار المحادثة ذاته ، يُدرَك الكلام على أنه مهدّد ، والفردان يمكنهما أن يتكلما دون أن يتواصلا بصورة حقيقية .

والمقابَل يمكنه ، على سبيل المثال ، أن يستبق الغير دون ان يصغي إليه ، في حين أن بوسع المقابِل تقويم ما سيقوله الآخر بصورة مستمرة ليثمّن الإجابات أو يرفضها . وهذا هو السبب في أن وضع المحادثة ضرب من الشلل على الغالب ، اللفظي والوجداني ، وعلى المقابل بصورة دقيقة أن يرصد هذا الشلل ، وأن يفهم ، وراء المحتوى اللفظي واللغوي لما يُقال ، غنى المعاش وما يُعبَّر عنه بصورة واقعية : فليست المقابلة إذن قائمة على إعلام موضوعي ، شعوري وعقلي . وتوضّح مساهمة التحليل النفسي الفرويدي عناصر التواصل الوجدانية والدافعية . وعلينا عندئذ أن نرصد ، في محتوى المقابلة ، دور التحديدات المتضافرة للسلوك اللفظي . وليس من الضروري أن نمثّل دور المحلّل النفسي ، بل ينبغي لنا أن نعترف بأن الوضع اللفظي يقبل الشرح بمصطلحي العقلانية والموضوعية قبولاً ضعيفاً . إن مساهمة لوفن توضّح السلوك المباشر الذي تحدّده القوى التي تعمل في اتجاهات التفاعل المتعارضة والمتناقضة والمتكاملة . وهذه القوى يثيرها وضع المحادثة ذاته : فلنضرب مثال المستقصي لدى إحدى السيدات : يذهب مستقصٍ إلى منزل امرأة تعاني السأم والعزلة حالياً : إنهما قوتان تمضيان في اتجاه تواصل مع المستقصي . ولكنها ، من جهة اخرى ، تعاني الريبة بصدده : وتلك قوة معاكسة للقوة السابقة ، تشير إلى أنها ستميل إلى الانسحاب من المحادثة ، ولاسيما أن لديها عملاً عليها إنجازه . من هنا منشأ التخطيطية التالية :

قوى إيجابية ـ سلوك	+	قوى سلبية ـ سلوك
سأم ، عزلة ← تهذيب ، حفاوة ←		← خشية ← ريبة
فضول ، انفتاح ومرونة ←		← نفاذ الصبر ← عمل يتطلّب الانجاز
رغبة في التعاون ←		← إثم ، رفض ← تحظير الزوج

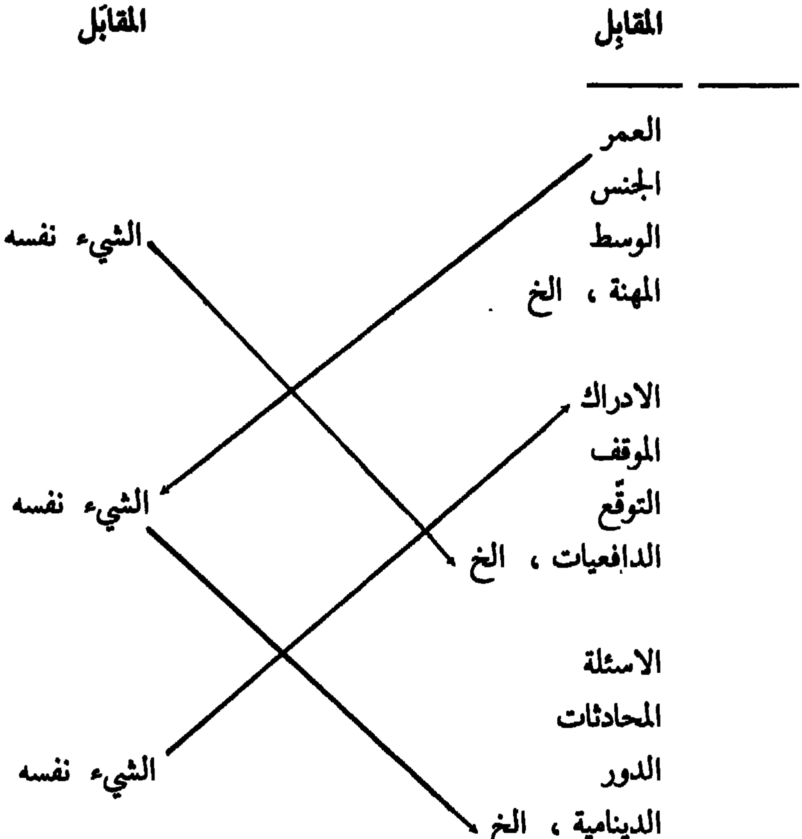
ونحن نرى في هذا المثال ، الذي يتكرّر كثيراً في وضع المقابلة ، أن القوى الإيجابية (تهذيب ، وحفاوة ، وانفتاح ، ومرونة ، ورغبة في التعاون) في صراع مع القوى السلبية (خشية ، ونفاذ صبر ، وإثم ، ورفض) . ويقوم فعل المحادثة على توجيه المحادثة نحو إضعاف القوى السلبية واستخدام القوى الايجابية . ومن المهم أن نعرف على الغالب ما يدفع الأشخاص للإجابة في اتجاه معينّ لنحدّد الأهداف والدافعيات ، لا من وجهة نظر الضرورات في المحادثة ، بل من وجهة نظر المقابَل . فتقدير الإجابات وقيمة المعلومات تبعاً لدافعيات المقابَل صعوبة من صعوبات المقابلة . ويمكننا أيضاً ، في حالة من هذا النوع ، أن نتبينّ مستوى توتر المستقصى لديه والمستقصي ذاته . وقد ينشأ هذا التوتر من أن كلا منهما قبل دوره قبولاً سيئاً ، وسيعبّر عن نفسه بقيمة المحتوى اللفظي ، بل وسيعبّر عن نفسه أيضاً ، وعلى وجه الخصوص ، بالحركات والإيماءات والارتكاسات المزاجية ، وحركات الرجلين واليدين ، الخ . والمحادثة ، بصورة عامة ، موسومة بثوابت تعبّر عن الحاجات الأساسية : إنها تُستخدم لإشباع حاجات الفرد إلى الاحترام ، والتقدير ، والمحبة ، والمحافظة على المنزلة الاجتماعية ، وإعلاء الشأن الشخصي ، الخ . فالاستخدام العفوي للمحادثة لا يمضي إذن في اتجاه الضرورات الموضوعية ، بل في اتجاه الحاجات الذاتية ، بحيث أنها ينبغي لها أن تبدو دائماً للمقابِل والمقابَل على أنها المحل ذو الامتياز لعدم التناقض بين الضرورات الموضوعية والشعورية وبين الحاجات الذاتية واللاشعورية . والمحادثة الكاملة هي تلك التي تحقّق وحدة الضرورات والحاجات وتوافقها . والمحادثة الفاشلة هي تلك التي تُبرز بعداً أقصى ، بل تناقضاً ، بين

الضرورات الموضوعية والحاجات الذاتية . فالمقابلة ، على الغالب ، هي وضع يستخدم آليات الدفاع : إن الأنا ، إذ تشعر بأنها مهدّدة ، ترفض المحادثة بالتملص من الأسئلة ، أو بعقلنتها إلى الحد الأقصى ، أو بالبحث لدى الغير عن صعوباته الخاصة بطرح آليات الدفاع التي تمضي في اتجاه ضرب من العدوانية والقمع والإثمية الكامنة القوية . وعندما تتكوّن الإثمية أو الحصر ، فان من الممكن وجود دفاعات لاشعورية غير مراقبة تعبّر عن نفسها بفلتات اللسان (٩) والأفعال الفاشلة وضروب الصمت ، وبمعدّل لفظي متسارع ، تصبح جميعها ذات دلالة على الانزعاج وعلى وضع الإثمية لدى المقابل أو المقابل .

ويمكننا ، في الدافعيات خلال المحادثة ، أن نميّز بين الدافعيات الداخلية التي تحدّد السلوك انطلاقاً من العاطفة الملازمة له ؛ فهي ، على سبيل المثال ، ممتعة أوغير ممتعة ، والإجابات في هذه الحالة متكيّفة مع إدراك المقابل ومعاييره ، وبين الدافعيات الخارجية بالنسبة للمقابلة ، التي تحدّد السلوك لأسباب خارجية بالنسبة له (المحادثة على سبيل المثال سارّة لأن المقابَل ذاهب لقضاء العطلة) ؛ فالإدراك والجو المحيط متكيّفان مع الشخصية والحدث اللذين أثارا عاطفة السرور . ولكن الدافعيات ليست سكونية ، وقد تتغيّر العواطف والإجابات خلال محادثة واحدة ، ذلك أن المحادثة تبنينٌ مستمر لحقل دافعيات الفردين السيكولوجي . وبوسع شخص حذر في البداية أن يصبح واثقاً أو عدوانياً لينهي المقابلة في اللامبالاة . فثمة بين المقابل والمقابل تفاعل في الأدوار ، والعواطف ، والدافعيات ، التي ستؤثر في التغذية الراجعة :

---

(٩) «علم الأمراض النفسي للحياة اليومية» ، فرويد .



وتدلّ هذه المساعي المتبادلة أن كلًّا منهما ، من الجانب الآخر من الكلام ، يباشر موقفاً ويعيش تجربة .

٢ - بعض الجوانب العملية من المحادثة

لا تكمن المقابلة في أن تفتح اتصالاً تعاطفياً مع شخص من الأشخاص . والموضوع ، في غالبية الحالات ، موضوع مقابلات مهنية وتقنية ينبغي للمقابِل فيها أن يشرك المقابَل في متابعة أهدافه ، وأن يبرّر بذلك بواعث حضوره وأسبابه . فعلى المقابل عندئذ أن يبنين دور الآخر ودينامية ما يجب أن يقوله أيضاً . ولكي نخبر أحد الأشخاص عن الدور الذي يُتوقّع منه ، ثمة مجال لاستخدام الطرائق غير المباشرة التي تكمن في استخدام تقني لمسار غير مباشر . ذلك أن المحادثة والدور إذا لم يكونا متبنيين ، فإن المقابل يتعرّض إلى خطر مفاده

أن يؤخذ بإيقاع المحادثة أو باللذة التي يشعر بها من جرّاء ذلك ، في حين أن عليه أن يرتبط ارتباطاً مرناً بالهدف الذي حدّده لنفسه .

أ ـ صياغة الأغراض

تكمن المحادثة غالباً في طرح أسئلة ، أي في أن يترجم المقابِل أغراض المحادثة في صياغة لفظية ، طارحاً على نفسه مسألة مفادها معرفة الكيفية التي يدرك بها هذه الأغراض ويفهمها . فمسألة اللغة مهمة جداً ، ذلك أن على المقابل أن يستوحي في صياغته من الإطار المرجعي اللغوي والثقافي الذي يتحرّك داخله المقابل عادة ، في الشكل والمضمون على حدّ سواء . وذلك يثير على وجه الخصوص معنى المحتوى الضمني للكلمات التي ليس لها مدلول واحد لدى المقابل والمقابل . ويؤدي ترتيب الأسئلة دوراً في تبنين المحادثة الدينامي والوجداني . ومن الضروري ، أخيراً ، أن يدرك المجيب بوضوح ، من خلال الأسئلة ، ما يُراد منه ، وذلك أمر هدفه أن يجعل وضع المقابِل مقبولاً وناجعاً حتى لا يكون هذا الوضع مسّاً بأنا المجيب الذي يُحتمل أن يصيبه بالجمود .

ب ـ استخدام المواد المتلقاة

ينبغي للمقابلة أن يكون لها نتيجة : فالأحاديث ، والمعلومات المعطاة ، يجب جدولتها . وينبغي للمقابلة أيضاً أن تكون قد أفادت في تقييم بعض المعلومات والأحكام . ومن الضروري غالباً إجراء تحليل للمحتوى ، في نهاية المحادثة ، يهدف إلى مراقبة الصحة والأمانة في طريقة المقابلة والأسئلة ، وعلى وجه الخصوص إذا كانت هذه المحادثة تتكرّر مرات عديدة ، ومع مجموع كبير من السكان . والمقابلة ، بهذه الصفة ، آلة قياس . ولهذا السبب ، ثمة مجال للتحقّق مما إذا كان الهدف قد بُلغ حتى يُجرى تحليل للأسئلة والإجابات ، ويُحكم على نجوع المحادثة . ومن الضروري أيضاً تفسير ضروب الصمت والانطلاقات الجديدة والتردّدات ، التي استطاعت أن تكشف عن جمود وجداني ، وكانت عاملاً سلبياً في المحادثة . وللشروع في كل مقابلة ، من المناسب اقتراح الموضوع والبدء مباشرة . وينبغي أن يكون اقتراح الموضوع بسيطاً وواضحاً ، وأن يباشر السير حقاً بالمحادثة ، بحيث يعلم المقابَل هدف المحادثة على نحو سريع ، وما يُتوقّع

منه . وهذا ما يمكننا تسميته حفز المجيب إلى المحادثة . فالنحو الذي تبدأ عليه المحادثة يحدّد النحو الذي تنتهي عليه غالباً ، بحيث أن المهم ، فيما بعد ، مراقبة الكيفية التي سارت بها البدايات .

جـ - بعض نماذج المقابلات والإجابات

يمكننا ان نردّ ، على نحو غير استنفادي ، سير المحادثة ، من جانب المقابِل ، إلى ثلاثة نماذج :

١) دعم غير توجيهي : أو احترام كامل لصمت المجيب أو ضروب صمته ، ضروب صمت أو موافقات غير تقييمية . وانطلاقات باستعادة كلمات المجيب . وانطلاقات باستعادة الأفكار أو العواطف الموحية بما قيل . وانطلاقات بملخّصات تأليفية لما كان قد قيل من قبل عن مجموع واسع بعض الشيء .

٢) محادثة شبه موجّهة : يطلب إيضاحاً أو أمثلة شخصية . ملخص تأليفي لما كان قد قيل ، ولكن ذلك يهدف إلى إدخال موضوع لم يعالج . وإطلاق فكرة ، أو موضوع ، أو محاولة لربط ما قيل بموضوع أُثير سابقاً . وإطلاق موضوع جديد ، ولكن من غير رابطة بما كان قد قيل ، يُصاغ صياغة مفتوحة . ومساهمة في إعلام موضوعي .

٣) مقابلات إيحائية :

أسئلة إيحائية بصياغتها أو يحسّ المقابَل على أنها كذلك . يعطي رأياً شخصياً أو يدعه يظهر . يحكم على ما يعبّر عنه المقابَل (تقدير إيجابي أو سلبي) . استباق : المقابِل يقاطع المقابَل ليعبّر عن الفكرة التي يُفترض أنها لديه . تفسير تعسفي يشوّه فكرة المقابَل . يبذل جهداً في تلخيص ما كان مكتسباً ، ويعلن النهاية شاكراً ويوقف تعليقاته بصورة مفاجئة .

إليكم بعض نماذج الإجابات التي يقدّمها المقابَلون على الغالب :

١) مساهمات عفوية : يكمل المجيب ما عبّر عنه ويعمّقه ويأتي بمعلومات جديدة على نحو عفوي . ويطرح سؤالاً على المقابل .

٢) الإجابة عن أسئلة مفتوحة : إجابات شخصية عن أسئلة مفتوحة ، يعطي رأياً ، أو معلومة ، طلبه المقابل . يرفض أو يتجنّب السؤال المطروح .

٣) ارتكاس على الإيحاء : يرتكس على السؤال ، ولكنه يسهم بمعلومته ،
معلومة موضوع شك ، حرّض عليها السؤال الإيحائي أو موقف المقابل .
ارتكاس وجداني على حكم ، وموقف ، وسلوك ، أو على وضع المقابل .

الباب التاسع

علم النفس

والعلوم الاجتماعية

الفصل الأول : السيكولوجي والسوسيولوجي

الفصل الثاني : الأنتروبولوجيا الثقافية

الفصل الثالث : سيكولوجيا الجماعة والتنشيط الاجتماعي

الفصل الأول

السيكولوجي والسوسيولوجي

في معرض مناظرة قديمة

المناظرة بين علم النفس وعلم الاجتماع ، التي أضرمت نار الخصومات الخاصة بالعلوم الإنسانية ، الخصومات الأكاديمية وغير الأكاديمية ، تبدو في أيامنا هذه وقد جرى تجاوزها . ولم يعد مشكل العلاقات يظهر أبداً ، أو على نحو أكثر دقة ، مشكل التفوّق بين علم النفس وعلم الاجتماع ، كما هو الشأن بين علم النفس والفلسفة من جهة أخرى ، إلا على أنه موضوع للمعالجة في امتحان البكالوريا . وليس مطروحاً على بساط البحث في هذا المجال أن نحيي المناظرة . وهذه المناظرة ، بصورتها الأولية ، كان ظهور علوم قادرة على إجراء تأليف للعناصر التي تنتمي إلى البعد السيكولوجي والبعد السوسيولوجي على حد سواء ، قد دفنها بصورة نهائية : ونقصد على وجه الخصوص علم النفس الاجتماعي والإتنولوجيا .

وإذا بدا مفيداً أن نقول بعض الكلمات عن هذه المناظرة ، الكلاسيكية في أيامنا هذه ، فذلك لأنها غير غريبة عن مشكل راهن ليست حدته متناقضة مع ذلك لأنه محجوب على الغالب . وهذا المشكل هو مشكل الوظيفة والمعنى اللذين تؤديها الممارسة السيكولوجية(١) . وليس الطبيب النفسي هو المقصود فحسب ، بل جميع الممارسات الاجتماعية التي تستعين بعلم النفس . فعالم النفس اكتسب منزلة اجتماعية تتفق مع الوظيفة التي يشغلها في المجتمع ، أو على وشك أن يكتسب .

(١) انظر في هذا الكتاب فصل «سيكولوجيا عالم النفس» .

ويحق للمرء منذئذ أن يطرح السؤال التالي : ما هي صلة هذه الوظيفة ، وظيفة عالم النفس ، بالوظائف الاجتماعية الأخرى : وظيفة رجل الأمن ، والقاضي ، والسياسي ، والمربي على سبيل المثال ؟ ويمكننا أن نصوغ السؤال بكلمات واضحة على النحو التالي : من له سلطة القرار فيما يخص الوظيفة التي ينبغي لعالم النفس أن يؤديها ، وما قيمة هذه الوظيفة ؟ فليس ثمة منازعة في نجوع علم النفس ، وليس مهماً أيضاً أن نعرف إن كان عالم النفس يؤدّي الوظيفة التي أُسندت إليه . بل المهم أن نفهم ما يرمي إليه النجوع ، ذو الأهمية الكبيرة أو الصغيرة ، في الممارسة السيكولوجية ، وما هدفه ، وأن نتبيّن الضرورة التي أتاحت النمو الاجتماعي لعلم النفس وتتيحه دائماً على نحو متعاظم .

وتحليل هذا الوضع الاجتماعي لعلم النفس ، بوصفه ممارسة ، لا يطمح إلى أن يقدّم حلولاً نهائية ، وذلك لدواعٍ كثيرة تنطوي على اختيارات نظرية بقدر ما هي من ميدان علم الواجبات ، أو سياسية واقتصادية أيضاً . ويرمي هذا التحليل ، على وجه الحصر ، إلى أن نحيط بقدر الإمكان ، إحاطة واضحة ، بالعناصر التي تتدخّل في الوضع الاجتماعي لعلم النفس حالياً ، وإلى أن نبرز المسائل الكبرى التي تنشأ من هذا الوضع لا حلولها . ومما لاغنى عنه ، حتى نحاول الإشراف على الوضع في مجمله ، أن نقول بضع كلمات عن المناظرة الكبيرة بين علم النفس وعلم الاجتماع .

أولاً ـ نزاع حدث تجاوزه

لعلم النفس ، بوصفه قطاعاً من قطاعات الفلسفة ، منشأ يختلط معها ولا ريب . والحقيقة ، فيما يخص علم الاجتماع ، أنه لم يظهر قط بصورة واقعية إلا في القرن التاسع عشر مع مؤلفات أوغست كونت ، ولو أن بوسع المرء أن ينسب إليه دراسات قديمة جداً بوصفها قاعدة هذا الفرع من المعرفة . ففي هذه المؤلفات ، يوجد الأصل ، ويوجد غالباً أكثر من ذلك ، لضرب من الخصام بين مؤيدي علم الاجتماع وأنصار علم النفس ، خصام سيدوم حتى الثلاثينات من هذا القرن في

أوروبا على الأقل .

وليس ثمة مجال ، في رأي أوغست كونت ، لتكوين علم إنساني خاص متميّز عن علم الاجتماع ، بالنظر إلى أن هذا العلم هو علم الانسان ، والتحليل السيكولوجي لا يمكنه أن يكون غير فرع من فروعه . وهذا الموقف لا يمكنه أن يكون مفهوماً إلا إذا كانت المصادرة القائمة على تأكيد أولية الاجتماعي على الفردي حاضرة في الذهن . فليست السلوكات الفردية إلا نتيجة التنظيم الاجتماعي ، وأوامره ، وضروب قسره . وفي معرض هذا الموقف ، الذي استطاع بعضهم أن يقول عنه إنه كان ضرباً من سيطرة علم الاجتماع على العلوم الإنسانية الأخرى ، إنما تلقّى علم النفس نظامه الأساسي من منهجية دوركهايم .

أولية الاجتماعي

علوم الانسان ليس بوسعها ، في رأي دوركهايم (٢) ، أن تنمو إلا انطلاقاً من منظور قائم على أن تُستأنف مصادرة أوغست كونت استئنافاً جذرياً ، أي أن الاجتماعي يؤلّف واقعاً مستقلاً أسمى من واقع الفرد ، وقائم على التأكيد المنهجي الذي أصبح شهيراً : « ينبغي لنا النظر إلى الحوادث الاجتماعية على أنها أشياء » . ويؤكد هذا المنظور بالطبع أولية التحديدات السوسيولوجية بالنسبة لكل ما يخصّ معرفة الإنسان ، وينظر على وجه الخصوص إلى مقياس الموضوعية على أنه ملازم لكل علم من العلوم ، طبيعياً كان أم إنسانياً .

وكان مؤيدو علم النفس يقابلون هذا الموقف السوسيولوجي الراديكالي بأن المجتمع يتألف أول الأمر من أفراد ، وأن هؤلاء الأفراد ، في الواقع ، هم العناصر الأساسية التي لا بدّ من تحليل تركيباتها لفهم المجتمع كما هو متكوّن . ولا بد أول الأمر ، بعبارة أخرى ، من معرفة الفرد ، ثم معرفة العلاقات بين الأفراد ، لإدراك تركيب المجتمع الإجمالي .

فالموقفان يختلفان إذن اختلافاً جذرياً . إن الواقع الاجتماعي ، من جهة ، هو المتصوّر على أنه سبب السلوكات والمواقف الفردية ؛ والمجتمع ، من جهة

---

(٢) دور كهايم ، «المطول في علم الإجتماع» .

أخرى ، لا يُدرَك إلا بوصفه نتيجةً لتركيب الأفراد جميعهم . فالمشكل ، بوصفه مطروحاً بهذه العبارات ، ليس له حلّ . والواقع أن محرّكي الخصام لم يكونوا قد حلّوه . وإذا كان للمرء في أيامنا هذه حق النظر إلى هذا المشكل على أنه حدث تجاوزه ، فذلك لأن بعض العوامل الجديدة التي ظهرت جعلته منسوخاً . وإليكم أهم هذه العوامل :

١) العامل الأول الحاسم ، مع أنه يصعب تحديده بوضوح ، يكمن في أن نمط العلوم الطبيعية يبدو بصورة متعاظمة أنه غير كافٍ ولا يتلاءم مع دراسة الانسان . وهذا يتجلّى بالفكرة التي مفادها أن المعرفة في مجال العلوم الانسانية ينبغي لها أن لا تكون معرفة بالشرح على سبيل الحصر ، بل ينبغي لها أن تكون ، وربما على وجه الخصوص ، معرفة بالفهم . فلا يعزو عالم اجتماع ، كماكس ويبر ، إلى علم الاجتماع تفسير الاجتماعي بالاجتماعي هدفاً ، بل يحدّد عمله على أنه محاولة لفهم الكيفية التي بها يفهم الناس بعضهم بعضاً في المجتمع ، والكيفية التي بها يفهمون المجتمع . وإلى هذا المشروع يضاف بحث تاريخي ، هو ذاته أيضاً من نموذج الفهم . ويقود هذا المنظور ماكس ويبر إلى وضع نمذجة ، دقيقة جداً ومعقّدة جداً ، لا تهمل الفرد على الإطلاق ، بل تحاول أن تدرك ، على نحو دقيق ، كيف يعيش هذا الفرد زمنه ومجتمعه من خلال مواقفه وسلوكاته ومثله ، الخ .

وفي العصر نفسه ، لدواع مختلفة وفي منظور مختلف ، يقطع فرويد صلته بعلم النفس التقليدي ، الذي كان عقلانياً وشارحاً ، لكي يشجّع انتشار ضرب من علم النفس ، هدفه الأساسي فهم الفرد المشخّص . وهذا الفهم يستجيب لضرورات علاجية . والحقيقة مع ذلك أن فرويد سيحاول أيضاً أن يمنح الأولية لعلم النفس ، ساعياً إلى أن يبيّن أن تقنيات التحليل النفسي يمكنها أن تمتدّ إلى مستوى الشرح السوسيولوجي (٣) . فاكتشاف الفهم ، بوصفه طريقة علمية ، سيمنح العلوم الإنسانية معنى المنظور : فلم يعد للتقابل بين علم النفس وعلم

---

(٣) انظر في هذا الكتاب فصل «الأنتروبولوجيا الثقافية» .

الاجتماع مجال في حدود قبولنا بأن الإنسان ، من حيث هو الذات العارفة وموضوع المعرفة ، ليس موضوعاً كغيره من الموضوعات الأخرى ، ولا يمكننا بلوغه بصورة تامة إذا ارتدّ إلى شيء من الأشياء . وسيدخل مفهوم المنظور تاريخ العلوم الانسانية انطلاقاً من هذه اللحظة ، وسيقلّل أهمية النزاع بين علم النفس وعلم الاجتماع حول حق الصدارة .

٢) والعامل الثاني الذي ينبغي لنا أن نشير إليه ، من حيث أنه يقلّل النزاع أيضاً ، أن عدداً معيناً من علماء النفس ، والأمريكيين منهم على وجه الخصوص ، بدؤوا يفكرون بأن الزمن قد حان ليكون علم النفس ذا نجوع واقعي بمعزل عن الطب النفسي . وفكرة ان علم النفس يمكننا استخدامه على نحو واسع جداً ، ومتنوع جداً ، هي أساس السؤال الذي كنا قد طرحناه في بداية هذا الفصل : ما صحة هذه الاستخدامات ؟ والحقيقة مع ذلك أن هذه الفكرة ستزيل بالتدريج جميع التعارضات المذهبية لمصلحة ضرب من ضرورة النجوع . ولن يتردّد بعضُ باحثون ، ككورت لوفن ، في أن يمزجوا المعطيات السيكولوجية والسوسيولوجية لإعداد تقنيات ممكنة التطبيق . والجزء الخاص من هذا الكتاب بالاصطفاء ، والتوجيه والتواصلات في المشروع ، أو التقنيات الإعلانية ، يثبت هذه الحالة على نحوٍ من الانحاء . وهذه البحوث المختلفة تتجمّع في علم أُريد له أن يكون عملياً بصورة أساسية : علم النفس الاجتماعي .

٣) والأمر الثالث المهم فيما يخص هذه المسألة ، مسألة الصلات بين علم النفس وعلم الاجتماع ، ظهور فرعين من فروع المعرفة ، يمكننا القول إنهما « متوسطان » ، ينزعان إلى دمج معطيات سيكولوجية وسوسيولوجية على حد سواء : والمقصود بهما الإتنولوجيا ، أو الأنتربولوجيا الثقافية كما يقول الأمريكيون ، وعلم النفس الاجتماعي الذي كنا قد ذكرناه سابقاً . ويمكننا أن نقول مع دوفرن إن الإتنولوجيا ضرب من علم الاجتماع السيكولوجي ، وإن المقصود بعلم النفس الاجتماعي ضرب من علم النفس السوسيولوجي .

وإذا كانت العوامل الثلاثة التي سبق ذكرها تتيح للمرء أن يفهم تجاوز النزاع ، فان وصفها ليس وصفاً استنفادياً على الإطلاق . ومع ذلك ، يكفي هذا

الوصف ليفهم المرء ان المشكل في مصطلحاته التقليدية مشكل منسوخ بصورة كلية . ويبينّ ما سبق مع ذلك أن الصلة بين علم النفس ، بوصفه ممارسة ونظرية ، وبين الاجتماعي ، المتصوَّر على انه موضوع العلم السوسيولوجي وبنية تندرج فيها الممارسة السيكولوجية ، هذه الصلة تظلّ واجبة التوضيح بصورة دقيقة . والإتنولوجيا ، التي ستكون موضوع الفصل التالي ، هي البرهان ، على مستوى التحليل ، على أن الصلة بين السيكولوجي والاجتماعي وطيدة من الناحية النظرية . ويبقى علينا أن نحيط عن كثب بوضع علم النفس في البنيات التي يمارس فيها عمله ، سواء أكان ذا قصد علاجي أم غير علاجي . ومن الواضح أن تنوّع الممارسات السيكولوجية يحول بيننا وبين أن نحاول إبراز المسائل التي تطرح نفسها في كل حالة خاصة . ويودّ ما سيلي ، بالحري ، أن يبرز المشكلات الأساسية التي يثيرها كل ممارس .

ثانياً ـ الممارسة السيكولوجية والبنيات الاجتماعية

الممارسة السيكولوجية هي التي ينبغي لنا أن نوجّه النظر إليها أكثر مما نوجهه إلى عالم النفس الذي ليس له بعدُ ، في فرنسا على الأقل ، وضع محدّد . ويمكننا ، على نحو إجمالي ووصفي ، أن نحدّد أربع وظائف كبرى يباشرها علم النفس بوصفه ممارسة اجتماعية . فالوظيفة الأولى وظيفة ثقافية أو إيديولوجية أو شارحة أيضاً ، والثانية هي الوظيفة العلاجية ، والثالثة تكييفية وانتقائية ، والرابعة أخيراً هي وظيفة الضبط . وقبل أن نجازف بتحليل الوضع الاجتماعي لعلم النفس تحليلاً نقدياً ، يبدو ضرورياً أن نعرض كل وظيفة من هذه الوظائف المختلفة عرضاً سريعاً ، ولو أن ضرباً من الممارسة يغطّي في بعض الأحيان عدة وظائف منها ، بالنظر إلى ان التفريق بين مختلف الوظائف تفريق وصفي لا شارح .

١ ـ الوظيفة الثقافية أو الإيديولوجية

هذه الوظيفة الثقافية أو الإيديولوجية ، أو وظيفة الشرح أيضاً ، هي الأولى من حيث أن عليها يكون ممكناً لجميع الوظائف الأخرى أن تنمو . ويجب أن نفهم

وظيفة علم النفس الثقافية أو الايديولوجية أنها التقديم الجديد للإنسان وتقديم معرفته التي تنمو بفضل البحوث الواقعية ، ولكنها التي تنمو أيضاً ، وعلى وجه الخصوص ، بجعل هذه البحوث في متناول الجميع . فكما كان لإنسان العصور الوسطى فهم معيّن لذاته بفضل ما كانت الكنيسة تعرضه ، وكان له أيضاً ، في الوقت نفسه ، فهم معيّن للكاهن ، كذلك الفرد في أيامنا هذه ، فإن لديه صورة لذاته ليس علم النفس غريباً عنها ، دون أن تكون الموازنة صحيحة نقطة فنقطة . والموازنة يمكنها أن تستمر . وإذا كان عامة الناس ، في الواقع ، غير مطّلعين على علم النفس بصورة علمية في أيامنا هذه ، فإن عامة الناس ، في العصور الوسطى ، لم يكونوا بمستوى دقائق اللاهوت . ويظلّ صحيحاً مع ذلك أن صورة الإنسان ، وإمكانات معرفته ، في الحالتين ، تستجيب لضرب من الضرورة ، أي تكييف سلوك الأفراد مع مقتضيات نظام اقتصادي ، واجتماعي ، وثقافي ، معيّن .

وتتجلّى هذه الضرورة بوضوح أكبر في تحليل الوظائف الأخرى . وكل ما يمكننا قوله حالياً إن هذه الوظيفة ، وظيفة علم النفس الايديولوجية ، ستتيح ممارسة علم النفس في جوانبها الأخرى . ولكي نفهم ذلك فهماً أفضل ، يبدو من الضروري أن نشير ببعض الكلمات إلى علاقة عالم النفس بموضوعه :

ـ إن علم النفس ، من حيث أن موضوعه ليس موضوعاً على وجه الضبط ، ذلك أنه ذات ، لا يصبح ممارسة ناجعة إلا بالحوار[٤] : ففهم المريض طبيبه النفسي يعادل في أهميته فهم الطبيب النفسي مريضه . وإذا كان هذا الحوار أمراً لا غنى عنه للمعالج النفسي ، فانه لا غنى عنه أيضاً لعالم النفس في المشروع ، أو لمن يؤدي وظيفة التوجيه المدرسي .

ـ إن المرحلة التي يتجلّى فيها علم النفس ، بوصفه علماً ، على أنه منظومة لها طرائقها ، وموضوعها ، ومنظوراتها الخاصة ، وفهم المطّلع على هذا العلم هذا العلم ، مرحلة ذات أهمية لنمو الممارسة السيكولوجية ذاتها . وهذه المرحلة هي مرحلة الكشف عن النفس ، مرحلة الكشف عن سر الإنسان . ومن المفروض ، في حدود ضيقة ، أن عالم النفس هو الذي يقوم ، في أيامنا هذه ، بهذا

الكشف الذي كان مأمولاً في كل حين . إن عالم النفس يتصف في حدود ضيقة غالباً أنه الكاهن ، ومن يكشف عن الوجود ، والمنشأ ، والمصير . ويظلّ هذا الفهم مع ذلك ، وإن لم يكن فهم الممارس ، هو الفهم الذي يعمل عليه . وإذا كان عالم النفس ، أكثر من الطبيب أيضاً ، سيد الحياة وسيد المصير ، فذلك لأنه ، على الغالب وأولاً ، بوسعه أن يمارس مهنته بفضل صورة اجتماعية له . والمثال على ذلك أن ما يسميه المحلّلون النفسيون التحويل خلال علاج من العلاجات ، هذه المرحلة التي يرتبط فيها المعالج النفسي بعلاقة خاصة سلبية أو إيجابية ، هي النتيجة الطبيعية لصورة علم النفس الثقافية بوصفها شرط النجوع في الممارسة السيكولوجية . ومن غير أن نرغب في الإلحاح على هذه النقطة المعقّدة جداً من التحويل (٤) ، ينبغي لنا مع ذلك أن نؤكد أهمية الصورة الاجتماعية لعالم النفس . ويكفي لكي يقتنع المرء بها أن يتصفّح المجلات النسائية ليدرك علم النفس في وظيفته الايديولوجية أو الثقافية الشارحة . وليس بوسع علم النفس أن يؤدي هذه الوظيفة الثقافية ، التي تبدو في الوقت نفسه على أنها ضرب من وظيفة الكشف عن الأسرار بصورة جزئية على الأقل ، بالنظر إلى أن سر النفس أصبح اللاشعور ، إلا لقاء صورة تضفي الأسرار على عالم النفس وعلى تقنياته .

٢ ـ وظيفة علم النفس العلاجية

ليس موضوع البحث في هذا المجال أن نحصي صور العلاج النفسي المختلفة (٥) . والمشكل يكمن في أن نحاول إبراز المعنى الاجتماعي لهذه الممارسة . فالوظيفة العلاجية كانت حتى حوالي بداية هذا القرن موكولة إلى ممارسة في الطب النفسي كان موقعها في إطار ملجأ المصابين بالاغتراب العقلي . ولا يبدو أن المحلّلين النفسيين عدّلوا على نحو محسوس معنى الوظيفة العلاجية ، حتى ولو أنهم يختلفون عن حرّاس المجانين ، من حيث أن عملهم مع المصابين بالعصاب يتيح لهم أن يمارسوا مهنتهم خارج بنيات الملاجىء . والواقع أن ضرباً من العلاج

---

(٤) انظر في هذا الكتاب فصل «تصنيف المرضى النفسيين» .

(٥) انظر في هذا الكتاب فصلي «التخلف العقلي» و «علاج المرض النفسي» .

النفسي ، من أي مستوى كان ، لا يتدخّل أبداً إلا على أساس من تعيين الفرد الذي يجب العناية به حسب مقاييس اجتماعية : خطر الجريمة ، والاغتصاب ، والسرقة ، والضروب المختلفة من فقدان الألفة الاجتماعية . فالمقاييس الاجتماعية هي التي تعيّن المجنون بوصفه مجنوناً (٦) ، أو المريض ذهنياً كما يقال الآن . ومقياس السوي والمرضي ليس ذا طابع سيكولوجي . فالمريض ذهنياً هو المغترب العقلي قبل كل شيء ، إنه من ليس بوسع القريبين منه والأقل قرباً أن يقبلوا سلوكه . ومن المؤكد أن الطب النفسي وعلم النفس يتدخّلان بالتالي ليعطيا مفهوم الجنون محتوى وتنوّعاً طبياً ، ولكن الممارسة السيكولوجية تتدخّل بعدهما . وهي تعمل على معطيات ليس بوسعها أن تضعها موضع التساؤل . فرجل الأمن ، والقاضي ، والأسرة ، هم الذين يقودون المريض إلى المشفى ، ويقولون على هذا النحو إنه مريض . ولن يتدخل الطبيب النفسي وعالم النفس إلا فيما بعد ليقولا أي نوع من الجنون هو المعنيّ .

وهذه التبعية ، تبعية الممارسة السيكولوجية للبنيات والضرورات الاجتماعية ، كبيرة الأهمية بالنظر إلى أن بعضهم استطاع أن يلاحظ أن بعض الشعوب كانت تبدي سلوكات لم يكن ممكناً أن يوجد مكافئاً لها لدينا إلا في سلوكات الذهانيين . فالمرء يجد نفسه عندئذ ملزماً بالاعتراف أن علم النفس عاجز عن تحديد موضوعه في الممارسة العلاجية . وهذه الممارسة تتلقّى وظيفتها ومعناها ، وغرضها أيضاً ، من البنيات الاجتماعية التي تندرج الممارسة فيها . وما هو موضع الاتهام ليس التبدّلات الفجائية التي طرأت على الطب النفسي في إدراك الجنون ، بل إن قدرته ، إن حقه في أن يتصور الجنون ذاته ، هو الموضوع موضع الاتهام . ويبدو تماماً ، في الواقع ، أن الطب النفسي يتلقّى من الخارج حتى مفهومه عن الجنون ، ويتلقّى هذا المفهوم على وجه الخصوص . فالطب النفسي والممارسة العلاجية هما اللذان ، نفساهما ، يثيران التساؤل : هل هما قادران على

---

(٦) انظر في هذا الكتاب فصل «سيكولوجيا العمل» ، وفصل «علم النفس في «المدرسة» .

تأسيس وجودهما إذا كانا عاجزين عن أن يؤمّنا لنفسيهما الحقل الخاص بعملهما ، وعاجزين عن أن يحدّدا موضوعهما الخاص ؟

٣ ـ وظيفة التكييف في علم النفس

تستجيب وظيفة علم النفس الايديولوجية أو الثقافية لضرورة مفادها التكييف الإجمالي للسلوكات الفردية مع البنيات الاجتماعية لنظام معيّن . وتستجيب الممارسة السيكولوجية في الوسط الصناعي أو المدرسي لوظيفة في التكييف أكثر وضوحاً (٧) ، والمقصود تكييف الفرد مع مقتضيات واضحة ، مقتضيات مؤسسة أو مشروع أو مركز من مراكز العمل . وثمة فصول في هذا الكتاب تلحّ إلحاحاً كافياً على جانبي الانتقاء والارتقاء في المشروع بحيث أن عرضهما هنا غير مجد ، وغير مجد أن نعرض هنا ممارسة علم النفس المدرسي .

ومن المؤكد أن مظهر التبعية الذي كنا قد لاحظناه ، بالنسبة للممارسة العلاجية ، لا يمكنه إلا أن يتفاقم في الوسط الصناعي أو المدرسي . فعلم النفس الصناعي يستجيب في المستوى الأول لمقتضيات الصناعة ، وعلم النفس المدرسي لمقتضيات المؤسسة المدرسية . وفي الحالتين ، تكمن الوظائف المختلفة ، وظائف التكييف والانتقاء والارتقاء ، في مقتضيات ، أو تستجيب لمقتضيات ليس بوسع الممارسة السيكولوجية مراقبتها ولا حتى نقدها . فالأمر المطلق اقتصادي في حالة وثقافي في الحالة الأخرى . إنه اقتصادي أيضاً في مستوى ثان . ولكن علم النفس ، في جميع الأحوال ، يرتدّ إلى حالة الوسيلة في سبيل هدف غير ذي علاقة به . ومن الضروري ، في هذا المجال ، أن نبيّن كيف أن المجتمعات المتطورة زادت عدد مراكز العمل لعلماء النفس ، وكيف أن هذه الزيادة ضرورة اقتصادية ، وسياسية في نهاية المطاف . ولكن ذلك يتطلّب دراسة البنيات الصناعية الحديثة دراسة دقيقة .

٤ ـ وظيفة الضبط

وظيفة الضبط التي يمارسها علم النفس وظيفة مزدوجة . فقد يكون ضرباً

---

(٧) انظر في هذا الكتاب فصل «علم النفس ، حضور ووجود» .

من الضبط الاقتصادي أو السياسي ، الضبط الذي يُمارَس من خلال الإعلان والدعاية . وقد يكون أيضاً ضبطاً ذا طابع ثقافي واجتماعي . وهذا النموذج الثاني من الضبط هو الذي يمكننا أن نشير إليه على أنه استرجاع نظام اجتماعي أو ثقافي عناصر تميل إلى أن تنفصل عنه أو تندّد به في أغلب الأحيان (٨) . والمعاينة ، فيما يخص الضبط الاقتصادي أو السياسي ، هي المعاينة نفسها المذكورة سابقاً . فالممارسة السيكولوجية لا تنفكّ تستجيب لمقتضيات ليس بوسعها أن تراقبها . والمشكل أكثر تعقيداً فيما يتعلّق بوظيفة الضبط الاجتماعية أو الثقافية . ذلك أن علم النفس ، في هذا الميدان ، لا يبدو تابعاً لضرورات خارجية بالنسبة له . والواقع أن وظيفة الممارسة السيكولوجية ، في هذا المنظور الأخير ، ترتبط على سبيل الحصر بأن علم النفس أكبر مقلّص للنزاعات . وعلينا ان نلاحظ أن هذه الوظيفة ، وظيفة الضبط الاجتماعي والثقافي ، هي الخاصة التي تتفرّد بها كل ممارسة سيكولوجية أياً كانت . ولهذا السبب يبدو بصورة متزايدة الوضوح أن الدور الاجتماعي لعلم النفس يكمن ، قبل كل شيء ، في أن يقلّص كل صورة من صور النزاع التي يمكنها أن تتدخّل بين بنية من البنيات وبين العناصر ، أي الناس ، التي تحتلّ مكاناً في هذه البنية .

ثالثاً ـ عالم النفس بوصفه يقلّص النزاعات

أياً كانت البنية التي تندرج فيها الممارسة السيكولوجية ، بنيات الإعلام ، ومشفى ، ومدرسة ، ومصنع ، الخ ، يبدو أن لهذه الممارسة دوراً أساسياً مفاده أن يقلّص كل نزاع منبعث ، أو يقلّص حتى مجرد إمكان انبعاثه ، بين معيار اجتماعي ، أو اقتصادي ، أو ثقافي ، أو غير ذلك ، وبين سلوكات الأفراد الذي ينتمون الى النظام الذي يحميه المعيار . فاذا ضربنا المثل الأقل اتصافاً بأنه

---

(٨) انظر كيف استخدم الأطباء النفسيون وعلماء النفس في مجتمعاتنا لكي يعيدوا إلى الصراط المستقيم أولئك الذين ابتعدوا عن النظام الاجتماعي .

مناسب ، مثل الإعلان ، يتبينّ لنا أن دور علم النفس هو ، في الواقع ، أن يقلّص لمصلحة الإعلان نزاعاً موجوداً بين سلوك للشراء ومعيار للاستهلاك . وبمختلف الصور ، التي تتّخذها الممارسات السيكولوجية ، تستجيب لشتى نماذج النزاعات التي ينبغي لها أن تقلّصها : إن العلاقة العامة ، أو عالم النفس في المشروع ، يرميان إلى أن ينزعا على الأقل فتيل النزاع الممكن دائماً بين الإدارة والمستخدمين ، إن لم يرميا إلى تقليصه ؛ والنزاع ، بصورة أكثر دقة ، موجود بين ضرب من معيار الإنتاجية وبين سلوك المنتجين . ولهذا السبب ، فان الوسائل السيكولوجية في الانتقاء ، والارتقاء ، وتنظيم التواصلات ، الخ ، ذات نجوع لا جدال فيه . أما الطبيب النفسي ، فيما يخصه ، فإنه يرمي الى تقليص النزاع الموجود بين معيار اجتماعي أو عدة معايير وبين سلوك مرضي . ووسائل العلاج النفسي تُمارس هنا ، ولكن قميص المجنون يُستخدم أيضاً . ومن الملاحظ أن علم النفس ، بوصفه يقلّص النزاعات ، يميل دائماً إلى أن يمارس وظيفته لمصلحة المعيار ، لمصلحة البنية التي تفرض سلوكاً : فإذا لم يعد ثمة وجود للانحراف ، فإن الممارسة السيكولوجية موجودة لتعيد التائهين .

ولكي نفهم هذا الدفاع الوحيد الجانب ، دفاع المعيار ضد المنحرفين ، حسبنا أن نتذكّر أن الوظيفة التي يشغلها عالم النفس هي ذاتها عنصر من عناصر البنية موضوع البحث : فالمشفى أنشأه نموذج من المجتمع ، معينٌ كل التعيين ، ويعني بذلك أن يكون له نجوع معينّ ؛ ولا توجد وظيفة عالم النفس في المشروع إلا بإرادة الإدارة . ويمكننا أخيراً ، لنوضّح ما أتينا على قوله ، أن نلاحظ وجود ممارسات سيكولوجية تتصف بأنها ، وإن كانت ترمي هي أيضاً الى تقليص النزاعات ، لا تفعل ذلك إلا بالكشف للمعنيّين عن البنيات السيكولوجية التي توحي بها . والمقصود بالتأكيد تقنيات التنشيط ودينامية الجماعات (٩) . بل إن هذه التقنيات يمكنها أن تكون وسائل ناجعة في ان تجعل بعض البنيات السيكولوجية والاجتماعية ، التي تكون متخثّرة ، بنيات متحركة . ومع ذلك ،

---

(٩) انظر في هذا الكتاب فصل «سيكولوجيا الجماعة والتنشيط الاجتماعي» .

فإن المشروع ، في هذه التقنيات ذاتها ، تقنيات التنشيط ودينامية الجماعات ، يظلّ تقليص النزاعات : فالنزاع ، بوصفه كذلك ، واجب الإلغاء ، وليس لأي نزاع دواع موضوعية على نحو واقعي بحيث يتعذّر أن نتلافاه بوسائل مناسبة . ويفهم المرء تردّد بعض الايديولوجيات ، وغالبية المناضلين الثوريين أيضاً ، في قبول الممارسة السيكولوجية بوصفها كذلك .

وإذا كان علينا أن ننهي هذه الإشكالية بضرب من الدعابة ، فإن علينا أن نقول إن الممارسة السيكولوجية ممارسة ذات خط إنساني ، بمعنى ممارسة تخفي ، وتخفي عن نفسها ، وظيفة الوقاية الاجتماعية من الصدمات التي ليس بوسع الممارسة السيكولوجية إلا أن تنجزها . والحقيقة أن بعض الممارسين ، والمحلّلين النفسيين على وجه الخصوص ، الذين يشعرون شعوراً حاداً بهذا المشكل ، حاولوا ان يكون لهم ممارسة ذات اتجاه مختلف كل الاختلاف . ولكنهم يصطدمون باستبعاد وقمع تمارسهما مختلف المؤسسات التي يعملون فيها . فرفضهم أن يلزموا الأفراد بالاستقامة والمعيار يسبّب لهم عقوبات إدارية ، كالطرد من المشافي ومن المؤسسات الطبية البيداغوجية ، وثمة مساعدون جامعيون أُلغيت وظيفتهم . . . وذلك ما تسرده مود مانّوني في كتابها « الطبيب النفسي ، « مجنونه » والتحليل النفسي » . وعلينا مع ذلك أن نعترف بأن هذه التجارب محدودة ، ولا سيّما أنها ، بسبب ذلك ، موضع هجوم كبير من المؤسسات القائمة ومن الوسط الطبي السيكولوجي .

* * *

الفصل الثاني

الأنتروبولوجيا الثقافية

لماذا ندرس البدائيين ؟

بيّنّ ما ذكرناه سابقاً أن الخصام بين أنصار علم النفس وأنصار علم الاجتماع كان يفقد معناه مع ظهور العلوم « الوسيطة » التي لا تطمح أبداً الى الحسم لمصلحة أحد الطرفين . فعلم النفس الاجتماعي والاتنولوجيا يقتبسان معطياتهما من علم النفس وعلم الاجتماع على حد سواء ، بالإضافة الى أنهما يأتيان بعناصر جديدة ، وعلى وجه الخصوص بطرائق قادرة على أن تدرك الاجتماعي في الفردي ، أي الشخصية الأساسية ، وعلى أن تدرك معنى السلوك الفردي ببنيات تفوته ، أي البنيوية .

وليس هاجس النجوع ، الذي يوجّه مصاير علم النفس ، غريباً أيضاً عن الإتنولوجيا التي لا تبدو مع ذلك ، للوهلة الأولى ، أنها تقدّم كثيراً من عناصر التدخّل . وهاجس النجوع ، فيما يخص علم النفس الاجتماعي ، يؤكده إعداد تقنيات التدخّل القادرة على أن تعدّل السير الوظائفي لمؤسسة من المؤسسات وتعدّل سلوك الأفراد (١) . ويظلّ صحيحاً مع ذلك ، بالنسبة للإتنولوجيا ، ولو ان النتائج العملية لا تبدو بسهولة كبيرة ، أن كثيراً من الأخطاء كان بوسع الأمم المستعمرة أن تتجنّبها لو انها أخذت البحوث الإتنولوجية بالحسبان ، وقد جرى تجنّبها في بعض الأحيان . وبوسع المرء أن يعتقد بأن الإتنولوجيا ستكون عظيمة

---

(١) انظر في هذا الكتاب فصل «التقنيات في علم النفس الاجتماعي» ، وفصل «سيكولوجيا الجماعة والتنشيط الاجتماعي» .

الفائدة في حلّ المشكلات التي تطرحها البلدان « المتخلّفة » . يضاف الى هذا أن دراسة الشعوب الأكثر اختلافاً عنا ، كما يلاحظ ليفي شتراوس ، تتيح للمرء أن يدرك نسبية كل حضارة ، ولو أنها الحضارة الأكثر تطوراً . وثمة إتنولوجي ، كمارغريت ميد ، كان قد شرع في دراسة الطبع الأمريكي بهدف المساهمة في جهود الحرب التي كانت الولايات المتحدة تبذلها حينئذ .

وكل يعلم على نحو غامض ما الاتنولوجيا . والمقصود بها دراسة الشعوب التي تسمى « بدائية » . وبالنظر إلى أن المعنى الاشتقاقي لمصطلح الإتنولوجيا مجرد « دراسة الشعوب » ، فان هذا المصطلح يُستخدم الآن بمعنى دراسة الثقافة لشعوب تجهل الكتابة . وهذا التعريف يُفضَّل على التعريف الذي يشير إلى هؤلاء الناس على أنهم بدائيون ، ذلك أن هذا التعريف الأخير يبدو أنه يُدخل فكرة تطوّر خطّي للإنسانية[٢] ، بالنظر إلى أن هذا التطور متقدّم كثيراً أو قليلاً بحسب الحالات . والحال أن دراسة الشعوب البدائية ، بحسب المصطلحات الدقيقة ، من مجال ما قبل التاريخ . ومن الأفضل منذئذ أن نفهم الاتنولوجيا ، مع ليفي شتراوس ، على أنها علم يرمي ، من خلال دراسة الشعوب الأكثر اختلافاً عنا ، إلى الخصائص العامة التي تميّز كل حياة في المجتمع . وكل يعلم أن السمك هو الأكثر بعداً عن كونه في وضع يمكّنه من معرفة وجود الماء . كذلك فإن لبحث الشروط العامة للحياة في المجتمع حظاً في أن يكون أكثر نجاحاً إذا كان المحلّل لا تغمره الثقافة التي يحلّلها غمراً كبيراً .

وعلينا أن نميّز الإتنوغرافيا من الإتنولوجيا لنوضّح المناظرة . فالإتنوغرافيا هي الوصف الأكمل ما يمكن للجماعات الاجتماعية . والإتنوغرافيا هي التي تقدّم المواد للتحليل الإتنولوجي . ويرمي التحليل الإتنولوجي الى توضيح الظاهرات الثقافية والحضارية . فالإتنولوجيا تقع عند ملتقى تيارين ، تيار التحليل النفسي : فعرض أعمال فرويد تؤلّف النقطة الأولى مما سيلي ، والتيار

(٢) هذه الخطية ينتقدها البنيويون ، وألتوسر على وجه الخصوص في تحليله التاريخ .

السوسيولوجي الذي يستمدّ مصدره من أعمال ليفي برول ، ودوكهايم ، ومارسل موس ، في فرنسا ، ومن أعمال بواز في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً .

أولاً ـ التحليل النفسي والمجتمع

أعمال فرويد ، التي تساهم في الوقت نفسه في تجاوز الخصومة بين علم النفس وعلم الاجتماع ، هي أيضاً محاولة أخيرة لحلّ المسألة في صالح علم النفس . ومساهمة فرويد الرئيسة في الإتنولوجيا ، بالمعنى المحدّد ، هي ولا ريب كتابه « الطوطم والتابو » . وقضايا هذا المؤلّف هي التي سنفحصها هنا . ومع ذلك ، ينبغي لنا أن نلاحظ أن لدراستين أخريين ، بالإضافة الى « الطوطم والتابو » ، أهمية كبيرة فيما يخص صلات علم النفس وعلم الاجتماع . والمقصود بهاتين الدراستين « علم النفس الجماعي وتحليل الأنا » من جهة ، والدراسة المخصّصة لظهور الديانة التوحيدية ونموها ، « موسى والتوحيد » من جهة ثانية .

١ ـ فرويد وعلم النفس الجماعي

يحاول فرويد ، في الدراسة المعنونة « علم النفس الجماعي وتحليل الأنا » أن يبيّن أن السلوكات ، وبنيات الجماهير أيضاً من جهة أخرى ، يمكنهما ، وينبغي لهما ، أن يحلّلا تبعاً لمفهومات إجرائية على مستوى السلوك الفردي . والمفهومات التي تتيح لنا أن ندرك العلاقات والبنية التي تدعم هذه العلاقات في الوسط الأسري ، ينبغي لها أيضاً أن تتيح لنا أن نفهم ما يحدث على مستوى جمهور من الجماهير . والمثال على ذلك أن وحدة الجمهور ، العاطفة الاجتماعية ، وما يسميه آخرون « غريزة القطيع » ، ليست في رأي فرويد إلا نتيجة لضرب من التوحّد . وهذه الآلية ، آلية التوحّد ، وهي تحوّل « عاطفة عدائية في الأصل الى تعلّق إيجابي » [٣] ، كان قد اكتشفها فرويد بفضل عمله على العصابيين ، وهي مبنيّة في

---

(٣) فرويد ، «علم النفس الجماعي وتحليل الأنا» .

رأيه على البنية الأوديبية التي تحدّد نموذجاً من علاقات الطفل النموذجية بأبويه [٤] . وآليات التوحّد ، التي نجدها على مستوى جمهور من الجماهير ، ليست سوى إنتاج لتوحّد الطفل بأبيه . ويحاول تحليل « جمهورين مشخّصين » ، الكنيسة والجيش ، أن يبرهن على صحة المنظور .

ولا ترمي الدراسة الأخرى ، « موسى والتوحيد » ، إلى البرهان على الصحة في تفسيرات التحليل النفسي على المستوى الاجتماعي بقدر ما ترمي إلى أن تسوّغ فكرة فرويد التي مفادها أن التطور الفردي (تطور الموجود الفردي) يعيد تكوين التطور النوعي (تطور النوع) . ويسعى فرويد ، في هذا العمل ، إلى أن يبرز أن التطور التاريخي للتوحيد ، للدين اليهودي وللمؤسسات التي تتصف بأنها نتائجه ، لا يمكننا فهمه إلا من خلال آليات كَشَفَ النقاب عنها علمُ النفس الفردي ، وتحليل العصابيين على وجه الخصوص . فتبعاً لبعض الآليات والمفهومات ، كالصدمة ، والكبت ، والكمون ، وعودة المكبوت ، يزعم فرويد أنه يشرح ، أو يفهم بالحري ، تطور التوحيد اليهودي من موسى إلى يسوع المسيح .

وليس مطروحاً على بساط البحث هنا أن نحكم على صحة التحليلات الفرويدية . بل كان من الضروري أن نقدّم لمحة عن هذين المؤلّفين من حيث أن كتاب « الطوطم والتابو » ناجم عن المنظور نفسه . وكما كان فرويد يتصوّر ، بفضل الكشوف ، تطور هذه المؤسسة خلال تاريخ الشعب اليهودي [٥] ، كذلك فإنه يعتقد أن بمقدوره أن يدرك معنى هاتين المؤسستين اللتين كانت الإتنوغرافيا في عصره تضعهما في المستوى الأول . وهاتان المؤسستان هما الطوطمية من جهة ، ووجود التابو (تحريم غير معلّل بصورة ظاهرة) من جهة أخرى . وكان الناس

---

(٤) انظر في هذا الكتاب فصل «النمو الوجداني لدى الطفل» ، وفصل «العودة إلى فرويد» .

(٥) ثمة محاولات جرت لفهم السبب الذي دعا فرويد إلى التساؤل حول تاريخ الشعب اليهودي ذاكراً أصله اليهودي .

يعتقدون ، في العصر الذي كتب فيه فرويد كتابه « الطوطم والتابو » ، أن هاتين المؤسستين كانتا خاصتين من خصائص الشعوب « البدائية » . وسيسعى فرويد ، بطرائقه الخاصة ، إلى أن يقدّم شرحاً مُرْضياً لهما .

٢ ـ الطوطم والتابو

أ ـ التابو

التحريم (التابو) الأكثر انتشاراً (٦) هو التحريم الذي ينصبّ على غشيان المحارم . وهذا التحريم ، المقبول في جميع المجتمعات ، يتّخذ صوراً عنيفة على وجه التقريب . ويبدو هذا التحريم لفرويد على أنه أيضاً أكثر بروزاً في المجتمعات المتطورة ، ولهذا السبب يستخلص من ذلك أن لتحليل معنى هذا التحريم حظاً في أن يتجلّى أكثر نجاحاً لو أُجري على مستوى المجتمعات البدائية .

وينطلق فرويد ، ليشرح تحريم غشيان المحارم ، من مبدأ نصّه أن كل تحريم لا ينفكّ يقمع رغبة من الرغبات ، وأن التحريم أشد عنفاً بمقدار ما تكون الرغبة أكثر قوة . والواقع أن للمرء حقاً في أن يتساءل عما يمكن أن يكون عليه معنى تحريم لا يقمع أي رغبة . فالتابو البدائي إذن ، في رأي فرويد ، ارتكاس وقمع اجتماعي يتوجّهان إلى رغبات الفرد الأشد قوة .

الكره والحب

ـ أحد المفهومات التي ألحّ عليه فرويد أشد الإلحاح هو مفهوم ازدواجية المشاعر . فالحب والكره ليسا متناقضين على الاطلاق في رأي فرويد . وغالبية علاقاتنا بالغير ، وعلاقاتنا بأقاربنا على وجه الخصوص ، تبدو وكأنها متأثرة ببعد مزدوج من الحب والكره . وكان فرويد قد اكتشف هذه الازدواجية ، ازدواجية المشاعر في علاقات الطفل بوالديه على وجه الخصوص خلال المرحلة التي يسميها عقدة أوديب . فالبنية الأوديبية موسومة بكون الطفل يرغب الزواج بأمه

---

(٦) يعتقد الاتنولوجيون ، وليفي شتراوس على وجه الخصوص ، أن هذا التابو موجود في جميع المجتمعات ، إنه كلي .

(الاستيلاء على مكان الأب) ، ولذلك يرغب في أن يقتل أباه الذي يمنعه ، بوصفه مالك الأم ، من أن يحتّل هذا المكان . يضاف إلى هذا أن الأب ، بوصفه مالك الأم ، يمثّل القانون والقوة بالنسبة للطفل ، وذلك أمر يودّ أن يكونه ، وبهذا المعنى ثمة حب للأب على صورة التوحّد (٧) . ويتبينّ المرء هنا إذن وضع الطفل ، وضعه الحرج : فهو يرغب في امتلاك الأم ، ولذلك يكره الأب الذي يحرّم عليه هذا الامتلاك ، ولكنه يحب الأب في الوقت نفسه ، من حيث أن الأب يحوز القوة وبه يتماثل . وهذه العلاقات ذات الطابع الذي لا ينفصم ، طابع الحب والكره معاً ، هي التي يسميها فرويد العلاقات ذات المشاعر المزدوجة : **فالطفل يرغب في قتل أبيه ليمتلك أمه ، ورغبته ترعبه في الوقت نفسه** . وستولّد هذه الازدواجية في المشاعر ضرباً من الحصر الذي يتصف بأنه نتيجة الخوف من تحقيق رغبة . والحصر لدى المصابين بالعصاب ، على سبيل المثال ، سيتجلّى على صورة هوس ، ورهاب (٨) ، أو هستيريا ، أي سيتجلّى بالمرض . فالتابو ، أي التحريم ، هو الصورة الاجتماعية التي يتّخذها هذا الحصر . والتابو هو التعبير الاجتماعي عن الارتكاس ضد الرغبات غير المعترف بها : إنه بديل الحصر .

ـ الأمثلة لا تُحصى . أما الأمثلة التي تلي ، فهي ليست هنا إلا على سبيل البيان .

لا يعرف سكان جزر تروبريون أي تحريم من الناحية العملية فيما يخص الجنسية . والتابو الوحيد ، ولكنه تابو جوهري ، يخصّ الصلات بين الأخوة والأخوات . فكل ما يتعلق بالجنسية ، وحتى على مستوى اللغة ، مستبعد من العلاقات بين الأخوة والأخوات . والبنات والبنين من أسرة واحدة لا يمكنهم أن يعيشوا أبداً ، منذ البلوغ ، تحت سقف واحد . والتحريم الذي يصيب الصلات

(٧) انظر في هذا الكتاب فصل «العودة إلى فرويد» ، وفصل «الشعور والبنيات الأسرية» .

(٨) يذكر فرويد حالة الرهاب لدى هانس الصغير في «خمس حالات من التحليل النفسي» ، حيث الحصان يسبب الخوف لأنه يمثل الأب لاشعورياً .

بين الأخوة والأخوات أكثر بروزاً بمقدار ما يكون موقعه في سكانٍ عاداتهم الأخلاقية الجنسية حرة إلى أقصى حدود الحرية .

وثمة تابو آخر ذو دلالة كبيرة هو التابو الخاص بالموت . وهذا التابو ، ولو أنه غير كلي ، شائع إلى أقصى حدود الشيوع . وثمة عدد كبير من التحريمات التي تثقل كاهل أولئك الذين يعرفون الحداد . وليست هذه التحريمات ، في رأي فرويد ، ممكنة الفهم إلا من حيث أن الفرد الذي يعاني الحداد ، كالأرملة على سبيل المثال ، كان في الواقع يتمنى موت المتوفى . ويبدو الحداد ضرباً من القصاص الذاتي للسبب الذي مفاده أن مثل هذه العواطف الآثمة والتي تضفي الإثمية كانت لديه .

ب ـ الطوطم

والمؤسسة الأخرى التي سيحاول فرويد أن يحلّلها هي الطوطمية . ويثير مفهوم الطوطمية نفسه مشكلاً في أيامنا هذه ، وذلك أمر لم يكن موجوداً في العصر الذي كان فرويد يكتب فيه . فما الطوطمية ؟ من المتعذّر إعطاء جواب بسيط ، ذلك أن الطوطمية تنطوي على تنظيم اجتماعي كامل . ومن الضروري لهذا السبب ، أن نصف مجتمعاً طوطمياً وصفاً سريعاً . فالمجتمع الطوطمي ، أو القبيلة الطوطمية ، ينقسم إلى جماعتين تنقسمان ، هما ، إلى عدة عشائر .

ـ والعشيرة جماعة من الأفراد يحسبون أنفسهم ذراري جد واحد ، هو والطوطم شيء واحد . والطوطم ، على وجه العموم ، حيوان ، ونبات في بعض الأحيان . فأولئك الذين ينتمون إلى عشيرة طوطمية يحسبون أنفسهم ذرية الطوطم (بجع على سبيل المثال) . يضاف إلى هذا أنهم يحسبون أنفسهم وكأنهم بجع ، وغربان ، وسرفات ، الخ ، ما دام الحيوان طوطمهم .

ـ وليس هذا الوصف كافياً ، ذلك أن الطوطمية تنطوي أيضاً على صور من القرابة الخاصة . فالزواج في العشائر زواج خارجي . ولكن ذلك يتيح فهم النظرية الفرويدية . ويمكننا أن نضيف أن أفراد عشيرة طوطمية لا يمكنهم أن يأكلوا طوطمهم إلا في أثناء الاحتفالات الدينية الاستثنائية .

ـ ومن الضروري إذن أن نفهم ونشرح تحريمين يبدوان أنهما يؤلفان

الطوطمية : تحريم أكل الطوطم من جهة ، ومن جهة ثانية ، تحريم الزواج بامرأة من العشيرة الطوطمية التي ينتمي إليها الفرد ، وهذا هو قانون الزواج الخارجي .

ولا ينفكّ التطور الفردي يكرّر حدوث التطور النوعي في رأي فرويد . والفرضية التي يستخدمها لشرح الطوطمية تقدم على القول إن المجتمعات الأولى عاشت الحدث بصورة واقعية ، ذلك الحدث الذي ليست مرحلة أوديب ، في التطور السيكولوجي الفردي ، سوى إعادة إنتاجه الرمزية . وينبغي لنا أن ننظر إلى الطوطمية في تنظيم الحضارات وتطورها على أنها تكافىء الأوديب فيما يتعلق بتبنين الفرد وتطوره . ولكي يتّخذ هذا التكافؤ معنى ، يكفي أن ننظر إلى طوطم العشائر البدائية على أنه رمز الأب . ومع أن من المتعذّر أن نلخّص نظرية فرويد في الطوطمية تلخيصاً سريعاً جداً ، فإن مما لا غنى عنه أن نعرضها : فهذه الدراسة ستتيح لنا ، بالإضافة إلى أهمية فرويد التاريخية فيما يتعلق بتحليل الطوطمية ، أن نبرز أهمية وجه الأب في مجموع مؤلفات فرويد .

٣ ـ اغتيال الأب

من داروين ، فرويد يقتبس الفكرة التي مفادها أن المجتمع البدائي ربما كان يتكوّن من عشير خاضع لسلطان ذكر قوي ولسيطرته المطلقة . وكان هذا الذكر ، على وجه الخصوص ، يحتفظ لنفسه بالإناث جميعهن ، وكان الأبناء محكوماً عليهم بالعزوبة ، والذكر ذو القوة المطلقة كان في الأغلب يطردهم من العشير . فتحالف الأبناء في يوم من الأيام ضد هذا « الأب » وقتلوه . وأكلوه لكي يحتازوا قوته . وما أن قُتل الأب حتى اختفت عواطف الكره ، ولم يبق سوى الاحترام ، وذلك أمر سبّب الندم لديهم . وعلينا ، هنا أيضاً ، أن نلاحظ ازدواجية المشاعر في علاقات الأبناء والأب . وبمجرد موت الأب ، تصارع الأبناء للحلول محله ، ولكنهم فهموا أن الحلّ الوحيد كان التفاهم ، وأنه كان لا بد لهم من أن يعقدوا اتفاقاً ينظّم القواعد القمعية الأولى . وهذه هي بداية التنظيم الاجتماعي . وبما أن الرغبة في غشيان المحارم كانت السبب في اغتيال الأب وفي الخصومات التي تلت ذلك ، فإن إحدى القواعد الأولى التي سُنّت كانت على وجه الضبط تحريم غشيان المحارم ، ولذلك ابتُكر الإلزام الذي يقضي بأن يتّخذ كل ذكر زوجة من

عشيرة أخرى غير عشيرته الخاصة . وتخلّي الأبناء ، من جهة أخرى ، عن أكل الطوطم ليقمعوا الرغبة في قتل الأب قمعاً رمزياً وليهدّؤوا الندم ، وهذا الطوطم كان وجه الأب بصورة لاشعورية . وإذا كانوا يأكلون الطوطم خلال الاحتفالات في بعض الأحيان ، فذلك احتفاء بذكرى الحدث ، حدث اغتيال الأب والتنظيم الاجتماعي الذي تلاه .

ويتيح هذا التذكير بالنظرية الفرويدية ، المختصر جداً ، أن نفهم السبب في أن التحليل النفسي يحتلّ مكانة ذات أهمية في الإتنولوجيا . وتتيح مفاهيم التحليل النفسي وطرائقه ، على الغالب ، أن نفهم ما يبدو بصورة قبلية أنه يتعذّر فهمه في ثقافة من الثقافات . وستستولي البحوث الاتنولوجية على وجه الضبط ، فيما بعد ، على هذا المصطلح ، مصطلح الثقافة ، بوصفه قادراً على أن يحدّد حقلاً مستقلاً للبحث الأنترويولوجي بصور أكثر دقة من مصطلح الأوضاع القديمة أو مصطلح البدائية : فالأمريكيون يسمون انتربولوجيا ثقافية ما يسمى في أوروبا إتنولوجيا . وهذا المصطلح ، مصطلح الثقافة ، يبدو أنه المصطلح المفضّل من حيث أنه يشتمل على البنيات الاجتماعية بقدر ما يشتمل على الأسلوب الذي يعيش به الفرد هذه البنيات : إنه بالضبط محل التأليف بين الفردي والاجتماعي ، إنه تماماً حقل التحليل الإتنولوجي .

والنظريات الفرويدية ، بالنسبة لتحليل ثقافة من الثقافات ، موضع المعارضة. فقد عارض مالونسكي [1] كل شيء بما في ذلك كلية أوديب . ويظلّ صحيحاً مع ذلك أن طرائق التحليل النفسي وبعض مفهوماته أمر لا غنى عنه في التحليل الإتنولوجي : فالأنترويولوجيا الراهنة لم تنكر فرويد ، بل أضافت أبعاداً أخرى إلى منظور التحليل النفسي . وثمة مجموعة من الباحثين الأمريكيين ، الذين يعملون على الغالب جماعة ، أفادوا من البحوث الفرويدية ليحاولوا ، من

---

(١) يؤكد مالونسكي أن الأب ليس هو الذي يربي الأطفال في بعض المجتمعات ، بل الخال . ولكن النقد ليس له مفعول ، ذلك أن الخال هو الأب البنيوي عندئذٍ . انظر في هذا الكتاب فصل «اللاشعور والبنيات الأسرية» .

خلال مفهوم « الشخصية الأساسية » ، ربط الجوانب السيكولوجية والسوسيولوجية ، الخاصة بتحليل ثقافي متنوّع بصورة كافية .

ثانياً - الشخصية الأساسية

يوجّه مفهوم « الشخصية الأساسية » أعمال عدد معيّن من الاتنولوجيين الذين يتحدّد موقعهم بين ضرب من اتجاه التحليل النفسي وضرب من الاتجاه الثقافي . والمنحى الثقافي ، الذي تتألف مساهمته من أعمال روث بينيدكت ، يلحّ على مفهوم الثقافة : فالثقافة ، أي مجموع الأعراف ، والمثل ، وأنماط الحياة ، والمؤسسات ، الخاصة بشعب من الشعوب ، هي التي تكوّن حضارتها أكثر من العرق .

وتطمح نظرية روث بينيدكت إلى أن تصنّف مختلف الثقافات انطلاقاً من تمييز ، أساسي في رأيها ، بين الديونيسي والأبولوني (*) . فالثقافات الديونيسية تمجّد الميول العدوانية ، والثقافات الأبولونية ، على العكس ، تمجّد الانسجام السلمي . وتصطدم هذه النظرية بصعوبات عديدة ، وهي على الأقل أثّرت قليلاً أو كثيراً على المحلّلين الذين يعملون بواسطة مفهوم الشخصية الأساسية .

١ - مفهوم الشخصية الأساسية

ثمة جماعة أمريكية تتألف من عدد من علماء الاتنولوجيا كانت قد طوّرت هذا المفهوم : لنتون ، وكورا دو بوا ، وروث بنزل ، وعالم النفس كارديدر . وثمة فرنسي ، دوفرون ، خصّص دراسة لهذا الموضوع . يقول دوفرون (٩) إن الشخصية الأساسية « مظهر سيكولوجي خاص ، خاص بأعضاء مجتمع معيّن ، ويتجلّى بطراز معيّن من الحياة يوشّي عليه الأفراد نسخهم الخاصة » . ويسعى

(*) ديونيسوس : إله الخمر والكرمة لدى اليونان القدماء ، ابن زيوس وسيميله ، وهو الإله الذي منحه الرومان اسم «باكوس» . أما «أبوليون» ، فهو إله النور والفنون لدى اليونان القدماء ، ابن زيوس وليتو «م» .

(٩) «الشخصية الأساسية» ، ميشيل دوفرن .

علماء الاتنولوجيا ، الذين يستخدمون هذا المفهوم ، إلى بناء شخصية لكل ثقافة ، تمثّل نموذج الفرد الذي ينتمي الى هذه الثقافة . وليس أمراً ذا أهمية كبيرة أن نعرف هل سبق لهذا النموذج أن كان قد تحقّق واقعياً . ففائدة مفهوم الشخصية الأساسية يكمن في أنه لا يتيح إدراك المؤسسات التي تكوّن ثقافة من الثقافات فحسب ، بل يتيح أيضاً إدراك الاسلوب الذي يعيش الأفراد به هذه المؤسسات ، وهو امر هام أيضاً . ويحاولون ، بالشخصية الأساسية ، أن يفهموا كيف تُعاش ثقافة من الثقافات . وعلى هذا المستوى إنما تكون مساهمات التحليل النفسي حاسمة .

٢ ـ الزمر الأولية والزمر الثانوية

ويحاول علماء الإتنولوجيا الامريكيون أن يميّزوا بين ضربين من المؤسسات ذات العلاقة بمفهوم الشخصية الأساسية : المؤسسات الأولية والمؤسسات الثانوية . فالمؤسسات التي تشرط الشخصية الأساسية ، وتصوغها ، تكون مؤسسات أولية . وجميع المؤسسات التي ترمي إلى تربية الأطفال ، والمؤسسة الأسرية على وجه الخصوص ، هي مؤسسات أولية على هذا النحو . والمؤسسات الثانوية هي ، على العكس ، تلك التي تمارس الشخصية الأساسية تأثيراً عليها : « فالثانوي هو ما ينجم في الفرد عن أثر الأولي عليه » [١٠] . إن الثانوي عندئذ هو المؤسسات السياسية أو الاقتصادية . وهذا التمييز أحد التمييزات الأكثر عشوائية ، والمصطلحان يمكنهما على الغالب أن ينعكسا . وما ينبغي لنا اعتباره جديراً بالانتباه في هذا البحث هو أن مفهوم الشخصية الأساسية يمثّل منظوراً مفضّلاً لدراسة ثقافة من الثقافات من حيث أن موقعها في البؤرة التي يعاش فيها القسر الاجتماعي (للمؤسسات) والتي منها ينبعث سلوك الأفراد الواقعي . وفي هذه النقطة إنما يمكننا أن نحدّد كيف تصوغ ثقافة من الثقافات فرداً ، وكيف يصوغها بدوره . وبما أن موقع هذه السيرورة المزدوجة يكون في الغالب على مستوى اللاشعور ، فإن طرائق التحليل النفسي عظيمة الفائدة . ويظلّ صحيحاً

---

(١٠) «الشخصية الأساسية» ، ميشيل دوفرن .

مع ذلك أن علماء الإتنولوجيا أولو اتجاه إلى الابتعاد عن فرويد من حيث أن القسر الاجتماعي أكثر أهمية بالنسبة لهم من الجوانب الفردية اللاشعورية . فهم يعزون دوراً حاسماً إلى الجهد ، الشعوري أو اللاشعوري ، الذي يبذله الفرد لكي يتكيّف : إن القسر يؤثّر بصورة مباشرة على الطبيعة الانسانية ليكوّن شخصية أساسية فريدة . فلفكرة الإحباط ، على سبيل المثال ، أهمية بالنسبة لهم أكبر من الأهمية الخاصة بنظرية العشير البدائي ، المبنيّة على ضرب من المدّ الاستقرائي للبنية الأوديبية لدى الطفل الأوروبي .

وعلماء الأنتروبولوجيا الأمريكان ليس بوسعهم ، في هذا المنظور ، حتى أن يطرحوا المشكل الذي كان قد أثاره ليفي برول ، أي مشكل كلية الفكر الإنساني : فكل ثقافة تخلق شخصيتها الأساسية المختلفة ، وليس ثمة شيء يتيح الحسم ، فيما عدا بعض التشابهات أحياناً ، لمصلحة قضية أو لمصلحة قضية أخرى : فهل لـ « البدائيين » ذهنية خاصة ، أم ينبغي لنا أن نؤكد « كلية الفكر الإنساني » كما قد يكون فرويد فعل ذلك أو كما يفعله ليفي شتراوس ؟ وليست نظرية الشخصية الأساسية هي التي تتيح إعطاء الجواب . فهذه النظرية تُستخدم لتحديد ثقافة من خلال مظهر سيكولوجي تولّده لدى الأفراد الذين يعيشونها . والإلحاح ينصبّ على الجانب الوجودي من الثقافة . والحال أن عالماً إتنولوجياً فرنسياً ، ليفي شتراوس ، يدّعي أن تحديد ثقافة من الثقافات مبنيّ على البنية ، بصورة مستقلة عن الأفراد الذين يعيشون هذه الثقافة . وهذا المنظور الجديد الذي يبني أبحاثه على نمط علم اللغة الحديث ، يمكننا أن نسميه منظوراً بنيوياً ، على عكس المنظور الوجودي للشخصية الأساسية .

ثالثاً - المنظور البنيوي في الاتنولوجيا

١ - البنية

التقارب بين الإتنولوجيا وعلم اللغة « عفوي » : فالصلات بين اللغة (*) والثقافة كثيرة ومعقدة . وبوسعنا أول الأمر ، لكي نستعيد في هذا المجال تحليلاً لليفي شتراوس (١١) ، أن ننظر إلى اللسان على أنه نتاج الثقافة (١٢) : فلسان شعب يعبّر عن الثقافة العامة لهذا الشعب . ولكننا ، بمعنى آخر ، يمكننا أن ننظر إلى اللسان على أنه جزء من الثقافة ، من حيث أن الثقافة مجموعة معقدة تشمل المؤسسات ، ومجموعة الأدوات ، والمعتقدات ، والأعراف ، واللسان بالتأكيد . وليست المشكلات هي ذاتها في الحالتين . كذلك يمكننا النظر أيضاً إلى اللغة على أنها شرط ثقافة من الثقافات : فباللغة يكتسب فرد من الأفراد ثقافة جماعته . وهذا شرط من حيث أن للثقافة بناء معقداً شبيهاً ببناء اللغة ، ومن هذا الجانب فهو شرط نظري . « وكلاهما ، اللسان والثقافة ، كما يقول ليفي شتراوس (١١) ، يُبنيان بواسطة تقابلات وارتباطات متبادلة، وبعبارة أخرى ، بواسطة علاقات منطقية ؛ بحيث أن بوسع المرء أن ينظر إلى اللغة على أنها منشأة مهمتها استقبال البنيات الأكثر تعقيداً في بعض الأحيان ، ولكنها من نوع بنياتها نفسه ، بنياتها التي تناسب الثقافة منظوراً إليها من جوانبها المختلفة » . ويتيح هذا الاستشهاد الأخير أن نفهم كيف أن اللغة هي نتاج الثقافة ، وجزء منها ،

(*) تستخدم«لغة» مقابل المصطلح الفرنسي «langage» و«لسان» مقابل المصطلح الفرنسي «langue». واللسان منظومة متبنينة من العلامات الصوتية (أو المدونة كتابة) التي يستخدمها الناس للتواصل بينهم . أما اللغة فهي استخدام اللسان للتواصل مع الناس الآخرين «م» .

(١١) ليفي شتراوس ، «علم اللغة والأنتروبولوجيا» في كتابه «الأنتربولوجيا الثقافية» .

وشرطها في وقت واحد . يضاف إلى هذا أنها تسوّغ محاولة الاتنولوجيا في أن تتّخذ التحليل اللغوي نمط التقصّي .

والقول الحق ، لم يتمكّن النمط اللغوي من أن يفرض نفسه إلا منذ أن أنشأ تروبتزكوي علم الأصوات إنشاءً رسّخ علم اللغة بين العلوم الدقيقة . وعلينا ، في هذا المجال ، أن نوضّح هذه الطريقة بالإلحاح على مفهوم أساسي هو مفهوم البنية . فطريقة علم الأصوات مبنيّة على أربعة نهوج أساسية . أولاً ، ينتقل علم الأصوات من دراسة الظاهرات اللغوية الشعورية إلى دراسة بنيتها التحتية اللاشعورية . ثانياً ، يرفض علم الأصوات أن يعالج الكلمات على أنها كيانات مستقلة ، بل يتّخذ ، على العكس ، تحليل العلاقات بين الكلمات قاعدة له . ثالثاً ، يُدخل علم الأصوات مفهوم المنظومة . فليس لمفهوم البنية معنى إلا بوصفه توضيح الصورة والسير الوظائفي لمثل هذه المنظومة من العلاقات اللاشعورية . رابعاً وأخيراً ، يرمي علم الأصوات إلى أن يستخلص قوانين عامة ، قوانين عامة ، إما مستقرأة استقراء ، وإما مستنتجة استنتاجاً منطقياً ، وذلك أمر يضفي عليها الطابع المطلق في رأي تروبتزكوي . ويظل صحيحاً مع ذلك ، ولو أن النمط اللغوي غير ممكن التطبيق بصورة مباشرة فيما يتعلق بالدراسة الاتنولوجية ، أن الفكرة التي مفادها أن التحليل ينبغي له أن لا ينصبّ على الكلمات وإنما على العلاقات بين الكلمات ، هي بالتأكيد في القلب من طريقة ليفي شتراوس . وثمة برهان ، نورده قبل أوانه ، هو التأكيد أن عنصر القرابة الأكثر بساطة ليس علاقة ذات حدين تسوّغ إمكان الانطلاق من حد الأب أو الابن لتأسيس علاقة ثنائية هي علاقة ثانية بالقياس إلى الحدين الفعليين . وعنصر القرابة الأكثر بساطة ، في رأي شتراوس ، بنية من العلاقة ذات أربعة حدود تضمّ الأم والخال بالإضافة إلى الأب والابن (١٢) .

والفروق بين التحليل اللغوي والتحليل الانتربولوجي البنيوي يمكنها أن تكون كبيرة ، وهي ذات علاقة ، على نحو رئيس ، بطبيعة الموضوع . فالمشكل

---

(١٢) انظر في هذا الكتاب فصل «بنيات القرابة» .

بالنسبة إلى علم اللغة ، على سبيل المثال ، ليس تحديد وظيفة اللغة ، فوظيفتها التواصلية واضحة ، وما كان مجهولاً ، وكان قد اكتشفه التحليل في علم الأصوات ، هو المنظومة التي تتيح للغة أن تبلغ هذه النتيجة . وعلى العكس ، فيما يخص منظومة القرابة ، فان الحدود التي تكوّن منظومة القرابة ، المنظومة ذاتها ، معروفة . وما يثير مشكلاً ، وما نجهله دائماً ، هو الاستعمال الذي تُخصَّص له الحدود والمنظومات . يضاف إلى هذا أن التحليل الإتنولوجي أكثر تعقيداً على الغالب : فمنظومة التسميات ، أب ، أم ، خال ، الخ ، لا تنطبق على منظومة المواقف ، وهي على أي حال لا تنطبق حداً بحد . وليس ثمة بين هاتين المنظومتين تناظر ، ولو أن بينهما علاقة وظيفية .

وهذا المفهوم ، مفهوم البنية ، شأنه شأن الشخصية الأساسية ، أُريد له أن يكون مفهوماً إجرائياً ، أي أداة من أدوات التحليل . ويتحدّد هذا المفهوم بثلاث خصائص أساسية :

- بأنه منظومة ، تنظيم ؛
- بالترابط بين الحدود ؛
- بتبعية الجزء للكل .

٢ ـ العنصر والكل

هذه الخصائص الثلاث تنطوي أول الأمر على ان العلاقات القائمة بين عناصر المنظومة مستقلةٌ عن العناصر التي تحتلّ مكاناً فعلياً في هذه المنظومة . وبعبارة أخرى ، لا تتغيّر بنية من البنيات الاجتماعية على سبيل المثال من جراء كون الأشخاص الذين يشغلونها يتجدّدون بصورة مستمرة . يضاف إلى ذلك أن هذه الخصائص الثلاث تنطوي على أن العناصر تتحدّد بالمكان الذي تشغله في المنظومة . فوضع أي عنصر في المنظومة هو الذي يمنحه معناه . وهذه الفكرة الأخيرة تتناقض تناقضاً مباشراً مع المظهر الوجودي والمعاش للشخصية الأساسية . وعلينا أن نلاحظ ، ملاحظة أخيرة بصدد تعريف البنية ، أن هذه المنظومة ، من حيث أن المنظومة مستقلة عن الحدود أو العناصر التي تشغلها ، لا

يمكنها ان تتميّز إلا بوصفها منظومة اختلاف(١٣) . فالعلاقات الفرقية الموجودة بين العناصر التي تشغل الأماكن في المنظومة هي التي تكون ذات أهمية

وتحليل أعمال ليفي شتراوس يستحق أكثر بكثير من هذا البعض من الأسطر المخصّصة لها هنا . ولكي نبينّ أن المسألة ليست مجرد نظرة نظرية ، علينا الآن أن نحاول إبراز الخيارات التي عبّرت عنها مجموعة أعمال شتراوس على نحو مشخّص .

ـ بالإضافة الى العناصر الثقافية التي تدخل في بنيات القرابة ، يلاحظ ليفي شتراوس أن العناصر الثقافية محدودة العدد بالنسبة إلى مؤسسة معيّنة . فصورة تراكيبها هي التي تتغيّر . وما يحدّد ثقافة من الثقافات ، في رأي شتراوس ، هو على وجه الضبط نظام التركيب المختار بالنسبة لعناصرها ذات العدد المحدود . ومن الممكن ، منذئذ ، أن يعتقد المرء بأن البحث الإتنولوجي سيتيح يوماً من الأيام وضع لوحة بجميع المنظومات الثقافية الممكنة . وما هو كلي يكمن في واقع مفاده أن ثمة قواعد تحكم حياتنا في المجتمع ، وأن ثمة ثقافة . والمشكل يكمن في أن نفهم تنوّع الثقافات وأن نشرحها : وهنا إنما يتدخل تعدّد التراكيب الثقافية (١٤) .

ـ القواعد التي تتصف بأنها شروط الحياة في المجتمع تحكم بعض التبادلات . هذه التبادلات هي تبادلات اقتصادية وفنية ولغوية واجتماعية ، إلخ . ويحق للمرء منذئذ أن يعتبر التراكيب الثقافية منظومات تبادل للمعلومات ، بالنظر الى أن هذه المعلومات ذات طابع متنوّع الى أقصى حد . وكما أن اللسان ، من جهة اخرى ، بنية لاشعورية بالنسبة لمن يتكلم ، كذلك شأن البنيات التي تحكم التبادلات على المستوى الاقتصادي ، أو الاجتماعي ، أو الفني ، أو مستوى فن الطهي ، فهي ليست شعورية بالنسبة لمن يمثّلون الأدوار (١٥) .

---

(١٣) «الكتابة والاختلاف» ، ديريدا ، منشورات لوسي .

(١٤) «الأنتروبولوجيا البنيوية» ، ليفي شتراوس ، ص ٣٠٥ .

(١٥) «النيء والمشوي» ، ليفي شتراوس .

تتيح هذه المسائل القليلة العدد أن نفهم أهمية النموذج اللغوي في الإتنولوجيا ؛ فـ « المبدأ الأساسي أن مفهوم البنية لا يرتبط بالواقع الاختباري بل بالأنماط المبنيّة بحسب هذا الواقع »(١٦) . وينبغي لنا أن نتجنّب الخلط بين مفهومين :

- مفهوم العلاقة الاجتماعية التي تقع على مستوى الواقعي ؛
- ومفهوم البنية الاجتماعية التي تقع على مستوى الرمزي .

فالبنية هي مبدأ المعقولية في العلاقات الاجتماعية . ويعبّر مفهوم النمط تماماً عن أن البنية ليست موجودة في الواقع الاجتماعي . ولكن مبدأ المعقولية الذي لا يتصف بأنه واقعي هو المبدأ الذي يشرط الواقع بصورة فعلية . إنه ما يضفي معنى على العلاقات الواقعية ، إنه ما يضفي عليها دلالة . والواقع الخام ، في رأي البنيويين ، ليس له بذاته أي دلالة ، فالمنظومة الرمزية هي التي توحي به ، والبنية هي التي تضفي عليه معنى . وقد رأينا أن الثقافة ، في رأي ليفي شتراوس ، يتصورها المرء أول الأمر على أنها منظومة من تبادل المعلومات . والحال أن التواصل يفترض دائماً دلالة من الدلالات . وتبادل النساء (١٧) في منظومات القرابة ، على سبيل المثال ، لا يصبح تواصلاً إلا بدلالة هذا التبادل ، دلالة تحيل هنا إلى تحريم غشيان المحارم .

والمشكل الذي أُثير في هذا الفصل كان يعبّر عن التعارض بين علم النفس وعلم الاجتماع . ففرويد ، ثم إتنولوجيو « الشخصية الأساسية » ، وليفي شتراوس أخيراً ، يتجاوزون المسألة ، كل على طريقته . لقد تجاوزها فرويد أول الأمر إذ أبرز الجوانب اللاشعورية من الحياة الاجتماعية ؛ ثم الإتنولوجيون ، أصحاب نظرية الشخصية الأساسية ، إذ حدّدوا موقعهم في نقطة دقيقة يتداخل

---

(١٦) انظر في هذا الكتاب فصل «بنيات القرابة» .

(١٧) من المفيد أن نقارن ، في الانتولوجيا البنيوية ، بين منظور التحليل البنيوي الخاص وبين تحليل الرمزي لدى جاك لاكان (انظر فصل العودة إلى فرويد في هذا الكتاب) .

فيها الاجتماعي والفردي . أما فيما يتعلق بليفي شتراوس ، فإنه اعترف على نحو أكثر سهولة بسوابق سوسيولوجية . ومع ذلك ، فإن على التحليل البنيوي أن يشرح المظاهر السيكولوجية والسوسيولوجية ، على حدّ سواء ، التي تنمو على مستوى ثقافة من الثقافات . ويتيح له منظوره أن يكتشف مستوى قادراً على أن يجعل المشكلات ، التي كان علم الاجتماع أو علم النفس يطمح إلى أن يحتفظ بها لنفسه ، جليّة . وهذا المستوى هو مستوى الرمزي الذي يصدر عن الواقعي بصورة متأنية .

الفصل الثالث

سيكولوجيا الجَمَاعَة

والتنشيط الاجتماعي

أولاً - ظهور فكرة الجماعة

- علم النفس الاجتماعي ، بالإضافة الى الاتنولوجيا ، هو العلم الذي ساهم أكبر مساهمة ، دون ريب ، في تجاوز الخصومة بين علم النفس وعلم الاجتماع . ومقتضى النجوع الذي كان ، وهو دائماً ، مقتضى عدد كبير من الباحثين الآخرين ، أتاح إعداد عدد معيّن من التقنيات التي تسمح بالتدخل العملي على مستوى الجماعات المغلقة نسبياً . ويتيح المفهوم السيكولوجي السوسيولوجي للجماعة إدخال طرائق علم النفس وتحليلاته من جهة ، ويتيح من جهة ثانية إدخال الفكرة ، السوسيولوجية على وجه أخص ، التي مفادها أن الجماعة لا يمكنها أن ترتدّ الى مجموعة الأفراد ، وأن لها تاريخها وبنيتها الخاصة .

- والجانب العملي من هذه البحوث ييسّره العدد المحدود من الأفراد الذين يتعامل المرء معهم . ويظلّ صحيحاً مع ذلك أن ثمة مشكلات أخلاقية أو سياسية تتدخّل عندما يكون موضوع البحث تقييم نتائج التقنيات التي تسمى تقنيات تنشيط الجماعات أو دينامية الجماعة . ويشمل مصطلح دينامية الجماعة هنا تقنية واضحة تنصبّ على جماعات محدودة العدد في أثناء تدريب لبضعة أيام . وهذا المصطلح ذاته ، دينامية الجماعة ، يمكنه أن يُفهم على أنه المكافىء لتعبير « سيكولوجيا الجماعات » . ومن الضروري ، لنفهم نجوع هذه التقنيات

ومعناها ، أن نقول أول الأمر بعض الكلمات عن دينامية الجماعات التي نتصورها أنها « سيكولوجيا الجماعات » .

١ - مفهوم الجماعة

- المصطلح الفرنسي « جماعة »مصطلح حديث ، مقتبس من اللغة الايطالية التي تستخدم الكلمة للدلالة ، بمصطلحات فنية ، على مجموعة من الأفراد مرسومين ، أو منحوتين ، ويكوّنون موضوعاً . وليس هذا المنشأ هو القادر على أن يوضّح المفهوم . والحق يُقال إن المفهوم ، مفهوم الجماعة ، يكتنفه اللبس جداً لأسباب كثيرة . وبوسعنا ، لنقتصر على ذكر اثنين من الأسباب الأكثر أهمية ، أن نشير الى أن الأوروبي لا يشعر على الغالب بوجود الجماعة ، وهو يدركها على صورة علاقات بين فردية ، هي دائماً ، في نهاية المطاف ، ذات أساس ثنائي ؛ والسبب الثاني لهذه المقاومة لمفهوم الجماعة سبب اجتماعي : إنه واقع مفاده أن الجماعات الكبيرة ذات ميل إلى أن تصغّر شأن الخصوصيات وتضعف أهمية الجماعات الصغيرة الى الحد الأقصى . وينضاف الى هذين السببين أسباب أخرى هي من مجال سيكولوجيا الطفل .

- وبوسعنا ان نميّز خمس فئات أساسية للجماعة : الجمهور ، والعُصبة ، والتجمّع ، والجماعة الأولية أو المغلقة ، والجماعة الثانوية . والتمييز بينها تابع لمقاييس كالعدد ، ومستوى التنظيم ، وتعقيد الاجتماعات ، والفاعلية ، والشعور بالأهداف ، الخ . وتميل سيكولوجيا الجماعات الى توجيه اهتمامها إلى دراسة الجماعات الأولية أو الجماعات المغلقة ، على الرغم من أنها تهتم أيضاً بالجماهير ، والعصبات أو الجماعات الثانوية (منظّمة تتصف بأنها مجموعة تسير سيراً وظائفياً وفق مؤسسات) . ويظلّ تعريف هذه الجماعات المغلقة أو الأولية تعريفاً إشكالياً . ويمكننا مع ذلك أن نستخلص عدداً معيناً من الخصائص :

- الجماعة الأولية تضمّ عدداً محدوداً (مغلقاً) من الأفراد : فكل فرد يمكنه أن يكون لديه لكل فرد من الأفراد الآخرين إدراك متميز فردياً ؛

- الجماعة المغلقة تسعى سعياً مشتركاً ، وعلى نحو فعّال ، لنيل أهدافها التي تُضفي عليها قيمة كبيرة ، وللجماعة المغلقة ثبات كبير ؛

ـ العلاقات الوجدانية بين أعضاء الجماعة يمكنها ان تصبح قوية ؛
ـ في الجماعة المغلقة ترابط بين الأعضاء وشعور بالتضامن ؛
ـ وأخيراً ، أدوار كل فرد في هذه الجماعات متمايزة ، وثمة تكوين للمعايير ، والمعتقدات ، والإشارات أو الطقوس ، الخاصة بالجماعة (١) .

وفي هذا النوع من الجماعة نموذجان من السلوكات يمكنهما أن ينموا تبعاً لدرجات ذات أهمية كبيرة أو صغيرة :

ـ النموذج الأول هو النموذج الذي يتألف من السلوكات التي ترمي الى « المحافظة على الجماعة بوصفها واقعاً مادياً وصورة مثالية »(٢) ، وهذا النموذج يميّز جماعات الأوساط الفنية أو جماعات إحياء الذكرى .

ـ النموذج الثاني من السلوك هو النموذج الذي يضمّ جميع التصرفات التي ترمي إلى التقدم أو تقود الى تحوّلات في أهداف الجماعة أو بنية الجماعة ذاتها . وهذه السلوكات هي سلوكات جماعات الضغط ، دون أن يكون بوسع هذه الجماعات أن تستغني عن تصرفات النموذج الأول .

وتستمدّ سيكولوجيا الجماعات مصدرها من مؤلفات كمؤلفات فوريه وأسطورة الفالنستير(*) ، أو من دراسات دوركهايم حول الوجدان الجماعي . وأخيراً ، ساهمت أعمال فرويد (٣) مساهمة كبيرة في تطور المنظور الجماعي في علم النفس . وعلينا ، فيما يخص السوابق الحديثة ، أن نتّجه صوب الولايات المتحدة الأمريكية . فثمة مورينو الذي أعدّ تقنية القياس الاجتماعي (٤) بعد أن ابتكر التمثيل النفسي . وينبغي لنا أخيراً ، لكي ننتهي من الروّاد ، أن نذكر اسم ميو

---

(١) (٢) «انظر دينامية الجماعات المغلقة» ، أنغريو دمارتان .
(*) الفالنستير : جمعية انتاجية واسعة يعيش في كنفها العمال حياة مشتركة في نظام فوريه الاشتراكي «م» .
(٣) انظر في هذا الكتاب فصل «الأنتروبولوجيا الثقافية» .
(٤) انظر في هذا الكتاب فصل «علم النفس العمل» .

الذي ساقته بحوث على مستوى سيكولوجيا العمل إلى أن يُبرز العلاقات الإنسانية في المشروع . ولكن مؤسس سيكولوجيا الجماعات ، ومخترع المصطلح ، مصطلح دينامية الجماعات في الوقت نفسه ، هو ولا ريب الألماني الذي تجنّس بالجنسية الأمريكية ، كورت لوفن . فأعماله منشأ جميع البحوث الراهنة ذات العلاقة بسيكولوجيا الجماعة .

٢ ـ علم النفس الدينامي لكورت لوفن

ينطلق لوفن ، المتأثر بسيكولوجيا الصيغة ، من الفكرة التي مفادها أن عمل الفرد يمكن شرحه بدءاً من البنية التي تقوم بين الفرد وبيئته (٥) . وهذه البنية ، في رأيه ، منظومة من القوى المتوازنة . فاذا اختلّ التوازن ، نشأ ضرب من التوتر ، وهدف سلوك الفرد إعادة التوازن . وهذه البنية ، التي تتألف من منظومة من القوى المتوازنة بين الفرد وما يحيط به ، هي التي يسميها لوفن الحقل الدينامي . فلوفن ، في هذا المنظور ، سيدرس ثلاث صور من توترات الشخصية الفردية وأنماط حلها :

ـ يمكننا القول ، باختصار ، إن صورة التوتر يوجدها عدم إنجاز عمل أُوقف : والحل يمكنه أن يكون محاولة متجدّدة أو ، على العكس ، لامبالاة أساسية .

ـ والصورة الثانية من صور التوتر ، الصورة الكثر أهمية ، هي التي تنشأ بفعل الإحباط . والإحباط يقود الفرد ، في رأي لوفن ، إما إلى تفريغ الشحنة العدوانية للتوتر ، وإما إلى الانكفاء ، أي الى انسحاب الحاجات غير المشبعة .

ـ والصورة الثالثة ، أخيراً ، من صور التوتر التي درسها لوفن هي التي تنشأ إما بفعل الإخفاق في عمل يتكرّر ، وإما بفعل السهولة الكبيرة جداً . وسيظهر حلّ التوتر بوصفه ارتفاع مستوى التطلّع لدى الفرد أو انخفاضه .

بعد هذه الدراسات التي كانت ، على الرغم من أنها تستخدم الجماعة ، متمحورة مع ذلك على الفرد وسلوكاته ، سيمدّ لوفن فكرته عن الحقل الدينامي

---

(٥) «تنشيط الجماعة» ، ماكسيو ، نشر دار كرونيك سوسيال .

إلى دراسة الجماعات الصغيرة . وكان لوفن ، في دراساته الأولية ، قد أبرز عدداً معيّناً من المفهومات ، كمفهومات مجال الحياة ، والبعد السيكولوجي بين الفرد ومحيطه ، أو الحواجز التي تبدو في حقل سيكولوجي . وستبينّ هذه المفهومات أيضاً أنها أكثر فائدة على مستوى تحليل الجماعات بالمعنى الدقيق للكلمة . يضاف الى هذا أن لوفن ، المتأثر بعلم النفس الأمريكي ، سيتحقّق من فرضياته بأسلوب تجريبي . وسيكون بمقدوره على هذا النحو أن يُدخل في وضع معينّ متغيّرات يمكنه أن يقيس مفعولاتها . وثمة تجربة شهيرة من تجارب لوفن ، الذي مارسها على جماعات الأطفال (٥ أطفال في كل جماعة) بمساعدة مرشدين مدرّبين على ان يخلقوا مناخاً اجتماعياً محدّداً ، ستسعى الى التحقّق من الفرضية التي مفادها أن الإحباط يؤدي الى الانكفاء . وقد كانت ملاحظة هذه التجربة دقيقة جداً .

وثمة، فيما يتعلق بهذه التجربة ، ثلاثة مناخات اجتماعية كانت قد أُنشئت :

ـ مناخ اجتماعي سلطوي : القرار يتّخذه المرشد وحده ، وهو الذي يحدّد النشاطات وتوزيعها أيضاً . ولا يشارك المرشد في النشاطات ، ويقدّم تقديرات شخصية .

ـ مناخ اجتماعي ديموقراطي : تتّخذ القرارات معاً بعد مناقشة مع المرشد . ولا يحدّد المرشد غير الأهداف العامة للنشاطات ، والتوزيع عفوي . ويشارك المرشد في النشاطات ، والتقديرات موضوعية .

ـ مناخ التلقائية : اتخاذ القرار غير محدّد ، ويشارك المرشد مشاركة ضعيفة . ولا يقدّم أي إرشاد فيما يخص النشاطات وتوزيعها . ولا يشارك أيضاً ، ولا يعطي أي تقدير .

دينامية الجماعة

نتائج هذه التجربة مدهشة في بعض الأحيان . فاذا كان المرء يتوقّع أن يُظهر المناخ السلطوي ، الذي يسبّب إحباطاً كبيراً ، نسبة مرتفعة من العدوانية ، فانه لم يكن يتنبأ أن يكون بوسع هذا المناخ أيضاً أن يُظهر جلسات فاترة بصورة كلية ودون أي عدوانية . وتظهر بعض الجلسات ، على العكس ، مشاهد من الحنق الجماعي يرافقه تخريب المواد .

وتُبرز السلطوية نموذجين من الارتكاس : الطاعة السلبية التي يمكننا تفسيرها على أنها مقاومة عدوانية كامنة ، وتفجّر العدوانية . وعلى أي حال ، فإن الفرضية التي مفادها أن الإحباط يتضمّن بالمقابل ضرباً من العدوانية فرضيةٌ ثبتت صحتها .

أما فيما يخص المناخ الديموقراطي ، فإن العدوانية تفرّغ شحنتها بالتتابع ، الأمر الذي يتيح المحافظة عليها في مستوى متوسط . وهذا المناخ هو المتصف بأنه أكثر ملاءمة لفاعلية منتجة .

ومناخ التلقائية هو المناخ الذي يكون فيه المعدل الوسطي للعدوانية أكثر ارتفاعاً ، وهو أمر يفاجىء المرء : فالأطفال كانوا يأتون لينجزوا عملاً بمساعدة المرشد ، والاحباط كبير جداً من حيث أن المرشد يتهرّب . ومع ذلك ، فإن صور العدوانية أقل عنفاً ، بصورة نسبية ، من صور العدوانية في المناخ السلطوي .

وكانت خلاصة هذه التجربة على النحو التالي : اذا كانت الفرضية التي مفادها أن الإحباط يسبّب العدوانية ، قد ثبتت صحتها ، فإنه يظلّ صحيحاً مع ذلك أن العدوانية تتّخذ صوراً مختلفة جداً بحسب مناخ الجماعة التي تظهر العدوانية فيها .

ونكتشف هنا مثال التدخّل الذي حافظ عليه دائماً علم النفس الأمريكي : فمثل هذه التجربة تتيح تكييف الارتكاسات لدى الأفراد تبعاً لنماذج المناخ ، وبالتالي تبعاً للقيادة . وقد وجد لوفن وسيلة التدخّل المفضّلة التي كان يطلبها علم النفس الأمريكي بإلحاح ، منطلقاً من الفكرة التي مفادها أن الجماعة تختلف عن مجموع الأجزاء ، بالنظر الى أن خصائصها مختلفة ، ومن حيث أن الجماعة مع بيئتها يمكننا اعتبارها حقلاً دينامياً .

والعناصر الأساسية في الجماعة هي الجماعات الفرعية ، والأعضاء ، وأقنية التواصل ، والحواجز . ويبيّن لوفن أننا إذا غيّرنا عنصراً واحداً من هذه العناصر (٦) ، فانه يمكننا أن نغيّر بنية المجموع في الجماعة ، ذلك أننا نغيّر منظومة القوى .

---

(٦) «دينامية الجماعات المغلقة» ، أنزيو .

ومنذئذ سيتّجه بحث لوفن ، بصورة عملية ، إلى دراسة « العلاقات الدينامية بين عناصر معيّنة وأشكال معينة للمجموعات [٧] » . والكشوف التي أتاحتها البحوث في المختبر ستُطبق على جماعات فعلية ، كالمصنع والمدرسة والحي ، التي تصبح منذئذ محلات لتدخّل ممكن . ومنظومة الترابط في الجماعة بين أعضائها ، وبين عناصر الحقل (أغراض ، ومثل ، ومعايير ، وأدوار ، وأوضاع ، الخ) تشرح السير الوظائفي لهذه الجماعة ونمطها في التدخّل الداخلي والخارجي . وفي هذه المنظومة ، منظومة القوى ، يكمن السبب لأعمال الجماعة أو لضروب كفّها .

ويستخدم لوفن تعبير « دينامية الجماعات » ليميّز أول الأمر نمطه الخاص في التقصّي ، ثم ليشير الى نمط التدخل الذي ينجم عنه . وهو ، على وجه الخصوص ، سيحيط عن كثب بكل ما يتعلق بالتغيّر أو بمقاومة التغير في جماعة من الجماعات . ومن حيث أن هذه الدراسات ستظهر عدداً معيّناً من العوائق ، ومن المقاومات للتغيّر ، فهي ستتيح تدخّلاً يرمي الى ضرب من تنشيط البنيات . وهذا هو السبب في أن جميع البحوث التي تنصبّ على تنشيط الجماعات هي ورثة أعمال كورت لوفن . إنه شقّ الدرب لميدان كامل من ميادين علم النفس الذي أُريد له أن يكون عملياً . وثمة عدد كبير من طرائق التحليل وطرائق التدخل ستُجدَّد بعده . ويقصد ما يلي أن يكون عرضاً سريعاً لها .

٣ ـ طرائق التدخّل في الجماعات

التدخل السيكولوجي ، بوصفه كذلك ، يطرح عدداً معيناً من المسائل سيُتاح لنا المجال للعودة اليها . ويبدو ، حالياً ، أن إجراء ضرب من التصنيف غير ممكن إلا انطلاقاً من زوجين من المتقابلات . فاما أن نسعى الى أن نبرز طرائق التدخّل المختلفة مستندين الى أن هذه الطرائق ذات هدف سريري أو تجريبي ، وإما أن نستند الى طبيعة الجماعة التي ينصبّ عليها التدخل ، ونتبيّن الطرائق التي تستخدم ممارسة تنصبّ على جماعات واقعية أو على جماعات اصطناعية . ويمكننا أن نسوّغ اختيار أحد هذين المنظورين . ومع ذلك ، فان

---

(٧) «التمثيل النفسي لدى الطفل» ، ويدلوشر .

للتمييز المبنيّ على طبيعة الجماعة مزية مفادها أنه واضح . فبعض الطرائق ، كطريقة جماعة التشخيص ، يكتنفها الغموض ، ومن العسير في بعض الأحيان أن يميّز المرء بين الهدف التجريبي والهدف السريري .

والطرائق الأولى للتدخّلات السيكوسوسيولوجية المراقَبة ، من الناحية التاريخية ، هي من أعمال مورينو . وقد يكون من الضروري أن نحسب هنا حساب التمثيل النفسي . بيد أن هذه التقنية تستخدم عدداً كبيراً من المفهومات والفرضيات ، مفهومات الأدوار ، والمشهد ، والعفوية ، والفرضيات الخاصة بالارتجال المأساوي وبنية المتخيّل ، بحيث يتعذّر أن نتكلّم عليها هنا . والمقصود بها تقنية معالجةٍ نفسية مبنيّة على فكرة مفادها أن الارتجال المسرحي يمكنه أن يكون له مزايا علاجية (٨) . وأكثر فائدة بالنسبة لهذا العرض هو التقنية المبنيّة على التحليل في القياس الاجتماعي .

أ ـ القياس الاجتماعي

يرتبط الناس بعضهم ببعض ، في رأي مورينو ، بعلاقة حسب ثلاثة أنماط أساسية : التعاطف والنفور واللامبالاة . وهذه العلاقات يمكنها أن تُقاس باستبانة نوزّعها على المجموعة ، مدرسة ، مصنع ، مؤسسة للحياة الداخلية ، إلخ . ويوسعنا عندئذ أن نستخلص عرضاً بيانياً يقيس نمط العلاقات وأهميتها داخل جماعة من الجماعات . ويمكننا أن نكتشف أشكالاً قادرة على أن تشرح بعض الظاهرات التي تبدو في الجماعة ، كتفكّك وحدة الجماعة على سبيل المثال أو ، على العكس ، تعزيز هذه الوحدة . ولوحة القياس الاجتماعي لجماعة من الجماعات تتيح التدخل على نحو يعيد تركيب العناصر بحيث تتجمّع ضروب « التعاطف » وتتوزّع ضروب « النفور » . ويتيح القياس الاجتماعي أيضاً تمييز المنعزلين والمنبوذين في جماعة من الجماعات . والتدخّل الذي يعقب الاستقصاء الخاص بالقياس الاجتماعي خاص بالعمل الذي يجري على جماعة طبيعية . ودراسة

---

(٨) انظر في هذا الكتاب فصل «التقنيات في علم النفس الاجتماعي» ، وفصل «الأنتروبولوجيا الثقافية»

الطرائق التي تنصبّ على هذه الجماعات الطبيعية هي التي تلي .

ب ـ العمل في الجماعات الطبيعية

يجري العمل على أرض الواقع ، أي في الإطار اليومي للجماعة المعنيّة . إنها المدرسة ، والورشة ، إنها مدينة الصفائح أو الثكنة أيضاً . وتفترض هذه الطرائق أن يكون الممارس مقبولاً لدى الجماعة ، وأن يشارك في نشاطاتها . وتنجم الصعوبة عن الملاحظ نفسه من جهة ، فهو في وضع ذي حركة مزدوجة يمكنها أن تغيّر تحليله (٩) ، وعن الجماعة ، من جهة ثانية ، التي يمكنها أن تغيّر سلوكها حين تعرف أنها موضع الملاحظة . يضاف الى ذلك أن هذا الحضور ، حضور الملاحظ ، قد يكون خميرة تطور الجماعة ، ومن الضروري عندئذ أن نقنّي هذا التطور في الاتجاه المرغوب . وطرائق التدخّل ، بالنسبة الى الجماعات الطبيعية ، محدودة العدد نسبياً . والطريقتان الأكثر أهمية هما طريقة التحليل النفسي ذات المرمى العلاجي ، والطريقة المسماة « رائز الغرفة » .

طريقة التحليل النفسي

لم يكن فرويد ذاته يتردّد في استخدام مفهومات التحليل النفسي لدراسة الجماعات (١٠) . وثمة عدد من علماء النفس ، المدرّبين على التحليل النفسي ، درسوا فيها بعد صور القلق الذي تولّده التغيّرات التكنولوجية في المشروع . وفي أعقاب هذه الدراسات النظرية ، فكر بعض المحلّلين النفسيين أنه كان ممكناً نقل تقنية العلاج النفسي ذاتها الى المستوى الاجتماعي ، وعلى الأقل الى مستوى الجماعات (١١) . فإذا كان ممكناً أن تكون الجماعات مريضة كالأفراد ، فعلينا أن يكون بوسعنا أن ننقل العلاج التحليلي الفردي إلى العلاج النفسي للجماعات . وعلى هذا النحو ، كان إيكورن ، في النمسا ، قد عالج بالمعنى الحقيقي جماعات منحرفة ، وكذلك نجح بيون في أن يعيد تكيّف بعض العسكريين والمقاتلين غير

---

(٩) انظر في هذا الكتاب فصل «علاج المريض النفسي» .

(١٠) انظر «بحوث حول الجماعات الصغيرة» ، بيون .

(١١) «تنشيط الجماعة» ، ماكسيو .

اللائقين للخدمة ، الذين كانوا يقيمون في مشفى للطب النفسي كان بيون مكلفاً به . وهذه التجربة ، تجربة بيون ، فريدة في نوعها ، من حيث أن الحصول على نتائجها كان يجري انطلاقاً من صلات لفظية على وجه الحصر ، كما هو الشأن في علاج التحليل النفسي . وربما نجح بيون ، جزئياً على الأقل ، في أن يمنح الكلام مجدّداً لأفراد تكمن مشكلتهم في ذلك .

طريقة رائز الغرفة

هذه الطريقة ، على خلاف طريقة التحليل النفسي ، ليست ذات مرمى علاجي . فهي تسعى فقط الى تحسين مردود الجماعة . وبما أن الجماعة ليست مريضة ، فان المهم تحديد التوقّفات أو المقاومات ذات الطابع النفسي على نحو يجعل فاعلية الجماعة أغنى . وتكمن طريقة رائز الغرفة في نقل المختبر التجريبي الى حقل البحث . والتجريب ذاته والحضور الدائم للمجرّب هما اللذان يثيران في الواقع سيرورة جديدة : إن الجماعة تجد نفسها في مناخ جديد . فالمجرّب ، على سبيل المثال ، يناقش مع عمال ورشة من الورشات تلك النتائج الحاصلة على مستوى عملهم وعلى مستوى التجربة ذاتها معاً . وهذا الحضور التجريبي ، بالحري ، هو الحاسم فيما يتعلق بالتدخّل . ويمكننا إذن أن نعتبر هذا النمط من التدخّل بحثاً إيجابياً ، من حيث أن أنماط التقصيّ هي التي ستغيّر الوضع : فالتقصيّ تدخّل ، وهذا المبدأ سيجد نفسه متحقّقاً على مستوى تحليل الجماعات الاصطناعية على نحو أكثر أيضاً .

جـ ـ العمل في الجماعات الاصطناعية

الجماعات الصغيرة في المختبر كانت شرط العمل التجريبي . لذلك فهي موضوع بحوث تزداد اتصافاً بالمنهجية منذ أيام لوفن . ولم يكن ثمة تجربة على الجماعات الاصطناعية قبله ، وكان يُكتفى بمقارنة الإنجازات لدى فرد منعزل بإنجازات أفراد يعملون جماعة . ولم تكن الجماعة تبدو منذئذ إلا على أنها متغيّر كانوا يدرسون تأثيره على سلوك الفرد .

والجماعة ، بوصفها كذلك ، هي التي تكون موضع التساؤل بدءاً من لوفن . والظاهرات التي تحدث فيها لا ترجع الى علم النفس الفردي ، بل هي

تابع لحقل القوى الذي تكوّنه الجماعة . فظاهرات الجماعات ، بوصفها كذلك ، هي التي تكون موضع الدراسة : التماسك ، والمعايير ، والتوترات ، والانجذابات ، والتأثيرات ، إلخ . وثمة سعي في إطار المختبر إلى تعديل متغيّر واحد وتحديد النتائج المترتبة على ذلك . والتجربة ترمي الى إثبات فرضيةٍ أو نفيها عند الاقتضاء .

وهذا النموذج من التقصيّ مُحص مَحْصاً بعد لوفن . فثمة استخدام لعدة متغيّرات وتعديل لها في الوقت نفسه ، وذلك أمر يتيح أن نضع جداول يمكننا مقارنتها بالجداول المستخدمة في الرياضيات .

وصعوبة هذه الطريقة تنجم بالتأكيد عن ضرورة المحافظة على المتغيرات ثابتة . ورقابة المتغيرات ، من جهة أخرى ، شائكة على الغالب . ولتلافي هذه الصعوبة الأخيرة ، يمكننا أن نزيّف الجماعة ، أي أن نشرك فيها أفراداً مدرّبين ، دون علم الأفراد الآخرين ، يمنعون الجماعة من أن تتوجّه في اتجاهات غير تلك التي ترمي إليها الدراسة .

والتقنية التي تُمارس في أيامنا هذه ، وتتجنّب عدداً معيّناً من الأسئلة التي لم يسبق أن كان ثمة إجابة عنها ، هي الطريقة التي تسمى جماعة التشخيص . والتدريبات على دينامية الجماعة ، التي أصبحت شائعة في أيامنا هذه ، تنطوي على بعض خصائص هذه الطريقة .

والميزة الكبيرة لجماعة التشخيص أنها تتصرف بحيث لا تكون التجربة مفيدة للمجرّبين فحسب ، بل وللمشاركين أيضاً . وينبغي للتجربة ، بالنسبة للمشاركين ، أن تتجلّى بالمعرفة واحتياز الشعور . وبعبارة أخرى ، ليس مرمى جماعة التشخيص تجريبياً فحسب ، بل إنه أيضاً ، وعلى وجه الخصوص ، مرمى تكويني بالنسبة للأفراد الذين يشاركون فيها . وجماعة التشخيص ، التي ربما تكون أكثر من تجربة بالنسبة لمن ينظّمها ، هي تدريب على دينامية الجماعة بالنسبة لأولئك الفاعلين فيها .

٤ ـ جماعة التشخيص وحركة إضفاء الصفة الاجتماعية

بوسعنا أن نعتبر جماعة التشخيص ، دون جدال ، طريقة من طرائق تنشيط

الجماعات (١٢) . وتتدرج التقنية المسماة جماعة التشخيص ، شأنها شأن مجموعة الطرائق في تنشيط الجماعات ، في منظور من تحريك البنيات التي تُعتبر صلبة . وترمي بعض التقنيات في تنشيط الجماعات إلى إضفاء الحيوية على البنيات الاجتماعية الخاصة بالجماعات المنظّمة . ومركز اهتمامها ، في نهاية المطاف ، أن تجعل البنيات الخاصة بجماعة من الجماعات ، كمشروع على سبيل المثال ، منسجمة مع مقتضيات الحياة الراهنة . هذه المقتضيات ذات علاقة ، على وجه الخصوص ، باتساع التنظيمات وتنوّعها ، أو ، على نحو أكثر عمومية ، بما يسمى في بعض الأحيان حركة إضفاء الصفة الاجتماعية . وهذه الحركة ، التي تتميّز بتحوّل البنيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، تتجلّى على وجه الخصوص بازدياد الروابط الاجتماعية ، وبضرب من تسارع التاريخ ، واستمرار التغيّر ، وتطور الأجهزة الوسيطة ، والانتقال من حق فردي إلى حق اجتماعي . والخلاصة أن حركة إضفاء الصفة الاجتماعية تتجلى على نحو أساسي بعالم يتنامى تنظيمه بصورة مفارقة (القسر الاجتماعي يتسع في جميع المجالات : القانون والمدرسة ، والإعلام ، والنقابة ، الخ) ، وبضرورة التغيّر الدائم .

وأول وظيفة من وظائف تنشيط الجماعات تكمن في حلّ هذا النزاع بين تنظيمات تزداد أهمية وبين ضرورة مفادها أن يكون هذا العالم المنظّم بمغالاة عالماً متطوراً ، أو حتى متغيّراً تغيراً مفاجئاً ومتسارعاً .

والوظيفة الثانية من وظائف تنشيط الجماعات مرتبطة بنتائج الحركة ، حركة إضفاء الصفة الاجتماعية . وتنزع هذه الحركة ، بصورة حتمية ، إلى ضرب من إضفاء التجانس على الأفراد ، وإلى تجريد العلاقات الاجتماعية من صفتها الإنسانية . وتحاول طرائق تنشيط الجماعات أن تقلّص هذه النتيجة وأن تتيح للفردي ، والأصيل ، والتنوّع ، أن تتجلّى . وفي هذا المنظور ، تبدو طرائق تنشيط الجماعات على الغالب ذات خط يضفي الصفة الشخصية . والمقصود أن تُمنح « الجدارة الشخصية » للفرد مجدّداً ، وأن يُبعث الاختلاف الواقعي الذي قد

---

(١٢) «العلاج النفسي والعلاقات الإنسانية» ، روجرز .

تقيم الرغبة وحدها قواعده . ويحاول تنشيط الجماعات ان يمنح الفرد إمكان القبول برغبته لا أن يكبتها أبداً ، وأن يوطّد نفسه بصفته شخصاً أصيلاً . ولمواجهة التراكم في الفروق الوهمية المترابطة مع الميل إلى إضفاء التجانس على الأفراد ، كالتمايزات الإعلانية على سبيل المثال ، تسعى طرائق تنشيط الجماعات إلى المحافظة على اتجاه الفروق الواقعية التي تكوّن الشخصية الحقيقية . وفي هذا المشروع الثاني لتنشيط الجماعات ، تندرج جماعة التشخيص . والمقصود أن يُتاح للأفراد ، بهذه الطرائق وبالدينامية الكامنة التي تحتازها الجماعة ، أن يعبّروا عن رغباتهم وعن نزاعاتهم في سبيل الاعتراف بها وقبولها . ذلكم هو الهدف ، ويبقى علينا أن نصف الطريقة .

وطريقة جماعة التشخيص مستوحاة أول الأمر من بحوث لوفن ، ويُعتمد فيها على دينامية الجماعة لتحقيق هذا المشروع ، ثم على كشوف التحليل النفسي في كل ما يتعلق بتفسير السلوك .

ويكفي ، من الناحية المادية ، أن يكون تحت التصرف صالة ذات تنظيم تجعل المناقشة يسيرة بين حوالي اثني عشر شخصاً يأتون بصورة حرة .

وينبغي للمشاركين أن لا يعرف بعضهم بعضاً ، بقدر الإمكان ، قبل التجربة . ولا بد للجماعة من أن تكون أكثر ما يمكنها تنوّعاً في السن ، والجنس ، والمنشأ الاجتماعي والثقافي ، إلخ . وعدد المشاركين في جماعة التشخيص يمكنه أن يختلف على نحو يتصف ببعض الاتساع ، ولكنه بين ٨ و ١٢ في الحالة المثلى .

ومن الضروري ، أخيراً ، إجراء عدد مرتفع نسبياً من الاجتماعات ، عشرة على الأقل ، تبدأ وتنتهي في وقت محدّد .

ومبدأ العمل لدى جماعة التشخيص ضرب من النقل لقاعدة التحليل النفسي : المبادلات لفظية وحرة . فالجلسات ، إذا استعملنا مصطلحات روجرز ، غير موجّهة . وجلسات المناقشة يمكنها أن تتناوب مع جلسات تمثيل الأدوار ، والمحادثات الخاصة مع عالم نفس .

فكيف تحدث الجلسات ؟ تنطوي الجلسات على ضرورتين : تسيير الجماعة على نحو مرض ، وجعل الجماعة تباشر تقييمها الخاص .

وترمي هاتان الضرورتان الى جعل المشاركين يتحسّسون ظاهرات الجماعة ، وإلى تدريبهم على إجراء التشخيص . وسيكتشفون على هذا النحو وسائل ملائمة لحلّ المشكلات التي تُطرح على جماعة من الجماعات .

ويُنظر إلى هذه التقنية على أنها مكوّن ذاتي ، من حيث انه يُفترض أن الأفراد الذين شاركوا في جماعة من جماعات التشخيص سيكونون قادرين على نقل تجربتهم الى جماعات واقعية يشاركون فيها . فيُفترض إذن أنهم ، بفضل هذه التجربة ، اعترفوا وقبلوا ، جزئياً على الأقل ، نزاعاتهم الخاصة من حيث أن هذه النزاعات تتجلّى في علاقاتهم .

ولتحقيق هذا الغرض ، تعمل الجماعة بمساعدة مرشد ، ومرشدين اثنين في بعض الأحيان ، أو بمساعدة مرشد ومراقب . ودور المرشد أساسي ، ويُفترض أن يكون شخصاً كفيّاً .

والمرشد يمكنه ، فيما يتعلق بتحديد المهمة التي ينبغي للجماعة إنجازها ، أن يقترح موضوعاً ، أو أن يحدّد شخصاً عليه أن يقترح موضوعاً ، أو أن يترك للجماعة أن تقرّر الموضوع هي ذاتها . ومهما يكن من أمر ، فإن تحديد المهمة يجب بالضرورة أن تناقشه الجماعة وتقبله .

دور القائد

سلوك المرشد (القائد) حاسم ، ومع ذلك فإن قاعدة واحدة لا يمكنها أن تُعطى . وليس بوسعنا أن نقدّم سوى توجيهات عامة جداً . وعلى المرشد أول الأمر أن ينظر إلى كل جماعة على أنها جديدة وغير متوقّعة . إنه لا يقدّم نفسه مع نظرية تتطلّب التحقيق : وذلك هو الفارق بين وضعه وبين التجريب . وينبغي له أن يكون حفيّاً بأقوال الجماعة وانفعالاتها ، متجنّباً في الوقت ذاته أن يترك نفسه يتورّط فيها . وعليه ، بالإضافة الى ذلك ، أن يكون حيادياً : فهو لا يوجّه ، ولا ينظّم ، ولا يوحي ، ولا يتّخذ مواقف من المسائل المطروحة للمناقشة . والدور الوحيد المحدّد للمرشد هو دور تفسير . ولكن عليه أن لا يغرب عن باله أبداً أن الجماعة هي موضوع البحث . فعليه ، منذئذ ، أن يتجنّب التفسيرات التي تنصبّ على فرد من الأفراد تجنباً الى أقصى حد . إن التفسيرات ينبغي لها ان ترمي

الى الواقع السيكولوجي اللاشعوري المشترك بين الجماعة . وبما أن الجماعة ليست ذات ماض ولا مستقبل ، فان هدف التفسير والتشخيص أن يستخلصا ما هو معاش حالياً دون أن يكون مفهوماً . والواقع أن المشترك بين المشاركين هو ، على سبيل الحصر ، ما يحسّون به أو يفكرون به بحسب تطور التجربة . بيد أن المشاركين يميلون إلى إخفاء ذلك شعورياً أو لاشعورياً . وترمي التبادلات اللفظية بين المشاركين إلى أن تظهر ما يعيشه الأفراد بصورة ضمنية وسلبية إظهاراً فعّالاً . وما على جماعة التشخيص أن توضّحه ، ليس بنية سيكولوجية فردية ، بل بنيات الجماعة بمجموعها ، ونزاعاتها اللاشعورية . ولهذا التوضيح بالضرورة رجع على السلوك الفردي ، ولكن على الأفراد أن يقبلوا هم أنفسهم بهذا الرجع في إطار ضرب من التكوين . فليست جماعة التشخيص جماعة علاج نفسي .

٥ ـ تحرّر أو اندماج

طرائق تنشيط الجماعات ، وتقنية جماعة التشخيص على وجه الخصوص ، لا تنالها الانتقادات التي تصيب التدخّلات السيكوسوسيولوجية غير المتمحورة على الجماعة ذاتها . وليس لجماعة التشخيص ، على ما يبدو ، غرض خارجي بالنسبة للجماعة ولنمطها في الوجود . فأن نكشف لجماعة من الجماعات عن « الحقيقة » عن ذاتها أو ، بالحري ، أن نتصرف بحيث تكون الجماعة قادرة على اكتشاف هذه « الحقيقة » ، ذلك أمر يبدو ممارسة لا يرقى اليها النقد . ومع ذلك ، فإن هذه التقنية ، كما شرحناها ، بأغراضها ومبادئها وطرائقها ، ربما ليست بريئة بالقدر الذي تبدو عليه . وليس قصدنا في هذا المجال أن ننقد التجارب التي كانت ضروباً من الإخفاق . ومن المعلوم ، بالتأكيد ، أن بعض التجارب عرفت حوادث نفسية مرضية ، ولكن ذلك كان ناجماً بصورة عامة إما عن أن المرشد كان غير ذي خبرة ، وإما عن أن المشاركين كانوا فعلاً من اختصاص علاج نفسي . ولا تضع هذه الحوادث موضع الاتهام تقنية جماعة التشخيص بوصفها كذلك . والموضوع مجرد أخطاء .

وما ينبغي لنا أن نحلّله عن كثب هو هذه التقنية بوصفها تنجح في أغراضها وتحقّق الأهداف التي تحدّدها لنفسها . وذلك هو المعنى الاجتماعي لجماعة

التشخيص ولكل تقنية من تقنيات تنشيط الجماعة ، التي من المناسب أن نأخذها بالحسبان .

تحرّر زائف

لا يبدو للوهلة الأولى أن هذه الطرائق ، طرائق تنشيط الجماعات ، تعرّض نفسها للنقد الذي مفاده أن الطريقة السيكولوجية قد يكون لها وظيفة مفادها أن تدمج الأفراد بالنظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الراهن . والواقع أن المصدر الذي استُوحيت منه هذه الطرائق وإليه تنتمي على الغالب ، وهو مصدر يضفي الصفة الشخصية ، يبدو أنه يلحّ على وحدانية الشخص ، وعلى الأصالة الجذرية لجماعة معيّنة من الجماعات . وليس ثمة أي شك ، على مستوى المبدأ ، أن طرائق تنشيط الجماعات تفترض الفرد والجماعة الصغيرة على أنهما أساسيان أكثر من بنيات القسر التي يتناقشان فيها أو يتكيّفان . يضاف الى هذا أن الشخص أو الجماعة الصغيرة ، وهذا هو موقف ماكسيو على سبيل المثال ، هما العنصران اللذان يمكننا الاعتماد عليهما للنضال ضد هيمنة التنظيم . فتنشيط الجماعة يرتكز على الشخص أو الجماعة الصغيرة ليقاوم إضفاء التجانس ، والتجريد من الشخصية ، اللذين تنحو حركة إضفاء الصفة الاجتماعية الى فرضهما . وعلى الرغم من هذا المبدأ ذي الخط الإنساني الى درجة عالية ، يبدو ان تنشيط الجماعات ، بأغراضه نفسها ، ربما كان الأكثر اتصافاً بأنه « ذو نزعة الدمج » بين التقنيات السيكولوجية . ومن الملاحظ ، من جهة أخرى ، أن اتساعها الحديث يتوافق زمنياً مع احتياز الشعور بأن التبدلات الصناعية الراهنة المفاجئة ليست الانتقال من نموذج بنية إلى آخر ، بل الانتقال من تنظيم صلب إلى نظام مرن قادر على أن يدمج الحركة ذاتها ، بوصفها عنصر مردودية ، بهذه « الحالة الصناعية الجديدة » التي يصفها غالبريث . ويقتضي هذا النظام المرن أفراداً وجماعات قادرين على المبادرة ، قادرين على التنوّع والارتجال . فهو ليس لهذا السبب أكثر إنسانية ، بل على العكس . وعبقرية النظام الصناعي ، والنظام الاجتماعي المرتبط به ، الذي يعدنا به غالبريث ، تكمن في أنه أفلح في أن يستخدم ما كان يبدو إدانة له على أنه نمط من الاندماج النهائي : فليس من الضروري كبت النزاعات ، بل لا بد ، على

العكس ، من إظهارها في سبيل السيطرة عليها واستخدامها ، بالإضافة الى ذلك ، بوصفها استطاعة دينامية مفيدة . وتتيح طرائق تنشيط الجماعات ، التي تُمارس ممارسة متزايدة في الصناعة والتجارة ، رقابة النزاعات والعدوانيةاللتين يمكنهما أن تتجلّيا ، رقابة يقبلها المشاركون أنفسهم . ألا تتيح هذه الرقابة أن يُستدخل القسر الاجتماعي استدخالاً نهائياً ؟ فهذا القسر هو الأكثر اتصافاً ، بما لا يقاس ، بأنه ملائم ، من حيث أنه يتيح استخدام استطاعة دينامية كان قدرها فيما مضى أن تُقمع . ويرفض بعض علماء النفس ، بوصفهم واعين هذا المشكل ، أن يقدّموا للمشاركين وسائل لحلّ نزاعاتهم ، ويقتصرون على بعثها بأقصى حد من الشدة دون تحويل القوة الدينامية لمصلحة عمل عقلاني (١٣) .

(١٣) انظر في هذا الكتاب فصل «السيكولوجي والسوسيولوجي» .

الباب العاشر

الأساس في علم النفس

الفصل الأول: علم النفس الأساسي

الفصل الثاني: علم النفس، الحضور والوجود

الفصل الأول

علم النفس الأساسي

ميادين علم النفس

يمتدّ علم النفس متشعّباً الى فروع عديدة تؤلّف ما يمكن تسميته ميادين (سيكولوجيا الطفل ، سيكولوجيا الكهل ، سيكولوجيا المريض ، إلخ)[1] . وبوسعنا من جهة أخرى ، أن نميّز داخل هذه الميادين المختلفة مراحل تكوّن إما بنيات أفعال ، كالإدراك والإحساس ، والتصور ، والتذكّر ، وإما سيرورات (الرغبة ، والجسم ، والزمان ، والمكان ، واللغة) هي أنماط لحضور الموجود في العالم . وهذه الفترات مشتركة بين جميع الموجودات الإنسانية ، ومن هنا منشأ علم النفس العام ، في حين أن الميادين تؤلف كثرة من ضروب علم النفس التي يختص كل منها بميدان معيّن . والمجموع الذي يتكوّن من ميادين علم النفس وعلم النفس العام يؤلّف الأنتروبولوجيا السيكولوجية . بيد أن بوسع عالم النفس أن يدرس علم النفس الفردي بالمعنى الدقيق ، وهذا يُسمّى الذات المفردة . وما كان ممكناً أن تبدأ هذه الدراسة إلا بتأسيس سيكولوجيا الأعماق التي دشّنها التحليل النفسي واستأنفها تحليل الحضور . ودراسة الذات يمكنها أن تتمّ على نحوين ، إما أن تكون دراسةً تزمّنية ، أي دراسة خلال التعاقب الزمني ، وإما أن تكون دراسة تزامنية ، أي خلال مقطع في نظام هذا التعاقب . فما الذي نسميه علم النفس الأساسي ؟ إنه سيكون علم النفس الذي يوحّد دراسة المراحل الكلية (علم

---

(١) نحن نستعيد هنا تحليلات مالدينه «النظر والمكان والكلام» ، عمر الإنسان .

النفس العام) والمراحل المفردة وتطور الذات ، ولكن مع مروره بميادين علم النفس ابتغاء الاغتناء .

ومختلف الطرائق التي تُستخدم لتأسيس هذا العلم ، علم النفس الأساسي ، هي الفينومينولوجيا ، والتحليل النفسي ، وتحليل الحضور . وأخيراً ، ينفذ علم النفس ، الذي ينزع إلى أن يبرز ماهية وجود الانسان ، إلى تأمل فلسفي جداً ، طوّره مارتن هيدغر : « التحليل ذي المنحى الوجودي » (٢) . وفي إطار من علم النفس الأساسي ، سنحاول أن نوضّح هنا ، من خلال مراحل الحضور الكلية ، سيرورة هذا الحضور ذاته ، أي واقع الرغبة ، والجسم ، والزمانية ، والمكانية ، واللغة . وسنبيّن أن المقصود بها ليس وظائف مختلفة منفصلاً بعضها عن بعض ، بل هي فترات تتواصل فيما بينها لإبراز صورة موحّدة للذات المفردة في اتصالها بالعالم . ويبرز الشخص المفرد في صلته بالعالم طرازاً من اللقاء ، نوعياً بالنسبة له ، وهذا الطراز يُعرف في كلية مراحل الحضور .

وهكذا فإن فهم شخص لن يكمن في تكوينه واحتوائه في تعبير واحد من تعبيراته (قبول كلام المريض دون تدقيق) ، وإنما يكمن في أن ندرك ، في ضرب من الوحدة ، تمفصل أنماط حضوره المختلفة .

أولاً - استيهام - الرغبة والجسم

أحد الكشوف الأساسية في علم النفس يكمن في أنه يبيّن لنا كيف يرغب الجسم ، وكيف تحرّكه الرغبة ، وترويه ، وتسيطر عليه حتى الموت . واللغة الجسمية للرغبة كانت خفيّة خلال قرون بالنسبة لنا . ويبدأ مع هيغل إمكان مفاده أن نعقل الرغبة . إن ساد هو الذي انتهك المحرّمات الأخيرة ، ورفع الحجاب عن هذه الأجسام التي تثيرها الرغبة ، وتعبرها ، وتمزّقها ، إذ أتاح منذئذ ضرباً من اللغة لما يحرك الموجود الإنساني . ولاكان الذي استانف معاً « ديالكتيك العبد

---

(٢) انظر الفصل التالي في هذا الكتاب .

والسيد » لهيغل والكشوف الفرويدية ، يعقل الفرد على أنه رغبة بصورة أساسية . وينبغي للرغبة أن لا تلتبس مع الحاجة والطلب . فليست الحاجة إلا محض ضرورة فيزيولوجية ، ولكنها لا يمكنها أن تتجلّى لدى الموجود الإنساني في وضعها الطبيعي ذاته : إنها تتبع قانون الرغبة . وذلك ما يحدث لدى الطفل عندما يجمع في منطقة فمية ، منطقة هي محلّ لإشباع حاجة فيزيولوجية ، رغبة تنصبّ معاً على فمه وعلى ثدي الأم . غير أن الحاجة التي تبحث عن الإشباع وعن توقّف التوتر ينبغي لها أن تبين في كلام هو الطلب .

وبالطلب ، ثمة رغبة لديّ في أن يعترف الغير بي ، وانتقال من حالة أحسّ بها الى عالم الغير الذي يُناط به ضرب من الإشباع . وعلى هذا النحو ، يكون الطلب والرغبة إنسانيي المنشأ ، أي إنهما مختصان بالموجود الإنساني . فالطلب هو اقتضاء اعتراف الغير بحاجتي الخاصة ، إنه وسيط حاجتي لدى الآخر الذي يمكنه أن يقبله أو يرفضه (ومن هنا منشأ الفارق بين « الحضن الصالح » و « الحضن السيء » ، في رأي ميلاني كلاين ، تبعاً لكون الأم تلبي طلب الطفل أو لا تلبي) . ولكن الطلب الذي يقدم على الإعلان عن الحاجة يحيل إلى حركة أكثر اتصافاً بأنها أساسية ، ولاشعورية جزئياً ، هي الرغبة . فإذا استجاب عالم النفس استجابة مباشرة لطلب يصوغه فرد خلال علاج نفسي ، فإنه يظلّ على مستوى الواقعي ، ويغلق على هذا النحو كل تطور للحالة وكل سبيل لصياغة الرغبة ، أي اللاشعور [3] . وتذكر مود مانّوني [4] مثال مراقب أتى إليها يطلب العون وإمكانية أن يوقف عمله . فوضعته عندئذ في مكتب من المكاتب ، وذلك أمر يكوّن تلبية الطلب على المستوى الواقعي تلبية مباشرة . وما إن وُضع في المكتب حتى عاد يرى المحلّلة النفسية ليقول لها إنه لم يعد يرغب في المعالجة . إنه لا يريد سوى أن « يزعج المجتمع بأن يظلّ عاطلاً عن العمل وأن يكون موضع

---

(٣) انظر مثال مودمانوني المذكور في فصل «اللاشعور والبنيات الأسرية» في هذا الكتاب ، فقرة «الأدوار الأسرية الأب ـ الأم ـ الأخوة ـ الأخوات» .

(٤) مودمانوني ، «الطفل المتخلف وأمه» ، ص ١٤٩ وما يليها .

العون دائماً » . وهكذا أغلقت المحلّلة النفسية ، إذ فهمت الطلب بحرفيته ، كل إمكان لانبعاث الرغبة التي كانت في أساس الحاجة والطلب . وتلبية جميع الطلبات ، كما تفعل بعض الأمهات ، تمنع أي رغبة مستقلة في أن تنبعث من الظلام لدى الطفل . فالعصيدة تحلّ محل الحب . ويشير فرويد إلى أن حلماً من أحلام مريضة تريد أن تقدّم وجبة غداء ، ولكنها عاجزة عن إنجاز مشترياتها لأن جميع المخازن مغلقة (٥) ، يكشف عن أن زوجها ، الذي يبدو مع ذلك أنه راض من جميع الجوانب عنها ، يرغب في صديقتها مع ذلك . واكتشفت ، بواسطة الحلم ، أن تلبية الطلب لا يحلّ مشكل الرغبة التي تظلّ غير مشبعة(٦) . فالرغبة ، التي لا ترتدّ إلى الحاجة أو إلى الطلب ، ذات علاقة بهما مع ذلك ، وهي « ليست في رأيي لاكان شهوة الإشباع ولا طلب الحب ، ولكنها الفارق الناجم عن طرح الأولى من الثاني ، بل ظاهرة فصلهما مجدّداً » (٧) . بيد أن الرغبة لا يمكننا إدراكها ، فهي ليست إشباع حاجة تمّ التعبير عنها في طلب ، ولكنها ما يتصف دائماً بأنه غائب ، وما لا يُتصوَّر أبداً . ويفهم المرء منذئذ أن أي قول عن الرغبة لم يتمكّن من أن يرى النور حتى القرن التاسع عشر ، ذلك أن التصور كان يسيطر على حيّز المعرفة . إن ساد ، وفرويد ، ونيتشه ، هم الذين قطعوا الصلة بالتصوّر وهاجموه دون ان يفلتوا منه كلياً مع ذلك (٨) .

ومع أن الرغبة لا تكون ممكنة التصور ، فإن ذلك لا يحول بينها وبين أن تحدّد كلية الحركة في سلسلة ضروب الدالّ . (وسنبحث هذا التعاقب في ضروب الدالّ في حلم من أحلام فرويد ذاته) . . ويحاول تنصّت المحلل النفسي أن يدرك

---

(٥) في كتاب تفسير الأحلام» . ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٦) إنها الخدعة التي يستند إليها الإعلان والدعاية . فمنها يستمدان نجوعهما ، ولكنهما يؤديان إلى سقوط الموجود الإنساني الذي لم يعد يرغب بحصر المعنى ، وإنما يظهر ضرورياً من الاشتهاء . انظر فصل «الدعاية والإعلان»في هذا الكتاب .

(٧) «كتابات» ، ص ٦٩١ .

(٨) هذه الموضوعات كان فوكول قد عرضها بالتفصيل في كتابه «الكلمات والأشياء» .

ضروب الدال وأن يضفي الامتياز على بعضها . فبعض علامات اللغة ، ككلمة خمسة ، يمكنها أن تتحوّل إلى ضروب مختلفة من الدال : قديس ، ثدي ، معصوب ، توقيع (٩)(*) . وقد يكون لهذه الضروب من الدال طبيعة غير الطبيعة الصوتية . ولكن « أي دالّ ، كما يرى لوكلير مصيباً ، لا يمكننا أن نقول عنه إنه دالّ إلا بمقدار ما يحيل الحرف الذي يكوّن فيه منزلقاً إلى حركة من حركات الجسم إحالة بالضرورة ، وهو مقدار يمكننا أن نرصده تماماً » . وهذا الرسوخ الاصطفائي لحرف من الحروف في حركة من حركات الجسم يؤلف العنصر اللاشعوري ، أي الدالّ بالمعنى الصحيح للكلمة .

فلنلخص ما اكتسبناه من المعرفة : نحن نعلم في البدء أن الموجود الإنساني تعبره رغبة تدفع الحاجة والطلب وتوحي بهما . وهي ، بوصفها لا يمكننا تصورها أبداً ، تعتمد على سلسلة من ضروب الدالّ (قد تكون مفعولات اللغة) تحدّد مكانها . وأخيراً ، فإنها تندمج في الجسم . وسنحاول أن نوضّح هذه العناصر بفهم حلم من أحلام فرويد .

والرغبة تحرّكها الكلمات وانزلاق هذه الكلمات على طول السلسلة التي تربط العناصر المختلفة ، بعضها ببعض ، وهي عناصر ضروب الدالّ ، وتستبعدها وتقابل بعضها ببعض . وسنحاول ، متّبعين هذه السلسلة ، أن نكتشف الاستيهامات الأساسية التي تحرك الحياة الدافعية لدى فرويد . فموضوع البحث حلم من احلام فرويد ، مشهور جداً ، حلم « الدراسة الأحادية النباتية » الوارد في كتاب فرويد « تفسير الأحلام » (ص ١٥٣) . كتب إلى فرويد أحد أصدقائه ، ذو الذاكرة البصرية القوية (والمقصود فليس) ، ما يلي : « أفكر كثيراً بكتابك عن الأحلام . إنني أراه أمامي منجزاً وأتصفّحه » . وفي الليل التالي ،

---

(٩) (*) لانستطيع ترجمة الملاحظة التي ذكرت في الهامش . والسبب في ذلك أن الانتقال يتم من كلمة معينة إلى كلمات أخرى تشبهها من حيث اللفظ وتختلف من حيث المعنى : فكلمة خمسة cinq تحولت إلى قديس saint ، وثدي Sein ، ومعصوب Ceint ، وتوقيع seing ، كما هو وارد أعلاه «م» .

رأى فرويد حلماً محتواه ما يلي : « كتبت دراسة أحادية لـ نبات من النباتات ، وقلَبت على وجه الدقة صفحة رصّعتها لوحة ملوّنة . وتحتوي كل نسخة على نموذج من النبات المجفّف وكأنها مِعْشبة (*) » . وسيسعى فرويد الى تفسير هذا الحلم ، محاولاً بالانطلاق من محتواه أن يكتشف الأفكار الكامنة التي تغلّفه ليُظهر الرغبة التي تحرّكه ، ذلك أن « كل حلم من الأحلام تحقيق رغبة » . فالحلم ، بفعل هذا ذاته ، ذو رغبة علينا أن نبيّنها . وعلى الحلم ، إذا دفعنا التحليل بصورة عميقة بعض العمق ، أن يكشف لنا عن استيهامات الحالم الأساسية . وتحيل بعض عناصر الحلم إلى حوادث جرت في الواقع .

ـ كتب فرويد بالفعل دراسة أحادية حول قدرة الكوكائين على التخدير .

ـ يضاف الى هذا أن فرويد يعتقد أنه ، بهذا الحلم ، يردّ على انتقادات والده ، الذي كان يلومه بأنه يستدين ليشتري الكتب . فقد أفلح أخيراً في كتابة كتاب ، وليست قراءاته إذن غير مثمرة . وانطلاقاً من ذلك ، يفسّر فرويد هذا الحلم على أنه مرافعة : « إنني الانسان الذي قدّم عملاً قيماً عن الكوكائين ، عملاً خصباً ، كما كنت أقول في ذلك الحين : إنني طالب مجدّ . والنتيجة في الحالتين هي التالية : إن بوسعي أن أسمح لنفسي بذلك » (ص ١٥٦) . بيد أن علينا أن نمضي إلى ما ذهب اليه فرويد ذاته في البحث عن الرغبة التي تحرّكه . وعلينا أن نجد مركز الحلم الذي ، يقول لنا فرويد ، يتصف « على وجه العموم بأنه الامتثال المباشر لتحقيق الرغبة » . والحال أن فرويد يصرّح بأن الكلمة الأساسية التي ستنزلق متسلسلة الى جانبها جميع ضروب الدالّ هي كلمة نباتي . وهذه الكلمة تذكّره بما يلي :

ـ لقائه العشية بالأب غارتنر (الأمر الذي يعني بستانيا) ؛

ـ تذكر بأنه قال لزوجته إن صحتها مزدهرة ؛

ـ ناقشا عندئذ مريضة تسمى فلورا ؛

(*) مجموعة من الأعشاب المجففة والمحفوظة بين صحائف من الورق «م» .

ـ تذكّرا أن زوج مريضة أخرى كان قد نسي أن يجلب اليها أزهاراً يوم عيد ميلادها ؛

ـ هذه السيدة ذات الأزهار تذكّر بأنه رأى في اليوم السابق دراسة أحادية لنبات بخور مريم لدى أحد بائعي الكتب ؛

ـ وبخور مريم هو الزهرة التي تفضّلها زوجته ؛

ـ والزوجة تحكي له دائماً عن الأزهار ؛ والزوج ينسى ويلوم نفسه على ذلك ؛ أما بالنسبة له ، فإن الزهرة المفضّلة لديه هي الأرضي شوكي التي توحي بذكرى أخرى سنتكلم عليها فيما بعد ؛

ـ وكلمة نباتي تجعله يفكر كذلك بفحص مادة النبات .

ـ وأخيراً ، تذكّره عبارة « كأنه في معشبة » ، التي تظلّ دائماً قرب كلمة نباتي ، بتنظيف معشبة عندما كان في الصف : إنه كان قد وجد عندئذ دودات صغيرة في هذه المعشبة .

حصلنا حالياً على عدد معيّن من الارتباطات حول الكلمة الرئيسة ، كلمة نباتي ، وهي عقدة الحلم . فالتفسير الذي كان فرويد قد أعطاه هذا الحلم كان لا يزال سطحياً . والحال أنه كتب من جهة أخرى (ص ٢٤٦) « إنني اكتشفت ، وراء كلمة أرضي شوكي ، ذكرى إيطاليا من جهة ، وذكرى مشهد من مشاهد طفولتي ، من جهة أخرى ، حيث اتصلت بالكتب للمرة الأولى » . والمقصود بذلك ذكرى حجاب ، أي ذكرى تبدو واضحة وغير ذات أهمية كبرى ، ولكنها تحيل الى استيهامات لاشعورية والى تجارب طفلية ذات أهمية . ويكشف لنا فرويد عن هذه الذكرى (ص ١٥٥) : « طاب لأبي يوماً من الأيام أن يترك للبكر من أخواتي ولي كتاباً ذا صور ملوّنة (وصف رحلة في بلاد فارس) . وكان عمري عندئذ خمس سنوات ، ولم تكن أختي قد بلغت الثالثة ؛ وذكرى السرور اللامتناهي الذي نزعنا أوراق الكتاب به (ورقة ورقةكما لو كنا ننزع أزهار الأرضي شوكي) هي الحادث الوحيد على وجه التقريب الذي أتذكره من هذه الحقبة على أنها ذكرى مرنة . وعندما كنت طالباً فيما بعد ، كان لدي شغف بالكتب . وكنت أريد أن أجمعها وأن أحصل على الكثير منها . . . لقد أصبحت

دودة مكتبة « الترجمة الحرفية : دودة كتاب » . وبوسع المرء أن يلاحظ أنه يجد مجدّداً كلمات سبق له أن وجدها في الحلم الأول (صور ملوّنة ، أرضي شوكي ، دودة مكتبة ـ الدودات الصغيرة في المعشبة المنظّفة) . ولكن الأكثر أهمية هو هذه الحركة التي كانت تحثّ فرويد حينما التقى بالكتاب هذا اللقاء الأول . فقد انتابه فرح لامتناه بأن ينزع صفحات الكتاب ورقة فورقة وبأن يقطف . وهاتان الحركتان الأساسيتان من وجوده تقومان على الاقتلاع والقطف .

ويربط لوكلير[10] الذكرى السابقة بذكرى أخرى بوسع المرء أن يعزوها الى فرويد أيضاً ، ولكنها تعود إلى طفولته الأولى . « أرى قطعة مربعة من مرج أخضر وكثيف ، أو بالحري منحدراً قوياً منه . والأخضر مرصّع بالعديد من الأزهار الصفراء ، وهي أزهار عادية من الهندباء البرية على نحو واضح . . . ثمة ثلاثة أطفال يلعبون على العشب . أحدهم هو أنا ، وكنت بين الثانية والثانية والنصف . والآخران هما ابن عمي وأختي . وقطفنا أزهاراً صفراء ، وأمسك كل منا بباقة من الزهور التي قطفناها سابقاً . وكان لدى البنت الصغيرة أجمل الباقات . . . فانقضضنا فجأة عليها وانتزعنا أزهارها منها . وركضت باكية عبر المرج ، فأعطتها الفلاحة قطعة كبيرة جداً من الخبز الأسمر مواساة لها . . . والخبز الذي منحته هذه الفلاحة فرويد فيما بعد « كان ذا طعم لذيد بعنف » . ونجد في هذه الرواية مجدّداً حركة الانتزاع أو نسختها النباتية ، القطف ، ونجد من جهة أخرى كلمة أصفر ، وهو لون له ، لدى فرويد ، أصداء عميقة في لاشعوره . وسيكون هذا اللون لون الفستان الذي ترتديه حبيبته الأولى :

ـ يرتبط الانتزاع لديه بالسفر ، والحال أن السفر هو ما ينزع فرويد من أمه . والرهاب الذي كان يصيب فرويد بسبب السفر معروف .

ـ ويرتبط بالعضّ (رأينا في الذكرى أن فرويد يلتذّ كثيراً بنهش الخبز ذي الطعم اللذيذ) .

(١٠) «التحليل النفسي» ، ص ٤٣ وما يليها ، مجموعة «المجال الفرويدي» .

ـ ويرتبط بالترتيب والتسمية وبأن يخلّف اسمه على كشف من الكشوف (وذلك يحيل الى ما كان فرويد قد كتبه الى فليس طالباً إليه إن كان يظن أن ثمة صفيحة ستوضع يوماً من الأيام ، منقوشاً عليها ما يلي :

« هنا [11] أوحي في ٢٤ تموز ١٨٩٥
الى الدكتور سيغموند فرويد
بسر الأحلام »

والمرء يمكنه أن يرى في هذا الشغف بـ الكشف رغبة فرويد في أن يعرف جسم أمه ، ولكن المهم في رغبة فرويد هو هذه الحركة من انتهاك الحدود وهو ينتزع ليكشف . وهكذا فان الاستيهام راسخ في حركة الجسم ، وانطلاقاً من هذا الرسوخ يفضّل كل فرد دالاً أو عدة ضروب من الدال (انتزاع ، وعضّ ، وترتيب ، وتسمية ، الخ ، لدى فرويد) . وحركة انتزاع الأسرار من جسم الأم (دالّ أول) سيتحرّك حوله بعض ضروب أخرى من الدال ، لها هنا علاقة صوتية به . ويدرك المرء أهمية الكلام والحركة النحوية التي تحدث في اللاشعور . وهذه الحركة ، حركة الكشف عن أسرار جسم الأم ، تنزاح بفعل الشغف بالكتب . ولكن جميع كشوف فرويد ذات طعم معيّن من غشيان المحارم ، بفعل حركة الكشف عن أسرار جسم الأم . ففرويد ينتزع ويفضّ البكارة وينتهك . « كان فرويد في الحقيقة مفتوناً بغشيان المحارم » [12] . وقيل من جهة أخرى إن « الرجل ذا الذئاب [13] » كان قد أفلح في أن يكشف ضروب الدالّ الحسّاسة لدى فرويد ، الخاصة بلاشعوره (التمزيق ورفع الحجاب والكشف) ، وكشف له عن حلم يفسره فرويد تبعاً لحياته الدافعية الخاصة ، مفترضاً لدى مريضه تحرّراً لم يكن يحيل في الواقع إلا الى تحرّر فرويد ذاته . وهكذا تتكوّن الرغبة انطلاقاً من

---

(١١) رسالة ١٣٧ ، ص ١٨٦ من كتاب «نشوء التحليل النفسي» ، المطبوعات الجامعية الفرنسية . وكان من الأفضل أن يترجم «بان» بدلاً من أوحي» .

(١٢) «دفاتر للتحليل» ، رقم ٥ ، لوكلير، ص ٣٥ .

(١٣) انظر فصل «علاقة المريض والطبيب» في هذا الكتاب .

استيهامات بدئية تنفذ الى مكان في الجسم ، أو الى حركة من حركاته ، وترسخ فيها . فتؤلف منذئذ سلسلة من ضروب الدال المفضّلة تقود الفرد ، بفعل حركة من الإبدال والتقابل الصوتي ، إلى طراز معينّ من الصلة بالآخر وبالعالم . وهكذا أستطيع أن أعود وأتناول لاشعوري « الذي يسمه مرض الارمداد(*) أو الذي تشغله الأكذوبة » إذ أجد الحقيقة مكتوبة مجدّداً :

ـ « في الآثار التذكارية : وذلك هو جسمي ، أي نواة العصاب الهستيرية حيث يبينّ العرض الهستيري بنية لغة من اللغات . . . »

ـ « وفي وثائق الأرشيف أيضاً : وهذه هي ذكريات طفولتي . . . »

ـ « وفي التطور الدلالي : وذلك ما يستجيب لمخزونات المعجم الخاص بي ولموافقاته ، كما يستجيب لطراز الحياة وطبعي . . . »

ـ « وفي التقاليد أيضاً ، بل وفي الأساطير التي تنقل تاريخي على صورة أُضفيت عليها البطولة » ، الخ ، (لاكان : كتابات ، ص ٢٥٩) .

والمحلّل النفسي ، حين يجعل الفرد يقرأ لاشعوره ، يجعله يكتشف تاريخه حتى لا يعيشه بوصفه قدراً .

الجسم المفقود

الجسم الذي تحثّه الرغبة يمكنه أن يستجيب لعملها استجابة مختلفة : فقد يستقبل الرغبة التي تمسه بصورة فاعلة (حالة الهستيريا) ، أو قد يكون ضحية هذه الرغبة التي تجعله يتألم (حالة الأمراض النفسية الجسمية) . وأمام علاقة الجسم بالرغبة صيغ عديدة جداً . فالجسم محل الرغبة ودالّها . وبالجسم تنشأ التبادلات الجدلية بين العالم الخارجي والعالم الداخلي ، بين القريب والبعيد ، بين الحيّز الخاص والحيز الغريب . وجسمي محلّ الانطلاق نحو الغير بقدر ما هو منطقة استقبال الغير . ونفهم منذئذ أن الرغبة التي تتّجه نحو الغير توظّف صلة معيّنة لجسمي بالعالم . فإذا الرغبة أخفقت في هذه العلاقة بالغير ، فإن وجودي ـ في ـ العالم (المكان ـ الزمان ـ اللغة ـ الجسم) يضطرب بمجموعه . ولا تتكوّن

(*) ارمداد : مرض يصيب شتى النباتات ، ويتجلى ببقع بيضاء على الأوراق «م» .

صورة الجسم ، لكي نقتصر عليها ، إلا بالنسبة للغير ولعالم من العوالم . وقد بيّن شيلدر (١٤) أنني أملك حول جسمي منطقة من الوجود هي حيِّزي الخاص (انظر كذلك هيدغر وبنسوانغر) ، فاذا اقترب مني أحد بصورة مفاجئة ، شعرت بأني مصاب في هذا الحيِّز .

ويكمن مشكل الحضور في تنظيم إيقاع بين هذا الحيِّز الخاص والحيِّز الغريب . ولكن جسم الغير ليس شيئاً غريباً بصورة كلية . فهو يشارك في تأسيس جسمي الخاص . ويقول شيلدر إنني في كل مرة أهتم بجزء من جسم الغير ، فان الغير يُظهر اهتماماً مشابهاً بهذا الجزء ذاته من جسمي الخاص . فجسم الغير إذن يشارك بالحضور في تكوين جسمي الخاص ورغبتي . فماذا يحدث لجسمي في الحالة التي لا تستطيع رغبتي أن تتجلّى لدى الغير بصورة صحيحة ؟

رأينا في إطار سيكولوجيا الطفل أن هذا الطفل لم يكن يملك قبل مرحلة المرآة (٦ ـ ٨ أشهر) جسماً موحداً . وبمرحلة المرآة إنما ينتقل الطفل من جسم مجزّأ الى صورة لجسمه على أنه كلية . وتتكلم بانكو (١٥) في حالة المصابين بالفصام ، على جسم ليس مجزّأ كما هو لدى الطفل ، بل على جسم مدمّر . وقد يكون التفكّك الذي يصيب الجسم مزدوجاً : صورياً ومادياً . فالتفكك الصوري ذو علاقة بوحدة الجسم البنيوية . ويظهر بعدة درجات : فأجزاء الجسم ، في أدنى درجة من درجات التفكك الصوري لا يُعترف بها أنها أجزاء . وكل منها يعيش بوصفه كلا . إن أي جزء من الأجزاء يقوم مقام كلية الجسم . وثمة مثال مضروب لنا في رواية جورج رودنباخ(*) ، « بروج (**) الميتة » . فالبطل ، « هوغ » ، أرمل منذ خمس سنوات . وصادف راقصة ، جان ، تبدو

---

(١٤) شيلدر ، «صورة الجسم» .

(١٥) انظر عرض طريقتها في فصل «علاج المريض النفسي» في هذا الكتاب ، فقرة «مقاربة المصابين بالذهان لدى جيزيلا بانكو» .

(*) جورج رودنباخ : شاعر بلجيكي يكتب بالفرنسية (١٨٥٥ ـ ١٨٩٨) .

(**) بروج : مدينة في بلجيكا .

أنها تشبه « الميتة كما يشبه المدينة هو ذاته » (بروج - الميتة) . فقادها يوماً من الأيام الى بيته بعد أن جعلها عشيقته ، وهنا إنما تنعقد المأساة . والواقع أن جان استولت على جُمّة (*) الميتة التي كان هوغ يحتفظ بها في علبة من الزجاج . والحال ، بالنسبة لهوغ ، أن « هذه الجمة كانت حية ، وكانت مركز الحياة ذاته في هذا البيت » . وكانت الجمة تقوم بالنسبة له مقام كلية الجسم للميتة . ومن يلبسها يوماً من الأيام ، ويتمنى أن يحتفظ بها كما تفعل جان ، ميت لا محالة . ذلك أن هذا الجمّة لم يكن يمكنها أن تكون جزءاً من جسم آخر . وفي هذه الحالة ، يكون الجسم هو الجمة ، والجسم ليس له جمة » . فالجمة تقوم مقام كلية الجسم المحبوب . وتصف جيزيلا بانكو مثل هذا التفكّك بالبنية الصلبة .

وأجزاء الجسم ، في الدرجة الثانية من التفكك الصوري ، يُعترف بها تماماً أنها أجزاء ، ولكن ارتباطها المتبادل غير معترف به في الوحدة الصورية لصورة الجسم . فينطوي التفكك هنا على بنية مرنة .

والتفكك المادي خاص بالجسم من حيث أنه محل الرغبة ودالّها أو ، إذا شئنا ، من حيث هو محتوى ومعنى . ويعلم المريض أن هذا الجزء أو ذاك يشارك في كلية الصورة الجسمية ، ولكنه لا يعترف بجسمه على أنه قادر على ان يكون محل ضرب من الحضور . وهكذا فان إحدى المريضات التي تروي أنها كانت قد أقامت اتصالاً جنسياً ذا نتائج منذ ثمانية أشهر مضت ، تحسّ ، وهي تنفي هذه الصلة ، بانتفاخ في بطنها وتغيّر في وجهها بعد هذا الحادث ، « حادث الصلة الجنسية » . فهي لا تقبل بنوعية الجزء من جسمها ، التي تخص الأعضاء الجنسية . ويتبيّن للمرء أنه لاوجود للتفكك الصوري ، ذلك أن المريضة تعترف بجزء من هذا الجسم (البطن) على أنه محل حمل ممكن . ولكن وظيفة صورة الجسم ، بوصفها محلاً نوعياً ، هي المصابة : « فما يميّز السيرورة اللدهانية أن وجه المريضة تدركه المريضة كما لو أنه كان قد طرأ عليه ضرب من التغير في عظامه يمثّل حملاً » . ومثل هذا الاضطراب في صورة الجسم يؤدي الى اضطراب في كلية

(*) جمة : مجتمع شعر الرأس «م» .

الحضور في العالم لدى المريضة ، وفي صلاتها بين الانسانية على وجه الخصوص . فهي لا تعترف ببطنها إلا في نطاق ما تدرك فلاناً « السيد البشع » . ولا تحس بحركة في بطنها (الذي تجهله) إلا بالاستناد الى علاقة بالغير تدركه على أنه بشع : « ان دينامية ضرب من الرفض لصورة الجسم تتحوّل الى دينامية ضرب من الرفض للعلاقات بين الانسانية » . ففي الخارج إنما يوجد ما لاتقبله المريضة في داخلها . وتعرض جيزيلا بانكو ، في مؤلفها حول « التبنين الدينامي في الفصام » ، علاجين لمريضتين ، أولاهما مصابة بتفكك صوري في جسمها ، والثانية مصابة بتفكك مادي . وتبيّن لنا المريضة الثانية كيف أن بوسع الموجود الإنساني أن يصل الى استبعاد كل رغبة من جسمه ، والى أن يكون غريباً عن جسمه إذا صح القول . قالت المريضة : « حاولت أن أبرز بروزاً فكرياً ، فما أفلحت . وفقدت جسمي . وانصرمت سنين عديدة لم أكن أعلم خلالها ما كنت آكل (صمت) . ثم دلّكوني في أثناء الحرب بسبب التهاب النسيج الخلوي . وهنا تعرّفت على جسمي . لقد كانت امرأة ، مدلّكة ، جيدة جداً . وكانت تضع لي مشدّات على البطن حارة جداً . وفي يوم من الأيام ، اختبرت نفسي . وهناك اكتشفت عالماً آخر . فقد ظفرت بالنشوة الجنسية » (ص ٧٩) .

ويفعل الارتباط بين جسم من الأجسام وبين الرغبة التي يتفتّح لها ، يصبح هذا الجسم محل اللذة والرغبة بدلاً من كونه شيئاً ، بيد أنه مع ذلك ليس بعدُ ثمرة تفاعل وتبادل بينه وبين جسم الغير . ولا وجود لهذا الديالكتيك بين محتوٍ ومحتوى ، ديالكتيك يتم في الفعل الجنسي . والسبب أن الفرد لا يمكنه أخيراً أن يبلغ وجوداً مع إمكان مفاده أن يقيم مع الغير علاقات بين ذاتية إلا عندما يعترف برغباته ويقبلها (١٦) .

---

(١٦) انظر في هذا الكتاب فصل «علم النفس ، الحضور والوجود» ، وانظر أيضاً «من أجل ضرب من تربية الحرية ، مراحل نمو الشخصية» ، ماكسيو ، دار نشر الحوليات الاجتماعية ، ص ٩٥ وما يليها .

ثانياً ـ وحدة الحضور

علينا ان نجمّع معطياتنا ونبيّن كيف أن بنيات اللغة ذات علاقة ببنيات المكان ، وبنيات الزمان ، وبنيات الجسم . ونحن نؤثر الكلام هنا على الروابط بين بنيات المكان وبنيات الجسم وبنيات اللغة[١٧] .

١ ـ كيف أعقل المكان

لحضور وجودي في المكان نمطان . ولكل فعل أنجزه ترجيع مزدوج : داخلي وخارجي . وبعبارة أخرى ، في النمط الأول من حضور وجودي في المكان ، ثمة استجماع وعودة قرب حيّزي الخاص ؛ وفي النمط الآخر ثمة انفتاح وانطلاق نحو حيّز غريب [١٨] . إنني أحقّق الاتصال باستمرار بين هذين الحيّزين الخاص ـ الغريب ، في تبادل مستمر يتيح لي أن أكوّن لنفسي ضرباً من الـ هنا ، محل تجذّري ، وضرباً من الـ هناك يتيح وحده إنشاء ضرب من الـ هنا . فالفصامي فقد هذا التمييز بين الترجيع الداخلي (الحيّز الخاص) وبين الترجيع الخارجي (الحيّز الغريب) . إنه يعيش في ضرب من فقدان كلي للتمييز بين ما هو خاص به وما هو غير خاص به . وليس له « هنا » ، ذلك أنه ليس له جسم . إنه غير متجسّد . « كنت كما لو أني اقتُلعت من جسمي ، وطُردت من ذاتي » [١٩] . ويجد نفسه ضائعاً في خارجية لا يملك إمكاناً لتكوين حيّز خاص . إنه ضائع في العالم .

٢ ـ بنية اللغة والموجود في العالم

للغة أيضاً هذه الإشارة الى ترجيع داخلي وخارجي يوافق الأسلوب الذي أعيش به المكان . فاللغة الفرنسية تملك الفئتين ، فئتي الاسم والفعل ، وكل

---

(١٧) نحيل القارىء إلى محاضرة مالدينه ، المنشورة في «الوقائع السيكولوجية والسوسيولوجية» ، التي تحيل الى مؤلفات غيوم .

(١٨) مؤلفات ريلك تعرض بالتفصيل مثل هذا النزاع . وكذلك لدى هيلدون .

(١٩) «دراسات» ، آذار ١٩٦٩ ، «الجنون والجسم المفقود» ، ص ٤٣٥ .

كلمة تتحدّد بوظيفتين : وظيفتي التعيين والتخصيص . فثمة تعيين قيمة دلالية معيّنة : إن الدالّ « كنيسة » ، على سبيل المثال ، تحيل الى ما نسميه في علم اللغة المحال إليه ، وهو كنيسة في الواقع ، وإلى فحوى (*) ، هو فكرة الكنيسة . وثمة تخصيص قيمة بنيوية معيّنة عندما نضع ، على سبيل المثال ، قبل الكلمة (يتغذّى) أداة تعريف أو تنكير ، تصبح مصدراً « الغذاء » أو « غذاء » (*) . والحال أن التخصيص والتعيين سيسوسان المصادر أو الصفات سياسة مختلفة .

ـ تعينّ الصفة قيمة بنيوية خارج الحقل الذي تخصّصه . فترجيعها ، بعبارة أخرى ، ترجيع خارجي . ولنضرب مثلاً على ذلك : « هذه اللوحة الخضراء مريحة » . فلكلمة« خضراء » وظيفة تخصيص دلالي هو صفة معيّنة ، وكذلك شأن كلمة « مريحة » . ولكن هاتين الصفتين غير موجودتين في هذه الجملة إلا لتوضيح كلمة أخرى هي كلمة لوحة . إن ترجيعهما ترجيع خارجي . فالصفة حركة صوب شيء آخر ، إنها انفتاح وانطلاق . ونحن نجد التمييز هنا مجدّداً بين ترجيع خارجي وداخلي ، التمييز الذي أبرزناه فيما يتعلق بالمكان .

ـ وللمصدر ترجيع في حقله الخاص ، إنه يعينّ داخل حقل ما يخصصه .

ـ والفعل يجمع الترجيعين الداخلي والخارجي .

وهكذا فان اللغة تسير سيراً وظائفياً يشبه أسلوبي الخاص في ارتباطي بالمكان . إنها ، في الحالتين ، حركة من الانطلاق والعودة . وثمة مثال ضربته لنا جيزيلا بانكو ، سيجعلنا ندرك الإصابة العامة التي يعانيها الفصامي في جسده ، ولغته ، وصلته بالمكان : في كتابها « التبنين الدينامي في الفصام » :

ـ تصرّح المريضة وهي تقصّ انطلاقة مرضها : « السيد ر كان يعزف

(*) أو مؤدى «م» .

(*) الفرق هنا بين اللغة الأجنبية ، والمقصود بها الفرنسية ، وبين اللغة العربية أن الكلمة الفرنسية (الفعل) التي تدخل عليها أداة التعريف أو التنكير تصبح اسماً دون أن يتغير شكلها بإدخال أحرف جديدة أو تجريدها منها . يضاف إلى هذا أن أداة التنكير لاوجود لها في اللغة العربية «م» .

موسيقا البرنامج . وفكرت : لا بد لي من أن أرفس بور (وكلمة بور تشويه لاسم السيد ر) . وفكرت بدواء يسمى روفول . ولا بد لي من أن أروفول (*) . فكل كلمة كان لها معنيان » . إن الكلمات الجديدة ، التي استخدمتها المريضة ، تنصبّ على أسماء أعلام لها ترجيع داخلي ومغلقة على ذاتها كلياً . والحال أن المريضة تستخدمها بوصفها فعلاً ، ولكن هذا الفعل يحتفظ بالترجيع الداخلي ، ويفقد الترجيع الخارجي . إنه لا يحيل الى شيء ، ولا ينفتح على شيء . فليس ثمة إذن أي انفتاح في هذه الكلمات الجديدة التي لفظتها المريضة ، ولا وجود على وجه الخصوص لأي تبادل بين مكان خاص ومكان غريب . ويتبينّ لنا أن بنيات اللغة ، لدى هذه المريضة ، تناظر بنياتها المكانية . إنها مغلقة على ذاتها دون أي إمكان لأن تتجاوز ذاتها صوب مكان غريب لتفوز بمكان خاص ، ولتكوّن ضرباً من الـ « هنا » ، بحيث أنها لا تميّز المكان الخاص من المكان الغريب أي تمييز . ولا تحسّ أي إحساس بحدود بين جسمها وما هو غريب ، بين ما هو ذات وما هو آخر . فالواقعي والمتخيّل ، بفعل هذا ذاته ، لا يتميّزان لديها أي تمييز ، « إنني لا أعلم إن كان ذلك واقعياً أو متخيّلاً » . يضاف إلى هذا أن أي لقاء بين ذاتي غير ممكن ، ذلك أن المرء عاجز عن لقاء الآخر إلا إذا كان ذا مكان محدّد ، إلا إذا كان لديه ضرب من الـ « هنا » وجسم ، وحدود ، ورغبة نوعية . وهكذا يستبدل الملوسات بالعلاقات الواقعية ، « اعتقدت أنني رأيت طائرة كانت قد تركت شيئاً من الأشياء يسقط منها » ، « اعتقدت أنني رأيت الصليب يرتفع فوق برج الأجراس » . فالمريضة سجينة في عالم ليس لديه أي إمكان للتواصل مع الغير ولا أن ينفذ اليه .

حاولنا ، حين درسنا طرائق العلاج النفسي ، أن نبينّ بصورة مشخّصة ما علم النفس الأساسي . ورأينا ما هي العناصر الداخلة في تكوين فرد وشخص ذي رغبة مستقلة وكلام مبتكر . فحضور الموجود في العالم لا يتألف من ضرب من جمع الملكات أو الوظائف اللامبالية بعضها فوق بعض . والحياة ليست أن ندرك

(*) اشتقت المريضة فعلاً من الدواء المسمى «روفول» ، «م» .

ثم نتذكّر ، بل هي أن أستخدم كلية وجودي في أوهى عمل من اعمالي . وعبر أحلامي ، وذكرياتي ، وكلامي ، ورغبتي ، ينبسط طراز فريد من الحضور في العالم . وإذا كنت مصاباً في رغبتي ومعوقاً عن بلوغها ، فإن وجودي كله هو المزعزع ، ويقتضي تبنيناً للعالم جديداً . فتحليل حضوري في العالم يؤلف السبيل الوحيد لضرب من الفهم السيكولوجي الحقيقي .

الفصل الثاني

علم النفس

الحضور والوجود

لا جسم ولا روح

إن علم النفس ، في جهده الأصيل ، يقطع صلته بمنظورين قاداه الى سخافات وأظهرا عجزه عن الكشف عن موضوعه ، أي الانسان .

العلم والفلسفة ينفيان نوعية علم النفس

ـ كان المنظور الأول ، ذو الطابع التاريخي ، أن علم النفس ربط مصيره بالفلسفة . فكان علم النفس معروفاً على أنه فرع من فروع الفلسفة كما لا يزال تعليمها يجري في الصفوف التحضيرية للبكالوريا . وكانت تربته الإبستمولوجية هي تربة الميتافيزياء والأنطولوجيا حيث كان موضوع البحث وصف سلوكات الإنسان بمصطلح الجوهر ومصطلح الملكات الفطرية والمتعالية : وكان كل من الإرادة ، والمعرفة ، والغريزة ، والإدراك ، شيئاً في ذاته يحيل الى تصور معياري ومتعالٍ للإنسان بوصفه محض باقٍ بصورة دائمة . وموضع البحث منذئذ كان الوصف والتصنيف ، انطلاقاً من معرفة منهجية يجري فيها تصور علم النفس على أنه الشرح العقلاني للسلوكات الشعورية . فنحن نجد هذا النموذج من علم النفس الذي أوضحه ديكارت ، وكانت ، وبرغسون ، وريبو ، الخ . وكان علم النفس ، بوصفه لم يقطع الرباط السُري مع الفلسفة ، علماً قاصراً يترك أصالة الانسان تفلت منه لينجز معرفة مجردة .

ـ والمنظور الثاني ، وهو منظور خدّاع أيضاً ، كان المنحة التي منحتها علوم الطبيعة علم النفس . فقد مضى علم النفس ، إذ شاء التحرّر من الفلسفة ، ينضمّ في القرن التاسع عشر إلى منظور ، في زعمهم أنه « علمي » ، كان حقله الابستمولوجي منحة العلوم التجريبية من النوع الفيزيائي الكيميائي أو البيولوجي . وكان لا بدّ للإنسان من أن يكون موضوع تجربة ، وللحوادث الانسانية من أن تكون موضع تفكيك وجرد ووصف كأنها صحيحة بصورة دقيقة وتجريبية : وتلك هي مرحلة الردّ ، ردّ الظاهرات النفسية الى الظاهرات العضوية والدماغية ، إذ يترتّب علم النفس في ضروب اليقين الرياضي التجريبي بفعل ذلك . وكان الانسان يُدرس في المخبر ، وكان موضوع البحث أن يتمّ البرهان على المنشأ العضوي لسلوكاته ، وذلك ما لا يزال في أيامنا هذه موضع تقصّ بالنسبة للطب النفسي في تصوره المرض النفسي .

وكان هذان التياران ، الفلسفي والعلمي ، مصدر ضروب عديدة من التجريب والملاحظات التي أغنت علم النفس . ومع ذلك ، كان الإنسان مدركاً بوصفه واقعاً ثنائياً ، جسماً وروحاً ، يضع علم النفس ، على هذا النحو ، في وضع يتعذّر عليه فيه أن يرفع القناع عن الموجود ، أي الانسان ، في أصالته وحقيقته . وكانوا يصلون منذئذ إلى ضرب من التجريد ، لأن الموجود ، بوصفه ليس جسماً ولا روحاً ، لم يكن ممكناً أن يدرك ويفهم في خصوصية وجوده الخاص ونوعيته .

أولاً ـ الحضور وبنية الأفعال

ليس علم النفس أبداً علماً مغلقاً ، مجرداً وبالغاً مرماه . وإذ شاء علم النفس دائماً أن يطمئن في يقين معرفة راسخة وموثوقة ، وجد نفسه باستمرار أن موضوعه الذي لا يشبه غيره من الموضوعات مع ذلك ، أي الإنسان ، يضعه موضع التساؤل . وعليه ، بوصفه غير مذهبي ولم يتأسس بصورة نهائية ، أن يضع نفسه موضع التساؤل ، ذلك ان محتواه موضوع بصورة تلقائية موضع

التساؤل بصورة أساسية في تاريخه ومصيره[1] . وكل محاولة تتوخى ، بحجة العلمية والدقة ، أن تجعل علم النفس في عمله الإعدادي والأساسي يستقرّ في ضروب مطلقة ونهائية من اليقين ، قد تضعه في وضع يتعذّر عليه فيه أن يجد الوسائل التي يعقل بها الإنسان بوصفه موجوداً متحقّقاً . والحقيقة أن عمل الفهم في علم النفس تستأنفه بصورة مستمرة وقائع لا تكفّ عن التغيّر خلال التقصيّ ، وتضعه موضع الاتهام . ومن هنا منشأ التفاعل بين من هو موضع الكشف ، الإنسان ، وبين ما يتمّ الكشف انطلاقاً منه ، أي بنيات المعرفة التي تميّز علم النفس . والمرء يمكنه أن يفهم علم النفس على أنه علم الكشف عن الإنسان بواسطة الإنسان ذاته في مظهره وتاريخيته . فالاستجواب الخاص بعلم النفس ينصبّ على بنيات الحضور ومعناه وأساسه ، حضور الانسان كما يتجلّى في كل فعل من أفعاله ، وفي أوضاعه وسلوكاته .

١ ـ الحضور

الأفعال السيكولوجية أفعال الشخص المتكلم ، التي لا يجد فيها كل فرد دلالتها وحقيقتها إلا حين تبدو في تكوينها ، وصيرورتها ، وحضورها . فليس الانسان موجوداً جوهراً بوسع المرء أن يصف مواقفه ويشيّئها . وليس موجوداً سكونياً سلوكه يكمن في تشابه اكبر مع ماهيته ، أي في تحديد وجوده ، تحديد منقوش في « الطبيعة الإنسانية » . وليس الإنسان موجوداً ، بل هو موجود متحقّق « يصبح في حضوره ذاتاً خارج ذاته » [2] . إنه تاريخي ، وفي صيرورة ، ويضع نفسه ، هو نفسه ، موضع التساؤل دائماً . ولهذا السبب ، فإن علم النفس لا يمكنه ، إلا إذا انتحر ، أن يصدر في اكتشاف الانسان عن معرفة علمية ومذهبية . والمهم أن نتبينّ بأي شيء يباشر ضرب من الحضور في كل فعل من الأفعال الانسانية ويتحقّق انطلاقاً من مختلف اللحظات التي تكوّنه . ولهذا السبب ، فإن على علم النفس أن يجد أصالته ومبرّر وجوده في علم نفس الحضور

---

(١) انظر محاضرات لم يسبق نشرها مالدينه ، ليون ، ١٩٦٦ .

(٢) بانسفنغر . «مسير ، قول وفرويد» ، غاليمار .

الذي ينبغي له أن يكون أساسه . والعلم الذي يكشف عن الموجود في مشروعه هو وحده الذي يسعه أن يقول عن نفسه إنه سيكولوجي في كونه يعقل معنى الموجود المتحقّق .

٢ ـ الانسان مشروع

هذا المشروع ، مشروع الأساس لعلم النفس ، تهدّده مع ذلك باستمرار كثرة الصور ، صور الحضور الإنساني ، وتنوّعها . ويُلام علم النفس على الغالب بوصفه لم يوحّد صورة انسان واحد وسامٍ ، ولم يضف الكلية عليها . فثمة ضروب لعلم النفس بمقدار ما يوجد من الجوانب التي ننظر منها إلى الإنسان : علم نفس مرضي إذا كان مريضاً ، وعلم نفس تكويني اذا كان طفلاً ، وعلم نفس اجتماعي إذا كان يقيم علاقة ، وعلم نفس فرقي إذا كان ذا جنس ، وتحليل نفسي إذا كان حياة لاشعورية ، إلخ . فكيف نوحّد علم النفس انطلاقاً من جوانب للإنسان هي بهذا القدر من الكثرة والاختلاف ؟ وليس الهدف أن نوحّد الجوانب التي ننظر منها إلى الإنسان ، بوصفها كذلك ، توحيداً اعتباطياً ومجرداً كما تصوروا علم النفس العام ، حيث ينصبّ البحث على إضفاء المنهجية على سلوكات الإنسان بترتيبها في مجموعة ، بل أن نتقصّى تقصياً أعمق ، وأن نفهم فهماً أوضح ، ما يُعتبر في هذه الوجهات النظر المختلفة أنه معنى الفعل الذي به يستدعي الإنسان ذاته والعالم في مشروعه . ولهذا السبب ، فإن وحدة علم النفس ، لا يمكنها أن توجد وتُفهم إلا انطلاقاً من المحل الوجودي الذي تتواصل فيه جميع أفعال الانسان فيما بينها ، لكي تطرح الحضور في العالم . ولهذا السبب أيضاً ، فإن شتّى الجوانب التي ننظر منها إلى الانسان ، على الرغم من أنها مختلفة في بنيتها ونمط تجلّيها ، تتواصل في الواقع فيما بينها تواصلاً مستمراً ، ما دامت ناشئة عن الحضور ذاته ، حضور الانسان في العالم . ويجد التنوّع في أنماط التجلّي لدى الانسان دلالته النهائية في هذا التجلّي ذاته ، الذي يطمح علم النفس طموحاً مشروعاً إلى أن يفهم معناه الأساسي .

ويُبرز هذا المعنى الأساسي وضع الانسان ، وضعه الأصلي والأصيل الذي ينبعث منه حضوره . ولهذا السبب ، فإن على علم نفس حقيقي أن يحدّد

لنفسه ، عبر تنوّع وجهات النظر حول الانسان ، مهمة مفادها أن يوضّح دائماً علاقة الانسان بالعالم وبذاته . ذلك أن الحضور ينبعث من تواصل بين الإنسان والعالم ومن لقاء بينهما . فدراسة هذه العلاقة ، وتكوينها ، وأنماط تحقّقها ، وغائيتها ، تلكم مهمة علم النفس الأساسي . وهذا العلم ، علم النفس الأساسي ، استمدّ منظوره من أعمال فينومينولوجيا هوسرل ، ومن أنطولوجيا هيدغر ، ومن تحليل الحضور لدى بانسفنغر . فهؤلاء المؤلفون الثلاثة أتاحوا الفرصة لعلم النفس ، في الواقع ، لمنحه مشروعاً وطريقة يتيحان له أن يكشف للإنسان ماهية « فعل الوجود » . وبناء علم نفس حقيقي ، يكون أميناً لموضوعه ، غير ممكن إلا بهذا التساؤل عن وجود الإنسان .

ثانياً ـ التحليل الوجودي

كان فلوبير يقول إن علينا أن نتخلّى عن « هوس الرغبة في الوصول الى نتيجة » ، وذلك امر لا غنى عنه لعلم النفس على وجه الخصوص . والواقع أن ما هو موضع التساؤل في « المعرفة السيكولوجية » يكمن على وجه الدقة في أن المدارس والمذاهب السيكولوجية أشادت ما تعلمه في معرفة جامعية ، تاركةً يفلت منها ما يجعل علم النفس نوعياً ، أي فعل الفهم . ومن الضروري منذئذ أن نميّز طريقة خاصة بعلم النفس يمكنها أن تقوم مقام أداة لهذا الفهم .

١ ـ إنسان ينبعث

والفعل الأول لفهم الوجود يقوم على التسليم بأن علوم الطبيعة عاجزة عن أن تتكلّم لنا على الإنسان ، لأنها عندما تتكلم عليه ، تفعل ذلك وكأنه موضوع محدّد بصورة دقيقة ، لا ذاتية له ولا عالم . فهي ، من جراء ذلك ، تحرم نفسها من الوسيلة التي يمكنها أن تتكلم بها على الإنسان . وليس هنا موضوعها من جهة أخرى ما دام العلم لا وجود له بوصفه علماً إلا عندما يردّ الانسان الى أن يكون مجرد خارجية ، ومجرد شيء محروم من ذاتيته . والحال ، على العكس ، أن ما يهم علم النفس ، على وجه الدقة ، هو هذا الإمكان لدى الإنسان ، إمكان الانبعاث

من عالم الأشياء ليطرح نفسه بوصفه ذاتاً ، أي بوصفه حضوراً . وسيحون علم النفس حقيقياً بقدر ما يحدّد أسس الذات التي تنبعث في كل تجربة وفي كل فعل إنساني . فثمة عندئذ ضرورة لفهم الكيفية التي تنشأ بها ذات في كل فعل إنساني وتلتزم وتبني كل تجربة .

٢ ـ انسان ذات

الإنسان ليس ذاتاً إلا إذا كان لديه إمكان مفاده أن يُجري في كل لحظة من لحظاته ضرباً من النفي ، نفي ما يحيط به ويحدّده لكي يتجاوزه . وفعل التجاوز هو الخاصة الأساسية من خصائص الموجود المتحقّق ، وهو فعل بواسطته يفوز بنفسه وهو يغزو عالمه . وفي فعل التجاوز ، أو التعالي ، يبسط الإنسان وضعه الخاص الأصلي ، وضع موجود ذاتي ، وضعاً يتجاوز شيئاً من الأشياء ، أي يتجاوز العالم الذي أُلقي فيه . وهكذا يبدو لنا فعل التجاوز على أنه حركة الحضور الإنسانية ، حضور بواسطته ثمة ، في كل وضع من أوضاعنا ، عالم مطروح وموجود متحقّق يطرح نفسه . ويدلّ هذا الطرح ، طرح الموجود المتحقّق والعالم ، على الدرب الذي ينبغي لعلم النفس أن يسلكه حتى يكون حقيقياً : معلم النفس ، بوصفه علم الموجود المتحقّق ، لا يسعه أن يترك خارج إطاره ما به ، وفي سبيله ، يجعل الإنسانُ عالمه ووجوده متعاليين . وعليه دائماً أن يكتشف من خلال نمطه في الفهم أن جميع سلوكات الانسان تحدث في خلفية عالم من العوالم بالنسبة الى موجود عليه أن يصبح ذاتاً .

ولهذا السبب كتب بنسفنغر يقول (٣) : « إن مفهوم العالم ، وذلك بمعنى تكوين العالم أو بمعنى مشروع العالم (*) ، يكوّن مفهوماً من المفهومات الأساسية ، بل السلك الناقل المنهجي للتحليل الوجودي . وذلك أمر يقدّم لنا بالفعل دائماً ، في كل طور من أطوار مشروع العالم ، معلومات عن أسلوب الموجود في العالم وعن

---

(٣) بنسفنغر ، المصدر السابق .

(*) يسمى هوسرل ذلك mondinisation مصطلح ورد في النص الأصلي فضلنا وضعه في الحاشية «م» .

أسلوب الموجود الذات في الوقت نفسه . فعلى التحليل الوجودي إذن أن يوضّح كيف يكون بوسع الإنسان أن يمارس التعالي والتجاوز في جميع أفعاله ، لأن ذلك هو نمطه الأساسي في الوجود . فليس موضوع البحث في علم الأمراض ، على سبيل المثال ، أن ننظّم المرض النفسي بصورة مجرّدة في مفهومات ، جاعلين منه أمراً لاعقلانياً محضاً ، عصيّاً على المعقولية والفهم ، إذ نردّ الجنون الى أن يكون ضرباً من العقل المعادي الذي يفقد اتجاهه . إن موضوع البحث بالحري أن ندرك نوعية هذا النمط من الوجود الذي هو الجنون ، وأن ندرجه في فعل الفهم لكي يُعطى المجنون الكلام انطلاقاً من لغته الخاصة (هذيان وهلوسات) ، وأن نستخلص إن كان الجنون ضرباً من الفقدان الأساسي لإمكان فعل التجاوز والتعالي . فالزمنية القاصرة لدى المصاب بالذهان ، على سبيل المثال ، لا يُنظر إليها على انها نقص أو شيء مخالف للصواب ، بل على أنها نمط من الوجود ليس بوسع الزمنية فيه أن تتكوّن بسبب صعوبة في الوجود في العالم . وهكذا فان المرض النفسي ليس مرض الدماغ أو مرض عقل يصبح مجنوناً ، بل ، بالحري ، تجربة موجود يحسّ في نفسه أنه في الحدود القصوى من حضوره ، وذلك حدّ يأتيه من النهائية ، أي من الموت . ونفرض أن تحليل الحضور يدمج الموت بوصفه موضوعاً أساسياً من موضوعات عالم المريض النفسي ، إذ يُبرز بذلك وضع كل موجود متحقّق . ولن يكون على هذا النحو أيضاً حدود « مؤكدة ومضمونة » بين السوي والمرضي ، لأن المجنون لن يبدو في تجربته ، تجربة الموت الممكن ، وفي تصدّع عالمه ، على أنه شخص غير سوي ، وانما يبدو ، بالحري ، كمن يكشف بجنونه عن وضع موجود من أجل ـ الموت . فليس لوضعه ، وضع المجنون ، صفة استثنائية ؛ إن هذا الوضع ، ببساطة ، هو البرهان على ما يعانيه ، من خلال الحصر ، كل موجود في كل فعل من أفعاله . ولكن المجنون ، على خلاف الانسان « السليم » ، يعاني وضعه على حدّ القطيعة ذاته ، أي على حدود الموت والحياة . وهذا هو السبب في أن المجنون لا يمكنه أن يُدرك على انه غير سوي ، بل بالحري على انه انثناء في الوجود الحقيقي ، انثناء يُحرَم المجنون بواسطته من كلامه الخاص .

ثالثاً ـ الحضور والذاتية

بوسعنا تعريف الانسان على أنه موجود قادر على أن يصبح ذاتاً ، وذلك في كل أفعاله : إنه يصبح ذاتاً وهو يفوز بعالمه وشخصيته . ويصبح ذاتاً في علاقته بالغير والبنيات الاجتماعية ، ويصبح ذاتاً في الاتحاد الجنسي والمواجهة الجنسية . ويصبح ذاتاً عندما يواجه مشكل الموت والجنون الممكن دائماً . وسيكون دور علم النفس ، منذئذ ، أن يكشف عن أن على تحليل الحضور أن يجد ، مجدّداً في كل وضع خاص ، هذا الوضع الأصلي لموجود في العالم ، وضعاً يستطيع الإنسان بواسطته أن يتكوّن بوصفه ذاتاً ، لا ذاتاً بالمعنى الديكارتي لكوجيتو يدمج وضعه بصورة كلية ويكون سيد نفسه ، بل ذاتاً بالمعنى الذي ينبعث فيه الإنسان لكي يكوّن ذاته بذاته في كل فعل من أفعاله . وبهذا المعنى ، ينبغي لعلم النفس أن يستدخل الممارسة والعكس بالعكس . وليس على نظرية الممارسة الإنسانية أن تبدو على أنها مذهب ، بل على أنها جهد ، وموضع النقد والتجديد دائماً ، هدفه بناء نهجها لتفهم جميع أعمال التجربة . وتحليل الحضور يمكنه منذئذ أن يُفهم على أنه جهد الأصالة ، والدقة ،والوضوح ، في علم النفس .

الوجود والضياع

سيحاول تحليل الحضور ، بالإضافة الى ذلك ، أن يدرك حركة العلاقة بالعالم بواسطة فعل التعالي . فما يكوّن الموجود المتحقّق بصورة أساسية إنما هو لقاؤه الممكن دائماً مع العالم . والنمط الأساسي في الوجود ، نمط الإنسان ، يكمن في أن يستدعي نفسه ويستدعي وضعه في ضرب من الفهم هو في الواقع ضرب من التواصل . والتواصل نمط وجود الانسان ، نمط يكوّن الإنسان نفسه بواسطته على أنه حضور وذاتية . والتواصل جذر الواقعي ، جذره ذاته ، لأنه لا وجود لحضور ولا لذاتية ممكنة دون هذا التواصل . ولكن هذا التواصل غير طبيعي ، ذلك أن الحضور والذاتية يتكوّنان في المواجهة . والواقع أن النزاع أحد علامات الحضور

الأساسية ، نزاعاً منه ينبعث مأساوي الوجود الانساني ومأساته (٤) . ولهذا السبب كان علم النفس ، في رأي بوليتز ، علم المأساوي ، ذلك أن كون الموجود الإنساني حاضراً وكونه يعيش مأساة وجوده في العالم وضع واحد . والحال أن ضرباً من علم النفس العقلاني يترك المأساة تفلت منه ، من حيث أن مشروعه تقليص التناقضات دائماً ونفيها (٥) . فالإنسان يظلّ مع ذلك موجوداً متحققاً ولا يمكنه أن يتكوّن بوصفه ذاتاً إلا إذا أفلح في أن يعيش النزاعات دون أن يضيع فيها مع ذلك . والمرء يمكنه أن يقول عن التحليل النفسي إنه العلم الذي يدلّ على النزاعات ويفسّرها : نزاع بين الدوافع والأنا العليا ، ونزاع بين الرمزي والواقعي ، ونزاع بين المتخيّل والرمزي ، ونزاع بين المرضي والتوازن ، ونزاع بين الرغبة الجنسية والحياة الاجتماعية ، ونزاع بين الطفولة والنضج ، ونزاع بين اللاشعور والأنا ، ونزاع بين الذاتية وآليات الدفاع ، إلخ . ولهذا السبب كان واقع الكون في مواجهة دائمة مع تجربة يكون الانسان بحسبها موجود المأساة والنزاع . وإذا كان « عالم العلوم الطبيعية » يملك الكون وهو يجعله موضوعياً ، فليس بوسعه أن يفعل ذلك إلا إذا صرف النظر عن لقائه بالعالم ، لقاء ينفي نفسه بواسطته على نحو من الأنحاء ، بوصفه حاضراً ، ليؤكد ذاته بوصفه موجوداً عارفاً ويؤكد العالم بوصفه موضوعية . والحال أن تجربتنا الخاصة بالعالم ليست ، منذ الوهلة الأولى ، ذات نزعة إلى إضفاء الموضوعية(٦) ، بل هي على العكس ضرب من التواصل حيث يكون وجودنا ، في السيرورة التي يصنعها في العالم والتي يكوّن

---

(٤) بوليترز ، «أسس علم النفس» .

(٥) في علم النفس المعاصر ، نجد التعارض مجدداً ، التعارض أدخله نيتشه ، بين العقل والتراجيدي ، يعبر عنه الديالكتيك بين سقراط وأبولون وديونيزوس تعبيراً رمزياً في «نشوء التراجيديا» .

(٦) من هنا منشأ النسبية في التكوين الجامعي لعلماء النفس الذين لايمكنهم أن يتكونوا إلا انطلاقاً من «عرض الحالات» ، وهذا التكوين يقود إلى ضرب من إضفاء الموضوعية الذي ينبغي وضعه موضع التساؤل خلال الممارسة المهنية .

نفسه بواسطتها ، موضوعاً موضع التساؤل في كل وضع من الأوضاع . فعلاقتنا الأصلية بالعالم علاقة تاريخية من حيث أنها تربطنا بتعبير عن أنفسنا يكون فيه العالم بحوزتنا قبل أن يكون موضوعاً في مواجهتنا . إن العالم قائم قبل كل تمييز بين ذات وموضوع ، ذلك أن في فعلنا ، فعل الحضور ، عالماً بالنسبة لنا نكوّن أنفسنا بواسطته . ويتقصىّ هيدغر ، في كتابه « الوجود والزمن » ، علاقة فهم العالم ، فهم موجود لدى الإنسان ، قبل أي عملية تجعل العالم موضوعياً : « إن للفهم وجوده في فعل الفهم . واذا كان نمط الوجود الأساسي للموجود المتحقّق هو الموجود في العالم ، فإن فهم هذا الموجود في العالم سيكون عنصراً أساسياً لفهمه الوجود . والرؤيا المسبقة لما يرمي إليه إنقاذ الموجود داخل العالم ليست سوى فهم العالم ، فهم هذا العالم الذي يكون فيه دائماً للموجود المتحقّق ، بوصفه موجوداً ، بعض السلوكات بصدده » .

وعلم النفس لا يمكنه ، فيما يخصه ، أن يأخذ بالحسبان أمراً مفاده أن الإنسان يكون في العالم في علاقة دائمة من الفهم إزاء العالم (فَهِمَ يعني أخذ معه ، والإنسان يرتبط بالعالم لكي يكوّنه ويكوّن نفسه) . وهذا هو السبب الذي من أجله ولا ريب كان علم النفس علم الفهم ، والتواصل ، ولقاء الانسان والعالم ، إذ يُبنى على هذا النحو بوصفه علم الواقعي الذاتي . فعلم النفس ، بوصفه ليس علم الجسم ولا تأملاً حول النفس ، لا يمكنه أن يجد نهجه الخاص إلا إذا كان الإنسان ، الذي يتحقّق في العالم وهو يفهم نفسه ، هو أفق مدلوليته . وهذا هو السبب في أن علم النفس ، على وجه أخص ، علم الواقعي ، والتجاوز ، والتعالي .

١ ـ اللغة

يكشف تحليل الحضور أن من المتعذّر على عالم النفس ، دون أن يدمّر العلم الذي يمارس بواسطته ، أن يصرف النظر عن محل الانسان في العالم في حركته ، حركة التعالي . ويسعى علم النفس إلى أن يستجوب هذه العلاقة ، علاقة الإنسان ـ العالم التي تؤلف الحضور وإلى أن يفهمها . والحال أن اللغةهي التي تمنح الانسان هذه العلاقة ، علاقة الأنا والعالم . وهذه اللغة ليست مجرد وسيلة

تقنية في خدمة الكلام (اللسان) ، وإنما لغة بوصفها البنية الأساسيةللحضور في العالم بواسطة القول . ولهذا السبب ، فإن علم النفس ، وهو ذاته علم هذه العلاقة ، لا يمكنه أن يُعقل خارج اللغة التي يقع في شباكها والتي يتحقّق انطلاقاً منها بوصفه علم النفس (*) . وليس بوسع علم النفس ، بناءً عليه ، أن يقتصر على أن يكون مجرد علم للسببية النفسية (ريبو) دون أن يطرح على نفسه مشكل الفهم ، ومشكل ما لديه عن نفسه من فهم خاص . فعالم النفس ، في الواقع ، اختصاصي في اللغة ، من حيث أنه يرفع القناع ويكشف عن ما لا يبدو ، وما هو خفيّ ، وما هو مستبعد من الشعور . تلكم هي المهمة التي كان فرويد قد حدّدها للتحليل النفسي : أن يسترجع للفرد كلامه الخاص الذي اغترب عنه ، والذي يفلت منه ، حتى تتحقّق فيه ذاتيته مجدّداً . والواقع أن الانسان يُدخل في كل فعل من الأفعال ، بصورة شعورية أو لاشعورية ، اتجاهات من المعاني ينطوي عليها كل معنى منها . ولهذا السبب ، كان الفعل الأساسي في علم النفس لا فعل الرؤية ، وهو موقف ذو نزعة إلى إضفاء الموضوعية ، بل فعل الإصغاء وهو موقف فهم يسعى إلى إدراك المعنى . فعلم النفس ، بوصفه كذلك ، يطرح على نفسه مشكل فهم الظاهرات النفسية ليكشف عن بعدها التعبيري والمفعم بالدلالة . وليست علاقة مريض بعالم النفس علاقة دراسةٍ لحالة من الحالات ، وعلاقة ضرب من إضفاء الموضوعية وتصنيف السلوك ، بل علاقة اكتشاف الحقيقة لدى المريض ، إذ يمضي اليه عالم النفس باللغة ، علاقة ليست اللغة فيها مجرد وسيلة للتواصل ، بل علاقة تُدخل فيها اللغة مشكل حقيقة المريض وتاريخ الفرد . ولهذا السبب كان المعنى لا يقبل إضفاء الموضوعية والتحقيق ، أو الروز (رائز وتصنيف) . فهو لاموضوعي ، ولا يُعقل إلا في علاقة تبنينها اللغة ، حيث لكل من المريض وعالم النفس كلامه وحقيقته . والحقل السيكولوجي هو حقل القول الذي يتجلّى فيه الواقعي على صورة رمزية للمعنى ، أي للممكن .

(*) المقصود هنا المعنى الاشتقاقي ، أي نفس ، روح ، كلام ، قول . (وقد ورد ذلك في النص الأصلي)، ولكننا فضلنا وضعه في الحاشية «م») .

ومن هنا منشأ الأهمية الحالية لبحوث لاكان الخاصة بالقول واللغة .

٢ ـ مشكل المعنى

طرح مشكل المعنى هو طرح مفاده أن كل فهم سيكولوجي ليس فهماً مباشراً على الإطلاق ، ذلك أن فهم سلوك من السلوكات أو ملاحظة من الملاحظات ليس تسجيلاً لتعبيرات الغير فقط ، إنه على وجه الخصوص إدراك معنى يتجلّى الغير بواسطته ويوجد . فكل إدراك ينصبّ على معنى ، وله صلة بذاتية الفرد الذي يعبّر عنه . والمعنى ، قبل كل شيء ، تعبير مدلوله يكافىء أن الفرد يطرح نفسه بنفسه في البحث عن الغير . ولا يعبّر المرء عن معنى من المعاني إلا عندما يستدعي الآخر ، لا بضرب من المباشرية التي لا يتميّز فيها الآخر من ادراكي إياه (وذلك هو موقف الطفل في الطور السابق على العلاقة بالموضوع) وإنما بطرح الآخر على أنه من يُحال إليه قولي . ولهذا السبب ، كان المعنى في علم النفس غير ممنوح إلا في فعل من الابتعاد والكمون يتيح العلاقة بين الذاتية . وليس عالم النفس أبداً ذا اتصال مباشر بتعبير الغير ، ذلك أنه لا يمكنه أن يحيل الغير إلى أن يكون مجرد مجموع تعبيراته أو أعراضه : فذاتية الغير ليست ممكنة الصون في الفعل السيكولوجي إلا إذا لم ترتدّ الى مجموع سلوكاته ومواقفه

البطاقة تحجب الكلام

ولهذا السبب ، فان كل علم يصرف النظر عن مشكل المعنى ، أي يصرف النظر عن مشكل كلام الفرد على ذاتيته الخاصة ، ليس له بعد سيكولوجي . والحال أن ضروب وصف الأمراض في الطب النفسي ،وتصنيفات الطفولة غير المتكيّفة ، وتحديدات القياس لمستويات الذكاء ، تجد حدودها هنا بما أن أياً من هذه الممارسات لا يتيح بناء الذات بوصفها ذات قولها . ويتوخّى التصنيف في الطب النفسي ، شأنه في ذلك شأن علوم السلوك جميعها (علم الطباع على سبيل المثال) ، تقليص هذا البعد بين الذاتي الذي قد يوجد بواسطته فهم المعنى وإدراكه . والبطاقة هنا تدمّر الإمكان الموجود لدى الفرد لأن يقول كلامه

---

(٧) انظر فصل «علاقة المريض والطبيب» في هذا الكتاب .

الخاص ، ذلك الفرد الذي ضيّعه القول العلمي ، والموقف النزّاع إلى إضفاء الموضوعية ، المستخدم في هذا النموذج من التحليل . فالعرض أو السلوك لا يرتدّان الى البرهان على السببية ، إنهما يُدخلان معنى يعطيه الفرد الى وضعه ، وضع الموجود في العالم . ولهذا السبب كان وجود علم لتصنيف المعنى في علم النفس غير ممكن ، لأن المعنى عديم الاستقرار جداً ، وينبعث تبعاً للحظة التي يولد فيها ويدرك . وفي هذا الادراك ، إدراك المعنى ، بوصفه اتجاهاً مشخّصاً لحضور فرد من الأفراد ، ينشأ الفعل السيكولوجي للفهم : والمعنى المدرك على هذا النحو لا يمكنه أن يتخثّر في فئات علم يتوخّى أن يحدّد سلوك الإنسان تحديداً عقلانياً . فإرادة احتواء المعنى في ضرب من التصنيف ، وفي إضفاء الفئوية المفرط ، هو القضاء على الفعل السيكولوجي ذاته ، وعلى المريض الذي كان السبب في وجود هذا الفعل . **فعالم النفس هو من يكشف عن معنى كلام الانسان .**

٣ ـ الجسم

إذا كان المعنى مرتبطاً باللغة ، فهو داخل أيضاً في ضرب من إشكالية الجسم . والمعنى الذي يكشف عنه نمط الوجود الجسمي للموجود المتحقّق ليس قابلاً ، هنا أيضاً ، للردّ الى تصور الجسم تشريحياً أو فيزيولوجياً أو طبياً [٨] . والفرد ، في هذا المنظور لعلم النفس الكلاسيكي والعلمي ، مجرّد من جسمه ومستبعد من العالم ، ما دام الجسم هو الوسيط الأول للحضور في العالم . والمقصود ليس الجسم ـ الموضوع ، بل الجسم بوصفه نمطاً من الوجود ، وبنية أساسية للحضور . فالجسم يعيشه الفرد بوصفه مشروع المعنى عبر الحضور وتعبيراته الجسمية . والجسم لغة ، وعلم النفس الحقيقي ينحو الى أن يُرجع الجسم [٩] إلى قول المريض . ولهذا السبب كان الجسم علامة ، ورمزاً ، وعَرَضاً كالأحرف والكلمات في جملة من الجمل . إنه لغة ليس بوسع علم النفس أن

---

(٨) انظر فصل «علم النفس الأساسي» في هذا الكتاب .

(٩) «الإنسان وذهانه» ، جيزيلا بانكو .

يستبعده من قوله الخاص ، ما دام الشرط لإمكان القول لدى المريض . وتستدعي إشكالية الجسم بوصفه معنى قول ، في الوقت نفسه ، ضرباً من إشكالية الجنسية والآخرية . فالموجود الجسمي موجود ذو جنس ، واستبعاد الجنسية من كل فهم يعني أن نجعل كل إدراك للانسان ، بوصفه حضوراً في العالم ، أمراً متعذراً . وعلم النفس لا يمكنه أن يستبعد الجسم ، لأن التعبير يعيشه الفرد أول الأمر على المستوى الجسمي قبل أن ينطق به .

نافذة من أجل علم النفس

ليس بوسع علم النفس ، الذي يحدّد السلوكات وبنيات الأفعال موضوعاً له ، أن يباشر عمله إلا بضرب من تحليل الحضور الذي يبني هذه البنيات ، ويمكنه وحده أن يرسم لعلم النفس اتجاهات البحث ويمنحه نافذة ومستقبلاً . وينبغي لعلم النفس أن لا يعمل على نحو انطوائي في المجال المغلق ، مجال الإضفاء المطلق للمفهومات ومجال الإضفاء المجرد للفئوية . فاذا كان علم النفس انطوائياً ، فإنه يكون عاجزاً عن الخروج من ذاته ، وعن أن يكون جاهزاً للإنسان ، بوصفه أداة الفهم وبوصفه إدراك الحضور في العالم . ومشروع علم النفس ، شأنه شأن الانسان الذي يتوخّى هذا العلم أن يفهمه ، يقتضي معاً احتياز معرفة وتدمير هذه المعرفة في الوقت نفسه . وتلك صيغة أساسية من صيغ قوله : والحال أنه لا وجود لقول من الأقوال إلا انطلاقاً من اللحظة التي يُنفى فيها ما قيل بهدف الطموح إلى ضرب من التجاوز ، إلى شيء آخر لم يكن قد قيل بعدُ . ومن هنا منشأ أهمية التخلّي عن ما هو موجود حتى يمنح نفسه إمكاناً مفاده أن يولد ولادة جديدة ، ويتكلم كلاماً جديداً حقيقياً على الانسان . وينبغي لعلم النفس أن يفهم نفسه أن عليه أن يتلاشىدائماً ، شأنه شأن الموجود المتحقّق ، لكي يجد نفسه باستمرار . وفي التجاوز المستمر ، قد يكون علم النفس هو العلامة والشاهد على إمكانية الإنسان للتجاوز والتعالي . فالولادة والموت هما الفعلان الأساسيان من أفعال علم النفس ، كما أنهما النمطان الأساسيان من أنماط الحضور في العالم .

« * »

الباب الحادي عشر

سيكولوجيا علماء النفس

الفصل الأول : التحليل النفسي والسياسة

الفصل الثاني : علم النفس موضع التساؤل

الفصل الأول

التحليل النفسي والسياسة

أولاً ـ القول السياسي وقول التحليل النفسي

أثمة إيديولوجيا للتحليل النفسي ؟

إذا كانت ممارسة علماء النفس تثبت وجود إيديولوجيا لعلم النفس ، فان هذه الظاهرة مرتبطة ، في الجزء الأكبر منها ، بممارسة التحليل النفسي ونظريته ، من حيث أن نظرية التحليل النفسي هي التعبير عن ولادة علم (التحليل النفسي) وعن تكوين إيديولوجيا (الفرويدية ، منحى التحليل النفسي) .

والثنائي ، علم ـ إيديولوجيا ، يعبر حقل التحليل النفسي ذاته من طرف إلى طرف . وبعبارة أخرى ، إن التحليل النفسي يلتقي السياسي بوصفه يفتح حقلاً اجتماعياً يتلاقى فيه الاثنان بالضرورة .

فعلينا إذن أن نطرح سؤالاً بدئياً : إذا كان التحليل النفسي محلاً مفضلاً تكشف فيه الرغبة والمتعة ، والحصر والموت ، عن نفسها ، فذلك يعني أنه لا يمكننا أن نكوّن مفهوماً للرغبة بمصطلح اللاشعور الفردي فحسب ، بل بمصطلح تاريخي أيضاً ، حيث تنزع السياسية وممارسة التحليل النفسي إلى أن تكونا ضرباً من قراءة الواقعي ، واقعي الرغبة في صلتها بالاقتصاد والصراعات . فليس التحليل النفسي إذن حقلاً حيادياً ومغلقاً ، وحيّزاً يُستبعد البعد السياسي منه . وبوصفه يكوّن منظومة إيديولوجية تتطوّر تاريخياً ، فإنه يعاني ، دون أن يسيطر عليه ، قدراً من المناسب أن نشير الى بعض جوانبه .

وليس بوسع التحليل النفسي أن يفلت من قول بين الرغبة والسلطة ما

دامت نظريته ربما تعمل عملهاالوظائفي في حقل هذين المفهومين .

ماركس وفرويد

الصلة بين السياسي وبين التحليل النفسي لا يمكننا أن نُحدث مفعولها على المستوى المفهومي أو النظري . وبعبارة اخرى ، إن الفرويدية ـ الماركسية هي اختراع الإيديولوجيا البورجوازية على الغالب : فليس ثمة جسر ، ولا معبر ، ولا نتيجة نظرية ، بين التحليل الفرويدي ، الذي يظلّ نظرية الظاهرات الفردية بصورة أساسية ، وبين التحليل الماركسي الذي يظلّ ، إذ يصرف النظر عن نظرية للفرد ، تحليلاً ذا طابع اقتصادي وسياسي لإجمالية الظاهرات الاجتماعية . فليس ممكناً بالتالي إجراء مقارنة بين التحليل النفسي والسياسة مؤقتاً ، بل ربما كان ذلك غير مرغوب . وعلى العكس ، تنطوي الصيغ التي تتحقّق بها الرغبة أو الإحباط لدى الأفراد والجماعات والمؤسسات ، على نظرية في الليبيدو تتجاوز إطار التفرّد وإطار الذاتية . وبعبارة أخرى ، تنتظم الرغبة وتناور ، فهي تتكوّن في علاقة بنظام اجتماعي وسياسي . فلا وجود لرغبة في ذاتها تكون على نحو من الأنحاء في أساس تكوين الفرد ، فرد هو محض رغبة تكون الرغبة فيه ، هي ذاتها ، نظيفة من كل عدوى اجتماعية . ولهذا السبب ، ينبغي للرغبة والقمع أن يُطرحا بمصطلح التنسيق الجماعي ، وعلى الرغبة أن تخرج من الذات حتى يتمّ رصدها على جميع مستويات المجتمع .

الأقطاب الثلاثة

وهكذا نعتقد اعتقاداً ساذجاً أن الممارسة في التحليل النفسي لا تعرف غير حيّز واحد ، حيّز الديوان (*) ، ولا تعرف غير بعد علائقي واحد هو بعد المحلّل والمحلَّل . فالعالم مستبعد ، ومستبعد أيضاً تاريخ الصراعات . وبالاختصار ، يكون التحليل النفسي ضرباً من البرج العاجي دون أن ينفذ الخارج إليه . وتلك ، ولا ريب ، هي الصورة التي يحتفظ بها عامة الناس للتحليل النفسي : صورة ممارسة فردية في حيّز محجوب وسحري . ومع ذلك ، فان العالم والمعيار ،

(*) الديوان الذي يستلقي عليه المريض في عيادة المحلل النفسي «م» .

والآخرين والمؤسسات ، موجودون فيه بصفة رمزية على الأقل . فأن نربط قدر الرغبة بالقدر الفردي وحده يعني أن نجهل البعد الاجتماعي للرغبة . ومن المفيد أن نشير إلى أن الممارسة في التحليل النفسي تترجّح ، منذ حوالي عشر سنين ، بين ثلاثة أقطاب .

- العالم والتاريخ ، في منظور سريري وعلاجي ، غائبان عن هذه الممارسة أو غير موجودين فيها إلا بصورة غير مباشرة . وهذا ما يمكننا أن نسمّيه الممارسة ذات المنحى الفردي في التحليل النفسي حيث ينحلّ كل شيء ، وينعقد ، ويتبلور ، حول ثنائي هو المحلّل ومريضه ؛

- والقطب الثاني قطب الممارسة بوصفها تعزيزاً للنظام الرأسمالي : فالتحليل النفسي تحوّل عن هدفه حتى تستخدمه أجهزة الإنتاج الكبيرة والاستهلاك ، وأجهزة الدولة . ويسير التحليل النفسي ، في هذه الحالة ، سيراً وظائفياً بوصفه مساعد النظام الاقتصادي والسياسي ، وله وظيفة إجمالية هي وظيفة الدمج .

- والقطب الثالث قطب الممارسة بوصفها رغبة في التخريب : فالتحليل النفسي يأخذ على عاتقه مقتضيات رغبة تتوخّى أن تقطع صلتها بالنماذج والأنظمة القمعية ، إذ يجد بذلك مجدّداً الحركة الأولى لمسيرته البدئية . فالرغبة تصبح رغبة التدمير .

١ - سياسة العالم الأصغر

حتى لا يقتصر التحليل النفسي على مجرد الممارسة الفردية ، وجب عليه أن يتناول الرغبة في الحقل الاجتماعي ، وذلك أمر كان قد بدأ رايخ تحليله بمقارنة تحليلية نفسية للفاشية . ولكن ثمة سؤالا مزدوجاً ، قد يسوّغ هذه الطريقة ، جدير بأن يُطرح ، وذلك أمر فعله غاتّاري[1] .

- اعتاد الناس على الاعتقاد بأن السياسة معنيّة على سبيل الحصر بالمجتمع الإجمالي ، والمجموعات الكبيرة ، والمؤسسات ، والسلطات ، والجماعات الاجتماعية . والحال أنه قد يحدث أن مشكلات الذاتية الفردية لا تنفصل عن

---

(١) غاتاري ، «التحليل النفسي والسياسة» ، ص ٤٤ ، لوسوي .

المشكلات التي تطرحها المجموعات السياسية الكبيرة .

ـ إن مشكلات الفرد والأسرة ، على العكس من ذلك ويخطأ التقدير ذاته ، تُعتبر أنها ليست من اختصاص السياسة ، بل هي بالحري من اختصاص الممارسة في التحليل النفسي حيث السياسة مستبعدة منها .

فمن الضروري إذن أن نبيّن أن ثمة سياسة للرغبة ، تتوجّه إلى الفرد بقدر ما تتوجّه إلى حقل اجتماعي أكبر اتساعاً بكثير . ويقترح غاتّاري البرهان التالي : ففي مجال الفاشية : « الاستبداد الموجود في العلاقات الزوجية أو الأسرية يصدر عن نموذج التنظيم الليبيدي نفسه الذي يصدر عنه الاستبداد في الحقل الاجتماعي . فليس من العبث ، على العكس ، أن نتناول عدداً معيّناً من المشكلات الاجتماعية ذات المستوى الواسع ، كمشكلتي البيروقراطية والفاشية ، في ضوء ضرب من سياسة العالم الأصغر ، سياسة الرغبة »(٢) . « ومن الضروري قيادة صراع ضد جميع آلات السلطة السائدة ، سلطة الدولة البورجوازية ، وسلطة البيروقراطيات من كل نوع ، والسلطة المدرسية ، والسلطة الأسرية ، والسلطة القضيبية في الثنائي ، وحتى السلطة القمعية للأنا العليا على الفرد » (٢) .

٢ ـ الفاشية اليومية

والقول الوحيد المتماسك للتحليل النفسي ، الذي كان قد صدر حول مجال السياسة ، كان دراسة الفاشية . وبيان أن الظاهرة الفاشية تستخدم النوابض اللاشعورية لدى الأفراد والجماهير ، استخداماً منهجياً ومطلقاً ، وتقيم ضرباً من نظام الرعب ، كان أمراً يسيراً بصورة نسبية . ولكن من المناسب أن نميّز بين الفاشية بوصفها نظاماً ناجزاً ، وبين صور من الفاشيات التي تعمل في كل مجتمع . فمن الممكن على وجه تام أن يكون مجتمع من المجتمعات غير فاشي في كلية بنياته ، ولكن سير الفاشية الوظائفي الكيدي يمكنه ، على نحو تام جداً ، أن يُقطّر « بلطف » ، دون أن نكون على وعي بهذه الفاشية . إنه ليس صنيع

(٢) غاتاري ، المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

المجموعات الاجتماعية الكبرى ، الكثيف والمتجانس ، ولكنه يصيب قطاعات من المجتمع يتجلّى انطلاقاً منها أنه فاشي . « وهكذا تنمو ، الى جانب الفاشية في معسكرات الاعتقال التي يستمر وجودها في العديد من البلدان ، صور جديدة من الفاشية الجزيئية ، ضرب من الطهو على النار الهادئة ، في المنحى الأسري ، وفي المدرسة ، وفي العرقية ، وفي مدن الصفائح من كل نوع ، حلّت بصورة مفيدة محل الأفران لحرق الجثث » (٣) . والتحليل النفسي يمكنه أن يساعد على فهم هذا الإحكام المعقّد ، ولكنه ذو طبيعة واحدة مع ذلك ، بين الفاشية الفردية ، فاشية الجماعات الصغيرة السياسية حيث تتجلّى ، وبين الأجهزة الكبرى القمعية في الدولة . وفي كل مكان من المجتمع إنما يتمّ تقطير الفاشية ، أي رغبة الموت . ونجد فيه أيضاً تلك الجبهات ، حيث النضال ضد هذه الفاشية (إضرابات ، وصراعات المهاجرين والأقليات العرقية ، والتدمير في المدارس والسجون ومشافي الأمراض النفسية ، والنضال في سبيل الحرية الجنسية ، الخ . . .) . وكون التحليل النفسي غريباً عن هذه الصراعات أمر يمضي متناقصاً ، « ذلك أن القول إن الفاشية لن تمرّ غير كافٍ » . فقد سبق لها أن مرّت ، وهي لا تكفّ عن المرور .

٣ ـ الانتاج الذي يستثير الرغبة

يزعم بعضهم أن التحليل النفسي ، الذي يشرع على هذا النحو في التنصّت للسياسي ، لم يعد التحليل النفسي ، بل هو تحليل إيديولوجي ذو طموح سياسي . والمشكل معقّد ، وعلينا أن نعرف هل توقّف نمو « علم التحليل النفسي » عندما وضع مؤسّسه ، فرويد بالمناسبة ، نقطة النهاية . ومن الواضح أن مشكل الرغبة ، الذي يتصف أن شأنه كشأن الأساس النظري للتحليل النفسي ومحتواه الموضوعي ، لم يعد يُطرح إطلاقاً على النحو ذاته في نهاية قرننا ، القرن العشرين . فقد كانت الرغبة ، على وجه التقريب ، ضرباً من الشأن الأسري . والحال أن مشكل الرغبة مطروح دفعة واحدة ، بفعل ظاهرة النمو الاقتصادي ،

(٣) غاتاري ، «التحليل النفسي والسياسة» .

والتقني ، والإعلان ، وتفجّر المعايير الثقافية والاجتماعية التقليدية ، خارج الدائرة الأسرية والفردية ليصبح ظاهرة جماهيرية ذات بعد سياسي لا مجال للشك فيه . فإضفاء الصفة الجماهيرية على تنظيم الرغبة والخاصة الكيدية لهذا التنظيم يمنحان الرغبة ، دفعة واحدة ، أهمية اجتماعية وسياسية تتصف بها منذ البداية ، وربما لم تكن تلك أهميتها في عصر فرويد . وإذا كان التحليل النفسي « علماً » ، فإنه يتوجب عليه أن يدرج في حقله التصوري الخاص هذا الوضع الجديد للرغبة . يضاف الى هذا أن المفهومات ليست صحيحة في الحقيقة إلا إذا كانت إجرائية ، أي إلا إذا كانت تخصّ ممارسة لا تناقض دقتها وأسسها . وتكوّنت الرغبة ، إذ انتقلت من الإنتاج الأسري ذي النموذج الأوديبي إلى الإنتاج الاجتماعي ذي النموذج الاقتصادي ، في إنتاج يستثير الرغبة ، وتلك ظاهرة كمية وكيفية معاً تنتهي إلى أنها ستجعل التحليل النفسي مستقبلاً في مواجهة متزايدة مع البعد السياسي .

ثانياً . علم النفس ونضال الطبقات

١ ـ منزلة التحليل النفسي

لا يمكننا أن نفهم التحليل النفسي ، بوصفه ذا منزلتين علمية وإيديولوجية ، إلا انطلاقاً من تحليل تاريخي لتطوره الخاص . وليس ثمة ، في الحقيقة ، شيء مستقلاً عن هذا الواقع . ويطرح نفسه ، بالإضافة إلى ذلك ، مشكل مفاده أن نعرف إن كان التحليل النفسي ، بوصفه منظومة مفهومية ، يتطوّر داخل حقله النظري الخاص . ومن حيث أن التحليل النفسي يوظّف سيرورة من المعرفة ، فإن ثمة ضرباً من الإنتاج الإيديولوجي له يجد نفسه مرتبطاً بـ مجموع التطور الإيديولوجي لمجتمع من المجتمعات .

وتاريخ التحليل النفسي ، في حقله الخاص ، يحدّده تحديداً تضافرياً تطور القطاعات الأخرى من المجتمع . فليست منزلة التحليل النفسي ، على وجه الدقة ، هي المنزلة التي يدفع بها بوصفه علماً ، بل هي أيضاً ، وعلى وجه

الخصوص ، تلك المنزلة التي تتصف بأنها محصّلة ممارسته التاريخية ذاتها .

وثمة واقع كثيف لا يناله الريب ، يفرض نفسه بهذا الصدد : الفئات الاجتماعية المحرومة من الحظوة هي خارج حقل التحليل النفسي لأن المؤسسات والنماذج النظرية التي يستخدمها ذات منشأ بورجوازي بصورة أساسية ، ولو لم يكن ذلك إلا بالزُبُن وبالخاصة ، ذات المنحى النخبوي بصورة صريحة ، التي يتصف بها جهاز المحلّلين النفسيين . يضاف الى هذا أن البروليتاريا تجد نفسها مستبعدة ، بالنظر إلى أن النظرية الماركسية ترفض التحليل النفسي أو لا تبالي به . فمنزلة التحليل النفسي مرتبطة إذن بنماذج المجتمعات الليبرالية أو الرأسمالية .

٢ ـ صراع الطبقات

يتجلّى في فرنسا ، وفي إيطاليا على وجه الخصوص ، ضرب من التمييز الواضح جداً بين أولئك الذين آثروا إخضاع التحليل النفسي للبورجوازية ، وبين أولئك الذين يجدون أنفسهم ، في ممارساتهم ، أنهم في تناقض مع جميع الصور المؤسسية لاندماجهم الاجتماعي . فثمة إذن صراع طبقي ينفذ إلى المكان الثقافي والاقتصادي للتحليل النفسي « بين أولئك الذين يجعلون من التحليل النفسي جهازاً إيديولوجياً لإعادة التكيّف الاجتماعي ، وبين أولئك الذين صمّموا على الاستمرار ، بأي ثمن ، في التطور النظري الذي أدخله فرويد ، ويحاولون أن يأخذوا على عاتقهم جميع تناقضات المجتمع » (٤) .

بيد أنه قد يكون أمراً مفرطاً في السذاجة ، بالإضافة إلى ذلك ، أن نعتبر أنه يكفي أن « نضفي الصفة الديمقراطية » على التحليل النفسي (أن يفيد منه أكثر الناس حرماناً) لنجعله آلة تخدم تحرّر الطبقات المستغلّة ؛ ذلك أن بوسع المرء مع ذلك ، إذا كان ثمة ضرب من إخضاع التحليل النفسي الى إيديولوجيا سائدة ، أن يتصوره في خدمة إيديولوجيا أخرى سائدة ، إيديولوجيا الجماهير على سبيل المثال . فليس ثمة على وجه الاحتمال تحليل نفسي في خدمة الثورة ـ فذلك منذئذ

---

(٤) ماري ـ كليربونز ، «التحليل النفسي والسياسة» ، ص ١٣١ ، لوسوي .

سيكون استخدامه وسيلة أو آلة إيديولوجية ، وإنكار منزلته العلمية .

فالتحليل النفسي رهان الصراع الطبقي ، ولكنه ليس بوسعه أن يكون أداته ولا غائيته . إن ضرباً من التحليل النفسي الأسطوري قد يكون خطراً بصورة رهيبة في المرحلة الثورية ، إلا في حالة كونه تحليلاً نفسياً للاستيهامات .

محتوى التحليل النفسي

يقول بعض المفكرين : إذا كان التحليل النفسي قد انحرف بهذه الدرجة من السهولة ، فذلك لأنه ينطوي بالقوة على العناصر النظرية لانحرافه الخاص ، وهو قول شبيه بعض الشيء بالأسلوب الذي يقول به الفلاسفة الجدُد إن الستالينية متضمَّنة في النظرية الماركسية ذاتها (٦) . وتلك رؤية لها نصيب من الحقيقة ، ولكنها غير كافية مع ذلك . فثمة دائماً مجال للتمييز ، في علم من العلوم ، بين ما هو ناجم عن تطوره الخاص ، من حيث يتصف بأنه علم ، وبين نمط إخضاعه لنظام سياسي في صيرورته التاريخية . والمرء لا يمكنه بالحري أن يقول إن علم النفس ثوري أو إنه ، على العكس ، رجعي في أساسه النظري . والواقع أن ثمة إمكاناً للتمييز بين المحتوى الموضوعي للتحليل النفسي (مفهوماته الإجرائية الرئيسة) وبين محتواه الموضوعي التاريخي بهدف استعماله الاجتماعي السائد .

ويوسعنا ، بالتالي ، أن نطرح سؤالين أساسيين يتيحان لنا أن نرى بوضوح تطور التحليل النفسي :

ـ إذا نظرنا الى التحليل النفسي من زاوية الصراع الطبقي ، بمقدورنا أن نثير التساؤل التالي : من هو صاحب السلطة عليه ؟

ـ وإذا نظرنا إليه من وجهة النظر الخاصة بتطور العلوم ، فإن بوسعنا أن نعتبر أن « لكل قطيعة نظرية تتضّح أنها علمية قدرة داخلية ، لأنها علمية ، على أن تربط قدرها بقوى التاريخ التقدمية » (٧) . ويبدو إذن أن المحتوى الموضوعي

---

(٥) كاستل ، «منحى التحليل النفسي» .

(٦) غلاكسمان «المفكرون المعلمون» ، غراسه .

(٧) ماري كليربونز ، «التحليل النفسي والسياسة» ، ص ١٣٢ .

للتحليل النفسي يتطلّب الوضوح من حيث أنه ذو منزلة علمية ، ويتطلّب الدقة النقدية من حيث أنه ذو منزلة اجتماعية .

اللاكانية ونتائجها العملية

يمكننا القول إن الرهان السياسي للتحليل النفسي تبلور حول الظاهرة اللاكانية منذ عام ١٩٥٥ . فلاكان قطع صلته بالطراز القائم للتحليل النفسي وأدخل الفكر النقدي ، في الوقت نفسه ، في الحقل النظري للتحليل النفسي وفي كفايته العملية . وبمقدار ما تخلّى لاكان عن مفهومات أمريكية ناجمة عن قيام التحليل النفسي في ما وراء الأطلسي ، فقد أدخل ضرباً من القطيعةالحاسمة . فاللاكانية ، في داخل الهيئة العلمية للتحليل النفسي إذن ، حوّلت الحركة التي كانت قد دمجته بالمجتمع لكي تفتحه لمنظورات يتناقض اتصافها بأنها محافظة إن لم تكن ثورية . وبهذا الصدد ، قام لاكان بعمل كبير ، إذ أن بوسع المرء أن يعزو إليه أنه حرّك المثقفين والطلاب خلال ما يقارب عشرة أعوام ، وأيار عام ١٩٦٨ (*) غير غريب عن اللاكانية . فقد كان ثمة قوة اجتماعية حقيقية تضطلع بها ، وبهذا المعنى يمكننا القول إن اللاكانية كانت ظاهرة سياسية . وحول حلقات لاكان وتلاميذ ألتوسر ، تكوّن معاً ضرب من « الجدة » النظرية الماركسية وضرب من « التجديد » في الفرويدية ، بحيث أن جزءاً من المثقفين في هذا البلد أصبحوا حملة قطيعة إيديولوجية ، وجعلوا من أنفسهم قوة تدخّل نظرية سيكون لها نتائج في المجالات الثقافية ، بل وفي مجالات الممارسة الاجتماعية (ضد الطب النفسي ، علاج نفسي مؤسسي ، وجامعة ، الخ) .

إن اللاكانية حملت المعارضة في داخل التحليل النفسي ، بل في قطاعات عديدة من المجتمع بصورة أكثر إجمالية .

٣ ـ تزعزع البنيات

الأثر السياسي للحركة اللاكانية مرئي بصورة خاصة على مستوى المعرفة . فثمة ضرب كامل من النقد الابستمولوجي سيتم الشروع به وسيُدخل تصدّعات

(*) الإشارة هنا إلى الأحداث الطلابية التي جرت في فرنسا خلال هذا التاريخ«م» .

في منظومة المعرفة ، منظومتها التقليدية . ومن جانب آخر ،جانب دولوز ، سيكون هناك ضرب من الارتكاس ضد المنحى الأسري في التحليل النفسي البورجوازي ، وسينمو ضرب من النقد الجماهيري المعادي للأسرة . وذلك هو النضال الذي تقوده الشبيبة ، والنساء ، والبورجوازية المثقفة الصغيرة ، ضد المؤسسة الأسرية والمنحى القضيبي . وسيمتدّ الارتياب الى الحقل النظري للتحليل النفسي ذاته في نواته الأوديبية التي سيضفي المنهجية على نقدها دولوز وغاتّاري . ويحلّ تصور ذو طابع اجتماعي سياسي محل تصور تحليلي نفسي لتكوين الرغبة بواسطة الفرد . وسيعمل ممارسو التحليل النفسي على المستوى المزدوج ، النظري والعملي ، وسيحبسون الرغبة اللاشعورية في الخاص الأسري ، في حين أنها من النسق الاجتماعي والسياسي بصورة رئيسة . وستكون اللاكانية ، هي ذاتها ، موضع النقد ، لأن بعضهم يأخذ عليها أنها حافظت على الخاصة الحاسمة للدالّ القضيبي والخصاء ، وذلك أمر يعني ، من الناحية السياسية ، أن اللاكانية تدعم ضرورة القانون (وضرورة سلطة مؤسّسة بالتالي) والنقص (وبالتالي ضرورة الجهل وعدم تحقيق الرغبة) .

وتكمن قوة دولوز ، بصورة غير مباشرة ، في نقد اللاكانية ، بالنظر إلى أنه يعتبر التحليل النفسي نظرية الحركات العفوية للجمهور ، ونظرية الطابع الاجتماعي للرغبة . وتظهر مع دولوز نظرية التمرّد بفعل تحرّر الرغبة ، ولكن لا تظهر نظرية في الثورة .

٤ ـ التحليل النفسي المضاد

أليس بوسع المرء أن يرصد حركة التحليل النفسي المضاد كما يوجد حركة الطب النفسي المضاد ؟ بوسعه أن يعتقد ذلك بفضل دولوز . ذلك أن دولوز كان مسوقاً بالضرورة ، إذ أغار على المعقل الأسري ، إلى نقد أساسه الإيديولوجي ، أي المؤسسة الأسرية البورجوازية . ويكمن التحليل النفسي المضاد في منح التحليل النفسي وسائل مفهومية وإجرائية في خدمة الجماهير وخدمة الروابط الثقافية والاقتصادية ، حيث يكون بوسع معارضة راديكالية للمجتمع أن تمرّ بواسطتها .

والواقع أن التحليل النفسي بفرنسا يجد نفسه في منعطف سياسي . و

« الحقيقة ، كما تقول ماري كلير بونز [٨] ، أن التحليل النفسي إذا بدا في نموه العلمي الحي عاجزاً عن أن يحسم هذه المسألة في اتجاه مصالح الحركة الجماهيرية ، فإنه ربما سيبين أنه ما هو عليه : فرع من المعرفة إيديولوجي ومضلِّل يخدم مصالح طبقة تفكر بواسطته وداخل ذاتها . ولكن زوال السلطات الرئيسة لهذه الطبقة سيمهر بإمضائه عندئذ ، بصورة حتمية ، زوال التحليل النفسي » .

وينجم عن هذه المعارضة تساؤل أساسي : إذا تجلّى علم من العلوم ، التحليل النفسي بالمناسبة ، غير قادر إلا على أن يخدم مصالح طبقة من الطبقات ومؤسساتها ، فذلك لأن علميته موضع الظن على الأقل . وحقيقته ليست سوى حقيقة طبقة ، ولا يمكنها أن تكون حقيقة الشعب كله ، وادّعاؤها الكلية أمر يمضي أيضاً متناقصاً . ولهذا السبب ، وجب على التحليل النفسي أن يتصدّى للتاريخ والسياسة ، ذلك أن بمقدوره ، انطلاقاً من السياسي ، أن يفهم اتجاه تطوره الخاص .

وقد يكون التحليل النفسي المضاد هو هذه السياسة الجديدة للتحليل النفسي .

---

(٨) ماري ـ كليربونز ، «التحليل النفسي والسياسة» ، ص ١٣١ .

الفصل الثاني

علم النفس

موضع التساؤل

النظام والهامشية

علم النفس ، بوصفه علم الذاتية ، مولود مع فرويد ، ويبدو في بعض الأحيان أنه مات في الوقت الذي مات فيه فرويد . فدلالته الواقعية ، بوصفه ممارسة اجتماعية ، وتلاعبه الاقتصادي والسياسي ، واتجاهه القمعي على مستوى مؤسسات الطب النفسي والتربية المعادة ، وكونه هضمه علم الطب ، ودوره الثانوي على مستوى التعليم ، تلك أمور تُظهر ميلاً مؤسفاً نحو الإخفاق وتواطؤاً مع النظام القائم والمجتمع الذي نجد أنفسنا فيه . فلدى المرء انطباع بأن علم النفس مصاب بعيب ولادي وبنياء مرضي بالحري ، على الرغم من الوفرة في المنشورات والبحوث ، ومن النصيب الذي أحرزه في أحضان البنيات الاجتماعية ، وعلى الرغم أيضاً من الحظوة ، الغامضة بعض الغموض ، التي يتمتع بها في البلدان الغربية ، وفي ما وراء الأطلسي على وجه الخصوص . وإذا شاء المرء أن يقدّم بانوراما صافية و « موضوعية » عن إنجازاته ، فإن بوسعه أن يقول إن هذا العلم ، الذي لم يعمّر مئة سنة بعدُ ، سجّل بعض النجاحات ، وأدخل المجتمع في ضرب من استهلاكه ، استهلاك زهيد جداً على الدوام . وعلى الرغم من أن علم النفس نشأ من الهامشية ، أي من البحث السريري الذي باشره فرويد ، فانه ينطلق كل يوم انطلاقاً متزايداً وهو يغزو أوساطاً جديدة : هذه البانوراما الواسعة كنا قد عرضناها على القارىء ، وبوسعنا أن نلاحظ أن علم النفس لم يترك في

الظّل أي مشكل خاص بالإنسان ، ولو أن بعض الميادين كانت لا تزال موضع سبر ضعيف جداً . فعلم النفس ، الذي انطلق علماً خفياً ومنبوذاً في زمن فرويد ، اكتسب حق المواطنة .

ومع ذلك ، يبينّ فحص أكثر تقصّياً أن علم النفس يصطدم ببعض المشكلات وأنه في تناقض مع مشروعه البدئي إذا فرضنا أن بمقدورنا إدراك هذا المشروع في عمل فرويد الرائع . وهو يتعرّض ، بوصفه اكتسب حق المواطنة ، إلى خطر أن يغمره ويبدّل اتجاهه أولئك الذين يستخدمونه ويستثمرونه . إنه ، بهذا المعنى ، يطلق علامات لهاث تثير القلق ، بالنظر إلى أنه لا يستخدم تبعاً لمقتضياته الخاصة ، بل انطلاقاً من حاجات المجتمع الراهن إلى أن يحلّ بعض تناقضاته : وإذ يتوخّى علم النفس أن يعيد الكلام إلى المغترب العقلي ، فإنه يتعرّض إلى خطر مفاده أن لا يكون له كلام ، وأن يكون أخرس ، وأن يتلقّى صوره وتحديداته الأساسية من مقتضيات غير مقتضياته الخاصة . والواقع أن إخفاق علم النفس سيكمن في أنه ينسى أن كلامه كلام محرّر ومعارض ، وأن نتائجه السهلة تحجب الخطر الذي يتعرّض له ، حجباً على نحو أفضل أيضاً ، خطر الاختناق في ممارسته الراهنة .

١ - تحرير فاشل

عندما نفحص الإنجازات التي حقّقها علم النفس ، نلاحظ أن هاجسه الأول ، كما يحدّده المجتمع والمؤسسات ، يكمن في أن يكيّف الإنسان مع المجتمع ويدمجه به دمجاً أكبر : تكيّف مع العمل ، وتدريب إضافي في الحلقات الدراسية ، وتعزيز الإنتاج ، والبيع ، والاعلان ، والدعاية ؛ وتكييف الانسان مع وسطه ودمجها مادياً وسيكولوجياً وروحياً ؛ وتكييف المجنون مع مشفاه[1] ، والمعوق في سبيل تربيته المعادة ، والطفل مع المنهاج والمؤسسة المدرسية . فعلم النفس ينظّم الوسط تنظيماً إنسانياً ، ويوشك أن يصبح ملحقاً لتنظيم الإقليم الانساني ، وذيلاً لعلوم البيئة ، وفصلاً صغيراً جداً في الإيكولوجيا . وعلينا أن نقول مع ذلك إن

(١) ثمة تحول جديد نشأ منذ عام ١٩٧١ : الطب النفسي والقطاعي . انظر المقدمة .

نجاحه في هذا المنظور الإيكولوجي ، مذهلٍ من جوانب كثيرة ، وأنه يجد دائماً ، على نحو متزايد ، وسائل تقنية يضعها في خدمة عمله ، عمل الدمج والتكييف .
وإذا كان علم النفس يشعر بالحاجة إلى تكييف الإنسان مع وسطه والوسط مع الانسان ، فذلك لأن الانسان غير متكيّف في مواجهة التغيّر الفجائي في البنيات التكنولوجية ، والعلمية ، والاقتصادية ، والثقافية . إنه يردم هذه القطيعة التي تتعاظم بين الانسان ووسطه ، إذ يؤدي الدور الذي كانت تؤديه الأخلاق التقليدية ، والأخلاق الرواقية على وجه الخصوص ، عندما كان على الإنسان أن يستدخل الأغلال والتقيّد ، الناجمين عن وضعه الاجتماعي ، بالتأمل وبممارسة الفضائل .

والإنسان ، بوصفه مغترباً في وضعه ، كان يظن أن إمكان اعتقاده بأنه حر روحياً حين يستدخل وضعه ، محتفظاً في الوقت نفسه بالأمل في تحسّن هذا الوضع ، كان يبقى له دائماً . وانحسار المنحى الانساني والأخلاق لم يعد يتيح له في أيامنا هذه أن يعتبر نفسه محض حرية : فالإيمان لم يعد موجوداً لديه . وحتى لو أنه لا يزال باقياً ، فإن البنيات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والتقنية ، قائمة لكي تذكّره بأن الحرية كلمة فارغة من المعنى في عالم مرتعٍ لصياغة الإنسان والتلاعب به . والانسان المعاصر واقع في شراك البنيات التي تمسّه في ذاتيته ، المعقل الأسمى لحريته ، إلى درجة لم يعد لديه إمكان الالتجاء إلى هذا المعقل ، إلى هذه « النفس المطمئنة » ، وهذه « الداخلية الرائعة » التي كان يتكلم عليها هيغل .
وهذه الوظيفة التي كانت تؤديها الأخلاق والاعتقاد بالحرية توشك العلوم الانسانية أن تؤديها ، وعلم النفس على وجه الخصوص . وذلك لسبب مفاده أن علم النفس هو الشاهد الأقرب على هذا الاعتقاد بالانسان وبالحرية . فانحسار الديانات والفلسفات يحرّر حيّزاً إبستمولوجياً وثقافياً أقدم علم النفس على الالتجاء إليه ومثّل دور الحارس بالتالي ، حارس الانسان والانساني في البنيات الاجتماعية . إنه ليس الحارس فحسب ، ولكنه يصون الانساني حيثما يبدو أنه مهدّد : في المعمل بالنسبة للعمل ، وفي المشفى بالنسبة للمريض النفسي ، وفي الأسرة بالنسبة للتربية ، وفي المدرسة بالنسبة لعلم التربية والنجاح في

الامتحانات ، بل وفي السجون السوفيتية للمحافظة على الطهارة الإيديولوجية . ولهذا السبب ، يبدو علم النفس أنه أحد المعاقل الأخيرة للإنسان والإنساني .

وإذ يشارك علم النفس في هذا المنحى الانساني ، الذي نقله العالم الروماني اللاتيني ، فقد أُريد له أن يكون ذا « خط داع لخير البشرية » حيث يكمن الموضوع المطروح على بساط البحث في أن يمنح الانسان مجدّداً وسيلة اكتشاف جدارته وتفتّحه وحريته . ومن المؤكد أن القصد خليق بالثناء لو أن النتائج لم تكن تعاكس تلك التي نحصل عليها في الممارسة . ذلك أن تكييف الانسان مع المجتمع ليس مقتضى أساسياً من مقتضيات علم النفس . إنه علم الذاتي لا علم الانسان بصورة عامة ، الانسان الناجم عن ثقافتنا ، وعلم التحرّر لا علم الاندماج الاجتماعي ، وعلم الكلام المستدرك لا علم الكلام الذي تكيّفه وتصوغه البنيات ، وعلم الاحتجاج لا علم إعداد الانسان لوسطه ، وعلم اللاشعور لا علم العقلانية التقنية والتكنوقراطية ، وعلم الإبداع لا علم الذهنيات الموسومة بالبطاقات ، والمصممّة والمخدرة وذات القوالب الثابتة . فقد أحلّ علم النفس محلّ هذه الأدوار جميعها مجموعة من الأساليب والممارسات التي ضيعته ومنعته من أن يجعل الانسان يتكلم في البنيات بصورة أصلية .

ومنذئذ يجد علم النفس نفسه ، بوصفه علماً وممارسة يتوخيان أن يجعلا الانسان المعاصر يستدرك كلامه وذاتيته ، في وضع الإخفاق والتعذّر ، ذلك أنه لا ممكن ، ليكيّف الانسان مع المجتمع ، إلا أن يخترع لنفسه وسائل تقنية وعقلية ، وأن يكيّف نفسه هو ذاته لكي يؤدي هذه المهمة . وعندئذ يفقد نوعيته الّتي تكمن في أن يكون ممكناً لجميع أولئك الذين لم يعد لهم كلام أن يستعيدوا كلامهم وأن يؤكدوه على جميع المستويات ، مستويات حياتهم الأسرية ، والاجتماعية ، والسياسية ، ومستويات العمل . وعندما كان فرويد يتساءل عن المرض النفسي ، فإن تساؤله لم يكن في سبيل تكييف المريض مع مرضه ووسط الطب النفسي ، بل ليفهم أن بوسع علم النفس أن يكون آلة تتيح للمريض أن يستعيد معنى قوله المفقود . وعلم النفس الراهن يساهم في ضياع الإنسان بقول لا يصدر

عنه ، بل يصدر عن البيئة التي يقيم فيها ، بدلاً من أن يجعله يكتشف معنى كلامه .

٢ - إخفاق علم النفس

إذا حدثت في ممارسة علم النفس إخفاقات في تحرير كلام الانسان ، واذا كان علم النفس قد انحرف في هذه النقطة بفعل الضرورات الاقتصادية والاجتماعية ، فهذا يعني أنه يكشف في ذاته عن حدود حقل التقصيّ لديه . وذلك ايضاً لأن نمط إنجازه الحالي لا يحدّده هو ذاته ، ولكنه يتلقّى منزلته ، وهدفه ، وداعي وجوده ، من حاجة المجتمع إلى أن يلجأ إليه لكي يحلّ تناقضاته : فمن خارج ذاته بالتالي ، يتلقّى علم النفس معاييره ، ووسائله ، ونجوعه ، وكل ما يصنع واقعه بوصفه علماً متورّطاً في ضرب من الوجود مع ما يرافقه من صراعات . وكان فرويد من قبل يحاول أن يستخدم التحليل النفسي لفهم الظاهرات الاجتماعية ، وحاول جميع علماء النفس الاجتماعيين ، فيما بعد ، كلوفن ومورينو ، أن يمنحوا علم النفس طرائق لتحليل هذه الظاهرات وفهمها : فثمة تقدّم في تحليل العلاقات بين الفردية ، وفي تبنين الجماعات ، وفي تحليل صلة الانسان بالبنيات أيضاً ، كان قد أُنجز . ومع ذلك ظلّ علم النفس ، على خلاف علمي الاقتصاد والاجتماع ، غير كفي في فهم هذه الظاهرات : ألأنه ، بوصفه علم الذاتي ، عاجز عن أن يمنح نفسه وسائل التقصيّ لكل ما هو بعيد عن الذاتية واللغة ؟ ألأنه ، بوصفه غائصاً في الممارسة الاجتماعية وفي شاغل تكييف الإنسان مع بيئته ، لم يتّخذ البعد النظري الضروري ليبني مسيرته بوصفه علماً اجتماعياً ؟ ألأن الذاتي أيضاً يتدخّل تدخلاً ضعيفاً جداً على مستوى تعديل العلاقات الاجتماعية ، هنا حيث يتحدّد واقعي مجتمعاتنا وطبيعة العلاقات بين الناس ؟ وأخيراً ، ألأن مفهومات علم النفس الأساسية وأدوات التحليل لديه عاجزة عن أن تتيح له إدراك الواقعي الاجتماعي لأنه ذو وضع إبستمولوجي يربطه بالمنحى الإنساني ، والفلسفي ، والديني ؟

ومن المحتمل أن هذه البواعث ، بواعث الإخفاق في تحليل الانسان في المجتمع ، تؤثّر جميعها في الوقت نفسه ، وتتآزر على استبعاد علم النفس من الحقل

الذي يوضع فيه مستقبل الانسان والمجتمع موضع التساؤل بصورة واقعية . وكونه أكثر توجّهاً نحو صور من العمل الاجتماعي من نموذج القرن التاسع عشر ، فإنه يبدو عاجزاً عن أن يدمج ويشجّع لحسابه ذلك التطور الغريب الذي عرفته علوم أخرى ، كالاقتصاد ، والمعالجة الآلية للإعلام ، وجميع صور التكنولوجيا التي تؤثّر بصورة حاسمة على الانسان في المجتمع . ذلك أن ما يطلبه الناس من علم النفس ، في المرحلة الحالية ، إما من ميدان الطوباوية ، وإما ، على العكس ، من ميدان ممارسة اجتماعية تذكّر بممارسة الخدمات الاجتماعية والخيرية التي تهدف الى أن تخفي عيوب النظام . إن « تبنّي موقف مؤيّد للمطالب الاجتماعية » كما كان يُمارس قبل الحرب ، ذلكم هو قدر علم النفس ونقطة ارتباطه بالمجتمع . والقول إن علم النفس يتبنّى الموقف المؤيد للمطالب الاجتماعية يعني التسليم أيضاً بأنه يلفي نفسه ذا موقع من الناحية السياسية : إنه يظهر بمثابة الاستطالة المباشرة لسياسة اجتماعية محافظة وقمعية في أغلب الأوقات ، ولو أن صور عملها تقتبس لغة التقنية السيكولوجية الأكثر حداثة . وليس بوسع علم النفس ، بوصفه في خدمة البورجوازية ورأس المال ، إلا أن ينفتح على هذه الصورة من المجتمع ، دون أن يكون لديه ، مع ذلك ، إمكان اكتساب الوسائل التقنية والعقلية لـ حريته الخاصة . فعندما يحدّد عالم النفس حاصل الذكاء ، ويروز مستخدمي مشروع من المشروعات ، ويقدّم استشارات لطفل من الأطفال لتحديد حالته السيكولوجية ، ويضع نفسه في خدمة وكالة من وكالات الإعلان أو سبر الآراء ، فإنه يطرح أفعاله القليلة الأهمية في تحديد مكان الإنسان ، بالقياس الى تأثير المال ، والاحتكارات ، والأجهزة الاقتصادية .

ولهذا السبب ، فان علم النفس في ممارسته يتلقاه الناس على أنه العذر ، والشعور الطيب بالتناقضات . فيلفي نفسه على هذا النحو أنه الحارس اليقظ ، حارس النظام القائم الذي يحافظ دون علم منه على بنياته ، بنيات الظلم والقمع . ويفوته البعد الاجتماعي والسياسي فيما يخصّ التحديد الواقعي للسلطة والنفوذ ، ولكن نتيجة الممارسة تجعل علم النفس وسيلة سانحة للطبقات التكنوقراطية والبورجوازية لأن تضيّع الانسان أكثر أيضاً مما هو ضائع . ذلك أن

المقصود ، في الواقع هنا ، ضياع بفعل عجزه عن أن يحلّ مشكلات عصرنا الرئيسة . وهو لا يقتصر على أنه لا يحلّها ، بل يشارك ، بتأثير ممارسته ومنشئه ، في النظام الذي يندمج فيه ويتواطأ معه . فهل لديه الامكان لاكتساب أبعاد النضال ، والتحرّر ، ومعارضة هذا النظام ؟ وهل بوسعه في وقت واحد ، ودونما ازدواجية ، أن يكون خادم الأجهزة وهو يحدّدها ؟ إنه ، بتأثير ممارسته ، يمدّ جذوره في الايديولوجيا المحيطة ، ويتجلّى دون وسيلة ولا هدف فيما يتعلّق بإمكان تغيير جذري .

٣ ـ عالم النفس موضع الاستجواب

يتعذّر على المرء ، وهو يتكلّم على علم النفس ، أن لا يضع الذين يستخدمون هذا العلم ويمارسونه موضع التساؤل . ذلك أنهم هم الذين يوجّهون علم النفس ، ولو أن البنيات الاقتصادية والسياسية أكثر فعّالية في تحديد المصير لهذا العلم . ويلفي عالم النفس نفسه أنه المتلاعب بعلم النفس وموضع التلاعب في وقت واحد ، وأنه ضحية مكانه في المجتمع الراهن بقدر ما هو العامل الفاعل في الوقت نفسه .

وإذ يحسّ غالبية علماء النفس بالتناقض القائم بين كونهم يحوزون علماً وتقنية لتحرير كلام الانسان ، وبين كونهم منسّقي النظام الراهن في الوقت نفسه ، فإنهم يعيشون في ازدواجية مثقلة بالنتائج . ويحتمي عالم النفس ،في أغلب الأوقات، خلف علمه واختصاصه ليرفض إدراك الدور الواقعي المعزوّ اليه حالياً : ممارسة التوجيه المهني ، والمحادثة السريرية ، وإجراء الروائز ، وسبر الرأي ، وتدريب الأطر ، وتحليل بنيات التواصل في مشروع من المشروعات ، والعلاج النفسي في معهد من المعاهد الطبية البيداغوجية أو مشفى من مشافي الطب النفسي ، وجميع هذه المهمات يمكنها أن تبدو بالفعل ممارسة في خدمة تحرّر الانسان .

إنسان طاهر

ولهذا السبب ، يتمتع عالم النفس بـ **الطهارة** . إنه ، بوصفه ممثّل الانساني في قلب البنيات ، ذو **الوجدان الطيّب** ، وجدان الانسان الذي يصلح حال الذين يشبهونه ، فالانساني يقوم مقام الملاذ والمرجع بالنسبة له . وغالبية علماء النفس

يرفضون أن يكونوا على وعي بالمكان الذي يحتلّونه في المجتمع والدور الذي يؤدونه فيه ، ويتظاهرون بأنهم يجهلونها . يضاف الى هذا أن الموضوع المطروح على بساط البحث تماماً هو موضوع الدور والمكان ، لأن غالبية مطالب علماء النفس تمسّ أجورهم ، ونظامهم المهني الأساسي ، وأفضل الاندماج بالمؤسسة التي يعملون فيها ، كما لو أنهم كانوا يائسين من أن يكون بمقدورهم ، يوماً من الأيام ، مساواة الطبيب أو المهندس أو الخوري في المنزلة الاجتماعية ، والتطلّع إليها . وينجم هذا الشاغل المهني المشروع عن أن كليات علم النفس « تخرّج » كل عام عدداً من الطلاب يعادل عشرة أضعاف العدد الضروري تبعاً للمراكز والوظائف المتوافرة . فعلماء النفس ، بوصفهم عاطلين عن العمل أو ينالون أجوراً منخفضة عندما يكون لهم وظيفة ، لا يبقى لهم سوى الشطارة والعمل الصغير ، وكذلك المطالبة ليحصلوا من المجتمع على الوظيفة والأجر اللذين لم يُعترف لهم بهما .

عالم النفس مطالب

ولكن المطالب ذات الأجل القصير لا تحجب القلق الذي يحسّ به حالياً معظم علماء النفس ، بما فيهم الأصغر سناً ، قلقاً تزداد صعوبة احتوائه . إنه ، بالإضافة الى ذلك ، قلق كبير ، ولكنه قليل الانتشار ، ذلك أن معظم علماء النفس الذين فازوا بوظيفة ذات جُعل جيد نسبياً لا يشغلهم أبداً أن يعرفوا إن كانت ممارستهم ذات طابع سيكولوجي حقاً ، وإن كان من المناسب أن يضعوا بصورة أساسية أهداف المهنة وممارستها موضع التساؤل . وعالم النفس ، كلب حراسة المجتمع كما كان يقول الرافضون في أيار ١٩٦٨ ، ذو وعي سياسي ضعيف جداً ويجهل مقتضيات علمه الأساسية : إنه يعتقد بنفسه أنه طاهر ، ولا يُستبعد أن يصف بـ « المثالية » أو « الميل إلى الأعمال الفكرية » أو « الشذوذ » من يظن أن مزاولة المهنة ، مهنة علم النفس ، تتناقض مع الممارسة الراهنة . ويعتقد العديد من علماء النفس ، وقد أصبحوا اختباريين وأرهقتهم المشكلات المالية ونظامهم الأساسي المهني أيضاً ، أن مثال المهنة متحقّق حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا . وكلما صار لهم نظام أساسي مهني أفضل ، أصبح متعذّراً عليهم أن يضعوا ممارستهم موضع التساؤل ، ذلك أنهم يتلقّون نظامهم الأساسي من مجتمع

ينتظر منهم أن يكيّفوا الانسان مع وسطه ، ويدمجوه به على نحو أشد ، لأنهم هم الذين ينبغي لهم أن يحقّقوا التنافذ . ونظراً لكونهم لم يتفحّصوا طبيعة علاقتهم بالمجتمع ، فإنهم يندرجون فيه بصورة متزايدة كل يوم . إن علماء النفس هم الشهود على ضرب من اللبس ، كامن في المنشأ ذاته من وضعهم ، وضع عالم النفس .

٤ ـ صورة عالم النفس

يظلّ علم النفس مجهولاً كبيراً على الرغم من « نجاحه » الراهن . ومن المؤكد أن جميع الناس ، من الآن فصاعداً ، يعلمون أن عالم النفس هو « السيد » أو « السيدة » ، الذي « يجري الروائز » . ويتعلّم الطفل أن يتعرّف به منذ أيام المدرسة ، وسيجده مجدّداً بالتأكيد على دربه إذا دلف في مهنة من المهن ذات الاختيار العسير . فعالم النفس إذن ، على هذا النحو ، متّار ، وقوة خفيّة تعقّد المهن وتحلّ عقدتها . إنه يحوز بالتالي سلطة أكيدة تذكّر بسلطة الأستاذ ، بالنسبة لمن عليه أن يمرّ به . ولا يمكن للتحالف بين علم النفس والأستذة إلا أن يزيد من ضروب الأذى . وأستاذ نتتير[٢] المزعوم ، الذي أثار الذعر في المنطقة الوسطى من فرنسا ، في تموز عام ١٩٧٠ ، تصبح قوته قوة مزدوجة لو أنه أستاذ علم النفس الاجتماعي أو علم النفس فقط . فكل شيء ، من الخارج ، يُبرز انطباعاً بالقوة (شبه السحرية) ، وبالنجوع في الموضوعية التي تجعل عالم النفس مخيفاً . ولكن السخرية تُفقد الصورة بريقها . والناس لا يمكنهم أن يقبلوا صورة قوية مغالية في القوة ، إذا لم يجرؤوا على ان يهاجموا نتائج الروائز : فعالم النفس يرث شيئاً من صورة الطبيب النفسي . ومن « الطبيعي » ، كونه ذا علاقة بالمجانين ، أن تحتفظ هذه العلاقة ببعض الصفات المأخوذة بتأثير هذه المعاشرة . فعالم النفس إذن مجنون أيضاً ، إنه الشخصية الغريبة التي تضع موضع التساؤل كل شيء مجدّداً وتقبل ، بالإضافة إلى ذلك ، أن تمثّل هذه الصورة . وعالم النفس ، ذو القوة الكلية والبصيرة ، لا يدين بوضوحه ونجوعه إلا الى الجنون الذي استحوذ عليه .

(٢) انظر «قضية بولو» .

وقد قلنا إن عالم النفس يرعى هذه الأسطورة على الرغم من ضروب إنكاره محص المجردة .

٥ ـ عالم النفس في بحث عن نظام أساسي

حدث منذ بضع سنين هياج عنيف هزّ الخدر الذي يسيطر على عالم علماء النفس والطلاب . وعلماء النفس في بحث عن نظام أساسي لهم يمكنه أخيراً أن يضع خطاً فاصلاً بينهم وبين المشعوذين في علم النفس . وهكذا يكون عالم النفس « موضع الاعتراف » و « محدّداً » ، و « مجازاً » دون مشكلات . وسيكون له أخيراً مكانة في المؤسسات ، وله الحق في التأمين الاجتماعي . ولن يكون ثمة ظلام ولا محلات خفيّة . وسيكون عالم النفس عاملاً كغيره من العمال الآخرين ، عاملاً يؤدي عمله كالآخرين . وليس ثمة شيء عن ذلك إلا وجوب التساؤل : لماذا يقوم هؤلاء بهذا المسعى ، المفعم بالمعنى الى هذا الحد و « الطبيعي » بهذا القدر ؟ ما الذي يدفعهم الى الرغبة أخيراً في أن يطمئنوا على مصلحتهم ؟ والكلمة هي بالفعل كلمة « اطمئنان » . وما الذي يجعلهم منذئذ يفقدون الأمن بهذا القدر ؟ وما هي إذن سيكولوجيا عالم النفس ؟

٦ ـ عالم النفس إنسان حسن المظهر

إذا كان ثمة عاطفة يعرفها طالب علم النفس وعالم النفس الشاب ، فهي الحصر بالضبط ، الناجم عن العوز الذي يلفي عالم النفس نفسه أمامه عندما يبدأ العمل بإخلاص : الأمر الذي يعني نفي التعليم الذي تلقّاه في الكلية . فـ « أين الكارثة ؟ تتساءل مود مانّوني . أليست كامنة في هذا التكوين الجامعي الذي يفرض على عالم النفس أن لا يذهب إلى مكان عمله إلا مع أدواته ، أدوات القياس ، وبثيابه ثياب « عالم النفس ـ الممارس ـ المجاز » ؟ إنه عالم نفس في محنة إذا حُرم من نصيبه من الروائز ، وعالم نفس أخرس إذا لم « يخضع للتحليل النفسي » .وكلما كان التكوين الجامعي أكثر تعمّقاً ، أقام تراتباً من المعرفة يخدم احتكار طبقة مغلقة ويخدم إيديولوجيتها . ولكي يفوز الطالب بلقبه العلمي ، عليه أن يتدرّب على تمويه حقيقة لا يحتملها المعلم . فالطالب المطمئن ، الذي خصّته الجامعة ، ليس لديه إمكان الانفتاح على أي حقيقة من الحقائق ، وكل

كلام لا يمكنه أن يكون بالنسبة له غير جرح وهجوم . وعليه عندئذ إما أن يتجاوز حصره ويكوّن نفسه تكويناً جديداً بالإصغاء الى الأوضاع ، وإما أن يرضى ، كما تقول مود مانّوني ، بما رضي به من قبلُ حتى يحصل على شهاداته بتفوّق ، أي أن يجري روائز على الرغم من أنه لايبيح لنفسه ذلك (٣) . إنه عندئذ ، بعض الأحيان ، في خدمة طبيب نفسي ينقل اليه حاصل الذكاء ، وهدفه الوحيد عندئذ أن يدخل في مؤسسة تمنحه في النهاية منزلة ، أو أن يكون عالم النفس في مصنع ، يتكيّف تكيفاً جيداً مع المؤسسة التي تفضّلت بحمايته .

فالأوضاع شتى ولكن النتيجة واحدة ، أعني اندماج عالم النفس داخل منشأة ينصحونه بجعلها تسير سيراً وظائفياً أفضل ما يمكن .

٧ ـ نضال ضد الحصر

العديد من المحلّلين النفسيين بيّنوا العلاقات التي يقيمها الراعي والمرعيّ مع مؤسسة أي كانت ، وأعني نضالاً ضد الحصر . وهكذا أبرزت أعمال جاك إيليوت (٤) أن الفرد يتّقي ضغط الاضطهاد والاكتئاب بالتوحّد بمؤسسة من المؤسسات . إن « مظاهر اللاواقعية ، والتجزؤ ، والعداء والريبة ، تجد نفسها

---

(٣) «كم مرة يسلك عالم النفس سلوك السادي اللامبالي ؟ إنه يسلك سلوك السادي اللامبالي كلما عامل الآخر بوصفه موضوعاً ، أو كلما طلب إليه أن يتحول إلى موضوع وأكرهه على ذلك بإجراء رائز على سبيل المثال أو تجربة (لاأريد أن أقول إن جميع الروائز تستعبد الآخر ، بل أقصد أنها تفعل ذلك في تسع حالات من عشر ، نظراً للأسلوب الذي يتصرف به عالم النفس عندما يجري الروائز) والمقصود سادية لامبالية ، فعالم النفس لايعرف أبداً ذلك الفارق القائم بين موجود متحقق وموضوع ، في حين أن السادي يعرف ذلك . وهذا هو تفوق السادي على عالم النفس المتوسط . والسبب أنه ، على الأقل ، يعرف نفسه مذنباً ، في حين أن الآخر لايعلم شيئاً عن ذلك ، وليس عالم النفس سيداًعلى الإطلاق ، فلاوجود لأي تواصل بين السيد والعبد ، بين الشعور والشيء . تلك هي النقطة الرئيسة في كل علم نفس مشخص . وفي معزل عن ذلك ، يصبح عالم النفس جهازاً صغيراً تكنوقراطياً (هنري مالدينه) .

(٤) إيليوت ، «النظام الاجتماعي بوصفه دفاعاً ضد الاضطهاد والقلق الإكتئابي» ، تافستوك ، ١٩٥٥ .

بالنسبة لكل فرد وقد انتقلت الى مختلف الأجهزة في تنظيم مؤسسي أو أُسقطت عليها » (٥) . ولهذا السبب ، يحتاج عالم النفس الى المؤسسة كما يحتاج الى روائزه ليناضل ضد هذه الظاهرات التي تثير حصره . وتؤدي المؤسسة ، بالنسبة له ، دور آلية الدفاع ضد وضع يهدّده في شخصيته الخاصة . فالبحث عن نظام أساسي هو البحث إذن عن ضربٍ من التوازن ، وهو أسلوب يحافظ به على هويته الخاصة المهدّدة . وعلم النفس وعالم النفس يمكنهما ان يستأنفا لحسابهما الخاص قول أحد « المرضى » ، لوران ، الذي كان قد خطّ على راية صغيرة وقد شرع في تنضيد أساس المنزل ليضعها فوقه : « أبحث عن هويتي » (*) . والواقع أن علم النفس يظهر عاجزاً ، بتنوّع فروعه وكثرة تقنياته ، عن أن يدرك نفسه في ضرب من الكلية . إنه ضرب من الجسم المفكّك أو التالف حيث يجعل غياب التأمل النظري متعذّراً كل إمكان لتوحيد جديد واقعي . والمرآة الوحيدة التي يمكنها أن تساعده في هذا المشروع تظلّ الكفاية في ممارسة عاجزة عن أن تعقل نفسها على أنها ممارسة . وليس بوسع جهوده أن تبدو على هذا النحو إلا أنها جهود سحرية . والتوحيد ، بفعل ذلك ذاته ، لا يمكنه أن ينبعث إلا على صورة خديعة . فالسيادة على مختلف أجزائه لا تُنجز إلا بصورة متخيّلة ، دون الإحالة الى علم نفس أساسي يمكنه وحده أن يجعل ميادين علم النفس العديدة متمفصلة (٦) . وجسم علم النفس ، المتصدّع والمتفجّر ، يخضع لآليات ذُهانية تحجب ، تحت ظاهر القول العقلاني ، هبّات عديدة هاذية . (ونحن نقصد أن نقول إن الفارق بين الكفاية العملية لهذه الطرائق وبين التسويغ النظري لهذه المهارسة هو ما هو عليه بحيث أن المرء يمكنه أن يتكلّم حقاً على فقدان التكيّف مع الواقعي ، بل على ضرب من اللاواقعية) (٧) . ولا يتبينّ عالم النفس أن ممارسته تندرج في مكان

---

(٥) مودمانوني ، في مؤلفها المذكور سابقاً ص ١٣٠ .

(*) مثال مذكور في فصل علاقة المريض والطبيب «م» .

(٦) انظر فصل «علم النفس الأساسي» في هذا الكتاب .

(٧) إننا نقصد هنا ب «واقعي » ما يمنح فعلاً من الأفعال معنى ، أي مايبرره .

يتجاوزه ويكوّنه على نحو من الانحاء . فإذا شاء أن ينكر ذلك ، فإن تأكيداته تكون إيديولوجية بصورة خالصة ، بالمعنى الأسوأ للكلمة ، أو تكون ، إذا شئنا ، هاذية بوصفها تزعم تنظيم واقعي لا تبلغه . وليس على عالم النفس في المشروع أن يخفي عن نفسه أن ممارسته لا معنى لها إلا تبعاً لتصور معيّن لتنظيم المجتمع والمشروع ، وأنه يقتصر على أن ينقل بيادق في وضع يحاول أن يزيل موانع حركته ، أو أن يجعله يسير سيراً وظائفياً أفضل ما يمكن . « وبوسع المرء ، بكثير من اليقين ، أن يصوغ الفرضية التي مفادها أن الغالبية العظمى من علماء النفس المهنيين المعاصرين يمارسون تقنية قاهرة ، من حيث أن ضغط سوق العمل أو اقتصاديات الحرب ، على سبيل المثال ، تكوّن المعايير الكامنة أو الصريحة للاصطفاء ، أو التوجيه ، أو التكوين » ، يصرح روبير باجه في تعليقه على مقال غانغيلام (٨) « ما علم النفس ؟ » .

وهكذا ، فإن عالم النفس في المشروع يستأنف قول المؤسسة ويعمل بحيث يكون مسموعاً . فيكيّف كل فرد مع المركز الذي يشغله . ويجب أن لا يُسأل عن ما يفهمه من كلمة تكيّف ، ولا عن غائية فعل من هذا النوع ، ولا أن يُسأل على وجه الخصوص عن المرجع الذي يعمل من أجله . فالأسئلة الشبيهة بالسؤالين التاليين : « من أنا ؟ » أو « ماذا أفعل ؟ » ، تظلّ دونما جواب صحيح . ومن المؤكد أن بمقدور المرء أن يطرح ، كما فعل باجه ، أن ثمة ، من ناحية المبدأ ، رابطة بين طرائق علم النفس وبين ضرب من فلسفة الإنسان منظور إليه على انه أداة ، « رابطة ربما تكون سائدة من الناحية الاحصائية ، وحاضرة من الناحية التاريخية ، دون أن تكون ضرورية في ذاتها ولا حاسمة على وجه الاحتمال » (٩) ، ولكن من الواضح أن الإحصاء والتاريخ يميلان حالياً الى استخدام اهتمامات ليست اهتمامات بكلام الفرد ،بل باحتجازهذا الكلام على وجه الضبط. فعالم النفس الضائع في المؤسسة يغري الغير بالضياع الذي يساهم فيه .

---

(٨) «دفاتر للتحليل » ، العدد ٣ ، ص ٩٨ . انظر أيضاً فصل «نقد سيكولوجيا العمل» في هذا الكتاب .

(٩) باجه ، «دفاتر للتحليل» ، العدد ٣ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

من يدفع

انطلقنا من الحصر البدئي الذي يستحوذ على عالم النفس ومن كونه مسلوب التوحّد بالمؤسسات التي تدفع له أجره . « ذلك أن علماء النفس يعملون لمن يدفع لهم ، ويدفع لهم من يقدّمون له خدمة . ونقول ذلك على وجه التقريب بالطبع ، وفي الحدود التي يتيح هذا النموذج من الخدمة أن يُراقَب بشيء من الدقة » (١٠) . وقد يحدث أن تعيش سيكولوجيا عالم النفس في وفاق مع المؤسسة التي تستقبله ، مثله مثل الطبيب النفسي الذي يلفي نفسه مرتاحاً في بنيات مشفى الطب النفسي ، حيث يعملون على أن يصبح هذا المكان ، مكان الحصر ، محل إقامة دونما انفعال ولا غضب . . . وتفسير ذلك ، كما كتب جوزه بليجر (١١) ، أن « الفرد يدمج المؤسسة في لاشعوره وكأنها صورة جسدية ، فهو يبحث في المؤسسة عن دعامة ، عن سند ، عن اندماج اجتماعي ، بل عن مَعْلم لهويته ، وعن إجابة عن السؤال حول ما يتصف به . وكلما كانت الشخصية غير ناضجة ، التصقت بالمؤسسة التي تعيشها الشخصية وكأنها جزء منها . وكون المؤسسة لها حياتها الخاصة ، أمر لا يحول دون أن يُسقط عليها الأفراد واقعهم الخاص (من خلال إطار استيهامهم) ، وأن يبلوروا فيها ، بالتالي ، آليات دفاع ضد ضروب القلق الذهاني ، واضعين موضع العمل سيرورات من التعويض » . فعالم النفس الذي يبحث عن هويته ، ويسحقه الحصر ، ولا يجد تربة يستند إليها ، يجد طبيعة ثانية في المؤسسة (بفعل سيرورة من الانصهار) . إن المؤسسة جسمه الخاص ، إنها ما يتحرّك فيه بيسر ، وهو ، في الظاهر ، يقود من المؤسسة تلك الأجزاء التي تعيد إليه صورة موحّدة لواقعه الخاص . **فهو يعلم أنه موجود من الآن فصاعداً !**

٨ ـ عالم النفس بوصفه صورة اجتماعية

رأى عالم النفس في منامه حلماً أو رأى حلماً مستتاراً . فليس بوسعه أن يجيب عن السؤال الذي يطرح مشكل هويته بـ « أنا » الفاعل الشخصي ، بل

---

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

(١١) مودمانوني ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣١ .

يجيب على الأكثر بـ « أنا » دالّة على التوافق مع العالم الخارجي ، وذلك امر يعني أنه لم يفلح في اكتشاف ما كان عليه الواقع فيما يتعلق بموضوع رغبته الخاصة في أن يكون عالم نفس ، وما واقع كلامه وحصره المؤسِّس . ولا ينفكّ يخفي حصره ، شأنه في ذلك شأن الطفل الذي وجد نفسه راضياً بعودة أمه بعد أن استولت عليه الحيرة بفعل غيابها . ومعلوم ، والحال هذه ، أن وجوب انفصال الطفل عن هذا الموقف الانصهاري بأمه ، لينفذ إلى علاقة ثالوثية يتوسّط فيها دور الأب واللغة رغبته ويجعلانها مستقلة ، لا يكون إلا خلال عقدة أوديب [١٢] . ويعتقد عالم النفس ، على هذا النحو ، أنه ينفي حصره بفعل اتحاد انصهاري بالمؤسسة .
والحال أن الأم بالنسبة للطفل كالمؤسسة بالنسبة لعالم النفس ، فكما أن الأم بالنسبة للطفل مرحلة ضرورية ، ولكن الطفل ينبغي له أن يتجاوزها تحت طائلة الضياع لينفتح على بعد آخر يسميه لاكان الرمزي ، كذلك الأمر ، بصورة مشخصة ، فيما يتعلق بالهوية التي يجدها عالم النفس في الاتحاد بالإدارة أو المؤسسة ، إنها ليست سوى هوية اجتماعية لا يمكنها إلا أن ترفع كل إمكان لديه لأن يبعث الكلام في ممارسته . وليس بوسعه ، بوصفه يستعيد قول الاجتماعي ولا يعيش إلا به ، أن يبعث لدى الشخص الذي يلاقيه أي كلام يقدم على وضعه موضع التساؤل .
وسيكون عمله محدّداً ، على نحو أساسي ، بضرب من فعل التكيّف مع واقع يمنحه شعوراً بالأمن . ينبغي له أن يعيد إلى المعيار كل كلام مفرّق أو محرّض .
وتاريخ التحليل النفسي يمكنه أن يخبرنا بدقة عن مصير علم النفس الذي يحتذي به .

٩ ـ اختيار عالم النفس واصطفاؤه وسواؤه

كانت حركة التحليل النفسي تواجه منذ نشأتها مشكلاً خطيراً ، مشكل تكوين المحلّلين النفسيين . وتكشف لنا المقاييس المستخدمة في الاختيار والاصطفاء عن الصورة التي يصنعها انصار « جمعيات التحليل النفسي » لأنفسهم عن ممارستهم . فعلى المحلّلين النفسيين أن يتابعوا ، قبل أن يمارسوا ، تحليلاً

(١٢) انظر فصلي «العودة إلى فرويد» و«اللاشعور والبنيات الأسرية» في هذا الكتاب .

نفسياً الى جانب محلّل نفسي آخر . ولكن كيف نتصور مثل هذا التحليل النفسي المسمى التحليل النفسي التعليمي ؟ إن أهميته معلومة ، ذلك أن المحلّل النفسي ذا اللقب ينقل من خلاله ، الى من يحلّله ، تصوراً معيّناً للانسان وللتحليل النفسي . وماذا يجب أن يحدث لمن يحلّل نفسه ؟ وعلى المرء أن يلاحظ أن هذا الاصطفاء لم يكن موجوداً في عصر فرويد . وهو يتمّ في الولايات المتحدة الأمريكية ، من الآن فصاعداً ، بالاعتماد على مقاييس ككتب التوصية والروائز أو المقابلات . والواقع أن التحليل النفسي لا يخضع ، في اختيار المرشحين ، إلى مقاييس علمية بصورة دقيقة ، ويبحث عن مرشحين « يسمون أسوياء » . ولهذا السبب ، لن يتيح التحليل النفسي التعليمي لـ « المرشح » أن يضع وجوده موضع التساؤل ، ولا أناه الشخصية ، ولا رغبته واستيهاماته ، بل سيكمن في سعي المرشح إلى أن يقدّم شخصية تتملّق شخصية المحلّل . فعليه أن لا يبدو مغالياً في العصبية ، وأن يكون ذا « أنا قوية » ، الخ . وعليه أيضاً أن يتكيّف مع معايير من بيده السلطة . إنهم يحلّون ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، محل التحليل النفسي ، بوصفه البحث الذي يقوم به موجود حول ذاته ، وبوصفه وضع حقيقة هذا الموجود موضع التساؤل وانبعاث هذه الحقيقة ، وبوصفه مسعى أصيلاً ومخلصاً ، ضرباً من التحليل النفسي الذي يكتفي بالراقات السطحية من الشخصية ، ذلك التحليل النفسي الخاص بالأنا بوصفها المرجع الذي يكيّف الفرد مع الواقعي (١٣) . وهكذا فإن التحليل النفسي لم يعد في الولايات المتحدة الأمريكية سوى مرحلة ضرورية صوب رتبة اجتماعية ، وصوب بلوغ أفضل مكان في المؤسسة الراعية ، وصوب تتويج مهنة الطب . ويجد التحليل النفسي نفسه وقد أُعيد الى الصواب على مستوى السير الوظائفي للنظام السياسي ، إنه ما يتيح للأفراد أن يتكيّفوا مع جميع أوساط الحياة التي يصادفها التحليل النفسي . و « التحليل النفسي ، في هذا الوضع إياه ، صائر إلى الزوال . إنه لا يدين ببقائه إلا لقاء ضرب من عدم الاندماج بالجهاز الاداري للدولة . إنه إذ يعيش على

(١٣) انظر فصل «العودة إلى فرويد» في هذا الكتاب .

هامش أي اعتراف ، وفي مكان يلعنه فيه الناس كالطاعون ، سيصل إلى أن يستعيد العنفوان الخاص ببداية العهد الفرويدي ، وإلى أن يفلت من العهد « الإياسي » (*) الذي يجرّونه فيه في أيامنا هذه » (١٤) . والمقصود على وجه الضبط ، بالفعل ، ضرب من الإياس (فقدان الرغبة) . فالتحليل النفسي كان قد خضع لتغيير في بنيته بفعل الإدارة القائمة . إنه يميل ميلاً متزايداً الى أن يفقد معناه الأصيل . ويحاول لاكان ومدرسته أن يرتبطا مجدّدا بالإلهام الفرويدي الذي أفسده التحليل النفسي الأمريكي السائد ، وذلك أمر لم يحدث دون طرد وانفعال . والتحليل النفسي الذي ينوي ، كفرويد ، أن يتيح للفرد أن يعرف من هو ، دون أن يحلّ محله جواب يسبّب له الضياع ، جواب تعطيه كاملاً ذهنية مجتمع من المجتمعات ، لا يمكنه إلا أن يلقى استهجان الغالبية العظمى من هذا المجتمع : إن هذا المحلل النفسي هامشي .

١٠ ـ مصير علم النفس

يحذو علم النفس حذو التحليل النفسي الأمريكي . إنه يضع نفسه في خدمة مؤسسات يساهم في دعمها . ويضع قواعد السواء وعدم السواء بالنسبة لمؤسسة معيّنة من المؤسسات ، ويصلح لتصنيف المعوّقين ولتقييمهم تقييماً كمياً (١٥) . وقلّما يتمتع عالم النفس ، في مؤسسات رسمية ، بإمكان استقبال الآباء والأطفال . فليس للآباء في حسبانها أي علاقة مع عالم النفس ، بل مع المساعدة الاجتماعية عند الاقتضاء . ويصدر الطبيب النفسي قراره وحده دون أن يأخذ بالحسبان رأي عالم النفس . فليس بوسع الطفل أو الأبوين ، على هذا النحو ، أن ينطقوا بأي كلام . وليس مطروحاً على بساط البحث سوى مسار مغفل يؤدي الى وضع في مؤسسة متخصّصة ، حيث أن الطفل سيجد الغفلية ذاتها مجدّداً وعالم النفس نفسه ، الخ . والبحث عن نظام أساسي لعالم النفس يعرّض

(*) الإياسي : نسبة إلى إياس ، أي سن اليأس لدى المرأة «م» .

(١٤) مودمانوني ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢١ .

(١٥) انظر فصل «علم الأمراض وعدم التكيف المدرسي» في هذا الكتاب .

إذن لخطر مفاده أن تُضفى الصفة الرسمية على اللقاء الخصب بين المؤسسة وعلم النفس المعياري الخصّاء . و « ثمة فئة من المعالجين النفسيين الداعمين تجري صناعتهم حالياً في بعض الكليات . ويتخرّجون منها ، على غرار علماء النفس في المصانع ، « معالجين » يدعمون السلطة القائمة . فمن الضروري إيجاد أطر طيّعة تتجنّب وضع البنيات الحالية لمؤسسات المتخلّفين عقلياً والذُهانيين موضع التساؤل » . ومن المعلوم أن الذين يحاولون أن يضعوا موضع التساؤل هذه المؤسسات ، التي تلغي كلام الطفل وتسبّب له الضياع ، هم ، بالإضافة الى ذلك ، ضحايا العقوبات والطرد . فلا يرغب علم النفس أن يجازف هذه المجازفة ، ويؤثر أن يكيّف إجماع الجماعة ، ويسوّيه ، ويحقّقه . ومن يشاء التعبير عن نفسه والتعبيرِ عن ضياعه سيكون مقتنعاً بنقص في تكيّفه مع الواقعي . ويمكننا القول إن عالم النفس هو الذي يحوز معنى الواقعي الى أعلى درجة . إنه يعلم من أي جهة تنفخ الريح ، ولا يشعر بالشجاعة أبداً في أن يواجهها . فالصعوبة في سوق العمل تبرّر التعرّض للشبهات . ونظام الاستخدام المؤقت ، الذي يدفع فيه لعالم النفس أجره بحسب ساعة العمل ، لا يسمح له ، في اعتقاده ، أن يضع موضع التساؤل نظاماً أساسياً سانحاً له من تلقاء نفسه ، أي نظام من يروز . وفي ضرب من وضع الضائع ـ المضيّع ، يعظ عالم النفس بخضوعه الخاص ، وبخضوع من يطلب الاستشارة أيضاً . ولم يعد بوسع المرء ، في هذه المرحلة ، أن يتكلم على التاريخ بل على المصير ، مصير ممارسته وتكوينه : « إن علماء النفس يعون الإشراط الذي يؤلّفون هم موضوعه وعياً تاماً ، والكارثة التي يكوّنها الطابع البالي ، طابع تكوينهم الجامعي (صورة موالية جداً ، حريصة على أن توقف كل ما يمكنه أن ينبعث على أنه حقيقة خاصة) . والمساعدون النادرون جداً في الكليات ، الذين يتميّزون بكفاية فعلية (كفاية تتجاوز بما لا يقاس كفاية أستاذ ذي كرسي) ، يرون أنفسهم موضع اتهام بالديماغوجية ، وهم يتعرّضون إلى خطر مفاده أن يجدوا أنفسهم وقد سُدّت سبل ترقيتهم » [١٦] .

---

(١٦) مودمانوني ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٧ .

وليس على القارىء أن يسيء الظن عندما نتكلم على الطابع البالي لتكوين علماء النفس ، فذلك لا يعني أن على الطالب في علم النفس أن يتلقّى تكويناً أكثر اتصافاً بأنه معاصر أيضاً ، يتعلّم فيه جميع التقنيات الحديثة . إن ضرباً من المزايدة التكنوقراطية ليس مطروحاً على بساط البحث ، بل من الضروري أن نتصرّف بحيث يكون بوسع الطالب في علم النفس أن يكون قادراً على أن يعقل ممارسته وأن يتأملها ، وبحيث يكون قادراً على الإصغاء للغير ، وعلى أن يتصرّف بحيث يحرِّر الكلام . فالمشكل بالتالي لا يكمن في اكتساب ممارسة تنضاف زيادة على تعليم نظري . إن تكوين عالم النفس ينبغي له أن يقود الى التساؤل عن واقع رغبته في أن يكون عالم نفس ، ورغبته في التحرّر والنضال ضد الضياع ، أياً كانت صورته ، ورغبته في أن يبلغ الغير حقيقته ، ورغبته في أن لا يصبح ما هو عليه الآن : تكنوقراطياً صغيراً .

ثبت بالمصطلحات الأساسية

أبله	Imbécile
إجل (وجع في العنق)	Troticolis
ارتقاء أو ترقية	Promotion
إسبات	Hibernation
استبانة	Questionnaire
استدماج	Introjection
استحالة إلى الضد	Tramsformation en Contraire
استقبالية	Prospective
استقصاء	Enquête
استكمال	Perfectionnement
استيهام	Fantasme
إسقاط	Projection
إشكالية	Problématique
اشتهاء	Envie
إضفاء الداخلية	Intériorisauon
إضفاء الموضوعية	Objectivation
إغماء تخشبي	Catatonie
اكتئاب اعتمادي	Dépression Anaclytique
أنا	Moi
أنا المتكلم أو الشخصي	Je
انشغال بالذات	Autisme
إنذار المرض	Pronostic

Amortissement	اهتلاك
Ménopause	إياس
Frigidité	برودة جنسية
Transfert	تحويل
Hiérarchie	تراتب
Rééducation	تربية معادة
Synchronique	تزامن
Diachronique	تزمّن
Diagnostique	تشخيص
Adaptation	تكيف أو تكييف
Formation	تكوين
Psychodrame	تمثيل نفسي
Osmose	تنافذ أو حلول
mbivalence	تناقض المشاعر أو ازدواجية
Socialisation	تنشئة اجتماعية أو إضفاء الصفة الاجتماعية
Identification	توحد أو تماثل
Homosexualité	جنسية مثلية
Quotion Intellectuel	حاصل الذكاء
Aphasie	حبسة
Angoisse	حصر
Hébéfrénie	خبل البلوغ
Castration	خصاء
Motivation	دافعية
Signifiant	دالّ
Souvenirécran	ذكرى حجاب
Psychose	ذهان

ذهاني أو مصاب بالذهان	Psychotique
ذهاني هذائي	Paranoîa
ذهنية	Mentalité
رائز	Test
رطانة	Jargon
رسم أولي	Ebauche
رُهاب	Phobie
رغبة	Désir
سُبات أنسوليني	Coma Insulinique
سَلَس البول	Enurésie
سواء	Normalité
سوداوية	Mélancolie
صورة جسمية	Schéma Corporel
صورة ذهنية مثالية	Imago
ضد الطب النفسي أو الطب النفسي المضاد	Antipsychanalyse
ضد التحليل النفسي أو التحليل النفسي المضاد	Antipsychiatrie
ضعف عقلي	Débilité
طب نفسي	Psychiatrie
عزل	Isolation
عشير	Horde
عصاب	Névrose
عصابي أو مصاب بالعصاب	Névrotigue
عقلنة	Rationalisation
علاج نفسي	Psychothérapie
علاقة بالموضوع	Relation Objectale
علم التربية	Pédagogie

Psychopharmacologie	علم العقاقير النفسية
Apracto Agnosie	حسي حركي
Hoquet	فُواق
SchizoPhrénie	فصام
Aptitude	قابلية
Prélogique	قبل المنطقي
Refoulement	كبت
Refoulement Contre Soi	كبت ضد الذات
Proprioceptifs	مستقبلات خاصة
Intéroceptifs	مستقبلات داخلية
Caractériel	مصاب باضطراب السلوك
Débile	مصاب بالضعف العقلي
Culturalisme	منحى ثقافي
Idiot	معتوه
être	موجود أو وجود
Existant	موجود أو متحقق
Attitude	موقف
égocentrisme	نزعة التمركز حول الذات أو التمحور حول الذات
Déplacement	نقل
Régression	نكوص
Hypnose	نوم مغناطيسي أو تنويم مغناطيسي
Typologie	نمذجة
Délire De Persécution	هذيان الاضطهاد
Hallucination	هلوسة
Ergonomie	هندسة بشرية
Phonéme	وحدة بشرية

وحدة لغوية	**Moneme**
وسواس	**Obsession**
وصف الأمراض	**Nosographie**
وهن نفسي	**Psychasténie**

الفهرس